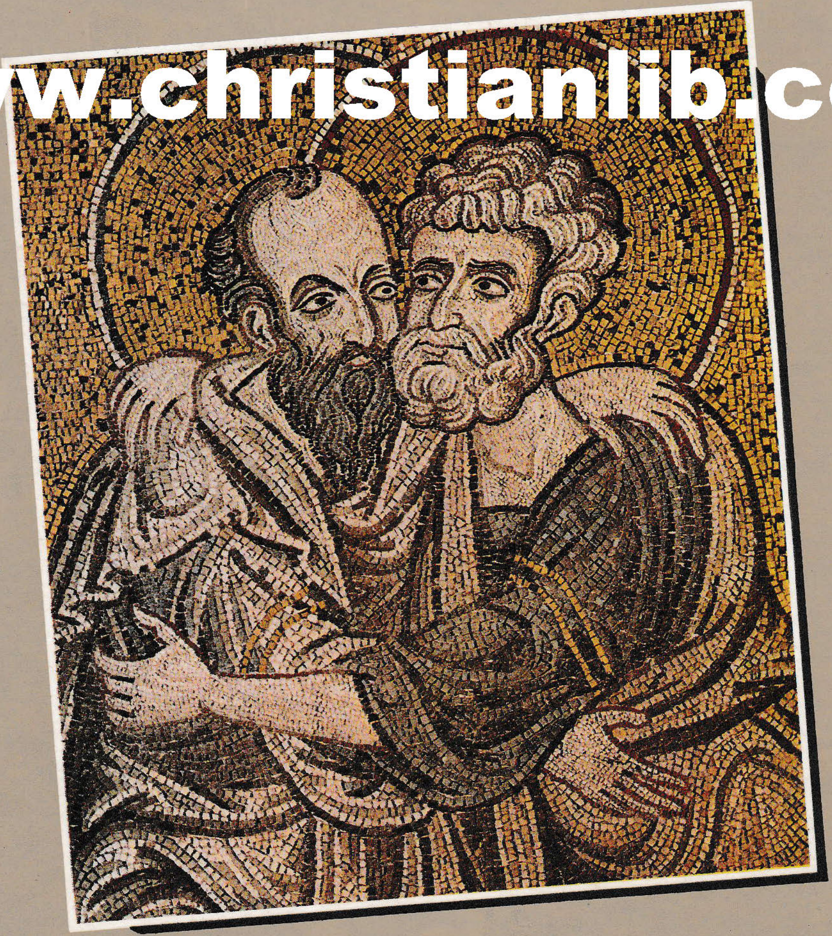
دليل إلى قراءة
تاريخ الكنيسة

بقلم
الأب جان كمبي



دار المشرق - بيروت

طُبع هذا الكتاب بمساهمة **الرابطة الكاثوليكيَّة لمساعدة الشرق الأدنى**

دليل إلى قراءة

تاريخ الكنيسة

دار المشرق – ص.ب. ٩٤٦، بيروت – لبنان

ISBN 2-7214-4752-1

التوزيع: **المكتبة الشرقيّة**
ص.ب. ١٩٨٦، بيروت

التصميم والإخراج: **جان قرطباوي**

صدر النصّ الفرنسيّ بعنوان:

Jean Comby
Pour lire l'histoire de l'Eglise
Editions du Cerf, Paris, 1986.

دليلٌ إلى قراءة تاريخ الكنيسة

بقلم
الأب جان كُمْبي

دار المشرق - بيروت

ساهم في إصدار
«دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة»

لجنة الإشراف :	**سيادة المطران يوسف ضرغام، المدير الفنّي** **نيافة الأنبا يوحنّا قلته، المستشار** **الأب فاضل سيداروس اليسوعيّ، الأمين التنفيذيّ**
المراجعة العامة:	**نيافة الأنبا مكاريوس توفيق**
لجنة التعريب والمراجعة:	**الأب أيوب زكي الفرنسسكانيّ** **الأب بولس جرس** **الأب صبحي حموي اليسوعيّ** **الأب فاضل سيداروس اليسوعيّ** **الأنبا مكاريوس توفيق** **الأب منصور مستريح الفرنسسكانيّ** **الأب وديع أبو الليف الفرنسسكانيّ** **الأنبا يوحنّا قلته** **المطران يوسف ضرغام**

فهرس المحتويات

مقدمة الترجمة العربيّة

كتابة التاريخ فن من فنون ثقافة الأمم وتراث الشعوب، والتاريخ نهر جارف لا يتوقف، يحفظ تطور الجماعات وسماتها، ويثري مسيرة الإنسانية في تقدّمها وفي بحثها الدائب عن الحياة الأفضل.

إن التاريخ ذاكرة الجماعة البشرية، تسجل حركة الإنسان وحركة الحياة. إنها حلقات مترابطة، فليس هناك حضارة نشأت من فراغ، وليس هناك أمّة لم تبنِ نهضتها، وقد أفادت من الأمم التي سبقتها أو التي عاصرتها. ذلك كله يؤكد أن الأُسرة البشرية مترابطة، متداخلة، يتبادل أعضاؤها برغم تنوّع الجغرافيا، وتنوّع الأجناس والثقافات، والعلوم والفنون والآداب، فليس أمام الفكر أو النور حواجز وسدود.

* * *

والكنيسة المسيحية، ليست جماعة منعزلة عن المجتمع البشري، بل إنها ملح الأرض ونور العالم. كما أراد لها مؤسّسها الإلهي، إنها الحركة الإلهية التي فجرّها تجسّد المسيح الكلمة، وتيار المحبة والتفاني الذي شقّه سرّ الفداء. إن رأس الكنيسة هو المسيح الإله الحي، الذي أخلى ذاته، وصار إنساناً سوياً، وأعضاء الكنيسة هم جميع البشر المدعووين إلى ملكوت. فكل إنسان يكتب، بحياة الإيمان والرجاء والمحبة، سطراً في تاريخ كنيسة المسيح.

* * *

ويتميز تاريخ الكنيسة لمن يتأمّله في عمق وموضوعية بأنه تاريخ حركة إلهية، أو مبادرة من المسيح مؤسّسها، وهو لم يزل الإله الحي، يقودها بروحه القدوس، ويعصم تعاليمها، ويغذّي كل أعضائها بالقداسة، ويجدّد دوماً في مسيرتها إرادة العطاء والنقاء. وبقدر اتّحاد الأعضاء بالمسيح الرأس، تسري في كيانهم مفاعيل النعمة والخلاص.

ذلك يعني أيضاً أن القوة الإلهية التي تحرّك الكنيسة تعمل بالإنسان وفي الإنسان ومن أجل الإنسان. ولذلك اتّسم تاريخ الكنيسة وتميّز بهذا السر العجيب الذي حفظها في خضمّ أمواج القرون، كما حفظ سفينة نوح من طوفان الغضب والإثم، لتظلّ الكنيسة ملكوت الله في الأرض. واتّسم أيضاً تاريخها بكل ما يحمل البشر من ضعف ونقص، وما اتّسمت به القرون المتعاقبة من صراع أو خلاف مذهبي وسياسي وعرقي. نظلم الكنيسة حين ندرس تاريخها في صفحاته الإلهية وحسب، دون النظر إلى السطور البشرية. فليست الكنيسة، برغم رأسها الإلهي، وسريان النعمة في كيانها، ليست إلاّ ثمرة فاعلية هذه النعمة في الحرية والإرادة الإنسانية. فقد تسمو النفوس إلى مصاف القدّيسين والشهداء والنسّاك والأبرار، وقد تزلّ النفوس كما يزلّ أي إنسان.

نعم، يصون الروح القدس إيمان الكنيسة وتعاليمها، فهي معصومة لا يدركها الباطل في إعلان عقيدة أو تحديد تعليم، ولكن الروح يحترم الإنسان في حياته. فليس من إنسان معصوم في ذاته أو في سلوكه، ولكن وعد المسيح هو أن يحفظ الكنيسة وديعة الإيمان والرجاء، ومنارة إلهية في كل تعليم يمس الأخلاق والمصير الأبدي.

لجنة التعريب

دليل إلى استعراض تاريخ الكنيسة

لفتت نظرنا أحيانًا كتابات على جوانب الطرقات: «يسوع يخلّص!» أو ملصقات تُعلن: «يسوع حيّ!».

«يسوع يحبّك!»

ولطالما بهرنا اقتحام الله أو المسيح لحياة إنسان اقتحامًا مفاجئًا: «الله موجود وقد التقيته». هذا عنوان كتاب نال بعض النجاح يوم ظهوره...

«يسوع المسيح في كلّ مكان، يُعطى للجميع»

لماذا نستطيع أن نتكلّم على يسوع اليوم؟ لأنّ اسمه انتقل إلينا عبر أجيال تعاقبت منذ عشرين قرنًا. وليس هذا الانتقال انتقال كتاب وُضع ثم طُبع، بل انتقال يتمّ في جماعة الذين سمعوا دعوة الله التي أعلنها يسوع، أي الكنيسة التي يقول فيها بوسييه (Bossuet): «هي يسوع في كلّ مكان، يُعطى للجميع». لذا فنحن لا نلتقي يسوع بتبنّينا صيغة إيمان تحدَّد منذ زمن بعيد، ولا بالعودة إلى عشرين جيلاً مضت. لكنّنا نلتقيه في حياتنا اليوم، كما كان في حياة مَن سبقونا. فنقل الإيمان يتمّ بواسطة أحداث وأشخاص، أكثر منه بواسطة تعابير وصيغ. لذلك فهذه الأحداث وهؤلاء الأشخاص يهمّوننا اليوم.

الإنجيل والثقافة

بعد عشرين قرنًا، نتساءل: أيّ يسوع التقينا؟ رسالة الإنجيل أُعلنت للمرّة الأولى في عهد الأمبراطور طيباريوس في مقاطعة نائية من الأمبراطوريّة الرومانية، فلسطين. يسوع وتلاميذه استعملوا تعابير الثقافة الكتابية. لكنّ الرسالة عمّت كلّ شواطئ المتوسّط، ثمّ العالم بأسره. وكان من الضروري التعبير عنها دائمًا بلغات جديدة، في ثقافات جديدة ووسط

فلسفات جديدة. الذين اقتبلوها كانوا مزارعين وسكّان مدن وبدو... هل بقيت الرسالة، وهي تنتقل من ثقافة إلى ثقافة، أمينة للإعلان الأوّل؟ ألم يلحق بها التشويش والتحريف، كما يدّعي بعض «التقليديّين» الذين يعتبرون التطوّر انحرافًا ويطالبون بأمانة للماضي يدعوها غيرهم تحجُّراً؟

عندما تعبّر الرسالة عن نفسها في ثقافة ما، ولزمن طويل، فما الذي ينقله المرسلون؟ هل الإنجيل وحده أم الرسالة مع كلّ مرتكزاتها الثقافيّة؟ «الحضارة المسيحيّة»، التي انتشرت في العالم قاطبة منذ القرن السادس عشر، قد هدمت أحياناً أو فكّكت هيكليّات الشعوب التي التقتها؟ وقد رُفضت هذه الرسالة المسيحيّة أحياناً واتُّهمت بأنّها طعنت بركائز هذه الحضارات أو تلك. نعرف جيداً أنّ افتتاح أميركا على يد الانسان والتبشير بالمسيحيّة في العالم الجديد تزامنا وانهيار الثقافات التي سبقت الفتح، ثقافات الأزتيك (Aztèques) والإنكا (Incas)... كما يُعتبر رفض اليابان والصين للمسيحيّة كإرادة دفاع في وجه عامل هدّام.

الإنجيل والمؤسَّسة

لن تتوقّف الصعوبات هنا. لا تقتصر الحياة المسيحيّة على الاستنارة الداخليّة الشخصيّة. فالشهادة هي الأولى، لكنّها تتطلّب بالضرورة تعليماً وتنظيم مؤسَّسة تستقبل الأفراد وتنقل الرسالة. والحال أنّ كلّ مؤسّسة تؤدّي إلى سلطة وكلّ السلطات تتشابه. والكنيسة التي تنقل المسيح، بواسطة الكلمة والأسرار، معرَّضة، ولا شك، إلى أن تتنظَّم كمؤسَّسة سياسيّة اجتماعيّة وأن تأخذ نماذج من المجتمعات القائمة حولها. فيتساءل بعض المسيحيّين: ألسنا بعيدين عن يسوع وإنجيله؟ ألا يجب على هذه الكنيسة أن تتطهّر؟ هكذا قامت عبر العصور حركات عودة إلى الإنجيل تسبَّبت أحياناً بانقسامات داخل الكنيسة. فالدو (Valdo)، أسقف ليون، وفرنسيس الأسيزي، في القرون الوسطى، انطلقا بادئ ذي بدء من هذا المنطلق. في القرن السادس عشر، حدث انشقاق التجديد الكبير: قام لوثر على رومة باسم الإنجيل وهكذا الكثيرون من بعده.

لماذا التاريخ؟

باستعراضنا القرون العشرين من حياة الكنيسة، سنحاول الإجابة عن كلّ هذه الأسئلة المطروحة حول الطريقة التي من خلالها وصل إلينا يسوع.

كثيراً ما كانوا يتكلّمون في الماضي على «أمثولة التاريخ». أمّا اليوم فنحن أكثر حذراً، إذ، باسم الحقوق التاريخيّة المزيّفة، برّر الناس جرائم كثيرة! فالتاريخ لا يعيد نفسه: «لا يستحمّ المرء في النهر مرَّتين». هذا ما كان يقوله فيلسوف قديم. لن نبحث في تاريخ الكنيسة عن وصفات قابلة التطبيق تلقائيّاً. لكنّ التاريخ هو، إلى حدّ ما، ذلك الكنز الذي

سيُخرج منه دوماً المتلمذ للملكوت «كل جديد وقديم».

عندما يكون لجماعة من الناس صديق مشترك، يجد فيه كلّ منهم أوجهاً مختلفة وفقاً لطباعهم. هكذا عاش المسيحيّون، عبر العصور، اختبارات عدّة مع المسيح. فتاريخ الكنيسة يجعلنا نشترك في هذه الاختبارات كما أنّه يوسّع اختبارنا المحدود دائماً. يجعلنا نكتشف ما تحمله المراحل المختلفة المتتابعة لحياتنا اليوم. وكل وارث يستحق الاحترام. لكنّنا في الوقت عينه نقبله مع الاحتفاظ بحقّ التثبُّت منه.

نكتشف، عبر التاريخ، كيف يحكم الإنجيل على سلوك المسيحيّين في الماضي واليوم. بإمكاني شرح ظهور محاكم التفتيش وأن أقول في الوقت عينه أن هذه المؤسّسة تناقض روح الإنجيل، وإن كنت لا أعلم كيف كنت تصرّفت في القرن الثالث عشر.

الكنيسة عجوز تجدّد شبابها

كَتَب هرماس في النصف الأوّل من القرن الثاني، وهو مهتمّ بقضايا كنيسة عصره، لا سيّما بالتوبة. يصوّر لنا، في رؤاه، ملاكاً يأخذ صورة راع شاب يجيب على أسئلته. شيخوخة الكنيسة تعني أولاً قدمها في فكر الله، ثم إنّ تراخي المسيحيّين وخطاياهم تسبَّبت في فقدان قواها وفرحها.

جاءت عجوز بثياب برّاقة تحمل في يدها كتاباً وجلست وحدها وحيّتني: «سلام يا هرماس». فأجبتها دامعاً: «سلام يا سيّدتي!»...

فسألتُ الشاب: «مَن هي هذه السيدة؟»

فأجاب: «هي الكنيسة». فتابعت: «لماذا هي عجوز إلى هذا الحدّ؟»... أجاب: «لأنّها خُلقت قبل كل شيء، لذلك هي عجوز. فالعالم خُلق لها»...

كنت رأيتها في الرؤيا الأولى مسنّة جداً وجالسة على كرسيّ مريح. في الرؤيا الثانية، كانت أنضر شباباً، في حين لم يزل جسمها وشعرها جسم عجوز وشعر عجوز. وكانت تكلّمني وهي منتصبة وأشدّ فرحاً من المرّة السابقة. في المرّة الثالثة، كانت في أوج شبابها، جميلة جداً. شعرها وحده كان لا يزال شعر عجوز. وكانت شديدة السرور، جالسة على مقعد بسيط...

قال لي الفتى: «لماذا بدت لك عجوزاً وجالسة في مقعد مريح، في الرؤيا الأولى؟ لأنّ روحك كانت قد شاخت وذبلت وفقدت قوّتها بسبب تراخيك وشكوكك...

في الرؤيا الثانية، رأيتها منتصبة، أنضر شباباً وأشدّ فرحاً من السابق، في حين ظلّ جسمها وشعرها جسم عجوز وشعر عجوز... فأشفق الربّ عليك وجدّد روحك وتخلّيت أنت عن تراخيك وعادت إليك قوّتك وقوي إيمانك...

في الرؤيا الثالثة، رأيتها أنضر شباباً وجميلة وفرحة وساحرة المنظر... فالذين يتوبون يتجدّدون تماماً ويترسّخ إيمانهم»...

(هرماس، الراعي ٢/٢، ١/٨، ١٨/٣-٤ و٢٠ و٢١)

لقد عبّرت مختلف العصور عن الرسالة المسيحية بلسانها. فعلينا نحن أن نجد لغة عصرنا. لغات قديمة اندمجت بقانون إيماننا. فهل يجب أن نترجم مرّة أخرى؟ ظروفنا اليوم جديدة كما بالنسبة إلى الماضي. فيتردّد هذا السؤال على شفاهنا: ما معنى أنّني مسيحي؟ لو عرفنا كيف كانوا مسيحيّين في القرون الأولى وفي القرون الوسطى وفي القرن التاسع عشر، لوجدنا الجواب ولو جزئياً. طوال هذه المسيرة، نقدّر تراثنا حقّ قدره ونتبيّن أحياناً أنّه محدود. ونجد الوسيلة لإبعاد الصفة المأساويّة عن بعض أزماتنا الراهنة. سوف نجد كنوزاً لم نكن نحلم بها قد تكفي لشحذ مخيّلتنا.

دليل إلى القراءة والبحث

تاريخ الكنيسة، تاريخ الناس

لا يمكن فصل تاريخ الكنيسة عن تاريخ الإنسانيّة العامّ. ولا بدّ أن نتذكّر هذا العالم حيث يعيش المسيحيّون ونتذكر الأحداث السياسيّة والاجتماعية والاقتصادية التي قرّرت مصير حياة الكنيسة. ومع ذلك، فلا يدّعي هذا الكتيّب أنّه تاريخ شامل. ذكرياتكم التاريخيّة، منذ الصفوف الابتدائيّة والثانويّة، ستساعدكم كثيراً. وكذلك ذكرياتكم الجغرافيّة. فمن المفيد أن نجعل هذا التاريخ مرئيًّا، وكذلك مراحل الانتشار المسيحي، وأن نتعرّف إلى مواقع المدن والمقاطعات والممالك... وأن نقدّر المسافات في أزمنة كانت المواصلات فيها بطيئة وخطرة.

آثار الماضي

يعيد التاريخ الحياة إلى الماضي انطلاقاً من الآثار التي تركها. بخصوص التاريخ الديني، قد تكون هذه الآثار أبنية، أجران معموديّة، كنائس، أعمال فنيّة، تماثيل، جدرانيّات، حفريّات أثريّة تخبّئ لنا مفاجآت جديدة. لا زلنا نستعمل الأبنية، والسياحة تعرّفنا بعدد كبير منها. فالكتب الفنيّة المصوَّرة والأبنية والأماكن الدينيّة لا يُحصيها عدّ.

الشهادات المكتوبة

بالرغم من علم الآثار والفنّ، تبقى المراجع الأولى للمؤرّخ المصادر المكتوبة، النصوص. ولا يكفي الرجوع إلى مجلّد واحد من النصوص التاريخيّة، مهما كبر حجمه. كما أنّ الوقت لا يسمح بالرجوع إلى كتابات كثيرة. لذلك فهذا الكتاب يولي أهمّية كبرى لنصوص الماضي كما لعرض الأحداث نفسها. ومن المستحيل ذكر كل النصوص التي تعرِّف بالحدث. لذا توقّفنا عند اختيار محدود قد يكون مختلفاً لدى سوانا من الكتّاب.

يإمكانك الرجوع إلى الصفحات ١١–١٥ من كتاب «دليل إلى قراءة الكتاب المقدّس» (دار المشرق)، إذ إنّ النص الكتابي هو نص تاريخي.

نذكرّكم هنا ببعض قواعد القراءة. لسنا بصدد بحث كامل حول الطريقة التاريخيّة ولا بصدد قواعد يجب اتّباعها بحذافيرها في درس كلّ نصّ.

جزء من كلّ

الرسالة والأثر المنقوش يؤلّفان كلاًّ متكاملاً. لكن النص المعروض للدرس مقتطف، على وجه العموم، من كتاب قد يطول أو يقصر. فهو لا يعكس بالضرورة كل فحوى الكتاب. فإذا كان لدينا المرجع، أمكننا العودة إلى الكتاب لكي نرى ما يسبق النصّ وما يلحقه. فلا تستسلموا إلى قراءة هوجاء. لكن لا تتردّدوا، إذا لزم الأمر، في مزيد من الحرّيّة.

الفهم

في قراءة أولى، نحاول فهم كلّ كلمة من النص. ثمّ علينا أن نكتشف كلّ الأشخاص والأماكن المذكورة. أنت، ولا شك، أمام ملاحظات خاصّة جداً، لكن يمكنك الاستعانة بالشروح.

غالباً ما تكون هذه النصوص مترجمة. تعلمون أنّ هناك عدّة ترجمات للكتاب المقدّس، وانه لا يمكن أن تقع فروقات مهمّة في الترجمات في الأمور الدقيقة. بخصوص التاريخ، لاختيار المترجم أهميّته. مثلاً، في العهد الجديد، كلمتا episcopos و presbyteros ترجمتا بـ épiscope و presbytre . وفي القرن الثالث ترجموهما باسقف وكاهن، إذ يعنيان تقريباً ما ندعوهما اليوم اسقفاً وكاهناً. وفي القرن الثاني، تردّد المترجم، لأن هاتين الوظيفتين تطوّرتا منذ العهد الجديد، لكنّهما لم تتجدّدا في ذلك الزمن كما ستتجدّدان لاحقاً.

الفنون الأدبيّة

من المهمّ أيضاً الأخذ بعين الاعتبار الفنّ الأدبي للنصّ... وهذا يتيح لنا فهم المعلومات التي يزوّدنا بها. تقرير الشرطة يختلف عن عظة دينيّة، ورسالة شخصيّة تختلف عن نصّ قانوني...

معلومات غير متوقّعة

لا يوفّر النصّ المعلومات التي يريدها الكاتب فحسب، فقد يأتينا أيضاً، بطريقة غير مباشرة، بمعلومات أخرى لا تقلّ عنها أهميّة ومصداقيّة. لما كتب بلينس (Pline) إلى طرايانس (Trajan)، كان همّه أوّلاً الحفاظ على النظام

وكسب عطف الأمبراطور. لكنّه أعطانا، بكتابته عن الجماعات المسيحيّة، في شمال آسية الصغرى، أقدم معلومات وصلت إلينا.

أين الحقيقة؟

يمكننا أن نتساءل، أمام كلّ نصّ: هل يقول لنا الكاتب الحقيقة؟ أليس على خطأ؟ هل ينوي تضليلنا؟ من الواضح، في غالب الأحيان، أنّنا لا نستطيع الإجابة بنعم أو لا، بهذه البساطة. فهناك عناصر كثيرة يجب أخذها بعين الاعتبار. نحن نعرف أحداث العصور القديمة من كتابات لمؤرِّخين لم يكونوا شهوداً لها. فكيف استعملوا مراجع لم تعد موجودة؟ الذين اضطهدوا المسيحيّين سوّدوا صفحات خصومهم. وفي سبيل الدفاع عن النفس، صوَّر المسيحيّون جماعتهم تصويراً رائعاً. وكاتب الذكريات يعيد قراءة الماضي فيختار ويحاول تبرير نفسه... والمؤرِّخ يحاول إثبات ما يظنّه مقبولاً للشهادة.

مقارنة الشهود

لكي نحصل على فكرة صحيحة حول حدث مهمّ، نقرأ عدّة صحف ذات أميال سياسيّة مختلفة، ونحاول تكوين رأينا الخاصّ. هذا ما نعمله في التاريخ، عندما نقارن بين عدّة شواهد. لكن، ولا سيّما في الحقبات القديمة جدًّا، قد لا نعرف الحدث إلاّ من مرجع واحد. فعلى المؤرّخ أن يوليه ثقته أولاً. وهذا ما يشرح تردّدنا أمام بعض قضايا العصور الأولى. ففي مراجعنا الكثير من الثغرات: المؤرّخون يعرضون افتراضات ويقومون بمقارنات وتعميمات، وأحياناً يُعملون مخيّلتهم. وغالباً ما يجب أن يُقرّوا بجهلهم. فلا عجب إذن ان نقدِّم، انطلاقاً من المراجع نفسها، تواريخ مختلفة. فمن المستحسن قراءة وصف آخر للحقبة التاريخية نفسها.

القبول بالتغريب

أخيراً فالأمور أقلّ تعقيداً ممّا تبدو عليه. فلنقبل بالتغريب عن يد شهود الماضي هؤلاء. لا نحاولنَّ شرح أقوالهم بمفاهيمنا نحن. فلنتعلّم ان ندهش ونتعجب! لا نبحثنَّ عن استعمال مباشر للمعطيات. فسيأتي وقت، حتماً، نتساءل فيه: كيف لا تزال الأحداث القديمة تعنينا نحن اليوم؟

قواعد حسن استعمال الكتاب

كلّ فصل مكوّن من نصف أوّل فيه عرض متتابع للأحداث والمؤسسات الخ... ومن نصف ثانٍ مؤلّف من وثائق هي المصادر لهذا التاريخ. وهذه الوثائق هي نصوص منتقاة من العصور المذكورة. هذه النصوص الوثائق مرتّبة ترتيباً مختلفاً. فهي موضوعة في مربّعات.

عرضنا سابقاً بعض وجوه الطريقة التاريخيّة. مهمّ جدًّا أن ننطلق من الرواية إلى

الوثيقة، والعكس صحيح لأنّ الاثنين تتداخلان .

باستطاعتك استعمال هذا الكتاب وحدك .
ولكن من المفيد استعماله في مجموعة. في

إطار ضيّق كهذا، قد تبدو بعض العروض سريعة جداً لبعضهم .

الفصل الأول

نشأة الكنيسة

أوّلاً – زمن الرسل

ابتدأت حياة الكنيسة في أورشليم حوالى السنة الثلاثين، يوم العنصرة. اثنا عشر رجلاً يحملون البشرى لمواطنيهم: إنّ يسوع الناصري، الذي أرسله الله والذي صُلب كلصّ، هو حيّ. لقد أقامه الله. وهو المسيح المخلّص الذي ينتظره شعب العهد القديم منذ أجيال.

يبدأ تاريخ الكنيسة إذن بالأحداث التي يرويها العهد الجديد: أعمال الرسل، رسائل بولس، رؤيا يوحنا. . . نحن نولي العهد الجديد مكانة مميّزة لأنّه الكلمة التي تبني الكنيسة. ولكن الوحي، كما قيل لنا مرّات، ينتهي بموت آخر الرسل، وقد نتعرّض إلى قطع الصلة بين ما يحتويه الكتاب المقدّس والأحداث اللاحقة. وهكذا يعقب تاريخ متقلّب الكلمة الأبديّة والنهائيّة والشاملة.

لا شك أنّ اختبار الاثني عشر اختبار فريد من نوعه. فهم شهود لحياة المسيح وقيامته. ولكن علينا أن نعتبر كتب العهد الجديد وثائق تاريخيّة أيضًا. «في ذلك الزمان». . . هذا ما كنّا نقول قبل البدء بقراءة الإنجيل في الليترجية. كنّا نرجع إلى زمن مميَّز، ولكن دون أيّ انقطاع. فنحن أمام زمن الكنيسة الذي نعيش فيه: نعيش في القرن العشرين من حياة الكنيسة.

(راجع دراسات كتابية رقم ٢١)

لا شكّ أنّكم درستم العهد الجديد ولا سيَّما أعمال الرسل. فليس أمامنا هنا سوى عرض الخطوط الكبرى للمراحل التاريخيّة والجغرافيّة، عبر تطوّر الكنيسة في القرن الأول. كتابات العهد الجديد هي مراجعنا الأساسيّة. لكن هناك تقاليد وصلت إلينا عن طرق أخرى، وقد جمع بعضها أوسابيوس القيصري. كما أنّ هناك كتابات تدّعي أنّها لأحد الرسل أو لأحد تلاميذ يسوع، لم تعترف بها الكنيسة ككتب موحاة، هي الكتب

المنحولة (حرفيًا: كتب سرّية، أي خفيّة المعنى. ثمّ عنت فيما بعد «غير قانونيّة»). فهي كثيراً ما تشبه القصة الخيالية، ترضي حشريّتنا، حيث لم تأتِ الكتب الموحاة بشيء: عائلة يسوع، طفولته، حياة الرسل الذين لا يذكرهم كتاب الأعمال الخ... قد تحتوي هذه الكتب على بعض عناصر تاريخيّة. على كلّ حال، إنّها تفيدنا عن الذهنيّة الدينيّة للجماعات التي رأت فيها النور. الكثير منها كان له أثره في التقوى والليترجية والفنّ والفولكلور...

١. يسوع مات وقام وبُشّر به بين اليهود

رسل ٢-٤

حوالى سنة الثلاثين، يوم العنصرة في أورشليم، أمام الحجّاج اليهود المجتمعين لمناسبة العيد، يعلن بطرس: «إنّ يسوع الناصري، ذاك الرجل الذي أيّده الله لديكم بما أجرى عن يده بينكم... قتلتموه، إذ علّقتموه على خشبة بأيدي الكافرين، قد أقامه الله... ونحن بأجمعنا شهود على ذلك. فلمّا رفعه الله بيمينه، نال من الآب الروح القدس الموعود به فأفاضه... قد جعله الله ربًا ومسيحًا (رسل ٢/٢٢...).

فقال السامعون: «ماذا نعمل؟» أجابهم بطرس:

«توبوا وليعتمد كلّ منكم باسم يسوع المسيح لغفران خطاياكم، فتنالوا موهبة الروح القدس».



العنصرة

فاعتمد ثلاثة آلاف نفس. هكذا وُلدت الكنيسة.

أعضاء الكنيسة الأولى هؤلاء كانوا يهوداً، مثل يسوع. وهم يتكلّمون الآرامية، اللغة الساميّة الأكثر استعمالاً في الشرق الأوسط. وظلّوا يعيشون عيشة اليهود الأتقياء، يصلّون في الهيكل، يخضعون لشريعة المآكل المحرمّة، يمارسون الختان، يبدون بدعة يهوديّة

جديدة بين بدع كثيرة كالفريسيّين والصدوقيين والغيورين. فهم «النصارى».

وما يميّزهم هو العماد باسم يسوع ومواظبتهم على سماع تعاليم الرسل وكسر الخبز (الافخارستيا) وتكوين جماعات أخوية (رسل ٢/٤١-٤٧ و٤/٣٢-٣٥).



استشهاد القدّيس إسطفانس

٢. الانفتاح الأوّل والانفصال الأوّل. رسالة الإنجيل لا تقتصر على أورشليم

رسل ٦-٩

إلى اليهود ذوي الثقافة الآراميّة انضمّ باكراً يهود ذوو ثقافة يونانية، هم الهلّينيّون. وبدأت المشادّات بين الجماعتين الثقافيَّتين. ففي حين كان الاثنا عشر مسؤولين عن الجماعات العبرية الأصل، كان سبعة رجال مكلّفين بمسؤوليّة الهلّينيّين (رسل ٦).

وهكذا انفتحت جماعة المؤمنين على يهود الشتات، أي العائشين خارج فلسطين.

إسطفانس، رئيس السبعة، أطلق اتّهمات ضدّ يهود أورشليم، ودان الطقوس والهيكل، لأن يسوع أُنكر وقُتل عن يد يهود أوراشليم. ومن جهة ثانية، بشّر يسوع بالعبادة بالروح والحقّ، لم ترتبط بمكان معيَّن. لم يكن إسطفانس قد بشّر بين الوثنيّين ولا عرض ديانة شاملة، لكنّه أعطى توجيهاً جديداً للجماعة. ففي نظره، ليس الإنجيل سوى الدين اليهودي وقد تطهّر. خطابه سبّب له الرجم كمجدِّف. فهو أوّل من اقتدى بيسوع في آلامه وموته (رسل٧).

فهرب الهلّينيّون المضطهَدون من أورشليم إلى السامرة وسواحل المتوسط وأنطاكية (رسل ٨ و١١/١٩)، وأصبحوا مرسلين لدى اليهود الساكنين هناك. وشاول (بولس)، الذي حضر رجم اسطفانس، كان من أقسى مضطهدي تلاميذ يسوع (رسل ٨/٢). لكن يسوع، على طريق دمشق، أدركه فأصبح أوّل مبشّر بالإنجيل.



اسوار القديس بولس في دمشق

٣. الانفتاح الثاني والانفصال الثاني: ليس على الإنسان أن يمرّ باليهوديّة ليصبح تلميذ يسوع

رسل ١٠-١١

فهم بطرس في رؤيا أن الإنجيل موجَّه إلى كلّ إنسان. رأى الروح يحلّ على قرنيليوس، قائد المئة، الذي لم يكن يهوديًّا. فقبله في الكنيسة بالعماد وسلَّم، مبدئيًّا، بأن المرور باليهوديّة ليس ضروريًّا لقبول الإيمان.

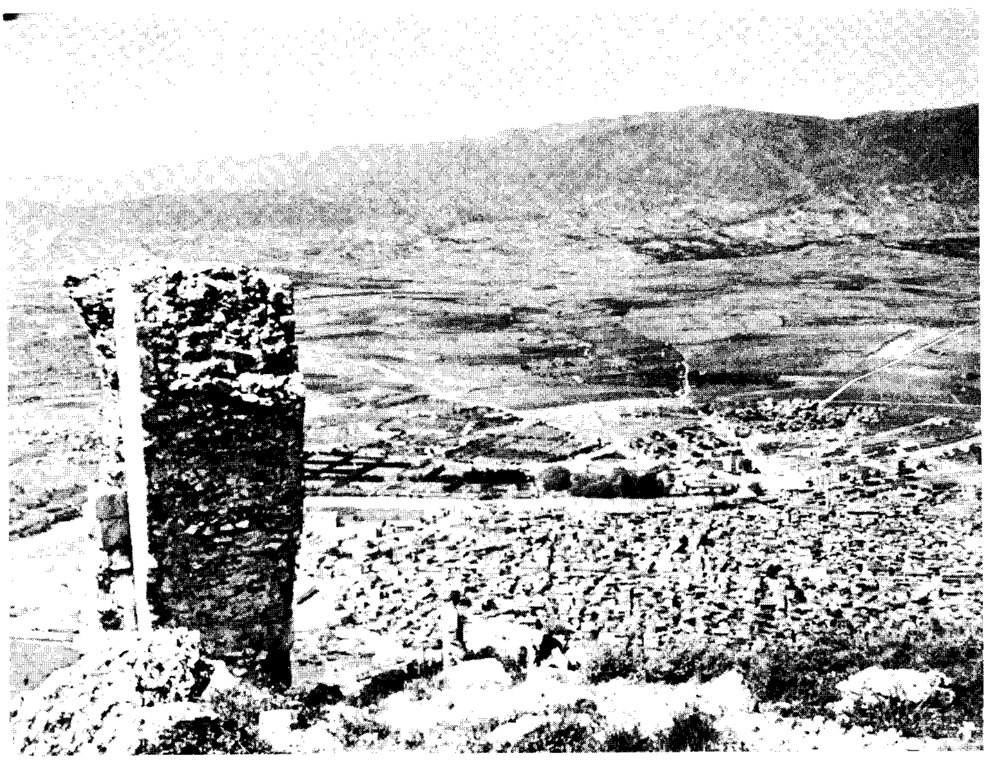
رسل ١٣-١٤

في أنطاكية، حيث لجأ عدد كبير من الهلّينيّين، لُقّب أتباع المسيح «مسيحيّين»: هذه هي العلامة التي يتميّزون بها، من الآن فصاعداً، عن سائر التجمّعات الدينيّة. وصارت انطاكية نقطة انطلاق لتبشير الامبراطوريّة الرومانيّة. **وفي رحلته الأولى**، حيث رافقه برنابا، كان بولس يتوجّه أوّلاً إلى اليهود في المجامع، ثمّ إلى الوثنيّين، من دون أن يفرض عليهم الممارسات اليهوديّة.

كانت جماعة أورشليم تظنّ أنّه يجب فرض الختان على المسيحيّين الجدد. وكان في انطاكية جماعتان:

جماعة المسيحيّين من أصل يهودي، المحافظين على الممارسات اليهوديّة وجماعة الهلّينيّين. فالمسيحيّون المتحدّرون من أصول مختلفة كان يصعب عليهم تناول الطعام معاً بسبب القوانين اليهوديّة المتعلّقة بالأطعمة: أكل لحم الخنزير محرّم، كذلك الدم وبعض طرق تهيئة الطعام الخ . . . فهل يستطيعون الاحتفال معًا بالافخارستيّا التي تتمّ عادة بعد وجبة الطعام؟ بطرس يتردّد. مبدئيًا، يقبل باستقبال الوثنيّين في الكنيسة من دون شرط. وفي الوقت عينه، يخاف يهود أورشليم. فلم يعد يجرؤ على تناول الطعام مع الهلّينيّين. فلامه بولس بعنف على هذا التصرّف (غل ٢).

إلى أن حُلَّت هذه المعضلة بتسوية غالبًا ما يسمّونها «مجمع» أورشليم: من جهة يعقوب، رئيس جماعة أورشليم، ومن جهة أخرى بولس وبرنابا العائدان من الرسالة. وبينهما بطرس ذو المساعي الحميدة. فقُبل موقف



انطاكية (منظر من جبل سِليبيوس)

بولس: الشرائع اليهوديّة لن تُفرض بعد اليوم. لكنّ يعقوب نجح بفرض بعض تنازلات على الهلّينيّين عند اختلاطهم بالمسيحيّين من أصل يهودي: عليهم ألاّ يأكلوا الدم... (رسل ١٥/٢٩).

هكذا لم يعد الإيمان المسيحي مرتبطًا باليهوديّة. لم يعد أحد مجبراً على الانتقال إلى ثقافة أخرى لكي يتّبع الإنجيل. فأصبحت الكنيسة فعلاً عالميّة. لا شكّ أنّ الاتجّاهين، اتجاه بولس واتجاه يعقوب، لم يبرحا الكنيسة. فبقي هناك صراع بين التأثيرين. لكنّ بولس ظلّ يجهد للحفاظ على الوحدة بين الفرقاء، فيجمع تبرعّات عبر الأمبراطوريّة لمسيحيّي أورشليم المتضايقين (١ قور ١٦/١-٣ و ٢ قور ٨-٩ وروم ١٥/٢٦-٢٨ وغل ٢/١٠ ورسل ٢٤/١٧).

٤. مع بولس تبدأ الكنيسة انتشارها الواسع

رسل ١٦-١٨

في رحلته الثانية، في آسيا الصغرى، رأى بولس رؤيا في طرواس: « أحد سكّان مقدونية واقف يطلب إليه: اعبر إلى مقدونية» (رسل ١٦/٩).

إنّها لمرحلة أساسيّة. دخل الإنجيل أوروبا حوالى سنة الخمسين وتأسّست جماعات فيلبّي وتسالونيقي وقورنتس... ودخل بولس مدينة الثقافة، أثينة، وحاول أن يبيّن أنّ هناك اتفاقًا بين الفلسفة اليونانيّة والإنجيل، وقد استشهد بأحد شعرائهم.

ولكنّه لم ينجح وطلبوا إليه أن يتوقّف عن الكلام: «سنستمع إليك مرّة ثانية...».

انتشار الرسل في العالم

يُقال إنّ مرقس أُرسل أوّلاً إلى مصر وبشّر هناك بالإنجيل الذي كتبه وأسّس كنائس أوّلاً في الإسكندريّة نفسها (اوسابيوس، التاريخ الكنسي II ١٦/١).

كان رسل المخلّص وتلاميذه القدّيسون قد انتشروا في كلّ المعمورة. وكان من نصيب توما بلاد الفرثيّين (Parthes) ومتّى الحبشة وبرتلماوس الهند الأولى) واندراوس بلاد الاسقيط (Scythie) ويوحنا آسية حيث عاش ومات في أفسس. ويبدو أنّ بطرس بشّر اليهود المشتّتين في البنط وغلاطية وبيتينية وقبّدوقية وآسية. وأخيراً أتى رومة حيث صُلب ورأسه إلى تحت بعد أن طلب أن يتألّم على هذا الشكل. وماذا نقول عن بولس الذي أوصل إنجيل المسيح، بدءاً من أورشليم، حتّى الإيليريكون وأخيراً استشهد في رومة على عهد نيرون؟ هذا ما يقوله حرفيًا اوريجانيس (Origène) في القسم الثالث من تفسير التكوين».

(أوسابيوس القيصري، التاريخ الكنسي III-١)

(رسل ١٧/١٦-٣٣). أمّا في قورنتس، فلم ييأس، في تبشيره، برضى سامعيه، بل راح يبشّر فقط «بيسوع المسيح وبه مصلوباً» (١ قور ٢/٢).

رسل ١٩-٢٠

وفي رحلة ثالثة، زار بولس جماعات آسية وأوروبا. لكنّ الصعوبات لم تتوقّف، وهو يلمّح إليها في رسائله. فقد لاقى عداوة اليهود الذين رفضوا تعليمه في شأن يسوع، وعداوة الوثنيّين الذين قوّض تجارتهم القائمة على مواسم الحج وعلى الهياكل (رسل ١٩) وداخل الجماعات، ولا سيّما في قورنتس، جاوزت الحماسة كلّ حدّ: ظهرت المواهب المختلفة وأهمّها التكلّم بألسن كثيرة وغير مفهومة (١ قور ١٣-١٤). وفي الوقت عينه النزاعات قائمة بين فئات متخاصمة (١ قور ٣/٣-٩): الأغنياء لا يشاركون الفقراء (١ قور ١١)، وبعضهم يسيء استعمال الحريّة المسيحيّة (١ قور ٥)...

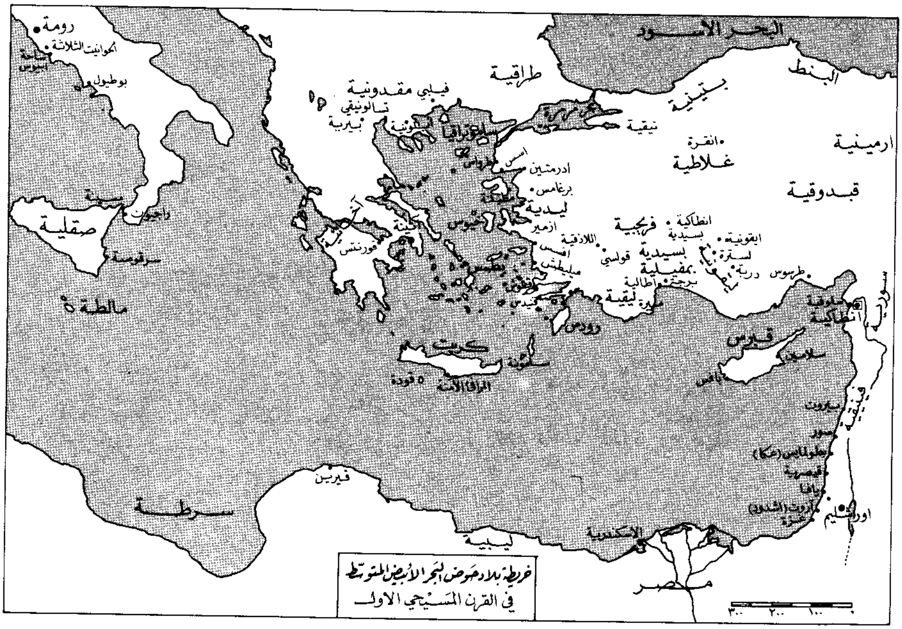
رسل ٢١-٢٨

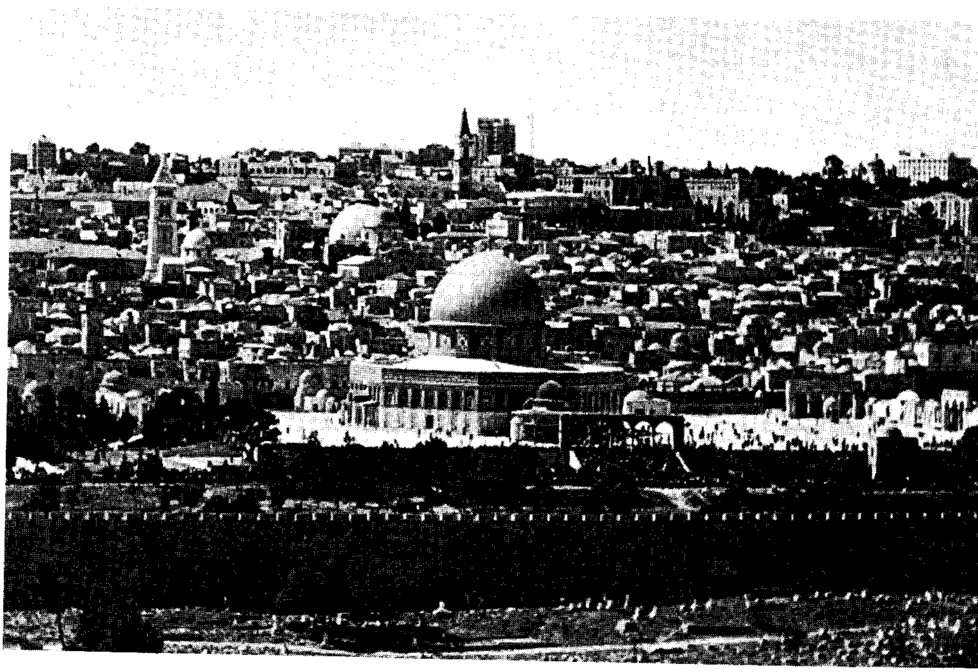
رحلة رابعة قادت بولس إلى رومة ولكن كأسير. وكان قد جاء إلى أورشليم ليلتقي يعقوب ويسلّمه مجموع التبرّعات. وقبل بالصعود إلى الهيكل لكي يظهر تعلّقه بالتقاليد اليهوديّة. فبدا هذا العمل تحدياً لليهود. فاتّهموه بالقيام بإحدى الفتن وأوقفوه. فأمضى سنتين أسيراً في قيصريّة، حيث أعلن أنّه مواطن روماني ورفع دعواه إلى الأمبراطور. فأرسله الحاكم إلى رومة أسيراً. وبعد سفر شاق، وصل إلى عاصمة الأمبراطوريّة، وطوال سنتين من الحريّة المراقَبة، توصّل إلى إعلان ملكوت الله وتعليم ما يختص بالربّ يسوع المسيح بكلّ ثقة وبدون صعوبة. ومنذ ذلك الحين، لم يعد كتاب أعمال الرسل يذكر شيئاً عن بولس، أي حوالى سنة ٦٣...

٥. رصيد القرن الأوّل
جماعات العهد الجديد وسواها

رسل ٢-٣

ان مقابلة المعلومات الصادرة عن العهد الجديد تسمح لنا بتحديد وضع الجماعات المسيحيّة، من أورشليم إلى رومة: الجماعات التي تأسّست في آسية الصغرى بدفع من كنيسة إنطاكية، والتي أسّسها بولس في اليونان، والتي يتكلّم عليها سفر الرؤيا المنبثقة من تبشير يوحنا، وكنيسة روما التي نجهل مؤسّسها. تفترض رسالة بولس إلى أهل رومة وجود جماعة مهمّة وقديمة في عاصمة الأمبراطوريّة. إذا كان مجيء بطرس إلى رومة من المعطيات التقليديّة، فالنصوص التي تتحدّث عن ذلك متأخرّة وغير ثابتة. ورحلة بولس إلى إسبانيا (روم ١٥/٢٤) ليست سوى افتراض.


البحر الأسود
البنط
بيثينية
ارمينية
نيقية
غلاطية
قبدوقية
طراقية
فيلبي
مقدونية
تسالونيكي
بيرية
رومة
بوطيولي
صقلية
ريجيون
سرقوسة
مالطة
كورنثس
ادرمتين
برغامس
ليدية
ازمير
افسس
ميليطس
فريجية
اللاذقية
كولسي
انطاكية بسيدية
بسيدية
ايقونية
لسترة
دربة
طرسوس
بمفيلية
ليقية
رودس
كريت
قبرص
سلاميس
سلوقية
انطاكية
بيروت
صور
قيصرية
يافا
اورشليم
غزة
الاسكندرية
مصر
ليبية
قيرين
خريطة بلاد حوض البحر الأبيض المتوسط
في القرن المسيحي الاول



اورشليم

بطرس وبولس في رومة

يجمع **التقليد** بين بطرس وبولس في كنيسة رومة. فهما عموداها ومؤسساها. ويقول إنّ رومة هي المكان الذي استشهدا فيه، وفيها نجد قبريهما. لكنّ النقد التاريخي يلاحظ أنّ الشهادات حول استشهادهما في رومة لا تعود إلاّ إلى سنوات القرن الثاني الأخيرة، وهو يطلب أن يبحث في نهاية الرسولين بدقّة أكثر.

ان دور البابا في الكنيسة الجامعة مرتكز على أنّ أسقف رومة هو خليفة بطرس. لكن البروتستانت، في أيّام التجديد، كانوا يقولون: الكتاب المقدّس لا يتكلّم مطلقًا على مجيء بطرس الى رومة، بل هناك كتاب منحول يتكلّم عن صلب بطرس.

لكن مؤرّخي عصرنا يظنّون أنّ وجود بطرس في رومة واستشهاده هناك يرتكزان عقليًّا على شبكة من القرائن: تحليل دقيق لبعض نصوص العهد الجديد، أقدم الكتابات المسيحيّة (اقليمنضس الروماني Clément)، ونصوص ليترجيّة، ونتيجة حفريّات أثريّة.

ومن الحجج الأكثر حسمًا التقارب بين القبر الموجود تحت كنيسة القدّيس بطرس ومجموعة شعارات انتصار غايس (Gaius)، التي يتكلّم عليها أوسابيوس. ويؤكد كتاب أعمال الرسل صراحة مجيء بولس إلى رومة (رسل ٢٨/١٦-٣١). لكنّ الشكّ يحوم حول سني بولس الأخيرة وظروف موته وتاريخ هذا الموت. كان بولس قد أعلن عن رغبته في زيارة إسبانيا بعد إقامته في رومة (روم ١٥/٢٤-٢٨). فافترضوا أنّه قام بهذه الزيارة سنة ٦٣ وبشّر في إسبانيا وعاد إلى آسية الصغرى واليونان، وكذلك كتابة الرسائل إلى طيموتاوس وطيطس، ثمّ أسره مرّة ثانية وإعدامه. ونرى تلميحًا إلى زيارة بولس لاسبانيا في قول إقليمنضس الروماني: إنّ بولس «وصل إلى تخوم الغرب». أمّا بعض المؤرّخين فيفسّرون سكوت نهاية كتاب أعمال الرسل اعترافًا ضمنيًا بموت بولس شهيدًا سنة ٦٣.

أوّل شهادة لقطع رأس بولس في رومة نجدها لدى طرطليانس الذي كتب في أواخر القرن الثاني. والحفريّات تحت كنيسة مار بولس خارج الأسوار تحملنا على الظنّ أنّهم وجدوا آثار شعارات انتصار طريق أوستيا (Ostia) التي يتكلّم عليها غايس.

نهاية الرسولين بطرس وبولس بحسب اقليمنضس اسقف رومة (حوالى سنة ٩٥)

ان **«رسالة كنيسة رومة إلى كنيسة قورنتس»** قد تكون أقدم نصّ من الأدب المسيحي بعد العهد الجديد. والتقليد يجمع على نسبتها إلى اقليمنضس رأس كنيسة رومة حوالى السنة ٩٥. يريد اقليمنضس أن يعيد

السلام إلى جماعة قورنتس، وقد كدّرته جماعة عملت على إقالة الكهنة. والسبب في ذلك، كما يقولون، هو الحسد الذي تسبّب في موت بطرس وبولس. وهذا التلميح غامض بالنسبة إلينا، لكنّه أقدم شهادة على موت الرسولين. يقول اقليمنضس:

«لندع جانباً الأمثلة القديمة ولنصل إلى الأبطال الحديثي العهد. ولنأخذ أمثلة السخاء المعاصرة. بسبب الحسد والغيرة، اضطُهد من كانوا الأعمدة الأكثر شموخاً واستقامة والذين جاهدوا حتّى الموت. فلننظر إلى رسولَينا الرائعَين: بطرس الذي، بسبب حسد الظالمين، احتمل، لا عذاباً أو عذابين فقط، بل عدّة عذابات، والذي، بعد أن أدّى شهادته، مضى إلى مقرّ المجد المحفوظ له.

وبسبب الحسد والمنازعات، أظهر بولس كيف تُحرز جائزة الصبر. فقد أُسر سبع مرّات ورُذل ورجم، وبشّر في الشرق والغرب ونال عن إيمانه مجداً رائعاً. بعد أن علّم العالم كلّه البرّ ووصل إلى تخوم الغرب وشهد أمام الحكّام، ترك العالم ومضى إلى المكان المقدّس كمثال سامٍ للصبر».

(اقليمنضس الروماني – رسالة الى أهل قورنتس / ٥)

ويقول أوسابيوس القيصري:

«يروى أنّه، في عهد نيرون، قُطع رأس بولس في رومة، وهناك أيضاً صلب بطرس. يؤكّد هذه الرواية اسما بطرس وبولس الملازمان مدافن هذه المدينة، إلى اليوم. هذا ما يؤكّده أحد رجال الإكليرس، ويدعى غايس، كان يعيش في عهد زافيران (Zéphyrin)، اسقف رومة (١٩٩–٢١٧) في ردّه المكتوب على بروكلس (Proclus)، رئيس بدعة الكاتافريجيين (Cataphrygiens). ويقول في شأن الأماكن التي وُضعت فيها رفات هذين الرسولين المقدّسة: «أمّا أنا فبوسعي أن ادلّ على شارات انتصار الرسولين. فلو ذهبت إلى الفاتيكان أو إلى طريق أوستيا، لوجدت شارات انتصار الرسولين اللذين أسّسا هذه الكنيسة».

(أوسابيوس القيصري، التاريخ الكنسي II, XXV، ٥–٧)

هناك مراجع أخرى تكمّل هذه المعلومات، ولكن بطريقة محدودة.

يتصوّر أوسابيوس أنّ الرسل اقتسموا مناطق التبشير في الأرض. فبلاد الفرثيّين، أي إيران والإسقيط، هي مناطق شمال البحر الأسود. وهناك كتابات منحولة تنقل معلومات يصعب التثبّت منها. فأعمال توما قصّة مغامرات قد تحتوي على بعض عناصر تاريخية حول التبشير في الشرق. لكن صعوبة العلاقات بين هذه البلدان، بسبب العداوة الدائمة بين أمبراطوريّة الفرثيّين (ثمّ الفرس) والأمبراطوريّة الرومانيّة، تفسّر في الوقت عينه ضعف هذا التبشير وقصر معلوماتنا.

حدثان حاسمان

١) ان **اضطهادات نيرون سنة ٦٤**، كما يقول التقليد، قضت على حياة الرسولين بطرس وبولس. لكن المؤرّخين يتردّدون حول

تحديد التاريخ: ربّما مات بطرس سنة ٦٤ وبولس سنة ٦٣، أو، كما يقول بعضهم، ٦٧.

٢) **خراب أورشليم سنة ٧٠** يسجّل شرخاً في حياة الكنيسة الناشئة. ثار اليهود على الرومان



القدّيسان بطرس وبولس يتعانقان

ومرادهم ان يُقيموا دولة مستقلّة تعبد الله بحسب شريعة الأجداد. فاشتعلت حرب ضروس تسبّبت في خراب المدينة والهيكل. وفي ابتداء الثورة، هجرت الجماعة المسيحيّة أورشليم ولجأت إلى شرق الأردن. قضى دمار الهيكل على آخر علاقة للمسيحيّين باليهود. فقد بيّن الله بذلك أنّ الشريعة القديمة قد انتهت. وهذا الحدث أكّد شموليّة الإنجيل.

ففي غياب الهيكل، راحت اليهودية تتنظّم في يمنيا (Jamnia) (جنوب تل أبيب) وتشدّد على عدائها للمسيحيّين. ومن الذين حافظوا على الممارسات اليهودية لم يبق سوى جماعات صغيرة لم تلبث أن امتزجت بالبدع (راجع الدليل الى قراءة الكتاب المقدّس ص ٣١)

صياغة الكتب المقدّسة المسيحيّة

وخلال هذه الحقبة الغامضة من السنين الأخيرة للقرن الأول، بدأ تجميع الكتابات المسيحيّة شيئًا فشيئًا؛ وهذه ما نسميّها اليوم «العهد الجديد».

جُمعت رسائل بولس، والأناجيل أخذت صيغتها النهائيّة. لكنّ اتفاق الجماعات على الكتب التي يعتبرونها قاعدةً لإيمانهم ما زال يتطلّب وقتاً طويلاً.

وفي نهاية القرن الأوّل، كانت المسيحيّة قد قرّرت الانتشار غربًا، مستعملة الهيكليّات التي تجدها في الأمبراطوريّة الرومانيّة.

ثانيًا – الأمبراطوريّة الرومانيّة

١. الأمبراطوريّة الرومانيّة تمهيد للإنجيل

كتب مليتون (Meliton)، أسقف سرديس (Sardes) في آسية الصغرى في القرن الثاني، رسالة إلى الأمبراطور مرقس آوريليوس المعروف بالفيلسوف، أي الحكيم، مدافعاً عن المسيحيّين المضطهدين. وعرض عقيدتهم كحكمة في الحياة، «كفلسفة»، مبيّنًا أنّ هناك توافقاً، بتدبير من الله، بين بدء الأمبراطوريّة وظهور المسيحيّة: وُلد يسوع في عهد اوغسطس قيصر وبشرّ في عهد طيباريوس. فالكنيسة والأمبراطوريّة تلتقيان في سبيل غنى متبادل. ويعود غالبًا موضوع «الأمبراطورية الى الظهور كإطار دبّره الله لبشارة الإنجيل».

نحن اليوم أقلّ وعياً لقراءة التاريخ هذه، مع أنّ المسيحيّة ليست عقيدة خارج الزمن. فبعد أن أخذت ما أخذت من العالم الساميّ، الكتابيّ، ها هي تتأمّل بعمق في العالم الروماني الذي أصبح أوّل حقل للتبشير منذ أن سمع بولس نداء الرجل المقدوني (رسل ١٦/٩). فبلاد فارس والهند بُشّرت باكرًا. ولكنّ الحاجز السياسي والعسكري الذي أقامته الأمبراطوريّة

الفارسيّة كان عائقاً في وجه هذا التبشير. وعلى العكس، ففي الغرب، كانت الأمبراطوريّة الرومانيّة قد وحّدت بين بلدان الحوض المتوسّط. فلم يكن نقل الأشخاص والبضائع والأفكار ليجد أيّ عائق.

فلم يستعمل المبشّرون بالإنجيل الإمكانيّات الجغرافيّة والماديّة التي أتاحتها الأمبراطوريّة فحسب، بل وسائل التعبير أيضاً وطرق التفكير التي ما زالت إلى اليوم تؤثّر في المسيحيّة.

وهذا ما سيثير بعض المشاكل عند إعلان المسيحيّة المتوسطيّة في سائر أقطار العالم، منذ نهاية القرن الخامس عشر، ابّان الاكتشافات الكبرى.

نبذة عن تاريخ رومة

تأسّست رومة، المدينة الإيطالية، سنة ٧٥٣ ق.م. وأخضعت كلّ بلدان الحوض المتوسّط في القرن الأوّل قبل المسيح. فاحتلّ بمبيّوس (Pompée) أورشليم سنة ٦٣؛ وأنهى يوليوس قيصر احتلاله لغاليا حوالى سنة ٥٠؛ وضمّ أقتافيوس قيصر مصر إلى الأمبراطوريّة سنة ٣٠. ولم تكن الجمهوريّة الرومانيّة بادئ ذي بدء سوى دويلة، ولم تكن قوانينها صالحة لإدارة هذه الأراضي الواسعة. فلمّا أصبح أقتافيوس قيصراً، أقام نظاماً جديداً لم يبح به لأحد. إنّها الأمبراطوريّة التي وُلدت سنة ٢٧ ق.م. وعلى رأسها المواطن الأوّل (الأمير princeps) الذي يحفظ وينقل ألقاب الأمبراطور (كلمة أمبراطور تعني قائد منتصر). يليه القيصر (أبوه بالتبنّي). انتهت الحرب الأهليّة وبدأ عهد «السلام الروماني». وكثيراً ما راق لبعضهم التغنّي بأنّ يسوع وُلد يوم كان السلام يعمّ العالم. منذ ذلك الوقت، أصبحت بلدان حوض المتوسّط تؤلّف كياناً سياسياً وإدارياً موحَّداً. لو ذهبنا اليوم من باريس إلى أورشليم في طريق البرّ، لوجب علينا أن نمرّ بستّ دول، وغالباً بمشقّة. في القرن الأوّل، كان المسافر يبقى في دولة واحدة. وكانت الأمبراطوريّة تُقسم إلى ولايات يعيّن الأمبراطور أو مجلس الشيوخ في رومة ولاتها. هؤلاء هم الولاة والمفوّضون والحكّام. أمّا في المقاطعات البعيدة، فبقي بعض الملوك يتمتّعون بسلطات محدودة. وإذا ما أظهروا نزعة إلى الاستقلال، كانت رومة تعيّن مكانهم موظفاً في خدمة الأمبراطور. عن كلّ هذه الأمور يتكلّم العهد الجديد (لو ٣/١-٣ ورسل ١٣/٦-٧ و١٨/١٢ و٢٣/٢٦ و٢٤/٢٧...)...

وكانت الحاميات العسكريّة موزّعة في كلّ مكان للحفاظ على السلام الروماني، في حين كانت القوانين تساهم في خلق وحدة تشريعيّة. ولم يكن تعاقب الأباطرة يجري من دون مشاكل، إذ لم يكن هناك قواعد ثابتة. وإن لم نقبل قبولاً مطلقاً بكلّ أقاويل المؤرّخين، فلا شكّ أنّه يوجد بين خلفاء أوغسطس عدد من المنحرفين، أمثال كاليغولا ونيرون، في

حين كان فسبازيانس وطيطس من خيرة الأباطرة. أمَّا سلالة الأنطونيّين في القرن الثاني (من طرايانس إلى مرقس أوريليوس) فقد أوصلت الأمبراطوريّة إلى أوجها.

مدن الأمبراطوريّة

يجب ألاّ نتصوّر الأمبراطوريّة دولة مركزيّة في كلّ مجال. فالوحدة الأساسيّة في بلدان حوض المتوسّط تبقى المدينة. لا شكّ أنّ عهد المدن اليونانيّة في آسية الصغرى أو في صقِلّية (Sicile) قد ولّى وقد فقدت المدن استقلالها منذ زمن بعيد، بسبب قيام أمبراطوريّة الإسكندر وخلفائه، وقيام الأمبراطوريّة الرومانيّة. لكنّ المدن تحتفظ بالكثير من استقلاليّتها، في ما يتعلّق بإدارتها الداخليّة. ولم تكن حدودها الأراضي القائمة هي عليها، بل كانت تشمل الريف المحيط بها. فالكنيسة هي أوّلاً الجماعة المحليّة «كنيسة الله التي في قورنتس» (١ قور ٢/١). «من بولس وسلوانس وطيموتاوس إلى كنيسة أهل تسالونيقي» (١ تس ١/١).

الأمبراطوريّة الرومانيّة تمهيد للإنجيل

«ما أجمل أن نرى بعين الإيمان داريوس (Darius) وقورش (Cyrus)، الإسكندر والرومان، بمبيوس وهيرودس، يعملون، بغير علم منهم، لمجد الإنجيل».

(بسكال، خواطر ١-٧)

«أقدام قيصر مشت إكراماً له،
من عمق أعماق غاليا إلى شواطئ ممفيس.
كلّ إنسان وصل إلى أقدام الابن الإلهي.
فقد جاء كاللصّ ليلاً...
لقد ورث من الفلاسفة الرواقيّين وهو مدعوّ الى أن يرث من الوارث الروماني.
هو مدعوّ إلى أن يرث غار الأبطال.
هو مدعوّ إلى أن يرث من كلّ الجهد الإنساني.
هو مدعوّ إلى أن يرث من عالم قد اكتمل، ومع ذلك سيعيد بناءه...
هو مدعوّ إلى أن يرث من عالم قد اكتمل ومع ذلك سيعيد بناءه وهو ما زال فتى»

(شارل بيغي (Péguy)، حواء)

مواصلات محكمة التنظيم

رسل ٢٧-٢٨

كانت الأشخاص والبضائع تُنقل من أقاصي الأمبراطوريّة إلى أقاصيها برًّا وبحراً. وكانت هذه الطرقات أيضاً طرقات العقائد والانجيل. ويبدو أنّ التاجر السوري الذي وُجدت كتابة على قبره في مدينة ليون كان تاجراً ومبشّراً في الوقت عينه. وكانت رحلات بولس تتمّ تارةً برًّا وطوراً بحراً. فالفصلان ٢٧ و٢٨ من كتاب أعمال الرسل هما من أجمل صفحات تاريخ الرحلات البحريّة في القرون القديمة. وكانت لظروف السفر مكان واسع في المصائب والعقبات التي رافقت رسالة بولس:

«انكسرت بي السفينة ثلاث مرّات، قضيت ليلة ونهاراً في عرض البحر. أسفار متعدّدة. أخطار من الأنهار، أخطار من اللصوص، أخطار من بني قومي أخطار من الوثنيّين، أخطار في المدينة، أخطار في البريّة، أخطار في البحر، أخطار من الإخوة الكذّابين، جدّ وكدّ، سهر كثير، جوع وعطش، صوم كثير، برد وعري... (٢ قور ١١/٢٥-٢٧).

نفهم من ذلك أنّ الإنجيل إنّما بُشّر به أوّلاً في الموانئ البحريّة، ثمّ على طول محاور الطرق



طريق روماني

والوديان. ففي غاليا، كان السفر بحراً ينتهي عند مدينة آرْل (Arles) حيث يصبح السفر في النهر صعوداً في نهري الرون (Rhône) والسون (Saône)، ومن هناك يصلون إلى جرمانيا. وكان الناس يسافرون لأعمالهم ولدروسهم (كانوا يذهبون إلى أثينة طلباً للفلسفة وإلى برغامس طلباً للطبّ الخ...) وللسياحة (عجائب الدنيا السبع). وكان على الموظّفين والجنود الوصول إلى مراكز عملهم. وكان العبيد يُرسَلون قوافل بعيداً عن مسقط رأسهم. وكان بوسع المبشّرين عرض رسالتهم حيث يضطرّون إلى التوقّف.

(رسل **١٣/١٣ و١/١٤ و١٥ و٢١ و١/١٧ و١٧/٢٨**...)

الأسفار الطويلة والمتقلّبة تفسّر أسباب أهميّة الضيافة التي يوحي بها العهد الجديد والحقبة اللاحقة. وكان بوسع كلّ واحد أن يجد مواطنين له مجتمعين في أحد أحياء المدن الكبرى كالإسكندريّة وأنطاكية ولا سيّما رومة، كما يجتمع اليوم سكّان اوڤيرنيا (Auvergne) وبريطانيا أو المغاربة في باريس أو الإيطاليون أو الصينيّون في المدن الأميركيّة. وكان اليهود قد انتشروا في الامبراطوريّة كلّها. وكان التبشير بالمسيحيّة يبدأ غالباً في المجمع المحلّي... لكنّ أحد أقدم الكتب المسيحيّة، الذيذاخة (Didaché) (تعليم الرب)، كان يطلب التحرّز من الطفيليّين وإن ادّعوا أنّهم مسيحيّون: «استقبلوا كلّ مبشّر كأنّه الربّ، ولكن ليمكث عندكم يوماً واحداً أو يومين إذا اقتضى الأمر. فإذا بقي ثلاثة أيّام، فهو نبيّ كاذب» (١١/٤-٥).

وكانت خدمة البريد من اختصاصات الإدارة، فكانوا يسلّمون الرسائل إلى المسافرين. وكانت الرسالة تظلّ خمسين يوماً لكي تصل من ليون إلى أفسس.

الوحدة الثقافيّة

الأمبراطوريّة تجمّع عدّة شعوب تحافظ على عاداتها ولغاتها وثقافاتها. وكان مسيحيّو فلسطين الأوائل يتكلّمون الأراميّة، لغة يسوع. وكان غيرهم يستعمل لغات ساميّة قريبة منها كالسريانيّة. وفي غاليا لهجات قِلْطيّة (Celtes) وفي افريقيا لهجات بربريّة. ولكن في مجمل الأمبراطوريّة لغتان فرضتا وجودهما.

اليونانيّة: وقد كانت في الأصل لغة بعض المدن، فأصبحت، بعد فتوحات الإسكندر (٣٥٦-٣٢٣)، لغة كلّ الشرق المعتَمدة. وكانت هذه اليونانيّة، التي حلّت محلّ عدّة لهجات، تدعى «الشائعة». ولم تكن لغة الثقافة فحسب، بل لغة التجّار الدوليّة أيضاً. وقد انتشرت في رومة ومدن الغرب. فالكتابات اليونانيّة في مدينة ليون كثيرة، وهي كالإنكليزيّة اليوم. لذلك فاليونانيّة هي لغة الكنيسة الأولى. والمسيحيّون يستعملون الترجمة اليونانية للكتاب المقدّس المعروفة

بالسبعينيّة. والعهد الجديد كُتب باليونانيّة وكذلك الكتب المسيحيّة والنصوص الليترجية، حتّى القرن الثالث في رومة.

اللاتينيّة: هي لغة رومة، ثمّ لغة الغرب. كانت في البدء أقلّ انتشاراً من اليونانيّة. لكنها بقيت لغة الإدارة والحقوق في الأمبراطوريّة كلّها. واستُعملت في الكنيسة كلغة عاديّة في افريقيا أوّلاً منذ نهاية القرن الثاني، ثمّ في رومة، ومن ثمّ في كلّ الغرب المسيحي في القرن الثالث.

رسل ٤-٦

بمقدار ما استعمل المسيحيّون هاتين اللغتين، دخلت في الكنيسة أساليب تفكير. فالفلسفة اليونانيّة استُعملت كتهيئة لعلم اللاهوت، في البدء. أمّا اللغة اللاتينيّة، فقد استُعملت في الحقوق الرومانيّة لخلق إطار قانوني للجماعات الغربيّة. وعند تحديد المجال الحيوي لكلّ من اليونانيّة واللاتينيّة في القرن الرابع، تطوّرت في الكنيسة كلّ من الثقافتين في ناحية مختلفة، حتى وصلا إلى الانفصال.

٢. قلق ديني ساعد على قبول الإنجيل

صادف التبشير المسيحي في الأمبراطوريّة مذاهب دينيّة شديدة التباين. وكان من شأن هذه المذاهب ان تناهض رسالة الإنجيل كما كان من شأنها ان تكون مراحل انتظار للوحي المسيحي. ويمكن، تبسيطاً للأمور، ان نجمع هذه الحياة الدينيّة تحت ثلاثة عناوين:

الديانات التقليدية

نستطيع التمييز بين ديانة الريف وديانة المدينة. ظلّت ديانة الريف راسخة. والمقصود هو العبادات «الطبيعيّة» التي تكرّم قوى الطبيعة وأسرارها، تلك القوى التي تعطي الخصب للطبيعة والأرض والحيوان. إنّها آلهة تحفظ المزروعات والقطعان والينابيع. وحين اهتدت الأرياف إلى المسيحيّة (القرن الخامس) دخلت بعض عناصر هذه الديانات القديمة في المسيحيّة وغذّت الفولكلور.

رسل ١٤/١٢-١٣ و١٩/٢٣-٤٠

وكان لكلّ مدينة آلهتها، كالمدن اليونانيّة والرومانيّة وغيرها. وعند الفتوحات تبنّوا آلهة اليونان وروما في كلّ مكان وبمقدار معيّن، كما أنهم خلقوا معادلات: زوش - جوبيتر (Zeus-Jupiter)، هرمس - مركور (Hermès-Mercure)، بوزايدون - نبتون (Poseidon - Neptune)... وما إن فقدت هذه المدن استقلالها حتّى راحت هذه الأديان تتوارى. وغالباً ما كانت تتقيّد بالمظاهر – أعطيك فتعطيني– ولم تعد ترضي العقول المستنيرة ولا الاحتياجات الدينيّة الحقيقيّة. ومع أنّ القلب لم يعد مطمئناً لهذه الديانات، فقد بقي بعضهم أميناً لها، لأنّها تمثّل العادات المتوارثة عن الأجداد. وقد حاول أوغسطس أن يردّ اليها الحياة، إذ كان يرى فيها وسيلة للوحدة الاجتماعيّة. فالاشتراك بمراسيم العبادة في

المدينة عمل وطني، وإن كان الإنسان يعيش حيالها حالة شكّ تامّ.

عبادة الأمبراطور

أتت هذه العبادة من الشرق حيث نمّاها الملوك الهلّينيّون، خلفاء الإسكندر. لكنّها ظهرت في الغرب كحركة جديدة، حين حاول الأباطرة الرومان تعميمها في سائر أنحاء الأمبراطوريّة. هي ديانة في خدمة السياسة، شبيهة، إلى حدّ ما، بما رأيناه في عصرنا في ما يختص بستالين وماوتسي تونغ وغيرهما. لكنّ الأمبراطور كانت تنقصه الوسائل الدكتاتوريّة التي نراها اليوم. وإذا أظهر بعضهم «داء العظمة»، فالكثير منهم كانوا معتدلين. وفي الولايات الشرقيّة، كان الأمبراطور مؤلّهًا في حياته؛ وفي رومة كان يؤلّه بعد موته فقط.

تاجر ومبشّر

إن شئت أن تعرف مَن هو الميت الراقد هنا، فلا شيء مخبأ، بل ها إن اعماله منقوشة هنا وهي تقول كلّ شيء عنه:

لقبه أوتخنيوس (Eutecgnius) واسمه يوليانس ووطنه اللاذقية، زينة سورية الرائعة. هو شريف من جهة أبيه، وكان لأمّه مركز مشابه. خدوم وعادل مع الجميع. لذا فالجميع يحبّونه. لمّا كان يكلّم القلطيين، كان الإقناع يسيل من فمه. وقد زار بلدانًا كثيرة وعرف شعوبًا كثيرة وعندهم أظهر عظمته. تعرَّض دومًا للأمواج والبحار، وقد قدّم للقلطيين وبلاد الغرب كلّ ما حدَّد الله أن تُعطى بلاد الشرق الخصبة من ثمار، لأنّه كان يحبّها بصفته إنسانًا.

وقد رفع قبائل القلطيين الثلاث إلى الأعالي...

(منقوشة يونانيّة من بدء القرن الثالث. وُجدت في ليون سنة١٩٧٢).

وكانت المشاركة في أفعال عبادة رومة وأوغسطس تُعدّ ولاءً سياسيًا. ولم تصبح عبادة الأمبراطور إلزاميّة إلاّ في القرن الثالث. قبل ذلك الوقت، كان الحكّام والجنود يشاركون فيها وحدهم. ولمّا كان المسيحيّون يُجبرون على تقديم العبادة للأمبراطور، كانوا يرفضون أن يعطوه لقب «سيّد» الذي كانوا يخصّونه بالله وبالمسيح.

الديانات الثانية

وهكذا كانوا يسمّون مجموعة تيّارات روحيّة مختلطة ظهرت في أوائل العصور المسيحيّة. كثيرون من بين سكّان الأمبراطوريّة مقتلَعون من جذورهم: العبيد والجنود والموظّفون. وفي هذا الخليط من الشعوب، فقدت آلهة المدن والطبيعة كثيراً من أهميّتها. ووقع بعض المفكّرين في اللاأدريّة، في حين راح آخرون يبحثون عن إله يعزّي المؤمنين.

الفلسفة

رسل ٢٨/١٧

كان ذوو العقول الراجحة يتّجهون نحو عبادة الإله الواحد، المنزّه، ونحو ديانة الواجب الذي ينبغي إتمامه واحتمال المضايق. إنّها الفلسفة الرواقيّة التي تطالب بالخضوع لنظام الكون. فالرواقيّون يعيدون تفسير الديانات القديمة والاشتراك، مضفين عليها معنى نفسياً وفردياً. ففي نظرهم، ليس الإيمان بتعدّد الآلهة سوى طرق مختلفة للكلام على الألوهة. وهم يحافظون على الممارسات، لكنّهم يشدّدون على التطهير الباطني.

الديانات الشرقية أو الديانات ذات الطابع السرّي

كان هذا التيّار يثير اهتماماً متزايداً في كلّ الأوساط، لاسيّما الشعبيّة منها. عبيد نُقلوا من أماكن مختلفة وجنود وموظّفون حملوا إلى رومة وإلى الغرب قاطبة ديانات آسية الصغرى ومصر. وعبادات هي أجوبة على القلق الوجودي لدى الإنسان المضطرب البائس. وطقوس نجد فيها الغثّ والثمين، بعيدة عن مظاهر العبادات القديمة، وزيّاحات وترانيم وموسيقى مُسكرة. وديانات جديدة تعرض على مختارين قلائل تنشئة سرّية يلتقون فيها الله نفسه. وبعد أن يتطهّروا في امتحانات كثيرة، يشعر المؤمنون بأنّهم خلصوا وأنّهم ينتمون إلى جماعة مميَّزة. كانت الديانات الريفيّة تحتفل بموت الطبيعة وقيامتها. أمّا في الأسرار، فالمؤمن هو الذي يموت ويقوم إلى حياة جديدة.

من هذه الديانات، الأكثر انتشاراً، ديانة إيزيس المصريّة وديانة ميترا الفارسيّة وديانة قوبيل - أتّيس (Cybèle - Attis) الفريجيّة (آسية الصغرى). «مياه العاصي» (نهر انطاكية) تجري في رومة، كما يقول أحد شعراء الرومان الساخرين. لكن لا شيء قادر على إيقاف هذه الديانات الجديدة.

وهناك قرائن تدلّ على أنّ هذه التيّارات الدينيّة المختلفة تسير نحو توافق ديني واسع، أي نحو امتزاج عناصرها في ديانة شاملة. عندئذ ظهرت المسيحيّة التي هي أيضاً ديانة شرقيّة قادرة على ملء رغبات الناس الباحثين عن سموّ أخلاقي وعن خلاص. لكنّ الإنجيل لا يقبل المساومة. فهو لا ينصهر في عقائد دينيّة أخرى.

فللمسيحيّة مقام خاص، يختلف تماماً وأساساً، بين مجموعة ديانات العصور الأولى.

٣. الأمبراطوريّة والإنجيل

«تعاونيّة السعادة»

هكذا وصف أحد المؤرِّخين الحضارة اليونانيّة – الرومانية في القرون الثلاثة الأولى، فهي بناء متين. لكنّ السعادة التي تقدّمها لا يستفيد منها إلاّ قلّة من المحظوظين، من بينهم الأرستقراطيّون الأنيقون، أصحاب الملذّات الشريفة والرقيقة، طالبو الفلسفة والأدب والفنون والصداقة. سينيكا وبلينس هما مثالان على ذلك. لكن هناك أيضاً الأثرياء، التجّار الذين اغتنوا في التجارة الواسعة؛ فهؤلاء يجدون لذّتهم في المآدب الفخمة والحمّامات العامّة والفوران الجنسي، مثل أبطال ساتيريكون للكاتب بتروني.

مجتمع قاسٍ على الضعفاء

كان الاقتصاد القديم قائماً على العبوديّة. فالعمل اليدوي، وهو عمل العبيد، كان محتقراً. هذا ما يشرح ضعف تقدّم التقنيّة، في حين قامت العلوم اليونانيّة باكتشافات مهمّة. كان ثلثا سكّان بعض المدن من العبيد. ولم يكن للعبد أيّ حقّ. لا يحقّ له أن يتزوّج ولا أن يملك. حتّى في عهد نيرون، كان للسيد على عبده حق الحياة والموت، في حين كانت الرواقيّة تدعو إلى أن نرى في العبد إنساناً وأن نتصرّف انطلاقاً من هذا المبدأ. لكن شتّان ما بين النظريّة والواقع.

عبادة الأمبراطور

... وليضع الحاكم على القاعدة الأولى صورة الإله أوغسطس، أبي قيصر. وعلى الثانية، إلى اليمين، صورة جوليا أوغسطا (ليفيا زوجة أوغسطس) وعلى الثالثة صورة طيباريوس قيصر، ابن أوغسطس، وعلى المدينة أن تقدّم الصور للحاكم. وليضع أيضاً مائدة وسط المسرح ومجمرة للبخور. وقبل وصول الممثّلين، فليحرق البخور لسلامة الأمراء، جميع أعضاء الشورى وجماعة الحكّام...»

(منقوشة يونانيّة سنة ١٤–١٥ ب.م.)

قانون إيمان فيلسوف رواقي

وُلد **مرقس اوريليوس** في رومة سنة ١٢١. وعُيّن أمبراطوراً من سنة ١٦١ إلى سنة ١٨٠. مات بالطاعون في فيينّا على الدانوب في محاربته للبرابرة. بالرغم من سموّ أفكاره، لم يكن لديه أيّ تقدير للمسيحيّين. ففي نظره، لا يبرهن الشهداء إلاّ عن «روح المعارضة».

«في كلّ وقت، فكِّر بجديّة، كروماني وكرجل، في ان تعمل ما أنت عامله بكرامة ودقّة وبساطة وبحبّ واستقلاليّة وعدالة. واصرف عنك كلّ تفكير آخر. أنت فاعل هذا، إن أتممت كلّ عمل كما لو كان آخر عمل في حياتك...

كلّ الأشياء مرتبطة بعضها ببعض. وترابطها مقدّس وليست غريبة بعضها عن بعض، لأنّها كلّها نُظّمت معاً وتساهم في نظام عالم واحد، إذ ليس هناك سوى عالم واحد يحوي الجميع، وإله واحد موجود في كلّ مكان، وجوهر واحد، وشريعة واحدة، وعقل واحد مشترك بين جميع المخلوقات العاقلة. والحقيقة هي واحدة...

(مرقس اوريليوس – أفكار II ٥؛ VII ٩)

الديانات ذات الطابع السرّي

بلوطَرْخس (٥٠–١٢٥) كتب باليونانيّة. وُلد وعاش في اليونان، ولكنّه سافر كثيراً. هو عالم أخلاقي وفيلسوف. كان يهتمّ خاصّة بالأمور الدينيّة، وهو ينتمي إلى جماعة دلفي (Delphes) الكهنوتيّة: «عند الموت، تشعر النفس بالشعور الذي يشعر به الذين تدرّبوا على الديانات ذات الطابع السرّي. فبادئ ذي بدء، جري لا غاية له ومنعطفات مُتعبة وسير مقلق، لا ينتهي، وسط الظلمات. ثمّ، قبل النهاية، يبلغ الخوف ذروته، أي الرعدة والارتعاش والعرق البارد والذعر. ولكن، بعد ذلك، ينجلي لناظريك نور رائع فتمرّ في أماكن طاهرة ومروج تتردّد فيها الأصوات والرقصات. يليها كلام مقدّس وظهورات إلهيّة تحمل على الخشوع الديني. من ثمّ، فالإنسان الكامل، الذي تدرّب، يصبح حرّاً، يتنزّه بدون أي إكراه ويحتفل بالأسرار، وعلى رأسه إكليل، يعيش مع أناس أطهار قدّيسين. يرى على الأرض جماهير من لم يتدرّبوا ولم يتطهّروا وهم يغرقون، إذ يمعس وأحدهم الآخر في الأوحال والظلام. وهم، خوفاً من الموت، يتمادون في شرّهم، إذ قد قطعوا رجاءهم من كلّ سعادة هناك»

(بلوطرخس، مقالة في النفس ٤٦–١٢٧).

بعض العبيد فقط يتخلّصون من وضعهم بالإعتاق. والأحرار ليسوا متساوين فيما بينهم. ففي الولايات يميّزون بين من لديهم المواطنيّة الرومانيّة والآخرين. والمواطنون يستطيعون أن يرفعوا دعاويهم إلى عدالة الأمبراطور. نعرف مثل القدّيس بولس (رسل ٢٥/١٢ و٢٦/٣٢). في حين لا ينعم الآخرون بضمانات قانونيّة. وصفة المواطن الروماني لا يُعترف بها دائماً. لذا التمييز أيضاً بين الصغار والأشراف، أي هناك فئتان تميّزها الثروة والمركز الاجتماعي. وهذا ما يخلق وزنين وكيلين في ميدان العدالة. في رومة، كثير من المواطنين فقراء لا يعيشون إلاّ من توزيع الحنطة المجّاني، ويقدّمون لهم ألعاب السيرك والمسرح: الخبز والالعاب.

المرأة والولد

الحضارة اليونانيّة — الرومانيّة هي حضارة سيطرة الرجل. فالمرأة تُعتبر قاصرة. يتكلّمون على تحريرها، في زمن الأمبراطوريّة، ويتكلّم أحد شعرائهم على المرأة التي تتزوّج لتطلّق وتطلّق لتتزوج. لكن هذه الحريّة لا تفيد منها إلاّ النساء الثريّات اللواتي يسمح الحظ لهنّ بالاستقلاليّة. أمّا الفقيرات اللواتي يطلّقن أزواجهنّ فيُحكم عليهنّ بالدعارة. وانحطاط الأخلاق هذا تقع نتائجه على المرأة. كما أنّ الأطفال محتقرون. فبإمكان الأب أن يرفض وليده فيُقتل أو يُعرَّض للموت. وهؤلاء الأطفال يربّيهم أحدهم ويبيعهم كعبيد. أمّا التربية فتتميّز بالقساوة، والمربّي ليس سوى عبد مكلّف برعاية الأولاد.

العبيد في رومة، في القرن الأوّل

كيف يجب أن يُعامَلوا

سينيكا (٤ ق.م. – ٦٥ ب.م.) أحد موظّفي الدولة، أصبح مربياً لنيرون. وعندما صار نيرون أمبراطوراً، أجبر مربّيه على ان ينتحر. كان عالمًا أخلاقياً وفيلسوفاً رواقياً. لكنّه لم يكن يوفّق دائماً بين مبادئه وأعماله:

«سررت عندما علمت، من أشخاص آتين من سيراكوسا، أنّك تعيش حياة عائليّة مع عبيدك. تعجبني هكذا بحكمتك وأنوارك. هل هم عبيد؟ نعم ولكنّهم بشر. هل هم عبيد؟ نعم ولكنّهم أناس يعيشون معك. هل هم عبيد؟ نعم ولكنّهم أصدقاء بسطاء. هل هم عبيد؟ نعم ولكنّهم رفاق عبوديّة، إذا ما فكّرت أنّنا نحن أيضاً مثلهم في يد القدر...

ان الذي تدعوه عبداً وُلد من الزرع الذي وُلدت منه، وهو ينعم برؤية السماء التي تراها. وبإمكانك أن تراه حرّاً كما بإمكانه أن يراك عبداً».

(سينيكا، رسائل إلى لوسيليوس ٤٧)

كيف يُعامَلون

«بعد ذلك بقليل (٦١ ب.م.)، قُتل حاكم المدينة، بيدانيوس سيقندس (Pedanius Secundus بيد أحد عبيده،

إمّا لأنّه رفض أن يُعتقه بعد أن اتفق على ثمنه، إمّا لأنّ القاتل وقع في حبّ غلام منحطّ ولم يحتمل أن يرى سيّده ينافسه. مهما يكن من أمر، عندما حان وقت سوقه إلى العذاب، بحسب عادة قديمة، جاء إلى نجدته جميع العبيد الساكنين معه والشعب المسكين الذي كان يدافع عن الأبرياء. اجتمعوا وقاموا بفتنة، فحتّى في مجلس الشورى، قام أعداء هذه القساوة المفرطة بجهد كبير، في حين لم تحرّك الأغلبيّة ساكنًا. . . فربح حزب الذين أصدروا أمر التعذيب. ولكنّهم لم يتمكّنوا من التنفيذ أمام تهديد الجماهير التي تحمل الحجارة والمشاعل. عندئذٍ أصدر قيصر (نيرون) أمرًا موجّهًا كلامه إلى الشعب وأوقف الجند على طول الطريق التي كان يمرّ فيها المحكومون بالإعدام.

(تاقيطس، حوليّات ١٤/٤٢-٤٥)

الأمبراطوريّة أمام ديناميّة الإنجيل

سهّلت الأمبراطوريّة الرومانيّة سرعة التبشير بالإنجيل في سائر أنحاء حوض المتوسّط. وهذا التبشير كان مستحيلاً لعصور خلت. ثمّ إنّ الإنجيل جاء جوابًا للانتصار العميق لدى رجال العصور المسيحيّة الأولى. لم تَفرض الجماعة المسيحيّة ثورة اجتماعيّة، بل قبلت جميع الناس لأنّهم متساوون أمام الله ولأنّ المسيح خلّصهم.

في عالم قاسٍ، كان العبيد والفقراء والنساء والأطفال يشعرون بحاجة إلى المسيحيّة.

وظلّت المسيحيّة تقاوم التيّار في مجالات السلوك الراهنة. فهي ترفض ديانة محفوظة لعدد قليل من المدرَّبين، كما أنّ متطلّبات الإنجيل الأخلاقيّة تتعارض واحتقار الحياة والإباحيّة الجنسيّة وحب الرفاهيّة والمال التي طبعت المجتمع، في زمن الأمبراطوريّة. والرسالة المسيحيّة ترفض النسبيّة الدينيّة. فهي لا تقبل أن تكون واحدة من تلك العبادات المعروفة، كما أنّها لا تقبل بتأليه الدولة.

من هنا هذا الصراع في القرون الأولى بين الأمبراطوريّة والمسيحيّين. ولكن من هنا أيضًا هذا السحر المتزايد للإنجيل لدى سكّان هذه الأمبراطوريّة.

الفصل الثاني

المسيحيّون
في عالم لم يفهمهم
(من القرن ١ إلى القرن ٣)

ظلّ عدد المسيحيّين آخذاً بالازدياد، وقد أصبحوا متميّزين عن اليهود الذين كانوا ينعمون بوضع قانوني خاص ويحاولون أن يُفهموا السلطات أنّ المسيحيّين لم يعودوا بعضاً منهم. وما إن بدأ المسيحيّون يشكّلون أقليّة ذات أهميّة حتى راحت تدور حولهم التساؤلات. وكانت الحيطة التي اتصّفت بها طقوسهم تحمل على افتراض ما هو الأسوأ في هدفهم. ونحن هنا أمام ظاهرة «نفسية جماهيريّة». فالمسيحيّة قادمة من الشرق ومعظم المسيحيّين مهاجرون يصعب فهم عاداتهم. فهم يشكّلون بدعة، ونحن نعلم ما تُخفي هذه العبارة! لذا كان العالم الروماني ينظر بعين الضغينة إلى هؤلاء المسيحيّين. وقد حاول كتّاب مسيحيّون، هم «المدافعون عن الإيمان»، ان يدافعوا عن جماعتهم أمام الرأي العام والدولة. لكنّهم لم يتمكّنوا من ردّ الاضطهادات عن المسيحيّين.

أوّلاً – نظرة الآخرين

لقد وصل إلينا شيء من الكتابات المضادّة للمسيحيّة، غالباً ما نقلها المسيحيّون أنفسهم بغية الردّ عليها. وكانت الاتّهامات تتراوح بين أقبح الافتراءات واعتراضات المفكّرين التي لم تفقد اذ ذاك كلّ آنيّتها.

١. الافتراءات الشعبيّة

هناك ثلاثة اتّهامات كبرى تُوجَّه إلى المسيحيّين:

أ) المسيحيّون ملحدون

والدليل على إلحادهم عدم مشاركتهم في العبادات التقليديّة وعبادة الأمبراطور والعبادات الخاصّة بالديانات الشرقيّة. نظراً إلى العقليّة القديمة، هذا الموقف يُعدّ ضرباً

من الانحراف، من شأنه أن يهدّد توازن الدولة. والآلهة تنتقم بإطلاق الكوارث كالفياضانات والزلازل والأوبئة وغزاوات البرابرة. والرأي السائد يقول إنّ للمسيحيّين عبادة لا يجوز الإعلان عنها هي عبادة لصّ مات مصلوبًا.

ب) المسيحيّون يمارسون الزنى القرابي

الغرض من اجتماعاتهم الليليّة في الولائم إنّما هو الاستسلام إلى المجون وإلى أقبح أنواع الفجور بين الإخوة والأخوات.

ج) المسيحيّون أكلة لحوم بشريّة

الجسد الذي يأكلونه والدم الذي يشربونه هما جسد ودم طفل يقدّمونه ذبيحة طقسيّة...

انتشرت هذه الافتراءات انتشاراً سريعًا، وإن لم يصدّقها الجميع. ولكن ظلّ الجميع يحتقرون المسيحيّين طوال سنين كثيرة. فالحاكم بلينس الأصغر يتكلّم على «خرافة لا تُعقل ولا تُحدّ». والمؤرّخ سويتونيوس (Suétone) (١٢٠) يتحدّث عن «خرافة جديدة وخطرة». والمؤرخ تاقيطس يسمّيها «خرافة بغيضة». والأمبراطور مرقس أوريليوس، وهو الرجل الحكيم، يعتبر المسيحيّين شعباً عنيداً. والكاتب الساخر لوقيانس لا يرى فيهم سوى أناس سذّج يستغلّهم رؤساؤهم.

المسيحيّون قوم سريعو التصديق وسذّج

لوقيانس، كاتب يوناني (١٢٥–١٩٢)، من مدينة شميشاط في سورية. سافر كثيراً ووضع كثيراً من الكتيّبات، غالبًا ما تكون حوارات، يصوّر فيها، بطريقة ساخرة، مجتمع عصره، هازئًا بالقيم المتّبعة، الفلسفيّة منها والدينيّة. وفي مقالته «موت بريغرينس» (Peregrinus)، يخبر قصّة نصّاب محتال يستغلّ، إلى زمن، سهولة التصديق لدى المسيحيّين. إنّها مناسبة ليُظهر الكاتب المسيحيّين كأناس سذَّج: «وإنّ هؤلاء المساكين مقتنعون بأنّهم خالدون وأنّهم سوف يحيون للأبد. فهم يحتقرون الموت وبعضهم يواجهه بطيبة خاطر. وقد أقنعهم المؤسّس بأنّهم جميعهم إخوة. فبعد أن تركوا آلهة اليونان، عبدوا هذا السفسطائي المصلوب وطبّقوا حياتهم على تعاليمه. لذا فهم يحتقرون كلّ الخيرات ويعتبرونها ذات منفعة عاديّة. يكفي أن يقوم بينهم دجّال محنَّك، يعرف كيف يستغلّ الظروف، لكي يغتني بسرعة، لاعبًا بعقول هؤلاء الجهلة».

٢. اعتراضات الحكماء والسياسيّين

لم يكن مروّجو الافتراءات بحقّ المسيحيّين يعرفونهم حقّ المعرفة. فلم يلبث المفكّرون أن راحوا يتقصّون الحقائق ويقرأون الكتاب المقدّس ويكتبون ردوداً صارمة بحق المسيحيّة. وقد اشتهر منهم قَلسُس (Celsus) في القرن الثاني عشر وبرفيرس في القرن الثالث، وهما وجّها هجوماتهما نحو ثلاث نواح:

أ) المسيحيّون جهّال ومدَّعون

انضمّ إلى المسيحيّة جماعة من الطبقات الاجتماعيّة الدنيا، من عمّال يدويّين محتقرين وحلاّقين وإسكافين ودبّاغين. كما كان المبشّرون يوجّهون دعوتهم إلى النساء والشباب والعبيد، مستغلّين سهولة التصديق لديهم. ولم تكن المسيحيّة تُقرّ قيم الحضارة الرومانيّة التي كانت تولي المكانة الأولى للحكيم والغنيّ الذي لا يلطّخ يديه بالأعمال اليدويّة المحفوظة للعبيد. وادّعاء المسيحيّين أنّه، باستطاعة النساء والشباب ان يعرفوا ما لا يعرفه الأزواج والآباء، يهدم سلطة الزوج والأب من أساسها.

ب) المسيحيّون مواطنون أشرار

لم يكن المسيحيّون يشاركون في تقديم العبادة للدولة ولا للأمبراطور، كما لم يكونوا يقبلون «سنّة الجدود». أضف إلى ذلك رفضهم وظائف الدولة والجنديّة. هم إذاً غير مهتمّين بأمور السياسة وبأمن الأمبراطوريّة. وقد كتب سلسُس، يوم كان مرقس أوريليوس يحارب الجرمان على ضفاف الدانوب: لو انّ جميع المواطنين سلكوا سلوك المسيحيّين، لانتهت الأمبراطوريّة لساعتها.

ج) العقيدة المسيحيّة تناقض العقل

بعض اعتراضات قلسُس وبرفيرس تخطّت العصور ووصلت إلينا: التجسّد هراء، فالله الكامل وغير قابل التغيير لا يمكنه أن يتنازل ويصير طفلاً. ثمّ لماذا جاء التجسّد متأخراً؟ ما المسيح سوى إنسان مسكين لم يحصل على ميتة رجل حكيم كميتة سقراط مثلاً.

اعتراضات حكيم

حوالى سنة ١٧٠، قام أحد الوثنيّين المثقفين، واسمه **سلسُس**، بتحريّات دقيقة حول المسيحيّين وشنّ هجوماً منظّماً على عقيدتهم وسلوكهم، في كتاب وضعه باليونانيّة، عنوانه «كلمة حقّ». فهل لا تزال اتّهامات سلسُس تلقى آذاناً صاغيّة في أيامنا؟

«هل كشف الله عن ذاته لنا، لأجل خلاصنا، لكي يخلّص الذين، بعد أن عرفوه، يظنّون أنفسهم أصحاب فضيلة، ولكي يعاقب الذين لم يعترفوا به، فأظهر بذلك شرّهم؟ ماذا أقول؟ أنظنّ أنّ الله، بعد مرور عدّة أجيال، عاد فاهتمّ بتبرير

الإنسان، بعد أن كان قد نسيه؟ الله صالح وسعيد وجميل. هو الخير في ذاته والجمال التام. بنزوله إلى الأرض، لا شكّ أن التغيير سيعتريه، فيتحوّل صلاحه إلى شرّ وجماله إلى قبح وسعادته إلى شقاء وكماله إلى نقائص لا تحصى... تغيير كهذا لا يتناسب وطبيعة الله. فإذا رفض المسيحيّون أن يقدّموا الذبائح المعتادة وأن يكرّموا الآلهة التي تُقدَّم لها، فعليهم أن يتناهوا عن المطالبة بالحريّة وعن الزواج وعن الإنجاب، أي عن القيام بوظائف الحياة. فلا يبقى أمامهم سوى الرحيل من هنا دون أن يتركوا أيّة ذريّة، فتتنقّى الأرض من هذه الرجاسة. أمّا إن شاؤوا أن يتزوّجوا وينجبوا ويأكلوا من ثمار الأرض ويشاركوا في أفراح الحياة وأتراحها، فعليهم أن يؤدّوا الإكرام لمن بيدهم مسؤوليّة كلّ الإدارة... فإذا ما سلك الجميع نهجكم يبقى الأمبراطور وحيداً مهمَلاً، ويصبح العالم نهباً للبرابرة الأوغاد القساة القلوب ولا يعود هناك أيّ أثر لديانتكم الجميلة ويزول جمال الحكمة الحقيقيّة من بين الناس. فساندوا الأمبراطور بكلّ قواكم وساهموا في مسؤوليّة الدفاع عن الحقّ. حاربوا في سبيله، إن دعت الحاجة، وعاونوه في إدارة الجيوش... لأجل كلّ هذا كفّوا عن التهرّب من الواجبات المدنيّة والخدمة العسكريّة، شاركوا في الوظائف العامّة، إن لزم الأمر، لأجل سلامة القوانين واستتباب الدين».

أمّا تعاليمه فهي نسخة محرّفة عن تعاليم مصر واليونان القديمة. وليست قيامة الاجساد سوى أكذوبة غريبة. ويرى برفيرس في العهدين القديم والجديد نسيجاً من أقاصيص بذيئة تتحدّث عن الله وكأنّه إنسان. والإله المسالم، كما يبدو في الأناجيل، يناقض إله العهد القديم المحبّ للقتال. أمّا أخبار آلام المسيح الأربعة فهي تناقض بعضها بعضاً. والطقوس المسيحيّة غير أخلاقيّة. فالعماد يشجّع على الرذيلة، إذ كيف يغفر قليل من الماء كلّ الخطايا وبلحظة؟ والإفخارستيّا - ولو فهمناها رمزيّاً - تبقى طقساً تؤكَل فيه اللحوم البشريّة. ولاحظ حكماؤنا أخيراً أنّ المسيحيّين منقسمون إلى شيع تحرم إحداها الأخرى.

٣. ردود المسيحيّين على من يتّهمهم

أمام هذه الاتّهامات، كان على المسيحيّين أن ينيروا الرأي العام وأن يدافعوا عن جماعتهم. فابتغوا في كتاباتهم عرض العقيدة والسلوك المسيحيّين تبديداً لكلّ سوء فهم. فسُمّيت كتاباتهم «ردّ التهم» أي دفاع وتبرير. والكتّاب هم «المدافعون».

المدافعون

يكتبون للذين لا يشاركونهم في إيمانهم: للأمبراطور والولاة والمثقّفين والرأي العام. لذلك عليهم أن يجدوا لغة يفهمها القرّاء، أي

لغة الثقافة الهلّينيّة الرومانيّة. وهكذا خرجت المسيحيّة من عزلتها الثقافيّة. فطعّم المدافعون المسيحيّة بالهلّينيّة والهلّينيّة بالمسيحيّة وصاغوا علم اللاّهوت المسيحي. عدد كبير من هؤلاء المدافعين لم يبق منهم سوى الاسم وبعض فقرات نقلها أوسابيوس القيصري. لكنّنا احتفظنا بكتابات هامّة ككتابات يسطينس الذي أدار مدرسة فلسفيّة مسيحيّة في السنين ١٤٠–١٥٠ دافع فيها عن الإيمان المسيحي ردّاً على الوثنيّين واليهود.

عبثيّة المسيحيّة

برفيرس (٢٣٤–٣٠٥) رجل ساميّ ذو ثقافة هلّينيّة. من مواليد صور، تتلمذ على الفيلسوف بلوتينس. إنّه فيلسوف يتمتّع بأخلاق عالية ويهتمّ بالسحر والتنجيم وما شابه. له كتاب «ردّ على المسيحيّين» يتعرّض فيه لتناقضات الأناجيل ولسخافة العقائد المسيحيّة، ولا سيّما للتجسّد والقيامة:

«حتى لو افترضنا أنّ بعض اليونانيّين كانوا بليدي الفهم بحيث يقولون إنّ الآلهة تسكن في التماثيل، تبقى هذه المقولة أشرف من القول بأنّ الألوهيّة حلّت في أحشاء العذراء مريم وأصبحت جنيناً وأنّها، بعد الولادة، لُفّت بالأقمطة وقد تلوثت بالدماء وبصفرة المرارة وبما هو أحقر... عندما اقتيد المسيح إلى أمام رئيس الكهنة والحاكم، لماذا لم يقل كلمة واحدة تليق برجل حكيم أو إلهي؟... تركهم يضربونه ويبصقون في وجهه ويكلّلونه بالشوك... حتّى لو أُجبر أن يتألم نزولاً عند أمر الله، كان عليه أن يقبل العقاب، لا أن يحتمل الآلام من دون أن يتلفّظ بكلمة واحدة شجاعة وحكيمة في وجه بيلاطس الذي يحاكمه، بدل أن يدعهم يهينونه كما لو كان واحداً من رعاع القوم.

يا للأكذوبة الفظيعة [هذه القيامة]! إنّها تصلح لأن تُلحَّن وتوضع أمام البهائم العجم لتجيب عليها بخوار وزقزقة تحملان على الصمم، وذلك عندما تسمع أنّ أناساً من لحمٍ ودم يطيرون في الفضاء كالعصافير أو يُحملون على الغيوم».

هناك مقطع معروف من الرسالة إلى ديوغنيطس (Diognète)، نجهل مؤلّفها، يعرّف المسيحيّين بأنّهم روح العالم. فكما أنّ الروح هي حياة الجسد، بحسب الفلسفة الإنسانيّة اليونانيّة، كذلك المسيحيّون هم حياة العالم التي تضفي على هذا العالم معناه. هنا يجيب الكاتب على سؤال هامّ: ما الذي يميّز المسيحيّين عن سائر الناس؟

لكن أكثر كتب الدفاع عن المسيحيّة شهرةً هو ولا شكّ «الدفاع» الذي أظهر فيه طرطليانس

القرطاجي كلّ مواهبه وحماسته كمحامٍ، حوالى سنة ١٩٧ .

جميع المدافعين يؤكدون جور التهم الموجَّهة إلى المسيحيّين والأحكام بحقّهم إبّان الاضطهادات ويفنّدون المظالم التي لحقت بهم .

المسيحيّون في العالم

إنّنا نجهل هويّة كاتب هذه الرسالة إلى **ديوغنيطس** . يبدو أنّها وُضعت في الإسكندريّة حوالى سنة ٢٢٠ . يكتب المؤلّف دفاعًا مؤثّرًا عن المسيحيّين ويرسله إلى شخص وثني:

«لا يتميّز المسيحيّون عن سائر الناس ، لا بالوطن ولا باللغة ولا باللباس . فهم ليس لهم مدن مخصّصة بسكناهم ولا يتفاهمون بلغة غريبة ، وطريقة عيشهم عاديّة جداً . إنّهم منتشرون في المدن اليونانيّة وبين البرابرة بحسب ما قسم الله لكلٍّ منهم . يتقيّدون بالعادات المحليّة بما يخصّ اللباس والمأكل وطرق المعيشة ، في حين يعلنون شرائع دولتهم الروحيّة الغريبة والمتناقضة .

يعيش كلٌّ منهم في وطنه ، ولكن كغرباء وضيوف . يؤدّون كلّ واجباتهم الوطنيّة ويصبرون على كلّ التهم كغرباء . كلّ أرض غريبة هي لهم وطن وكلّ وطن أرض غريبة . يتزوّجون كسائر الناس وينجبون ، لكنّهم لا يهجرون أطفالهم . يتشاركون في المأكل ، ولكن لا يتبادلون الأزواج . يعيشون في الجسد ، ولكن لا بحسب الجسد . يقضون حياتهم على الأرض ، لكنّهم مواطنو السماء . يخضعون للقوانين المرعيّة ، لكن طريقة عيشهم تفوق كلّ قانون .

يحبّون جميع الناس والجميع يضطهدونهم ويجهلونهم ويدينونهم . يُقتلون فيكسبون الحياة . هم فقراء ويغنون كثيرين . ينقصهم كلّ شيء وكلّ شيء يزداد لهم . يُحتقرون فيجدون افتخارهم في هذا الاحتقار . يفترون عليهم فيتبرّرون . يهينونهم فيباركون .

وبكلمة ، فالمسيحيّون في العالم كالروح في الجسد . الروح منتشرة في كلّ أعضاء الجسد كالمسيحيّين في كلّ مدن العالم . الروح تعيش في الجسد ، لكنّها ليست من الجسد . والمسيحيّون يعيشون في العالم ولكنّهم ليسوا من العالم . . .

النفس تطهر بالإماتة والجوع والعطش ، والمسيحيّون ، إذ يُضطهدون ، يتزايد عددهم يومًا بعد يوم . فالمكانة التي خصّهم الله بها هي من الكرامة ما لا يُسمَح لهم بالتخلّي عنها» .

لا نكتم شيئًا

يقولون للوثنيّين: «بإمكاننا أن نصف لكم كلّ احتفالاتنا». هذا ما يخوّلنا ان نعرف أهمّ الطقوس المسيحيّة في القرن الثاني، بفضل يسطينس وجماعة طرطليانس الناشطة. «تتّهموننا بأنّنا نختبئ كالفئران، في حين اننا حاضرون في كلّ مكان. نمارس النشاطات التي تمارسونها، نلبس الألبسة التي تلبسونها، لكنّنا نرفض التردّد إلى الهياكل والمسارح».

أقدم الصلوات المسيحيّة
من أجل السلطات

يختتم اقليمنضس رسالته «بصلاة جامعة» طويلة من أجل المسيحيّين والناس جميعًا: «أعطنا، يا ربّ، الوفاق والسلام، لنا ولسائر سكّان الأرض، كما أعطيت آباءنا عندما دعوا اسمك بالإيمان الحقّ. واجعلنا نخضع لاسمك الكلّي القدرة والقدّوس، وللذين يحكموننا ويسوسوننا على الأرض. أنت، يا رب، أعطيتهم القدرة على ممارسة سلطتهم كما أعطيتهم قوّتك العزيزة غير المدركة. فإذا ما عرفوا أنّهم قبلوا منك المجد والكرامة حيثما وجدوا، نخضع لهم ولا نقوم بأيّ عمل يتعارض وإرادتك. أعطهم الصحّة والسلام والوفاق والثبات لكي يمارسوا بدون مشقّة السلطة التي أوليتهم اياها».

(رسالة من أقليمنضس الروماني إلى أهل قورنتس ٦٠- ٦١)

أنتم ذوو الأخلاق المنحطّة

المجتمع الروماني يمارس قتل الأطفال والإجهاض، وهذا ما تأباه المسيحيّة. «أنتم تمجدّون الجنس وتتحدّثون عن مآثر آلهتكم الغراميّة وترضون بتبادل النساء...». لكن طرطليانس يقع في شيء من المبالغة والتطرّف يمنعه من كسب ودّ نبلاء الرومان.

المسيحيّة عقيدة مطابقة للعقل

يظنّ المدافعون أنّ ربط العقيدة المسيحيّة بالعهد القديم دليل على أقدميّتها بالنسبة إلى الفلسفة اليونانيّة. فموسى عاش قبل فلاسفة اليونان، وفضلهم إنّما هو اختلاس تعاليمه لا غير. جدل فارغ!! يدّعي سلسس أنّ موسى سرق فلسفة المصريّين. وكان المدافعون يدافعون عن المسيحيّة بالتهجّم على الوثنيّة دون الرجوع إلى معطيات نفسية. فآلهة الوثنيّين شياطين فاسقون. يقول يسطينس: «نحن ملحدون بالنسبة إلى آلهتكم المزيّفة».

المسيحيّون مواطنون صالحون (دفاع ١٧-١٨)

كانت الدولة، في القرون الأولى، تبدو للمسيحيّين واقعاً مبهماً. يرى تيّار سفر الرؤيا وشارحوه في الدولة الرومانيّة بابل أو الوحش، لأنّ هذه الدولة وثنيّة وتضطهد الكنيسة. فمصيرها الزوال كمصير العملاق ذي الأرجل الفخاريّة. ومن المؤكّد أنّ بعض المسيحيّين، الذين كانوا ينتظرون عودة المسيح الوشيكة، أهملوا شؤون هذا العالم. ولكن، انطلاقاً من الرسالة إلى أهل رومة (١٣/١-١٧) ومن رسالة بطرس الأولى (١٣/٢)، لم ينفكّ المدافعون عن اعلان ولائهم للدولة. «لا نعتبر الأمبراطور إلهاً، لكنّنا نخضع له ونصلّي لأجله ونحن أوّل من يدفع الضرائب.

المسيحيّون في الوظائف العامّة والجنديّة

يؤكد طرطليانس في كتابه «**الدفاع**» على وجود المسيحيّين في كلّ مكان، حتّى في الجنديّة. وبعد عشر سنوات، في كتابه «**إكليل الجنود**»، يرى أنّ المسيح لا يمكنه أن يكون جندياً. ذلك بأنّ طرطليانس اتبع بدعة المونطانيين المتعصبين، القائلين بالانزواء التام عن عالم قارب على نهايته. نجد نصوصاً أخرى من تلك الحقبة تعبّر عن تحفّظ شديد بالنسبة إلى وجود مسيحيّين في الجيش وفي الوظائف العامّة. هذا ما تبيّنه المتطلّبات المفروضة على



طرطليانس

طالبي العماد. لتحفّظات «**التقليد الرسولي**» مثلاً سببان: قد تتناقض نشاطات الموظّفين والجنود مع تعاليم الإنجيل، إذ سيضطرّون يوماً الى المشاركة في احتفالات دينيّة وثنيّة وإلى ممارسة أعمال العنف. فالوالي يحكم بالإعدام والجندي يمارس القتل في الحروب. لذلك يُطلب ممّن يمارس القتل التخلّي عن وظيفته. في ما يختصّ بالجندي، يزداد الموقف تعقيداً: نستطيع أن نطلب من المسيحي ألاّ ينخرط في الجنديّة، إن كانت مكوّنة من أناس متطوّعين. أمّا الملتزم بها على مدى عشرين سنة، فلا يستطيع تركها. فكان النظام الكنسي يفرض عليه أن يرفض القتل من الآن فصاعداً وأن يرفض القَسَم بالطاعة الذي يعتبر فعل عبادة. وهذا ليس بالأمر اليسير. بما أنّ الخدمة العسكريّة لم تكن إلزاميّة، كان بإمكان

المسيحي التخلّص منها من دون لوم. يوم كان عدد المسيحيّين محدوداً، لم يكن لهذا الأمر كبير أهميّة. أمّا لما راح عددهم يتزايد، وظهر الخطر على حدود الأمبراطوريّة، فقد كوّن امتناعهم عن الدخول في الجنديّة مشكلة هامّة. وهذا ما يلومهم عليه سلسُس. ولمّا استتبّ «سلام الكنيسة» سنة ٣١٣، سقطت تحفّظات المسيحيّين، لأنّ خطر الوقوع في العبادات الوثنيّة قد زال. تبقى هناك صعوبة واحدة: تطلب الكنيسة إلى الجندي الذي سفك دماً أن يتطهرّ.

طرطليانس يقدّم للحكّام وصفاً للجماعة المسيحيّة

وضع **طرطليانس** القرطاجي (١٥٥-٢٢٢) موهبته كمحامٍ في خدمة المسيحيّين، بعد أن حملته شجاعتهم على الاهتداء إلى المسيحيّة. مؤلّفاته، وهي أهمّ مؤلّفات باللاتينيّة بعد مؤلّفات اوغسطينس، هي قبل كلّ شيء جدليّة. وللدفاع عن المسيحيّين، كان لا بدّ من المبالغة في الوصف ومن المبادرة بالهجوم.

«وُلدنا بالأمس وها نحن نملأ الأرض وكلّ مكان لكم: المدن والجزر والقلاع المنيعة والبلاط ومجلس الشيوخ والساحات العامّة. لم نترك لكم سوى هياكلكم!

... لقد حان الوقت لكي أعرض عليكم أعمال «الزمرة المسيحيّة» الصالحة. أريد أن أبيّن لكم أنّها صالحة وإن أُجبرتُ على كشف الحقيقة. نحن جسد واحد، نعيش إيماناً واحداً ونظاماً واحداً ويربطنا رجاء واحد. نؤلّف عصبة واحدة وأخويّة واحدة، نحاصر الله بصلواتنا كما لو كنّا كتيبة مرصوصة الصفوف. وهذا العنف يطيب لله. ونصلّي أيضاً من أجل الأمبراطور والوزراء والسلطات، من أجل معاصرينا، من أجل سلام العالم كلّه ومن أجل تأجيل النهاية.

... ولكن في نظر الكثيرين، هي ممارسة المحبّة التي تطبعنا بهذا الطابع المعيب. يقولون: «انظروا كيف يحبّ بعضهم بعضاً»، لأنّهم هم يبغضون بعضهم بعضاً. يقولون: «انظروا كيف انّهم مستعدّون للموت بعضهم عن بعض»، لأنّهم هم يقتلون بعضهم بعضاً. أمّا كلمة «إخوة» التي ننادي بها بعضنا بعضاً فتفقدهم الصواب، لأنّ كلّ عبارات القرابة لديهم لا تُستعمل إلاّ من قبيل التظاهر. والحال أنّنا إخوتكم أيضاً بحكم الطبيعة، أمّنا المشتركة. صحيح أنّكم لستم من البشر لأنّكم إخوة أشرار. أمّا نحن فبحقّ ندعى إخوة لأنّنا نعتبر الإله الواحد أباً لجميعنا ولأنّنا تشرّبنا روح القداسة الواحد. ومن بعد ان خرجنا من حيّز الجهل، فُتنّا بنور الحقّ الواحد.

... نعيش معكم، نستعمل الغذاء نفسه واللباس نفسه ونمط العيش نفسه، كما نخضع لضرورات الحياة نفسها. فنحن لسنا برهمانيّين ولا من فقراء الهند، سكّان الغابات، البعيدين عن الناس في منفاهم...

نرتاد ساحاتكم وأسواقكم وحمّاماتكم ومتاجركم وفنادقكم ومعارضكم التجاريّة وسائر أماكن التجارة. نسكن هذا العالم معكم؛ ومعكم نسافر في البحار ونؤدّي الخدمة العسكريّة ونستغلّ الأرض ونتاجر...

(الدفاع ٣٧، ٣٩، ٤٢)

ثانيًا – الاضطهادات

لم يُقنع المدافعون مناظريهم. وكلّما كانت الدولة تبحث عن مسؤولين عن الكوارث، كانت الافتراءات تؤلّب الجماهير على المسيحيّين. وبغية تهدئة الغضب الشعبي، كانت السلطات تُصدر أحكامًا بحقّ من وقعت عليهم الاتّهامات الباطلة. هكذا بدأت الاضطهادات.

١. اضطهادات واستشهاد

كلمتان تثيران فينا اليوم صورة دم المسيحيّين والعذابات التي قاسوها في الدياميس حيث كانوا يختبئون لإقامة شعائرهم الدينيّة. نحن لا نُنكر ما لهذا الزعم من صحّة، لكن يجب ألاّ نُضفي طابع الشموليّة على عبارات مثل «كنيسة الاضطهادات»، «كنيسة الشهداء»، «كنيسة الدياميس».

لكلمة اضطهاد معانٍ كثيرة

لم يكن المسيحيّون عرضة للاضطهاد طوال القرون الثلاثة الأولى، كما أنّ مدلول كلمة اضطهاد ينقصها الوضوح. فالكاثوليك الفرنسيّون، يوم ظهور القوانين المضادّة للإكليرس في أوائل القرن العشرين، تكلّموا على الاضطهاد. وقد أخذت الاضطهادات أشكالاً مختلفة: اضطهاد نيرون كان محليًا مقصورًا على مدينة رومة. واضطهاد ديوقلطيانس عمّ الأمبراطوريّة جمعاء. كما أنّ المسيحيّين لم يمارسوا شعائرهم في الدياميس طوال ثلاثة قرون. فهم لم يحصلوا على هذه المدافن إلاّ في أوائل القرن الثالث. ولم تكن الدياميس مخابئ يلجأون إليها، بل أُهديت إليهم رسميًا، وهي مُدوّنة في دفاتر المساحة. فالأصحّ أن نقول إنّ المسيحيّين عاشوا، طوال القرون الثلاثة الأولى، حالة عدم أمان محدود. لكنّهم عرفوا أيضًا حقبات طويلة من الأمان الديني.

مَن هو الشهيد؟

توحي الكلمة بإنسان يموت في عذابات مُبرّحة. لكن يجب أن نذكر أنّ هذه الكلمة اليونانيّة تعني «الشاهد». فالشهيد يشهد لإيمانه بيسوع ربًّا واحدًا لا ربّ سواه، حتى ولا الأمبراطور. والمسيحي لا يسعى وراء الاستشهاد، وإن كان هذا الأمر قد حصل.

فبإمكانه أن يهرب من الاضطهادات، لكن إذا ما أُلقي القبض عليه، يجب أن يشهد حتّى النهاية، متَّبعًا يسوع حتّى الآلام والموت. هكذا يتّحد الشهيد بالمسيح. فالشهيد بوتينس (Pothin) هو يسوع في بستان الزيتون، والشهيدة بلاندينة (Blandine) هي يسوع على الصليب. وفي صانقتُس (Sanctus) هو المسيح يتألّم. هكذا يصل الشهيد إلى القيامة مع سيّده.

في عهد نيرون

«لا الوسائل البشريّة ولا السخاء الملوكي ولا الصلوات التكفيريّة استطاعت أن تردّ الأقاويل الشائنة التي تؤكّد أن الحريق كان مفتعلاً. فلكي يخنق هذه الأقاويل في مهدها، افترض نيرون وجود مسؤولين وحمّل وِقر عذابات مريعة أناسًا كانت قباحاتهم سببًا لبغض الناس لهم، ألا وهم المسيحيّون. هذا الاسم يأتيهم من المسيح الذي أسلمه الوالي بنطيوس بيلاطس إلى العذاب، على عهد الأمبراطور طيباريوس. وما إن قُمعت هذه الخرافة البغيضة حتّى عادت وذرّت قرنها مرّة أخرى، لا في اليهوديّة فقط حيث يلجأ كلّ ما هو خبيث ومعيب في العالم ويلقى أنصارًا كثيرين. فأُلقي القبض أوّلاً على الذين يشهدون لإيمانهم، ثمّ على كثيرين غيرهم أُعلن عنهم واتُّهموا، لا بإحراق المدينة فحسب، بل ببغضهم للجنس البشري.

ولم يكتفِ الأمبراطور بإعدامهم، بل ابتكر نوعًا من اللعب: يلبسونهم جلود حيوانات لكي تمزّقهم أنياب الكلاب، أو يربطونهم إلى صلبان ويصبّون عليهم موادّ حارقة، وعند نهاية النهار يشعلونهم كمشاعل في الظلام. وقدّم نيرون حدائقه لهذا المشهد كما كان يقدّم السيرك حيث كان هو يختلط بعامّة الشعب بلباس حوذي أو يشارك في السبق وهو واقف في عربته.

لذا، فمع أنّ هؤلاء الناس كانوا مذنبين يستوجبون، أقسى العذابات، راح الشعب يشفق عليهم قائلاً: لم يُقتل هؤلاء الناس في سبيل المصلحة العامّة، بل لسبب قساوة رجل واحد».

(تاقيطس، حوليّات ٤٤)

روايات يختلف مدى صحّتها

نعرف أخبار الاضطهادات من مصادر مختلفة: إمّا من مؤرّخين غير مسيحيّين أمثال تاقيطس وبلينس الأصغر، وإمّا من محاضر المحاكمات، وهذا ما يسمّونه «أعمال الشهداء»، كمحاكمة قبريانس، أسقف قرطاجة. وهناك شهود عيان تركوا لنا روايات قريبة من الأحداث، كمسيحيّي مدينة ليون سنة ١٧٧. جميع هذه المصادر جديرة بالثقة. ولكن، بعد «سلام الكنيسة»، سنة ٣١٣، عظم وهج

الشهداء حتى إنّ بعض الجماعات المسيحيّة أخذت تنتسب إلى شهداء غير موثوق بصحّة وجودهم . وهكذا ظهرت عدة كتابات هي أقرب إلى الأساطير منها إلى الواقع .

٢ . اضطهاد القرنين الأوّلين

لم يشهد القرنان الأوّلان اضطهاداً شاملاً، ولم يعرف تشريعاً دقيقًا خاصًّا بالمسيحيّين . فبقيت الاضطهادات محصورة في الزمان والمكان . نذكر هنا أهمّها:

نيرون أوّل أمبراطور يضطهد المسيحيّين

يطلعنا المؤرِّخ تاقيطس نفسه على اضطهاد المسيحيّين عن يد نيرون. جاء هذا الاضطهاد نتيجة لحريق رومة سنة ٦٤ . ويلّمح بعض الكتّاب المسيحيّين إلى هذا الحدث، ولكن من دون توضيح . أمّا تاقيطس فيصدّق ما ينسب إلى المسيحيّين من سوء السمعة، لكنّه لا يعتبرهم مسؤولين عن الحريق. أمّا نيرون فينفّذ في المسيحيّين العقوبة التي يستوجبها حارقو المدن . ويظهر أنّ هذا الاضطهاد لم يتعدّ مدينة رومة. ويعتبر التقليد أنّ الرسولين بطرس وبولس ماتا ضحيّة ظلم نيرون .

عهد طرايانس (Trajan) (٩٨-١١٧)

في رسالة من بلينس الأصغر، حاكم بيتينية (شمال آسية الصغرى)، إلى الأمبراطور طرايانس، يشير الحاكم إلى مطاردة المسيحيّين وإعدامهم في مقاطعته. هو لا يحترم المسيحيّين، لكنّ تحرّياته لم تُفضِ إلى وجود أيّ خطر من قبلهم. فما العمل إذن؟ أيدينهم لأنَّهم يحملون اسم «مسيحيّين» فحسب، أم بعد أن يثبت لديه أنّهم مجرمون؟ فيأتي جواب طرايانس مذهلاً: لا يمكننا إقرار قاعدة عامّة ذات صيغة ثابتة. فيجب ألاّ نطارد المسيحيّين من جهة، ومن جهة أخرى ألاّ نكتفي باتّهامات مجهولة المصدر. ومع ذلك يجب محاكمة الذين يصرّون على القول إنّهم مسيحيّون . . .

رسالة بلينس هذه، وما تطلعنا عليه من تردّد الحاكم، تزوّدنا بقرائن حول حياة جماعة مسيحيّة قديمة. هناك شهيد ذائع الشهرة، يحدّد التقليد حادثته في عهد طرايانس، هو اغناطيوس الأنطاكي، نحتفظ برسائل منه كتبها وهو مسوق إلى رومة. ولكنّنا نجهل ظروف استشهاده.

رسالة من بلينس الأصغر إلى الأمبراطور طرايانس (١١١-١١٢)

كان **بلينس الأصغر** (٦١-١١٤) ابن أخي بلينس الأكبر، العالم الواسع الثقافة وابنه بالتبنّي. وقد درس المحاماة وأصبح خطيباً وسياسيّاً. فعيّنه طرايانس حاكماً على بيتينية، وقد كان رجلاً مثقّفاً وشريفاً. نجد بين رسائله رسالة إلى طرايانس يبدي فيها رأيه في المسيحيّين، كما نجد معها جواب الأمبراطور:

«لم أشارك يوماً في تحقيق قضائي ضد المسيحيّين. لذا لا أعرف لأيّ سبب يعاقبونهم ولا على ما يجري التحقيق ولا إلى أين سنصل... هل يجب معاقبة الاسم (المسيحي) فقط وإن لم يكن هناك جريمة؟ أو هل يجب معاقبة الجرائم الملازمة لهذا الاسم؟

إليكم المنهج الذي اتّبعته موقتاً مع من يُقَدَّم إليّ للمحاكمة من هؤلاء المسيحيّين: أسألهم هل هم مسيحيّون. على الذي يجيب بالإيجاب أُعيد السؤال مرّتين وثلاثة وأهدّده بالتعذيب. فالذي يُصرّ على الإجابة بالإيجاب آمر بإعدامه. ومهما كان معنى اعترافهم هذا، فإنّ عنادهم وتصلّبهم يستوجبان العقاب. وبعض أتباع هذه الحماقة، لكونهم مواطنين رومانيّين، أرسلهم إلى رومة، وهناك حالات خاصّة كثيرة...

ومنهم من ينكر أنّه مسيحي أو أنّه كان يوماً مسيحيّاً. فبعد أن يدعوا الآلهة، كما كنت أفعل أمامهم، ويقدّموا لصورتكم التوسّلات والبخور والخمر، ويجدّفوا على اسم المسيح - كلّ هذه الأمور لا يستطيع أحد أن يجبر عليها المسيحيّين الحقيقيّين - كنت آمر بإخلاء سبيلهم. وكان غيرهم يؤكّدون أنّهم تركوا المسيحيّة منذ ثلاث سنوات أو أكثر، أو حتّى منذ عشرين سنة. هؤلاء أيضاً كرّموا صورتكم وتماثيل الآلهة وجدّفوا على اسم المسيح. وكانوا يؤكّدون أنّ أخطاءهم أو ضلالهم كان يقوم على اجتماعات في يومٍ معيّن، قبل طلوع الشمس، يرنّمون معاً، بين جوقين، نشيداً للمسيح كما لو كان إلهاً ويُقسمون لا على ألاّ يرتكبوا أيّة جريمة فقط، بل على ألاّ يرتكبوا لا سرقة ولا عمل لصوصيّة ولا زنى، وأن يفوا بوعودهم وأن يردّوا الوديعة عندما يطلبها صاحبها. ثمّ يفترقون ليلتقوا بعد ذلك لتناول طعام عادي وبريء. وهذه العادات بالذات قد أهملوها بعد أن أصدرتُ مرسوماً، نزولاً عند رغبتكم، منعت فيه التجمّعات. ورأيت من الضروري البحث عن الحقيقة حتى بصدد تعذيب فتاتين يدعوهما «شمّاسات». فلم أجد سوى خرافة فارغة لا يستسيغها العقل.

لذا علّقت التحقيق لأقف على رأيكم. فالقضيّة تستحق ذلك، نظراً إلى عدد المتّهمين. فهناك جمهور كبير من كلّ سنّ وطبقة وجنس مُستدعَون أو سوف يُستدعَون إلى المثول أمام العدالة. فعدوى هذه الخرافة لم تنتشر في المدن فقط، بل في الأرياف أيضاً. وأظنّ أنّه بالإمكان إيقافها ومداواتها. والدليل على ذلك تردّد الناس على الهياكل والأعياد الرسميّة بعد أن كانوا هجروها مدّة طويلة».

(بلينس الأصغر، مراسلات ١٠/٩٦)



استشهاد القدّيس بوليقربس

عهد مرقس أوريليوس (١٦١-١٨٠)

في عهد هذا الأمبراطور الفيلسوف، حوكم في رومة يسطينس «المدافع» وفي إزمير بوليقربس تلميذ يوحنّا وأستاذ إيريناوس أسقف مدينة ليون العتيد. مع بوليقربس، نشهد للمرّة الأولى تكريم ذخائر الشهداء. ففي ذكرى يوم وفاتهم، أي «ميلادهم» الحقيقي، يجتمع المسيحيّون حول أضرحتهم. وهناك رسالة من مسيحيّي مدينة ليون إلى إخوانهم في آسية، نقلها أوسابيوس القيصري، تحفظ لنا رواية اضطهادات ليون المؤثّرة سنة ١٧٧، إثر مظاهرة شعبيّة نجهل أسبابها، أُوقف ما يقارب الخمسين مسيحياً وتمّ إعدامهم. وصل إلينا من بينهم أسماء بوتينس الأسقف الشيخ ابن التسعين سنة والشمّاس صانقتس وبلاندينة الجارية الضعيفة التي ماتت في آخر القافلة. وهذه الرسالة هي أقدم شهادة على وجود المسيحيّة في بلاد الغال.

شهداء مدينة ليون (١٧٧)

كان صانقتس يجيب باللاتينيّة على كلّ الأسئلة: «أنا مسيحيّ». وكان هذا الإعلان بمثابة الاسم والمدينة والعرق وكلّ شيء. ولم يسمع الوثنيّون من فمه سوى هاتين الكلمتين... فلكي يتخلّصوا منه، كووه بشفرات حديد محمّاة في النار على جميع أعضاء جسده الأكثر إحساساً. فكانت تُضنيه. لكنّه بقي رابط الجأش ثابتاً مُصرّاً على الاعتراف بإيمانه، وكأنّه يقبل ندى القوّة من ينبوع سماوي، هو الماء الحيّ المنبعث من جنب المسيح. كان جسده يشهد لما جرى، إذ أصبح بكامله جروحاً ورضوضاً. فتجمّع على نفسه ولم يعد له هيئة إنسان. لكنّ المسيح كان يتألّم فيه، ويتمّ عملاً عظيماً مجيداً! كان يفحم خصمه ويبيّن للآخرين، كمثال لهم، أن لا شيء يخيف حيث حبّ الآب، ولا شيء يؤلم حيث مجد المسيح...

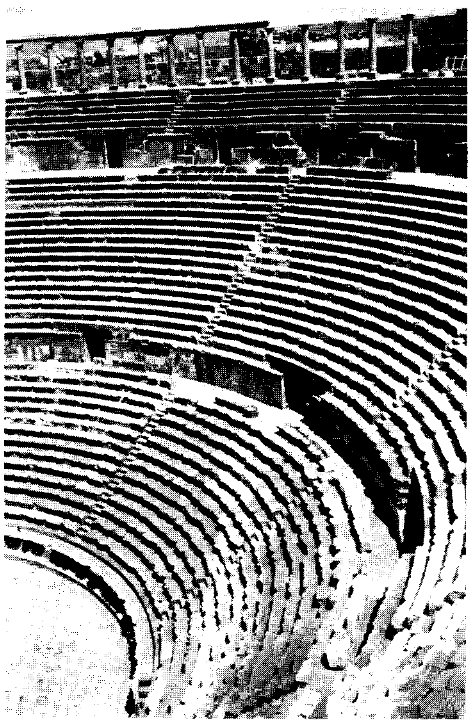
وكان بوتينس، أسقف ليون، قد تخطّى التسعين سنة. وكانت صحّته ضعيفة جداً، يتنفّس بصعوبة. لكنّه استعاد قواه بتأثير الروح القدس، وبفضل شوقه الملتهب إلى الاستشهاد. فجرّوه إلى المحكمة وبدأ جسده العجوز والمريض يتخلّى عنه. لكنّ روحه كانت ساهرة في داخله لكي يتمجّد المسيح فيها. فقاده الجند إلى المحكمة وواكبه قضاة

المدينة والشعب كلّه وهو يصرخ ضدّه، كما لو كان المسيح. ولقد أدّى الشهادة الحسنة. فعندما سأله النائب العامّ عن إله المسيحيّين، أجاب: «ستعرفه إن كنت تستحقّه».

أمّا بلاندينة فعلّقوها على عمود وعرضوها طعاماً للوحوش التي أطلقوها عليها. عندما رآها إخوتها في الجهاد معلّقة على هذا الصليب وسمعوها تصلّي بصوت عالٍ، شعروا بأنّ شجاعتهم تتضاعف. في وسط جهادهم، رأوا بعين الجسد، في أختهم، ذاك الذي صلِب لأجلهم مبيِّناً لأتباعه أنّ كلّ من يتألّم لمجد المسيح يحظى بالاتّحاد الدائم بالإله الحي . . .

أخيراً، بعد أن شجّعت أبناءها كأمّ نبيلة وأرسلتهم ظافرين إلى الملك، احتملت بدورها ما قاساه أبناؤها وأسرعت بالانضمام إليهم سعيدة متهلّلة كما لو كانت مدعوّة إلى عرس، لا كأنّها فريسة للوحوش. فبعد أن ضربوها بالسياط وقدّموها للوحوش وأجازوها في النار، طرحوها في شبكة وعرضوها لأحد الثيران الذي راح يتقاذفها في الهواء. لكنّها لم تكن تشعر بما يحدث لها، إذ كانت مأخوذة برجاء إيمانها وبما ينتظرها وبحديثها مع المسيح. وأخيراً ذبحوها. وقد اعترف الوثنيّون أنفسهم بأنّه لم يحدث قطّ لإحدى نسائهم أن احتملت مثل هذه العذابات».

(رسالة من مسيحيّي ليون)



مدرّج روماني

باسم أيّة شريعة!

من الصعب تحديد الأسس القانونيّة التي سمحت بمطاردة المسيحيّين طوال القرنين الأوّلين. لقد كان في الأمبراطوريّة آنذاك ديانات مسموحاً بها وأخرى ممنوعة. فاليهودية كان مسموحاً بها. لكنّ المسيحيّة، بعد أن تميّزت عن اليهوديّة، أصبحت ممنوعة. لكنّ الرومان كانوا متسامحين في هذا الموضوع. فحتّى القرن الثالث، لم تكن ديانة الأمبراطور تُلزِم كلّ سكّان الأمبراطوريّة، كما لم يكن نيرون قد سنّ تشريعاً بخصوص المسيحيّين. لكنّ موقفه خلق سابقة. قد يكون أنّ المسيحيّين كانوا تحت طائلة القوانين القائمة المختصّة بالنظام العام، التي كان الحكّام يفسّرونها على هواهم. فكلّما قامت فتنة على المسيحيّين،

كانت السلطات تحمّلهم مسؤوليّتها: فهم حارقو المدينة وهم القَتلة. . . ولم تكن عدالة تلك الأيّام تعرف الشفقة. وكانت المحاكمات تخفّف من توتّر الرأي العام الراغب في الأذى وتُوفّر مادّة للمسارح.

٣. اضطهادات القرن الثالث – مراسيم ضدّ المسيحيّين

في نهاية القرن الثاني، أخذ بنيان الأمبراطوريّة الرائع يتصدّع: حروب أهليّة، خطر البرابرة على الحدود، ضعف اقتصادي، هجرة. . . فقرّر الأباطرة التخلّص من عوامل التفرقة وشدّ أواصر السكّان عن طريق عبادة الأمبراطور. فرفض المسيحيّون تبنّي هذا المخطَّط، مع أنّهم ظلّوا يؤكّدون ولاءهم للدولة. لذلك سوف يُعدّ الأباطرة تشريعاً ضدّ المسيحيّين يُعمل به في سائر أرجاء الأمبراطوريّة.

شريعة سبتيمس ساويرس (١٩٣-٢١١):

أراد هذا الأمبراطور الحدّ من ازدياد الفِرق الدينيّة الهامشيّة، بمنع اليهود والمسيحيّين من التبشير، وذلك تحت طائلة عقوبات صارمة، كمنع الإعداد للعماد الذي أصبح يُعتبر غير شرعي. وراحت الشرطة تطارد المسيحيّين (٢٠٢). وهذا الإجراء يفسّر قصّة استشهاد فيليسيتي وبربيتوي (Félicité et Perpétue) وكانتا تستعدّان للعماد وقبلتاه فعلاً في السجن (٢٠٣). ولأجل إضعاف الكنيسة، أمر مكسيمان بإعدام أعضاء الإكليرس (٢٣٥).

شهداء مصر

حصل أوّل اضطهاد في الإسكندريّة في عهد سبتيمس ساويرس سنة ٢٠٢. يصف أوسابيوس القيصري شجاعة الشهداء ويتكلّم على عددهم وعلى أنواع العذابات التي قاسوها. ويسمّي منهم ليونيدس (Léonide) والد أوريجانيس الذي استشهد بقطع رأسه، وكان ابنه يشتهي أن يموت ميتة أبيه، وكيرانس وهيراقليدس اللذان أُحرقا في النار. أمّا هرايس فكانت لا تزال تستعدّ للعماد، فقبلت عماد الدم. وبوتاميانا دافعت عن طهارتها فأُحرقت مع أمّها وصُبّ عليها الزيت المغليّ، فصلّيا من أجل الجندي الذي رافقهما إلى الشهادة فاهتدى وقطع رأسه.

في عهد داقيوس، اشتدّ الاضطهاد وعُذّب الكثيرون وسجنوا. منهم ديونيسيوس البطريرك واوريجانيس. كثيرون من كلّ جنس وعمر ماتوا بالسيف أو حرقًا أو تحت السياط. ميتراس الشيخ فقأوا عينيه، وكونتا العذراء جرّوها في الشوارع، ثمّ رجموها، وأبولينيا زميلتها اقتلعوا أضراسها ثمّ

أحرقوها. وعلى عهد جالوس وفاليريانس، امتدّ الاستشهاد إلى الصعيد في القرى كما في المدن وذلك بالجملة. فكانوا يسوقون المؤمنين إلى الموت عشرات ومئات. فالسيف بانتظارهم، وكذلك أنياب الوحوش وأشغال المناجم. أفواج تلو أفواج: فيلورومس ولاتيوس وأوريليوس وأبيوس قائمة لا نهاية لها...

من هنا نشأ إكرام الشهداء والصلاة لهم وطلب شفاعتهم وإقامة الأعياد لذكرى استشهادهم والتبرّك بذخائرهم».

من داقيوس (٢٤٩-٢٥١) إلى فاليريانس (٢٥٣-٢٦٠)

في أمبراطوريّة مهدّدة على حدودها، أراد الأمبراطور داقيوس التثبُّت من إمكانيّة صمود المدنيّين في الداخل. فأمر كلّ مواطن أن يذبح للآلهة ويستلم شهادة بذلك (٢٥٠). فكان هذا سبب أوّل اضطهاد عام شُنَّ على المسيحيّين. لا شك أنّ عدداً كبيراً من المسيحيّين قد استشهدوا



القدّيس قبريانس

ولكن هناك عدداً كبيراً آخر قد ذبح للآلهة، إذ إن الاضطهاد باغتهم بعد زمن طويل من الأمان. قبريانس، أسقف قرطاجة، يصوّر لنا هذه الخيانات التي هزّت في العمق جماعات افريقيا. وبعد عودة الأمان، اختلفت آراء الجماعات حول الشروط التي يجب فرضها على طالبي العودة إلى الكنيسة بعد هذه الخيانات.

أمّا فاليريانس، فكان يريد أن يوحّد الأمبراطوريّة ضدّ الفرس. لكنّه كان يرى في المسيحيّين جسماً غريباً. فاتّخذ سنة ٢٥٧ إجراءات ضدّ الإكليرس ومنع الاحتفالات والاجتماعات في المدافن. وسنة ٢٥٨ أُعدم الذين رفضوا تقديم الذبائح للآلهة. فاستشهد آنذاك قبريانس أسقف قرطاجة وسكستس أسقف رومة مع الشمّاس لورنطيوس.

استشهاد قبريانس أسقف قرطاجة ٢٥٨

أمر الوالي غاليريوس مكسيمس بإحضار قبريانس . . .

الوالي: أأنت إذن تاسقيوس قبريانس؟

قبريانس : أنا هو .

الوالي: أنت تدّعي أنّك أب لهؤلاء القوم الكفرة؟

قبريانس : أنا هو .

الوالي: الأباطرة القدّيسون يأمرونكم بتقدمة الذبائح لهم .

قبريانس : لن أقدّم ذبائح .

الوالي: احترس لنفسك .

قبريانس : إصنع ما أُمرت به . في قضيّة بهذا الوضوح ، لا لزوم للتفكير .

فتشاور غاليريوس مكسيمس مع مستشاريه وأصدر ، وهو حزين آسف ، هذا الحكم: «لقد عشتَ طويلاً تنتهك القدسيّات وجمعت حواليك عدداً كبيراً من المتآمرين المجرمين ونصّبتَ نفسك عدوّاً لآلهة الرومان ولعبادتهم . فالأباطرة القدّيسون ، فاليريانس وغاليانس أوغسطس وفاليريانس القيصر النبيل لم يستطيعوا أن يحملوك على الاشتراك في احتفالات الشعب الروماني . فقد وقعت عليك تهمة التحريض على جرائم كبرى وحمل لواء هذه الأعمال . لذا فستكون عبرة للّذين أشركتَهم في الشرّ ، ويكون دمك كفّارة عن عدم احترام الشريعة» . بعد هذه القرارات ، قرأ الوالي حكمه المكتوب في لوحة: تاسقيوس قبريانس يموت بحدّ السيف؛ هذه هي الأوامر . فأجاب قبريانس: الحمد لله!

(هامان ، ملحمة الدم ص١٢٦-١٢٧)

الهدوء بعد العاصفة

رأى المسيحيّون في القبض على فاليريانس وقتله في بلاد فارس عقاباً إلهيّاً . أمّا الأمبراطور غاليانس ، فقد أصدر مرسوم تسامح سنة ٢٦١ . فعاشت الكنيسة طوال أربعين سنة سلاماً شبه تامّ عكّرته بعض الفتن المحلّية . فازداد عدد المسيحيّين سريعاً ولا سيّما في آسية الصغرى وشيِّدت عدّة كنائس .

٤ . الاضطهاد الأخير في الأمبراطوريّة الرومانيّة

الأمبراطوريّة الحديثة ، نظام شمولي

ما إن استلم ديوقلطيانس الحكم سنة ٢٨٥ حتّى شرع بإصلاح الإدارة الملكيّة صلاحاً تامًّا . فقسم الأمبراطوريّة إلى أربعة أقسام: أمبراطوران

في الشرق وهما ديوقلطيانس وغاليريوس، وأمبراطوران في الغرب وهما مكسيميانس وقسطنسيوس كلورس. فدُعي هذا النظام النظام الرباعي. وتمّ جمع الستّ والتسعين ولاية إلى اثنتي عشرة أبرشيّة. وفُرضت على المواطنين ضرائب باهظة، إذ أصبح من الضروري تمويل جيش كبير وإقامة أبنية فخمة. وأخذت الدولة في سبيل ذلك إجراءات شموليّة بوليسيّة. وازدادت العدالة صرامة، وبلغت عبادة الأمبراطور ذروتها، وأصبح الأمبراطور يستعمل الصولجان والتاج، كما أصبحت عبادته ملازمة لاحتفالات البلاط. وهكذا أخذ الإصلاح شكلاً مزدوجاً: سياسيًّا ودينيًّا. «إنّه لمن الإجرام أن نضع موضع التساؤل ما تسلّمناه من الأجداد». وبدأت مطاردة المخالفين، من المانويّين أوّلاً (٢٩٠) ثمّ من المسيحيّين.

نحو إبادة المسيحيّين

إنّ رفض بعض الجنود المسيحيّين الاشتراك في شعائر عبادة الأمبراطور أثار سخط ديوقلطيانس. وفي نظر غاليريوس، شريك ديوقلطيانس في الشرق، كانت المسيحيّة تعرّض المجتمع القديم التقليدي للخطر. وهذا يشرح أسباب آخر الاضطهادات وأعنفها. فمنذ شباط (فبراير) ٣٠٣ حتى شباط (فبراير) ٣٠٤، توالت المراسيم وتزايد عنفها كلّ مرة: إتلاف الكتب المقدّسة، وهدم أماكن العبادة، وتجريد المسيحيّين من حقوقهم المدنيّة، وتقديم ذبائح للآلهة، والحكم بالعمل في المناجم، والإعدام...

كان تطبيق هذه المراسيم يختلف من منطقة إلى منطقة. ففي بلاد الغال، اكتفى الأمبراطور قسطنسيوس كلور بهدم بعض الكنائس. وفي إيطاليا وإسبانيا وافريقيا، جاءت الاضطهادات اعنف، ولكن لمدّة قصيرة (٣٠٣-٣٠٥). وفي الشرق، في مقاطعة غاليريوس، كانت أعنف وأطول مدّة وشبه مستمرّة (٣٠٣-٣١٣) في حين كان عدد المسيحيّين قد بلغ خمسين في المئة من عدد السكّان. فنشر غاليريوس كتباً مزيّفة ضدّ المسيحيّين، كما اظهر القضاة ساديّةً غريبة.

انقلاب الموقف

منذ سنة ٣٠٦، أخذ نظام ديوقلطيانس السياسي يتزعزع. فعِوض الأباطرة الأربعة، قام سبعة أباطرة وقامت بينهم النزاعات. فالأمبراطور قسطنطين، ابن قسطنسيوس كلورس وهيلانة المسيحيّة، تخلّص في الغرب من منافسيه الواحد تلو الآخر. وفي معركة جرت بينه وبين الأمبراطور مكسنسيوس، على جسر نهر التيبر (Tibre) سنة ٣١٢، وضع انتصاره حدًّا لحرب أهليّة. وقد علّق على الحدث، بعد ذلك، كتّاب مسيحيّون هم لقطنظيوس وأوسابيوس، مشيرين إلى أنّ هذا الانتصار جاء نتيجة تدخّل إلهيّ حيث رأى

قسطنطين في السماء صليباً مضيئاً مكتوباً عليه: «بهذه العلامة تنتصر». فاهتدى إلى المسيحيّة وكتب على راياته الحروف الأولى من اسم يسوع المسيح، وهكذا تمّ له النصر.

السلام الشامل للكنيسة (٣١٣)

توقفت الاضطهادات في الغرب منذ بضع سنوات. وفي الشرق، كان غاليريوس، وهو على فراش المرض، وقد شارف على الموت سنة ٣١١، قد أصدر مرسوم تسامح لصالح المسيحيّين لم يطبّقه خلفه. وسنة ٣١٣ اتّفق الأمبراطوران قسطنطين وليقينيوس على اتّباع سياسة دينيّة موحَّدة، وذلك في رسالة إلى حاكم بيتينية أسموها فيما بعد: «مرسوم ميلانو». تعترف هذه الرسالة بحرّيّة العبادة التامّة لجميع مواطني الأمبراطوريّة، إلى أيّة ديانة انتموا. فأصبحت كلّ ديانات الأمبراطوريّة متساوية في الحقوق، نظريًّا. لكن سرعان ما اختلّ هذا التوازن، لصالح المسيحيّين هذه المرّة. فسنة ٣١٣، بدأ عهد جديد بالنسبة إلى الكنيسة وإلى الأمبراطوريّة. وأخذ الناس يتحدّثون عن «كنيسة قسطنطين» وعن «أمبراطوريّة مسيحيّة».

عدد الشهداء

كم هو عدد الشهداء، قالوا قديمًا: مئات الألوف أو ملايين. هناك مبالغة في الأرقام، إذ لا يمكن أن نقارن بين الاضطهادات وبين الإبادة الجماعيّة الحديثة. ثمّ إنّ المؤرِّخين المحدثين لا يتكلّمون إلاّ على الشهداء الذين حُفظت أسماؤهم وروايات إعدامهم. فهناك تناقض كبير في الأعداد: مثلاً في آخر اضطهاد، هناك أقلّ من ثلاثة آلاف شهيد. قد تكون الحقيقة بين الطرفين، إذا ما أخذنا بالاعتبار الانطباع المريع الذي خلّفته ذكرى اضطهادات ديوقلطيانس.

شهود حريّة الضمير

ما هو أهمّ من كلّ ذلك وأجدى هو التوقّف عند معنى الاستشهاد، هذه الشهادة المتأصّلة في جذور إيماننا. الشهداء يشهدون ليسوع. ولكن لا يمكن فصلهم عن سائر الشهود عبر العصور حتّى يومنا هذا. فجميعهم شهود لحريّة الضمير يؤكّدونها حتّى الموت تجاه السلطة الشموليّة.

رسالة إلى حاكم بيتينية
المعروفة بمرسوم ميلانو سنة ٣١٣

«أنا، قسطنطين أوغسطس، وأنا، ليقينيوس أوغسطس، المجتمعَين سعيدَين في مدينة ميلانو، للبحث في سائر الأمور المختصّة بالأمن والخير العامّ، رأينا من واجبنا، في المقام الأوّل، تنظيم ما يجب تنظيمه لخير الأكثريّة، من أمور تتعلّق باحترام الألوهة، أي إعطاء المسيحيّين وسائر الناس الحريّة وإمكانيّة اتّباع الديانة التي يختارون. هكذا يصبح ما هو إلهي في السماء حانياً علينا ولطيفاً نحونا ونحو كلّ مَن هم تحت سلطاننا. لذلك، بنيّة صافية ومستقيمة، رأينا من واجبنا أخذ قرار بألاّ نحرم أحداً من هذه الإمكانيّة، أتعلّقت نفسه بالدين المسيحي أم بأيّ دين آخر يظنّ أنّه يناسبه. هذا لكي تمنّ علينا الآلهة الشريفة، التي نكرّمها عفويًّا، بنعمها وعطفها المعتادَين. لذلك، يجب أن تعلم سعادتك أنّنا، بعد أن ألغينا القيود الواردة في المراسيم السابقة بحقّ المسيحيّين، قرّرنا إلغاء البنود غير المأنوسة والغريبة عن حلمنا ودماثة أخلاقنا، والسماح، من الآن فصاعداً، للّذين يريدون ممارسة الديانة المسيحيّة، أن يفعلوا ذلك بحريّة وكما يشاءون، من دون أن يزعجهم أو يضطهدهم أحد».

(لقطنطيوس، موت المضطهدين)

الفصل الثالث

الكيان المسيحي في القرون الأولى

(القرون ١-٣)

أن يكون المرء مسيحياً يعني أن يقبل بشارة يسوع وأن يدعها تغيّر دفّة حياته. إن إعلان الكلمة ممكن في كل مكان، وقبول المعمودية ممكن على ضفّة أيّ من الأنهار. . . ومع ذلك، فليس المسيحي شخصاً معزولاً، بل هو ينتمي إلى جماعة، إلى شعب جديد لله، أي إلى الكنيسة.

ما ألّف يسوع أنظمة أو وضع قوانين مفصّلة لمجتمع من المجتمعات، وما فعل الرسل شيئاً من هذا غداة العنصرة. إلاّ أن كل جماعة تبغي الحياة والاستمرار، تنظّم نفسها رويداً رويداً وفقاً لما تقتضيه رسالتها في العالم الذي تعيش فيه. فلا بدّ من توفير أماكن للتلاقي، ولا بدّ من إعداد مسيحيٍّ المستقبل لقبول عطية يسوع. وفي فترات منتظمة، كان المسيحيون يجتمعون للاحتفال بالافخارستيا فظهرت هكذا شيئاً فشيئاً قواعد الاحتفال.

سنحاول أن نرى في هذا الفصل كيف نُظِّمت الحياة الداخلية في الجماعات المسيحية: الدخول في الكنيسة بالمعموديّة، الاحتفال بالافخارستيا والصلاة، المسؤوليات الجماعية، العلاقات والتوترات بين المسيحيّين المنتشرين في ربوع الأمبراطورية.

أوّلاً – الليترجيَّة والصلاة

١. من البيت الخاص إلى دار العبادة

في الكنيسة الأولى، كان المسيحيّون يجتمعون في بيوتهم الخاصة، وهذا كان يتطلب منازل فسيحة. ففي الشرق، اعتاد المسيحيون استعمال العلّيّة الواقعة تحت السقف باعتبارها المكان الأوفر هدوءًا والأكثر خصوصيّة (رسل ٢٠/٧-١١). أمّا في الغرب، فقد كان الاجتماع يتمّ في قاعة الطعام، في بيتٍ على الطراز الروماني، يملكه مسيحي ميسور الحال. وكان الحمّام أو حوض السباحة هو المكان الذي يُمنح فيه العماد. وفي الأصل اليوناني، فإن كلمة «جرن المعموديّة» تعني حوض السباحة،

وكلمة «العماد» تعني الغطس. وفي الطقس الصحو، كان يمكن الاجتماع في الهواء الطلق داخل ساحة مسوّرة: حديقة كانت أم مقبرة. وفي مطلع القرن الثاني، بدأ المسيحيون يهبون بيوتاً وقفاً للكنيسة يقتصر استعمالها على العبادة. أما الكنائس بالمعنى الانشائي، فقد بدأت اقامتها ابتداءً من منتصف القرن الثالث. ويُعَدّ «البيت-الكنيسة» الذي في «دورا - أوروبوس» (Doura-Europos) على نهر الفرات (نحو عام ٢٥٠) أقدم بناء مسيحي معروف. وفي عهد ديوقلطيانس، تددت المباني الدينيّة المسيحيّة فأمر بهدمها في بداية عصر الاضطهاد.

٢. أسرار التدرّج في المسيحية

يجب أن نفهم بعبارة «أسرار التدرّج في المسيحيّة» ما نسميه اليوم: العماد (والتثبيت أو الميرون) والتناول الاحتفالي الأول وما يسبق ذلك من إعداد. ولقد تبنّى تلاميذ يسوع طقس «الغطس في الماء» كطقسٍ للدخول في المسيحيّة، إذ هو عادة موروثة عن اليهود. لكنّهم، إلى جانب القيمة التقليديّة للتوبة والتطهير، أضافوا معنىً جديداً: إن المعموديّة - إذ تُمنح مرة واحدة وللأبد - تنشئ الولادة الجديدة بالروح القدس، وتجعل المسيحي شريكاً

العماد في القرن الثاني

إن الذيذاخة (Didaché) (تعليم الرب للأمم بواسطة الرسل الاثني عشر)[١] هو عبارة عن كتاب «للمرسلين» وضع في بداية القرن الثاني الميلادي في سورية. وهو يتضمّن دستوراً أخلاقياً حول موضوع «الطريقين» - أي طريقَي الحياة والموت - وكذلك تعليمات طقسيّة وراعوية.

١. «أما عن العماد، فعمّدوا هكذا: بعدما تعلّمون كل ما تقدّم، عمّدوا باسم الآب والابن والروح القدس[٢] بماء جارٍ (حيّ).

٢. فإذا لم يكن هناك ماء جارٍ، فعمّد بماء آخر. إذا لم تستطع أن تعمّد بماء بارد، فعمّد بماء دافئ.

٣. إذا كنت لا تملك كليهما فاسكب الماء[٣] فوق الرأس ثلاثاً، باسم الآب والابن والروح القدس.

٤. قبل العماد، فليصُم المعمِّد والمعمَّد ومَن من الغير يستطيع. أوصِ مَن يريد أن يعتمد أن يصوم يوماً أو يومين قبل العماد».

(الذيذاخة ٧)

١. هذا هو العنوان الأصلي للذيذاخة وتُعرف اختصاراً تحت عنوان «تعليم الرسل الاثني عشر». (انظر: القمّص تادرس يعقوب ملطي، قانون الإيمان للرسل - الذيذاخة. كنيسة مار جرجس باسبورتنج، الاسكندريّة).

٢. متى ١٩/٢٨.

٣. «هنا سكب الماء على الرأس جائز عند ندرة وجود الماء. سمحت به الكنيسة فيما بعد في حالة المرض الشديد، حيث يعجز المريض عن النزول في المعمودية، يسمّيه البعض « Clinical baptism» (تعليق القمص تادرس يعقوب).

في مو المسيح وقيامته (روم ٦/٢-١١، غل ٢٧/٣، قول ١١/٢-١٣). فعلى مَن يرغب أن يصير مسيحياً، أن يتوب عن خطاياه ويحفظ الوصايا ويقبل الرسالة، معلناً إيمانه بالمسيح الفادي. كان هذا يتطلب إعداداً مناسباً وكان يستغرق مدة قصيرة في البداية. على أن هذا الإعداد وطقوسه قد تباينا في الزمان والمكان وفقاً للتقاليد والثقافات المتباينة، إذ كانت الكنيسة الأولى غير مركزية كما هي اليوم. ونحن نعرف جيداً كيف كانت الطقوس تقام في رومة في القرن الثالث، وذلك بفضل «**التقليد الرسولي**» لهيبوليطس.

في تلك الحقبة، كان إعداد الموعوظين، قد يستغرق ثلاث سنوات، وكان المرشح للعماد يزكّيه المسيحيون الذين يضمنون جدّية مسيرته (أي الاشبين والاشبينة). ولذلك كان عليه أن يتخلّى عن بعض المهن المرتبطة بعبادة الأوثان وبالتصرفات اللاأخلاقية.

وكان الإعداد للعماد يتضمن التعليم العقائدي والأدبي وهو ما ندعوه «**التعليم المسيحي**». وكان يهدف الى مساعدة الموعوظين، الذين تيقظوا «بإعلان الانجيل» (الكرازة) (kérygme) في اكتشاف مضمون الايمان (ومثال ذلك التعليم: خطب بطرس وبولس الواردة في سفر الأعمال). ويخبرنا هيبوليطس أن معلماً قد يكون اكليريكياً أو علمانياً كان يقوم بهذا التعليم. وكانت تعقب كلَّ تعليم صلاةٌ جماعية مصحوبة «بوضع يَدي» المعلم، ثم يأتي فحص سلوك المرشحين في نهاية فترة الإعداد. ويوم الجمعة السابق لأحد العماد، كان الموعوظون وبعض من الجماعة يصومون. ويوم السبت في الاجتماع التحضيري الأخير، كان الاسقف يضع يديه على المرشحين، معزّماً عليهم، ثم ينفخ في وجوههم ويرسم علامة الصليب على جباههم وآذانهم وأنوفهم. وكان الموعوظون يسهرون، ليلة السبت الى صبيحة الأحد، مصغين إلى القراءات والتعليم. وعند نهاية ليلة الفصح، كانت تتم طقوس العماد ذاتها. إن «وضع اليدين» الأخير والمسحة الختامية (بالميرون)، اللذين كان يقوم بهما الاسقف بعد أن يرتدي الموعوظون ملابسهم، كانا في أصل نشأة طقس التثبيت (الميرون). وبعد ذلك مباشرة، كان المعمَّدون الجدد يشتركون في الافخارستيا (سر الشكر) التي كانت بمثابة ختام لطقس التدرّج أو الدخول في المسيحية. كما كانت عادة ارتداء الملابس البيضاء، في الأيام التالية للعماد، عادة شائعة في ذلك الزمان. وفي بعض الكنائس، كان المعمَّد يضع على رأسه اكليلاً من أوراق الشجر (اكليل النصر والغار) ويشرب لبناً حليباً وعسلاً لأنه قد دخل في أرض الميعاد، أي الكنيسة.

كان طقس العماد خاصاً بالبالغين أساساً، لكنّ تعميد الأطفال، من أي سنٍّ، كان ممكناً وقت عماد والديهم، أو إذا كان والدوهم قد صاروا مسيحيّين من قبل. ومع ذلك، كان هناك معارضون كثيرون لعماد الأطفال.

فطرطليانس القرطاجي المحامي المجادل كان يصرخ: «إن المرء لا يولد مسيحياً، لكنه يصير مسيحياً (بفعل إيماني إرادي)».

٣. الإفخارستيا أو الاحتفال بقيامة الرب

يحتفل المسيحيّون، كل أحد، بقيامة الرب يسوع. إنه اليوم الأول في الأسبوع، لأن السبت هو اليوم الأخير. إن السيد المسيح يجدّد الخليقة كما حدث في اليوم الأول للخلق؛ ولكنه يوم الأحد هو أيضاً «اليوم الثامن»، تمام الزمان وإعلان مجيء المسيح.

يوم الفصح

وهناك أيضاً يوم رسمي بوجه خاص للاحتفال بالقيامة: إنه يوم الفصح. ربما يكون مسيحيّو الشرق هم وحدهم احتفلوا أولاً بعيد الفصح (العشاء الاخير)، في حين اكتفى الغربيون بالاحتفال بيوم الأحد (عيد القيامة). على أي حال، كان جميع المسيحيّين، في نهاية القرن الثاني، يحتفلون بالفصح، وإن اختلفوا على التاريخ الفعلي. ففي بعض أقاليم الشرق، احتفظ المسيحيّون بيوم الفصح اليهودي (في أي يوم من الأسبوع وقع)، وفي المناطق الأخرى، اختاروا يوم الأحد التالي لعيد الفصح اليهودي. وبعد مجالات عدة، حاول ايريناوس (Irénée)، اسقف ليون، تهدئة النفوس (نحو عام ١٩٠)، وإن انساق لوجهة النظر الثانية.

الإفخارستيا

في قلب يوم الأحد المسيحي، وبمزيد من الأبّهة يوم الفصح، كان الاحتفال «بالعشاء الأخير» للرب – وهو ما يسميه المسيحيون الافخارستيا (فعل الشكر) – يشركهم في موت يسوع وقيامته. إن نصوص العهد الجديد تخبرنا قليلاً عن طقس وإجراءات «كسر الخبز» هذا (رسل ٢/٤٢ و٢٠/٧–١١ و٢٧/٣٥؛ و١ قور ١٠/١٦ و١١/١٧–٣٣).

إن مائدة المسيحيّين هذه قد لفتت نظر الحاكم بلينس (Pline) في التحقيقات التي أجراها. وتطلب الذيذاخة من المشتركين في هذه المائدة أن يقرّوا مسبقاً بخطاياهم. ومن خلال نص القديس يسطينس (Justin)، يسهل لنا أن نستخلص عناصر الاحتفال بالافخارستيا (القداس الإلهي) التي تطابق قداديسنا الحالية وتُعدّ العظة في نظره صورة جديدة من صور التعليم الملقى على المسيحيّين: إنها تثبّت فيهم التعليم الذي تلقّوه في مرحلة التدرّج المسيحي (نظام الموعوظين)، وتقيم الصلة بين العهد القديم وشخص الرب يسوع، وتقدّم في الوقت ذاته ارشاداً أدبياً. أما هيبوليطس، فهو يعرض اطاراً لصلاة افخارستية، تاركاً الحرية للارتجال.

كان المتناول يقبل القربان على كفّي يديه: اليسرى فوق اليمنى، «ويقول الاسقف لكل متناول: «خبز السماء في المسيح يسوع». ويجيب المتناول: «آمين!» وهذا ما يجري اليوم

في الطقس اللاتيني. كما كان المسيحيّون يحفظون الافخارستيا في بيوتهم، فيتناولونها قبل الأكل، معتبرين إياها دواءً شافياً.

٤ . التوبة

يُظهر لنا العهد الجديد أن الله يمنح غفران الخطايا عن طريق العماد أولاً (رسل ٢/٣٨). ولكنّ يسوع، بطريقة أوسع، منح الاثني عشر والجماعة الكنسية السلطان لغفران الخطايا، واستبعاد الخاطئين غير التائبين من الجماعة (يو ٢٠/٢٢-٢٣ ومتّى ١٦/١٨-١٩ و١٨/١٥-١٨). وها هو بولس الرسول يطلب استبعاد زاني قورنتُس (١ قور ٥).

الإفخارستيا في منتصف القرن الثاني

لكي يجيب **يسطينُس** – في منتصف القرن الثاني – على هجمات الذين اتهموا العبادة المسيحيّة بأنها لاأخلاقية، وجّه إلى الأمبراطور أنطونينس «أبولوجيّا» أي «دفاعاً» عن المسيحيّين. فكتب «لا شيء مُخفى عندنا، هاكَ كيف نقيم شعائرنا».

هكذا عرّفنا يسطينُس كيف كان العماد والافخارستيا يُقامان في القرن الثاني. ويمكننا أن نستخلص بسهولة، من هذا النصّ، عناصر الاحتفال بالافخارستيا التي ما زالت هي نفسها حتى اليوم: القراءات الكتابية، العظة، الصلاة الجامعة (الأواشي)، الصلاة الافخارستية والتناول.

في اليوم الذي يُدعى يوم الشمس (أي الأحد – كما في الانجليزية Sunday)، يلتئم شمل المؤمنين جميعاً، في المدن والقرى، في مكان بعينه: فيقرأون مذكرات الرسل وكتب الأنبياء بقدرِ ما يسمح الوقت. وعندما ينتهي القارئ، يُلقي من يترأس الاحتفال خطبة (عظة) بقصد التنبيه والحثّ على الاقتداء بهذه التعاليم الجميلة. ومن ثمّ نقف ونصلي معاً بصوت عالٍ. [. . .] وعند انتهاء الصلاة يُؤتى بخبزٍ مع خمر وماء. فيرفع المترئّس، إلى السماء، الصلوات والافخارستيا (أفعال الشكر) بقدر ما يستطيع، ويجاوب الشعب جميعه هاتفين: آمين. ثمّ تتمّ قسمةِ وتوزيع «الأشياء المقدسة» لكل واحد. ويُرسَل الى الغائبين نصيبهم بواسطة خدمة الشمامسة. والمتيسّرون والراغبون في العطاء يعطون بحرية، كل واحد بقدرِ ما يشاء، ويُسلَّم ما جمع للمترئّس الذي يُساعد الأيتام والأرامل والمرضى وذوي الحاجة والأسرى والضيوف الغرباء [. . .]. إننا نجتمع كلنا، يوم الشمس، لأنه اليوم الأول الذي فيه خلق الله العالم، مُخرجاً المادة من الظلمات، والذي فيه قام مخلّصنا، يسوع المسيح، من بين الأموات».

قبل هذا النص بقليل، كان يسطينُس قد حدّد الشروط الواجبة للاشتراك في الافخارستيا إذ هي ليست وجبة عادية

نحن ندعو هذا الطعام «افخارستيا» ، ولا يستطيع أحد أن يشارك فيها إن لم يقرّ بحقيقة عقيدتنا ، وإن لم يقبل حمّام (معمودية) غفران الخطايا والميلاد الجديد ، وإن لم يعش بحسب وصايا المسيح . لأننا لا نقبل هذا الطعام كخبز عادي وشراب عادي . وكما أنه ، بقوة كلمة الله ، اتّخذ يسوع المسيح مخلّصنا لحماً ودماً لخلاصنا ، هكذا فإن هذا الطعام ، المقدّس بالصلاة المؤلّفة من كلمات المسيح ، والذي يجب أن يغذي لحمنا ودمنا ، لهو لحم ودم كلمة الله المتجسّد [. . .]

(يسطينُس ، الدفاع الأول ٦٧ ، ٦٦)

صلاة افخارستية في بداية القرن الثالث

هذا النص الذي حفظه لنا **هيبوليطُس** أوحى بالصلاة الافخارستية الثانية في الليترجيّة الرومانية الحالية ، ولذا يمكن المقارنة بينهما . وقد أُدخل نشيد «قدّوس . . . » في الصلاة الافخارستية ابتداءً من القرن الرابع . ثم صار استعماله عامًّا في منتصف القرن الخامس ، أي قُبيْل المجمع الخلقيدوني .

ليقدّم الشمامسة القربان إلى الأسقف ، وعندما يضع يديه عليه مع كلّ صفّ القسوس ، يجب أن يقول رافعاً الشكر لله:

– «الرب معكم» . وليجاوب الجميع: «ومع روحك» ،

– «ارفعوا قلوبكم» . وليجاوب الجميع «هي عند الرب» ،

– «فلنشكر الرب» . وليجاوب الجميع «إنه حق وواجب»

وعندئذٍ عليه أن يكمل هكذا:

«إننا نشكرك يا الله ، بواسطة فتاك الحبيب يسوع المسيح الذي أرسلته ، في هذه الأيام الأخيرة ، مخلّصاً وفادياً ، وحاملاً لتدبيرك . هو كلمتك غير المنفصل (عنك) ، الذي به خلقتَ كل شيء ، والذي برضاك أرسلته من السماء ، (ليحلّ) في حشا العذراء ، والذي تجسّد بالروح القدس ، ووُلد من العذراء ، وأعلن ذاته ابناً لك .

«وبعدما أتمّ مشيئتك وأقام لك شعباً مقدساً ، فتح ذراعيه – وقت آلامه – لكي يخلّص من الآلام الذين يضعون رجاءهم فيك .

«وبينما كان يُسلم ذاته الى الآلام التي ارتضاها ، لكي يدمّر الموت ويحطّم حبائل الشيطان ، ويطأ الجحيم بأقدامه ، ويصحب الأبرار الى النور ، ويثبّت قاعدة الإيمان ويُظهر القيامة ، أخذ خبزاً وشكرك ثم قال: «خذوا فكلوا ، هذا هو جسدي الذي يكسر لأجلكم» . وهكذا الكأس ، قائلاً: «هذا هو دمي المسفوك لأجلكم . عندما تصنعون هذا اصنعوه لذكري» .

وعندما نتذكر موته وقيامته ، نقدم لك هذا الخبز وهذه الكأس ، شاكرينك على أنك حسبتنا أهلاً لأن نقف أمامك وأن نخدمك بصفة كهنة .

« إننا نضرع إليك أن ترسل روحك القدّوس على قربان الكنيسة المقدسة . وحّد

جميع الذين يشتركون في هذه [الأسرار] المقدّسة، وامنحهم أن يستحقوا الاشتراك فيها، ليمتلئوا من الروح القدس، من أجل ثبات إيمانهم في الحق، حتى نحمدك ونمجدك بواسطة فتاك يسوع المسيح. لك المجد والعزّة به، مع الروح القدس، في الكنيسة المقدسة، الآن وإلى دهر الدهور. آمين.»

ليرفع الاسقف الشكر والحمد كما قلنا أعلاه. وليس من الضروري أبداً أن يلفظ الكلمات ذاتها التي قلناها سابقًا، كما لو كان عليه أن يجتهد في تلاوتها عن ظهر القلب، في شكره لله.

فعلى كل واحد أن يصلّي وفقًا لقدراته. فلو كان هناك شخص كفء لأن يصلّي لوقتٍ أطول، وأن يرفع صلاة احتفالية، فهذا حسن. أما إذا رفع أحدهم صلاة مقتضبة، فلا يمنعه أحد، ما دام يرفع صلاة قويمة العقيدة».

هيبوليطُس الروماني «التقليد الرسولي»
٤، ٩ عن Sources Chrétiennes

هل يمكن غفران جميع الخطايا؟

إن بعض النصوص الأقل وضوحًا، سوف تفسَّر بطرق مختلفة: (متى ١٢/٣١-٣٢ و١ يو ٥/١٦-١٧ وعب ٦/٤-٩ و١٠/٢٦-٣١).

في القرن الثاني، تدعو الذيذاخة (٤/١٤ و١٤:١) المسيحيّين إلى «الاقرار بخطاياهم» قبل الصلاة والاحتفال بالافخارستيا... والمقصود هنا هو هفوات الحياة اليومية، كما حثّت على ذلك رسالة يعقوب (٥/٦) إذ كان على المعمَّد ألا يعود ثانية الى الخطأ الجسيم. وبالرغم من ذلك... ففي القرن الثاني كان يُسمح عامةً -مع التحفّظ- بإمكانية المصالحة، مرة واحدة، لمن ارتكب أخطاء جسيمة (كالجحود والقتل والزنى)، بالتماثل مع العماد الذي تجدّد التوبة مفاعيله. وقد كان هذا رأي طرطليانُس أولاً قبل أن يغيّر وجهة نظره. فالزنى، في نظره، خطيئة لا تغتفر. وقد سبّب اضطهاد داقيوس (عام ٢٥٠) نزاعًا حول موضوع مصالحة المرتدّين. فهبّ المعتدلون في قرطاجة ورومة لمعارضة المتشددين، ونجم عن ذلك تكوين جماعات محدودة منشقة، لكنها ما عتّمت أن اندثرت.

ينبغي أن لا يخطأ المسيحي أبدًا

هرماس يتحاور مع ملاك التوبة أو ما يُدعى «الراعي».

هرماس: سمعت قول بعض المعلمين أنه ليس هناك توبة أخرى غير التي قمنا بها يوم نزلنا في ماء المعمودية، حيث قبلنا غفران خطايانا السابقة. فقال لي:

الراعي: قد سمعتَ جيداً؛ فالأمر هو هكذا. فمن قَبِل غفران الخطايا في العماد، ينبغي عليه أن لا يخطأ أبداً، بل يحيا في النقاوة [...]. لكن الرب فاحص القلوب،

والعالِم بكل شيء مسبقًا، يعرف ضعف البشر وخبث الشيطان الشديد [. . .]. والرب، في مراحمه العظيمة، قد أشفق على خليقته، فأسّس هذه التوبة، ومنحني السلطان عليها. لذلك أعلن لك – هكذا قال – أنّه، بعد هذا النداء الهام والعلني، إذا سقط أحد الذين يجرّبهم الشيطان في الخطيئة، أمكنه أن يتوب مرّة. أما إذا أخطأ ثانيةً وندم فلن تنفعه الندامة في شيء: وسوف يجد مشقة في الحياة.

هرماس، الراعي، ٣١/١–٦
مذكور في
VOGEL, *Le pécheur et la pénitence, dans l'Eglise ancienne,* Le Cerf, 1966, 65-66.

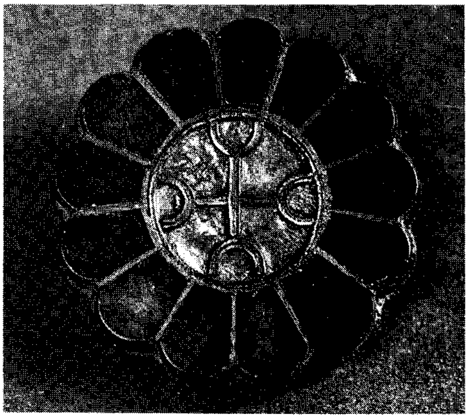
٥. مجالات أخرى للصلاة والليترجية

وضع الكثير من المؤلفين صلوات تناسب ساعات النهار المختلفة. فعند شروق الشمس يُدعى المسيحي للصلاة في اتجاه الشرق «من حيث يأتي النور الحقيقي» تسبيحاً لله الآب الخالق وتمجيداً للقائم من بين الأموات وتذكاراً للقيامة، ويصلّي في التاسعة صباحاً (صلاة الساعة الثالثة) تمجيداً للروح القدس الذي حلّ على الرسل يوم العنصرة، كما يصلّي في منتصف النهار (صلاة الساعة السادسة) اكراماً لمن صُلب في تلك الساعة وتألم من أجل خلاصنا، ويصلّي في الثالثة بعد الظهر (صلاة الساعة التاسعة) إكراماً وإجلالاً لموت السيد المسيح، وعند الغروب للشكر على انقضاء النهار بسلام. وكانت تُبارك القناديل لترمز لحضور الرب وسط شعبه خلال ظلمات الليل والحياة. يصلّي المسيحي عادةً واقفاً، رافعاً ذراعيه وباسطاً كفّيه: إنه وضع «المبتهل»، فلا تُضمّ الأيدي.

ترافق الصلاة مراحل الحياة الرئيسية: من الميلاد حتى الموت. فتدمغها بطابع مسيحي خاص. لكن هذا لا يعني، بالضرورة، أنه يلزم قيام طقس خاص لكل مرحلة من هذه المراحل. تقول الرسالة الى ديوغنيطُس (Diognète): «يتزوّج المسيحيون، مثلهم مثل الناس جميعاً». لكن المسيحيّين قد أعطوا معنى جديداً وكرامة خاصة للزواج. إنهم يُبقون على العادات المتوارثة والتقاليد الحميدة، لكنهم يرفضون أو يبدّلون ما قد يبدو وثنياً. وهم يدينون بعض سلوكيات العصر، كالإجهاض وتشريد الأطفال. وتقدّم رسائل القديس بولس (أفسس ٥ مثلاً) روحانية للزواج المسيحي. ويبدو عدم انحلال الزواج تجديداً مسيحياً في الحياة الاجتماعية.

أمّا ما هو جوهري حقاً للمتزوجين المسيحيّين، فهو الشركة في ذات الإيمان الواحد. وقد كانت تقام منذ وقت مبكر صلاة خاصة من أجل العرسان، ولكنها لم تكن تشكل طقساً كاملاً للزواج.

وفي مجال آخر، كان قادة الجماعات المسيحية (الاساقفة والقسوس) مدعوين لزيارة المرضى ومنحهم المسحة بزيت مقدس، كعلاج



رمز مسيحي قديم

على أمل الشفاء، وكسند وقوة روحية في وقت الوهن وانحلال القوى الجسدية.

وككل معاصريهم، كان المسيحيون يكرمون ذكرى موتاهم، والشهداء منهم على نحو مميَّز وخاص، فكانوا يقيمون على قبورهم صلاة ذكرى يوم موتهم الذي عدّوه يوم مولدهم الحقيقي. وكان المسيحيون يُدفنون أولاً وسط سائر الموتى. وابتداءً من القرن الثالث، تمكّنوا من اقتناء مدافن خاصة بهم، مثلهم في ذلك مثل الجماعات الأخرى كاليهود. وقد تمثّلت هذه المقابر في رومة في «الكتاكومات» أو الديماميس (السراديب).

الفن المسيحي

كانت هذه المقابر أو الديماميس في أصل نشأة الفن المسيحي، الذي بدأ بتصوير مشاهد إنجيلية أو كتابية، وتشكيل رموز مسيحية، كالهلب والسمكة (إذ إن حروف كلمة سمكة في اللغة اليونانية اختوس ICHTHUS تطابق الحروف الأولى للعبارة:

(Iesous CHristos THeou Uios Soter)

ومعناها: يسوع المسيح، ابن الله، المخلص.

وتعود أقدم النقوش الجنائزية المسيحية الى نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث، كما في نقوس آبرقيوس (Abercius).

الزواج المسيحي في رأي طرطليانُس

كتب **طرطليانس** الى زوجته، لكي تتأهب لما يجب أن تفعله بعد موته! فقد طلب إليها ألا تتزوّج ثانية، أو على الأقل أن يكون زوجها الجديد مسيحياً. ثم تطرق طرطليانس الى الحديث عن ماهية الزواج المسيحي. وقد رأى بعض الدارسين في هذا النص إشارة الى قيام طقس للزواج المسيحي منذ القرن الثاني. وكثيرون يعتقدون اليوم أن طرطليانس أراد أن يقول، بالاستناد الى القديس بولس، إن الإيمان يقدّس الزواج المسيحي.

«من أين أستقي القوة لأصف وصفاً مرضياً سعادة الزواج الذي تعقده الكنيسة، وتثبّته القرابين وتدمغه البركة بختمها؟ إن الملائكة تحتفي به، والآب السماوي يصادق عليه [. . .].

أي زوجين هما هذان الزوجان

المسيحيان، المتّحدان برجاء واحد، ورغبة واحدة، ونظام واحد، وبالخدمة ذاتها؟ كلاهما ابنان لأب واحد، وخادمان «للمعلم» ذاته. لا شيء يفصلهما لا في الروح ولا في الجسد، بل بالعكس، إنهما حقا اثنان في جسد واحد! وحيث الجسد واحد فالروح أيضاً واحد. معاً يصلّيان، ومعاً يسجدان، ومعاً يصومان! كل منهما يرشد الآخر بالتبادل، ويحثّه على الخير بالتبادل، ويشجّعه بالتبادل. إنهما كلاهما على قدم المساواة في كنيسة الله، وعلى قدم المساواة حول مائدة الله، وعلى قدم المساواة في الشدائد والاضطهادات والتعزيات [. . .].

(طرطليانس، إلى زوجته، ٢, ٨/٦-٨
عن Sources Chrétiennes)

ثانياً – تحديد الخدمات الكنسية

لقد استغرق تحديد مجالات الخدمات الكنسية قروناً عديدة حتى تمّ لها الثبات. وغالباً ما كان تطور هذا التحديد غامضاً، والألفاظ المستعملة متباينة جداً. وكان ذات اللفظ الواحد يُستعمل بمعانٍ مختلفة بحسب اختلاف الأماكن والأزمنة. وعلى أيّ حال، فنحن لا نجد في العهد الجديد كل التنظيم القائم في كنيستنا اليوم.

١ . الجماعة الفلسطينية

كان للجماعة الأولى تنظيم مزدوج:
مجموعة الاثني عشر التي يرجع تكوينها إلى حياة يسوع الأرضية (مر ٣/١٦-١٩) وقد أُكملت مرّة أخرى بعد موت يهوذا الاسخريوطي (رسل ١/١٥-٢٦)، وهي التي ترشد الجماعة الفلسطينية الناطقة باللغة العبرية (الأرامية).

وهناك مجموعة السبعة التي يحرّكها اسطفانُس (رسل ٦/١-٦) وكانت تعاون الرسل في إرشاد الجماعة المنحدرة من الأوساط اليهوديّة الهلّينيّة الناطقة باللغة اليونانية.

٢ . الانطلاق للرسالة

إن الاضطهاد الذي تبع استشهاد اسطفانُس قد أدّى الى تشتّت الهلّينيّين، فصاروا مرسلين، ومن هنا نشأت تنظيمات مختلفة بحسب أصل الجماعات المختلف. فجماعة أورشليم الكنسية وغيرها من الجماعات المتحدرة من اليهودية قد تشكّلت على غرار الجماعات اليهوديّة العبريّة. فاختارت لرئاستها **مجلساً من الشيوخ أو القسوس** Presbytres (برسبيترس في اليونانيّة تعني الشيخ). وفي أورشليم صار يعقوب بن حلفى على رأس مجلس الشيوخ هذا. وقد أسس الرسل الاثنا عشر، على هذا النمط نفسه، عدداً من الجماعات في أماكن متعددة.

آمًّا في أنطاكية وانطلاقًا منها، فقد نشأت كنيسة مرسلة ذات تنظيم مزدوج:

– **مرسلون متجوّلون** (ذُكروا في ١ قور ٢٨/١٢) وكانوا يمارسون خدمة «خارسماتية» (خدمة المواهب) كرّسوا لها كل حياتهم. إنهم **الرسل** الآخرون، غير جماعة الاثني عشر، أمثال بولس وبرنابا. ولأنهم مسؤولون عن إعلان الانجيل، فهم يتنقلون بلا هوادة... ويليهم **الأنبياء** الذين يفسرون كلمة الله في الاجتماعات. وأخيراً **المعلمون** الذين، على غرار الرابيين اليهود، تخصّصوا في تدريس الكتاب المقدس.

– وخلال التنقلات، كان المرسلون يؤسّسون **جماعات محلية**، يضعون على رأس كل منها مسؤولين: هم **الأساقفة** (= المشرفون) **والشمامسة** (= الخدّام) (في ١/١). والقديس بولس في رسالته الى طيطس يعطي الأساقفة أيضاً لقب **الشيوخ** أو القسوس (طيطس ١/٦-٩). وقد كان مطلوباً من هؤلاء المسؤولين المحليّين أن يكونوا آباء صالحين لأُسر تقية (طيطس و١ طيم ٣/١-١٣). وكانت خدمتهم تتركز في الوعظ والتعميد وترئس خدمة الافخارستيا. وكان جميع الخدّام يُقامون **بوضع الأيدي**، المصحوب بالصلاة والصوم (رسل ٦/٦ و٣/١٣، ١ طيم ٢٢/٥). لكن، ليس كل شيء واضحاً تمام الوضوح في العهد الجديد، ففي أماكن أخرى، ظهرت فئات أخرى من الخدّام (كما في أفسس ١١/٤): رسل وأنبياء ومبشّرون ورعاة ومعلّمون.

الخدمات في نهاية القرن الأول

يذكّر **إقليمنضُس** الكورنثيين بأصل الخدمات في الكنيسة، توبيخاً لهم على عزل خدّامهم بدون سبب. ويبدو أن مدلول المفردات لم يكن قد استقرّ بعد:

فاقليمنضُس يستعمل لفظَي قس واسقف بلا فرق بينهما.

«كان الرسل حاملي رسالة البشرى، من قبل يسوع المسيح. ويسوع المسيح قد أرسله من الله الآب. فالسيد المسيح آتٍ إذاً من الله، والرسل من المسيح. وهذه الإرسالية المزدوجة ذاتها، بترتيبها، تأتي إذاً من إرادة الله. فالرسل المتزوّدون بتعليمات ربنا يسوع المسيح، والمقتنعون تمام الاقتناع بقيامته، والراسخون في إيمانهم بكلمة الله، كانوا ينطلقون تملأهم الطمأنينة التي كان يهبها لهم الروح القدس، يعلنون في كل مكان البشرى بمجيء ملكوت السموات.

على مدى الريف والمدن، كانوا يعلنون الكلمة. فاختاروا أوّل وأفضل الذين قبلوهم. وبعد أن اختبروا ما كانت عليه روحهم، أقاموهم أساقفة وشمامسة لخدمة مؤمني المستقبل [...] لقد عرف الرسل أيضاً أنه قد تقوم معارضات في موضوع الكرامة الاسقفية، فلهذا السبب، ولمعرفتهم الجيدة بما

سيحدث، قد أسسوا الخدمات التي ذكرناها، ثم وضعوا القاعدة المرعية أنه بعد موتهم يجب أن يخلفهم في مهامهم رجال آخرون مختبرون.

فالذين قبلوا هكذا مسؤوليتهم من الرسل، أو فيما بعد، من شخصيات أخرى سامية المقام، مع مصادقة الكنيسة بأسرها، إن خدموا رعية المسيح بطريقة لا غبار عليها [...]، نعتقد أن إبعادهم عن خدمتهم يناقض العدالة. ولن تكون هفوة بسيطة أن يعزل من الاسقفية رجال يقدّمون القرابين لله بتقوى لا غبار عليها.

طوباهم الكهنة الذين أتمّوا خدمتهم [...] فلن يخشوا طردهم من الموقع الذي أوكل إليهم من قبل [...].

(اقليمنضُس الروماني
رسالة إلى القورنثيين ٤٢، ٤٤)

٣. التطور في القرنين الثاني والثالث

إن مصطلحات العهد الجديد قد بقيت، مع بعض التأرجح، عند المؤلِّفين في نهاية القرن الأول وبداية القرن الثاني: اقليمنضس الروماني والذيذاخة، إذ ورد فيهما أن الجماعات الكنسية لها أساقفة–قسوس، وشمامسة. وشيئاً فشيئاً، انفرد، عن مجلس القسوس–الأساقفة، **رئيسٌ**، سرعان ما احتفظ وحده بلقب «**الاسقف**» وتميّز بوضوح عن جماعة الكهنة. أمّا الشماس، الخادم المساعد، فكان مرتبطاً بشخص الاسقف. وهكذا استقرت درجات الخدمة الثلاث التي نعرفها: **الاسقف والقس والشماس**.

ويعتبر القديس إغناطيوس الأنطاكي أول شاهد على هذا في رسائله، إذ يتحدث عن «أسقفية ذات سلطة»، باعتبار الاسقف مستقلاً تماماً عن الكهنة.

وقد اختفى الخدام المتجوّلون شيئاً فشيئاً، وكذلك بدأ الرسل المتأخرون (خلفاء الاثني عشر) يستقرون ويندمجون في الأساقفة، حيث بدأوا يظهرون كلهم **خلفاء للرسل** الاثني عشر.

وقد أُقيمت كذلك خدمات أخرى أقل درجة، اختلفت بحسب اختلاف الكنائس والعصور. فنحو عام ٢٥٠، قدّم اسقف رومة كنيسته هكذا: «لدينا ستة واربعون كاهناً وسبعة شمامسة وسبعة مساعدين للشمامسة (رسائليين) واثنان وأربعون أناغنسطياً (قارئاً) واثنان وخمسون طارداً للشياطين وقارئاً وبواباً، ونيّف وألف وخمس مئة أرملة وفقير، تقوتُهم جميعاً نعمة الرب ومحبته [...]» (اوسابيوس القيصري، تاريخ الكنيسة ٦/٤٣/١١).

وفي الأصل، كان الاسقف وحده يرأس خدمة الافخارستيا ويعظ ويعمّد ويصالح التائبين. وكان على الكهنة أن يساعدوا الاسقف. وعندما ازداد عدد المسيحيين، تضاعفت الكراسي الاسقفية في عدة مناطق كإفريقيا. ولكن، في مدن كبيرة كرومة



استشهاد القديس اغناطيوس الأنطاكي

والاسكندرية، أُنشئت أماكن عبادة عديدة أُسندت إلى كهنة، فاكتسبوا هكذا سلطة خاصة.

كان الاكليرس والشعب يتدخلان بطرق مختلفة في اختيار الخدام. وكان طقس الرسامة الجوهري هو وضع الأيدي على الرأس. فكان الاساقفة يضعون أيديهم لرسامة اسقف آخر... والاسقف والكهنة يضعون أيديهم لرسامة كهنة جدد، والاسقف وحده يضع يديه لرسامة شماس. أما باقي الخدام، كالقارئ، فكانوا يسلّمون إليهم ما يستعملونه في خدمتهم: كالكتاب المقدس.

خدّام وكهنة

في نصوص العهد الجديد، نجد خدام الجماعات يشدّدون على إعلان الإنجيل (١ قور ١٧/١) حين يترأسون الصلاة ويحتفلون بكسر الخبز ويدبّرون الأعمال الجماعية. فهم لا يتمثلون بكهنة اليهودية أو الوثنية [الذين يقومون بأعمال طقسية لاغير]، فكل الشعب المسيحي شعب كهنوتي (١ بط ٩/٢)، ويسوع يُعدّ رئيس كهنتنا الأعظم.

وقد اختار بعض الأساقفة، مثل قبريانُس، حياة البتولية، ولكنها لم تكن مفروضة على خدام الكنيسة.

درجات الخدمة الثلاث

عندما اقتيد القديس **اغناطيوس**، اسقف كنيسة انطاكية، إلى رومة (نحو عام ١١٠) لكي يُقدَّم للاستشهاد، كتب إلى عدد من كنائس آسية الصغرى، لكي يثبّتها في الإيمان ويحثّها على الوحدة والأمانة. وهو يشهد هنا شهادة واضحة بوجود خدمة كنسية رئاسية مثلثة، مميِّزاً بوضوح الاسقف عن القسوس وعن الشمامسة. لذا يمكننا أن نفهم ألفاظ الابسقوبُس والبرسبيترس والدياقونس بنفس المعنى الذي نفهمه اليوم.

«اتّبعوا جميعاً الاسقف كما اتّبع يسوع المسيح أباه، واتّبعوا البرسبيتريوم (جماعة القسوس) كأنهم الرسل [الذين اتبعوا المسيح]. أما الشمامسة فاحترموهم احترامكم

لشريعة الله. فلا يعملنّ أحد، بمعزل عن الاسقف، شيئًا مما يختصّ بالكنيسة. ولتُعتبر هذه الخدمة الافخارستية شرعيةً فقط حين تقام برئاسة الاسقف أو مَن يكلّفه بذلك. فحيثما يقوم الاسقف، فهناك تقوم الجماعة، كما أنه حيثما يكون يسوع المسيح، فهناك تكون الكنيسة الجامعة.

فليس مسموحًا -بمعزل عن الاسقف- أن يُعمَّد أو تُقام الأغابي [وهي وجبة المشاركة والمحبة الأخوية، وتختلف عن الافخارستيا]، بل إن كل ما يُقرّه الاسقف -لمجد الله- مقبول أيضاً لديه تعالى».

اغناطيوس الانطاكي
رسالة الى مؤمني أزمير ٨

عن Les Ecrits des Pères apostoliques, p. 191, 192

* * *

«ليوقّر الجميع الشمامسة توقيرهم ليسوع المسيح، وليوقّروا كذلك الاسقف الذي هو صورة الآب، والقسوس باعتبارهم مجلس شيوخ الله، وجمعية الرسل. فبدونهم لا يمكن الحديث عن «الكنيسة».

(اغناطيوس الانطاكي
رسالة إلى مؤمني طراليا ٣. ص ١٦٢)

٤. الخدمات النسائية

نجد في العهد الجديد نسوة يتبعن يسوع (لو ٨/١-٣)، ثم يشتركن في إعلان الانجيل وفي النبوءة (روم ١٦/١-٣ وفل ٤/٢-٣ و١ قور ١١/٤-٥ ورسل ٢١/٩). ولكن من العسير أن نجد في ذلك تماثلاً دقيقاً مع خدمات الرجال. لكن التلميحات تؤكد الدور النشط الذي كانت تقوم به النسوة في الاجتماعات (١ قور ١٤/٣٤ ت و١ طيم ٢/١١-١٤). هكذا ظهر «نظام **الأرامل**» في الجماعات (١ طيم ٥/٣-١٦) فكنّ يتكرّسن للصلاة وتقديم الخدمات المتنوعة للنساء، كزيارة المريضات.

وقد تأكد وجود «**الشمّاسات**»، بصورة واضحة، في سورية في القرن الثالث. إنهنّ المقابل للشمامسة، في خدمة النساء. وكنّ يكرَّسن أيضاً بوضع الأيدي. وأمّا **العذارى**، فرغم أنهن كنّ غالبًا مجموعة متميّزة في الجماعة الرعوية، إلاّ أننا لا نستطيع الحديث عن خدمة كنسية خاصة بهنّ بالمعنى الحصري. وقد حدث الالتقاء بين أدوار كل من الأرامل والشمّاسات والعذارى.

الشمّاسات في القرن الثالث في سورية*

«أقم لك، أيها الاسقف، رجال عدلٍ معاونين يمكنهم التعاون معك في سبيل الخلاص. سوف تختار الذين ينالون رضاك من بين الشعب كله، فتقيم شمامسة: تختار رجلاً للقيام بالأمور الضرورية العديدة، وامرأة لخدمة النساء. لأن هناك بيوتًا لا

تستطيع أن ترسل إليها شمّاساً لخدمة النساء، بسبب الوثنيين. لكنك تستطيع أن ترسل إليها شمّاسة. وكذلك لأن وظيفة المرأة الشمّاسة ضرورية في كثير من الأمور. وفي المقام الأول، عندما تنزل النساء في ماء العماد، يلزمهن أن يقبلن «زيت المسحة» عن في الماء. وعندما تخرج من الماء مَن اعتمدت فلتستقبلها الشمّاسة وتلقّنها وتعلّمها كيف يد شمّاسة [. . .] على أن يكون رجلاً من يتلو عليهنّ كلمات استدعاء اللاهوت وهنّ يجب أن تصون ختم العماد سليماً في الطهارة والقداسة».

(دسقولية الرسل)

* يمكن مراجعة هذه الفقرة على نص الدسقولية المنشورة بالعربية.

ثالثًا – بوادر انقسامات وروابط بين الكنائس

١. الكنيسة المنتشرة في أرجاء المسكونة

هناك فكر مشترك يُستخلص من نصوص آبرقيوس وأوريجانيس وايريناوس: في آخر القرن الثاني وُضح الوعي لدى المسيحيّين «الجامعية» الكنيسة باعتبارها واقعًا ملموساً. فها هم المسيحيون منتشرون في العالم أجمع، العالم المتحضّر، والمقصود به أساساً الامبراطورية الرومانية والامبراطورية الفارسية. في الشرق (آسية الصغرى، سورية، فلسطين) تركزت الكثافة الكبرى بين المسيحيين، في المدن كما في الريف. وإبّان الاضطهاد الأخير، اضطهاد ديوقلطيانس، وُجدت في بعض المناطق أكثرية من المسيحيين.

أما في الغرب، فكانت البشارة تتقدم بخطى متفاوتة: فكثافة المسيحيّين كبيرة في ايطاليا الوسطى وجنوب اسبانيا وشمال افريقيا (بلاد المغرب الحالية). لكنها أقل في إلّيريكون (البلقان وفي شمال إيطاليا وغاليا (فرنسا). وفي المنطقة هذه – باستثناء مدينة ليون وبضع مدن معدودة – تأسست أهم الكنائس في منتصف القرن الثالث (تولوز، باريس، رامس، تريفا).



القديس غريغوريوس المنوِّر

وفيما وراء الحدود الامبراطورية الرومانية، اهتدت مملكة اديسّا (اليوم: أورفا في تركيا) نحو عام ٢٠٠. وفي الامبراطورية الفارسية، كان عدد المسيحيين غفيراً في أعالي بلاد ما بين النهرين. وفي غضون حملاته ضد أنطاكية، نفى الملك شهبور الأول (٢٤٠-٢٧٢) المسيحيّين وأساقفتهم إلى داخل امبراطوريته، وسرعان ما حلّ بهم الاضطهاد. وقد صارت أرمينيا مسيحية نحو عام ٣٠٠ (بجهود القديس **غريغوريوس المنوِّر** والملك تيريدات).

الكنيسة الممتدة إلى أقاصي الأرض

بأسلوب شعري يفهمه المؤمنون، يعلن مؤلف هذا «الشاهد» التذكاري إيمانه بالرب يسوع، وبالكنيسة وبسرّ الافخارستيا. وهو يشهد منذ ذلك الوقت المبكر، بجامعية الكنيسة. وترمز السمكة (اختوس في اليونانية) إلى السيد المسيح، إذ إن حروفها هي نفس الحروف الأولى للعبارة اليونانية التي تعني: يسوع المسيح ابن الله المخلص.

«اسمي أبرقيوس، تلميذ لراعٍ قدوس
يرعى قطيعه على الجبالِ وفي السهول.
له عينان واسعتان
يخترق ابصارهُما كل مكان.
هو الذي علّمني الكتب، حاملة الإيمان.
هو الذي أرسلني إلى رومة، لأتأمل الجلالة الملكية
وأتطلع إلى ملكة، بملابسَ ونعالٍ ذهبية.
رأيت هناك شعباً يتصف بعلامة ضوئية
ورأيت كل المدائن وسهول سورية
ونصيبين على ضفة الفرات الشرقية.
رأيت المسيحيّين في كل مكان
وفي كل مكان كان الإيمان مرشداً لي
وفي كل مكان كطعامٍ قدمت لي
سمكة من الينبوع حية
كبيرة الحجم، طاهرة نقية
اصطادتها لنا عذراء طوباوية
فكانت تقدّمها طعاماً للأصدقاء أبدياً.
ولديها نبيذ طيّب تقدمه
مع الخبز، طعاماً شهياً.
طلبت – أنا أبرقيوس– كتابة هذه الأمور في سن الثانية والسبعين. وعلى الأخ الذي يفهم مقصدها أن يصلّي من أجل أبرقيوس [...].

(نقش جنائزي لأبرقيوس،
اسقف هيرابوليس في فريجية،
من أواخر القرن الثاني.
عن أ. حَسَّان، صلوات المسيحيّين الأولين.)

٢. الكنيسة مهدّدة بخمير الانقسام

هذه الكنيسة التي لا تتبدّل عبر العالم كله، أمست مراراً مهددة منه في وحدتها. فقد قامت منازعات حول اختلاف العادات الطقسية، أو حول مصالحة الجاحدين إبّان الاضطهادات، ولا نغفل المنافسة البشرية بين بعض الأشخاص من أجل الاسقفية. ولكن هناك أفدح من ذلك! ففي

خلال القرن الثاني: واجهت الرسالة المسيحية، داخل الكنيسة ذاتها، مجموعة من التعاليم الغريبة التي سمحت بظهور مجموعات متنافسة. فهل هي أيضاً تمثّل الكنيسة؟ وما هو مقياس الإيمان الحقيقي؟ إنها مشاكل كنيسة قد تبدو للبعض أنها مهددة بالانفجار.

نتوقف هنا عند بعض الأمثلة: كان المسيحيون من أصل يهودي يريدون الحفاظ، بأي ثمن، على معتقداتهم الطقسية واللاهوتية. فظلّوا أمناء للختان وللامتناع عن الاطعمة المحرّمة. ولأن شاغلهم الأكبر كان الحفاظ على التوحيد الكتابي، لم يروا في السيد المسيح إلاّ انساناً تبنّاه الله يوم عماده. ولانطوائهم على أنفسهم، سرعان ما اعتبرتهم الجماعات الأخرى هراطقة (أي خوارج على جماعة المؤمنين).

تعدّد الشيَع والنِحَل

ثَمّة بعض الوافدين الى المسيحية، المتشرّبين الثنائية اليونانية التي تعارض بين المادة والروح (أي بين الجسد والنفس)، والرازحين تحت منغط مشكلة الشر، قد بدّلوا تفسير العهدين القديم والجديد تبديلاً جذرياً. لقد رفضوا التجسّد، ودعوا إلى المعرفة السرّية (Gnose) وهي المعرفة التي تناقلتها المجموعات الصغيرة لصفوة المؤمنين تناقلاً سرّياً. إن المعرفة، في نظرهم، هي وحدها التي تجلب الخلاص. وقد ضمّت هذه الفرق الغنوسية عناصر مأخوذة عن المسيحية واليهودية والهلّينية، بل وعن الديانات الفارسية أيضاً. وقد اعتبرها الكتّاب المسيحيون هرطقات مسيحية. لكن بعض المؤرخين يتساءلون: ألسنا بالحري بصدد ديانات غريبة ضمّت بعض العناصر المسيحية؟

إن **مرقيون**، الذي يخبرنا عنه ايريناوس، يستبعد من الكتاب المقدس كل ما يشير الى الله الخالق والى التجسد، لأن المادة والجسد هما عنصران رديئان (شرّ). واستغرق كتّاب آخرون في وضع تنظيرات معقّدة:

ماني (٢١٦-٢٧٧) الذي ينحدر من بلاد ما بين النهرين، كان يعتقد بثنائية مطلقة تؤلّف ما بين التعاليم الفارسية والمسيحية. ويعتبر تاريخ العالم حرباً شعواء بين إله الخير أو النور وإله الشر أو الظلمات. والبشر ما هم إلاّ جزيئات من النور محبوسة في المادة الشريرة. فيتعيّن على جزيئات النور هذه أن تصل إلى ملكوت الخير بعد تطهيرات عديدة أو تناسخ متكرّر. ويسوع هو الذي يهدي الى الطريق، وماني هو رسوله، فهو البارقليط الجديد.

لقيت هذه التعاليم استجابة وقتية لأنها حاولت أن تجيب على معاناة الإنسان العميقة، وقد نجد عند بعض الغنوسيين بحثاً دينياً مخلصاً، [وقد يكونون أصحاب ازدواجية ما بين الفكر والسلوك]. ولكن، هل تستطيع الكنيسة أن تقبل، بلا مخاطرة، هذا التخبّط، حيث يخاطر المسيحيون بفقدان موضع أقدامهم، وتوازنهم؟

الكنيسة مهدّدة في وحدتها
بتعليم مرقيون

«إن تكاثر التعاليم والشيع والمجموعات لهو تهديد للرسالة المسيحية وللكنيسة الجامعة، الرسولية. يريد **ايريناوس**، بهذا النص، تعرية ادعاءات الوحي الزائفة التي يقدّمها قادة يدّعون «المواهب». إن أكثرهم شهرة هو مرقيون. وقد كان تعليمه خطراً لأنه اتّصف بالبساطة والحزم. فصل إله العهد القديم، إله الخلق الشرير، عن إله المحبة الذي بشّر به يسوع المسيح، ورفض أن يكون يسوع قد اتّخذ طبيعة بشرية حقيقية، وبذلك اعترض مرقيون على خلاص الانسان بكامله، أي بجسده ونفسه.

يقول ايريناوس «إن مرقيون، المنحدر من بلاد البنط، قد أنشأ مدرسته بالتجديف الوقح على الله تعالى الذي نادت به الشريعة والأنبياء (في العهد القديم): ففي نظره، هذا الإله هو كائن سيّئ التصرف، محب للحرب، متقلّب في أحكامه ومناقض لنفسه. أما يسوع، المرسل من قِبل الآب الذي يسمو على الإله خالق العالم، فقد جاء الى اليهودية في عهد الوالي بنطيوس بيلاطس، نائب طيباريوس قيصر، فأظهر ذاته في هيئة إنسان – لسكان اليهودية – فاسخاً الأنبياء والشريعة وكل أعمال الإله الذي خلق العالم، والذي يدعوه مرقيون أيضاً «قوزموقراطور»، أي حاكم العالم. بل إن مرقيون، فضلاً عن ذلك، اقتطع من الإنجيل بحسب لوقا، حاذفاً منه كل ما يتعلق بميلاد الرب يسوع، ولاغياً أيضاً عدداً من المقاطع من تعاليم الرب، وبالتحديد: تلك المقاطع التي يعترف فيها الرب بغاية الوضوح بأن خالق العالم هو الله أبوه. بهذا أدخل مرقيون في روح تلاميذه أنه أكثر صدقاً من الرسل الذين سلّموا الانجيل! بينما هو يضع بين أيديهم، لا الإنجيل، بل جزئيات منه. بل إنه جَذَع رسالة القديس بولس الرسول، بالطريقة ذاتها، حاذفاً كل النصوص التي فيها يؤكد بولس تأكيداً ظاهراً أن الله الذي جبل العالم هو أبو ربنا يسوع المسيح، وكذلك كل المقاطع التي يذكر فيها بولس الرسول نبوءات تعلن مجيء الرب (الثاني).

وفي نظر مرقيون، لن يكون هناك خلاص إلاّ للنفوس وحدها، وبالحري للنفوس التي قبلت تعليمه. أما الأجساد فلأنها أُخذت من الأرض، فلن يكون لها نصيب في الخلاص».

(ايريناوس اسقف ليون
«الرد على البدع» ١/٢٧/٢–٣)

٣. قاعدة الإيمان

في نهاية القرن الثاني، قدّم ايريناوس اسقف ليون (فرنسا)، في مؤلّفه «الرد على البدَع»، وصفاً لعدد من التعاليم التي وصمها بالضلال. ثم دلَّل أين توجد الكنيسة الحقيقية – وبالتالي – التعليم الحقيقي. فعلى المسيحيين أن يعودوا إلى تقليد الرسل الذي تسلّمته الكنيسة ووصل إلينا بواسطة خلافة الأساقفة. ولهذا السبب عُني ايريناوس بذكر الأساقفة الذين خلفوا الرسولين بطرس وبولس في رومة. وهكذا الأمر في كنيستيْ أزمير وأفسس، فإن تسلسل الأساقفة فيهما يتيح لنا الوصول الى الرسل. كما يذكر ايريناوس بتأثر شديد، في إحدى رسائله إلى صديق له، أنه كان قد سمع بوليقربس، اسقف أزمير، يحدثه عن القديس يوحنا الرسول الذي رأى الرب. هكذا يصل ايريناوس نفسه بواسطة بوليقربس إلى يسوع.

الكتب المقدسة

يطلب ايريناوس ألاّ يبالي أحد بكتب (تدعى مقدسة) سلّمت خارج التسلسل الرسولي. ولكن هل يسهل التحقق من ذلك؟ حتى القرن الثاني، لم يكن المسيحيون في حاجة إلى تعداد الكتب المقدسة الخاصة بهم. وقد كان الكتاب المقدس – العهد القديم – هو كتابهم، كما أنه كتاب اليهود. لكن المسيحيين كانوا يفسّرونه تفسيراً مخالفاً لتفسير اليهود، فقد رأوا فيه الكتاب النبوي الذي أعلن عن مجيء المسيح، كما أنهم بحثوا فيه عن يسوع أكثر من بحثهم عن تاريخ الشعب اليهودي. وهذا يفترض أن يعرف المرء شيئاً عن يسوع. وللحديث عن يسوع، علينا أن نلجأ إلى شهادة الرسل ومعاونيهم، وهي شهادة شفوية في بدايتها. وفي غياب الرسل أو بعد رحيلهم، فإننا نلجأ إلى كتاباتهم. لكن كتابات عديدة نسبتها إليهم زوراً الجماعات المنشقة كجماعة مرقيون، لكي تكتسب سلطة وتجد نفوذاً عند المؤمنين. هكذا ظهر انجيل زائف نُسب إلى توما وآخر إلى يعقوب وآخر إلى بطرس.

في مواجهة هذا الخلط، وضعت الكنيسة «معايير الفرز» لفصل الكتب الملهمة عن غيرها من الكتب التقوية. فكانت صفة «الرسولية»، أي الأصل الرسولي، أحد هذه المعايير. إنها مرادف «للأصالة». وتمّ هذا الفرز خلال القرن الثاني. وقد شهد ايريناوس أن الأناجيل الأربعة وحدها هي المعترف بها في كل المسكونة. وكل منها [بالإضافة الى الكتب الأخرى للعهد الجديد] عمل مباشر أو غير مباشر لواحد من الرسل الأربعة الكبار. فمتّى (كتب الانجيل المدعو باسمه)، وبطرس (أملى رسائله والإنجيل بحسب مرقس) وبولس (أملى رسائله والإنجيل بحسب لوقا وأعمال الرسل) ويوحنا (الانجيل المعروف باسمه ورسائله وسفر الرؤيا).

ويقدّم لنا مؤلّف آخر، من منتصف القرن الثاني، هو صاحب «شقفة موراتوري» (موراتوري هو مكتشف الشقفة في القرن الثامن عشر) معلومات قريبة جداً إلى تلك التي قدّمها ايريناوس.

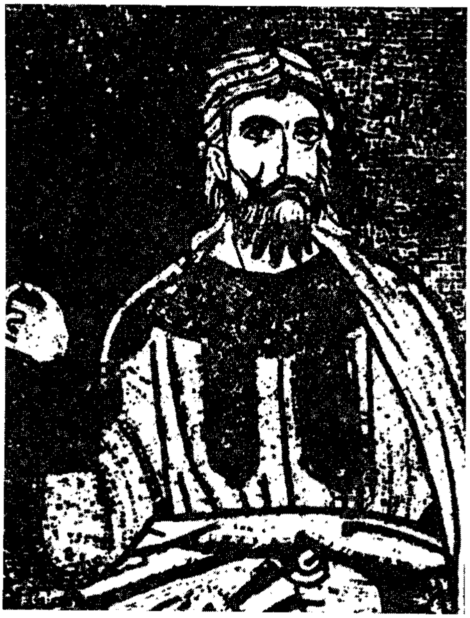
وقد اعتمدت الكنيسة رسمياً، في نهاية القرن الثاني، قانون كتب العهد الجديد.

٤ . نشأة علم اللاهوت

في وسط هذا التعدّد في المعتقدات، اجتهد مسؤولو الجماعات الكنسية في إنارة المسيحيين بإيمان الكنيسة الحقيقي. ففسَّروا لهم الكتب المقدسة المعتمدة، مبيّنين كيف أن السيد المسيح هو متمّم الوحي الكتابيّ. وقد عبّروا عن ذلك بالكرازة الشفوية في عظات الاحتفال الافخارستي وفي تعليمهم للمقبلين على العماد. وكثيرون من هؤلاء المسؤولين: أساقفة وكهنة وغيرهم، صاروا كتّاباً، فأنشأوا الدراسات اللاهوتية الأولية التي صارت أساس علم اللاهوت المسيحي.

وقد اجتهد **إغناطيوس**، اسقف انطاكية في بداية القرن الثاني، أن يصون وحدة التعليم العقائدي لدى الجماعات الكنسية في آسية الصغرى، وذلك في رسائله السبع التي ما زلنا نحتفظ بها.

وعندما تحدّث كثيرون عن يسوع كمن اتخذ صورة انسان فحسب، نهض إغناطيوس يدافع بكل جسارة عن حقيقة التجسد: فيسوع هو حقاً شخصية تاريخية، وإنسان حقيقي. والمسيحيون يلتقون يسوع في جماعة متحدة في الافخارستيا. «لا تشتركوا إلاّ في افخارستيا واحدة، لأنه لا يوجد إلاّ جسد واحد لسيدنا يسوع المسيح، وكأس واحدة، لكي يوحّدنا



القديس ايريناوس

في دمه [...] كما أن هناك اسقفاً واحداً [...]».

وقد قام **ايريناوس**، الذي التقيناه آنفاً، مهدّئاً للنزاع الذي نشأ حول تاريخ عيد الفصح، ومعارضاً المدّعين الوحي، فقدّم لنا فكراً لاهوتياً في كتابَيه «الرد على الهرطقات»، و«التدليل على الكرازة الرسولية» الذي هو تعليم كتابي. وقد وجّه ايريناوس كل فكره اللاهوتي ليدور حول موضوع «الجمع تحت رأس واحد» الذي استقاه من فكر القديس بولس (أف ١/١٠): إن حياة البشرية هي تقدُّم بطيء بقيادة «الكلمة» الإلهي؛ وعندما تجسّد «الكلمة» في يسوع الإنسان، فإنه قد جمع تحت رأس واحد كل الإنسان وكل تاريخ الكون.

ويبقى دائماً القول الشهير: «إن مجد الله هو الإنسان الحيّ»، وحياة الإنسان هي مشاهدة الله ».

اقليمنضس الإسكندري (١٥٠-٢١٥)

وُلد عام ١٥٠م. من أبوين وثنيين، ثمّ اهتدى إلى المسيحيّة. سافر كثيراً وقضى أيّامه الأخيرة في قبّدوقية. هو أوّل عالم مسيحي. فبالإضافة إلى الكتاب المقدّس، كان ضليعاً بالفلسفة اليونانيّة وآدابها، ورأس مدرسة الاسكندرية وقد علّم وكتب في علاقة الوحي بكلّ إنتاجات العقل والفلسفة خاصةً. وهو يرى في كلّ فلسفة قبسا من الوحي الإلهي، ولكنّها تجد كمالها وإكليلها في المسيحيّة. فكما أنّ موسى هيّأ طريق المسيح أمام العبرانيّين، كذلك الفلسفة هيّأت المسيحية أمام الوثنيّين. فالمسيح الكلمة هو الذي وزّع الوحي على الشعوب



اوريجانيس

بواسطة ملاكه. لم يبق من مؤلّفاته سوى ثلاثة: ١- «تحريض الأمم» للرجوع عن الوثنيّة إلى المسيحيّة. ٢- «المرشد» يتضمّن تعليم حديثي الإيمان. ٣-«المتنوّعات» وهي مجموعة دراسات كتابيّة وفلسفيّة يبيّن فيها توافق الفلسفة والوحي ويدحض فيها تعاليم الغنوسيّين.

أوريجانيس (١٨٥-٢٥٣)

هو تلميذ اقليمنضس. ترأس مدرسة الاسكندرية اللاهوتية وهو لا يزال شاباً يافعاً. وما عتّم أن غدا لغزاً في تاريخ الفكر الكنسي لغرازة انتاجه في حقل التفسير الكتابي ومقارنة النصوص وترجمات الكتاب المقدس. وقد اشتهر «بسداسيته» وبكتاباته القيّمة في الدفاع عن الإيمان المسيحي، وتفنيد البدع والهرطقات. وجمع بين المعرفة الشاملة والتواضع والصداقة والانتماء الكامل إلى السيد المسيح.

وعندما تولّى رئاسة مدرسة الإسكندرية عمل على تنظيمها ورفعتها فنالت على يديه شهرة طبّقت الآفاق. وعندما اشتد عليه الاضطهاد هاجر إلى قيصرية في فلسطين وأسس مدرسة لاهوتية على غرار مدرسة الإسكندرية.

وفي شبابه، عندما اقتيد والده إلى السجن بسبب اعتناقه المسيحية، بعث إليه برسالة في سجنه جاء فيها: «لا تترك إيمانك يا والدي محبة لنا، وحذار أن تجحد المخلّص الحبيب رأفة بنا».

ولم يكتفِ بدور المدافع عن الإيمان فعمل على هداية الوثنيين وجاهد جهاداً حسناً. ورغم أن بعض آرائه اللاهوتية قد جانبها الصواب،

عاش ومات ابناً مخلصاً للكنيسة وعلماً من أعلامها الأفذاذ. وقد وافته المنية في مدينة صور.

وقد التقينا مع **طرطليانس** من قبل في عباراته الشهيرة ومنها: «إن دم الشهداء هو ريّ للمسيحيّين! لأن شجاعة المسيحيين وصمودهم هما اللذان هدياه إلى الإيمان. كان ذا طبع حاد فقضى أواخر حياته مع شيعة محصورة، وحارب جماعة المؤمنين الكبيرة في قرطاجة وروما. إن موهبته كمجادل لا ينبغي أن تنسينا أنه كان أيضاً لاهوتياً. فقد قدّم المصطلحات اللاتينية للفكر المسيحي، فكان أول من استعمل، في الحديث عن الله تعالى، لفظي «الثالوث» و«الأقنوم» في اللغة اللاتينية.

وُلد **قبريانُس** (٢٠٠-٢٥٨) وثنياً، ثم وجد في المسيحية تحريراً أدبياً. وقد صار كاهناً فاسقفاً لقرطاجة، فناله نصيب من العذاب أثناء اضطهاد داقيوس ثم أثناء انتشار الطاعون. ولبعض الوقت توترت علاقاته مع اسقف رومة. فقد اختلف الرجلان حول الفكر اللاهوتي لسرّ العماد: ففي قرطاجة كان يعاد عماد الجاحدين التائبين. أمّا في رومة، فقد اعتُبر عمادهم الأول صحيحاً وعليهم فقط اتمام التوبة والمصالحة. وتوّج قبريانس حياته بالاستشهاد. وقد عالج كراعٍ، في مؤلّفاته، الملامح المختلفة للحياة المسيحية : الصلاة والصدقة والملبس. . . واجتهد في كتابات عديدة أن يصون وحدة الكنيسة بعد هوجة الاضطهاد.

إن الوحدة في الكنيسة هي علامة التقاء المسيح الحقيقي، وتستند إلى الشركة فيما بين الأساقفة. وقد ذكر قبريانس في رسائله حشداً من الأشخاص والأحداث.

خصائص الكنيسة الحقيقية

بعد أن أدان **ايريناوس** التعاليم الباطلة، دلّ على الملامح التي بها نتعرّف إلى الكنيسة الحقيقة.

الكنيسة تعلن رسالة واحدة بعينها في العالم أجمع.

مع أن الكنيسة منتشرة في العالم أجمع، فإنها بقبولها هذه البشارة وهذا الإيمان، تصونهما بعناية كما لوكانت تقيم في بيت واحد لا غير. إنها تؤمن بذات الإيمان كما لو لم يكن لها غير نفس واحدة وقلب واحد، وهي تكرز وتعلّم بهما وتسلّمهما بصوت متجانس كما لو لم يكن لها غير فم واحد.

ومهما اختلفت الألسنة على اتساع العالم، فإن محتوى التقليد يبقى كما هو بعينه. فلا الكنائس في ألمانيا لديها إيمان آخر أو تقليد آخر، ولا الكنائس في أيبريا (أسبانيا)، ولا الكنائس لدى القِلتيين

(Celtes)، ولا كنائس الشرق ومصر وليبيا، ولا الكنائس المقامة في وسط العالم (رومة)، بل كما أن الشمس، خليقة الله، واحدة، وهي ذاتها في العالم أجمع، كذلك النور الذي هو بشارة الحق يتلألأ في كل مكان وينير كل الناس الذين يريدون «البلوغ الى معرفة الحق» (١ طيم ٢/٤).

الكنيسة تتناقل تقليد الرسل بتسلسل الأساقفة

ان تقليد الرسل الذي أُعلن في العالم أجمع، يمكن أن يتحقق منه، في كل كنيسة، جميع الذين يريدون أن يروا الحق. وفي امكاننا أن نحصي الأساقفة الذين أقامهم الرسل في الكنائس، وخلفاءهم حتى نصل إلى شخصنا [. . .]. لقد أرادوا أن يكون الذين يقيمونهم خلفاءهم، والذين ينقلون إليهم رسالتهم التعليمية، كاملين تماماً وغير ملومين على أي وجه [. . .]. لكن، بما أن الأمر قد يمتد كثيراً، في مؤلّف محدود كهذا، أن نحصي تسلسل الأساقفة في كل الكنائس، لذلك سنتناول من بينها كنيسة واحدة فقط: هي الكنيسة الكبرى القديمة جداً والمعروفة من الجميع، التي أسّسها ونظّمها في رومة الرسولان بطرس وبولس. وبإثبات أن التقليد الذي تحفظه من الرسل، والإيمان الذي تعلنه للناس قد وصلا إلينا بواسطة تسلسل الأساقفة، سنفحم جميع الذين يكوّنون تجمعات غير شرعية بأي طريقة كانت، سواء عن ولع أو عن مجد باطل، أو عن عمى أو عن خطأ عقائدي: لأنه مع هذه الكنيسة (الرومانية)، يتحتّم ان تتّفق كل كنيسة، أي المؤمنين من جميع الأنحاء، بموجب أصلها الأكثر امتيازاً، فهي التي فيها حفظ دائماً التقليد الآتي من الرسل لصالح هؤلاء الناس الذين هم من جميع الأنحاء».

(ايريناوس اسقف ليون
«الرد على البِدَع» ٣/٣/١-٢)

أوريجانيس (١٨٥-٢٥٣)

للكتاب المقدّس دائماً معنًى روحي، لكن ليس له دائماً معنًى حرفي.

إن أسوار أريحا قد انهارت على صوت الأبواق. وأريحا هي صورة هذا الزمان، الذي نرى قوّته وعُمُده تتحطّم بأبواق الكهنة. كانت هذه القوة وهذه العُمُد تتمثّل في عبادة الأوثان. . . ارسل سيدنا يسوع المسيح، الذي يمثّل يشوع صورة سابقة له ويمهّد لمجيئه، أرسل رسله بصفتهم كهنة حاملين الأبواق المدوّية، أبواق الإنجيل. . . فتحطمت كل آلات الوثنية وكل تعاليم الفلاسفة حتى أسسها. . .

(عظة على سفر يشوع، الفصل السابع)

السامري الصالح (لو ١٠: ٣٠-٣٧)

«كان رجل منحدراً من أورشليم إلى أريحا».

ها نحن نرى في هذا الإنسان، آدم، الإنسان ومصيره الحقيقي: السقوط الذي أعقب العصيان. «اورشليم» هي الفردوس أو أورشليم السماوية، و«أريحا» هي العالم. «واللصوص» يمثلون القوى المعادية، الشياطين أو هؤلاء المعلمين الكذبة الذين سبقوا السيد المسيح. أما «الجروح» فترمز إلى العصيان والتمرّد والخطيئة. و«سرقة الملابس» تصوّر التعرّي من عدم الفساد وعدم الموت (الخلود)، ومن كل الفضائل أيضاً. «والإنسان الملقى بين حيّ وميت» يمثّل الحالة الحاضرة لطبيعتنا التي صارت بين الحياة والموت (فالنفس في الواقع لا تموت). و«الكاهن» هو الشريعة، و«اللاوي» هو النبوءات. و«السامري» هو المسيح الذي صار بشراً، فأخذ جسداً في أحشاء مريم، وأما «الدابة» فتمثّل جسد السيد المسيح. و«الخمر» هي كلمات تعليمه (الذي شفى جروحنا)، و«الزيت» هو كلام الرأفة نحو الناس، والرحمة المشفقة عليهم. وأما «الفندق» فهو «الكنيسة». و«صاحب الفندق» يمثّل الرسل وخلفاءهم، الأساقفة ومعلمي الكنيسة...

و«عودة السامري» هي الظهور الثاني للسيد المسيح».

(أوريجانيس، عظات على لوقا، المجلد الثاني).

الفصل الرابع

الكنيسة في الأمبراطورية المسيحية

(القرنان ٤-٥)

كنيسة قسطنطينية...

ان احلال السلام في الكنيسة سنة ٣١٣ يشير إلى نشأة «الكنيسة القسطنطينية». والمراد بهذه العبارة بروز نمط علاقات جديد بين الكنيسة والمجتمع: فلقد تمّ دمج الكنيسة في دولة تعدّ نفسها مسيحية. فينتج عن ذلك كثير من التداخلات. فالدولة تتدخّل في حياة الكنيسة وتنتظر منها تأييداً له وجه عقائدي. ويحاول الأمبراطور ان يسوّي الخلافات التعليمية التي تُخلّ بالنظام العام، ويتّخذ المبادرة في الدعوة إلى عقد المجامع. وفي الوقت نفسه، تحصل الكنيسة من الدولة على مكاسب مالية وماديّة وقانونية. وهي تعتمد على الأمبراطور في محاربة البدع والوثنية. ولقد أصبح الكلام على «الكنيسة القسطنطينية» يحمل كثيراً من الازدراء. وأضحت الكنيسة سجينة للإطار السياسي والفكري، ممّا أفسد بساطة الانجيل، وفي نظر بعض الاختصاصيين، لم يُقضَ على هذه الظاهرة للكنيسة المعتمدة على الدولة إلاّ بعد المجمع الڤاتيكاني الثاني، فإنه اعترف أخيراً بالفصل بين المجال الديني والمجال الدنيوي وابتعد بعض الشيء عن السلطات الزمنية.

... أو كنيسة ثيودوسية؟

ان أمعنّا النظر في الأمور، وجدناها أقلّ بساطة. فإن التطوّرات بدأت قبل عهد قسطنطين واستمرّت بعده مدّة طويلة. ذلك بأن بعض الأساقفة اعتمدوا - في ممارسة السلطة - نمطاً قريباً من نمط الحكّام الرومانيين. ومن جهة أخرى، لم تصبح الكثلكة دين دولة إلاّ في أيام ثيودوسيوس (٣٨٠).

لسنا هنا أمام خطة قد أُعدَّت من قبَل المسؤولين الدينيين والسياسيين، بقدر ما نحن أمام تأثر الكنيسة البطيء بالمحيط الثقافي والقانوني الذي تعيش فيه.

في هذا الفصل وصفٌ لتطوّر الكنيسة في دولة أخذت تعطف عليها، ووصف أيضاً لما طرأ على المجتمع من تغييرات بفعل الكنيسة التي انقلبت إلى مؤسّسة مهمّة وحاضرة في كل مكان.

أوّلاً – من الحرّية الدينية الى دين الدولة

١. ديانة قسطنطين

وُلد قسطنطين سنة ٢٨٠ في سيس (كرواتيا وصربيا في أيامنا) وهو ابن قسطنسيوس كلورس، وكان امبراطوراً متسامحاً، وهيلانة الزوجة المسيحية. اعتنق قسطنطين المسيحية في ٣١٢. أمّا ظروف «اهتدائه» ومضمون إيمانه، فليست واضحة حتى اليوم. كانت عائلته تميل إلى توفيقية شمسية، أي إلى وجه من وجوه التوحيد. والاسطورة التي نشأت حول معركة جسر ملْفيوس (Milvious) تمكّننا من التأكيد ان شيئاً ما قد جرى، وان الامبراطور اعتبر نفسه مسيحياً بعد ذلك اليوم، متمنيًّا ان يصدّق المسيحيين الذين أكّدوا له ان المسيح هو الذي أنعم عليه بالانتصار. لكن قسطنطين لم يكن مسيحياً مثالياً، مع ان اوسابيوس أغدق عليه الثناء. وفي الواقع، فإنه لم ينل سر العماد إلاّ على فراش الموت (٣٣٧) وقد ارتكب جرائم كثيرة تدلّ على أخلاق بعيدة عن الروح



قسطنطين الكبير

المسيحية. فلعلّه كان كثير التديّن قليل الانضباط!

قسطنطين، الامبراطور الأوحد

وفي ٣١٣، كان قسطنطين يملك في الغرب، وليقينيوس (Licinius) في الشرق. وما لبث الامبراطوران ان اختلفا، وأخذ ليقينيوس يضطهد المسيحيين. ولمّا زحف قسطنطين إليه، بدا أنه شنَّ حرباً مقدسّة للدفاع عن الكنيسة. فهُزم ليقينيوس وقُتل، وبقي قسطنطين الامبراطور الأوحد في ٣٢٤. ويجوز اعتبار هذا التاريخ البداية الحقيقية «للأمبراطورية المسيحية».

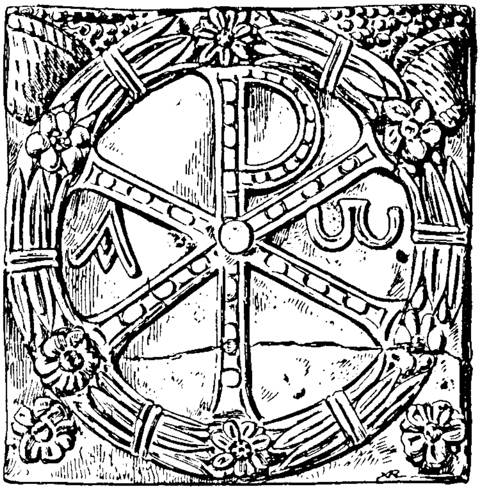
تأسيس مدينة القسطنطينية

قرَّر قسطنطين ان يبقى في الشرق ويؤسس

عاصمة جديدة للأمبراطورية. فاختار مدينة صغيرة تُدعى بيزنطية كانت على البوسفور، وشيّد فيها مقرّ الحكم فأصبح اسمها القسطنطينية. ويقال ان الله هو الذي أوحى إليه بهذا الموقع في الحُلم. وتمَّ الاحتفال بالتأسيس في ١١ أيّار (مايو) ٣٣٠، في رتبة اتّسمت، في الوقت نفسه، بالطابع الوثني والطابع المسيحي. وكان لتغيير العاصمة هذا نتائج هامّة أثّرت في الامبراطورية وفي الكنيسة، إذ إن مركز الثقل في الامبراطورية انتقل إلى الشرق، فأخذ الأباطرة يقلّلون من اهتمامهم بالغرب. وفضلاً عن ذلك، ادّعت القسطنطينية أنها «رومة الثانية» في الكنيسة، واستقطبت حولها جميع المسيحيّين ذوي الثقافة اليونانية. ولكن تأسيس العاصمة الجديدة كان يحتوي على بذرة تقسيم الكنيسة الذي تمَّ فيما بعد.

٢. الأباطرة المسيحيون

احتفظ الأباطرة بلقب «الحبر الأعظم»، أي رئيس الديانة التقليدية. وكانوا مسيحيين، فقاموا بدور مماثل في الكنيسة. فمنذ ٣١٥، ظهرت في النقود العلامات المسيحية (أحرف اسم المسيح). وكانت العُملة في تلك الأيام أداة دعاية عالمية. وكان الامبراطور يعتبر نفسه «مساويًا للرسل» أو «أسقف الخارج». وهذا ما كان يبرّر تدخّلاته. ولكن هذا التغيير، بعد عصر الاضطهادات، بدا لأوسابيوس ولأغلبية



مشبكة المسيح

المسيحيين أمرًا لا يُصدَّق ولا يُتوقَّع. فإن ملكوت الله نزل على الأرض. وأخذ المسيحيون يتقبّلون ما للامبراطور من طابع مقدّس، ويعتبرون الامبراطور رئيس الشعب المسيحي، فهو موسى الجديد وداود الجديد. وبهذه الصفة كان يدعو إلى عقد المجامع.

أفضال الأمبراطور

كان المسيحيون يعترفون بأفضاله عليهم، لأنه كان يهب لهم مباني رسمية وقصوراً لتُستَعمل استعمالاً دينيًا. كما أمر ببناء أماكن رائعة للصلاة، ككنيسة القديس بطرس في الڤاتيكان وكنيسة القبر المقدّس وكنيسة بيت لحم وجميع كنائس القسطنطينية الخ... وأهدى للأساقفة هدايا كبيرة. وكانت الجماعات المسيحية تستطيع أن تقبل الهبات

بالوصايا، فجمعت الكنيسة ميراثًا ضخماً، وحصل رجال الاكليرس على امتيازات قانونية، وخُصَّت المحاكم الاسقفية بولاية مدنية واعتُبر الأساقفة مساوين للحكّام.

شرطة الديانات

ولم يكن في إمكان الامبراطور ان لا يهتمّ بالقضايا الدينية، لا سيّما إن كانت تعرِّض للخطر نظام الامبراطورية الداخلي. ومن جهة أخرى، كان المسيحيون يرفعون دعواهم إلى الأمبراطور، بصفته حَكَمًا في خلافاتهم.

وسيبحث الفصل التالي بإسهاب في تدخّلات الامبراطور على أثر قيام الأزمة الأريوسية ابتداءً من السنة ٣٢٥. ولكن، منذ ٣١٣، التمس بعض المسيحيين في افريقيا تدخّله في القضية الدوناطية التي سمَّمت حياة الكنيسة في افريقيا طوال القرن الرابع. وفي ٣١٢، قام نزاع حول انتخاب قيقيليانس (Cécilien) اسقفاً على قرطاجة، استناداً إلى خبر يقول بأن الذين كرَّسوه كانوا قد جحدوا في أثناء الاضطهاد الذي شنّه ديوقلطيانس. فعُيِّن اسقف آخر مكانه، وهو دوناطس. وامتدَّ النزاع إلى أنحاء افريقيا الشمالية (الرومانية) كلها. فكنتَ ترى في الكثير من المدن اسقفَين خصمين يقاوم أحدهما الآخر. وكان الأمبراطور يخصّ بمساعداته المالية الاساقفة الشرعيين فقط، أي قيقيليانس وأصدقاءه. لكن الدوناطيين رفعوا دعواهم إلى قسطنطين ليعترف بحقّانيتهم. فكلَّف الامبراطور بالبحث في هذه المسألة بعض أساقفة ايطاليا ثم غاليا، فحكموا على دوناطس. فثار أنصاره، وأمر قسطنطين الجيش بإخراجهم من الكنائس التي كانوا يحتلّونها. ولمَّا لم ينجح الامبراطور في اعادة السلام، منح الجميع حرّية التديُّن وقدَّم مالاً للكاثوليك ليشيّدوا كنائس أخرى.

أمبراطورية قسطنطين، ملكوت الله على الأرض؟

«حُرّر جميع الناس من ظلم الطغاة وكانوا في مأمن من الشرور القديمة. وكان كل واحد يعترف بأن الإله الحق الأوحد هو الذي حارب إلى جانب الناس الأتقياء. ونحن خاصة، نحن الذين جعلوا رجاءهم في مسيح الله، أشرق علينا جميعاً فرح لا يوصف وسعادة إلهية، في جميع الصروح التي دمَّرها قُبيل ذلك كفر الطغاة والتي أخذت تعود إلى الحياة بعد اجتياح طويل مميت. فكنَّا نرى المعابد تنهض من أطلالها وترتفع إلى علوّ لا نهاية له، يفوق بكثير علوّ المعابد التي دمِّرت في الماضي.

لكن اسمي الأباطرة (قسطنطين وليقينيوس) كانا يثبِّتان لنا أيضًا ما يأتي من عظمة الله، ويزيدان عليه ويوسِّعانه بتشريعات متواصلة لصالح المسيحيين. وفضلاً عن

ذلك، كان الأساقفة يتسلَّمون شخصياً وعلى وجه مألوف رسائل وتكريمات وهدايا ثمينة من الأمبراطور. . .

فكنّا ننسى الشرور القديمة، ونفقد ذكر كل كفر، ونتمتَّع بالخيرات الحاضرة، ونرجو بالأخص الخيرات الآتية. فكانوا يُصدرون إذاً في كل مكان أوامر الأمبراطور الظافر، وكانت تتّسم بالمشاعر الإنسانية، والشرائع التي كانت تشهد على تقواه الرائعة. وبذلك كان كل طغيان يُلغى ولا شك، وكانت إدارة الأمبراطورية التي هي ملكهما تُحفظ ثابتةً لا نزاع عليها لصالح قسطنطين وحده وبنيه. وقبل القيام بأي عمل آخر، أزالا من العالم بغض الله. وهكذا فمِن بين جميع الخيرات التي أنعم الله بها عليهما في حكمته، أظهرا، بوجه خاص، حبّ الفضيلة وحبّ الله والتقوى وعرفان الجميل لله، عن طريق الأعمال التي قاما بها بمرأى من جميع الناس»

(اوسابيوس القيصري)

٣. إقصاء الوثنية البطيء

وفي ٣١٣، انتهى قسطنطين من منح حرّية الضمير والحرّية الدينية لجميع الديانات. وكانت الأديان القديمة لا تزال نشطة، مع ان نفوذها أخذ يتضاءل. وان استثنينا الشرق، لم يبلغ عدد المسيحيين ٥٠٪ في معظم مناطق الامبراطورية، بل كان الدين التقليدي متأصلاً بقوة في طرفَي السلَّم الاجتماعي. فإن أوساط مجالس الشيوخ الرومانية ورجال الفكر كانوا لا يزالون متمسّكين بالتقليد الثقافي والسياسي بما فيه البعد الديني. وكان سكَّان الريف يحرصون على إقامة الطقوس والاحتفالات التي تؤمّن لهم خصب الحقول والماشية بحسب اعتقادهم.

إقصاء الوثنية البطيء

ومع ذلك، أخذ التشريع، في القرن الرابع، يضيّق على الدين القديم يوماً بعد يوم، إذ إن الأباطرة، من تلقاء أنفسهم أو تحت ضغط المسيحيين، كانوا يحرّمون شيئًا فشيئًا إقامة الشعائر الوثنية. تشهد على ذلك بعض الشرائع المقتبسة من المدوَّنات. فكان قسطنطين يحرّم بعض الممارسات، كالسحر وعرافة الاحشاء. ثم اتّسع نطاق التحريمات وازدادت مشقّتها يوماً بعد يوم. وقام قسطنسيوس يحرّم تقديم الذبائح للأصنام ويغلق المعابد الوثنية ويُصدر عقوبة الاعدام في المخالفين (٣٥٦). لكن هذا التشريع لم يطبَّق بحذافيره، لأنه كان يلقى مقاومة شديدة.

يوليانس وعودة الوثنية

استعادت الوثنية حظوتها على عهد الامبراطور يوليانس (٣٦١-٣٦٣)، وقد لقَّبه المسيحيون بالجاحد. كان ابن أخي قسطنطين وافلت من مجزرة عائلته كلها عن يد ورثة قسطنطين. فكان لديه سبب للشك في قيمة المسيحية. ورُبيّ تربية مسيحية، ولكنه عاد إلى الوثنية حين أصبح امبراطوراً. وكان مولعاً

بالأدب الكلاسيكي، فحاول أن يُحيي الدين التقليدي وندَّد بالمسيحية في كتابه «الرد على الجليليين». ومع أنه كان صاحب فضيلة، لم يتمتّع بشعبية كبيرة. وعُدَّ موته العاجل في إحدى المعارك عقاباً إلهياً.

تحريم الوثنية

وبعد وفاة يوليانس، اتّخذ خلفاؤه كثيراً من التدابير في محاربة الوثنية ومقاومة أهل البدع المسيحيّين. وفي ٣٧٩، رفض غراطيانس لقب «الحبر الأعظم» وأعلن ثيودوسيوس، في ٣٨٠، ان الدين الكاثوليكي هو دين الدولة. فأخذ يلاحق أهل البدع والوثنيين، وحُرِّمت في ٣٩٢ كل ممارسة وثنية. فكانت الضربة القاضية التي أُصيب بها الدين القديم، وكفّوا عن الاحتفال بالأعياد الوثنية ودُمِّرت المعابد. ومنذ مطلع القرن الرابع، أضحى الانقلاب تاماً. وأصبح المضطهدون مضطهَدين والعكس بالعكس. وبعد أنَ كانت سلطة الدولة في خدمة الوثنية، صارت اليوم في خدمة المسيحية. ولكن بقي التراث الفكري يؤدي وظيفته. وهل كان في الأمكان أن تجري الأمور على غير ذلك؟ لقد كان الفصل بين الدين والدولة أمراً لا يخطر بالبال. فبقي الدين أساس المجتمع ولحمته، ولم تتغيّر إلاّ هويّة الدين.

القديس أوغسطينس: من الإقناع إلى القمع

كان **القديس أوغسطينس** اسقف هيبونة منذ ٣٩٦. فاصطدم بمزاحمة الأساقفة الدوناطيين ومعارضته. وكثيراً ما كان الانشقاق الدوناطي مصدر عنف، لأنه كان يُخفي تناقضات اجتماعية. فشدّد أوغسطينس أولاً على اليقين والوداعة لإقناع خصومه. ولكنه انزعج شيئاً فشيئاً بأعمال العنف عند الدوناطيين، فانتقل من الإقناع إلى «الإكراه الصالح» ثم إلى طلب القمع عن يد السلطة. وكثيراً ما استند الناس في القرون الوسطى إلى لو ١٤/٢٣ «وأرغمْهم على الدخول».

«وبذلك أُفهِمُ السامعين أن هدفي ليس هو أن أرغم الناس على اعتناق مذهب من المذاهب، بل أن اعرِّف بالحقيقة من يسعون إليها بهدوء. فكما ستتوقَّف الأسلحة الزمنية الرهيبة من جهتنا، فلتتوقَّف من جهتكم العصابات المحتشدة الرهيبة. ولتهتمّ بالأمر نفسه، ولنَسْعَ بعقلنا، مستندين إلى سلطة الكتب الإلهية: ولْنسألْ ولْنطلبْ ولْنقرعْ في السلام والهدوء، لنجد وليُفتح لنا. . .

. . . لا يجوز لكم أن تعتبروا الإكراه في حد ذاته، بل ما هو الشيء الذي نُكرِه عليه، هل هو صالح أم سيّئ. لا أن يستطيعَ أحد الناس أن يصبح صالحاً على كرهٍ منه، لكنه، إن خاف أن يعاني ما لا يريده، ارتدَّ عن التشبّث الذي يقيّده، أو بادر إلى الاعتراف بالحقيقة التي يجهلها. ومن ثمّ، فإن ذلك الخوف يبلغ به إلى نبذ الخطأ الذي يدافع عنه

أو إلى طلب الحق الذي لا يعرفه. وبذلك ينتهي إلى التمسّك طوعاً بما كان لا يريده على الإطلاق أولاً.
والأمثلة التي وضعها زملاء لي نصبَ عينيّ هي التي جعلتني أعدل عن قراري الأول. فإن شعوري الأول كان ألاَّ ارغم أحداً على العودة إلى وحدة المسيح، وأن أسعى بالكلام وأناضل بالنقاش وأتغلَّب بالعقل، وذلك لئلاَّ أحوِّل إلى كاثوليك كاذبين مَن عرفناهم هراطقة مجاهرين. وهذا الرأي هُزم فيَّ، لا بأقوال المناقضين، بل بالأمثلة المُقنعة».

إقناع أو قمع

هل كان المسيحيون يقبلون بطيبة خاطر أن تساعدهم السلطات على محاربة الوثنية والحركات الهرطوقية؟ لا شك ان ذلك كان يتّفق مع رغبة الأكثرية، وأن الأباطرة لم يكونوا، في آخر الأمر، إلاَّ لسان حالها. ومع ذلك، ظهرت بعض التحفّظات عند عدد من الأساقفة لمَّا حُكم على برسقليانس (Priscilien)، الذي كان أسقفَ أبيلا (Avila) في إسبانيا، فأنشأ جماعة عُرفت بورعها وتقشّفها، ولكنها كانت سرّية، في حوالى السنة ٣٨٠. فاتّهمه اسقفان اسبانيان بالمانوية لدى السلطات الكنسية، ثم لدى الأمبراطور مكسيمس في تريڤا (Trèves). لكن مرتينس، اسقف طور (Tours)، الذي كان في تريڤا في تلك الأيام، حثّ الاسقف المتَّهِم على الانسحاب، وحثّ الامبراطور على عدم إراقة الدم. واضاف مرتينس: «ان الحكم في قضية كنسية عن يد حاكم زمني لهو بدعة غريبة ورهيبة». ومع ذلك، فقد حكم الأمبراطور على برسقليانس بالموت مع عدد من أنصاره، بتهمة فساد الأخلاق والسحر (٣٨٥). فكانوا أول هراطقة هلكوا بضربات عدل الدولة. فقطع امبروسيوس، اسقف ميلانو، علاقاته مع الاسقفَين الشاكيين. وكان سخط الوثنيين المثقّفين شديداً.

لا شك أن الوضع كان معقَّداً. فإن اوغسطينس، اسقف هيبونة، الذي كان يعيش في كنيسة افريقية عكَّر صفوَها الانشقاق الدوناطي، انتهى به الأمر إلى قبول التعاون مع السلطات الزمنية لمحاربة المنشقين الذين كثيراً ما كانوا يستخدمون العنف المسلّح.

٤. الإنجيل يحوّل المجتمع

أتُرى أن الروح المسيحي قد تغلغل في مؤسَّسات الامبراطورية المتأخّرة؟ لا شك ان الروزنامة المسيحية أخذت تنظّم الحياة الاجتماعية. فمنذ ٣٢٥، أصبح يوم الأحد يوم عطلة، وكذلك الأعياد المسيحية الكبرى... وقد اكتُشف أيضاً تأثير مسيحي في التشريع العائلي. فالشريعة صارت تحرّم الزنى مع الإماء. ووُضعت عقبات أمام الطلاق، من دون أن يُلغى. ولم توضع العبودية على بساط البحث، فالكنيسة نفسها كانت تقبلها. لكن فصل العبيد

عن عائلاتهم أصبح محرَّماً، لا بل سُهِّلت عملية الإعتاق فأخذوا يكتفون بتصريح في إحدى الكنائس في حضور رجال الإكليرس. وأبدوا مزيداً من الإنسانية في السجون. فلا يجوز للسجَّانين أن يتركوا السجناء يموتون جوعاً. ويجب أن يرى هؤلاء نور الشمس مرّة في النهار. ويحقّ لرجال الاكليرس أن يزوروا السجون.

المؤسَّسات الخيرية

إذا غاب تحوُّل البنى في العمق، فقد ظهرت الاهتمامات المسيحية في إنشاء المؤسَّسات الخيرية. فعن طريقها ستتحوّل البنى في أجلٍ بعيد جداً. والصدقة، وهي تقليدية منذ زمن أعمال الرسل، أخذت تنتشر في الأمبراطورية المسيحية. فقام باسيليوس، اسقف القيصرية في قبّدوقية، وأنشأ مدينة مسيحية فيها كنيسة ودير وملجأ ومستشفى. وكانوا يستقبلون فيها المسافرين والمرضى والفقراء، يخدمهم رهبان مؤهَّلون. وفي الاسكندرية، كان للاسقف هيئة تضمّ خمسمائة ممرِّض. وفي مرفأ اوستيا، كانوا يستضيفون الحجَّاج...

تنصير محدود

ومع ذلك، بقي تنصير المجتمع محدوداً. فإن المعمَّدين الجدد لم يكونوا دائماً شديدي الاهتمام بتغيير عاداتهم. كان التشريع يحرّم قتل الأطفال، ولكنه لم يحرّم التخلّي عن الأولاد. أمَّا تحريم قتال المصارعين، فقد بقي، في أغلب الأحيان، حبراً على ورق في القرن الرابع. وخفَّ تحفّظ المسيحيين من تصرّف الجيش. فأصبح نظام الامبراطورية المتأخّرة شيئاً فشيئاً نظاماً توتاليتريا وبوليسياً وتعسّفياً. فكان العدل كثيراً ما يلجأ إلى التعذيب. وحاول الأساقفة أحياناً ان يقاوموا ذلك العنف. فطلب امبروسيوس إلى الامبراطور ثيودوسيوس، وكان قد قتل سبعة آلاف شخص في سالونيك، ان يتوب (٣٩٠) قبل ان يتقدّم من سرّ القربان.

ثانياً – تطوّر العبادة وتقدّم التبشير

١. تطوّر سرَّي المعمودية والتوبة

قبل أن يحلّ السلام في الكنيسة سنة ٣١٣، كان الاهتداء إلى الدين المسيحي يعرِّض المهتدي لخطر الاستشهاد. لكن كلّ شيء تغيَّر بعد ذلك. فإن العديد من سكّان الأمبراطورية أخذوا يتمنّون أن يصبحوا مسيحيّين عن روح انتهازية، فيرفضون الواجبات الأخلاقية التي تقتضيها المعمودية. لم تتغيّر رتب المعمودية والتوبة، لكن ممارستهما تبدّلت في العمق.

سرّ المعموديّة

كان الكثيرون يُختمون بعلامة الصليب ويلقَّنون الحقائق الأولية، ويُغذَّون بالملح المبارك، ويكتفون بذلك. فكانت مرحلة طلب المعمودية لا تنتهي، لأنهم كانوا يؤجّلونها إلى

الشيخوخة أو حتى الموت. ذلك لأن المعمودية تغفر جميع الخطايا وكان سرّ التوبة لا يُمنح إلاَّ مرَّةً في الحياة، فكان من الأفضل ألاَّ يلتزم الإنسان التزاماً نهائيًا إلاَّ بعد انطفاء الأهواء، ولذلك كانت الكنيسة لا تهتمّ بجماعة الموعوظين التي دون المستوى المطلوب، بقدر ما تهتمّ بالذين يطلبون المعمودية في أجل قريب.

وكان هؤلاء يكتتبون في مطلع الصوم الكبير، فيصبح الاطارَ الزمني المناسب للاستعداد. وكانت دروس التعليم المسيحي يلقيها الاسقف أو مندوبه فتكشف تدريجيًا عن مضمون الإيمان عَبرَ قانون إيمان. ولأسباب تربوية – يُقصد بها زيادة قيمة ذلك التعليم الذي يجب أن يُعاش أيضاً – كان يُطلب من الموعوظين ان يكتموا ما تعلّموه أمام غير المعمَّدين. وفي أثناء اجتماعات طقسية، كان الموعوظين يخضعون للتعزيمات، ويُقرأ عليهم قانون إيمان الرسل الذي عليهم أن يُعلنوه يوم السبت العظيم. وفي بعض الكنائس، كانت هذه الرتبة صلاة الأبانا. وكانت دروس التعليم المسيحي تُواصَل في الأسبوع التابع للمعمودية. ولذلك كانوا يميِّزون أحياناً بين الدروس التي كانت تسبق المعمودية (وكانت مركَّزة على قانون الإيمان والتجدُّد الأخلاقي) والدروس «المِستْاغوجية» (عن الأسرار الكنسية) التي تلي المعمودية، وكانت موجَّهة نحو تفهّم معنى المعمودية نفسها والافخارستيا.

وفي زمن انتقلت فيه مقاومة المجتمع المعادي إلى المرتبة الثانية، شدّد علم اللاهوت على ما في الرتبة الفعَّالة من قيمة تدل على مجانية عطية الله. وأراد أوغسطينس أن يشجّع على عماد الأطفال، فشدّد على الخطيئة الأصلية، فهي تقتضي تدخّل الله، حتى في غياب أية خطيئة شخصية.

الدوافع المتنوّعة التي كانت تحمل على
طلب المعمودية في منتصف القرن الرابع

عاش **كيرلّس** (٣١٥–٣٨٧)، **مطران أورشليم**، اسقفية مضطربة بسبب الأزمة الأريوسية، فلقد نُفي ثلاث مرَّات. أشهر مؤلّفاته هي سلسلة من ٢٤ محاضرة في التعليم المسيحي ألقاها في كنيسة القبر المقدّس. أمَّا النص الذي نورده هنا، فهم مقتبس من المحاضرة في استقبال الذين سجَّلوا أسماءهم في مطلع الصوم الكبير. ونرى أن كيرلّس لا ينخدع بتنوّع الدوافع التي كانت تحمل بعض الناس إلى طلب المعموديّة. . .

«نحن، خدّام المسيح، قبلنا كل من تقدَّم. فعلى غرار البوَّابين، تركنا الباب مفتوحاً. فقد تكون قد دخلتَ، ونفسك ملطَّخة بالخطايا، وبنيَّة غير صافية. لقد دخلتَ لأننا اعتبرناك أهلاً لذلك، وسجَّلنا اسمك. أترى نظام جمعيتنا؟ أتنتبه إلى قراءة

الكتاب المقدّس وإلى حضور الإكليرس وإلى نظام تعليمنا؟ اخفض عينيك في هذا المكان وتعلّم ممّا تراه. واخرج الآن وعد غداً متأهباً.

ان كانت نفسك مليئة بالبخل، عد في لباس آخر. اخلع الثوب الذي كان عليك ولا تُغطّه بثوب آخر. اخلع الخلاعة والدنس، وارتدِ لباس الطهارة الساطع. أمّا أنا، فإني أسدي اليكم هذه التنبيهات، قبل أن يدخل يسوع، عريس نفوسكم، ويرى لباسكم. عندك متّسع من الوقت، لأن أمامك توبة تدوم أربعين يوماً. وهي فرصة ممتازة لتتعرّى وتغتسل، ثم ترتدي وتعود.

أمّا إن بقيت في سوء استعدادك، فالذي يكلّمك غير مسؤول عن ذلك. ولكن لا ترجُ أنت أن تنال النعمة، لأن الماء يقبلك، لكن الروح القدس لا يستقبلك. وان كان أحد منكم عالمًا بأنه مجروح، فليضمّد جرحه. وان كان أحد منكم قد سقط، فلينهض.

لعلّك جئت بحجّة أخرى. فقد يريد زوج أن يُرضي امرأته، فيأتي لهذا السبب. ويمكننا ان نقول هذا الشيء نفسه في شأن النساء. وكثيراً ما نجد عبداً أراد ان يرضي سيّده، وصديقاً صديقه.

أَقبلُ طُعم الصنّارة، اقبلك انت الذي جاء بنيّة سيّئة، ولكني أرجو أنك ستخلص. لعلّك لم تكن تعلم إلى أين أتيت، وما هي الشباك التي كانت تصطادك! لقد وقعت في شباك الكنيسة. فدع نفسك تُصطاد حيَّة، ولا تهرب، فإن يسوع هو الذي يصطادك بالصنّارة، لا ليُميتك، بل ليهب لك الحياة الجديدة بعد أن يميتك. عليك ان تموت وتقوم من الموت. فقد سمعت بولس الرسول يقول: «أموات عن الخطيئة، وأحياء للبرّ». فمت عن خطاياك وأحيَ للبرّ: إحيَ هكذا منذ اليوم».

سرّ التوبة

هناك مسيحيون قليلو الورع، فهم أكثر وقوعاً في الخطايا الثقيلة. وبما أن سرّ التوبة لا يُمنح إلاّ مرّة في الحياة، فكان الخاطئون يؤجّلونه إلى أطول وقت ممكن، وغالبًا إلى دنوّ الموت.

كان الاقتراب من سرّ التوبة الرسمي أو القانوني ممارسة استثنائية، لا يخضع لها إلاّ الذين ارتكبوا خطيئة ثقيلة وفاضحة تُبعدهم عن الاقتراب من سرّ القربان. وهذه الخطايا لا تطابق مطابقة دقيقة خطايانا المميتة. فأغلبية المسيحيين لم يكونوا في حاجة إلى الاقتراب من سرّ التوبة الاحتفالي.

وكان الذي ارتكب خطيئة ثقيلة يعترف بها، في السرّ مبدئيًا، للاسقف، وكان في امكان الاسقف ان يطلب من الخاطئين ان يتقدّموا من سرّ التوبة. وكان هذا السرّ يجري على مراحل في إطار الاحتفال الليترجي الطقسي. وعند دخول الخاطئين في مسيرة التوبة، يضع الأسقف يديه عليهم ويسلّمهم المِسْح، وهو لباس مصنوع من شعر المعز. وكانوا يؤلّفون عند ذلك مجموعة خاصة في

الكنيسة. فلا يعودون يشاركون في التقدمة ولا في التناول. وفي أثناء الصوم الكبير، كان الكهنة يضعون أيديهم مرَّة أخرى على التائبين. وفي نهاية زمن يختلف طوله باختلاف ثِقَل الخطيئة وقد يدوم عدّة سنوات، يصالح الأسقف التائبين بوضع اليدين، وكان يفعل ذلك يوم خميس الأسرار عادة.

وكانت الشروط المفروضة على التائب شاقة جداً. فكان عليه أن يرتدي ثياب الفقراء ويهمل الاهتمام بالنظافة ويصوم ويمتنع عن أكل اللحم ويتصدَّق. وكان ممنوعاً عليه أن يزاول بعض الحرف، وعليه ان يمتنع عن العلاقات الزوجية. وحتى بعد المصالحة، كانت الموانع المهنية والزوجية تدوم حتى الموت. وإن رفض أحد أن يحترمها، عُدَّ جاحداً، لا يستطيع التماس المصالحة، علماً بأن سرّ التوبة لا يُمنح إلاَّ مرّة في الحياة. وجلّ ما كان يرجوه هو الزاد الأخير على فراش الموت.

تبعاً لذلك انقلبت هذه القسوة في ممارسة التوبة الرسمية على المؤسسة نفسها. فقد كان الموعوظون يؤجّلون اعتمادهم لتُغفر خطاياهم يوماً ما من دون الخضوع لأي شرط. أمَّا الخاطئون المعمَّدون، فإنهم كانوا يؤجّلون توبتهم إلى أقصى حدّ، لأنهم لا يستطيعون التخلي عن إيمانهم وعن الحياة الزوجية. على كل حال، كانت التوبة تُرفض للأشخاص الذين ما زالوا حديثي السنّ، فأصبحت لا تعني إلاَّ الشيوخ والمشرفين على الموت.

واستعداداً لتوبة اللحظة الأخيرة، كان الخاطئون مدعوّين إلى أعمال توبة في الحياة اليومية، من إماتة وصلاة وصدقة الخ. ، شرط ألاَّ يقتربوا من سرّ الافخارستيا. وكان مرتكبو أفضح الخطايا يُحرَمون كل واحد باسمه، ولكنّ الكثيرين، بعد فترة من الامتناع، كانوا يعودون إلى التناول دون ان يتصالحوا. لا بل كان بعضهم يظنّ أن التناول يمحو آثار خطيئتهم. وفي القرن الخامس، أخذ الخاطئون يهملون التوبة، لعدم قدرتهم على قبول شروطها. وبالمقابل، كان بعض المسيحيين يخضعون للتوبة الرسمية بروح التواضع.

٢. الأبّهة في العبادة

وكانت مظاهر الأبّهة في الاحتفال بسرّ الافخارستيا تزداد يوماً بعد يوم في بناء الكنائس وارتداء الملابس الطقسية. فكثرت القراءات والتطوافات والمواعظ. وجرت العادة في الغرب أن يُحتفل بالافخارستيا كل يوم، في حين كانت العادات في الشرق تختلف باختلاف الكنائس.

السنة الطقسية

يبدو، منذ أواخر القرن الثاني، ان أفراح الفصح كانت تمتدّ إلى الأيام الخمسين التابعة. أمَّا عيد العنصرة بصفته احتفالاً بعطية الروح القدس، فهو يرقَى إلى نهاية القرن الرابع فقط. وفي وقت مبكّر، ضمّوا إلى الاحتفال بالفصح

اليومَين السابقين، يومَي صوم واستعداد، ولاسيّما للموعوظين الذين سيعمَّدون في ليلة الفصح. ولم يظهر الصوم الكبير، أي الأيام الأربعون التي تسبق عيد الفصح، إلاَّ بُعيد إحلال السلام في الكنيسة. وقد فُرض الصوم أوَّلاً في الأسبوع السابق للفصح، ثم امتدّ إلى الأيام الأربعين، مع بعض الاختلاف في الحساب. وكانوا يريدون الاقتداء بأيام الصوم الأربعين التي قضاها يسوع في البرية. ولقد أسهم الاستعداد للمعمودية في زيادة شأن الصوم الكبير.

وفي القرن الرابع، ظهر عيدان في يومَين ثابتَين. ففي الشرق، احتُفل بعيد الظهور، في ٦ كانون الثاني (يناير) بظهور الله على الأرض، أي بميلاد يسوع واعتماده. وكان يوم ٦ كانون الثاني (يناير)، يوم «رع»، عيد الشمس في مصر. وفي الغرب، في حوالى السنة ٣٣٠، أخذوا يحتفلون، يومَ ٢٥ كانون الأول (ديسمبر)، بميلاد يسوع. وكان ذلك اليوم يوم الاحتفال الوثني بالشمس غير المهزومة، حين كان النهار يأخذ في الطول. وفي نهاية القرن الرابع، كان العيدان يقامان في الغرب وفي الشرق. فاقتصر عيد الميلاد في الغرب على الاحتفال بالميلاد في بيت لحم، وشمل عيد الظهور سائر ظهورات يسوع: زيارة المجوس والاعتماد واجراء المعجزة الأولى في قانا.

إكرام الشهداء والزيارات إلى الأماكن المقدسة

شهد اكرام الشهداء انتشاراً زاخراً بالحيوية، وقد أُخذ أحيانًا عن العاطفة الدينية الوثنية القديمة، مثلاً: تقدمة الطعام عند القبور. وأخذوا يشيّدون، فوق رفات الشهداء، كنائس واسعة (كنيسة القديس بطرس في رومة، وكنيسة القديس مرقس بالاسكندرية). وكان بعض الناس يوصون بأن يُدفنوا بجوارها. أمَّا الميل إلى إكرام الذخائر، فإليه ترجع بعض الاكتشافات المدهشة: صليب المسيح، ورفات القديس اسطفانس، ورفات الرسل الخ. وكانوا يوزّعونها على الكنيسة كلها. وكانوا يزدادون اهتماماً بأماكن تاريخ الكتاب المقدس وحياة السيد المسيح. ومن هنا نشأت الزيارات إلى الأماكن المقدّسة، وأشهرها هي زيارة ايجيريا (Egérie) إلى القدس في حوالى السنة ٤٠٠. وكانت سرعة التصديق عند الزوّار تسهّل مهمة الدليل الذي كان «يكتشف» ذكريات يزداد عددها يوماً بعد يوم.

٣. التقدُّم في التبشير

آ) في داخل حدود الأمبراطورية

وفي داخل حدود الامبراطورية، اصبحت المدن مسيحية في أغلبيتها. ونسي المسيحيون يومَ كان أجدادهم مضطهَدين، فكانوا في بعض الأحيان يدمّرون ما بقي من المعابد الوثنية (الاسكندرية: ٣٨٩، وقرطاجة: ٣٩٩). وركَّز الاساقفة جهودهم على تبشير الريف، وقد بقي متمسكًا بديانة قوى الطبيعة. وكان

القديس مرتينس، اسقف طور (غاليا) من ٣٧٠ إلى ٣٩٧، أشهر مبشّري الريف، علماً بأن الأسطورة بالغت كثيراً في عمله. فكان المبشّرون يقطعون الأشجار في الأحراج المقدّسة ويحرقون المعابد ويشيّدون على رمادها الكنائس الكبيرة والصغيرة. وكانت الجموع تطلب العماد بالجملة. ونتج عن تبشير الريف إنشاء الرعايا، وهي مناطق مستقلّة يُعهد بها إلى كهنة منتدَبين من المدينة الاسقفية. وفي العديد من المناطق التي ابتدأ فيها التبشير في مطلع القرن الرابع، تضاعفت أعداد الكراسي الاسقفية في ذلك القرن. ففي ايطاليا، انتقلت من ستّة في السنة ٣٠٠ إلى خمسين في السنة ٤٠٠. وفي غاليا، كان عددها اثنين وعشرين في ٣١٤ فأصبح سبعين في السنة ٤٠٠.

ب) في خارج الأمبراطورية

عانت كنيسة الفرس اظطهاداً شديداً في منتصف القرن الرابع، فعادت ونظَّمت أوضاعها انطلاقاً من المجمع السلوقي (بغداد ٤١٠) وأظهرت نشاطاً تبشيرياً كبيراً إلى جهة الشرق: الخليج الفارسي وآسية الوسطى. وفي القرن الرابع، نظَّمت الكنيسة الأرمنية أحوالها وأصبحت الأرمنية لغة الثقافة في أيام **القديس مسْروب** (+ ٤٤١) الذي وضع الابجدية الأرمنية. وترسَّخت المسيحية في بلاد القوقاز: فإن **القديسة نينو** (Nino)، وهي أَمَة خُطفت من عند الرومان، هدت جيورجيا إلى المسيحية. والذين بشّروا بلاد الحبش وربطوا



العشاء السرّي (مخطوط أرمني)

كنيستها بكنيسة الاسكندرية كانوا عبيداً أيضاً. وقام **ولْفيلا** (Wulfila) (+ ٣٨٣) بهداية الجرمانيين إلى المسيحية الأريوسية.

وفي القرن الخامس، رفضت أغلبية تلك الكنائس الخارجة عن الامبراطورية قرارات مجمعَي أفسس وخلقيدونيا. فانفصلت عن الكنائس التي كانت في داخل الامبراطورية، ولكن هذا الانفصال لم يحدّ من اندفاعها التبشيري.

ج) دخول المسيحية بلاد النوبة

تُجمع الروايات التاريخية على أن المسيحية قد دخلت بلاد النوبة عن طريق مصر، لا عن طريق الحبشة، وأن دخولها كان مبكراً، أي أنه سبق بعثات التبشير الرسمية التي أرسلها كل من الامبراطور يسطنيانس وزوجته ثيودورة إلى ممالك النوبة في منتصف القرن السادس الميلادي. وهناك روايات عن دخولها عن يد المبشرين المصريين من التجّار في القرنين الأول والثاني للميلاد، كما يذكر سومرز كلارك (Somers Clarke) ومرقس سميكة[1].

وقد كان من الطبيعي أن يلجأ المسيحيون المصريون إلى النوبة فراراً من اضطهاد الرومان لهم منذ عصر ديوقلطيانس، ومن اضطهاد البيزنطيين بعد مجمع خلقيدونية.

وعلى الجانب الآخر، كان النوبيون في تلك الحقبة كثيراً ما يهاجمون حدود مصر الجنوبية والواحة الخارجة، كما قامت بينهم وبين سكّان المنطقتين مبادلات تجارية، مما أتاح لهم معرفة الكثير عن العقيدة المسيحية[2]. وتشيد بعض قصص الرهبان التي ترجع على الأرجح إلى القرن الرابع أو الخامس الميلادي إلى اغارة النوبيين على بعض الأديرة القائمة في جنوب مصر، ومحاولة الرهبان كسب ودّهم وهدايتهم[3]. وقد استغاث أبيون، اسقف فيلة في منتصف القرن الخامس، بالامبراطور ثيودوسيوس الثاني (٤٠٨-٤٥٠)، طالباً المساعدة العسكرية لحماية اسقفيته من تلك الإغارات[4]، كما أن ثيودورس، اسقف فيلة وأسوان (٥٢٦-٥٨١)، قام بالتوسط بين الرومان النوبيين، وتوثقت صلته بزعماء النوبيين، فقام بزيارات عديدة لبلادهم ساهمت في نشر المسيحية بينهم. وقد شجّع هذا التقارب الامبراطور يسطنيانس على إغلاق معبد فيلة وتحويله إلى كنيسة حوالى ٥٤٣.

ويعتبر بعضهم أن سلكو هو أول ملك مسيحي في بلاد النوبة السفلى في منتصف القرن الخامس، وذلك اعتماداً على ما ورد في

---

١. (Somers Clarke, *Christian Antiquities in the Nile Valley*, Oxford, 1912, p. 8.; Vantini G. *Christianity in Medieva Nubia,* p. 9.

– مرقس سميكة، دليل المتحف القبطي وأهم الكنائس والأديرة الأثرية، جـ٢، ص ١٤٠ – وهو يذكر أن وزير قنداقة المذكور في سفر أعمال الرسل الذي اعتمد على يد فيلبس ٣٧م هو أول مسيحي نوبي إذ ان قنداقة هي إحدى ملكات مروى، لأن هذا اللقب أطلق على سبع ملكات حكمن هذه الدولة النوبية.

٢. زاهر رياض، اتجاهات مصر الافريقية في العصور الوسطى، ص ٦٦.

Dunbar, J. H., *Betwixt Egypt and Nubia*, A. E. December 1929, Part IV, London, p. 109.

٣. مصطفى محمد مسعد، الاسلام والنوبة القاهرة ١٩٦٠، ص ٣٨.

Crum, B.W.E., *A Nubian Prince in an Egyptian Monastery,* in "Studies presented to Griffith", F. L1., pp. 137-148...

٤. ايمري، مصر وبلاد النوبة، ص ٢٤٦.

نقشه من أن الله قد حقّق له النصر، وأن أعداءه قد أقسموا له بأوثانهم أن يحفظوا عهد السلام[٥].

وتذكر قوائم الاساقفة أسماء عدد من أوائلهم: مقدونيوس (٣٢٦-٣٥٤) ومرقس (٣٦٢) واسحق، ثم باسيليزيوس (٣٨٠-٣٨٤).

وعلى جانب الحفريات الأثرية، عثرت البعثة البولندية في فُرُس (بخورس) على بقايا كنيسة بنيت بالطوب اللبن، ويشير الفخار المكتشف بين الحطام إلى احتمال بنائها في نهاية القرن الرابع، مما قد يعني أن جماعة مسيحية أقامت في فرس في ذلك الوقت المبكر، وابتنت لها كنيسة قبل سنة ٤٠٠.

ويخلص الباحث الأثري د. محمد غيطاس إلى «ان هذا الوجود المبكر للمسيحية في بلاد النوبة، رغم قيامه على كثير من الافتراض والترجيح، ربما يدعو إلى الاعتقاد بأن البعثات التبشيرية التي أتت بعد ذلك لم تكن سوى محاولة للاطمئنان على ولاء النوبيين لأي من الكنيستين الملكانية أو المونوفيزية. وما ورد كذلك من خطاب سفير الامبراطور البيزنطي إلى ملك النوبة من أن ملك الرومان يبلّغه بأنه «في حالة اعتناقكم المسيحية يمكنكم الارتباط بالكنيسة ومن يحكمونها، ولا تكونوا منقادين ضالين وراء اولئك الذين طردوا منها، «أي اتباع المذهب المونوفيزي»[٦].

وقد كانت النوبة في القرن السادس الميلادي تتألف من ثلاث ممالك مستقلة وهي: نوباديا (نوباطيا)، وكانت تمتدّ من الشلاّل الأول جنوب أسوان إلى قرب الشلاّل الثالث إلى قرب كبوشية الحالية وعاصمتها دنقلة، ثم علوة (ألوديا) من قرب كبوشية إلى جنوب الخرطوم الحالية وعاصمتها سوبا[٧].

د) انتشار المسيحية في الحبشة

تخصّ الروايات المسيحية القديس متى الرسول ببشارة الحبشة. على أن المرجّح تاريخياً أن دخول المسيحية إليها قد تمّ عن يد فرومنطيوس الصوري، وهو أحد التجار الذين أوفدهم الامبراطور قسطنطين في أوائل القرن الرابع لتوثيق العلاقات التجارية مع دولة اكسوم. وقد استطاع فرومنطيوس سنة ٣٤٠ أن يهدي ملكها عيزانا. ولمّا كثر عدد المسيحيين فيها، جاء إلى الاسكندرية فرسمه القديس اثناسيوس اسقفاً للحبشة، فصارت هذه الرسامة أساس ارتباط الكنيسة الاثيوبية بالكنيسة القبطية.

وكان للسوريين دور بارز في نشأة الكنيسة الحبشية فأنشأوا الأديرة وترجموا الكتاب المقدس إلى الحبشية: غير أن تأثير الكنيسة القبطية قد

٥. Emery, *The royal tombs of Ballana and Qustul,* Cairo 1938, p. 16.

٦. د. محمد غيطاس، حملة اليونسكو وأضواء جديدة على تاريخ النوبة، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية ١٩٨٧.

٧. د. محمد غيطاس، حملة اليونسكو، ص ٦٠.

غلب فتبنّت مذهب الطبيعة الواحدة واتبعت الليترجية الاسكندرية ، وطلبت أساقفة أقباط لتدبير شؤونها حتى سنة ١٩٥١ ، حين حصلت على استقلالها الكنسي وأصبح لها جاثليق (كاثوليكس) يرأس أساقفتها .

وقد ساعد الأحباش في انتشار المسيحية باليمن وعدن وظفار في مطلع القرن السادس .

وفي سنة ٦١٥ لجأ المسلمون الأولون ، وعددهم ٨٣ رجلاً و١٧ امرأة ، إلى الحبشة هرباً من اضطهاد قرسين لهم فأواهم النجاشي . وقد تدهورت أحوال الحبشة في القرن السابع ولم تنهض إلاّ في القرون الوسطى .

ثالثًا – نشأة الحياة الرهبانية

١ . نشأة الحياة المكرَّسة في الكنيسة

منذ نشأة الكنيسة ، كان اختيار البتولية والعفّة من أجل الملكوت مكرَّمًا في الجماعات المسيحية . وكان هذا الاختيار مبنياً على مثال يسوع وبولس وتعليمهما (متى ١٩/٢١ و٢٩ و١ قور ٧) . وقد تكون مجموعات الأرامل التي ورد ذكرها في ١ طيم ٥ وبنات فيلبس العذارى اللواتي كنّ يتنبأن (رسل ٢١/٨-٩) الأدلّة الأولى على حياة مكرَّسة .

وأمّا في القرنين الثاني والثالث ، فقد تكاثرت الشهادات على الرجال والنساء الذين كانوا يختارون طريق ترويض النفس والعفة . والى الاعتبارات المسيحية – تَرْك كل شيء من أجل الملكوت – ربَّما كانت تُضاف دوافع أخرى . فلعلَّ بعضهم اختار العفَّة نفوراً من الفساد السائد . ولعلّ البتولية عند النساء كانت وسيلة للتخلّص من الخضوع الاجتماعي في الزواج ، ونقطة الانطلاق في تحرّر المرأة .

وكانت العذارى المكرّسات يواصلن العيش في عائلاتهنَّ ويشاركن في حياة المؤمنين جميعاً . وكنَّ يجتمعن من حين إلى حين ، ولم يكن عليهنّ ثياب مميِّزة . وكان يُشار عليهن باختيار الفقر ، ويُطلب إليهنّ القيام بأعمال الرحمة ، وزيارة الفقراء والمرضى ، والتأمّل في الكتاب المقدَّس . وظهر نوع من الالتزام ابتداءً من القرن الثالث ، لكنه كان خاصاً ولم يكن نهائيًا حتماً .

وكانت مؤلَّفات ذلك الزمن تقترح روحانية خاصّة بالبتولية ، تبدو استمراراً للمعمودية وإحياءً للحالة التي سبقت خطيئة آدم وحواء . ثم ظهر موضوع الزفاف إلى المسيح . وفي الوقت نفسه ، ظهرت بعض الانحرافات . فكان بعض العذارى يباهين باختيارهنّ ، وكان بعضهنّ الآخر يساكنّ رجالاً قاموا بالاختيار نفسه في نوع من الزواج التصوّفي . ورأى بعض المؤمنين أن الإشادة بالعفة تنقلب إلى الاستخفاف ، ان لم يكن إلى التحريم ، بزواج المسيحيين .

٢ . الرهبان الأوَّلون في الشرق

بعد إحلال السلام في الكنيسة ، غاب احتمال الاستشهاد . فلم يعد الاهتداء إلى

المسيحية يعرّض للخطر، وأخذ الكثيرون يعانون بعض التراخي. وكان هناك عديد من المؤمنين يرغبون في سيرة مسيحية أشدّ ورعاً وأقلّ انغماساً في هموم العالم، فكانوا يذهبون إلى البرية. هكذا نشأت الحركة الرهبانية.

متوحِّد («solitaire») : هو الذي يعيش منعزلاً.
ناسك أو **حبيس** («ermite»): هو الذي يعيش وحده في البرية بعيداً عن الناس.
راهب دَيري («moine»): هو الذي يعيش مع غيره عيشة مشتركة منظّمة، في أحد الأديرة.
أباتي أو **أنبا** («abbé»): هو رئيس دير.
أمّا: هي رئيسة دير.

في السيرة المرويّة بأسلوب روائي والمنسوبة إلى القديس أثناسيوس، اسقف الاسكندرية، يوصَف لنا **انطونيوس** (٢٥١-٣٥٦)، بأنه أبو النسّاك أو الحبساء الذين عاشوا في براري مصر. وقد سار في خطى انطونيوس جمهور من المسيحيين. وورد ذكره في «اعترافات» (٨/٦) القديس اوغسطينس. وفي صعيد مصر، أسّس باخوميوس (٢٨٦-٣٤٦) الحياة الديرية المشتركة للرجال، في حين انشأت شقيقته مريم أوّل جماعة نسائية.

باخوميوس (٢٨٦-٣٤٦): هو مؤسّس الحياة الرهبانيّة المشتركة. بعد أن تمرّس بالنسك، ابتنى أوّل دير في صعيد مصر سنة ٣٢٣، وأعطى جماعته مجموعة قوانين تنظّم حياتهم اليوميّة من عمل وصلاة. يحاط الدير بسور تقوم في وسطه الكنيسة، ثمّ قلاّيات الرهبان الذين يعيشون في طاعة رئيس يساعده أحد الإخوة في الإرشاد الروحي.

عند موت باخوميوس ٣٤٦، كان قد بنى تسعة أديرة للرجال كما بنت أخته مريم ديرين للنساء. وقد ترجم القدّيس هيرونيمُس قوانين باخوميوس إلى اللاتينيّة. والقدّيس باسيليوس، مؤسّس رهبنات القبّدوقية، قام بزيارة لرهبان مصر سنة ٣٥٧ وأخذ الكثير من قوانينهم. والمتصوّف الفرنسي يوحنا كاسّيان اعتنق مبادئ



القديس انطونيوس الكبير

الرهبنة الشرقية، بعد أن أقام مدّة بين هؤلاء الرهبان. وقد كتب في القوانين أموراً عُمل بها في أوروبا حتّى ظهور القدّيس بندكتس (مبارك) في القرن السادس.

وما لبثت تلك الحركة الرهبانية القديمة أن انتشرت في مصر وفلسطين وسورية وبلاد ما بين النهرين. ولم يكن لها صيغ قانونية دقيقة. فكان الراغب يهتدي بإرشاد معلّم روحي سواء أكان أبًا ام رئيس دير، إلى أن يتمكن من الطيران بجناحيه. وأصبحت الحياة النسكية مباراة في ترويض النفس. فكان بعضهم يعيشون في الأشجار، والمنعزلون يتجمّعون على أنفسهم في أكواخ صغيرة، والرعاة يأكلون العشب في أرضه، والعموديون يعتلون قمم الأعمدة، والآدميون يتركون ثيابهم تذهب عنهم؟... ذلك بأن هذه الحركة الرهبانية كانت تدل على تديُّن شعبي. فكانت تشدّد على مصارعة الشيطان الذي كانوا يرونه في كل مكان. وكانت الحركة الرهبانية تسعى إلى إعادة البشرية إلى ما كانت عليه قبل الخطيئة الاصلية. وهذا ما يعنيه ترويض الحيوانات الضارية. وكان الرهبان يجمعون بين حياة المشاهدة الروحية واستقبال الضيوف. وكثيراً ما كان رفضهم للدرس يزيد في هواجسهم ويجرّهم إلى مغامرات عقائدية مشكوك فيها.

أنطونيوس أبو النسّاك

«... وفيما هو ذاهب إلى الكنيسة، كان، بحسب عادته، يفكّر في نفسه ويتأمّل، وهو سائر، كيف أن الرسل تركوا كل شيء وتبعوا المسيح، وكيف أن المؤمنين، على ما ورد في أعمال الرسل، كانوا يبيعون ممتلكاتهم ويأتون بثمنها ويلقونه عند أقدام الرسل ويتخلّون عنه لمنفعة المحتاجين، وكم كان رجاؤهم عظيماً في السموات. فدخل الكنيسة منشغل الفكر بتلك الخواطر. واتّفق أن قُرِئَ الانجيل فسمع الرب يقول للغني: «إن اردتَ أن تكون كاملاً، فاذهب وبع كل ما لك وأعطه للفقراء، وتعالَ فاتبعني، فيكون لك كنز في السماء». لمّا نال انطونيوس من الله ذكرى القديسين، كما لو كانت القراءة موجَّهة إليه، خرج فوراً من الكنيسة. وكان له من والديه عدّة فدادين في أرض خصيبة ممتازة، فوهبها لسكّان القرية لكي لا يرتبك بها هو أو شقيقته. وباع أثاث بيته كلّه ووزّع على الفقراء كل المال الذي حصل عليه، ما عدا مبلغاً صغيراً خصّ به شقيقته...

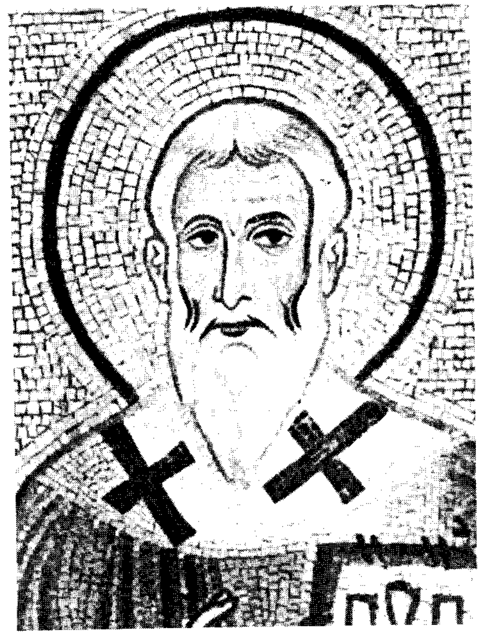
(انصرف انطونيوس إلى عزلة ازدادت مع الوقت شدّة وتقشفاً تحمّل فيها هجمات الشيطان وانتصر عليه...).

... لكن الشيطان، عدو الخير والحسود، لم يستطع أن يرى مثل ذلك الكلام عند رجل شاب... فحاول أولاً أن يردّه عن ترويض النفس، موحياً إليه بذكرى أمواله، والاهتمام بشقيقته، وعلاقاته

العائلية، وحب المال، وطلب المجد، ولذة الطعام، وسائر ملذّات الحياة، وأخيراً خشونة الفضيلة وما تقتضيه من أتعاب مضنية. . .
وكان الشيطان اللئيم يتّخذ ليلاً هيئة المرأة ويقلّد حركاتها لإغواء انطونيوس، لكنه كان يضع المسيح في قلبه ويتأمل في سموّ أخلاقه وفي روحانية النفس، فيطفئ جمرات حبائل الشيطان. . . وفي الليل، ضجّ الشياطين، حتى إن المكان كله أخذ يهتزّ. وكأن جدران البيت الصغير قد تحطّمت، فتدفّق فيه الشياطين، وقد تحوّلوا إلى وحوش وزحّافات، وامتلأ المكان بأشباح الأسود والدببة والنمور والثيران والحيّات والأصلال والعقارب والذئاب. وكان كل بهيمة تتصرّف بحسب طبيعتها. فكان الأسد يزأر ويهجم عليه، والثور ينطحه، والحية تزحف من غير أن تقترب، والذئب يثب ولكنه كان مكبوحاً، وكانت جميع تلك الحيوانات الضارية التي ظهرت تحدث أصواتاً رهيبة وتعبّر عن استعدادات شرسة. . .
عاش انطونيوس منعزلاً عيشة ترويضية نحو عشرين سنة، لا يخرج ولا يراه أحد. وفي آخر الأمر، أراد كثير من الناس أن يقتدوا بترويضه، فجاء أصدقاؤه وكسروا بابه وفتحوه عنوة. فخرج انطونيوس، وكأنه مطّلع على الأسرار في خفايا الهيكل وملهَم بالوحي الالهي. وعندئذ، وللمرّة الأولى، رآه الذين قصدوه. فأُعجبوا، لأن منظره لم يتغيّر: فلم يسمن لقلة التمرين البدني. ولم ينحل بسبب الأصوام ومصارعة الشياطين، بل كان كما عرف قبل اختلائه. وكان طاهراً روحياً: فلم يكن منقبضاً بالغموم ولا منبسطاً باللذة، ليس فيه ضحك ولا حزن. ومع أن الذين جاؤوا ليسلّموا عليه كانوا كثيرين، لم يضطرب ولا شعر بفرح زائد، بل كان ثابت المزاج وخاضعاً للعقل وفي حالة طبيعية. وعن يده شفى الرب عدّة أشخاص يتألّمون في أجسادهم، وطهر غيرهم من الشياطين.
وكان انطونيوس قد نال من الله نعمة تعزية الحزانى ومصالحة المتخاصمين. وكان يطلب اليهم ألاّ يقدّروا أيّ شيء في العالم فوق محبة المسيح. وحثّ على ذكر الخيرات الآتية والمحبة التي أظهرها الله لنا، إذ إنه لم يضنّ بابنه، بل أسلمه من أجلنا، فأقنع كثيراً من الناس باعتناق حياة العزلة. وهكذا ارتفعت أديرة في الجبال وعُمِّرت البرية بالمتوحّدين، بأناس تخلّوا عن جميع أموالهم ووهبوا اسمهم لمدينة السموات. . .
وكان انطونيوس هناك كل يوم، شهيداً بضميره ورياضياً في صراع الإيمان. وكانت تمارينه كثيرة وأشدّ قساوة. وكان يصوم كل يوم، مرتدياً ثوباً من الجلد حفظه حتى موته. ولم يكن يستحمّ ولا يبلّ رجليه ولا يضعهما في الماء إلاّ عند الضرورة. ولم يره أحد عارياً إلاّ بعد موته، عند دفنه. . .».

(القديس اثناسيوس، بابا الاسكندرية، حياة القديس انطونيوس)

أمّا **باسيليوس**، اسقف القيصرية (٣٣٠-٣٧٩) فلقد قاوم الاطوار الغريبة في الحياة الرهبانية. ففي كتاب «القوانين» الذي أصدره، طلب إلى الرهبان ان يعيشوا في جماعات، وشجّعهم على القيام بعمل عقلي وعلى الاهتمام بالفقراء. ففي نظره، مثال



القديس باسيليوس

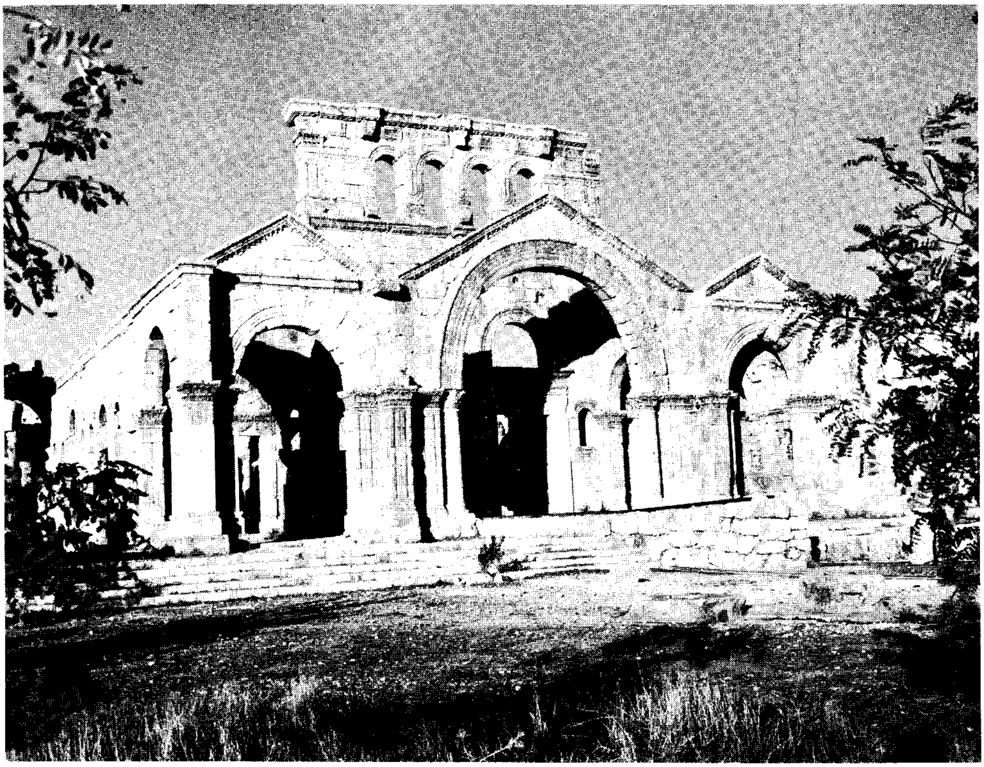
الراهب الأعلى هو جماعة اورشليم الأولى. والطاعة للرئيس هي فضيلة الراهب الكبرى، لأن الرئيس يقتصر دوره على تفسير القانون الأعلى وتطبيقه في الحياة اليومية، وهذا القانون هو الانجيل. وعرض كثير من الكتّاب اليونانيين لاهوتاً خاصاً بالحياة الرهبانية، مبنياً على نظرية «انتروبولوجية» افلاطونية تحطّ من قيمة الجسد. وأصبح الدير الرهباني ذلك المجتمع المسيحي المثالي الذي يجب أن يحلّ محلّ المجتمع العالمي.

٣. الحياة الرهبانية في الغرب

استمرَّ كثير من العذارى والزهّاد الذين نذروا أنفسهم لله، كما في الماضي، يقيمون في عائلاتهم. وقدم بعض المسافرين من الشرق، كأثناسيوس وهيرونيمس (Jérôme)... ودعوا للحياة الرهبانية. وكان العدد الكثير من العذارى، والتجاوزات والسقطات الممكنة، ومُثُل الشرق، والميل العام إلى تطوير المؤسَّسات، كان كل ذلك يدفع إلى تنظيم الحياة المكرَّسة. ففي حوالى ٣٥٠، كان في رومة عدّة جماعات أنشأتها نساء من المجتمع الراقي. ووُضعت رتبة طقسية لتكريس العذارى أو لتسليم الطرحة، استوحت من رمزية الزواج. وقدَّم امبروسيوس مريم العذراء مثالاً للعذارى.

وقام **هيرونيمس** (٣٤٧-٤١٩)، بعد ان كان راهباً في الشرق، يدعو للحياة الرهبانية لدى نساء الارستقراطية الرومانية. وردّ على الحاطّين من قدر البتولية ودافع، بشيء من الجور والعنف، عن تفوّقها على الزواج. وعند عودته إلى فلسطين، أسَّس في بيت لحم، بالتعاون مع صديقته باولا (Paula)، جماعات نسائية، مصنَّفة بحسب الطبقات الاجتماعية، وجماعة رجالية عاش فيها. ويعود إلى هيرونيمس الميل إلى الثقافة الكتابية. فالكتاب المقدس الذي يُكتشف في المجهود العقلي يصبح غذاء الحياة الروحية عند الراهب. ولذلك فإن هيرونيمس هو جدّ ذلك الراهب الذي سينصرف إلى خدمة الثقافة المسيحية، لا بل إلى الثقافة كثقافة، يومَ تغرق الحضارة الكلاسيكية بضربات البرابرة.

رغب **اوغسطينس** (٣٥٤-٤٣٠) أن يعيش راهباً بعد اهتدائه. ولمّا صار اسقفاً أراد ان



قلعة مار سمعان العمودي بالقرب من حلب

يتّخذ رجالُ اكليرسه أهم ملامح الحياة الرهبانية. فكانت هنا نقطة انطلاق اتّجاه جديد، وهي التقارب بين الراهب والكاهن. فكانوا يميلون إلى اختيار الكهنة من بين الرهبان، وكانوا يطلبون اليهم ان يتخذّوا بعض وجوه حياة الراهب، كالعزوبة. وجاءت «قوانين القديس اوغسطينس» مجموعة نصائح عامّة للحياة الرهبانية.

وُلد **يوحنا كَسِّيانس** (٣٦٠-٤٣٥) في رومانيا. وبعد ان زار الأديرة الشرقية، أسَّس في مرسيليا ديرين، دير القديس ڤكتور للرجال ودير المخلِّص للنساء. فكان، بمؤلَّفيه «المؤسَّسات الرهبانية» و«المحاضرات»، همزة وصل بين رهبان الشرق ورهبان الغرب. وأصبح الاعتدال في نظره أولى الفضائل الرهبانية. وكانت جزر ليرِنْس (Lérins) أيضاً مركزاً مزدهراً للحياة الرهبانية.

قوانين القديس بندكتُس

بينما كان الإرلنديون **بَتريك وكولُمبا وكولُمْبان** يُنشئون حياة رهبانية تصلح فوضى الرهبان الشرقيين (من القرن الخامس إلى القرن

السابع)، كان **القديس بندكتس** يُلهم جميع أديرة الغرب تقريباً حتى القرن الثاني عشر. وكانت قوانينه مدينةً للتقليد الرهباني السابق، وهي تشجّع على العودة إليه. وكانت تشدّد على الاستقرار، فكان من واجب الراهب ان يبقى في ديره. وكان رئيس الدير أهمّ عنصر في الحياة الديرية، لأن دوره مزدوج: معلّم روحي ورئيس جماعة. وكان الرهبان ينتخبونه لمدى الحياة ويخضعون له خضوعاً تاماً. وكانت هذه الطاعة تمكّن من ارتقاء درجات التواضع، تلك الفضيلة التي هي أساس التقدّم الروحي. فكان الاستقرار والطاعة والتواضع تساعد على تعميق الترويض النفسي. أدخل بندكتس الحياة الرهبانية في بلاد معتدلة ورفض المبالغات الشرقية. فكان الرهبان يعيشون عيشة فقر، لكن التقشّفات كانت معتدلة في النوم واللبس والطعام والصلاة. وكان النهار يوزَّع على «عمل الله» (الصلاة والليترجية) والقراءة والتأمّل في الكتاب المقدّس والعمل اليدوي والراحة. وكان درس الكتاب المقدّس نقطة انطلاق العمل العقلي.

كان للقوانين البندكتية إشعاع واسع، لأنها كانت قاعدة فيها ما يكفي من الدقة للحياة الرهبانية، من دون ان تفقد مرونتها. فأسهمت الأديرة البندكتية في نشأة اوروبا، بعد انهيار الامبراطورية في الغرب (الفصل السابع).

رئيس الدير في قوانين القديس بندكتس

من الواضح أن هناك أربعة أنواع من الرهبان. النوع الأول هو الديريّون، أي الذين يعيشون عيشة مشتركة في أحد الأديرة ويجاهدون بالخضوع لقوانين ولرئيس. . .

وعلى الرئيس، الذي هو أهل لإدارة الدير، ان يتذكر دائماً بالاسم الذي يحمله ويحقّق بأعماله لقب ربّ العائلة. فإنه يُعتَبر قائماً مقام المسيح في الدير، ولذلك يحمل الاسم الذي أُطلق على الرب، على ما قاله بولس الرسول: «لقد نلتم روح الأبناء بالتبنّي، وهو يصرخ فينا: «أبّا»، اي يا ابتاه. . .».

ومن قبل القيام بمهمة الرئيس، وجب عليه ان يسوس تلاميذه بتعليم مزدوج، اي أن يلقّن ما هو صالح ومقدّس، بأعماله أكثر ممّا يلقّنه بأقواله. والذين هم أذكياء يعلّمهم بخطبه وصايا الرب، والقساة القلوب والبسطاء يريهم بقدوته الصالحة. وبأعماله أيضاً يعلّم تلاميذه ان يتجنّبوا ما ندّد به لأنه مخالف للشريعة الالهية. . .

وكلّما كانت في الدير قضيّة هامّة يجب البتّ فيها، يدعو الرئيس الجماعة كلها ويعرض هو نفسه ما هو مطلوب. وبعد الحصول على آراء الإخوة، يتشاور مع نفسه ويعمل بما يراه أكبر فائدة. والأمر الذي يحملنا على القول بواجب استشارة جميع الاخوة هو ان الله كثيراً ما يكشف للصغير ما هو الأفضل.

والطاعة من غير إبطاء هي أوّل خطوة في

ممارستنا لفضيلة التواضع. وهي تليق بالذين ليس عندهم ما هو أعزّ من المسيح. فإن كان دافعهم الخدمة المقدّسة التي نذروها، أو الخوف من جهنَّم، أو الرغبة في المجد الأبدي، فهم لا يستطيعون، حالَما يُصدر الرئيس أمراً، أن يقبلوا التأخير في تنفيذه، كما لو أن الله نفسه أصدر ذلك الأمر».

(قوانين بندكتس)

الفصل الخامس

صياغة قانون الإيمان

(القرنان ٤ – ٥) المجامع المسكونية الأولى في حياة الكنيسة

ما خاض المسيحيون الأولون، دفعة واحدة، في الفلسفة أو علم اللاهوت، بل شهدوا ليسوع المسيح الذي كلّمهم عن إله الكتاب المقدّس، الواحد، بصفته أباه. ومات يسوع، لكن «الله جعله ربّاً ومسيحاً، يسوع هذا الذي صلبتموه» (رسل ٢/٢٤ و ٣٦). إنه لقب «الرب»، اللقب الذي يُعطى لله وحده في الكتاب المقدّس، هكذا أعطى الله ابنه يسوع اسمه الخاص (فل ٢/٦–١١). وهذا يعني أن يسوع المسيح قريب الى الله. فقبل أن يكون انساناً، وُجد عند الله وجود الحكمة، التي يتحدّث عنها الفصل الثامن من الأمثال، فشارك في الخلقة (قول ١/١٥ وما يلي).

وفي فاتحة انجيل القديس يوحنا، يسوع هو «كلمة الله» الذي صار بشراً. إنّه «الكلمة» الذي خلق العالم. الكلمة هي «اللوغس Logos» في اليونانية، و «Verbum» في اللاتينية. ولفظ «لوغس» لفظ كتابي، إذ يتردّد كثيراً في العهد القديم الحديث عن كلمة الله. لكن فلاسفة الاغريق كانوا يتحدّثون أيضاً عن اللوغس حديثهم عن الفكر أو عن العقل الإلهي. وهذه نقطة لقاء بين المسيحيين والفكر اليوناني.

نجد في العهد الجديد الشهادات الايمانية الأولى (١ قور ٨/٦): إنها مسوّدة قانون الايمان. فطقوس المعمودية والافخارستيا تضمّ شهادة ايمانيّة. والمسيحيون يؤكّدون إيمانهم من خلال تعبيرات كتابية، لكنهم وجدوا أنفسهم ملزمين أيضاً بإيضاح حقيقة أنفسهم للعالم الذي يحيط بهم، فكان عليهم أن يشرحوا له ما قد يبدو، لأول وهلة، متناقضاً: كيف يمكن أن يكون الله واحداً وفي الوقت نفسه أباً وابناً؟ كيف يتسنّى لانسان يولد ويحيا ويموت أن يكون إلهاً، في حين لا يجري على الله أي تغيير؟

لقد وُلد علم اللاهوت المسيحي من الاجابة عن هذه الأسئلة؛ فشطح التفكير اللاهوتي في اتجاهات متباينة. وسوف يأتي يوم فيه تُحسم المواقف المتنافرة، يوم تجتمع المجامع

التي تضمّ شمل الأساقفة قادة الكنائس.

ونحن في كنائسنا، كل يوم أحد، نعلن ايماننا بتلاوة «قانون الايمان» النيقاوي القسطنطيني. وهذا النصّ ما صيغ خلال مناظرات فكرية هادئة، بل غالباً من خلال مصادمات عنيفة كانت تتعدى مسائل العقيدة: مصادمات شخصية وثقافية واقليمية، وإبعاد الى المنفى، ومشاجرات دموية، وتدخلات عسكرية وبوليسية. هذه هي خلفية صياغة قانون ايماننا.

أوّلاً – كيف يكون يسوع المسيح والروح القدس الله؟

١. في أصول الأزمة الأريوسية

انصبّ اهتمام الفكر المسيحي منذ القرن الثاني في اتجاهات عديدة ليصون في الوقت ذاته الوحدانية الكتابية والاعتراف الإيماني بالثالوث القدوس. وكان بعضهم يحسبون أن الله هو في الوقت عينه أب وابن، وأنه يمكن القول بأن الآب تألم أيضاً كما تألم الابن. وآخرون ألحّوا على التمييز بين الآب وابنه، وبين الآب وكلمته (اللوغس). فالابن هو الله، لكن ليس له وضع الآب نفسه؛ والابن (اللوغس) يخضع إذاً للآب، وقد يكون يسوع انساناً ألّهه الله وتبنّاه. وبعض المراجع الكتابية تسير في هذا الاتجاه (يو ١٤/٢٨). فالكتبة يستعملون الكلمات اليونانية واللاتينية بمعنيين مختلفين، مما يؤدي الى كثير من اللبس.

كانت المنازعات – قبل حصول الكنيسة على السلام – يمكن أن تبقى في نطاق محلّي. أما بعد سنة ٣١٣، فقد صارت تنتشر سريعاً في كل أرجاء الامبراطورية. فالأزمة الأريوسية التي وُلدت في حضن كنيسة الاسكندرية سرعان ما أثارت، في وقت قصير، كنيسة الشرق بأسره! كان آريوس كاهناً نابهاً ضليعاً وراعياً لإحدى كنائس الاسكندرية، وكان يطمح، كالكثيرين قبله، إلى صون امتيازات الله الواحد الوحيد الذي لا ابتداء له. فاذا كان الله أباً فهذا يعني أنه وَلَد (ابناً) في زمن معيّن، ويكون للابن ابتداء في الزمن، ولا يكون من جوهر الآب نفسه تماماً، فهو خاضع له. استند آريوس في مقولاته إلى مثل ٢٢/٨ ويو ١٤/٢٨. ويسوع – في النهاية – يخلّص الانسان عندما يطلب منه أن يتبع مثاله ليتمجّد يوماً معه.

لم يقبل الكسندرس، اسقف الاسكندرية، هذا الفكر اللاهوتي. فالابن، كلمة (لوغس) الله، موجود منذ الأزل مساوياً للآب. ولو لم يكن الكلمة هو الله تماماً، فالانسان لا يمكن أن يؤلَّه تماماً. وما هو الاّ اجتماع للخصوم لم يصل الى ختامه حتى فُصل آريوس وعشرة من أنصاره من شركة الكنيسة سنة ٣١٨. وكما هو متوقّع، لم يقبل آريوس هذه الإدانة، فطاف بأنصاره، وهم عديدون في الشرق، إذ اعتبر كثيرون أنّ مواقفه تقليدية.

اندلعت المشاغبات في الاسكندرية وتبادل أهلها المجادلات اللاهوتية في المسارح والميادين. وقام آريوس بكتابة المؤلفات، بل الأناشيد والترانيم أيضاً لنشر آرائه.

تصادم العقائد

آريوس	الكسندرس
لم يوجد الكلمة مع الآب منذ الأزل.	وُجِد الكلمة مع الآب منذ البدء.
خلق الكلمة من العدم.	لم يُخلق الابن، بل هو الذي خلق كل شيء.
ليس الكلمة ابناً للآب بالطبيعة وبحصر المعنى.	الكلمة هو ابن بالطبيعة لا بالتبنّي.
طبيعة الابن لا تصدر من طبيعة الآب.	للابن طبيعة مساوية لطبيعة الآب.
بدأ الكلمة في الوجود بفعل من إرادة الآب.	الكلمة موجود باتحاده بجوهر الآب.
الكلمة بطبيعته خاضع للتغيّر جسدياً وأدبياً.	الكلمة، في طبيعته الالهية، لا يخضع للتغيّر أو الألم.

أراد قسطنطين، بعد انتصاره على ليقينيوس (Licinius) والانفراد بحكم الامبراطورية، أن يسود الهدوء ربوع الشرق، فالأمر في نظره لا يتعدّى المشاحنات الكلامية، ويكفي أن يبذل كل طرف جهده لتتمّ المصالحة. فلما استمرّ الهياج، عزم قسطنطين أن يجمع الأساقفة في مجمع عام عُرف بمجمع نيقية.

٢. مجمع نيقية (٣٢٥)

انعقدت، على مدى القرون السابقة، مجامع محليّة عديدة. وقد أعطى قسطنطين، باستدعاء كل الأساقفة الى نيقية، في مقاطعة بيثينية، شرق مضيق البوسفور، أعطى مولداً لمؤسسة جديدة في الكنيسة: المجمع المسكوني (العالمي). ويُعتبر مجمع نيقية الأول من نوعه، والمجمع الفاتيكاني الثاني هو الواحد والعشرون في الترتيب. ضمّ مجمع نيقية ما ينيف على الثلاث مئة اسقف: حُفظت لنا اسماء مئتين وعشرين منهم. وقد كانوا بالأخصّ اساقفة شرقيين ذوي ثقافة هلّينية (يونانية). فقد كانوا هم الأقربون الى مقرّ المجمع والأكثر حماسة للمحاولات العقائدية. ومن الغرب لا نعرف غير قيقيليان (Cicilian) القرطاجي، واسقف من كالابريا (جنوب ايطاليا)، وكاهنين يمثّلان اسقف رومة سلفسترس، والمدعو نيكازي اسقف ديا في بلاد غاليا (فرنسا)، وأوسيوس

سقف قرطبة الذي قام بدور المستشار الكنسي لقسطنطين .

أثار الاجتماع مشاعر بليغة. فما عهدت الكنيسة من قبل مثل هذه المظاهرة لرجالها. فبعض الأساقفة يحملون آثار الاضطهاد القريب، وبعضهم من السادة الكبار يجاورون زملاء لهم من رعاة الغنم. والجميع تأخذهم الدهشة من الاستقبال الحافل الذي يجريه الامبراطور لهم، ومن زخارف القصر وطنافسه، ومن أزياء العسكريين من حرس الشرف.

أيمكن أن يكون ملكوت الله أكثر جمالاً من هذا؟

ثبّت الأساقفة، في غالبيتهم، إدانة آريوس. ولأنه كان يتحتّم عليهم تحديد عقيدة ايجابية، عرض اوسابيوس القيصري قانون إيمان كنيسته، فقبله المجمع. وعلى طلب قسطنطين وبمشورة أوسيوس، أضاف الأساقفة عند الكلام عن ابن الله صفة Homoousios «هومو أوسيوس» التي تعني أن الابن هو من نفس («Ousia») جوهر الآب، أو مساوٍ لجوهر الآب (Consubstantiel).

وفّر المجمع الفرصة أيضًا لتسوية بضع مسائل تختصّ بالنظام الكنسي. فتقرّر أن يتحدّد تاريخ عيد الفصح وفقًا لما جرت عليه الاسكندرية وروما. كما وضع عدداً من القوانين الخاصة بالدرجة الأسقفية (سنعود إليها فيما بعد). ووضع الحد لمساكنة النساء للإكليرس. ووفقًا لما ذكره المؤرّخ سقراط (في بداية القرن الخامس)، أراد بعض الأساقفة أن يفرضوا على الإكليريكيين المتزوّجين أن يتخلّوا عن الحياة الزوجية وفقًا للقاعدة التي يبدو أنها كانت متبعة في اسبانيا. لكن الأسقف بفنوطيوس، رغم كونه متبتّلاً، اعترض على هذا الطلب، فترك المجمع حرية الاختيار في هذا المجال للأساقفة والكهنة والشمامسة... كما وضع المجمع عديداً من القرارات التي تعالج آثار الاضطهاد، ومصالحة الهراطقة وأنماط ليترجية التوبة... وغير ذلك.

قانون الإيمان النيقاوي

نؤمن بإله واحد، آبٍ ضابط الكل، خالق كل الأشياء، ما يُرى وما لا يُرى، وبرب واحد يسوع المسيح، ابن الله الوحيد، المولود من الآب، أي من جوهر الآب، إله من إله، نور من نور، إله حق من إله حق، مولود غير مخلوق، له وللآب جوهر واحد (**هومواوسيوس**)، به كان كل شيء، ما في السماء وما على الأرض، الذي من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا نزل من السماء، وتجسّد وصار إنسانًا، وتألم وقام في اليوم الثالث، وصعد إلى السموات، وسيأتي ليدين الأحياء والأموات. ونؤمن بالروح القدس.

الذين يقولون: «كان وقت لم يكن فيه الابن» و«قبل أن يُولد لم يكن» و«قد خُلق من العدم»، أو الذين يعلنون ان ابن الله من أقنوم آخر (**هيبوستاسيس**) أو من جوهر آخر (**أوسيا**) أو أنه خُلق أو أنه خاضع للتغيّر أو التبدّل، فالكنيسة الجامعة الرسولية تحرمهم.

(في كتاب: أوريزوي أوريينا)

الأسقف بفنوطيوس وحياة الإكليرس الزوجية في مجمع نيقية

تابع **سقراط** (٣٨٠ - نحو ٤٤٠) المحامي في القسطنطينية، في كتابه «التاريخ الكنسي»، مهمة أوسابيوس القيصري بروايته الأحداث الدينية منذ سنة ٣٠٥ حتى ٤٣٩. ولأنه ينقل عن مصادره حرفيًا فهو منجم للمعلومات لا يقدّر بثمن.

كان بفنوطيوس أسقفًا لإحدى مدن طيبة العليا. وكانت تقواه نادرة حتى إنه كان يُجري المعجزات. وكان قد فقد إحدى عينيه خلال الاضطهاد. وكان الأمبراطور يجلّه إجلالاً فريداً فيُحضره غالبًا إلى قصره، ويقبّل عينه المفقوءة [...]

كان الأساقفة قد رأوا أن يُصدروا قانونًا جديداً، ينصّ على أن لا يُرسَم أساقفة أو كهنة أو شمامسة، إلاّ الذين انفصلوا عن زوجاتهم اللاتي تزوّجوهن حين كانوا علمانيين. فحين أخذ الآراء، قام بفنوطيوس في وسط سائر الأساقفة، ورفع صوته قائلاً إنه لا يجوز أبداً أن يُفرض نير ثقيل كهذا على الإكليريكيين والكهنة؛ وأن الزواج مكرّم والفراش الزوجيّ طاهر؛ وأن هذا التشدّد القاسي يمكن أن يكون مضراً بالكنيسة، وأن ليس كل العالم قادراً على هذا الانضباط (الامتناع عن العلاقات الزوجية) الكامل، وأن النساء قد لا يَصُنَّ العفة.

كان يقصد بالعفة استعمال الزواج المعقود بحسب القوانين. كان يكفي أن يمتنع الذين قُبلوا في مصفّ الإكليرس عن الزواج ثانية، وفقًا لتقليد الكنيسة القديم، دون إلزام الذين تزوّجوا - وهم علمانيون - بترك زوجاتهم. تبنّى بفنوطيوس هذا الرأي، رغم أنه لم يتزوّج قط، لا بل إنه لم يعرف أبداً أيّ امرأة، إذ إنه نشأ منذ طفولته في دير، كما أثار الإعجاب بعفته الفريدة.

انحاز كل الأساقفة إلى موقفه، ودون مناقشات أخرى، تركوا حرية الاختيار للمتزوجين.

(سقراط، التاريخ الكنسي، ١:١١)

٣. نصف قرن من القلاقل

سرعان ما وُضع اتفاق نيقية موضع الجدال، إذ رفض كثيرون لفظ «هومو أوسيوس» لأنه لا يرد في الكتاب المقدس. وآخرون ذكروا أن الكلمة قد استعملها الهراطقة الذين يسيئون التمييز بين الآب والابن. وبعد قليل رفض غالبية الشرقيين صيغة نيقية، فيما عدا **أثناسيوس**، أسقف الاسكندرية بدءاً من سنة ٣٢٨، كما بقي الغرب اللاتيني عامة أميناً لمجمع نيقية. وبعد أن كان الأمبراطور قسطنطين قد أعطى كل مساندته لقانون إيمان نيقية، بدّل موقفه بقصد تهدئة الشرقيين. لكنّ أعمال العنف وتصفية الحسابات تتابعت، وأثناسيوس، الذي لم يقبل عودة آريوس إلى عمله الرعائي، عُزل بقرار من مجمع صور سنة ٣٣٥، ونفي إلى تريف على حدود ألمانيا. ولسوف يتعرّض للنفي أربع مرات أخرى بسبب أمانته لمجمع نيقية. وتحت حكم أبناء قسطنطين اشتدت حدة الانقسامات. وقد فجّر مجمع صارديك (صوفيا) (٣٤٢ - ٣٤٣) المعارضة بين أساقفة الغرب وأساقفة الشرق الذين انفصلوا بعضهم عن بعض بصخب شديد. واختار قسطنسيوس، الذي انفرد بالحكم منذ سنة ٣٥١، أن ينحاز انحيازاً كاملاً إلى جانب الأريوسية. وفي هذه المرة كان الأساقفة اللاتين هم المنفيون إلى الشرق: ليباريوس أسقف رومة، وهيلاريوس من بواتييه، وأوسيوس القرطبيّ. . .

حاول الموفّقون مضاعفة الصيغ التوفيقية التي ما حظيت برضى أحد. وفي سنة ٣٥٩، نجح الأمبراطور في فرض صيغة غامضة: «الابن مماثل للآب (**هومويوس** homoios)». وكما قال القديس هيرونيمس: «كل الأرض تئنّ، إذ فوجئت بنفسها وقد صارت أريوسية».

بذرت هذه المصادمات الانقسام في داخل الكنائس الإقليمية ذاتها. فضمّت انطاكية خمس جماعات لكل منها أسقفها الخاص، وبرزت كل الفروق اللاهوتية الدقيقة. كما ان انقسامات الكنيسة الرومانية صعّبت خلافة الأسقف ليباريوس (٣٦٦) بسبب التنافس بين مرشحين. وقد فاز دَماسيوس بالخلافة بعد صراع عنيف.

٤. مجمع القسطنطينية (٣٨١) وانفراج الأزمة

حقّق الفكر اللاهوتي بعض التقدم من خلال القلاقل. فبدأت معاني المفردات تتضح. وتمّ التوصّل إلى التمييز بين ousia (جوهر) وhypostase (أقنوم)، وقد سمح هذا بالتوفّق في مساواة الآب والابن في الجوهر، والتمييز بين الأقنومين في الوقت ذاته.

أنجز **باسيليوس** أسقف قيصرية (قبّدوقية) (٣٧٠-٣٧٩) العمل الوحدوي عن طريق الفكر اللاهوتي أولاً. وكان سؤال جديد قد طُرح على الساحة: هل الروح القدس هو الله؟ كان الأريوسيون يردّون بالنفي. وهذا ما كان يستوجب لهم لقب «محاربي الروح». وفي



القديس باسيليوس يُملي تعليمه

«مقالة عن الروح القدس» برهن القديس باسيليوس أن الروح القدس هو أيضاً من ذات جوهر الآب. وكتب صديقه غريغوريوس النازيانزي بنفس المعنى، بالإضافة إلى أن باسيليوس قد اقترب إلى أساقفة الشرق، وطلب إلى اثناسيوس أن يكون حلقة الوصل مع الغرب. وفي رسالة إلى أساقفة غاليا وايطاليا وصف باسيليوس الضيقة التي يمرّ بها الشرق. على أن جهود التوفيق التي قام بها دماسيوس أسقف رومة كانت ضئيلة.

بدا موت الأمبراطور الأريوسي ڤالنسيوس مقتولاً أثناء كارثة أندرينوبوليس (٣٧٨) في معركة خاسرة ضد الغوط، وكأنه حكمُ الله عليه. أما الأمبراطوران: غراسيانس في الغرب وثيودوسيوس في الشرق، فقد عزما على وضع نهاية للمشاحنات اللاهوتية التي تدنّت حتى مستوى الشارع.

عودة الهدوء

سنة ٣٨٠، جعل **ثيودوسيوس** العقيدة الكاثوليكية دين الدولة، واعترف بغريغوريوس النازيانزي أسقفاً للقسطنطينية، ودعا إلى مجمع في عاصمته (٣٨١) ما كان غير مجمع شرقي، لم تُحفظ منه إلاّ أربعة قوانين توجب الحفاظ على الإيمان المعلن في نيقية ورفض الهرطقات المختلفة حديثة الظهور.

تناول المجمع إذن قانون إيمان نيقية، وأضاف إليه فقرة عن الروح القدس: «نؤمن بالروح القدس الرب المالك والمحيي المنبثق من الآب، الذي مع الآب والابن يُسجد له ويُمجّد.» هكذا تكوّن قانون الإيمان الذي نتلوه في القداس. وقد أضاف اللاتين في القرن الثامن عبارة «**والابن**» (المنبثق من الآب **والابن**) التي صارت أحد أسباب الانقسام في القرن الحادي عشر بين الكنيسة اللاتينية والكنيسة اليونانية.

كان المجمع أيضاً مسرحاً مغلقاً للمنازعات الشخصية. فاحتجّ بعضهم على انتخاب غريغوريوس النازيانزي لكرسي القسطنطينية الأسقفي، لأنه كان من قبل أسقفاً لضيعة صغيرة. وقد حزّ هذا الموقف في قلب غريغوريوس فعاد إلى بلاده ناسكاً، واختاروا بديلاً له موظفاً متقاعداً.

وفي الغرب، انعقد المجمع في أكويلا (على البحر الأدرياتيكي بالقرب من تريستا) في السنة

نفسها، على طلب الأمبراطور غراسيانس، فما ضمّ غير بضعة أساقفة من ايطالية الشمالية ومن غاليا عزلوا الأساقفة الأريوسيين وطلبوا تدخّل الأمبراطور لتنفيذ الحكم. فاختفت الأريوسية من الأمبراطورية شيئًا فشيئًا، لكنها استمرّت عند البربر الجرمان الذين بشّرهم ولفيلا. وكان قد رسمه أسقفًا أحد زعماء الأريوسية: أوسابيوس النيقوميدي.

الروح هو الله

بين الأسماء التي نطلقها على الله، أهناك اسم منها لا يناسب الروح القدس [. . .]؟ عندما نستعمل كل هذه التعبيرات وعندما نعلّمها، وعندما نضيف إليها تسميات: المعزي الثاني (البارقليط) (يو ١٤/١٦)، وإن صحّ التعبير، الله الثاني؛ وعندما نعلم أن التجديف على الروح القدس هو الخطيئة الوحيدة التي لا تغفر (متى ١٢/٣)، وعندما نعرف الوصمة القاسية التي لحقت بحنانيا وسفيرة لأنهما كذبا على الروح القدس، أي أنهما كذبا على الله وليس على الناس (رسل ٥)، أتعتقد إذن أنه أُعلن لاهوت الروح القدس أم شيء آخر؟ كم يكون فهمك ثقيلاً وأن تكون بعيداً عن الروح القدس إذا شككتَ في هذا، وإذا كان يجب تعليمك إياه!

(غريغوريوس النازيانزي، «خطاب لاهوتي»، ٥)

ثانيًا – كيف يتّحد الله والإنسان في يسوع المسيح؟

١. في أصول المعضلة المسيحانية (الخريستولوجية)

ما كان التفكير ولا الجدال ليتوقف أبدًا! فما أن قُبلت المساواة بين الآب والابن والروح القدس، حتى بدأ التساؤل: كيف يمكن فهم الاتحاد بين لاهوت الكلمة وناسوت يسوع؟ فكلمة الله أبدية، في حين ان يسوع وُلد وتألّم ومات. أيمكن القول بأن لله وُلد وجاع وتألم وأنه مات؟ فلو فصلنا كثيراً الله عن الإنسان في يسوع، كيف نتحدث عن التجسّد، عن هذا الجسد الذي اتّخذه الكلمة.

ظنّ **أبوليناريوس**، أسقف اللاذقية (سورية) (٣١٠-٣٩٠) وصديق اثناسيوس الحميم، أنه قد وجد الحلّ. فيسوع، ككلّ إنسان، وبحسب أنتروبولوجيا ذلك العصر، مكوّن من الجسد – أي من الجسم الحيّ – ومن الروح (النفس الروحية)، لكن وظيفة النفس الروحية منوطة بالكلمة. هكذا لم يعرف يسوع الخطيئة لأن ليس له تلك النفس البشرية القادرة على ارتكاب الخطيئة والخطأ. لكن سرعان ما حَسب البعض أن أبوليناريوس قد أضرّ بالفداء،

لأنه «لا يمكن أن يخلص في الإنسان إلاّ ما اتّخذه يسوع». فلو لم يكن للمسيح نفس بشرية ما كان ممكنًا أن تخلُص إرادة الإنسان. لذا أُدين أبوليناريوس عدة مرات.

وحدة واختلاف

ظهر، في ذلك الحين، اتجاهان أو حساسيتان في الفكر اللاهوتي: في الاسكندرية، كان التشديد على وحدة المسيح، انطلاقًا من الكلمة (اللوغس). فالمسيح هو الكلمة (الله) الذي اتخذ جسدًا. إنها حالة تأليه الإنسان. وفي أنطاكية كان التشديد على عنصرَي الكيان في المسيح، انطلاقًا من الطبيعتين للوصول إلى الوحدة. مع التمسّك بتأكيد بشرية يسوع الكاملة. هنا أيضًا لم تكن المفردات واضحة وضوحًا كافيًا، إذ كانوا يستعملون كلمة «فيزيس» (Physis) (طبيعة) بمعانٍ مختلفة: فعند بعضهم، للمسيح طبيعة واحدة؛ وعند الآخرين، للمسيح طبيعتان.

هذا التباين في وجهات النظر سوف يتحوّل إلى تصادم حاد بالمواجهة بين الأسقفين الخصمين: **كيرلّس الإسكندري ونسطور القسطنطيني**. ففي سنة ٤٢٨ اتخذ نسطور، وهو من أصل أنطاكي، موقفًا من التقوى الشعبية التي كانت تدعو القديسة مريم ثيوتوكس، أي أم الله. ففي نظر نسطور، لا يرد هذا اللفظ في الكتاب المقدس، ومريم لا يمكن أن تكون أمًا إلاّ ليسوع الإنسان. في مواجهته، أراد كيرلّس الدفاع عن وحدة المسيح والاعتقاد المشترك للمسيحيين، فتمسّك بطبيعة واحدة للمسيح، ودخل في علاقة مع قلستينس، أسقف رومة، الذي أدان نسطور (ت ٤٣٠)، عندئذٍ طلب كيرلّس من نسطور أن يوقّع نصًّا يؤكّد فيه أن الكلمة والإنسان متّحدان في يسوع في طبيعة واحدة. استنجد نسطور بأصدقائه في أنطاكية، يوحنا وثيودوريطس، متّهمًا كيرلّس باتّباع الأبولينارية. أمام هذا الصخب، دعا الأمبراطور ثيودوسيوس الثاني سنة ٤٣٠ إلى مجمع أفسس وطلب أن تكون كل الأقاليم ممثّلة فيه. وُجّهت الدعوة إلى قلستينس أسقف رومة وإلى القديس أوغسطينس أيضًا، لكن هذا مات في ٣٠ آب (أغسطس) من العام نفسه فلم يتمكّن من الاشتراك.



أفسس

٢. مجمع أفسس (٤٣١)

وصف مؤرّخو ذلك الزمان أعمال المجمع الصاخبة. فقد حضر الأنبا كيرلّس إلى أفسس عاقداً النية على إزاحة خصمه من القسطنطينية. وقد كان من الخطر الاحتكاك بأسقف الإسكندرية، حين يصبح كرسيه الأسقفي أو العقيدة في خطر. اصطحب الأنبا كيرلّس خمسين من الأساقفة المصريين المؤيّدين له وكثيراً من الهدايا. إن كيرلّس قديس حقاً، رغم ما صدر منه من بعض تصرّفات تنمّ عن ضعف بشري.

وبالرغم من غياب الكثيرين عن حضور الافتتاح، وبالرغم من احتجاج مندوبي الأمبراطور ونحو ستين من الأساقفة، افتتح كيرلّس المجمع في ٢٢ حزيران (يونيو) ٤٣١، وعزل نسطور بوصفه يهوذا الجديد، الهرطوقي... (إلى غير ذلك) بموافقة مئتي أسقف. عندئذٍ عبّر الشعب عن فرحته ورافق الأساقفة إلى مقرهم في طواف بالمشاعل. ففي نظر الشعب الطيب، المسيح هو الذي انتصر على الهراطقة. ومع أن قضية الثيوتوكوس لم تكن موضوعِ البحث بشكل مباشر، فقد تمّ لها الانتصار أيضاً.

بعد قليل، وصل العديد من أنصار نسطور وغيرهم من الأساقفة الذين لا يحبّذون إجراءات كيرلّس، فأدانوا كيرلّس وأصحابه. فلم يعد أحد يعرف من لم تتمّ إدانته من الأساقفة. رأى ممثّل الأمبراطور أن يصنع الوفاق بين الجميع بعزل نسطور وكيرلّس معاً. لكن بابا الإسكندرية نجح في العودة منتصراً إلى الإسكندرية، في حين قضى نسطور بقية حياته منفياً في الواحات الخارجة غرب طيبة.

عقيدة أفسس

يبدو المحتوى العقائدي للمجمع هزيلاً في نظر البعض، بما أن الوثيقة الرسمية الوحيدة هي إدانة نسطور. أما في الواقع فمجمع أفسس يوطّد سلطة نيقية ويؤكّد الوحدة في المسيح. ولفظ «**ثيوتوكوس**» لن يلقى معارضة فيما بعد. ومن جهة ثانية، عرض يوحنا الأنطاكي، أحد معارضي كيرلّس، سنة ٤٣٣، صيغة اتحاد ومصالحة: «تم الاتحاد من الطبيعتين [...] وبسبب هذا الاتحاد، نعترف بأن العذراء القديسة هي أم الله (ثيوتوكوس) لأن كلمة الله صار جسداً، صار إنساناً». قبل كيرلّس هذه الصيغة بحماسة، فأرسل كسِيستُس (Xyste) أسقف رومة تهنئته إلى الرجلين باتفاقهما، مؤيّداً صيغتهما.

مجمع أفسس في نظر مؤرّخ معاصرٍ له

أمر الأمبراطور، بعد ذلك بقليل، بإصدار منشور يدعو إلى عقد مجمع في أفسس. وصل نسطور، وخلفه جمع غفير من الناس، حالاً بعد عيد القيامة، فوجد هناك

أساقفة كثيرين. أما كيرلّس، أسقف الاسكندرية، فقد تأخّر بعض الوقت، فلم يصل إلاّ قرب عيد العنصرة. ووصل يوڤنال، أسقف أورشليم، بعد خمسة أيام من هذا العيد. وبما أن يوحنا، أسقف انطاكية، أجّل سفره كثيراً، بدأ الأساقفة الآخرون تقليب القضية.

افتتح كيرلّس الجدل بمناوشة كلامية، تمهيداً للمعركة، بقصد إحراج نسطور، إذ إنه ما كان يحبّه. ولأن كثيرين كانوا يعترفون بأن يسوع المسيح هو الله، قال نسطور: «لا أدري كيف أدعو الله مَن كان طفلاً عمره شهران أو ثلاثة. لهذا فإني بريء من دمكم، ولن أكون بينكم من الآن فصاعداً». ومن تلك اللحظة انضمّ إلى الأساقفة الذين يرون رأيه. أمّا الذين استمرّوا في المجمع مؤيّدين لكيرلّس، فطلبوا مثول نسطور للمحاكمة، لكنه أجّل الظهور حتى يصل يوحنا، أسقف أنطاكية.

ولـمّا كان كيرلّس والباقون قد فحصوا المواعظ التي عالج فيها نسطور القضية وحكموا أنها تضمّ كفراً وتجديفاً على يسوع المسيح، قاموا بعزله. وهكذا اجتمع الأساقفة أنصار نسطور على حدة، وعزلوا بدورهم كيرلّس وممنون، أسقف أفسس.

ولـمّا حضر يوحنا، أسقف أنطاكية، بعد ذلك بقليل، غضب على كيرلّس واتّهمه بأنه تسبّب في الفوضى بتسرّعه في عزل نسطور. انضمّ كيرلّس إلى يوڤنال ليثأر من يوحنا وقام بعزله أيضاً.

لما رأى نسطور أن الجدل قد ذهب بعيداً، وأنه وصل إلى حدّ الانقسام، أحسّ بالأسف لكل ما حدث فقال: «فلتدعَ مريم – إذا شئنا – أم الله، وليكفّ النزاع!» وبالرغم من أنه بدّل موقفه، لم يرد أحد قبوله، فأُرسل إلى واحة حيث ما زال هناك [. . .].

حين عاد يوحنا إلى أنطاكية، جمع كثيراً من الأساقفة وعزل كيرلّس، الذي كان قد عاد هو أيضاً إلى الاسكندرية. لكنهما اتفقا بعد ذلك وتبادلا تثبيت كل منهما على كرسيه.

بذر عزل نسطور الاضطراب والبلبلة في كنيسة القسطنطينية، حيث انقسم شعبها. من ثمّ أصدر رجال الكنيسة الحُرم في حقه.

(سقراط، التاريخ الكنسي، ٧، ٣٤، ترجمة من القرن ١٧)

٣. استمرار الخلافات حتى مجمع خلقيدونية (٤٥١)

لم يُرضِ اتحاد سنة ٤٣٣ المتطرّفين من الجانبين. وكان خصوم كثيرون قد اختفوا من الساحة حين وُلدت المجادلة بين ثاودوريطس، أسقف قورش في سورية، الذي دافع دائماً عن الطبيعتين في السيد المسيح دون أن يفسّر تماماً «الاتحاد بلا اختلاط أو تشويش»، وأوطيخا الراهب الشيخ في القسطنطينية الذي ادّعى أن الطبيعة الإلهية في السيد المسيح قد تشرّبت الطبيعة الإنسانية. فجسد السيد المسيح – في نظر أوطيخا – ليس من ذات جوهر جسدنا. أُدين أوطيخا وحُرم خلال سينودس عقده فلابيانس أسقف القسطنطينية. فاستأنف أوطيخا

إلى لاون أسقف رومة وإلى ديوسقورس أسقف الاسكندرية.

اجتماع أفسس المضطرب

أمر الأمبراطور **ثيودوسيوس** الثاني، صديق أوطيخا، بعقد مجمع دعا فيه أنصار أوطيخا وحدهم تقريباً، البابا ولاون أسقف رومة. عهد لاون إلى النواب الذين سيمثّلونه برسالة عن سرّ التجسد، هي «الطومس إلى فلابيانس». كان موقف لاون واضحاً: للمسيح جسد حقيقي، من ذات طبيعة أمه، والطبيعتان تحتفظان بخواصهما، وتتحدان في أقنوم واحد. كان الغرب قد أوضح، في اللغة اللاتينية، منذ وقت بعيد، التمييز بين مفهومي طبيعة وشخص، الأمر الذي لم يحدث في الشرق مع اللغة اليونانية بين مفهومي (فيزيس وهيبوستاسيس).

ضمّ المجمع الذي عُقد في سنة ٤٤٩ في أفسس غالبية من أنصار أوطيخا، بينهم ديوسقورس الاسكندري الذي اصطحب جمعاً من الرهبان المتحمّسين. ولم يكن بإمكان نواب أسقف رومة، الذين لا يعرفون اليونانية، أن يفصحوا عن آرائهم. وأثناء جلسة عاصفة عُزل فلابيانس ومعه كل الذين يقولون بالطبيعتين. ثمّ أُصيب فلابيانس خلال مشاجرة تدخّل فيها البوليس ومات بعدها بقليل. لكنّ ثيودوريطس استأنف إلى رومة، فحنق البابا لاون على هذا المجمع ودعاه «لصوصية أفسس».

مجمع خلقيدونية

بدّل الأمبراطور الجديد **مرقيانس** السياسة الدينية، فطلب إلى البابا لاون أن يأتي ليرأس المجمع. لكن لاون لم يكن قادراً على الانتقال، لأن جحافل الهون قد اكتسحت الغرب. فأرسل أسقف رومة نائباً عنه. انعقد المجمع (٤٥١) في خلقيدونية التي تقع في مواجهة القسطنطينية على الضفة الأخرى لمضيق البوسفور. كانت المرة الأولى التي فيها يرأس أسقف رومة مجمعاً مسكونياً*. ولسوف يصبح هذا الوضع، فيما بعد، شرطاً مطلوباً للاعتراف بمسكونية أي مجمع. تواجد المعسكران القديمان مرة أخرى في المجمع يفصلهما كتاب الإنجيل المقدس. فأُعيد الاعتبار إلى فلابيانس وقُرئ قانون الإيمان النيقاوي القسطنطيني، الذي صار منذ ذلك الحين مرجعاً إيمانياً، وبضعة رسائل لكيرلّس ونصّ لاون «الطومس إلى فلابيانس». وقد أثار هذا النص حماسة الأساقفة فصاحوا: «هذا هو إيمان الآباء، هذا هو إيمان الرسل! نحن جميعاً نؤمن بهذا! الحُرم (أناثيما) على من لا يؤمن بهذا! قد تكلّم بطرس بفم لاون [...] قد علّم كيرلّس بهذا [...]. لاون وكيرلّس علّما التعليم نفسه».

عزل المجمع ديوسقورس وأمر الأمبراطور بنفيه. وتمّ تصفية بعض الحسابات مع الذين اشتركوا في لصوصية أفسس. ونُشرت صيغة إيمان استلهمت «الطومس إلى فلابيانس» فأوضحت الإيمان النيقاوي القسطنطيني بهذه

العبارة: «المسيح شخص واحد بطبيعتين». إنها من الآن فصاعداً قاعدة علم اللاهوت المسيحاني (الخريستولوجيا). وان كان هذا لا يمنع البحث عن صياغات أخرى تكميلية وعصرية حين تتبدّل الثقافات.

أقرّ المجمع كذلك بعض الأمور التنظيمية. وسوف نعود فيما بعد إلى القانون الثامن والعشرين. وقد صادق الأمبراطور مرقيانس «قسطنطين الجديد» على القرارات المجمعية. أما البابا لاون فقد اعترف بالقرارات العقائدية فقط.

التحديد العقائدي لمجمع خلقيدونية
(٤٥١)

[...] إن قانون الإيمان النيقاوي القسطنطيني، الحكيم والخلاصيّ، كان كافياً بنعمة الله ليعرّف، بشكل تام، وليؤكّد الإيمان الحقيقي [...]. لكن، لأن الذين شرعوا في تخريب تعليم الحقيقة قد أنشأوا بهرطقتهم الخاصة عقائد باطلة: بعضهم بجرأتهم على تشويه سرّ تجسّد الرب من أجلنا، رافضين اسم «ثيوتوكوس» للعذراء، والآخرون بادخال الاختلاط والتشويش، متصوّرين بحماقة أن الناسوت واللاهوت ليسا سوى طبيعة واحدة، ومفترضين بطريقة ممسوخة أن هذا الاختلاط يجعل الطبيعة الالهية للابن قادرة على أن تتألم. ولهذا، رغبة في اغلاق الباب على كل مكائدهم ضد الحقيقة، فإن المجمع المسكوني المقدس والعظيم المنعقد هنا، معلّماً العقيدة الثانية المعلنة منذ البدء، قد قرّر، قبل كل شيء، أن إيمان الآباء الثلاث مئة وثمانية عشر (نيقية) يجب أن يظلّ بعيداً عن كل أذى. والمجمع يؤكد أيضاً التعليم المسلّم بعد ذلك، عن طبيعة الروح القدس، بواسطة الآباء المئة والخمسين المجتمعين في المدينة الامبراطورية (القسطنطينية ٣٨١) بسبب بدعة محاربي الروح. لقد كان الآباء يعرّفون الجميع أنهم لا يريدون أن يضيفوا شيئاً الى تعليم من سبقوهم، فيما لو كان ينقصه شيء، لكنهم كانوا يعرضون فكرهم عن الروح القدس بوضوح، بشهادة الكتاب المقدس، ضد من كانوا يحاولون رفض ربوبيته. [...].

ونحن، إذ نتبع، والحالة هذه، الآباء القديسين، فإننا جميعاً وبصوت واحد نعلّم ابناً واحداً هو ذاته، ربنا يسوع المسيح، هو ذاته كامل في اللاهوت، وهو ذاته كامل في الناسوت، وهو ذاته الله حقاً وانسان حقاً. صار إنساناً بنفس عاقلة وبجسد، له وللآب ذات الجوهر بحسب اللاهوت، وله ذات جوهرنا بحسب الناسوت، شبيه بنا في كل شيء ما خلا الخطيئة، مولود من الآب قبل كل الدهور بصفة لاهوته. لكنه في الأيام الأخيرة، من أجلنا ومن أجل خلاصنا، ولد

من مريم، العذراء، أم الله (الثيوتوكوس) بصفة ناسوته. هو ذاته مسيح واحد، ابن، رب، ابن وحيد، نعترف به قائماً بطبيعتين، بلا تشويش ولا تغيير، بلا انقسام ولا انفصال؛ واختلاف الطبيعتين لم يُمحَ، على الاطلاق، بالاتحاد؛ بل بالعكس تبقى خواص الطبيعتين سالمة، وتلتقي في أقنوم أو هيبوستاسيس واحد. [. . .].

في ب. - ث. كاملو،
«أفسس وخلقيدونية» ص ٢٢٤-٢٢٥،
(تاريخ المجامع المسكونية، الجزء الثاني).

الاتفاق المشترك

بين الكنيسة الكاثوليكية والكنيسة القبطية الأرثوذكسية
حول شخص المسيح
في دير الأنبا بيشوي - وادي النطرون.
في ١٩٩١/١٠/٢٦.

«نحن نؤمن بأن إلهنا ومخلّصنا يسوع المسيح هو الله الابن المتجسّد، كامل في لاهوته وكامل في ناسوته. لاهوته لم يفارق ناسوته لحظة واحدة ولا طرفة عين. لاهوته واحد مع ناسوته بغير اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير. في إيماننا المشترك بإلهنا يسوع المسيح نرى نحن أن سرّه لا يُنطق به ولا ينضب».

٤. الكنائس المنفصلة الأولى ونتيجة المنازعات المسيحانية (الخريستولوجية).

لم يُحلّ مجمع خلقيدونية السلام بالرغم من صياغته المتوازنة. وعلى كل حال، ما استطاع مجمع أبداً أن يسوّي كل المشكلات تسوية نهائية. ونحن نلاحظ هذا جيداً في أيامنا الحاضرة. استمرت المنازعات المسيحانية فانفصل معارضو الصيغة الخلقيدونية عن الكنيسة الرسمية، إذ فكّرت الكنائس المونوفيزية أنها تبقى أمينة للقديس كيرلّس بالقول بطبيعة واحدة في المسيح. وأرادت الكنائس النسطورية الحفاظ على ثنائية الانسان والله في المسيح. على أنه، في معظم الحالات وبخاصة فيما يتعلّق بالكنائس المعاصرة، لا يجوز الحديث عن هرطقات بالمعنى الحصري للكلمة، فالمواقف والاختيارات كانت سياسية بقدر ما كانت عقائدية.

داخل حدود الأمبراطورية

أخذت حكومة القسطنطينية الامبراطورية على عاتقها أن تفرض على أراضيها العقيدة القويمة (الأرثوذكسية) لمجمع خلقيدونية. لكن أقاليم أو مناطق كثيرة رفضتها لكي تُظهر

استقلالها الثقافي والديني في مواجهة الاستعمار اليوناني. ففي مصر، من أجل الأمانة لديوسقورس وكيرلس، اختار غالبية المصريين المونوفيزية كعقيدة وطنية للكنيسة القبطية. وقد حدث الوضع نفسه في سورية، إذ صارت المونوفيزية عقيدة المسيحيين الناطقين باللغة السريانية*. وأُطلق على الخلقيدونيين لقب ملكيين. وقد ادخل المونوفيزيون في طقوسهم الكنسية قانون الايمان النيقاوي القسطنطيني لكي يُظهروا أمانتهم لتقليد أقدم من التحديث الخلقيدوني**.

خارج الأمبراطورية

على الحدود الشرقية للامبراطورية، كانت الظروف السياسية، إن لم تكن الصدفة ذاتها، هي التي دفعت كنائس هذه المناطق إلى اختيار المونوفيزية أو النسطورية، إذ في نهاية القرن الخامس أغلق الامبراطور مدرسة أديسّا اللاهوتية (أو الرها، بين دجلة والفرات) التي اعتُبرت نسطورية. فانتقلت إلى نصيبين في الأراض الفارسية؛ فصارت النسطورية العقيدة الرسمية لمسيحيي الامبراطورية الفارسية في سينودس طيسفون (٤٨٦). وفي الوقت ذاته فكّر المسيحيون الفارسيون في التخلّص من اتّهامهم بالتجسّس لصالح امبراطور القسطنطينية، وقد صار النساطرة الفارسيون، المنقطعون عن الغرب، من كبار المرسلين حيث وصلوا حتى أواسط آسية والصين. ويشهد نصب «سي - نجان - فو»، الذي يحمل نقشاً نسطورياً بالسريانية والصينية محفوراً على الصخر، والمقام سنة ٧٨١ في المدينة المدعوّة بالاسم نفسه التي كانت عاصمة الصين في ذلك الوقت، يشهد ذلك النصب لتلك الغيرة الارسالية العظيمة. أمّا الأرمن فقد تبنوا المونوفيزية لفظاً لمعارضة الفرس النساطرة من جهة، ويونانيي القسطنطينية من جهة أخرى. واختار الاثيوبيون، الذين كانوا يتبعون الاسكندرية، أن ينضووا هم أيضاً تحت لواء المونوفيزية.

احتفظ الأباطرة الروم دائماً بالأمل في إعادة الوحدة العقائدية والسياسية بواسطة صياغات توفيقية، ولكن دون جدوى! لقد أمست تلك الصياغات فرصة لمجادلات جديدة، ولأعمال عنف جديدة. وقد عالج مجمعان مسكونيان آخران (هما القسطنطيني الثاني سنة ٥٥٣، والقسطنطيني الثالث سنة ٦٨١) عقائد مسيحانية، فأدان القسطنطيني الثالث الأشكال الجديدة للمونوفيزية التي عُرفت بالمونوثيلية (إرادة واحدة في المسيح) والمونوإنرجية (قوة فاعلة واحدة في السيد المسيح).

* أطلق على المونوفيزيين في سورية فيما بعد لقب اليعاقبة، نسبة إلى الأسقف يعقوب البرادعي الذي نظّم الكنيسة السريانية وأقام لها طغمة كنسية في القرن السادس. (المترجم).

** أدخل الأقباط أيضاً في العصور الوسطى على قداديسهم صلاة اعتراف بالايمان تتضمن القول «لاهوته لم يفارق ناسوته... وجعلهما واحداً بلا اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير» وذلك رداً على اتّهام الملكيين لهم بالأوطيخية (المترجم).

ثالثًا – التنظيم الكنسيّ والروابط بين الكنائس

لم تكن مهمة المجامع المسكونية اصدار تحديدات عقائدية فحسب، بل كانت المجامع أيضاً فرصة التقاء الأساقفة من سائر أرجاء الامبراطورية. وكان لكل كنيسة محلية تقاليدها الخاصة. لذا حاولت مجامع القرنين الرابع والخامس – دون بلوغ النجاح دومًا – أن تنسّق القوانين التي تنظّم حياة الجماعات، وبخاصة إقامة الأساقفة وتحديد الروابط بين الكنائس.

١. أساقفة ومطارنة (متروبوليت)

كان من الطبيعي أن يتم تنظيم الكنائس على نمط التنظيم السياسي والاداري والاقتصادي. فالأسقف هو رئيس الجماعة المسيحية القاطنة في إحدى المدن. وكل مدينة تقع في دائرة اقليم. فاسقف عاصمة الاقليم (المتروبوليت أو المطران) يضطلع بدور أهم من باقي أساقفة الاقليم: ففي امكانه أن يعقد مجمعاً اقليمياً، وأن يثبّت ويجلّس أساقفة الاقليم. وهذا ما يذكره القانون الرابع للمجمع النيقاوي الذي يشير الى الطريقة الجماعية في تجليس الأساقفة.

وفي الأسقفية كما في غيرها، أماكن أفضل من أماكن أخرى، لذا كان من المغري محاولة تغيير الكرسي الأسقفي. فتصدى لذلك القانون الخامس عشر من قوانين مجمع نيقية.

فالأسقف، على صورة السيد المسيح، يُعتبر عريساً لكنيسته، فليس في وسعه أن يهجرها من أجل كنيسة أخرى. وباسم هذا المبدأ أُلزم غريغوريوس النازيانزي أن يترك كرسي القسطنطينية لأنه كان من قبل أسقفاً لمدينة صغيرة. لكن هذه القاعدة أُبطلت فيما بعد.

٢. أصل البطريركيات الخمس

لعبت بعض الكراسي الأسقفية، منذ بدايات الكنيسة، دوراً خاصاً أوسع مدى من دور كرسي عاصمة الاقليم (المطرانية أو المتروبوليس)، وهي كراسي المدن الرئيسة في الامبراطورية، وكانت في الوقت ذاته نقطة الانطلاق للبشارة: أي **رومة والاسكندرية وانطاكية**، ومعها أيضاً **قرطاجة**. فكان أساقفة هذه المدن يبسطون سلطتهم على مناطق أوسع بكثير من حدود الاقليم الذي يقيمون فيه، من أجل عقد المجامع أو تثبيت الأساقفة... الى غير ذلك.

جُمعت الأقاليم – بدءًا من عهد ديوقلطيانس – في دوائر أوسع (أقطار) دعيت ايبارشيات أو أبرشيات (بلغت خمسة عشر في نهاية القرن الرابع). وفي الجزء الشرقي من الامبراطورية، لعب أساقفة عواصم الايبارشيات – الذين دعوا أحياناً «اكسرخس (رئيس أساقفة) – دوراً مميَّزاً: كما كانت حال الاسكندرية وانطاكية. فكان يُعترف لبعض رؤساء الأساقفة بحق تكريس المطارنة، أساقفة عواصم الأقاليم.

وهذا هو مدلول القانون السادس لمجمع نيقية، والقانون الثاني لمجمع القسطنطينية.

تمسّكت القسطنطينية - مستندة الى الترتيب القائم على الدور السياسي - بأولية الشرف بعد أسقف رومة (القانون الثالث لمجمع القسطنطينية). ولم يكن هذا القرار موجّهاً ضد رومة، بل ضد الاسكندرية التي ظلّت لزمان طويل المدينة الثانية في الامبراطورية وفي الكنيسة. وقد أظهرت لنا المجامع المذكورة آنفا حماسة أساقفة الاسكندرية ضد أساقفة القسطنطينية. وبالتوازي طلب كرسي **أورشليم** أيضاً أن يحظى بتلك الامتيازات الخاصة استناداً إلى مكانته الدينية.

وقد جسّد القانون الثامن والعشرون لمجمع خلقيدونية وضع **القسطنطينية** الجديد بمنحها الولاية على أراضٍ شاسعة: ايبارشيات البنطس وآسية (الصغرى) وتراقيا الثلاث، والأراضي الحديثة التبشير.

تحدّدت هكذا الولايات الشرقية الأربع: القسطنطينية وانطاكية وأورشليم والاسكندرية، وأضيفت إليها ولاية رومة في الغرب، فصارت البطريركيات الخمس، التي استمدت وضعها القانوني في حكم يسطنيانس منتصف (القرن السادس). وقد تحدّث بعضهم أحياناً عن «بنتارخية»، أيّ حكم خماسي للكنيسة.

القانون الثامن والعشرون للمجمع الخلقيدوني

«وفقاً في كلٍ شيء لقرارات الآباء القديسين، واقراراً بقانون المئة والخمسين أسقفاً (بالمجمع القسطنطيني) الذي قرئ تواً، فإننا نتخذ ونجيز ذات القرارات المتعلقة بامتيازات كنيسة القسطنطينية المقدسة، رومة الجديدة. وقد منح الآباء، في الواقع، كرسي رومة القديمة امتيازاته، لأن رومة هي المدينة الامبراطورية. وللسبب عينه منح الأساقفة الجزيلو الوقار، المئة والخمسون، امتيازات متساوية لكرسي رومة الجديدة المقدس، مرتئياً بحق أن المدينة المكرّمة بوجود الامبراطور ومجلس الشيوخ بها، والتي تتمتع بامتيازات رومة نفسها، المدينة الامبراطورية القديمة، لهي مثل الأخيرة: عظيمة في الأمور الكنسية لكونها الثانية بعدها، فيخضع مطارنة ايبارشيات البنطس وآسية وتراقيا وحدهم، وأساقفة الاجزاء التابعة لهذه الايبارشيات والواقعة في مناطق البربر، ويُرسمون بواسطة الكرسي المقدس لكنيسة القسطنطينية الجزيل القداسة.»

(تاريخ المجامع المسكونية ١، ٢
نص منشور في «مجمع خلقيدونية»)



القديس غريغوريوس الكبير

٣. تأكيد الأوّلية الرومانية

لا يمكن الكلام عن البابوية ولا عن مفهوم «البابا» – بالمعنى الحالي - حتى القرن السادس. فقد كان لفظ «بابا» لقباً جارياً يمكن استعماله لأيّ أسقف، وكان يُعنَى به دوره الأبويّ.

ودون الدخول في التفاصيل، لنقُل إن أسقف رومة كان يلعب في الغرب اللاتيني دوراً شبيهاً بالدور الذي كان يلعبه اسقف الاسكندرية مثلاً، في مصر وفي المدن الغربية الخمس (ليبيا). ومع هذا، فمنذ البداية، احتلّت رومة مكانة استثنائية في الكنيسة الجامعة. وذلك بفضل حضور واستشهاد الرسولين بطرس وبولس فيها، وبفضل موقعها كعاصمة للامبراطورية. فقد تدخّل اساقفة رومة في حياة الكنائس الأخرى: فذكّر اقليمنضس الروماني سنة ٩٦ كنيسة قورنتس بضرورة الوحدة والنظام، وحرم فكتور اساقفة آسية الصغرى الذين لم يتبعوا عادات رومة والاسكندرية في الاحتفال بعيد الفصح (نحو سنة ١٩٠) ووبخ اسطفانس الروماني قبريانس بخصوص معمودية الهراطقة. . . الى آخر ذلك

أبرز مجمع خلقيدونية قيمة الدور العقائدي لاسقف رومة حين صرّح الآباء: «تكلّم بطرس بفم لاوُن». وبالتحديد – ووفقاً لما أعلنه من قبل مجمع روماني سنة ٣٨٢ – ارتكز القديس لاون الكبير على متى ١٦/١٨–١٩ في سبيل تنمية فكر لاهوتي للأولية. فأقرَّ لنفسه حقَّ وواجبَ قيادة الكنيسة في جملتها، بصفته خليفة بطرس الرسول. وما الأساقفة الآخرون الاّ «مشاركون في مهمته الراعوية، لا في ملء سلطانه». فاسقف رومة، في نظر لاوُن، يبدو اسقفاً كونياً (جامعياً)، أو أسقف الأساقفة، ومصدر السلطة الأسقفية. واعتبر غريغوريوس الكبير، فيما بعد، البابا، بالأحرى، اسقفاً بين الأساقفة. فما هو الاّ الأول بينهم. واليوم، يجري الكلام عن السلطة الجماعية. وهو لاهوت أقرب إلى اللاهوت الشرقي، وأكثر مسكونية بالتالي.

ورث اسقف رومة وعودًا قُطعت لبطرس

«اختير بطرس وحده، دون المسكونة، ليتولّى دعوة كل الشعوب، وهو وحده وضع على رأس جميع الرسل وجميع آباء الكنيسة. وهكذا الأمر في شعب الله: فرغم أن الكهنة كانوا عديدين، والرعاة كثيرين، كان بطرس يحكم، بصفة شخصية، وبكونه رئيساً، جميع الذين يحكمهم المسيح. وفي عنايته الإلهية، أيها الاحباء، منح الله هذا الرجل اشتراكاً كبيراً ومدهشاً في قدرته [...].

قيل لبطرس: «سأعطيك مفاتيح ملكوت السموات [...]». فمن المؤكّد ان حق ممارسة هذا السلطان قد انتقل أيضاً الى باقي الرسل. وامتد التأسيس الذي نشأ من هذا الوعد الى جميع امراء الكنيسة. لكن، ليس دون جدوى أن يعهد الى واحد ما قُصد به الجميع. فإذا كان هذا السلطان – في الواقع – قد سُلّم الى بطرس بصفة شخصية، فهذا يعني أن وضع بطرس يمتد الى جميع رؤساء الكنيسة. ان امتياز بطرس يبقى في كل مكان فيه قضاء بفضل عدالته [...]. فإلى بطرس، الراعي الصالح، نعزو هذا اليوم – ذكرى استهلالنا هذه الخدمة – وإليه نقدّم هذا العيد، إذ استحققنا بحمايته أن ننتمي الى كرسيه [...]».

(لاون الكبير، العظة الرابعة (٩٥)، Sources chrétiennes).

الفصل السادس

آباء الكنيسة

الكتّاب المسيحيون في القرون الأولى

تعرّفنا – على مدى الفصول الماضية – إلى عدد من الأحداث والعقائد أو الصلوات الطقسية، من خلال نصوص لكتّاب مسيحيين مثل أوسابيوس، طرطليانس، أوريجانيس، إيريناوس، أوغسطينس وأثناسيوس... ونقتصر على هذه الأسماء حتى لا نذكر إلاّ بعضها. وغالبًا ما يُطلق على هؤلاء المؤلفين اسم «آباء الكنيسة». ونحن لا نهتم بهؤلاء الأشخاص لمجرّد أنهم يوفّرون لنا معلومات تاريخية فحسب، بل لأنهم – حتى اليوم – يلعبون أيضًا دوراً حاسماً في ايماننا ووجودنا المسيحي. وبالفعل، كما رأينا ذلك في المقدمة، فإن تسليم الانجيل ليس كتسليم نص من النصوص، بل هو فهم لرسالةٍ من قِبَل رجال ذوي عقليات وثقافات متنوعة، عاشوا في جماعات لكل منها أصالتها الخاصة.

وفي هذا الفصل، نحاول اكتشاف المزيد مما ندين به لهؤلاء الكتّاب المسيحيين الأولين. إن الموضوع غير محدود، ودراسة الآباء التي ندعوها «علم الآباء» (البترولوجيا) لهي علم خاص كان وراء ظهور آلاف المؤلفات. وعشرة من الصفحات عن الموضوع لن تعطي سوى لمحة سريعة تثير شهيّة من يرغب في المزيد من المعرفة بمطالعة مؤلفات أخرى، وكثير منها سهل المنال.

أوّلاً – مَن هم آباء الكنيسة؟

١. آباء

ان كلمة «أب» تعيدنا إلى الأصول، الى ما كان في البداية. وهذا اللفظ هو على الأغلب مرادف للفظ «السلَف». ونحن نتحدّث عن «آبائنا في الايمان»... فالأب هو مَن له ابناء، يربّيهم ويقودهم الى النضج. هكذا – في القديم – كان المعلم يُدعى أبًا. فهو يسلّم الحكمة التي هي في الوقت ذاته عقيدة وتعليم حياة. وبالرغم

من تحفظات يسوع (متى ٢٣/٨-١١) فإن لفظة أب سوف تستعمل بكثرة في الكنيسة. وقد صرخ القديس بولس في ١ قور ٤/١٥ «... لكم عشرة آلاف مربٍّ في المسيح، لكن ليس لكم آباء كثيرون. فأنا الذي ولدتكم بالانجيل في المسيح يسوع». وقال القديس ايريناوس: «حين يقبل أحدكم التعليم من فم آخر، يُدعى ابناً لمن هذّبه، ويُدعى هذا أباه». وقد رأينا أهمية الأب (الأباتي) في بدايات الحياة الرهبانية. ان مهمة التعليم في القرون الأولى من حياة الكنيسة كانت منوطة - قانوناً - بالأسقف الذي أُعطي سريعاً لقب أب، وفي بعض الأحيان جاء اللقب في صيغة «بابا». وبطريق الانتشار مُنح كثيرون غيرهم، معلّمون وكارزون، لقب «أب» دون أن يكونوا أساقفة. وفي اللفظ نبرة أمان وثقة. فالأب هو ناقل ومسلّم التقليد. وكل هذه الخطوط المتصلة بكلمة «أب» تجعلنا نفهم مكانة آباء الكنيسة.

٢. قريبون إلى المصدر

تقودنا كتابات الآباء الى مصادر ايماننا بيسوع، فهم أقرب إليه منّا زمنياً. إن الرجوع الى المصادر، الذي نوليه اليوم اهتمامنا الخاص، ليس نكوصاً على الأعقاب أو تراجعاً. لكننا نودّ استكشاف الفكر والحياة المسيحية في منبع تدفقهما قبل أن يلحقهما تأثير الزمان. فالآباء هم القرّاء الأولون للعهد الجديد، الذين قدّموه كغذاء للمسيحيين المعاصرين لهم في لغة لم تكن قد انتظمت بطريقة منهجية. وهم يقدّمون - في الوقت ذاته - قراءة للعهد القديم في ضوء المسيح، ويدعون المسيحيين الى قراءة الكتاب المقدّس قراءة مسيحانية (خريستولوجية) تحت ارشاد الروح القدس. ودون أن نضع جانباً خمسة عشر أو عشرين قرناً من حياة الكنيسة، فالعودة الى كتابات الآباء تساعدنا على فهم أفضل لرسالة مسيحية متخلّصة من الرواسب والمخلفات التي قد تحجب عنا ما هو جوهري.

يعتبر التقليد - بشيء من التعسّف - أن زمن الآباء يبدأ بالكتابات التي تلي العهد الجديد، وينتهي في القرن الثامن. لكنّ هذا التاريخ يقابل نضوباً في الأدب المسيحي، في الغرب بوجه خاص (راجع الفصل السابع). كما كان هذا الأدب، في الوقت ذاته، قد بدأ يتطور شيئاً فشيئاً، فمال الى التخصّص والتخلّص من الاقتصار على التفسير الكتابي. ومع هذا، فالقطيعة بين المرحلتين ليست تامة: إذ اعتبر بعضهم أن برنردس دي كليرڤو الذي عاش في القرن الثاني عشر هو «آخر الآباء» (انظر الفصل الثامن).

٣. شهود لالتقاء الإنجيل والثقافات

لم يقتصر الآباء على تأمل بسيط للكتاب المقدس، أو تحريض أخلاقي صالح للاستخدام داخل جماعاتهم. فقد ألزمتهم الظروف الدفاع عن المسيحية التي هوجمت باسم العقل. فأعلنوا الانجيل مستعملين مقولات الثقافة اليونانية

اللاتينية حتى يفهمهم مستمعوهم، وبحثوا نقاط الالتقاء بين الحكمة اليونانية والرسالة المسيحية. فأخلاق الرواقيين الصارمة وإذعانهم لنظام العالم قابلا الله الخالق والمعتني بالكون عند المسيحيين. ومع الأفلاطونيين اعتقد المسيحيون أنه، انطلاقاً من المرئيات، يمكن الارتقاء الى الله جابلهم غير المنظور. وشيئاً فشيئاً استخدم الآباء كل الثقافات القديمة منصّرين إيّاها. وما تمّ هذا دائماً بلا صعوبات! ففي القرنين الثاني والثالث تحتّم على الآباء التحرّك ضد خطر تفكّك الرسالة الانجيلية الذي تمثّل في العقائد الغريبة. فقد نشأت المنازعات، حول الثالوث القدوس وطبيعة السيد المسيح، من الصعوبة في بلورة لغة ملائمة لشرح العقائد المسيحية (انظر الفصلين الثالث والخامس). هكذا كانت الظروف وراء مولد علم اللاهوت أو بالحري علوم اللاهوت.

تنوّع اللغات والثقافات

لم يكن الأمر يستدعي نظام الكتلة الواحدة. لذلك عبّر الآباء عن فكرهم باستعمال لغتي العصر الكُبريين: اليونانية واللاتينية. لكن بعض شعوب الشرق كانت تستعمل السريانية، أو القبطية، أو الأرمنية... الى آخر ذلك. وكان لكل لغة خاصيّات ثقافية أضفت على المسيحية في الأقاليم المختلفة ملامحها الخاصة.

لا يعني هذا أن نجعل الماضي كله مثالياً. فقد رأينا أن المواجهات بين اللاهوتيين كانت عنيفة أحياناً. ومع ذلك، يدعونا مثال الآباء أن نبحث، لإعلان الانجيل، عن لغة يفهمها معاصرونا.

ومن جانب آخر، تكتشف المسكونة اليوم، في كتابات الآباء، نوعاً من الجذع المشترك للاهوت – سابق على الانقسامات الكبرى – وتنوعاً في التعابير المتوافقة مع وحدة الكنيسة.

٤. حرّاس ضامنون لإيمان الكنيسة وقداستها

«الآباء»: هم الشهود المتميّزون لتقليد الكنيسة، أي للانجيل المعاش في القرون الأولى. فإذا طلب التقليد المسيحي – لهذا السبب – توافر الأرثوذكسية عند أيٍّ من الآباء، بمعنى استقامة عقيدته، فهو يتطلّب منه بالقدر ذاته – قداسة الحياة: فالأب، انما هو شخص مارس في حياته ما ألقاه من تعليم.

قداسة وأرثوذكسية

يلزم – مع ذلك – أن نفهم جيداً حدود هذه القداسة وتلك الأرثوذكسية. فالأمر يتعلّق بقداسة عامة، قداسة تكفي للحصول على اعتراف شعبيّ. ولن يمنعنا هذا من الاعتراف بأن القديس هيرونيمس كان سيّئ الطبع. فكان يعنّف خصومه، كما اتّخذ موقفاً ظالماً من القديس يوحنا الذهبي الفم. أما الأرثوذكسية المقصودة فتعني الاتفاق بين الآباء، والموافقة العامة على المسائل العقائدية الجوهرية في وقت

معيّن. وقد بدت بعض صياغات القرنين الثاني والثالث غامضة بعد قرنين. لذلك لا يجوز أن نُصدر حكماً على هذه الصياغات – كما فعل بعضهم – وفقاً للمعايير التي وُضعت مؤخراً. لقد تحقّق توضيح ونمو العقائد على مدى الأجيال.

وقد أوجز جيداً القديس منصور الليريني (Vincent de Lérins) (نحو ٤٣٤) كيف فهمت الكنيسة دور التقليد ودور الآباء في داخل التقليد، فيما يتعلّق بالكتاب المقدس وصياغة الايمان.

وقد انفصل عدد من الكتّاب المسيحيين، مثل طرطليانس، عن الجماعة الكنسية الكبرى، فصاروا هراطقة أو منشقين بحسب معايير ذلك الزمان، فلم يُحسبوا – بحصر المعنى – ضمن «آباء الكنيسة». ولكنهم ليسوا أقل من هؤلاء كشهود في غاية الأهمية للحياة والعقيدة المسيحية. ولهذا فهم يُقدَّمون مع الآباء.

ثانيًا –عصر آباء الكنيسة الذهبي

قدّمنا آنفًا عدداً من آباء الكنيسة كشهود للدراسات اللاهوتية الأولى: ايريناوس، اوريجانيس، طرطليانس... ويبدأ مجمع نيقية (٣٢٥) فترة جديدة في تاريخ علم الآباء، حيث سمح سلام الكنيسة والتئام المجامع الكبرى بانتشار الأدب المسيحي، حتى أمكن تسمية الفترة التي تبدأ من مجمع نيقية (٣٢٥) حتى



مار أفرام

مجمع خلقيدونية (٤٥١) بالعصر الذهبي. ونحن نثبت هنا بعض الأسماء لا غير.

١. القادمون الجُدد

انضمّ إلى الآباء اليونان واللاتين، من الحقبة السابقة، قادمون جدد: كتّاب من اللغات الشرقية، نذكر الأعظم فيهم: **افرام النصّيبيني أو الرهاوي** (٣٠٦–٣٧٣) الشمّاس والشاعر الذي اشتهر في الشرق بلقب «افرام السرياني».

عاش افرام في أقاليم ما بين النهرين التي تنازعتها الأمبراطوريتان الرومانية والفارسية. ولما وقعت نصّيبين، مسقط رأسه، في أيدي الفرس، لجأ إلى الرها، وهي حينئذٍ مركز كنيسة قديمة جداً ذات لغة سريانية، وهناك مات ضحية تفانيه في الخدمة إبّان انتشار وباء

الطاعون. وكان بصفته شمّاساً يعظ ويفسّر الكتاب المقدّس ويحيي الصلاة.

تشمل مؤلّفاته: مواعظ ومقالات تفسيرية؛ وخاصةً ما يقرب من أربع مئة وخمسين نشيداً، تُرجم كثير منها إلى لغات عدة. ان علم اللاهوت عند افرام – كالعديد من المؤلّفين السريان – أقرب إلى الأصول الكتابية، إذ إنه قليل التأثّر بالثقافة اليونانية.

أفرام السرياني «النصّيبيني»
(٣٠٦-٣٧٣)

أناشيد افرام المكتوبة بالسريانية هي نصوص موزونة تقطعها «لازمات» يحفظها المؤمنون عن ظهر القلب. وفي «الأناشيد على الفردوس» وضع افرام بلا انقطاع توازياً بين آدم وبين شخصيات العهد القديم والسيد المسيح.

لازمة:

«اجعلنا أهلاً لجودك
حتى ندخل فردوسك [...].
آدم العريان كان جميلاً
وامرأته النشطة تتفانى
تعاني لتنسج له ثوباً من الأقذار:
رأته الجنة – وجدته ذرياً
فطردته خارجاً.
لكنه بمريم صنع ثوباً جديداً
فلما اكتسى، وتمّ له الوعد
أشرق اللصّ:
تعرّفت الجنة على صورة آدم فعانقته.
وموسي إذ ملأه الشك
رأى، لكنه ما استطاع
الدخول إلى أرض الوعد
يحجزها نهر الأردن.
آدم إذ أخطأ ترك جنة الحياة
إذ يحرسها الشاروبيم.

لكنهما بربنا يسوع المسيح،
وهما المكفّنان،
استطاعا الدخول بالقيامة.
موسى إلى أرضه الموعودة
وآدم إلى فردوس النعيم».

٢. كبار المؤلّفين باللغة اليونانية

ينتمي أكبر الكتّاب المسيحيين من القرن الرابع إلى الثقافة اليونانية، لأن المنازعات العقائدية التي نشأت بالشرق شحذت التفكير اللاهوتي.

ترعرع **أثناسيوس** في الوقت الذي نشأت فيه الهرطقة الأريوسية، فقسمت كنيسة مصر. وكان ما زال شمّاساً حين رافق الكسندرس أسقف الاسكندرية إلى مجمع نيقية (٣٢٥). وفي سنة ٣٢٨ صار هو ذاته أسقف الاسكندرية، فحمل لواء الدفاع عن إيمان

نيقية، على مدى أسقفيته الممتدة والمضطربة، في مواجهة الأريوسيين ومَن حُسبوا كذلك. وقد طُرد أو نُفي من الاسكندرية خمس مرات. وفي إحداها رسى به منفاه في الغرب ووصل به حتى مدينة تريڤ.

تركّزت تآليفه أساساً في الدفاع والتقديم للاهوت الكلمة المتجسد، المساوي للآب، كما في «الخطاب على تجسّد الكلمة»، و«حياة وسيرة أبينا القديس أنطونيوس» التي حازت نجاحاً باهراً، وجذبت العديد من الدعوات الرهبانية الديرية وبينها القديس أوغسطينس ذاته.

كيرلّس الإسكندري (✝ ٤٤٤)

سافر صغيراً إلى القسطنطينية وأتقن العلوم الكلاسيكيّة كما ألمّ باللاتينيّة. تسلّم أسقفية الإسكندرية سنة ٤١٢. اهتمّ بأمور الرعية ودرس الكتاب المقدّس. دافع عن العقيدة ضدّ هرطقات عديدة وضدّ اليهود والوثنيّين. وهو المدافع الأكبر عن عقيدة «أم الله» ضدّ نسطور، حيث يظهر عمق تفكيره اللاهوتي وحسن أسلوبه العلمي. في مجمع أفسس، المسكوني الثالث، وفي دورته الأولى التي رأسها، حرم نسطور وتعاليمه حول شخص المسيح وأمومة العذراء مريم.

كان شعاره أن يحيا ويموت لأجل إيمانه بالمسيح.

ترك عدّة كتب تهمّ تاريخ العقيدة: كتاب ردّ على نسطور، كتاب ردّ على يوليانس، ورسائل عديدة في الثالوث الأقدس والتجسّد.



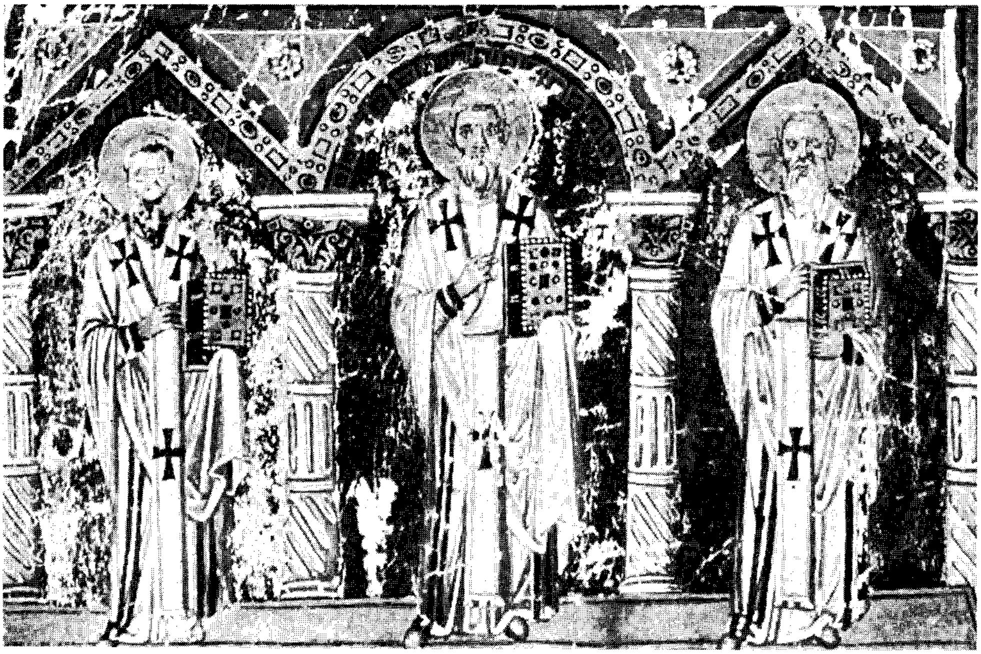
القديس اثناسيوس الكبير

هذا عدا تفاسير الكتاب المقدّس وأبحاث روحيّة ومواعظ ورسائل.

وفي قلب آسية الصغرى، كانت قبّدوقية موطن ثلاثة آباء من الطراز الأول دعوا «الأقمار الثلاثة»:

باسيليوس (٣٣٠-٣٧٩)

اقتبل العماد في سن البلوغ، بعد تحصيله ثقافة أدبية متميّزة. ثم اختار الحياة الرهبانية الديرية قبل أن يصير أسقفاً لمسقط رأسه، قيصرية، سنة ٣٧٠. وقد طبع أسقفيتَه شاغل مثلث: تنظيم أعمال المحبة في حقبة من المجاعات المتوالية، فأقام لذلك مدينة للإغاثة؛ وتنظيم حياة رهبانية جماعية فألّف لهذا الغرض «القوانين الكبرى والصغرى»؛ وشاغل أرثوذكسية العقيدة ووحدة الكنيسة في حقبة مضطربة



الأقمار الثلاثة

بسبب المشاحنات الأريوسية. ولقد دلّ باسيليوس كيف يمكن الشباب المسيحي أن يستخدم كتابات المؤلّفين الوثنيين استخداماً جيداً، كما فسّر الكتاب المقدّس وحدّد دور الروح القدس في «مقالة عن الروح القدس».

كان باسيليوس رجل الاتزان والحوار فاستحق لقب «الكبير»، لكنه لم يعمّر طويلاً حتى يرى ثمار جهوده من أجل سلام الكنيسة.

غريغوريوس النازيانزي (٣٣٠-٣٩٠)

مواطن وصديق باسيليوس. ذكرنا أعلاه جلوسه العابر على كرسي القسطنطينية الأسقفي. لم يكن حاسماً إذ لم يُخلق للقيادة. كان مؤهّلاً بالأحرى للكتابة، فترك «أحاديث لاهوتية» وتقاريظ وقصائد ومراسلات كثيفة.

غريغوريوس النيصي (٣٣٥-٣٩٤)

أخو باسيليوس. تزوّج لكنه التحق فيما بعد بأحد الأديرة قبل أن يصبح أسقف نيصة. لعب دوراً هاماً في مجمع القسطنطينية لكونه لاهوتياً بارعاً. ان التعبير الأكثر أصالة في فكره يتمثّل في اللاهوت النسكي والتأمّل الصوفي، فهو الموضوع المفضّل لكثير من مؤلّفاته: «خلقة الإنسان»، «مقالة في البتولية»... إن الإنسان، صورة الله، لقادر أن يعرف الله وأن يعود إليه عقب تطهير طويل. وقد ألقى غريغوريوس أيضاً مراثي عديدة.



القديس يوحنا الذهبي الفم

يوحنا الذهبيّ الفم (٣٤٥-٤٠٧)

هو أغزر الآباء اليونان إنتاجاً. وُلد في أنطاكية وعاش الحياة الرهبانية في البراري، ثم صار شمّاساً فكاهناً في أنطاكية. حاز نجاحاً منقطع النظير كواعظ، فاستحق أن يصبح - رغماً عنه - أسقف القسطنطينية سنة ٣٩٧. ويا لسوء طالعه! إذ لم يكن رجلاً لهذا العالم ولا سياسياً، فلم يستطع التأقلم مع جوّ البلاط الأمبراطوري. كما أراد أن يصلح - بطريقة جافة - أخلاق الإكليرس وأهل البلاط. فاجتذب عداوة الأمبراطورة وأسقف الإسكندرية ثاوفيلس الذي وقف بريبة ضدّه وحكم بعزله. فنُفي للمرة الأولى سنة ٤٠٣، لكنه استطاع، تحت ضغط الشعب الذي أحبه وتمسّك به، البقاء في القسطنطينية. لكنه ما عتّم أن نُفي ثانية، سنة ٤٠٤، بعيداً عن القسطنطينية، في جبال القوقاز، حيث لفظ أنفاسه الأخيرة ممجّداً الله سنة ٤٠٧. وقد كان يوحنا، الذي استحقّت له براعته كخطيب مصقع لقب «الذهبيّ الفم»، كان قبل كل شيء راعياً صبَّ جُلّ اهتمامه على تفسير الكتاب المقدّس في عظاته، وعلى إعداد الموعوظين للعماد، وعلى تحريض المسيحيين في مختلف ظروف حياتهم: فأعدّ مقالات في «الكهنوت، والزواج والبتولية...» وغيرها من الموضوعات.

عرّفتنا الفصول السابقة أيضاً كيرلّس الأورشليمي (٣١٣-٣٨٧) وكيرلّس الإسكندري (✝ ٤٤٤).

أثناسيوس (٢٩٥-٣٧٣)

صار الله بشراً حتى نصير نحن الله

«حلّ كلمة الله اللاجسدي وغير المائت في بلادنا، رغم أنه لم يكن بعيداً عنها من قبل؛ ولأنه لم يترك أيّ جزء من الخليقة خالياً من حضوره، بل ملأ الكل، فهو باقٍ لدى أبيه، لكنه يجعل ذاته حاضراً بيننا من أجل إنقاذنا بإظهار محبته [...]

وإذ أخذته الشفقة على جنسنا، متحنّناً على ضعفنا، ومتنازلاً إلى فسادنا، غير راضٍ أبداً أن يسود الموت علينا، حتى لا يهلك ما أنشأه، ولا يضيع سدًى عمل أبيه، اتخذ جسداً لا يختلف عن جسدنا [...].

إن مَن يتحدث عن الخصائص البشرية للكلمة، يعرف أيضاً ما يختصّ بألوهيته

[. . .]. وعندما يتحدّث أحد عن دموعه، يعرف أن الرب يُظهر بدموعه خاصيته البشرية، وبإقامة لعازر خاصيته الإلٰهية. ويعرف أن الرب قاسى الجوع والعطش، وفي الوقت ذاته أشبع بطريقة إلٰهية خمسة آلاف نفس بخمسة أرغفة؛ ويعرف أن جسده البشري مكث في القبر وأُقيم بكونه جسد الله [. . .].

صار الكلمة بشراً حتى نصير نحن الله، وبجسده صار منظوراً، حتى تكون لدينا فكرة عن الآب غير المنظور. تحمّل إهانات الناس حتى يكون لنا نصيب في الخلود. لم يلحقه أي ضرر، بكونه كلمة الله غير الزائل وغير الفاني. لكنه هكذا أنقذ من الخطر الناس المعذّبين الذين من أجلهم تحمّل كل هذا.

(مقتطف مذكور في كاستن،
مدخل إلى آباء الكنيسة جزء ٣ ص ١٣١
وما يلي).

غريغوريوس النيصي (٣٣٥-٣٩٤)

صورة ومثال الله في الإنسان

«ليس الجمال الإلٰهي إشراقًا خارجيًا لوجه أو لمظهر جميل، بل هو يقوم في الغبطة التي لا توصف لحياة الكمال. وكما ان الرسّامين، في استخدامهم للألوان من أجل رسم شخصية على لوحة، يضعون لمساتهم بحسب طبيعة الموضوع، لكي ينقلوا إلى لوحتهم جمال النموذج الأصلي؛ فلكم أن تتصوّروا – بذات الطريقة – عمل مَن جَبَلَنا! إن الألوان التي تتصل بجماله لهي هنا الفضائل التي يضعها ويزهرها في صورته، لكي يُظهر فينا القدرة التي هي قدرته.

إن مجموعة الألوان المتباينة المتمثّلة في هذه الصورة، والتي تمثّل الله حقًا، لا تتصل في شيء بالأحمر والأبيض أو أي خليط من الألوان، ولا بالأسود الذي يستخدم في تظليل الأهداب والعيون، وبعض الجرعات تبرز الظل المحفور بالخطوط؛ ولا تتصل عامة بما يستطيع الرسّامون ابتكاره أيضًا. فبديلاً عن كل ذلك، تطلّعوا إلى الطهارة، إلى الحرية الروحية، إلى الغبطة السماوية، إلى الابتعاد عن كل شر، وإلى عملٍ كل شيء به يأخذ التماثل بالله شكلاً محدّدًا فينا. إنه بمثل هذه الألوان قام الخالق برسم طبيعتنا وفقًا لصورته الخاصة.

فإذا فحصتم الخصائص الأخرى للجمال الإلٰهي، لوجدتم، على هذه النقاط أيضًا، أن التماثل قائم تمامًا في الصورة التي نحن عليها. إن الله هو أيضًا روح وكلمة: «في البدء كان الكلمة». وبحسب القديس بولس فإن للأنبياء «روح المسيح» ناطقًا فيهم. والطبيعة البشرية ما عادت أبدًا بعيدة عن هذه الصفات: ففي داخلكم تجدون العقل والفكر، تماثلاً بمَن هو حقًا روح وكلمة.

ان الله أيضًا محبة ونبع للمحبة. قال القديس يوحنا السامي المقام: «المحبة (تأتي) من الله» و«الله محبة». إن مصمّم طبيعتنا قد وضع فينا أيضًا هذه الخاصية: «بهذا يعرف الجميع

أنكم تلاميذي، إذا أحببتم بعضكم بعضاً».
إذا غابت المحبة إذاً، تشوّهت كل قسمات الصورة فينا».

(غريغوريوس النيصي، خلق الإنسان، الفصل الخامس).

يوحنا الذهبيّ الفم (٣٥٤-٤٠٧)

على كل مسيحي أن يهتمّ بخلاص إخوته

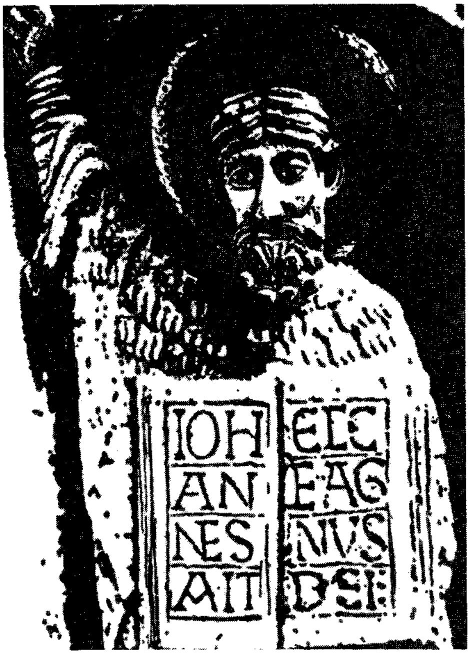
«ما انتزع السيد المسيح بولس من الخطر، بل تركه يتصرّف. إنه يريد للعقل البشري أن يعمل بكامل طاقته. وهو يريد أيضاً تعليمنا أن الرسل كانوا بشراً مثلنا، وأن النعمة لا يجوز أن تعمل دائماً كل شيء. وإلاّ اعتبرنا الرسل كقطع من الخشب لا غير. ولهذا كان نشاطهم عظيماً، لأنه قام أيضاً على أفعالهم الشخصية. فلنسلك هكذا بدورنا، ولنعمل على خلاص إخوتنا. إنه ليس بعمل أدنى من الاستشهاد أن نكون على أهبة لنحتمل كل شيء من أجل خلاص نفوس عديدة. إذ لا شيء يرضي الله أكثر من هذا [...].

لا شيء أكثر برودة من مسيحي لا يخلّص الآخرين! ليس لك، هناك في الأعالي، أن تحتجّ بفقرك! فالأرملة التي أعطت فلسين ستخرسك. وهكذا فعل بطرس عندما قال: «ليس لديّ ذهب أو فضة». إن بولس أيضاً كان فقيراً إلى درجة الجوع غالباً ونقص الغذاء دائماً. أنت لا تستطيع الاعتذار بتواضع نسبك، فالرسل كانوا أناساً متواضعي النسب، ولدوا من أناس مجهولي الهوية. لا تذكر نقص ثقافتك، فالرسل لم يعرفوا القراءة. قد تكون عبداً! قد تكون أيضاً خارجاً على القانون، لكنك تستطيع دوماً أن تعمل ما في وسعك. كانت هذه حال أونيسيمس [...]. مع ذلك، ها أنت ترى إلى أي شيء دعاه بولس! إلى أي كرامة قاده كما قال: «حتى يشاركني قيودي». لا تعتذر بمرضك! فتيموتاوس كان مريضاً أغلب الوقت. اصغِ إلى بولس حين يقول: «خذ قليلاً من الخمر من أجل معدتك وأمراضك الكثيرة».

كل منّا يستطيع أن يكون نافعاً لقريبه، لو أراد أن يعمل كل ما يختصّ به [...] إن الذين يهتمون فقط بمصالحهم الخاصة لا نفع منهم ولا طائل وراءهم [...] هذه حال أولئك العذارى! إنهن طاهرات، جميلات، فضليات. لكنهنّ بلا نفع لأي أحد! وهذه حال الذين لا يقوتون إخوة المسيح.

افهم جيداً: نحن لا نلومهم على سلوكهم الشخصي، لا لعدم الطهارة، ولا للتجديف، ولا لشيء آخر سوى أن يكون أحد غير نافع لغيره. هذه حال من دفن وزنته. كانت حياته بلا لوم، لكنه كان غير نافع لغيره!»

(يوحنا الذهبيّ الفم،
العظة العشرون على أعمال الرسل).



القديس كيرلّس الإسكندري

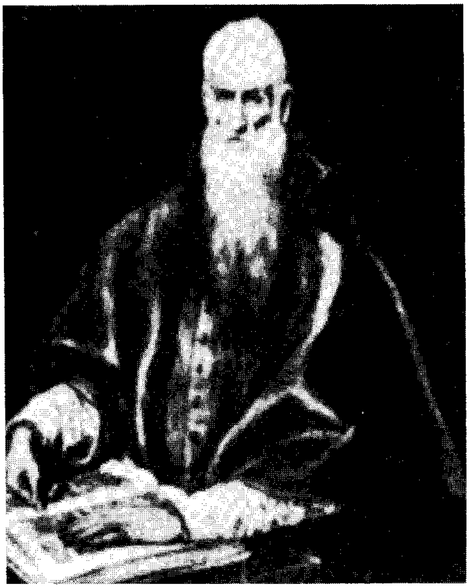
إلى المسيحيين تطبيق العدالة الاجتماعية: «الأرض للجميع، لا للأغنياء». فرض أيضاً على الأمبراطور ثاودوسيوس أن يتمّم فرائض التوبة عن قتل سبعة آلاف من سكان تسالونيقي. قام من جهته بأداء كل مهام الراعي، وأعماله خير شاهد على ذلك: عظات، تعاليم للإعداد للعماد، أطروحة في البتولية... كما أدخل إنشاد «الترانيم» في كنائس الغرب، وكان في الوقت ذاته مؤلّفًا وملحّنًا.

هيرونيمس: (٣٤٧-٣٩٧) وُلد في دلماسيا (يوغوسلاڤيا الحالية). عاش أولاً حياة الطيش. وفي رومة نجده طالبًا مستهتراً. وفي الشرق يهتدي فيتحسّس الحياة الرهبانية ويقبل الكهنوت بقلب كسير... وحين يعود إلى رومة ثانية

٣. كبار المؤلّفين باللغة اللاتينية

إن فكر الباء اللاتين، إذا استثنينا أوغسطينس، لهو أقلّ أصالة من فكر الآباء اليونان الذين عنهم أخذ اللاتين الكثير من الاستعارات.

أمبروسيوس (٣٤٠-٣٩٧) كان حاكماً لميلانو وفي صفّ الموعوظين حين توجّب عليه السهر على حسن النظام إبّان الانتخاب الحرج لأسقف ميلانو الجديد، وعندئذٍ علا صوت طفل صائحاً: «أمبروسيوس أسقف!». وفي خلال أيام، اقتبل الموعوظ العماد ثم الأسقفية. وزّع أمبروسيوس أملاكه على الفقراء كما طلب



القديس هيرونيمس

(٣٨٢-٣٨٥) يضع نفسه في خدمة البابا دماسيوس، ويقوم بإرشاد عدة مجموعات من السيدات المتعبّدات. ينتهي به المطاف أخيراً في بيت لحم حيث يؤسّس بمعاونة رفيقاته في الخدمة عدة أديرة للرجال والنساء. ولأنه متقلّب المزاج وذو طبع حاد، اكتسب عداوة الكثيرين بعنف أسلوبه

واتهاماته الظالمة غالبًا. كرّس جلّ نشاطه للكتاب المقدس وكان البابا دماسيوس قد كلّفه بمراجعة النصّ اللاتيني. فشرع في ترجمة لاتينية جديدة للعهد القديم انطلاقًا من النصّ الأصلي العبري والآرامي. وقد أُطلق على مجمل هذا النصّ اللاتيني المُراجَع أو المترجَم لفظ «الڤولغاتة»، أي الترجمة «الشائعة». إنه النصّ الرسمي والمرجع المعتمد في الكنيسة الكاثوليكية.

نحن ندين أيضًا لهيرونيمس بتفاسير كتابية، وبكتابات جدلية وبرسائل ذات نفع عظيم.

أوغسطينس (٣٥٤-٤٣٠): انه أعظم الآباء تأثيراً في الفكر الديني بالغرب. وُلد في تاغست (نوميديا، سوق أهراس بالجزائر) وكانت أمه، مونيكا، سيدة ورعة. صار طالبًا ثمّ أستاذًا بقرطاجة. سافر بعد ذلك إلى رومة وميلانو. ولزمن طويل ظلّ يبحث عن الحقيقة من خلال الفلسفات والبدعة المانوية. وقد بدا له ارتباطه بسيدة، أنجبت له ابنًا هو أديودات، عقبة في طريقه. لكنه اهتدى إلى النور أخيراً بتأثير امبروسيوس الذي منحه سرّ العماد المقدس سنة ٣٨٧. ثم سلك طريق الحياة الرهبانية بالقرب من هيبّونا (بون - عنّابة) فانتخبه المسيحيون من



القديس أوغسطينس

أهلها كاهنًا لهم ثم أسقفًا سنة ٣٩٥. وطوال أسقفيته الممتدة اضطر أوغسطينس أن يواجه أولاً مهام خدمته المتعدّدة. فالتزم أن يعظ ويسافر، عبر أفريقيا الشمالية، ليلتقي بزملائه ويشارك في المجامع المحلية، ويقضي الساعات الطوال في مجلسه القانوني. وها هي المنازعات - فوق كل ذلك - مع الدوناطيين الذين شكّلوا كنيسة منافسة، والمشادة حول النعمة مع الراهب بيلاجيوس، وفي النهاية... تكدّرت سنواته الأخيرة بغزو القندال. فمات أوغسطينس ومدينته هيبّونا تحت الحصار.

ان القديس أوغسطينس - بين جميع آباء الكنيسة - لهو الأوفر حظًا، فهو أكثر من ان

نحتفظ له بمؤلفات – وهو راعٍ ومربٍ في عظاته وتعاليمه الراعوية. كما أنه يقدم تفسيرات متمكنة للكتاب المقدس واطروحات فلسفية ولاهوتية، يهدف بعضها الى تقويم الأخطاء.

وبين هذه المؤلفات الأكثر شهرة: «الاعترافات» وهي صلاة شكر طويلة على اهتدائه، و «مدينة الله» وهي خواطر في التاريخ، لطمأنة المسيحيين المضطربين بعد سقوط رومة في يد ألاريك زعيم

أمبروسيوس أسقف ميلانو (٣٣٣-٣٩٧)

إرشادات للصلاة

«انصتوا الآن كيف يجب أن نصلي [...]، يقول الرسول: «أريد أن يصلي جميع الناس في كل مكان بأن يرفعوا أيدي نقية بلا غضب أو مشاجرة.» ويقول الرب في الانجيل المقدس: «وأنت اذا صلّيت، فادخل مخدعك واغلق بابك وصلّ لأبيك». ألا يبدو لك أن هناك تناقضاً؟ ان الرسول يقول: صلّ في كل مكان، في حين يقول الرب: صلّ في داخل مخدعك. الحق ان لا تناقض في هذا [...]. فأنت تستطيع الصلاة في كل مكان، والصلاة دوماً في مخدعك فمخدعك في كل مكان، حتى لو وُجِدتَ بين الوثنيين، أو بين اليهود، فمخدعك الخفيّ في كل مكان. إن مخدعك هو روحك. حتى لو وُجدتَ بين الشعب فعندك، مع ذلك، في الانسان الباطني، فمخدعك الخفيّ والمغلق.

عندما تصلي ادخل مخدعك. له الحق أن يقول: «أدخل»، حتى لا تصلي كاليهود الذين قال فيهم: «هذا الشعب يكرمني بشفتيه، أما قلبه فبعيد عني». احذر أن تكون صلاتك خارجة فقط من شفتيك. ضع فيها كل انتباهك، ادخل في خلوة قلبك، توغّل فيه حتى الأعماق [...].

ما هذا الباب المغلق؟ تعلّم أن يكون لك باب تغلقه حين تصلي. فليهب الله النساء أن يفهمن هذا! [...] عندما تصلي لا ترفع صوتك بالصراخ! لا تشتت صلاتك، ولا تزاحم الجمع. صلّ سرّاً داخل نفسك. كن متأكداً أن الله يسمعك في السرّ، هو الذي يرى كل شيء ويسمع كل شيء. صلِّ لأبيك في الخفية. لأن الذي يرى ما هو خفي يسمع صلاتك [...].

لأي سبب يتوجّب علينا أن نصلّي سرّاً بدل أن نرفع صوتنا؟ فلننظر حولنا! لو أنك استعطفت أحداً يتمتع بسمع مرهف، فلن تظنّ أن من الضروري الصراخ! فأنت ترجوه متلطفاً وبنبرة هادئة. أما إذا رجوت أصمّ، أفلا تبدأ برفع صوتك حتى يستطيع أن يسمعك؟ فمن يصرخ يظن أن الله لا يمكن أن يسمع الاّ من يصرخ، وبهذا يقلّل من قدرته. أمّا من يصلي – بالعكس – صامتاً فإنه يبرهن على ايمانه ويعترف بأن الله فاحص للقلوب والكلى وأنه يسمع صلاتك قبل أن تخرج من فمك».

(أمبروسيوس، في الأسرار، ٦، ١١-١٦ .(Sources Chrétiennes

الغوط سنة ٤١٠، والمقالة «على الثالوث». ويكفي للدلالة على مكانته أن جميع اللاهوتيين المتأخرين حتى لوثر وكالفن وجانسينيوس سوف يستشهدون به، ويرتكزون على فكره اللاهوتي.

يمكننا أن نذكر عشرات من الآباء اللاتين، وان كانت مؤلفاتهم محدودة. لكن بعض الكتابات مثل «مساعدات الذاكرة» لمنصور الليريني حقّقت شهرة كبيرة. وقد التقينا من قبل

التعليم المسيحي بالفرح

«شكرالله» شماس من قرطاجة، لاقى صعوبة في تعليم مبادئ الإيمان للبالغين لم يكونوا مقبلين حالاً على المعمودية. فتح قلبه لأوغسطينس الذي وجّه إليه بعض «الارشادات من أجل تعليم مسيحي ابتدائي»:

«[. . .] تذكّر أنهم يصغون إلينا اصغاءً أفضل حين نجد، نحن أنفسنا، لذة في عملنا: إن طريقة القاء حديثنا تنمّ عن فرحنا، وترويجه يصير أكثر يُسراً وتشويقاً. هكذا، لن يصبح عسيراً تحديد من أين نبدأ وأين نقف في عرض حقائق الايمان؛ وكيف ننوّع المادة حتى إن طالت أو قصرت، تظل – مع ذلك – متكاملة ومنتهية؛ وكيف نختصرها أو نضيف إليها. إن العمل العظيم لهو بالحري اكتشاف منهج التعليم بفرح: فبقدر ما ننجح فيه، يُصغى الينا.

اننا نجد السبب الحقيقي في هذا سريعاً. فلو كان من أجل الخيرات المادية «فالله يحب المعطي المتهلّل» (١ قور ٩:٧)، وكم بالحري من أجل الخيرات الروحية! ولأن يأتي هذا الفرح في اللحظة المطلوبة فهو عطية رحمة ممّن جعل منها واجباً [. . .].

ولكي يأتي العرض شاملاً، يجب أن يبدأ بـ «في البدء خلق الله السموات والأرض» من سفر التكوين، ويتتابع حتى زمان الكنيسة الحاضر. أيلزم القول بأن تكون التلاوة من الذاكرة، وبافتراض أن تحفظ عن ظهر القلب: كتب الشريعة الخمسة [. . .] والأناجيل، وأعمال الرسل؟ كلا! بل يجب الاكتفاء بالخطوط العريضة، مع توضيحها ببضعة أحداث غير عادية يمكنها أن تجذب الانتباه بسهولة؛ وتجب العناية بتقسيم هذه الأحداث الى حقبات كبيرة [. . .].

بقي عليّ أن أقول لك كيف تحقّق جوّ الفرح [. . .]. إنني أقرّ بأنها محاولة شاقة أن يستمر المرء في الكلام حتى النهاية، فعندما لا نلحظ أي ردّ فعل لدى السامع [. . .] هنا يلزم اللجوء الى كل الأساليب الخطابية الكفيلة بأن تشدّ انتباهه وتسحبه من تحفّظه. سوف نخاطبه بعذوبة [. . .]، ولكي نخفّف من رهبته الانسانية سنذكّره بأننا إخوة، وسنوجّه له السؤال لنتأكد هل هو قد فهم، وسوف نشجّعه أن يعرض بكل حرية اعتراضاته اذا ما وجدت [. . .]. يلزم إيقاظ الانتباه بسرد فكاهة على أن تكون ذات مستوى جيد، ودون الخروج عن الموضوع. أو بأن نقصّ شيئاً مثيراً للدهشة أو محركاً لعواطف الشفقة أو الحزن».

(أوغسطينس،
ارشادات من أجل تعليم مسيحي ابتدائي).

منصور الليريني
(النصف الأول من القرن الخامس)

«هل هناك معيار عام لتمييز الحقيقة الدينية من الخطأ؟

اجتهدتُ غالبًا، بكثير من الغيرة واليقظة، لدى العديد من رجالٍ سموا بقداستهم ومعرفتهم، للتحقق من السؤال التالي: «هل هناك منهج مؤكد عام - كما يقال - وثابت يمكنني بواسطته تمييز الايمان الكاثوليكي الحقيقي من أكاذيب الهرطقة؟». لقد وجدت دائماً عند الجميع هذا الجواب: «[...] يتعيّن علينا أن نحمي هذا الايمان خلف ساتر مزدوج: سلطة الشريعة الالهية أولاً، ثم تقليد الكنيسة الجامعة».

قد يقول أحدهم هنا: «بما ان قانون الكتب المقدسة كامل، وأنه يكفي، في شموله وفي غزارته، لكل الحالات. فما الحاجة أن نضيف إليه تفسير الكنيسة؟».

يقود هذا التساؤل - ان اخذنا في الاعتبار عمق الكتاب المقدس - إلى اعتبار أن ليس في امكان الجميع أن يفهموا الكتاب بذات المعنى، وبمعنى واحد فقط. فذات الكلمات قد يفسّرها واحد بطريقة، ويفسّرها غيره بطريقة أخرى. ويمكن القول إنه بقدر تعدّد المفسرين، تتعدّد الآراء [...].

وفي الكنيسة الكاثوليكية ذاتها، يتعيّن السهر جيداً على التمسك بالعقيدة السائدة: في كل مكان، ودائماً، وعند جميع المؤمنين، لأنها هي حقًا وتمامًا العقيدة الكاثوليكية، كما تدل عليها قوة ودلالة الكلمة ذاتها، التي تحوي جامعية الأشياء.

وسيكون الأمر كذلك لو أننا اتبعنا الجامعية والقدم والاجماع. وسوف نهتدي إلى صفة الجامعية حين نعترف بأن الايمان الذي تعتقد به الكنيسة بأسرها والمنتشر في العالم أجمع هو وحده الإيمان الحقيقي.

وسوف نهتدي الى صفة القدم إذا لم نستبعد في أية نقطة المشاعر المشتركة التي عبّر عنها بوضوح أجدادنا وآباؤنا القديسون.

وسوف نحقق الاجماع العام أخيراً لو أننا تبنّينا - في هذا القدم ذاته - التحديدات والعقائد المسلّم بها من الجميع أو على الأقل من جميع الأساقفة والملافنة تقريباً [...].

ولو طُرح سؤال جديد، لم يعالجه مجمع من المجامع، فيجب اللجوء عندئذٍ إلى آراء الآباء القديسين، آراء الذين، على الأقل في أزمنتهم وأماكنهم، ظلوا على وحدة الشركة والايمان، وعُدّوا كمعلمين معتمدين. وكل ما استطاعوا التمسك به في وحدة الفكر والاحساس يجب اعتباره العقيدة الحقيقية الجامعة للكنيسة، دون أيّ شك أو وسواس [...]».

(منصور الليريني، معين الذاكرة ٤٣٤).

لاوُن الكبير الذي ارتقى البابوية من سنة ٤٤٠ إلى ٤٦١، وعاصر مجمع خلقيدونية والبابا غريغوريوس (٥٩٠–٦٠٤) الذي يعدّ الرابع بين الآباء اللاتين الكبار. ولقد لُقب هو أيضاً «بالكبير». وقد صار عهده فاتحة العصر الوسيط. لكن كتاباته تكتفي غالباً بمراجعة أفكار سابقيه، خاصة أفكار القديس اوغسطينس.

الفصل السابع

أوائل القرون الوسطى

تفكّك العالَم المسيحي وإعادة بنائه

(القرون ٥-١١)

كان لا بدّ من انتظار ثلاثة قرون، قبل ان تُقبَل الكنيسة في الامبراطورية الرومانية. ولكن المسيحيين لم يعتقدوا، في نهاية القرن الرابع، بأن الكنيسة تستطيع ان تبقى خارج اطار الامبراطورية المتجلّي في تداخل المناطق المدنية مع المناطق الدينية، وتمثُّل الأساقفة بكبار الموظَّفين، كما ان الدعوة الى المجامع كانت بمبادرة الامبراطور وبأمر يصدر عنه.

ومع ذلك، بدت الامبراطورية مريضة الى حد بعيد. وعند وفاة ثيودوسيوس (٣٩٥)، انقسمت نهائياً. وفي القرن الخامس، قضت عليها ضربات البرابرة في الغرب. أمّا في الشرق، فقد استطاعت ان تصمد عشرة قرون بعد ذلك، وفي أراضٍ ضاقت يوماً بعد يوم. لكن الكنيسة نجت من جميع تلك التقلُّبات وتحوَّلت في العمق.

ان القرون العشرة التي تفصل بين العصور القديمة وعصر النهضة في القرن السادس عشر عُرفت بالعصور الوسطى وقد اطلق علماء الغرب هذا اللفظ على تلك الحقبة في شيء من الازدراء، وكأنها قرون تفصل بين الحضارات القديمة التي يسعون لإحياء تراثها والنهضة التي ينادون بها وخصوصاً إبَّان القرن السادس عشر.

ما أكثر الأحداث التي جرت في نحو ألف سنة! وأول ما يتبادر الى الذهن عن العصور الوسطى رؤى الكاتدرائيات، وذكرى الحروب الصليبية والقديس لويس، وكأن ذلك هو العالم المسيحي. ولكن، لا بدّ لنا، للوصول الى ادراكها، ان نجتاز نحو ستّة قرون يحيط بها الخمول، تمَّ فيها، بكثير من المشقة، وضع عناصر حضارة اوروبية على اسس مسيحية.

أوَّلاً - الغزوات والجغرافيا الدينية الجديدة

١. الغزوات الجرمانية

في مطلع القرن الخامس عشر، قامت عدة قبائل جرمانية، بعد ان طردها الهياطلة

(Huns)، باجتياز نهرَي الدانوب والرّين، وتدفّقت على الامبراطورية الرومانية. وفي ٤١٠، استولى الغوط الغربيون، بقيادة ألاريك، على رومة ونهبوها، وأقاموا في جنوب غاليا وفي اسبانيا. وفتح الوَندَل (Vandales) بلاد أفريقيا الشمالية. وتوفّي القديس أوغسطينس سنة ٤٣٠ في هيبونا (Hippone) المحاصرة. وسقطت قرطاجة في ٤٣٩. ووصل الهياطلة هم أيضاً، بقيادة أتيلا (Attila)، الى الغرب. لكن الاتّحاد المقدّس الذي عُقد بين البرابرة الجرمانيين والجيوش الرومانية الأخيرة أوقف أتيلا بالقرب من تروا (Troyes) (٤٥١)، في حين نجح البابا لاون الكبير في التفاوض مع البرابرة حتى غادروا رومة (٤٥٢). ولكنها نهبت مرة أخرى عن يد الوندلي جنسريك (Genséric) في ٤٥٥. وفي ٤٧٦ وأخيراً، قام أحد البرابرة بخلع آخر الأباطرة الرومانيين. وبذلك لم يبق للعالم الغربي القديم، الروماني والمسيحي، وجود يذكر، وابتدأ عصر جديد، اذ استمرّت الامبراطورية في الشرق، لكن الغرب اللاتيني كان قد تفتّت الى بضع ممالك بربرية، منها الغوط الشرقيون (Ostrogoths) والغوط الغربيون والبُرغوند (Burgondes) والوندل والألمان (Alamanes) الخ.

فهل حانت نهاية العالم؟

اعتقد كثيرون من المسيحيين بأن العالم قد أوشك على نهايته، ظنًّا منهم ان الكنيسة لن تستطيع ان تحيا بعد سقوط الامبراطورية. لقد أحدث الاستيلاء على رومة عند المؤمنين صدمة عميقة. ورأى فيه الوثنيون عقاباً أنزلته الآلهة بسبب التخلّي عن الديانة القديمة. وتساءل المسيحيون لماذا لم يقم الرسل والشهداء الذين كانت أجسادهم في رومة بحماية المدينة. فقال بعضهم: أراد الله ان يعاقب المسيحيين على خطاياهم. ولكن لماذا هلك بعض الأبرياء؟ وفي اورشليم، أطلق هيرونيمس (Jérome) العنان لألمه، في حين حاول اوغسطينس، في هيبونا، أن يأتي بتفسير لتلك الأحداث في كتابه «مدينة الله». لقد أدى سقوط رومة بين أيدي الوثنيين الى قلق حادّ في نفوس المعاصرين فساورهم الشك والخوف.

البرابرة في الكنائس

اقترح اوروز (Orose)، في كتابه «التاريخ يردّ على الوثنيين»، نظرة مسيحية للتاريخ العالمي، من آدم الى سنة ٤١٧.

«من يدري؟ فلعلّ البرابرة لم يدخلوا الى الامبراطورية الرومانية إلاّ لتمتلئ كنائس المسيح، في كل مكان، في الشرق والغرب، بالهياطلة والسّواب (Suèves) والوندل والبرغوند (Burgondes) وغيرها من قبائل لا يحصى عددها تدخل في الايمان. أفلا يجب إذاً ان نسبّح برحمة الله ونشيد بحمده، إذ إن أممًا كثيرة قد اكتشفت حقيقة الإيمان من خلال الآلام والمعاناة التي سبّبها الدمار الذي حلّ بالكنيسة».

الأساقفة حُماة المدن

وفي هذا الوضع المأسوي، ظلّت الكنيسة المؤسّسة المنظّمة الوحيدة. فقام أساقفة كثيرون بادارة الأمور، حين عجزت عن ذلك السلطات في الامبراطورية. فاستقبل اوغسطينس اللاجئين في هيبونا، وطلب الى الكهنة والأساقفة ان يصمدوا مع شعبهم. وكان المدعو «ما شاء الله» (Quodvultdeus) محرّك المقاومة في قرطاجة، ودافع اكسوبيرس (Exupère) عن مدينة تولوز. وقام غيرهما بتموين مدينة ليون والمدن المجاورة. وشدّدت جنڤياڤه (Geneviève)، وهي راهبة قديسة، عزائم سكّان باريس.

اهتداء الإفرنج (Francs)

كان لا بدّ من الاتّفاق مع أولئك الغزاة البرابرة، فضلاً عن ان بعضهم كانوا معجبين الى حد بعيد بالعالم الروماني واستخدموا بعض الموظّفين السابقين. وكتب أوروز (Orose) أن تلك الاجتياحات تبشّر بمرحلة جديدة في حياة الكنيسة. لا شكّ ان الكثير من أولئك الجرمانيين اعتنقوا المسيحية الأريوسية التي بشّرهم بها ولفيلا (Wulfila) في القرن الرابع. فكانوا يبدون، بوجه عام، تساهلاً مع الكاثوليك. ومع ذلك، قام الوندل الأريوسيون بشنّ اضطهاد عنيف على الكاثوليك الافريقيين. أمّا الإفرنج فقد استمرّوا في الوثنية. لكن **كلوڤيس**، ملكهم، اعتقد بأن انتصاره على الألَمان، شأن قسطنطين في الماضي، قد تمّ بفضل إله كلوتلْدا امرأته وكانت كاثوليكية. فكان لاهتداء كلوڤيس الى الكنيسة الكاثوليكية نتائج عظمى. ونال الافرنج الحظوة عند الغاليين (Gaulois) الرومانيين السابقين. وتغلّب كلوڤيس على سائر الجرمانيين الأريوسيين. فأخذ الكاثوليك، بعد أن أصبح أحدهم ملكًا، يخفّفون من اعتمادهم على القسطنطينية، إذ إن كلوڤيس صار لهم قسطنطينًا جديدًا.

يُسطِنْيانُس

وفي القسطنطينية، شرع الامبراطور يسطِنْيانس (٥٢٧-٥٦٥) في محاولة عظيمة لاستعادة الأراضي التي سقطت في أيدي البرابرة. ونجح فيها الى حد ما في أفريقيا وايطاليا. لكن عنوان فخره هو بالأحرى بناية كنيسة القديسة صوفيا في القسطنطينية واصدار مدوّنة الشرع الروماني، وهي مجموعة شرائع الامبراطورية. وأصبحت هذه المدوّنة أساس شرع المجتمع المدني والديني في أوروبا.

٢. الفتح العربي

بعد ذلك بقرن ونصف، وصل مجتاحون آخرون، آتين من جزيرة العرب، وقلبوا أوضاع الكنيسة الجغرافية على نحو جذري.

شبه الجزيرة العربية في طي النسيان

كانت جزيرة العرب في القرن السابع ملتقى حضارات وأديان. وكان الحنفاء،

بحسب التقليد، متمسكين بديانة تميل الى التوحيد البدائي. واستقرّت الجماعات اليهودية والمسيحية على طول شاطئ البحر الأحمر وفي الجنوب (اليمن). لكن القسم الأكبر من البلاد كان ساحة تتجوّل فيها قبائل رُحَّل مُشرِكة تتحارب فيما بينها، وكانت مكّة، حيث الحجر الأسود (الكعبة)، قبلة العرب الدينية للحج وللتجارة.

محمد ودعوة التوحيد المطلق

عاش **محمد** الذي رأى النور حوالى ٥٧٠، وسط مختلف التيارات، وبعد تعبّده لله في غار حراء وعمله بالتجارة بين الحجاز والشام، فترة(١)، أعلن دعوة التوحيد الصرف ودين الفطرة ووجوب الخضوع لله رب العالمين خضوعاً تاماً، أي الاسلام له اسلاماً حنيفاً. ولمّا رفض أهل قبيلته دعوته وبدأوا مناوأته، هرب من مكة إلى المدينة في عام ٦٢٢، تاريخ الهجرة وبداية التقويم الهجري والتاريخ الاسلامي. وبعد أن وحّد بين القبائل العربية، رجع ظافراً إلى مكة سنة ٦٣٠. ويذكر الأزهري – المؤرخ المكيّ – أن نبيّ الاسلام، بعد فتحه مكة، أمر بازالة كل الصور التي تمثل العبادات الوثنية من على جدران الكعبة، فيما عدا صورتي السيد المسيح وأمه العذراء مريم اللتان وضع يديه عليهما ليستثنيهما من الازالة، مما يدلّ على إجلال النبي للسيد المسيح وأمه. وقد ظلّت الصورتان منظورتين على جدران الكعبة حتى القرن التاسع الميلادي. وقد توفي نبي الاسلام سنة ٦٣٢ بعد فتح مكة بنحو سنتين.

فقدت الأمبراطوريتان العظميان في تلك الحقبة، البيزنطية والفارسية، السيطرة الفعلية على الأقاليم والبلدان التي خضعت لهما، وساد كثير من الظلم والفقر شعوبها. ولما انطلق العرب الفاتحون، بدا في الأفق عصر جديد يأخذ بناصية القوة فيه هؤلاء العرب الذين كانوا على علم بالأحوال المتردّية في أنحاء الأمبراطوريتين، وقد أعطى الدين الجديد للفاتحين قوةً وحماسةً، فراحوا يستعذبون الموت جهاداً في سبيل الله، وقد سجّل التاريخ ترحيب هذه الشعوب بالعرب الفاتحين وخاصةً في بلاد الشام ومصر.

فالصراع العقائدي بين المذاهب المسيحية لم ينقطع، والنفور من الأباطرة البيزنطيين والفرس يزداد ويقوى، والحروب بينهما أنهكت القوى وضيّقت سبل العيش، فرأى أهل سورية فأهل مصر في العرب فاتحين منقذين، ولا سيما ان الفاتحين الجدد لم يأتوا من الشمال أو من الغرب، من رومة واليونان، حيث توافد الغزاة عبر التاريخ ولم يأتوا من الشرق من بلاد الأكاسرة، بل جاء الفاتحون هذه المرة من قلب شبه الجزيرة العربية التي عاشت في طي النسيان،

١. راجع السيرة النبوية لابن هشام، وتاريخ اليعقوبي.

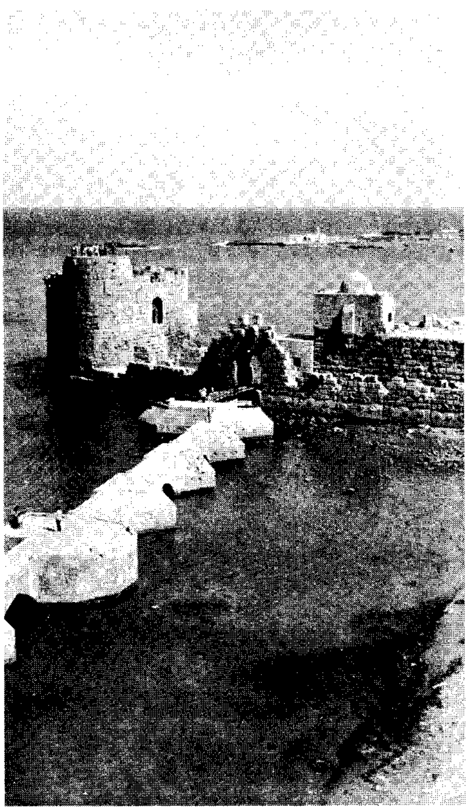


القديس لويس

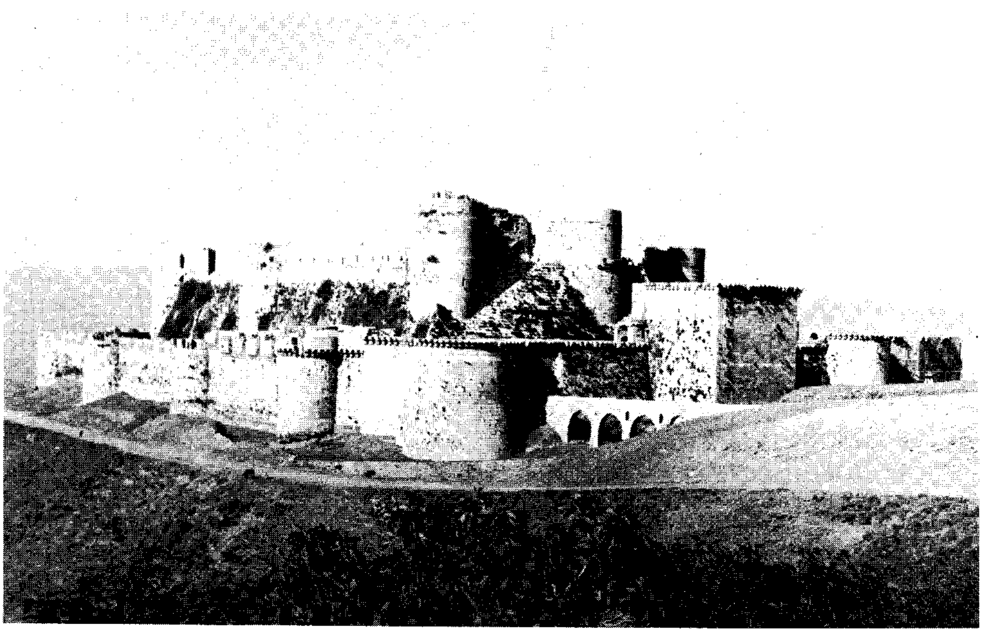
مما يفسّر الاستهتار بقوة الفاتح الجديد، وبروح اللامبالاة للتصدي له. وفي غير مقاومة تُذكر، تمّ الاستيلاء على القدس سنة ٦٣٨، في الوقت الذي دخل العرب سورية ودمشق. وبعد ذلك بأربع سنوات فقط، أي في سنة ٦٤٢، سقطت الاسكندرية وبالتالي فُتحت مصر كلها للعرب، وتمّ فتح بلاد فارس نهائياً سنة ٦٥١.

أما أفريقيا الشمالية فظلّت تقاوم الفاتحين حتى سقطت في أيديهم في نهاية القرن، وأُنشئت فيها المدن الإسلامية كالقيروان وتمّ الاستيلاء على قرطاجة سنة ٦٥٨، وتطلّع المسلمون العرب، والبربر بعد إسلامهم، إلى فتح الأندلس (اسبانيا)، بل وصلوا إلى قلب مملكة الافرنج ودقوا على أبواب بواتييه (Poitiers) سنة ٧٣٢.

وعلى أثر كل ذلك، بدا الإسلام كأنه الخطر الأكبر على المسيحيين في الغرب، وقامت حروب لا نهاية لها، ولم تتمّ إعادة السيطرة على اسبانيا إلاّ في ١٤٩٢. ومنذ القرن الحادي عشر، نظّم مسيحيّو الغرب الحملات الصليبية لاسترجاع الأراضي التي عاش فيها السيد المسيح. وخلال تلك السنين، استوعب العرب الحضارة اليونانية ونقلوا العلم القديم إلى



قلعة صيدا البحرية (لبنان)



قلعة الحصن (سورية)

العالم. وأصبحت بعض المناطق، كإسبانيا وصقلّيّة، أماكن تبادل ثقافي بين الإسلام والمسيحية، بل وستظلّ جسوراً للحضارة، كما ستصبح أهم المراكز للدراسات الاستشراقية.

كانت بيزنطية قد بدأت تضعف أمام هجمات الفرس من الشرق وهجمات الصقالبة من الغرب، كما كانت الحروب والانقسامات الدينية قد أنهكتها. فأمست الأمبراطورية في حالة ميؤوس منها فجاء الإسلام يحتلّ سورية وما بين النهرين وأرمينيا ومصر دون كبير مقاومة. وقد سهّل لهذا الفتح ما كان من بغض لبيزنطية لدى المسيحيين القائلين بطبيعة واحدة في مصر وسواها. يقول المؤرّخ ابن العبري في القرن الثالث عشر: «إله الانتقام نجّانا من الروم على يد العرب». هكذا استقبل السريان والأقباط في سورية ومصر الفتح الإسلامي، لكنّ بيزنطية تمكّنت من إيقاف الزحف الإسلامي في معركة ليبانت البحرية قرب القسطنطينية سنة ٧١٧–٧١٨. كما ردّهم شارل مرتيل ملك فرنسا من أمام أسوار بواتييه سنة ٧٣٢.

هكذا عاشت الأمبراطورية البيزنطية سبعة قرون وصلت خلالها إلى بلدان البلقان فروسيا مبشّرةً بالدين المسيحي إلى ان سقطت أخيراً في يد العثمانيين سنة ١٤٥٣.



المسيح في المجد (الفنّ المصريّ، القرن السابع)

٣. جغرافية دينية جديدة

انتقال مركز الثّقل في الكنيسة

أصبحت بلدان أقدم الكنائس المسيحية في الشرق وفي افريقيا الشمالية في حوزة العرب. ولا يمكن ان ننكر ان التسامح الإسلامي في النظرة إلى المسيحيين لم يمنع انحسار الوجود المسيحي رويداً رويداً. وبدأت الطوائف المسيحية تتقلّص شيئاً فشيئاً فزالت تماماً من بعض البلدان وتمكّنت من البقاء في بلدان أخرى. وبالمقابل، نستطيع ان نتتبّع مراحل التقلّص التدريجي الذي شهدته الطوائف المسيحية في افريقيا الشمالية. كان فيها نحو أربعين أسقفاً وقت الفتح العربي، فلم يبقَ منهم إلاّ خمسة حتى سنة ١٠٥٣، ثم اثنان في ١٠٧٦. وزال الوجود المسيحي تماماً في مطلع القرن الثاني عشر. ومن ثمّ انتقل مركز الثقل المسيحي من جنوب البحر الأبيض المتوسط إلى شماله. أضف إلى ذلك تعذّر الاتصال الديني والتبادل



مار مارون

الثقافي والفكري بين الغرب والشرق بسبب وجود العرب في البحر الأبيض المتوسّط. وأمّا في القارّة الأوروبية، فلقد أقام الصقالبة على ضفاف الدانوب ونزلوا نحو البحر الأبيض المتوسّط، على الشاطئ الدّلماتي، في مقدونية، في نهاية القرن السادس ومطلع القرن السابع. فصاروا حاجزاً بين الشرق اليوناني والغرب اللاتيني. فاستقرّت هكذا ملامح جغرافية مسيحية جديدة. لقد أقام الفاتحون الجدد من العرب والصقالبة حواجز بين البلدان المسيحية فعُزل الشمال عن الجنوب، والشرق عن الغرب.

الأمبراطورية البيزنطية: وفي الجنوب، اقتطع العرب سورية وفلسطين ومصر من الأمبراطورية البيزنطية، التي تعرّضت أيضاً لتهديد الصقالبة والبلغار. فانطوت الأمبراطورية البيزنطية على نفسها إلى حدٍ كبير وأصبحت الدولة الأسيوية التي تحفظ التراث اليوناني والتي تنطق باللغة اليونانية. وقد دُعيت الأمبراطورية البيزنطية نسبة إلى بيزنطية على شاطئ البوسفور التي صارت العاصمة قبل أن تدعى القسطنطينية، وبدا لبطريركها دور هام كرئيس للكنيسة الأرثوذكسية الشرقية، ينافس بابا رومة، بعد أن تقلّص دور بطاركة الإسكندرية وأورشليم وأنطاكية.

البربر في الغرب

أما في الغرب حيث سيطر البربر، فقد أظهرت القرون التي تلت هذا الاجتياح ان انهياراً عاماً أصاب العالم المسيحي. فقد ضَعفت التجارة بين المدن ولم يَبقَ إلاّ نشاط في القرى التي تخضع لسيطرة كبار المُلاّك، كما تدهورت الأخلاق العامة، فاتّسمت بالعنف والخشونة وانحطّ الفكر والفن واختلطت الديانة بأمور وثنية وخرافية.

ديانة للأرياف والطبيعة

وفي ذلك الزمان، كثر عدد الرعايا بين الجماعات القروية في المقاطعات الكبرى. امتزج بوجدان الفلاّحين وبساطة الحياة بين الحقول وشعرية الانتماء إلى الأرض، مصدر النماء. فكان الإيمان تعبيراً عن أصالة القروي في تكريم القدّيسين وذخائرهم والإيمان القوي بالمعجزات. ذلك كله أعطى إيماناً شعبياً يشتدّ الحنين إليه.

الرهبان يحافظون على الثقافة

كان الرهبان يحافظون على الحيوية المسيحية، أكثر بكثير من الكهنة والأساقفة، الذين كانوا في حاجة إلى تحسين سلوكهم. فكثيراً ما كان الرهبان يحتلّون المكانة الأولى في مواصلة الكرازة، على مثال الرهبان الإيرلنديين الذين كانوا، في تنقّلاتهم المقدسة، يذكّرون المؤمنين بما يقتضيه الدين المسيحي من فضائل. وهم الذين عمّموا صيغة جديدة للتوبة، وهي «الاعتراف الشخصي». كما كان هناك رهبان

آخرون يعلنون البشارة، كالذين يتّبعون قوانين القديس مبارك، ومنهم أوغسطينس، أسقف كنتربري (٦٠٠)، ويفسّرون الكتاب المقدّس ويحافظون على التقليد اللاتيني كـ«بيدس الموقّر» (Bède le Vénérable).

ثانيًا – أوّل إعادة بناء للعالم المسيحي

١. النهضة الكرولَنْجية

خلال تفكّك الممالك الميروفنجية (mérovingiens) – الملوك التنابل (fainéants) –، استطاعت إحدى أُسَر المحاربين شيئًا فشيئًا ان تملك الصدارة، وهي أُسرة قهارمة قصر أوسْترازيا (Austrasie)، مملكة الشرق، التي كانت عاصمتها ميتز (Metz). وكان أحدهم، وهو شارل مرتيل، يتدخّل تدخّل الأسياد في شؤون الكنيسة، فيعيّن الأساقفة ورؤساء الأديرة ويتصرّف على هواه في أملاك الكنيسة، وهو الذي أوقف زحف العرب سنة ٧٣٢ في بواتييه (Poitiers)، ثم سنة ٧٣٧ في أقْينيون. وكان بيبان القصير (Pépin le Bref)، ابن وخليفة شارل مرتيل، يتولّى الشؤون الهامة في السلطة، فطلب إلى البابا زكريّا ان يُقرّ بشرعية تلك الأوضاع. وكان بين بيبان والكرسي البابوي مراسلات متبادلة.

نشأة الدول البابوية

وفي استشارة طلبها بيبان من البابا، أجاب البابا: «من الأفضل ان يسمّى ملكًا مَن يمارس السلطة. . .». وفي سنة ٧٥١ تُوّج بيبان ملكًا عن يد الراهب الأسقف بونيفاقيوس (Boniface)، رسول الجرمانيين. وحين تعرّض البابا زكريّا في رومة لتهديدات اللمبرديين (Lombards)، ولم يعد في إمكانه ان يعتمد على مساعدة أمبراطور القسطنطينية، التجأ إلى بيبان. فأعاد البابا تتويج بيبان وتوّج أبناءه ومنهم شارلمان (٧٥٤). وفي أثناء احدى الحملات في إيطاليا، قام الملك الجديد، مختار الله، و«داود الجديد»، بإعادة البابا إلى منصبه في رومة وولاّه على الأراضي التي استرجعها من اللمبرديين (٧٥٦). وهكذا نشأت الدول البابوية التي استمرّت إلى السنة ١٨٧٠. لقد أصبح البابا ملكًا، ولكنه وقع في فلك ملك الإفرنج، كما جعل نفسه في وضع حرج تجاه أمبراطور القسطنطينية.

أمبراطورية جديدة في الغرب

واصل **شارلمان** (٧٦٨–٨١٤) سياسة أبيه بيبان. فعزَّز وحدة أوروبا الغربية وصدّ هجوم العرب في شمال اسبانيا ووسّع مملكته شرقًا، داعيًا السكسون إلى الدخول في المسيحية. لكنه فرض آراءه على الكرسي البابوي. وفي عيد الميلاد سنة ٨٠٠، وضع البابا على رأسه تاج

الأمبراطور. وكانت هذه الأمبراطورية الجديدة، المتّسمة إلى حدٍ بعيد بالطابع الجرماني، تبغي أن تكون وريثة الأمبراطورية الرومانية وكأن هذا العمل مثال أعلى، لكي تستمرّ الوحدة والسلام، وتتحقّق في الأمور السياسية والأمور الكنسية في آن واحد. وبذلك أصبح قُطبا المجتمع الغربي البابا والأمبراطور. لكن بلاط القسطنطينية، الذي لا يقبل أن يُطلق لقب الأمبراطور خارج العاصمة البيزنطية، اعتبر الأمبراطور الجديد مغتصباً، مما أضاف عنصراً جديداً إلى المسائل المتنازَع عليها بين الشرق اليوناني والغرب اللاتيني.

إعادة ترتيب

وكان الملوك الكَرولَنْجيون يعتبرون من واجبات منصبهم أن يعيدوا الترتيب إلى الكنيسة وان يُضفوا عليها شيئًا من الهيبة. وفي هذا الصدد، دار الكلام على النهضة الكَرولَنْجية. فعلى عهد بيبان، قام الراهب الأسقف بونيفاقيوس (✝ ٧٥٤) بإعادة وضع بنية لأبرشيات جرمانيا. وفي عدة نصوص شرعية كثيراً ما أوحى بها بعض الرهبان، أصلح شرلمان كنيسة الإفرنج إصلاحًا شديداً. واختار الأساقفة اختياراً حكيماً، واعتبرهم من كبار الموظّفين. وشجّع قيام جماعات كهنة قانونيين بين الإكليرس الأبرشي. وأمّا الرهبان، فإن أحد رؤساء أديرتهم عمّم ممارسة القوانين البندكتية وأصلح كثيراً من الأديرة. وحاول، دون أن يوفّق دائماً، أن يُحيي عادة أن ينتخب الرهبان رئيس ديرهم.

الإصلاح الطقسي

أراد شارلمان ان يضع حداً لانحطاط الليترجية في غاليا القديمة، فأدخل وفرض في مملكته كتب الليترجية الرومانية. وكان الإصلاح مُشبعاً بروح الكتاب المقدس وخاصةً بالعهد القديم، وغمره روح تنزع إلى الفردية، ممّا أضاع ملامح الصلاة الجماعية. وبما أن المؤمنين لم يعودوا يفهمون اللاتينية، أصبح القداس مشهداً غامضاً ومقدّساً. واستُخدم فيه الخبز الفطير بدل الخبز الطبيعي. وبدأ الكاهن يقيم القداس وظهره إلى الشعب ويتلو صلوات التقديس بصوت منخفض، وحاولت بعض النصوص الشرعية أن تضع حداً لممارسة سرّ التوبة على الطريقة الماديّة كما مارسها الإيرلنديون وان تُعيد إلى العمل الكنسي الممارسة الطقسية القديمة.

التجدّد الفكري

وكان شارلمان من روّاد التجدّد الفكري، يوم طلب تأسيس مدارس لتخريج رجال الإكليرس. وفي قصر ايكس لاشابيل، أخذ المجمع اللاتيني يجمع ألمع أدباء ذلك العصر، وكان أكثرهم من الرهبان. ليجتهدوا في إحياء اللاتينية الكلاسيكية، إلى جانب درس الكتاب المقدّس وآباء الكنيسة والليترجية. وظهر

الاهتمام بالنسْخ الذي أنتج كثيراً من أروع المخطوطات بحسن كتابتها وزخارفها المتنوّعة. وهذا التجدّد أخرج جميع ثماره في مطلع القرن التاسع عشر. واشتهر علم اللاهوت ببعض الأسماء اللامعة والميل إلى المناظرات العقائدية.

٢. تقلّبات الأمبراطورية البيزنطية

وفي وسط الاضطرابات السلالية والعسكرية، كان للجدل حول الإيقونات دورٌ فعّال مؤثّر في الأمبراطورية البيزنطية أكثر من مئة سنة (٧٢٦-٨٤٣). كان المسيحيون في العصور القديمة قد عبَّروا عن معارضتهم لرسم أو تمثيل «الألوهية»، معتبرين ذلك من عبادة الأوثان، بالرغم من أن الديماميس، منذ القرن الثالث، زُيّنت برسوم أشخاص ومشاهد من الكتب المقدّسة. وكان للمسيح فيها مكان الصدارة.

ولقد أولى التقليد البيزنطي للإيقونات دوراً تربويًا. فكانت «مواعظ صامتة» و«كتباً للأمّيين». وكانوا يكرّمونها كما لو كانت تثبّت حضور الشخص الذي تمثّله.

ولكن بعضهم كانوا يصفون الإيقونات بالخرافات وأحيانًا بعبادة الأوثان.

حرب الإيقونات

وفي ٧٢٦، أتلف الأمبراطور لاوُن (Léon) الثالث أيقونة للمسيح، مكرَّمة جداً، كانت فوق باب قصره في القسطنطينية. فكان هذا العمل نقطة انطلاق سياسة تحطيم الإيقونات، التي استمرَّ فيها الأمبراطور بالرغم من قيام الفتن الشعبية ومقاومة الرهبان. فهل تأثَّر الأمبراطور بالإسلام الذي كان قريباً منه؟ من الراجح أنه أراد أن يطهّر الدين الشعبي ويحدّ من نفوذ الرهبان، وهم كبار المدافعين عن الإيقونات. وبلغ تحطيم الإيقونات ذروته على عهد الأمبراطور قسطنطين الخامس (٧٤١-٧٧٥). فاستُشهد بعض الرهبان دفاعاً عن الإيقونات. إلى أن دعت الأمبراطورة إيرين (Irène) إلى عقد مجمع في نيقيا (٧٨٧)، وهو المجمع المسكوني السابع، فاعترف بصحة تكريم الإيقونات.

لكن الصراع استؤنف في ٨١٣ ولم يهدأ نهائيًا إلاّ في ٨٤٣. فلم يعد أحد يشك في تكريم الإيقونات، وانتصرت الكنيسة والشعب على إرادة الأباطرة. ولقد وُضعت مبادئ لاهوتية دقيقة لا بدّ من اتّباعها في صُنع الفسيفساءات والرسوم.

بيزنطية في أوج مجدها

بينما يعود الغرب إلى الظلمة في نهاية القرن التاسع عشر، كانت الأمبراطورية البيزنطية تشهد حقبة تاريخية لامعة على عهد المقدونيين (٨٦٧-١٠٥٦) وملكهم العظيم باسيليوس الثاني (٩٧٦-١٠٢٥). فإلى جانب النجاح



القديسان كيرلّس وميتوديوس الى جانب المسيح يحرسهما ملاكان

العسكري والأعمال الأدبية، كانت هناك انطلاقة رائعة في الحياة الرهبانية. ففي ٩٦٣، أَسَّس الراهب اثناسيوس أول دير في جبل آثوس، في شمال اليونان. وأصبح الجبل فيما بعد جمهورية رهبان وفخر الروحانية الأرثوذكسية.

٣. مواصلة التبشير

في الغرب

ان الأزمات السياسية والسلالية في الغرب وفي الشرق لم تَحُل دون مواصلة إعلان البشارة، سواء أكان تلقائياً أم من تنظيم الأمراء والكرسي البابوي. ففي النصف الأول من القرن الثامن عشر، كان الراهب الانكليزي وِلْفريد (Wilfrid)، المعروف باسم بونيفاقيوس (٦٨٠-٧٥٤)، أكبر مرسَل في الغرب. نظَّم كنيسة الإفرنج وأنشأ عدة أبرشيات وأديرة، قبل أن يموت شهيداً لدى الفْريزون (Frisons) (هولَندا). وفي نهاية القرن الثامن، دعا شارلمان السَّكسون، الذين أخضعهم قبل وقت قصير، إلى قبول المعمودية. وفي القرن التاسع عشر، تقدّم إعلان البشارة نحو همبورغ (Hambourg) وبريم (Brême) والبلدان الإِسكَنْدِنافية.

عند الصقالبة (Slaves)

تنافس اليونانيون واللاتين في تبشير الصقالبة في سهول الدانوب. كان بعض المرسلين

الجرمانيين قد جاؤوا من باڤييرة (Bavière) إلى بوهيمية وإلى موراڤية (Moravia). وفي الوقت نفسه، وجّه أمير موراڤي نداء إلى القسطنطينية. فأرسل البطريرك، في ٨٦٣، أخوين هما **كيرلّس وميتوديوس** وُلدا في سالونيق وكانا يُحسنان اللغة الصقلبية. فقاما بوضع أبجدية لتلك اللغة التي كانت لغة شفوية فقط. ونقلا إلى الصقلبية الكتب المقدّسة والنصوص الطقسية. لكنهما دخلا في نزاع مع الأساقفة الباڤاريين (Bavarais) الذين رأوا فيهما منافسَين، ورفضوا كل ليترجية لا تكون باللغة اللاتينية، زاعمين ان الصلاة لا تجوز إلاّ باللغات الثلاث التي استُعملت في الكتابة التي وضعها بيلاطس على صليب يسوع (يو ١٩/٢٠). لكنّ الأخوين قاما برحلة إلى رومة فلقيا أحسن استقبال. وقبل البابا يوحنا السابع إقامة الليترجية باللغة الصقلبية. وفي تلك الأثناء، توفّي كيرلّس فدُفن في كنيسة رومانية. أمّا ميتوديوس، فعُيّن رئيس أساقفة موراڤية الكبرى. لكن الأساقفة الألمان حَصَلوا، عند وفاته (٨٨٤)، من بابا جديد، على شجب الليترجية الصقلبية.

كيرلّس وميتوديوس عند الصقالبة
(٨٦٣)

حين اعتمد الصقالبة وأميرهم، وجّه عضو من عائلة الأمير رسالة إلى الأمبراطور ميخائيل (٨٤٢–٨٦٧) ورد فيها: «اعتمدت بلادنا، وليس عندنا معلّم يعظنا ويثقّفنا ويشرح لنا الكتب المقدّسة. ونحن لا نفهم اللغة اليونانية ولا اللغة اللاتينية، فبعضهم يثقّفوننا بطريقة وبعضهم بطريقة أخرى. فلا نفهم معنى الكتب المقدّسة وسلطتها. فأرسلوا إلينا معلّمين قادرين على شرح نصّ الكتب المقدّسة وروحها».

ولمّا سمع الأمبراطور ميخائيل، جمع فلاسفته وردّد عليهم ما قاله الأمراء الصقالبة. فقال الفلاسفة: «في سالونيق رجل يُدعى لاوُن، له ولدان يحسنان اللغة الصقلبية، وهما متضلّعان من العلوم والفلسفة...».

وما إن وصل كيرلّس وميتوديوس، حتى وضعا أحرف الأبجدية الصقلبية، ونقلا أعمال الرسل والإنجيل. فسُرّ الصقالبة بسماع الكلام على عظائم الله في لغتهم... لكن بعضهم أخذوا يلومون على ترجمة الكتب المقدّسة إلى الصقلبية، قائلين: «لا يحق لأي شعب أن يكون له أبجديته، إلاّ العبرانيين واليونانيين واللاتين، كما يدلّ على ذلك ما كتبه بيلاطس على صليب المخلّص».

ولمّا سمع ذلك بابا رومة (يوحنا الثامن) وبّخ الذين يدمدمون على وجود الكتب المقدّسة باللغة الصقلبية، وقال: «لتتمّ أقوال الكتاب المقدّس، ولتسبّح اللهَ جميع اللغات».

ثالثًا – فوضى جديدة وعودة بطيئة إلى التوازن

١ . أزمنة الظلام في الغرب
(نهاية القرن التاسع – القرن العاشر)

فقدان الاستقرار

زالت وحدة الأمبراطورية الإفرنجية في معاهدة ڤردون (Verdun) (٨٤٣)، فهي قسَّمت ميراث لويس الوَرِع (Louis le Pieux) (٨١٤–٨٤٠) إلى ثلاثة أقسام. ففي مطلع القرن العاشر، زالت سلطة الأمبراطور. وإلى جانب الحروب الأهلية، دفعت الاجتياحات الجديدة إلى الخلل التام في النظام الغربي. فلقد انطلق النُّرمنديون من الإسكَنْديناڤية ونزلوا على شواطئ بحر الشمال والبحر الأطلسي. وعبروا مجرى الأنهر وهم يقتلون وينهبون، فهرب كل مَن استطاع ذلك إلى الداخل. وفي الشرق، انطلق المجريون من الأورال واجتاحوا جرمانيا وبلغوا بُرغونية (Bourgogne). وفي الجنوب، انطلق المسلمون من اسبانيا وغزوا شواطئ ايطاليا وبروڤنسية (Provence).

الأمبراطورية المقدّسة والممالك الجديدة

بدأ شيء من الاستقرار في نهاية القرن العاشر. فأُعيد تأسيس الأمبراطورية ومنح اللقب لملكٍ ألماني. فاستمرَّت الأمبراطورية الرومانية الجرمانية المقدّسة إلى السنة ١٨٠٦. وفي



القديس نيقولاوس شفيع روسيا

البلغاريون والروس

شُنَّ اضطهاد على تلاميذ ميتوديوس، فلجأوا إلى بلغاريا. وكان البلغاريون، وهم قبيلة أسيوية تأثّرت بالطابع الصقلبي إلى حدٍ بعيد، يتردَّدون في النظر إلى رومة والقسطنطينية. ولكنهم تبنَّوا هم أيضاً الأبجدية التي وضعها كيرلّس وميتوديوس، واتّخذوا الليترجية الصقلبية. وفي القرن التالي، أخذ الرّوس عن البلغاريين أبجديتهم وليترجيتهم. لكن كل ذلك النشاط في إعلان البشارة تعرَّض للخطر الشديد بسبب الاجتياحات الجديدة التي أتت إبّان القرن العاشر من الشمال والشرق والجنوب.

٩٨٦، تأصَّلت الأسرة الكبيتية (Capétienne) نهائيًا في فرنسا. وفي الوقت نفسه، استقرَّ المجتاحون وألّفوا دولاً جديدة. وأقام النُّرمَنْديون في المنطقة التي تحمل اسمهم حتى اليوم (٩١١). وقد تنشأ الأُمم الجديدة عندما يبزغ نجم رئيس جديد يقبل المعمودية. ففي ٩٦٥، هُزم المَجَريون فاستقرّوا في وادي الدانوب. ونشأت مملكة المجر مع اعتماد الملك اسطفانس (١٠٠٠). ونشأت كذلك دولة بولندا الكاثوليكية في ٩٦٦. وحين اعتمد دوق روسيا الكبير ڤلاديمير في ٩٨٩، مَدّ نفوذ كنيسة القسطنطينية إلى بلاده نحو الشمال وأدخل روسيا بين الدول الأوروبية.

٢. الإقطاع يغمر كيان الكنيسة

النظام الإقطاعي

أدَّت الحروب الأهلية والاجتياحات إلى تفكّك الدولة. ولم يبقَ ممّا يوحّدها إلاّ الروابط التي يقيمها القَسَم التي يقسم بها الناس. فصارت الأرض ملك المحارب الذي يدافع عنها، وهو بدوره يحتمي بمولى أقوى منه يعترف له بامتلاك إقطاع أو امتياز وبإدارة شؤونه. فتحوّلت الروابط الاجتماعية إلى نظام هرميّ بين المحاربين والملاّكين. وكان للكنيسة أملاك واسعة، فتناولها النظام الاقطاعي هي أيضاً. فكان لكل صاحب وظيفة كنسية أرض وامتياز مصدر رزقه. وكان الأسقف مولّى ومُقطَعًا كالعَلمانيين، له على أرضه ولاية وقضاء. وكان يُنفق على جيش. فلا عجب أن يطمح رجال الدولة إلى المناصب الكنسية. وأمّا القواعد القديمة في الانتخاب من قِبَل الإكليرس ومن قِبَل الشعب، فلم تعد تُراعى. وبما أن الأبرشيات والأديرة لم تكن وراثية كسائر الإقطاعات، فإنها كانت تُوزَّع عند وفاة أصحاب كراسيها. وكان المولى والأمبراطور والملك والدوق الخ يتصرَّفون فيها لصالح مَن يريدون. ولمّا كان الإقطاع الأسقفي يشتمل على ولاية مزدوجة، روحية وزمنية، كانت الولاية الزمنية تُمنَح للأسقف حين يولّى في حفل واحد: فكان المولى يسلّم مرشّحه العصا والخاتم. إنها التولية العلمانية، علماً بأن التكريس الأسقفي كان يُمنح عن يد أحد الأساقفة، وعادةً عن يد المتروبوليت (رئيس أساقفة).

أساقفة دون المستوى وباباوات غير صالحين

إن نوعية الأساقفة كانت غير مرضية إذاً، لأن اختيارهم من قِبَل الأمراء لم يكن يخضع لاعتبارات دينية فقط. فقد يتمنَّون أن يكون الأسقف من العسكريين الناجحين، أو قد يرغبون في توظيف أولادهم، أو قد يبيعون المنصب لِمَن يدفع أكثر، وعندئذٍ يمارسون السيمونية، أي التجارة في الأسرار المقدّسة (رسل ٨/٢٠). وان كان هناك أساقفة غير صالحين، فلا عجب أن يكون كهنتهم غير

صالحين، وبالتالي المؤمنين. وكان التشريع الكنسي حول زواج الكهنة وتبتّلهم غير واضح بالقدر الكافي.

هذا وان التجاوزات لم ترحم الكرسي البابوي. ففي القرن العاشر تسلّطت أُسرة رومانية على أسقفية روما وعُيّن باباوت لم يبلغوا العشرين من العمر، كما فرض الأباطرة الألمان مرشّحهم على كرسي بطرس...

الطبقات الثلاث

ومع كل ذلك حقّق النظام الاقطاعي بعض التوازن للمجتمع. ومنهم مَن اكتشف مشيئة الله في تنظيم مجتمع ثلاثي. فهناك النظرية الشهيرة، نظرية الطبقات الثلاث: «بعضهم يصلّي، وبعضهم يحارب، وبعضهم يعمل». وقد حاولت الكنيسة أن تحدّ من العنف، بفضل مؤسّسات السلام: «فسلام الله» ينهى عن التهجّم على الضعفاء و«هُدنة الله» تنهى عن شنّ المعارك في أيّام معيّنة. والوظيفة الحربية تقدَّس باحتفال الفروسية الديني.

٣. انقطاع العلاقات بين الكنيسة اللاتينية والكنيسة اليونانية: انشقاق ١٠٥٤

السياسة والدين

ظلّت الهوة تتّسع، منذ القرن الخامس، بين الكنيسة اللاتينية والكنيسة اليونانية. وكانت أسبابها سياسية وثقافية وعقائدية مجتمعة. فقد كانت الكنيسة اليونانية مرتبطة بسلطة الدولة البيزنطية، فالأمبراطور يربط ويحلّ تعيين بطاركة القسطنطينية، في حين ان أساقفة روما تحرّروا من وصاية القسطنطينية النظرية. ولمّا أعاد الكرسي البابوي تأسيس أمبراطورية الغرب، بدا للقسطنطينية أن روما تقوم بعملية سياسية تمسّ الأمبراطور القسطنطيني، فقد كان اليونانيون يعتقدون بوجود أمبراطورية رومانية واحدة للعالم المسيحي، ولم تكن الكنائس لتستطيع الفكاك من خيوط هذا التوتر الذي ساد الأمبراطوريتين.

فوارق ثقافية

لكن الهوّة الثقافية بدت أخطر بكثير من الهوّة السياسية. فلم يعد بين الكنيستين جسور تفاهم، إذ كان الشرق يجهل اللاتينية، وكان الغرب أكثر جهلاً لليونانية. كان اليونانيون ورثة ثقافة كبرى، فظلّوا أمناء لها في المجال الزمني والمجال الديني. وفي الغرب، سرعان ما خبت شعلة النهضة الكَرولَنْجية. فأمسى القرن العاشر صحراء ثقافية. وفي الاحتكاك القليل الذي بقي لليونانيين واللاتين، نراهم يحتقرون بعضهم بعضاً من صميم القلب. ففي نظر البيزنطيين، كان اللاتين، الساكنون في بلاد الظلام، أفظاظاً قساة القلب، غير مثقّفين وشرهين! أمّا اللاتين، فإن اليونانيين كانوا، في نظرهم، منحطّي الأخلاق ومخنَّثين وذوي رياء ومماحكين.

الليترجية والتعليم

وهناك أيضاً اختلافات طقسية وتعليمية كانت تفرّق بين الكنيستين. فالطقس، في نظر اليونانيين، هو الإيمان الذي يعمل. أمّا في الغرب، فكانوا أكثر تمييزاً بين التعليم والطقس. وكان الشرقي يرى ان تغيير الطقوس هو تغيير للإيمان. ولذلك كانوا يولون أهمّية كبرى لمسائل الصوم، والخبز الفطير أو الخمير، وترك اللحية. وفي الشرق، كان الرهبان والأساقفة متبتّلين، لكن الكهنة كانوا متزوّجين. أمّا في الغرب، فكانوا يفرضون العزوبة على جميع الكهنة، أو، على الأقل، كان الرجال المتزوّجون يتخلّون عن الحياة الزوجية بعد رسامتهم.

وكان اليونانيون يأخذون على اللاتين تغيير صيغة قانون الإيمان في عبارة «المنبثق من الآب والابن».

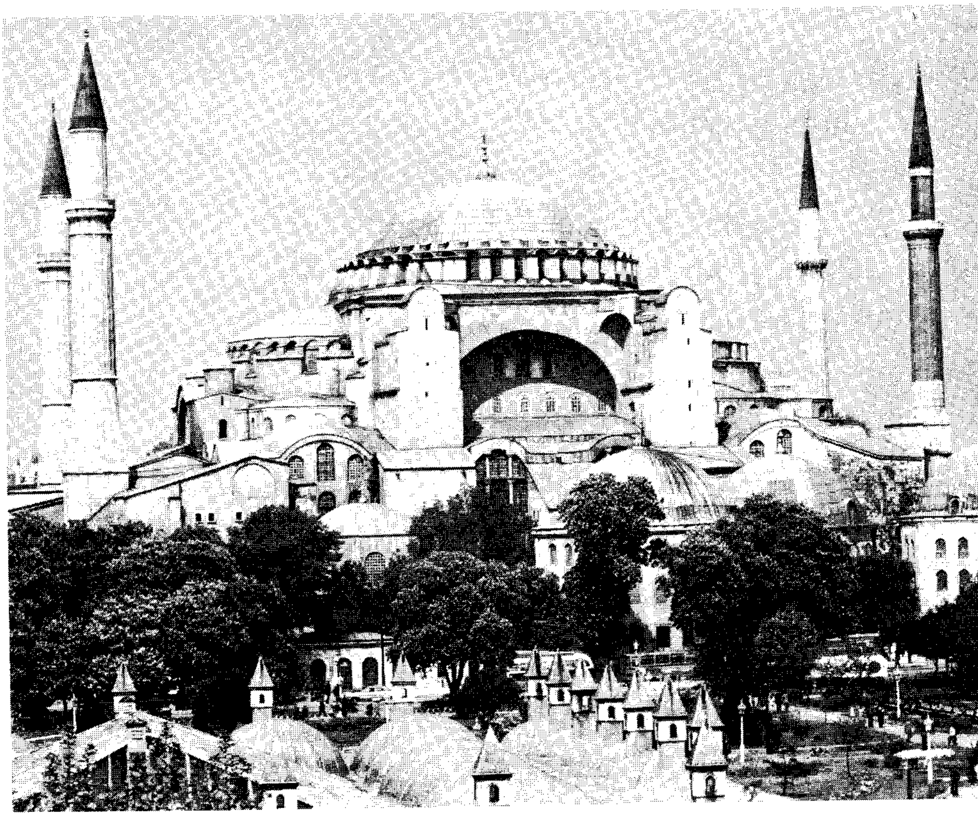
البابا والبطريرك

كان مفهوم اليونانيين للأسقفية له صبغة جماعية واضحة. ففي حين ان البابا، بصفته خليفة بطرس، يعتقد بأن له أحياناً سلطة الرعاية على الكنيسة كلها، يعتقد الشرقيون بأن رومة تتمتّع بأوّلية فخرية فقط.

تعدّد انقطاع العلاقات والمصالحة بين الكنيستين من القرن الخامس إلى القرن الحادي عشر. وفي سنة ١٠٥٤ بدت في الأفق بوادر رغبة في التقارب لدى البابا لاون التاسع، فقد وضح عداء النُّرمنديين، المقيمين جنوب ايطاليا، للبابا ولأمبراطور بيزنطية، ومن ثم كان التحالف بين البابا والأمبراطور هاماً لمجابهة عدو مشترك. وكان لا بدّ، كشرط مسبق لقيام التحالف السياسي، أن تتمّ المصالحة الدينية. لكنّ الشخصيتين المكلّفتين بتحقيق الاتفاق لم يكونا، مع الأسف، رجلَي الساعة. فإن موفد البابا، الكردينال همبير (Humbert)، كان شديد الاهتمام بالإصلاح، ولم يكن له ما يكفي من الثقافة اليونانية، وكان خالياً من المرونة. ومن جهة أخرى، لم يكن بطريرك القسطنطينية، ميخائيل قيرولاريوس (Cérulaire)، أكثر مرونة، وكان قطع العلاقات مع رومة يُرضيه، لأنه بذلك يصبح سيد الكنيسة اليونانية الأوحد.

قطع العلاقات

كان إيفاد الكردينال هَمْبير إلى القسطنطينية فرصة لتكرار الاتّهامات المعروفة. ولمّا لم يوفَّق هَمْبير في إيجاد قاعدة للنقاش، فقد حرم بوجه رسمي البطريرك ميخائيل قيرولاريوس في كنيسة القديسة صوفيا. وصيغة الحِرم التي حرَّرها هَمْبير تدلّ على جهل شديد. فهناك عدّة اتّهامات لا أساس لها، منها أنه يأخذ على الشرقيين حذف كلمة «والابن» من قانون الإيمان وزواج الكهنة الخ.، ويجهل أن ماراناتا تعني: «تعالَ، يا رب»، وليست شجْباً (١ قور ١٦/٢٢).



كنيسة صوفيا

والحرم الذي أصدره قيرولاريوس لم يكن بدوره أرفع مستوى.

محاولات مصالحة لم تأتِ بنتيجة

في تلك الساعة، لم يولِ أحد أهمية كبرى لتلك الأحداث، فلقد جرى كثير مثلها من قبل، ولكن البابا قد توفّي قبل إصدار الحرمَين، فهل ما زالت أيضاً لموفده أي سلطة؟ ألم يسقط التفويض بموت البابا؟ على كل حال، بقي تاريخ ١٠٥٤ تاريخاً رمزياً للانشقاق، لأنه لم تَجرِ بعد ذلك أية مصالحة ثابتة، علماً بأن الحملات الصليبية وَسَّعت الهوة. ولم يكن مجمع ليون (١٢٧٤) والمجمع الفلورنتيني (١٤٣٩-١٤٤٢) إلاّ محاولات تقارب عابرة لم يمهَّد لها ورفضها المسيحيون في الشرق. ولمّا استولى الأتراك على القسطنطينية (١٤٥٣)، اشتدّت عزلة المسيحيين اليونانيين.

وفي السنوات الأخيرة، وكثمرة للمجمع الفاتيكاني الثاني وللحركة المسكونية بين

الكنائس، فإن التصريح المشترك الذي أصدره البابا بولس السادس والبطريرك أثيناغوراس، في ختام المجمع الڤاتيكاني الثاني (٧/١٢/١٩٦٥)، والذي أسفا فيه على تبادل الشتائم في ١٠٥٤، وعلى ما ارتُكب في الماضي من تجاوزات، يشكّل مرحلة على الطريق الطويل المؤدّي إلى المصالحة (والذي يواصله البابا يوحنا بولس الثاني مع بطاركة القسطنطينية وسائر رؤساء الكنائس).

البيان المشترك
بين البابا بولس السادس والبطريرك أثيناغوراس
(٧/١٢/١٩٦٥)

«... ومن بين العقبات القائمة في طريق تعزيز علاقات الثقة والتقدير الأخوية (بين الكنيسة الكاثوليكية الرومانية والكنيسة الأرثوذكسية)، تأتي ذكرى القرارات والأعمال والحوادث الأليمة التي أدّت، في ١٠٥٤، إلى حُكم الحِرم الذي أُصدر على البطريرك ميخائيل قيرولاريوس وعلى شخصيتين أُخريين، من قِبَل موفدي الكرسي الرسولي، بقيادة الكردينال همبير، وقد أصيبوا هم أيضاً بعد ذلك بحكم مماثل من قِبَل البطريرك والسينودس القسطنطيني...

فإن البابا بولس السادس، والبطريرك أثيناغوراس مع سينودسه، تيقّناً منهما أنّهما يعبّران عن الرغبة المشتركة في الانصاف، وعن الشعور الإجماعي بالمحبة الذي هو شعور المؤمنين من الطرفين، وعملاً بوصية الرب: «فإذا كنتَ تقرّب قربانك إلى المذبح...» (متى ٥/٢٣-٢٥)، يعربان باتفاق تام:

١) عن أسفهما للأقوال المُهينة والمآخذ التي لا أساس لها وللأعمال المذمومة التي رافقت، من قِبَل الطرفين، أحداث ذلك الزمن المحزنة.

٢) وعن أسفهما أيضاً لأحكام الحِرم التي تبعت والتي يقوم ذكراها حتى اليوم عقبة على طريق التقارب في المحبة، وبالرغبة في رفعها عن الذاكرة وعن مناخ الكنيسة.

٣) وعن أسفهما أخيراً للسوابق المشؤومة والأحداث اللاحقة التي تأثّرت بمختلف العوامل، ومنها عدم التفاهم وعدم الثقة المتبادلة، فأدّت، في آخر الأمر، إلى انقسام الوحدة في الكنيسة.

ويشعر البابا بولس السادس والبطريرك أثيناغوراس مع سينودسه بأن هذا العمل، عملَ الانصاف والغفران، لا يكفي ليضع حداً للخلافات، القديمة والحديثة، التي ما زالت قائمة بين الكنيسة الكاثوليكية الرومانية والكنيسة الأرثوذكسية، والتي ستذلَّل، بعمل الروح القدس، وبفضل تنقية القلوب والأسف للذنوب التاريخية، وبفضل العزم الفعَّال على التوصّل إلى تفهّم وتعبير مشترك للإيمان الرسولي ومقتضياته...».

الفصل الثامن

العالَم المسيحي وأُسس مجتمعه

(نهاية القرن ١١ – القرنان ١٢ و ١٣)

تدلّ عبارة «العالم المسيحي» على الروابط والعلاقات المتبادلة بين المجتمع والكنيسة في العصور الوسطى. فلقد شكَّلت شعوب أوروبا في تلك العصور جماعة كبيرة ربطت بينها الشريعة المسيحية. فالكنيسة والأمبراطورية كانتا الوجه المزدوج لحقيقة واحدة روحية وزمنية في آن واحد، على صورة النفس والجسد. ولم يكن لتلك الجماعة من معنى إلاّ في واقعها الفائق الطبيعة، أي في ملكوت الله. وهذه هي، على أقلّ تقدير، النظرة المثالية التي عرضها بعض علماء اللاهوت في أروع صورة للقرون الوسطى، ونعني القرنين الثاني عشر والثالث عشر.

وأحد الملامح القوية التي امتاز بها هذا العالم المسيحي هو المكانة المرموقة التي اكتسبها المقام البابوي يوماً بعد يوم في الكنيسة وفي أوروبا في ذلك الحين، ويعود ذلك إلى صراعات كثيراً ما اتَّسمت بالعنف بين البابا والأمبراطور الجرماني. وظلّ التوازن غير ثابت. فإذا صحّ أن القسم الأول من القرن الثالث عشر عرف ذروة السلطة البابوية، فإن السنوات الأخيرة من هذا القرن شهدت نزاعاً كبيراً على المزاعم الرومانية، أدّى إلى بداية الصدع في العالَم المسيحي.

وفي هذا الفصل محاولة لإبراز الملامح التي تمتاز بها الأيام التي عاشها فيها غريغوريوس السابع والقديس برنردُس والقديس لويس. . . ، وكثيراً ما كانوا مرجعاً للكاثوليك حتى بعد ذلك في القرنين التاسع عشر والعشرين. ولقد ورث الغرب عن ذلك العصر كثيراً من التعاليم والممارسات، إلى جانب أجمل عناصر الفنّ الديني. ولكن علينا أن نحذر من ان يُسبَغ الكمال المثالي على زمن ليس هو إلاّ مرحلة في مسيرة الكنيسة الطويلة. وسنرى ان مسيحيي القرون الوسطى لم يسلكوا دائماً سلوكاً إنجيلياً مثالياً.

أوّلاً – أُسُس العالَم المسيحي في القرون الوسطى

١. المقام البابوي يفرض نفسه

رأينا في الفصل السابق أن أوروبا حصلت إلى حدٍّ ما على التوازن في منتصف القرن الحادي عشر. ولاحظنا أيضاً أن النظام الإقطاعي أتى بنتائج وخيمة على مسيرة الكنيسة. فالعديد من رجالات الكنيسة، الذين خرجوا غالباً من الأديرة التي تمَّ فيها الإصلاح، كالتي تنتمي إلى دير كلوني (Cluny) الذي تأسّس في ٩١٠ – وسنعود إلى ذكرهم – أبدَوا اهتماماً بالغاً بالوصول إلى كنيسة أكثر قداسة، وبحثوا عن الوسائل المؤدّية إلى إصلاح شامل. كانت الكنيسة تحتاج إلى رعاةٍ أكثر وعياً لمسؤوليّاتهم، في حين لم يمتلك الكثير منهم المؤهِّلات اللازمة لذلك، لأنّهم عُيِّنوا من قِبَل الأمراء. أفما كان من الواجب أن يُنزع من الموالي العلمانيين امتياز تعيين الأساقفة، وقبل كل شيء أن ينزع منهم سلطة تعيين رئيس الأحبار، أي أسقف رومة؟

قرارات إصلاحية

ففي ١٠٥٩، قام البابا **نيقولاوس الثاني** بتوضيح قواعد انتخاب البابا. وأهمها انتخابه باختيار الكرادلة وحدهم. ويكتفي سائر الاكليرس والشعب بالمصادقة بالهتاف للمُنتَخَب الجديد. فبدأ الكرادلة، إنطلاقاً من هذا الوقت، يقومون بدور خاصّ في الكنيسة. والمقصود بهم أبرز الأعضاء في اكليرس رومة، من أساقفة منطقة رومة والمسؤولين عن أكبر كنائس رومة والشمامسة السبعة المكلَّفين بإدارة شؤون الكنيسة. لكنّ الأمبراطور استاء من إبعاده عن التدخّل في تعيين البابا. وانتهز قيام الأزمة ليُعيّن مرشَّحه منافساً للبابا الذي اختاره الكرادلة.

في ذلك الحين، عزم البابا **غريغوريوس السابع** (١٠٧٣–١٠٨٥) على القيام بإصلاح أخلاقي عام. فاستهدفت قرارات ١٠٧٤ ممارسة السيمونية والكهنة الذين ما زالوا يعيشون حياة الزواج. واستند البابا إلى عون الأمراء والأساقفة. لكنَّ تلك الاصلاحات كثيراً ما قُوبلت بالرفض. دعا غريغوريوس السابع إلى القداسة، لكنّ الكثيرين ظنُّوا أنه يغيِّر النظام القديم في ما يختصّ بالكهنة المتزوّجين قبل رسامتهم.

مقاومة دور العلمانيين في التعيين

بُردت همةٌ غريغوريوس السابع بعض الوقت، معتقداً بأن دور العلمانيين وتدخّلهم في التعيين الخاص بالإكليرس هو أصل الشرور، فأراد ان يقضي عليه على كافة المستويات. وفي ١٠٧٥، نهى الأساقفة عن قبول منصبهم من أحد العلمانيين، ونهى المتروبوليت (رئيس الأساقفة) عن رسامة مَن حصلوا على ذلك

التعيين. ولم يميِّز غريغوريوس السابع بين الأموال التابعة للمنصب والمنصب نفسه. وكاد ان لا يُعير اهتماماً لمسألة هذه الأموال، وكان جلّ همّه أن تكون الأسقفية مستقلّة عن السلطة الزمنية. وهذا تدبير جذري بدا أمراً جديداً في بعض جوانبه، فلم يعد الشعب يشارك في الانتخاب كما كان في التقليد القديم. وفي الوقت نفسه، برَّر البابا حقّه في هذا التصرُّف على نحو يؤكّد سلطته على الكنيسة الجامعة وعلى الأمراء بهذه «القرارات البابوية»، ومن ثمّ أرسل موفدين للعمل على تطبيق قراراته.

الجدل حول الحق في التعيين

فما كان من أمبراطور ألمانيا، هنري الرابع، إلاّ ان عارض القرار البابوي الذي أفقده قدراً كبيراً من سلطته في بلد يُعَدُّ فيه الأساقفة من أكبر الموالي. ونتج عن ذلك نزاع طويل بين الباباوات والأباطرة. فأعلن هنري الرابع سقوط غريغوريوس السابع. لكنَّ غريغوريوس خلع **هنري الرابع** وحلَّ رعاياه من قَسَمهم له بالطاعة. فتذلَّل هنري أمام غريغوريوس في كَنوسّا (Canossa) (١٠٧٧)، لاستعادة سلطته. لكنّ غريغوريوس السابع مات، رغم ذلك، في المنفى (١٠٨٥). فكان لا بدّ من مرور عشرات السنين لتجد المشكلة حلّها. قد حمل التفكير على "التمييز، في المنصب الأسقفي، بين المجال الروحي والمجال الزمني. وعاد السلام على أثر إبرام معاهدة ڤورمس (Worms) (١١٢٢) وانعقاد المجمع اللاتيراني (١١٢٣)، فتنازل الأمبراطور عن سلطة تعيين الأساقفة، التي كان يُرمز إليها بتسليم العكاز والخاتم. وقبل البابا أن يُولي الأمبراطور سلطته الزمنية للأسقف، بتسليمه الوسام، وبالتالي يخضع الأسقف للملك في المجال الزمني. وفي الوقت نفسه، ثُبِّت الاصلاح الذي قام به غريغوريوس السابع وخلفاؤه.

انتصار حقوق البابا

ان الباباوات الذين اتَّخذوا مبادرة الاصلاح أصبحوا يتدخَّلون تدخّل الأسياد في شؤون العالم المسيحي. فهم الذين يتّخذون مبادرة الدعوة إلى انعقاد المجامع التي لا تعني إلاّ الكنيسة اللاتينية (المجامع اللاترانية في ١١٢٣ و١١٣٩ و١١٧٩). وأصبحت رسائل الباباوات في شتَّى المواضيع تدوَّن في مجموعات لها مكانة أشبه بمكانة الكتاب المقدّس. وهذا ما يبيِّن لنا كيف تسرَّبت «الرسائل الكاذبة» التي وُضعت في القرن التاسع لتعزيز سلطة البابا وانتشرت وصار لها نفوذ قوي، إذ إنها اعتُبرت حجَّة وظلَّت كذلك حتى نهاية القرون الوسطى. وأصبح الشرع الكنسي نافذاً في كل مكان في إدارة الكنيسة الرومانية. فكان على الباباوات أن يزداد تدخُّلهم في كافة شؤون الكنيسة. فأقلق هذا الوضع بال القديس برنردس فكتب إلى البابا أوجينيوس (Eugène) الثالث: «متى نصلّي؟ ومتى نعلّم الشعوب؟ ومتى نبني الكنيسة. . .؟ إن البلاط

البابوي يدوّي كل يوم بشرائع يُسْطِنْيانس، لا بشرائع الربّ».

الحُكم الإلٰهي

ومع ذلك، لم تَخْلُ العلاقات بين الأباطرة والباباوات من النزاعات من حين إلى حين. فهناك «الجدل حول الكهنوت والأمبراطورية». ذلك بأن العاهل الجرماني جعل في خدمته الشرع الروماني الذي عادت دراسته في القرن الثاني عشر. وبعد قيام صراع لم تُعرف نتائجه، قدّم فريديريك بربروس (Barberousse) خضوعه للبابا الاسكندر الثالث في البندقية في ١١٧٧. وفي أيام اينوقنطيوس الثالث (١١٩٨- ١٢١٦)، بلغ المقام البابوي ذروة قدرته. فبدا البابا حَكَماً في بلدان أوروبا، فعيَّن مرشَّحه لتولّي السلطة في الأمبراطورية، وأخضع ملك انكلترا لإرادته. . . وشرح نظرية السلطة البابوية. ولقد دار الكلام أحياناً حول ما يسمَّى «الحُكم الإلٰهي». وأكَّد اينوقنطيوس الثالث أن له، في العالم المسيحي، كمال السلطة. ففي المجال الروحي، تخضع له جميع الكنائس. أمّا المجال الزمني، فإنه يحتفظ باستقلاله الذاتي، ولكن البابا، باسم تفوّق البعد الروحي، يتدخّل في القضايا السياسية، بسبب الخطيئة، إذا كان خلاص المسيحيين معرَّضاً للخطر. وهو يتدخّل أيضاً في الحالات الطارئة، إذا لم يكن للأمراء من رؤساء إقطاعيين. وفي المجمع اللاتراني الرابع (١٢١٥) ما يشهد على شعور البابا بجلال منصبه، فإن المجتمعين يسنّون القوانين في جميع مجالات الحيٰة المسيحية.

الأزمة والرغبة في الإصلاح

مرّة أخرى تعارضت المزاعم البابوية مع طموحات الأمبراطور على عهد فريديريك الثاني (١٢١٢-١٢٥٠). وبلغ الصراع ذروته، حين قام البابا اينوقنطيوس الرابع بخلع الأمبراطور في مجمع ليون (١٢٤٥) وبتأكيد مبادئ الحكم الإلٰهي مرّة أخرى بطريقة لا تقبل أيّ تساهل. وكانت نتيجة ذلك الصراع ان ضعف حكم الأمبراطور واهتزّ مقام البابا من جرّاء التورط في الشؤون السياسية، ممّا أفقده بعضاً من نفوذه الأدبي.

وفي أواخر القرن الثالث عشر، كثر عدد المطالبين بإصلاح الكنيسة، شعوراً منهم بتسرّب الضعف إلى المؤسَّسات: فهناك تقلّص في نشاط الأديرة الروحي، وقيام صعوبات متزايدة في كل انتخاب بابوي بسبب الخلافات بين الكرادلة. وبالتالي بدا الحرص والاهتمام خوفاً من انقسام الكنيسة.

حاول مجمع ليون الثاني (١٢٧٤) ان يجد حلولاً لتلك القضايا، لكنَّ النتائج جاءت ضئيلة، كما ان محاولة المصالحة بين الكنيسة اللاتينية والكنيسة اليونانية لم تدم طويلاً، إذ لم يُمهَّد لها كما يجب. فلم يتقدّم الإصلاح. وفي ١٢٩٤، ظنَّ الكرادلة أنهم خضعوا لإلهام من الروح القدس، حين أتوا بحبيس في الثمانين من عمره ليجعلوا منه البابا (قلستينس الخامس) (Célestin). فكانت الطامة الكبرى!

الكاهن والزواج

العهد الجديد

اختار بولس عدم الزواج ليكون أكثر تأهّباً لخدمة البشارة (١ قور ٧/٧ و٩/٥)، لكنه لم يتّخذ من هذا الأمر قاعدة عامّة. والوصية الكتابية الوحيدة المختصّة بزواج خدّام الكنيسة وردت في (١ طيم ٣/٣) وطي ١/٦: «على الأسقف ان يكون زوج امرأة واحدة».

وقد فسّر تقليد الآباء هذه العبارة بأنها تنهى عن رسالة رجل تزوّج مرّتين، وتنهى الكاهن الأرمل عن الزواج مرّة أخرى. وظنّ بعضهم أيضاً أن في ذلك واجباً على الأسقف أن يكون متبتلاً.

القرون الثلاثة الأولى

ما من شريعة، في الغرب وفي الشرق، نَهت عن رسامة رجال متزوّجين، أو منعت الكهنة المتزوّجين من حقوقهم في الزواج. ولا يبدو كذلك أن قام في الكنيسة الأولى اعتراض يحول دون زواج كاهن بعد رسامته.

لكن التشديد على ترويض النفس وعلى قيمة البتولية حمل على الاعتقاد بأنه من الأفضل للكاهن أن يبقى أعزب أو أن يمتنع عن الحقوق الزوجية، إن كان متزوّجاً.

القرن الرابع

في الشرق وفي الغرب، يُمنع الزواج بعد الرسامة. والرجل المتزوّج يبقى على حاله بعد الرسامة، وكذلك الأعزب. فعلى كل واحد ان يبقى أميناً مدى الحياة للرباط الأول المعقود، سواء أكان رباط الزواج أو رباط الكهنوت.

وفي مطلع القرن، نرى أن معظم رجال الإكليرس استخدموا حقوقهم الزوجية. أمّا في نهاية القرن، فكان رجال الإكليرس الذين يمتنعون عن الحقوق الزوجية أكثر عدداً. ونجد لذلك تفسيراً مزدوجاً: تأهُّباً أكبر للقاء الله وعدم انسجام ممارسة العلاقات الجنسية، وهي تنتمي إلى مجال الأمور الدنسة، مع إقامة سرّ الافخارستيا كل يوم كما اعتقدوا ذلك. ففي الغرب (اسبانيا ورومة) طلبت بعض المجامع إلى الأساقفة والكهنة والشمامسة الامتناع عن الحقوق الزوجية.

في القرن الخامس

في الشرق، يجوز للأساقفة والكهنة والشمامسة أن يمارسوا الزواج. وفي الغرب، طلب أسقف رومة إلى جميع الكنائس ان تفرض على الأساقفة والكهنة والشمامسة الامتناع عن الحقوق الزوجية، لكنه يجوز لهم برغم ذلك ان يسكنوا مع زوجاتهم.

في القرن السادس

في الشرق، حدَّدت الكنيسة نهائيًا نظامها المتعلّق برجال الاكليرس والزواج (٦٩٢)، ولا يزال ساري المفعول في أيّامنا:

– على الرجل المتزوِّج، ان انتُخب

أسقفاً، أن ينفصل عن امرأته. فعليها ان تغادر بيت زوجها وتعيش في دير بعيد، وعلى الأسقف أن يعيل زوجته. ولكنهم أخذوا يختارون الأساقفة من بين الرهبان على وجه متزايد.

– ان كان الكاهن والشمّاس متزوّجين عند الرسامة، فلا يتبدّل شيء في حياتهم الزوجية. لا بل تُشجَب أية ممارسات لا تحترم هذا الوضع.

في الغرب، عُزّز امتناع رجال الاكليرس عن الحقوق الزوجية، واتُخذت عقوبات صارمة في حق الذين رُزقوا ولداً بعد رسامتهم.

من عهد شارلمان إلى القرن الحادي عشر

استمرّت العادة في رسامة الرجال المتزوّجين الذين يمتنعون عن الحقوق الزوجية في مساكنة ممكنة. لكن بعض رجال الاكليرس الشباب العزَّب المتخرّجين من المدارس كانوا يُرسَمون من غير أن يتزوَّجوا. وهناك مَن كانوا يتزوَّجون بعد الرسامة، خلافاً للأمر الصادر. وهذه الأحوال هي التي وجدها البابا غريغوريوس في ١٠٧٣.

الإصلاح الغريغوري

وفي ١٠٧٤، لم يميّز غريغوريوس السابع بين الكهنة المتزوّجين قبل الرسامة وبعدها. فمنع كل مساكنة للزوجة تحت طائلة الحرمان من القيام بالخدمة الرسولية. وظهرت مقاومة لقرار البابا: «هذه الشريعة لا تُحتَمل وغير معقولة»، و«بدون أيدي النساء، سنهلك من البرد والعري...». وعدَّ بعضهم هذه الشريعة بدعة بالنسبة إلى التقليد. ومع ذلك، فزواج الكهنة كان يُعدّ صحيحاً، وإن لم يكن جائزاً.

المجمع اللاّتراني الثاني (١١٣٩)

قرَّر أن زواج الكهنة هو غير صحيح.

وفي ١١٧٠، طلب البابا الاسكندر الثالث أن تدلي امرأة الرجل المتزوّج والمرسوم بموافقتها على الامتناع عن ممارسة الحقوق الزوجية وتنذر العفة.

وعليه يمكن شرعاً ان يُرسَم رجل متزوّج يرضى بأن ينفصل عن امرأته. لكن هذا الأمر كان عسيراً في الواقع، ولذلك بدا الكهنوت مقصوراً على العزَّب والأرامل. ولا بدّ ان ننتظر الشرع الكنسي الصادر في ١٩١٧، لكي يُقال بأن الزواج يشكّل مانعاً يحول دون الرسامة ولكي تفرض صراحةً شريعة العزوبة الكنسية.

٢. الكنيسة الرهبانية

قام الرهبان عادةً بدور حاسم في الاصلاح وفي حياة الكنيسة خلال تلك القرون. ولقد بقي الراهب مدَّة طويلة صورة للمثال المسيحي الأعلى.

كْلوني (Cluny)

أُنشئ دير كلوني في ٩١٠، فأحيا المبادئ الكبرى التي قامت عليها قوانين الرهبانية البندكتية، من انتخاب حرّ لرئيس الدير واستقلال عن الأمراء والأساقفة. وفضلاً عن ذلك، فإن الدير يؤكّد خضوعه مباشرةً للبابا. وفي القرنين الحادي عشر والثاني عشر، أصبح دير كلوني رأس مؤسّسة رهبانية انتشرت في أوروبا كلها. والجديد هنا بالنسبة إلى الأديرة القديمة هو أن جميع البيوت الجديدة المؤسَّسة تبقى في سلطة رئيس دير كلوني. ولقد بلغ عدد رهبان «المؤسسة الكلونية»، في أبهى أيّامها، خمسين ألفاً.

شدَّد دير كلوني على ممارسة الليترجية والصلاة الدائمة، ولكن على حساب العمل المهني واليدوي في الحقول. وممّا أسهم في نفوذ كلوني خلال هذين القرنين الحادي عشر والثاني عشر هو شخصية رؤسائه الأولين وطول فترات رئاستهم. شارك كلوني في إصلاح سائر الأديرة وفي إصلاح الكنيسة عامةً. ولمّا كانت هذه الرهبانية غير خاضعة لنفوذ العلمانيين، فقد شدّدت على دور المقام البابوي وقدّمت العديد من الأساقفة والباباوات. ولقد كان الدير سخياً في ممارسة المحبة نحو الفقراء، كما شهدت المؤسّسات الكلونية تجمّع بعض المراكز السكنية الصغيرة حولها.

النسّاك

وفي نهاية القرن الحادي عشر، نمت حركة نسكية قوية. فكان بعض الرجال والنساء الشغوفين بالرغبة في أعمال التكفير والفقر ينعزلون في أماكن غير مأهولة، من غابات ومغاور وكهوف وجزر... للتكفير عن خطاياهم. لكن صيت قداستهم كان يجتذب الجموع. وكثيراً ما صاروا وعَّظًا شعبيين. أشهرهم بطرس الناسك.

وعرفت القرون الوسطى ذلك النمط الغريب في الحياة الرهبانية، أي حياة الحبساء. فكانت الراهبة الحبيسة أو الراهب الحبيس يقفل على نفسه، للمدّة المتبقّية من حياته، في حجرة بُنيت إلى جانب إحدى الكنائس، وفُتحت فيها نافذة صغيرة، تمكّن من الاستماع إلى الرتب الكنسية ومن الحصول على شيء من الطعام.

الكرتوزية (La Chartreuse)

حين أسَّس برينو الكرتوزية في ١٠٨٤، أراد أن يجمع بين حياة الحبساء وحياة المشاهدة، وأن يعطي الأولية للعزلة والبساطة في الصلة بالله.

الكهنة الرهبان القانونيون

اتّخذ الكهنة القانونيون قوانين القديس أوغسطينس، جامعين بين ترويض النفس الرهباني وممارسة الخدمة الرسولية.

دير سيتو (Citeaux)

أراد **روبير دي موليم** (Robert de Molesmes) أن يعود إلى الصرامة البندكتية التي يبدو ان كلوني قد نسيها، فأسّس في ١٠٩٨ دير سيتو، فهو عودة إلى الفقر في الملبس والطعام والأبنية، وإلى البساطة في الليترجية، وإلى العزلة في وسط الغابات. فالسِسترشيون (Cisterciens) هم من كبار مستصلحي الأراضي البور. وفي هذه الرهبانية الجديدة، لا تمتدّ سلطة رئيس الدير، خلافًا لما عرفناه في كلوني، إلى جميع الأديرة التي أسّسها، بل يكتفي بترأس المجمع العام، وهو عبارة عن اجتماع سنوي لرؤساء الأديار.



القديس برنردس

كليرڤو (Clairvaux) والقديس برنردس

انطلق **برنردس** (١٠٩٠-١١٥٣) من دير كليرڤو الذي أسّسه في ١١١٥ فدفع الرهبانية السِسترشية إلى نموّ كبير جداً. ولقد أنشأ وحده ستّة وستين ديراً. هذا وان دور برنردس يتخطّى إلى حدٍ بعيد إطار كليرڤو. ففي منتصف القرن الثاني عشر، يبدو أول شخصية في الكنيسة، إذ إنه كثيراً ما يبتعد عن ديره ويتدخّل في شتّى القضايا. فهو يُسهم في إصلاح الاكليرس، ويغضب على تراخي كلوني، ويدعو الأساقفة إلى المزيد من الفقر ومن الاهتمام بالفقراء، ويضع حدًّا للانشقاق في كنيسة رومة، ويعرض برنامج حياة لراهب كليرڤو الذي أصبح بابا باسم أوجينيوس (Eugène) الثالث (١١٤٥). وحاول برنردس أن يهدي المجتمع الاقطاعي إلى السلوك المسيحي فندّد ببذخ الموالي ونادى بقداسة الزواج. ووعظ في الحملة الصليبية الثانية (١١٤٦)، وحاول أن يضع حداً لمجزرة اليهود التي ربطها خطأً بعض المتهوّسين بالحملة الصليبية.

لكن برنردس كان متأثّرًا بالمثال الأعلى الخاص بالفروسية الاقطاعية، وبالمثال الأعلى الخاص بالحياة الرهبانية، فلم يشعر دائماً بتطوّرات زمنه. وبدت له مطالب برجوازيي المدن الناشئة على الموالي والأساقفة انتهاكًا للنظام الاقطاعي التقليدي. وفضلاً عن ذلك، دافع برنردس عن الايمان أمام تكاثر التعاليم

الهرطوقية، لكنه لاحق اللاّهوتي أبيلار (١١٤٠) وطالب بالحكم عليه، فأصبح بذلك دون أن يرغب عائقاً أمام التقدّم في التفكير اللاّهوتي.

لا شك ان برنردس هو معلّم روحي أولاً، وهو آخر آباء الكنيسة، فهو يرى ان التأمّل في الكتاب المقدّس نقطة انطلاق لكل الحلول. إنه لا يشدّد على ترويض النفس والتمارين بقدر ما يشدّد على الاتحاد بالله، ويختصر الدين كله في ممارسة المحبّة. ويقترح مسيرة عودة إلى الله، تنقل الانسان من معرفة النفس إلى امتلاك الله. ومواعظه في نشيد الأناشيد هي أفضل ما يجسّد مؤلّفاته الروحية.

ثانيًا – أعمال الإيمان

الدين: في الفكر الرهباني وفي الوجدان الشعبي

بين قدرة الله ورأفته بالانسانية

ان فهم الدين في القرون الوسطى يستمدّ كثيراً من ملامحه من المجتمع الاقطاعي والريفي. فيبدو الله على قمّة السلطات الاقطاعية وكأنه المولى الأعلى وكأن الموالي الأرضيين ليسوا سوى عبيدِ أرضٍ له. وهذا القدير مرهوب أكثر ممّا هو محبوب. إنه موزّع الأهوال والأفراح، والحياة والموت. والنجاح والإخفاق، والمجاعة والوباء، ذلك كله يُنسب إلى العناية الإلهية. لكن الحركات الإنجيلية أخذت تشدّد شيئًا فشيئًا على رأفة الله الانسانية في تجسّد يسوع. تشهد على ذلك زيارات الأراضي المقدّسة والتيّار الفرنسِسْكاني.

المسيحي المثالي هو الراهب

في زمن كان فيه رجال الاكليرس وحدهم يعبّرون خطيًا عمّا في أنفسهم، بدا الراهب مثال المسيحي الأعلى. فقائمة القديسين تكاد لا تضمّ إلاّ الأساقفة والرهبان والراهبات، أو، عند الضرورة، تضاف إليهم سيرة أميرة مترمّلة شابة، إن كانت قد قضت ما تبقّى لها من الحياة في التكفير ومساعدة الفقراء. ولقد شبّه القديس برنردس العالَم ببحر واسع يجب عبوره للوصول إلى الخلاص. فالرهبان لا يمسّهم البلل وهم يعبرونه، لأنهم يجتازون على جسر، وأعضاء الاكليرس العلماني يستخدمون سفينة القديس بطرس. وأمّا المتزوّجون، فعليهم أن يعبروا سباحةً، والعديد منهم يغرقون في الطريق. لذلك نرى بعض العلمانيين الأتقياء، الذين تعذّر عليهم ان يصبحوا رهبانًا، يحاولون ان يعيشوا عيشةً تشبه عيشة الرهبان. فالقديس الملك لويس التاسع كان يتلو ساعات الفرض وينهض في الليل لصلاة السحر ويقوم بالكثير من الإماتات. والعديد من العلمانيين كانوا يسألون، في نهاية حياتهم، ان يُدفَنوا مرتدين «إسكيم»[١] الرهبان.

١. جزء من غطاء الرأس.

ولكننا نبتعد عن الحقيقة، ان تخيَّلنا الحياة المسيحية عند الشعوب من خلال تلك الأمثلة الباعثة على التقوى. أجل، كان سكّان أوروبا مسيحيين في مجملهم، ولكن حياتهم المسيحية كانت تختلف إلى حدٍ ما عن حياتنا. فالحركات الانشقاقية التي مرّت بها القرون الوسطى كلها تناقض ذلك الاجماع الذهبي الذي استند إليه مؤرّخو القرن الماضي. وما أطول المسافة التي تفصل بين ملخّصات اللاهوتيين الجميلة وديانة القرويين الأفظاظ والأمّيين الذين يصارعون للبقاء عَبْرَ الأوبئة وتقلّبات الطقس.

ان المسيحية تتأصّل في ماضٍ ديني يعود إلى مجاهل الأزمنة، وفي ديانة سابقة للمسيحية ومرتبطة بحياة الطبيعة ودورة الفصول. ففي سياق السنة الطقسية، يعيش المسيحي مراحل الخلاص الكبرى ويحتفل، في الوقت نفسه، بموت الطبيعة وانبعاثها. ولقد نُصِّرت التقاليد القديمة وفي الوقت نفسه طُبعت الأعياد المسيحية بالطابع الشعبي.

٢. على مرّ الأيام

في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، حدَّدت الكنيسة تعليمها اللاهوتي في الأسرار السبعة واجتهدت، بمشقّة غالباً، في وضع نظام شامل ما زالت بعض عناصره قائمة حتى اليوم.

المعمودية

كانوا، في كل مكان تقريباً، يعمّدون الأولاد في الأيام التي تلي الولادة، لا في عيدَي الفصح والعنصرة فقط، كما جرت العادة سابقاً. وأخذ العماد بالسكب، أي بسكب الماء على الرأس، كما يفعلون اليوم، يحلّ، شيئاً فشيئاً، محلّ العماد بالتغطيس. وعدلوا عن مناولة الطفل المعمّد، كما في الماضي، تحت شكل الخمر، لأن هذه الرتبة زالت من القداس في الغرب عند مناولة المؤمنين. وكانت الأهمية التي تولى للمعمودية كبيرة حتى ان الأطفال المولودين أمواتاً كان يُذهب بهم إلى معابد يعودون فيها حيناً إلى الحياة، بحسب زعم الناس، لكي ينالوا المعمودية.

الاعتراف والتناول

في ١٢١٥، فرض المجمع اللاتراني الرابع على المسيحيين ان يعترفوا بخطاياهم ويتناولوا مرة في السنة على الأقل، في زمن الفصح وفي رعاياهم. ولقد وصل سرّ التوبة إلى نهاية مرحلة تطوُّر فسُمّي «الاعتراف».

وكان أكثر الناس ورعاً لا يتناولون إلاّ مرّتين أو ثلاث مرّات في السنة. فالقديس الملك لويس التاسع، مع شدّة تقواه، لم يكن يتناول إلاّ ستّ مرّات في العام. وفي ذلك دليل، لا على احترام فقط لسرّ الافخارستيا، بل على تفهّم محدود أيضاً لهذا السرّ. فقد أصبح

القدّاس مشهداً غامضاً ومقدّساً. فليس المهمّ هو الاتّحاد بالسرّ، بل بالرؤية. فمن هنا الاهتمام فوق الحدّ المولى لرفع الأقداس وعرض القربان وعيد الجسد، ذلك العيد الذي أُنشئ في القرن الثالث عشر. وكانوا ينسبون إلى رؤية خبز الذبيحة ميزات خاصّة، من استجابة تلقائية للصلاة، وحماية من الموت الفجائي في أثناء النهار. ولسنا بعيدين عن السحر، فقد يستعمل خبز الذبيحة طِلَسْماً لإبعاد الحسد أو حمايةً للزراعة.

الزواج

في العصر الوسيط الأول، لم يكن لاهوت الزواج واضحاً، فكان هناك تردُّد بين ما يعود إلى العادات وما يعود إلى تعاليم الكنيسة. وفي القرن الثالث عشر، حُدّد الزواج بوضوح على أنه سرّ من الأسرار السبعة وانه من صلاحية الكنيسة وحدها، وهي التي تحدّد الموانع والشروط الخاصة بصحّته. ورضى العروسين الحرّ هو الذي يُشكّل جوهر الزواج. وقد تختلف النصوص الطقسية باختلاف المناطق، وهي رائعة في أغلب الأحيان، وكانت تُتلى باللاتينية، فكانت غالباً غير مفهومة من العروسَين. لكن المهمّ هو نيل بركة الكنيسة للتمكّن بعد ذلك من الاحتفال بالحدث في وسط الأفراح.

تناقل الإيمان وتربيته

لم يكن هناك كتاب تعليم مسيحي بالمعنى الحصري. فالجماعة هي التي تنقل الإيمان «بالتشريب» والتلقين. ويفرض على الوالدين والعرّابين والعرّابات[1] تعليم الأولاد «الأبانا» ووصايا الله. وكان العدد ٧ وسيلة تساعد الذاكرة في التربية الدينية: فهناك سبع خطايا رئيسية وسبع فضائل رئيسية، وسبعة مواهب للروح القدس، وسبعة طلبات في الأبانا، وسبعة أسرار الخ. وكان الذين يتعلّمون القراءة يستخدمون كتاب المزامير.

وبعظة الأحد والأعياد يريد الكاهن ان يربّي الصغار والكبار. ولقد عرف القرن الثالث عشر مجهوداً كبيراً في الوعظ. فالوعّاظ يتقرّبون من الشعب ويستعملون في أغلب الأحيان لغته. ولعلّ في ذلك تأثير الرهبانيات التي تعيش من الصدقات. ولقد اتّخذ تلاميذ القديس عبد الأحد (دومينيك) اسم «الوُعَّاظ» وهم المعروفون بالآباء الدومينيكان.

٣. الديني والدنيوي

لعلّ ما تميّزت به العصور الوسطى هذا المزج الرائع بين الحياة المادية الدنيوية والدين وممارسة الإيمان، فقد امتزجت الحياة العامة واليومية بالممارسات الدينية التي طبعت كل نواحيها وأزمنتها وأماكنها.

١. إشبين أو إشبينة المعمّدين وهما الكفيل والكفيلة الضامنان لنمو المعمّد في حياة الإيمان والشركة.

الكنيسة بيت الشعب

كانت الكنائس والكاتدرائيات أماكن عامّة يتجاوز استعمالها إطار العبادة بكثير. فكانوا يلجأون إليها لاتّقاء شر الحروب، ولحفظ الأثاث والماشية في فنائها. وكان بعض الخدم يسكنون حتى بالقرب من المكان المقدّس فيها. لم تكن هناك كراسيّ ومقاعد، فكان المؤمنون يقعدون على القشّ في الشتاء وعلى العشب الأخضر في الصيف. كان القداس الأسبوعي أحد الواجبات المبدئية، لكن المشاركة في التناول غالباً ما كانت قليلة. . .

الليترجية والأعياد الشعبية

ان سياق السنة الطقسية يُدهشنا بذلك الاختلاط بين الرتب التي نعدّها اليوم دينية، وبعض عادات غامضة الأصل والمعنى، يختلف تنوّعها بحسب اختلاف المناطق في العالم المسيحي. فكانوا يحفظون كعكة الميلاد ويضيئونها أيامَ العاصفة. وفي عيد أطفال بيت لحم الأبرياء (٢٨ كانون الأول – ديسمبر)، كان الأولاد يتولّون السلطة في الكنيسة، ويُعكَس النظام، فيؤدي ذلك إلى الكثير من الهزل. وغالباً ما كان عيد المجانين يقع في أوّل كانون الثاني (يناير)، فكانوا يرقصون في ساحة الكنيسة، وينتخبون ملكًا للمجانين، ويقوم الشمامسة الإنجيليون والرسائليون بأكل الطيور وسُجق الدم في غرفة الملابس. . . وبرغم نهي الأساقفة كل مرّة عن إقامة العيد، إلاّ انها بقيت مدة طويلة.

لَمْس الأشياء المقدّسة

كان المسيحيون يرغبون في لمس الأشياء المقدّسة. وهذه العادة ناتجة أحياناً عن تعبّدهم لناسوت المسيح. وكان الحجَّاج والصليبيون يريدون أن يروا ويلمسوا الأماكن التي عاش فيها المسيح والقدّيسون. فكان القديس فرنسيس الأسيزي يحتفل بعيد الميلاد في مذود حيّ. وتلك الرغبة في لمس الأشياء الإلهية تبرّر ما عرفه التعبّد للذخائر من انتشار عظيم. فكانوا يشترونها أو يسرقونها، ويقطّعونها إلى قطع صغيرة جداً. وكان القديس لويس متعبِّداً تعبُّداً عظيماً لمسمار الصليب. ولقد شيَّد، إكراماً لإكليل الشوك الذي اقتناه في الشرق، خزنة ذخائر رائعة، وهي «المعبد المقدّس» (La Sainte Chapelle). كما لجأوا إلى ذخائر قدّيس محلّي ليحمي المزارع والقطعان أو الحرَفيين.

ممارسة الإيمان في الحياة اليومية

هل تكفي الممارسات الدينية والأعياد لوصف الوجود المسيحي؟ لا شك ان المسيحيين في أيّامنا لا يحبّون ان يحصروا أنفسهم في إطار عبادات محدودة فقط. فما هي الملامح الكبرى التي امتازت بها أخلاقيات مسيحية العصور الوسطى؟ لقد أشار المؤرّخون إلى انه يجب

التمييز بين «المفروض والمُعاش». كان علماء اللاهوت والوعّاظ والأنظمة السينودسية والمجامع تقترح عدداً كبيراً من الأحكام. لا يعني ذلك انها كانت ممارسة. وكان رجال الاكليرس ينادون بالسمو الأخلاقي فيما يختص بالنواحي الجنسية ولا تساهل في هذا الأمر، ولكنهم كانوا في الواقع يبدون تسامحاً كبيراً، لكن الرأي العام كثيراً ما كان أشدّ قسوة في حكمه على البخل منه على الزنى.

نادرة هي الوثائق التي تعبّر عن إيمان العلمانيين بلسانهم أو عن ملامح ممارستهم لإيمانهم، وحتى في وثائق الوصايا التي كتبها من أوصى بماله للخير، نلاحظ ان الاهتمام يركّز على تأمين جنازة رائعة وإقامة قداديس لراحة أنفسهم. وكانوا، في الوقت نفسه، لا ينسون الفقراء. ذلك بأن الفقراء والمتشرّدين في القرن الثالث عشر لم يكونوا يُعتبرون خطراً على المواطنين، بل كان الناس يرون فيهم فقر المسيح وبساطته. وكان التصدّق على الفقراء وسيلة للقداسة والحصول على شفاعة هؤلاء القديسين. فكان العديد من الموصّين يطلبون ان يوزّع المال والطعام على الفقراء يومَ يُحتفَل بجنازتهم. وكان بعضهم أيضاً يتركون الأموال لمساعدة المستشفيات ودور البَرَص. وكان المستشفى في أغلب الأحيان مؤسَّسة صغيرة تحتوي نحو عشرة أسرَّة «للفقراء المرضى» و«الفقراء الرحَّل»، علماً بأن هؤلاء المارّين الرحَّل كانوا غالباً حُجَّاجاً، وكان عددهم كبيراً على طرق أوروبا. ولا شك أن الاعجاب بالنفس لم يكن مُستبعَداً من تلك الأوقاف التي تخلّد ذكرى المتوفّى...

ثالثًا – الإيمان يُلهم الفكر والفنون

١. ثقافة أساسها الإيمان

مدارس رهبانية ومدارس أسقفية

سبق ان رأينا أن النشاط العقلي أصبح، في العصور الوسطى المتقدّمة، من خصائص الرهبان. كانت الأديرة تحفظ نصوص الأدب الكلاسيكي القديمة ونصوص آباء الكنيسة. وفي هذا الإطار، كان للعمل العقلي هدف واحد، وهو التمكّن من قراءة الكتاب المقدّس والنصوص التقليدية، وشرحها أيضاً، لتغذية حياة الراهب الروحية. وكان للأساقفة، بجانب كاتدرائياتهم، مدرسة أسقفية صغيرة تؤمّن لرجال الاكليرس مبادئ التكوين. وكان شارلمان قد شجّع إنشاء مثل تلك المدارس. وكان الأساقفة يُكلّفون بإدارتها كاهناً أو موظّفاً يجوز له أن يعيّن معه بعض الأساتذة.

حاجات عقلية جديدة

ان ازدهار العالَم المسيحي في القرنَين الثاني عشر والثالث عشر نما بدافع من بعض الحاجات العقلية الجديدة. ولقد شجَّع الاصلاح الغريغوري الدراسات القانونية والعودة إلى

الشرع الروماني وإعداد الشرع الكنسي، ولا سيّما في بولونيا. ورافق امتداد المدن ظهور طبقة اجتماعية ترغب في الوصول إلى الحياة العقلية. فتقلَّصت أهمية المدارس الرهبانية لكي تزدهر المدارس الأسقفية التي أُنشئت في المدن، لكنها لم تعد تكفي. فأخذ بعض المعلّمين المستقلّين يؤسّسون مدارسهم الخاصة. وكان كل ذلك مصدر سلسلة من الصعوبات والخلافات.

مطالب رجال الفكر

حَرِص الأسقف على الاحتفاظ بحقّه في منح إجازة التعليم للأساتذة. فتمكَّن بذلك من التمسّك بسلطته على الأساتذة والطلاّب ومن مراقبة التعليم ومواده. لكن عدد الطلاَّب أخذ في الازدياد، وازدادت مطالبهم أيضاً. ومن جهة أخرى، كان الأساتذة يرغبون في التخلّص من وصاية الأسقف ومتابعته الدقيقة. فطلبوا التمتّع بحكم ذاتي مماثل لحكم البلديات وفِرَق الحِرَف. وإلى جانب ذلك، كان العمل العقلي، في التقليد الرهباني، يقوم في الأساس على شرح الكتاب المقدّس. أمّا في القرن الثاني عشر، فقد وُضعت نصوص جديدة في تصرّف رجال الفكر، كترجمات أرسطاطاليس عن اليونانية أو العربية. وقام معلّمون، كأبيلار (١٠٧٩-١١٤٢)، وضعوا منهجاً لاهوتياً، طالبين التعمّق في المعطيات اللاهوتية عن طريق العقل. لكن ذلك شغل فكر العديد من الناس.

العقل والإيمان

«ما من حقيقة إلاّ الحقيقة التي يُثبتها العقل، وما تعلّمنا السلطة أن نؤمن به، يثبّته العقل بأدلّته. وما تُعلنه سلطة الكتاب المقدّسة الواضحة، يبرهنه العقل الاستدلالي: فلو بقي الملائكة كلهم في السماء، لخُلق الانسان مع ذلك هو وذرّيته كلها. فإن هذا العالم خُلق من أجل الانسان، وأعني بكلمة «عالَم» السماء والأرض وكل ما هو في الكون. . . منفى الانسان هو الجهل، ووطنه هو العلم».

(Honorius Augustodunensis, XIIe siècle.)

اعتراف البابا غريغوريوس التاسع بجامعة باريس (١٢٣١)

«باريس، أمّ العلوم، تتلألأ ببهاء فريد، ويعود الفضل إلى الذين يتعلّمون وإلى الذين يعلّمون. فيها يهيَّأ لجيش المسيح درع وخوذة الإيمان، وسيف الروح، وسائر الأسلحة الروحية التي تنادي بمدائح المسيح. . .

نولي الأساتذة والطلاّب سلطة تمكّنهم

من وضع أنظمة حكيمة في مواقيت الدروس والمناقشات وطرق إلقائها، وفي الملبس المطلوب: مَن الذي يلقي الدروس، وفي أية ساعة، وأيّ مؤلِّف يجب اختياره، وفي تحديد الأجور وفي سلطة فصل الذين يتمرّدون على تلك الأنظمة. وان اتّفق ان سُحب منك تحديد الأجورأو أن أُلحقت بك إهانة أو ضرر جسيم، يجوز لك ان تعلّق الدروس، حتى الحصول على تعويض مناسب. . .».

أوائل الفن الروماني في القرن التاسع

«لمّا اقتربت السنة الثالثة بعد الألْف، شاهدنا المؤمنين، في الأرض كلها تقريباً، وفي إيطاليا وغاليا خاصة، يعيدون بناء الكنائس. ومع ان معظمها كان مبنياً بناءً رائعاً ولم يكن في حاجة إلى ذلك، دفع التنافس كلاًّ من الجماعات المسيحية إلى الحصول على كنيسة أفخم من كنيسة الجيران، وكأن العالم ينتفض لينزعٍ عنه البلِى، ويرتدي من جميع الجهات معطفاً أبيض من مباني الكنائس. فقد قام المؤمنون بإعادة تشييد كنائس أجمل، سواء أكان في الكراسي الأسقفية أم في الأديرة المكرّسة للعديد من القدّيسين، وحتى في القرى».

نشأة الجامعات

في أعقاب نزاعات وُصفت أحياناً بالدموية، نشأت الجامعات، وهي فِرَق تضمّ الأساتذة والتلاميذ أو التلاميذ وحدهم أحياناً. وحصل الجامعيون على الاستقلال في تنظيم الدروس والإدارة. فتحرّرت من سلطة العلمانيين القضائية، ومن سلطة الأسقف إلى حدٍ ما، وارتبطوا بالبابا رأساً. وفي ١٢٣١، ثبّت البابا غريغوريوس التاسع على وجه رسميّ امتيازات جامعة باريس.

التلاقي المتكامل بين العقل والإيمان

وهكذا تمركزت الفلسفة واللاهوت المدرسي، تلك الطريقة التعليمية الخاصة بالقرون الوسطى التي لمع فيها كثيرون من المعلّمين كتوما الأكويني (١٢٢٥–١٢٧٤). وبذلك تبنّت الكنيسة، أكثر من أي وقت مضى، ثقافة العصر. ففي «الخلاصة اللاهوتية»، أقدم توما الأكويني على تركيبة متكاملة بين العلم القديم والوحي المسيحي، يخضع فيها السعي النظري لمصير الانسان، فصارت الفلسفة عند الأكويني، وهي تشمل العلم خادمة اللاهوت.



القديس ألبرتس الكبير

٢ . فن مسيحي شعبي

المسرح الديني

كان المسيحيون يعبّرون أيضاً عن إيمانهم عَبرَ المسرح الديني الشعبي. وكانت «التمثيليات الدرامية» الطقسية تستوحي من العهد القديم والعهد الجديد، في داخل الكنائس أو في ساحاتها. وكانت «المعجزات» تجسّد ظهور العذراء والقديسين. ومن أشهر تلك «المعجزات» «معجزة تيوفيلس» (Théophile) (القرن الثالث عشر) وهي تروي قصة رجل من رجال الاكليرس تعاهد مع الشيطان لاستعادة ثروته، ثم تضرَّع إلى العذراء للإفلات من مخالب إبليس. وفي وقت لاحق، ظهرت «الأسرار»، وهي تمثيل طويل ومعقَّد لأحداث كتابية، «كالآلام»، عن يد بعض الأخويّات.

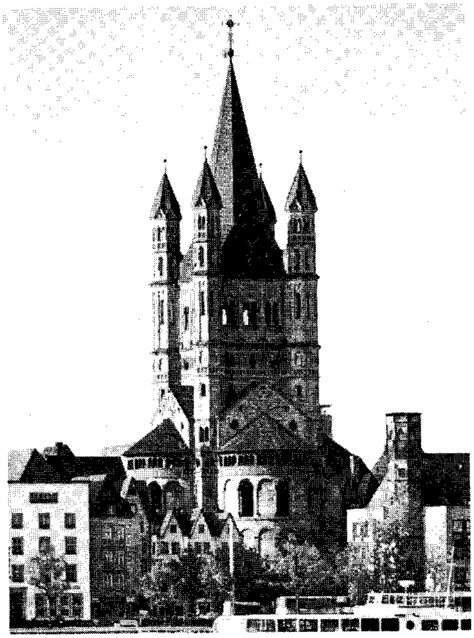
كتاب مقدّس من الحجر

لم تعد تلك النصوص منسجمة مع عقليتنا. أمّا الفن في العصور الوسطى فهو أقرب إليها. ففي نهاية القرن الحادي عشر وفي أثناء القرن الثاني عشر، ازدهر الفن الروماني، وهو من أصل رهباني خلال تلك العصور، وكان يمتاز بالقُبب الدائرية الشكل وبنقوش تيجان الأعمدة والرسوم الجدارية. وخلَفه الفن الغوطي

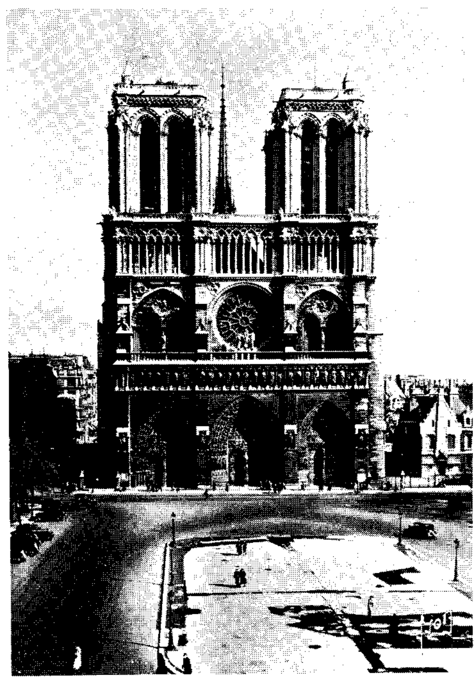


القديس توما الأكويني

(Gothique)، الذي نشأ في «إيل دي فْرانس» (Ile-de-France). انّه فنّ المدن ويشهد على توازن القرن الثالث عشر. ونما فيه الزجاج الملوّن ونحت التماثيل. وفي النقوش والزجاجات الملوّنة والرسوم الجدارية كتاب مقدّس وتعليم مسيحي مصوَّر. وهذا الفنّ يمثّل كثيراً من الأحداث الكتابية وأسرار الإيمان الكبرى والفضائل والرذائل. وكان الفنّانون يعبّرون بالحجر عن شدائد المؤمنين وآمالهم، من انتظار الفردوس وخوف جهنّم، والشيطان حاضر دائماً ترافقه الساحرة. ومن جهة أخرى، لم ينجح أيّ فنّ قبله في الجمع بين الحياة اليومية وابتكار المخيِّلة والاهتمامات الدينية بالمعنى الحصري...



كنيسة كولونيا (الفن الروماني)



كنيسة السيدة في باريس (الفن الغوطي)

الفصل التاسع

انتشار العالم المسيحي والنزاع عليه والدفاع عنه

(نهاية القرن ١١ والقرنان ١٢ و ١٣)

بدا العالَم المسيحي في مسيرته حقيقة زمنية وروحية ومجتمعاً ذا طابع شمولي، مبنياً على الإيمان المسيحي. فكان من واجبه ان يحارب أعداء هذا الإيمان، لأنهم كانوا يهدّدون كيانه بكامله، فالمسلمون في الخارج والهرطوقيون في الداخل. فكان لا بدّ من التسلّح، ومن هنا اختمرت فكرة الحملة الصليبية، لتحرير الأراضي المقدّسة وطُبّقت الأحكام الرادعة على الخطأة والمخالفين وقست محكمة التفتيش في مطاردة الهراطقة.

ولكن ذلك لا يبيح كل شيء. فالإنجيل لا يفرض نفسه بالقوّة. ومن الشكّ في فائدة الحملة الصليبية نشأت «الإرادة الإرسالية». ومن النزاع الانجيلي حول بعض تصرّفات المؤسَّسة الكنسية نشأت صيغ جديدة للحياة الدينية كما يتبيّن ذلك في ما يلي:

أوّلاً - الحملات الصليبية والرسالة

الحملات الصليبية

أحداثها

سبع حملات قام بها ملوك الغرب المسيحي هدفها الأساسي استرجاع القبر المقدس من أيدي المسلمين.

في مجمع كليرمون سنة ١٠٩٥، طلب البابا أربانس الثاني من ملوك أوروبا التوجّه إلى الأراضي المقدّسة، نزولاً عند طلب أمبراطور بيزنطية، ألكسي الأول، الذي كان الأتراك السلاجقة يهدّدون مملكته من كل جهة. فكان لهذا الطلب الصدى العميق في قلوب المؤمنين الذين هبّوا للقتال، لتخليص الأماكن المقدّسة من يد الأتراك وتأمين زيارة القبر المقدّس للقادمين من أوروبا. وزاد في حماستهم تأكيد الخطباء ان الموت في هذا السبيل وسيلة أكيدة للتوبة ولكسب السماء.

انطلقت الحملة الأولى سنة ١٠٩٦ بقيادة بطرس الناسك وبعض أمراء الإقطاع فاحتلّت الرها ونيقية وطرطوس وانطاكية فأورشليم وفي ١٠٩٧.

أما الحملة الثانية فلم يُتح لها أي نجاح (١١٤٧-١١٤٩). وفي ١١٨٧ استرجع صلاح الدين الأيوبي مدينة القدس. وفي ١١٨٩-١١٩٢ تقدّمت الحملة الثالثة في بعض المناطق. وفي ١٢٠٢-١٢٠٤ احتلّت الحملة الرابعة بيزنطية وأعملت النهب والحرق فيها وأمست أمبراطورية لاتينية وجعلت لها بطريركًا لاتينياً لم يقبل به بطريرك القسطنطينية. وفي ١٢١٧-١٢٢١ هاجمت الحملة الخاصة مصر ولكن دون جدوى.

وفي ١٢٢٨-١٢٢٩ أدّت الحملة السادسة إلى اتفاقية مع المسلمين الذين عادوا فاحتلّوا الأراضي المقدّسة سنة ١٢٤٤. وفي ١٢٤٨-١٢٧٠ قامت حملة سابعة فثامنة بقيادة القديس لويس التاسع ملك فرنسا الذي مات أمام أسوار تونس. وسنة ١٢٩١ سقطت عكّا آخر حصن للصليبيين في الشرق.

أسبابها

أسبابها عديدة ومتنوّعة، منها دينية ومنها سياسية. من جهة، كان الحج إلى الأراضي المقدّسة قد أصبح خطراً نظراً إلى احتلال الأتراك لقسم كبير من آسية الصغرى وأوروبا الشرقية، كما ان السفر بحراً كان محاطاً بأخطار العواصف والقراصنة وسواهم. من جهة ثانية، رأى البابا في الصليبية كسباً سياسيًّا له، وقد كان الأمبراطور الجرماني يناقشه في الغرب، كما رأى في تقرّبه من أمبراطور بيزنطية حلاًّ للخلافات القائمة بين الكنيستين الشرقية والغربية. في نظر المحاربين الأوائل، كانت هذه الحرب واجباً مقدّساً يدعو إلى استرجاع الأراضي المقدّسة من أيدي المسلمين، كما انّ زعماء الاقطاع والملوك كانوا يحلمون باحتلال أراضٍ جديدة وبناء إقطاعات جديدة، ممّا يشرح ما رافق هذه الحروب من أعمال وحشية ومآسٍ.

نتائجها

النتائج الإيجابية محدودة جدًا: بعض قلاع وقصور أقامها الصليبيون في سورية وفلسطين كحصن الأكراد وغيره؛ انفتاح الشرق على الغرب في ميدان التجارة وتبادل السلع وخاصةً مع دولتي البندقية وجنوى. لكنّ الصليبيين لم يتركوا أي أثر فكري أو مدرسة أو رسالة... لا بل جاءت النتائج السلبية أعمق وأرسخ في الأذهان، إذ زادت حدّة الخلاف بين كنيسة بيزنطية وكنيسة رومة ممّا سيساعد على الانفصال النهائي الذي لم يزل قائماً إلى اليوم والذي لا ينساه الشرقيون الأرثوذكس. كما ربّت الحقد والبغض المتبادلين بين المسيحية والإسلام. ولا يزال مسلمو الشرق إلى اليوم ينظرون بعين الشك إلى المسيحيين الشرقيين – وإلى سياسة الغرب تجاه الإسلام.

٢. من الحملة الصليبية إلى الانطلاق إلى الرسالة

إنجاز تبشير أوروبا

لم تكن علاقات المسيحي مع الشعوب التي لم تشاطره إيمانه علاقات تتسم فقط بالعنف، بل قامت علاقات حضارية ثقافية وعلمية ومبادلات تجارية، سواء أثناء الحروب الصليبية أو بعدها – بل لم تمنع الحروب من قيام علاقات إنسانية بين المتحاربين. وقد انتهى تبشير أوروبا في القرن الثاني عشر باهتداء الشعوب الإسكندينافية وغيرها من سكّان الشمال الشرقي كالبروسيين.

إقناع الآخَرين والتعرّف إليهم

ان إخفاق الحملات الصليبية كان عامل تطوير في العقول. أفليس من الأفضل إقامة حوار مع المسلمين، بدلَ محاربتهم؟ هكذا في أثناء الحملة الصليبية الخامسة (١٢١٨)، تمّ لقاء بين فرنسيس الأسيزي وسلطان مصر. واعتقد ريموند لول (Raymond Lulle)، وهو فرنسسكاني اسباني (١٢٣٥–١٣١٦)، بأن الاهتداء هو عمل محبة يقوم به العقل، وبأنه من واجب الواعظ أن يعرف لغات الشعوب التي يحتكّ بها ويعرف تعاليمها ويحترم تقاليدها، فطلب ريموند أن تنشأ مدارس لغات شرقية.

أوّل كنيسة في الصين

وفي القرن الثالث عشر، نشر المنغوليون الرعب في كل الأرجاء حتى بلغ أوروبا، وذاع الخبر بأن بينهم مسيحيين، بحسب ما ورد في قصة الكاهن يوحنا. فقد كان المرسلون النساطرة قد وصلوا إلى الصين. فتساءل الرؤساء لماذا لا يُستعان بهم لصدّ الأعداء. فأوفد إليهم البابا اينوقنطيوس الرابع والقديس لويس بعض السفراء (١٢٤٥ – ١٢٤٧ و١٢٥٣ – ١٢٥٥). ثم تنظَّمت الأمور وتطوَّع بعض المرسلين الفرنسسكانيين والدومنيكيين للقيام بتلك الرِحلات الطويلة، فأُطلق عليهم اسم الإخوة السائحين. وقصدوا آسية الوسطى والخليج والهند وحتى الصين. لكن لم يقم تفاهم بين أولئك الرهبان اللاتين والشرقيين... ولمّا أصبح الخان المنغولي أمبراطور الصين، طلب إلى البابا ان يوفد إليه بعض المرسَلين. وفي ١٢٩٤، وصل الفرنسسكاني يوحنا de Montecorvino إلى خنباليق (بكين) ومنها بعث برسالة مؤثّرة إلى أوروبا. وأصبح بعد ذلك أوّل رئيس أساقفة لبكين. لكن طول الرحلات وتقلّبات السياسة أدَّت إلى زوال تلك الكنيسة الصينية الأولى.

ثانيًا – النزاع على هوية العالم المسيحي

لا يجوز لنا الاعتقاد بأن العالم المسيحي كان مجتمعاً خالياً من الشوائب أو أنه كان كله على إجماع واحد. فالكنيسة القائمة، لكونها أحرزت نجاحاً لم يكن منتظراً، لم تنجُ برغم ذلك من النزاع حول هوية الكنيسة وأحياناً

إنطلاقًا من الإنجيل. ومن جهة أخرى، لم تكن أوروبا عالَمًا مغلقًا على نفسه. في ذلك الحين إذ كانت التعاليم تتجوَّل، ومنها تعاليم رسخت قبل المسيحية وغريبة عن تعاليمها. ولمّا كان الإيمان أساس المجتمع، كان الذين لا يشاركون في الايمان الرسمي يُتَّهمون بتقويض أسس المجتمع وكان الناس يتحمَّلونهم بمشقَّة متزايدة.

١ . اليهود

أعمال عُنف شعبية

نشير أولاً إلى وضع اليهود الذين انتشرت جماعاتهم من إسبانيا إلى بلدان الرِّين (Rhin). فمنذ نشأة الكنيسة، لم تتوقف المحاربة الكلامية ضدّ اليهود، وهي، في أغلب الأحيان، خالية من المحبة المسيحية، حتى عندما تتّخذ لها الطابع اللاهوتي! كان المسيحيون يتحمَّلون وجود اليهود بمشقّة في إسبانيا، ولقد أرغموهم أحيانًا على التنصُّر، بعد ان تمَّ إبعاد المسلمين. لكنهم كانوا مقبولين إلى حدٍّ ما في باقي البلدان. ولمّا أخذ المسيحيون يدعون إلى الحملة الصليبية، ساءت الأمور، لأن المقصود هو الذهاب لمحاربة الأتراك أعداء المسيح، إذ ان الجموع أخذت تتّهم أولئك الذين تعدّهم مسؤولين عن موت المسيح والذين هم أقرب إليها بكثير من الأتراك السلاجقة. وشهدت مناطق الرّين بعض المجازر، فحاول القديس برنردس ان يوقفها.

٢ . الإنجيل والانشقاق

ولعلّ سمة من سمات العصور الوسطى، الحكم المتسرّع على المنشقين عن الكنيسة وإدراجهم بين فئات الهراطقة. وليس لنا مصادر لدرس أحوال المنشقّين إلاّ المصادر الكنسية الرسمية، ولا سيّما ما وصل إلينا عن طريق تحقيقات محكمة التفتيش، وهي لا تُظهر إلاّ أخطاءهم. لأن معظم مؤلَّفاتهم قد أُتلفت. والأمر الواضح أن الشك يساور دارس التاريخ فيما أحاط بالمنشقين من إشاعات تروَّج رواجًا سريعًا، كما جرى في الماضي بالنسبة إلى المسيحيين الأوّلين.

حماية إنجيلية

وينبغي القول ان مجموعات كثيرة من أولئك المنشقين كانت جماعات احتجاج على ما أصاب الكنيسة من ثراء مذهل. ومن هنا نلمس فاعلية الاصلاح الذي بادره غريغوريوس الكبير وبدأ يعطي ثماره. فقد رفض بعض المسيحيين فساد حياة الكهنة الجشعين الذين يخونون عهد التبتل من أجل المسيح الذي كرّسوا أنفسهم له ومن أجل خدمة الكنيسة، لأنهم كانوا يريدونها أمينة لفقر المسيح في الانجيل. وكثيراً ما ظهرت تلك الحركات الرفضية في المدن التي شهدت انطلاقة جديدة في القرن الثاني عشر. فالبرجوازيون قاموا بردّ فعل مضادّ لكنيسة إقطاعية ثرية. ولم يعد رجال الإكليرس العلماني

والرهبان المنعزلون في أديرتهم يلبّون تماماً حاجات سكان المدن الروحية والفكرية. فأخذ بعض المسيحيين يكوّنون جماعات خارج إطار النظم القائمة.

ڤالدو وفقراء مدينة ليون

ومن بين تلك الحركات الانجيلية ومن أشهرها هي حركة «فقراء مدينة ليون»، التي أنشأها ڤالدو (ڤالْديس) (Valdis) في حوالى ١١٧٣. كان غنياً وقلقاً على مصدر ثروته، لكنه تخلّى عن جميع أمواله ودعى بني وطنه إلى حياة الفقر. وانضمّ إليه بعض الرجال والنساء. وكانوا يصلّون ويقرأون الكتاب المقدّس في اللغة العامّة ويُعلنون في الساحات: «ما من أحد يستطيع أن يعمل لسيِّدَين، الله والمال». فأقلق ذلك السلطات، لأن هؤلاء كانوا يعظون وهم ليسوا كهنة، وينتقدون بشدة ثراء الكنيسة. فاستشارت السلطات البابا في رومة (١١٧٩) فأمر ان يكون التصريح بالوعظ من رئيس أساقفة ليون، الذي رفض، فاندرج القالديّون (Vaudois) في عداد الهراطقة، واضطرّوا إلى التشتُّت، مع ان نيّة ڤالْدو كانت تقتصر على إيقاظ الضمائر لما تقتضيه كلمة الله. وبعد ان نُبذ الڤالديون من المجتمع المسيحي، اتّفق أن التقوا مجموعات أخرى مماثلة فاتحدوا معهم. ففُصلوا عن الكنيسة وأخذوا يرفضون المؤسَّسة الكنسية ويقولون بأن قيمة الخادم الرسولي تقوم على كرامة عيشه، ولا يعترفون إلاّ بالكهنوت الشامل، ويرفضون العمل إذا كان سعياً وراء الثروة، كما أنهم يرفضون القَسَم وعقوبة الإعدام.

انتظار عالم أفضل

وهناك حركات أخرى تدّعي انها عودة إلى الانجيل وإلى الكنيسة الناشئة، وهي تحسب حساباً لمصير البشرية، مستندةً إلى رؤيا يوحنا أو إلى نصوص الأنبياء. فكان الكلام يدور حول حركات رؤيوية أو ألفيَّة (راجع رؤ ٢٠/٤–٥). ففي مجتمع قاسٍ كثرت فيه أعمال الظلم، كان بعضهم ينتظر ملكوت عدالة تصلح فيها الأوضاع. وقد يكون ذلك نقطة الانطلاق لبعض الفتن التي تزعَّمها أشخاص يدّعون أن الروح القدس قد ألهمهم. فبعد عصر الآب، عصر العهد القديم، وعصر الابن، عصر الكنيسة، لن يلبث أن يبدأ عصر الروح القدس، ممّا كان يحطّ من قيمة الكنيسة.

الكتار (Cathares)

وأخيراً، ظهرت مرّة أخرى، عند بعض المجموعات، تعاليم غريبة عن المسيحية كتعليم الكتار المنتشرين في الجنوب الفرنسي الغربي وشمال ايطاليا. وكانوا يُعتبَرون ورثة المانويين (Manichéens) الذين عاشوا في العصور القديمة، ولكن يصعب تتبع جذورهم. لا شك أن زيارة «الأماكن المقدّسة» والحملات الصليبية

أسهمت في انتشار تلك التعاليم. ويقول الكتار بثنائية لا تتّسم دائماً بالعمق الفلسفي. فالمطلوب هو الإجابة عن سؤال ما زال الناس يطرحونه منذ القِدَم: من أين يأتي البشر؟ والثنائية تحلّ القضية حلاً ساذجاً ولا بدّ من لفت النظر إلى ان الكتار يعتبرون أنفسهم مسيحيين، لا بل «مسيحيين صالحين». ولعلّ بعض رتبهم يرقى عهدها إلى العصور المسيحية القديمة. ولكن، بما أن المادّة والجسد في عرفهم شيء سيّئ، فإنهم يرفضون تجسّد المسيح ويستنكرون الزواج. فلا عجب ان ترى الكنيسة فيهم خطراً جسيماً على الإيمان. لكن كيف لنا ان نفسّر نجاح ذلك التعليم الغريب؟ أمام تراخي رجال الاكليرس في تلك المنطقة الفرنسية، فإن الفقر والتقشّف، أسلوب حياة الكتار، كان يثير الاعجاب. فكان اختيار حركة الكتار نوعاً من الاحتجاج على الكنيسة القائمة. ولكن، إذا صحّ ان «الكاملين» منهم كانوا يعيشون عيشة تقشّف، فإن ما يُطلب من المؤمنين العاديين كان محدوداً، إذ كان في إمكانهم أن يمارسوا الحياة الجنسية، وإنَّما كان يُطلب منهم ان يُعيلوا «الكاملين». وكان التعليم بنظرية التقمص يحمل كثيراً من الاغراء، فإن وجود حياة أخرى قد يعيد التوازن والعدالة لَمن كان بائساً في حياة أولى، والعكس بالعكس...

المانويّون الجدد أو الكتار

«ان شيعة المانويين وبدعتهم وأنصارهم الضالّين يعترفون بأن هناك إلٰهَين أو ربَّين، أي إلٰهًا صالحًا وإلٰهًا شرّيراً. ويقولون بأن خلق جميع الأشياء المنظورة والمادّية ليس هو عمل الله، الآب السماوي – والذي يسمّونه الله الصالح، بل ان الشرّ هو عمل ابليس والشيطان، عمل الإلٰه الشرير. فهم يميّزون بين خالقين، الله وابليس، وبين خلقَين: الواحد خلق الكائنات غير المنظورة وغير المادية، والآخر خلق الأشياء المنظورة والمادية.

ويتخيّلون كنيستين: الأولى صالحة وهي شيعتهم، كما يزعمون، وهي كنيسة يسوع المسيح، والأخرى الشريرة، وهي في نظرهم الكنيسة الرومانية، وهم يسمّونها بكل وقاحة بابل العظيمة، خليلة ابليس، ومجمع الشيطان...

ويُحلّون محِلّ معمودية الماء معمودية أخرى روحية، تُدعى «تعزية» الروح القدس، حين يتقبّلون، على سبيل المثال، شخصاً في صحّة جيّدة أو مريضاً في شيعتهم، واضعين عليه أيديهم، بحسب رتبتهم الممقوتة...

وهم يُنكرون تجسّد ربنا يسوع المسيح في أحشاء مريم الدائمة البتولية، ويؤكّدون أنه لم يتّخذ جسماً بشرياً حقيقياً ولا جسداً بشرياً حقيقياً، شأن سائر الناس، بحكم الطبيعة البشرية، وأنه لم يتألّم قط ولم يمت على الصليب ولم يقم من بين الأموات، ولم يصعد إلى السماء في هيئة وجسد بشريَّين

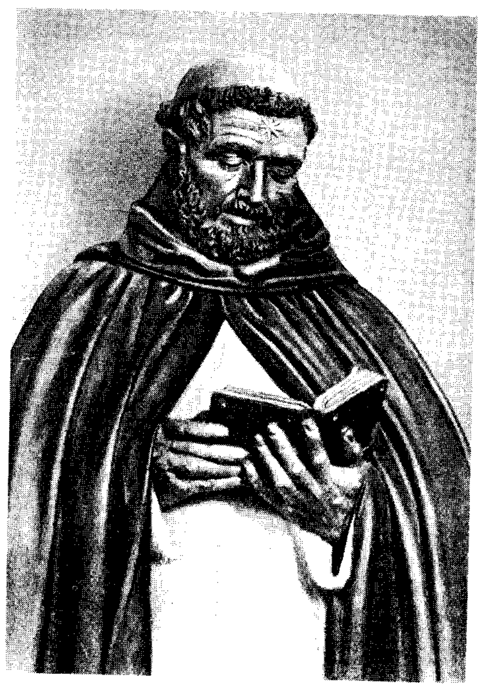
وأن كل ذلك إنّما حدث على سبيل الصورة. . .

ويسمَّى هراطقةً غير كاملين أولئك الذين يجاهرون بإيمان الهراطقة، لكنهم لا يعملون به في حياتهم ولا يراعون طقوسه، ويُدَلّ عليهم باسم «المؤمنين» في لغة الهراطقة.

ويسمَّى كاملين أولئك الهراطقة الذين جاهروا بإيمان الهراطقة ويطابقون حياتهم عليه، بإقامة الطقوس التي يتضمّنها. . . ».

٣. نشأة الرهبانيات التي تعيش من الصدقة

لم يكن المثال الأعلى للعودة إلى الإنجيل محصوراً في مجموعات المنشقّين، فإنه ما لبث ان أثار صيغة جديدة للحياة الرهبانية، تلك الرهبانيات التي تعيش على الصدقة. فقد أراد مؤسّسوها أن يلبّوا دعوة الانجيل وعاطفة أناس



القديس عبد الأحد

عصرهم. وقد أقلقهم، على وجه خاص، انتشار البدع ونموّها في المدن واضطراب الفكر. وجاءت تلبية عبد الأحد (Dominique) وفرنسيس الأسيزي لدعوة خاصة لها رؤية مختلفة عند كل منهما.

عبد الأحد والإخوة الوعّاظ

وُلد عبد الأحد في حوالى ١١٧٠ في إسبانيا، وكان كاهناً قانونياً راهباً. له رغبة في الذهاب لتبشير قبائل أوروبا الشرقية. لكن لقاءه بجماعة السِسْترشيين (Cisterciens) المكلّفين بمقاومة البدع في جنوب فرنسا الغربي كان حاسماً في توجيه حياته. فلقد أدرك لماذا أخفق الرهبان في مواجهة البدع. فلأنهم موفدون من قِبل البابا، ظنّوا أن من حقهم ان يعيشوا عيشة البذخ الخاصة بالشخصيات الرسمية، مع أن نجاح الوعّاظ الكثار يكمن في تقشّفهم. واستخلص عبد الأحد من ذلك أن فقر الوعّاظ الفعلي هو الدواء الفعّال الوحيد. فاصطحب بعض الرفاق في ناحية مدينة تولوز وذهب إلى ملاقاة الهراطقة، «مقتدياً بفقر المسيح الفقير» وعقدا مناظرة للهراطقة في الأمور العقائدية. وفي ١٢١٥، وافق مطران تولوز رسمياً على

قيام مجموعة الوعَّاظ الصغيرة: «نُقيم وُعَّاظًا في أبرشيتنا، الأخ عبد الأحد ورفاقه، لاستئصال فساد البدع، وطرد الرذائل، وتعليم قاعدة الإيمان وتدريب الناس على الأخلاق السليمة. يقوم برنامجهم النظامي على التصرّف كرهبان، وعلى السفر مَشياً، في الفقر الانجيلي، وعلى التبشير بكلمة الحق الانجيلية». وفي ١٢١٦، وافق البابا نفسه على رهبانية الإخوة الوعَّاظ فاتّخذوا قوانين القديس أوغسطينس. ومات عبد الأحد في بولونيا سنة ١٢٢١.

الحضور للعالم

كان الإخوة الوعَّاظ كهنة يعيشون في جماعات صغيرة في المدن. وكانوا يوزّعون نشاطاتهم بين الوعظ والعمل العقلي. وكان تنظيم الرهبانية ديمقراطياً، فكانت الوظائف انتخابية وموقّتة، ما عدا الرئيس العام الذي كان يُنتَخب لمدى الحياة. ولم يكن لهم ما كان للأديرة الكبيرة من دخل، بل كانوا يعيشون من الصدقة. وكانوا يوجّهون مواعظهم إلى أهل المدن على وجه خاص، وإلى أعضاء فِرَق الحِرَف، ويعلّمون في الجامعات. ولقد كلّفهم البابا بقمع البدع، فعهد إليهم بمسؤولية محكمة التفتيش.

فرنسيس والإخوة الأصاغر

أمّا مسيرة فرنيس الأسيزي فكانت أقرب



القديس فرنسيس الأسيزي

إلى مسيرة ڤالدو (Valdo). ففي الوصية التي وضعها فرنسيس في ١٢٢٦، يرسم لنا الخطوط العريضة التي تتّسم بها مسيرته. وُلد في حوالى ١١٨١ من تاجر ثريّ، فتخلّى في ١٢٠٥ عن أحلامه في الفروسية وكرّس نفسه لما دعاه «بالسيدة»، أي فضيلة الفقر. ولقي المسيح الفقير في أحد البُرْص. وظنّ أولاً ان المسيح يطلب إليه أن يرمّم الكنائس. ثم ردّ إلى أبيه جميع أمواله وحتى ملابسه، وأخذ يستعطي الطعام وموادّ البناء. وكانت حياته آنذاك حياة ناسك. لكنه، في ١٢٠٨، سمع في الكنيسة هذه العبارة الانجيلية: «إذهبوا وأعلنوا ان

ملكوت السموات قريب. لا تحملوا ذهباً ولا فضّة...»، فكانت له إلهاماً من الله، فاتّخذ بعض الرفاق وسار على الطرق، مُعلناً في الفرح بُشرى السلام. وكان يعمل ليحصل على الطعام أو كان يستعطي. فعمل ما عمله ڤالدو وغيره. كان يعظ من دون أن يكون كاهناً. لكن فرنسيس لم يُرد ان يُدلي بحكم في الكهنة أو في الكنيسة، بل يطلب فقط مجالاً من الحرية ليعيش الإنجيل على مثال المسيح في فلسطين. وفي ١٢٠٩، وافق البابا اينوقنطيوس الثالث على حياة الذين يريدون ان يكونوا من «الأصاغر»، أي في صفوف أفقر الناس في السلّم الاجتماعي. وسيكتفون بوعظ أدبي.

السلام والفرح

وفي ١٢٠٩، بلغ عدد رفاق فرنسيس ١٢، ولكنهم أصبحوا، بعد عشر سنين، ثلاثة آلاف، وفي ١٢١٢، سارت كلارا ورفيقاتها في خطى فرنسيس. وتوزّع الإخوة على عدّة بلدان. وفي ١٢١٩، ذهب فرنسيس إلى الأراضي المقدّسة وحاول إقناع سلطان مصر. وكان بعض الاخوة يرغبون في تنظيم دقيق، يضمّ أديرة ودور تكوين، فاستاء فرنسيس من ذلك. ومع ان الإنجيل كان قاعدة حياتهم الوحيدة، فقد توجَّب عليه ان يحرّر القوانين (١٢٢٣). لكنه واصل وعظه السارّ، واحتفل بعيد الميلاد في مذود حيّ. وفي السنة التالية، نراه وقد طُبع جسده بطابع جرح المسيح بما يُعرف «بالسمات» (Stigmates). ولقد تغنّى بحبّه للطبيعة وبالله الخالق في «نشيد الشمس». وأعاد السلم بين الموالي المحلّيين. والوصيّة التي حرّرها في ١٢٢٦ تعبّر عن حنينه إلى أيّام الرهبانية الأولى. وفي الختام رحّب في السكينة والسلام بـ«أخينا الموت الجسدي» في ١٢٢٦/١٠/٣. وأُعلنت قداسته بعد وفاته بسنتين.

ان مسيرة الإخوة الأصاغر بقيت محفوفة بالمصاعب، فقد تقسَّمت بسبب تعلّقها بمؤسّسها، لكن فرنسيس بقي أكثر القديسين شعبية في القرون الوسطى، ان لم نقل في التاريخ، فهو الشاهد المثالي للعودة إلى الانجيل. فقد قلب وجدان العصور الوسطى رأساً على عقب بفضل حبّه للطبيعة ورفضه للغنى الذي يشوّه العلاقات القائمة بين البشر.

القديس فرنسيس في الشرق

حاول فرنسيس مرتين المجيء إلى الشرق في رحلة شبه صليبية روحية. الأولى سنة ١٢١٢، لكن العاصفة أعادت السفينة إلى شواطئ دلماسيا، والثانية سنة ١٢١٥، لكن المرض أقعده عنها.

أما في المرة الثالثة فقد استطاع الوصول إلى عكّا سنة ١٢١٩. ومنها ذهب إلى دمياط حيث كان الصليبيون ناصبين خيامهم حول المدينة المحاصرة. أقام مدة بين الجنود يعظهم ويكسب ودّهم، وقد ترك مروره بينهم أثراً روحياً

عميقاً. ولمّا أبدى رغبته في دخول المدينة، استغرب الصليبيون هذه الفكرة وأرادوا أن يثنوه عن عزمه خوفاً عليه من القتل. لكنّه دخل المدينة برفقة أحد إخوته وطلب رؤية السلطان. فظنّوه آتياً برسالة دبلوماسية وقدّموه إلى الملك الكامل الذي استقبله بكل لطف. وحاول فرنسيس أن يهديه إلى المسيحية، لكن السلطان رفض هذا العرض وسرّ برؤية هذا الراهب المتصوّف وقدّم له الهدايا الثمينة. فرفضها فرنسيس إلاّ بوقاً من العاج أخذه ليدعو الناس به إلى الوعظ.

كما استحصل من الملك الكامل على اذن لدخول الأراضي المقدّسة فزار القبر المقدّس سنة ١٢٢٠، كذلك سمح ببناء كنيسة وبيت للرهبان الفرنسيسكان في دمياط، في حي الطليان. من هناك توجّه فرنسيس إلى بيت لحم والقدس حيث تأسّست كنائس لرهبانيته.

وصيّة فرنسيس (١٢٢٦)

«لقد أنعم الله عليّ، أنا الأخ فرنسيس، بأن أباشر حياة التوبة: حين كنت في الخطايا، كانت رؤية البُرص تبدو لي شديدة المرارة. فهداني الرب نفسه إليهم ورئفت بهم. وعند انصرافي من بينهم، ما كان يبدو لي مريراً انقلب في نظري إلى عذوبة في النفس والجسد. وبعد ذلك، لم أبقَ إلاّ قليلاً وخرجتُ من العالم. ولقد وهب لي الرب إيماناً بقدسية الكنائس حتى إني كنت أصلّي ببساطة فأقول: «نسجد لك، أيها الرب يسوع المسيح، في جميع الكنائس التي في العالم كله، ونباركك، لأنك بصليبك المقدّس فديتَ العالم».

وبعد ذلك، وهب لي الربّ، ولا يزال، إيماناً بالكهنة الذين يعيشون بحسب طريقة الكنيسة الرومانية المقدّسة، نظراً إلى درجاتهم الكهنوتية، حتى إنهم، لو اضطهدوني، لما انقطعت عن اللجوء إليهم. ولو كان لي ما كان لسليمان من الحكمة ووجدت كهنة مساكين من هذا العالم، لَما أردتُ ان أعظ في الرعايا التي يقيمون فيها، خلافاً لإرادتهم. . .

وبعد أن وهب لي الرب إخوة، لم يدلّني أحد على ما يجب عليّ ان أعمله، لكن العليّ نفسه كشف لي أنه من واجبي ان أعيش على طريقة الانجيل المقدّس. وأنا دوّنته بقليل من الكلمات وببساطة، وثبّته البابا لي. والذين كانوا يأتون لينالوا الحياة، كانوا يعطون الفقراء كلّ ما كان عندهم، ويكتفون بقميص واحد مرقّع في داخله وخارجه، مع زنّار وسروال. ولم نرد ان يكون لنا غير ذلك. وكنّا نتلو الفرض، كسائر الإكليريكيين، وكان العلمانيون يتلون الأبانا. وكنّا نقيم في الكنائس بطيبة خاطر. وكنّا غير مثقّفين وخاضعين للجميع. وكنت أعمل بيديّ وأريد ان أعمل. وأريد إرادة ثابتة ان يعمل سائر الإخوة جميعاً عملاً نزيهاً. وليتعلّمْ مَن لا يعرف، لا من أجل الرغبة في الحصول على ثمن العمل، بل ليكونوا قدوة ويطردوا البطالة. وان لم يُدفَع لنا ثمن العمل، فلنلجأ

إلى مائدة الرب، متسوّلين على الأبواب. وأمّا التحية، فقد كشف لي الرب أنه من واجبنا ان نقول: وهَبَكَ الرب السلام!

وليحترس الاخوة من قبول أية كنائس ومساكن وكل ما يبنى لهم، ان لم تكن مطابقة للفقر المقدّس الذي وعدنا به في القوانين، مقيمين هنا دائماً كالغرباء والحجّاج. أنهى نهياً ثابتاً جميع الاخوة، من باب الطاعة، ان يجرؤوا على التماس أية رسالة من الديوان الروماني، لأجلهم أو بواسطة شخص آخر، لا من أجل كنيسة، ولا من أجل مكان آخر، ولا بحجّة الوعظ، ولا بسبب اضطهاد جسدهم، بل حيثما أبى الناس ان يقبلوهم، فليهربوا إلى أرض أخرى لممارسة التوبة مع بركة الله.

وأريد إرادة ثابتة ان أخضع لرئيس الرهبانية العام وللحارس الذي طاب له ان يعيّنه لي...

ولا يقلِ الاخوة: «هذه قوانين أخرى»، لأن ما أعمله لكم، أيها الاخوة المباركون، هو ذكرى وتوبيخ وإرشاد. ووصيتي التي أوصيكم بها، أنا الأخ فرنسيس الصغير: لنحفظ القوانين التي وعدنا بها الربّ، على وجه كاثوليكي أفضل.

وليكن الرئيس العام وسائر الرؤساء مُلزمين، من باب الطاعة، بعدم إضافة أو حذف أي شيء من هذه الأقوال. ولتكن هذه الكتابة معهم دائماً إلى جانب القوانين...

ومَن حفظ ذلك، فلتغمره في السماء بركة الآب العليّ، ولتغمره على الأرض بركة ابنه الحبيب، مع الروح القدس المعزّي وجميع القوّات السماوية وجميع القدّيسين. وأنا، الأخ فرنسيس، الصغير وخادمكم، أؤكّد لكم، على قدر استطاعتي، في الداخل وفي الخارج، تلك البركة المقدّسة».

ثالثًا – قمع البِدَع

لا ينبغي ان نرى في محاكم التفتيش موقفاً عاماً وثابتاً للكنيسة حيال المنشقّين الدينيين في القرون الوسطى. فلقد تذبذب موقف الكنيسة حيالهم زمناً طويلاً وقد كثرت الأقاويل عدّة سنين، وفي حقيقة الأمر لم يصبح القمع الديني عملاً منظّماً إلاّ في القرن الثالث عشر، كما أنه لم يقتصر على الكنيسة الكاثوليكية، أو على العالم المسيحي فحسب. فالقمع الديني ظاهرة تخلّف حضاري يؤدّي إلى فهم خاطئ للدين ولسبل حماية الجماعة من البدع والهرطقات.

١. تحفّظات

سبق لنا أن شهدنا صدور تشريع مناهض للبدع في أيام الأمبراطورية المسيحية. وكان بعض الأساقفة، كالقديس أوغسطينس أو القديس يوحنا الذهبي الفم، قد قبلوا به، مع رفض عقوبة الاعدام للهرطوقي. وبالرغم من وجود تلك القوانين القمعية، أظهرت الكنيسة، على وجه عام، كثيراً من التحفّظ في استخدام العنف لمقاومة الهرطوقيين، حتى القرن الحادي عشر. فلم يصل إلينا خبر حكم بالموت بسبب البدعة في القرون الوسطى المتقدّمة، بل ورد

ذكر بعض حالات الالقاء في السجن فقط.

حركات شعبية وتصلّب تدريجي

وقد طرأ تغيُّر في القرن الحادي عشر والثاني عشر، إذ يبدو ان عدد المنشقّين قد ارتفع. وعى العالم المسيحي نفسه، وأدرك أن وحدة الإيمان هي قاعدة المجتمع، فكان لا بدّ من المحافظة عليها مهما كلّف الأمر. وأُعيدت إلى الشرع الروماني مكانته، فاكتشفوا فيه تشريعاً معادياً للبدع ودون أن يغربلوه أو ان يدرسوا وسائل تطبيقه في الماضي، راحوا يصعّدون استخدام القوة تدريجياً. ففي ١٠٢٢، اتُّهم بعض الهراطقة، ولعلّهم من المانويين، بارتكاب أعمال خلاعية، فحكم عليهم الملك، تحت ضغط الجمهور، بالإعدام حرقاً، مع أن بعض الأساقفة كانوا يعترضون على عقوبة الاعدام، في مثل تلك القضايا. ويشدّدون على ضرورة إقناعهم. ولكن، إذ بدا عقاب الحِرم غير كافٍ، كان لا بدّ من القبول باستخدام العنف لحماية كرم الرب من تدمير الثعالب.

٢. إعداد تشريع مناهض للهراطقة

ان مرسوم غراسيانس (١١٤٠)، الذي يوفّق بين النصوص القانونية التقليدية (الشرع الروماني والقرارات الخ)، يأخذ بعين الاعتبار ثلاث مراحل في الاجراءات الخاصة بمقاومة البدع وهي محاولة الاقناع، والعقوبات القانونية الكنسية، وفي آخر الأمر فقط الاستعانة بالسلطة المدنية، أي بقضاء الأمراء. وكان الأمراء يقومون بحجز أموال وبعقوبات جسدية، من دون ان يفكّروا صراحة في عقوبة الاعدام. ولقد ميّز المجمع اللاتراني الثالث (١١٧٩) بين الهراطقة الذين يمكن ان تُنزَل بهم العقوبات الروحية والذين يجب محاربتهم لأنهم يشكّلون عصابات. وفي ١١٨٤، تعاون البابا لوقيوس الثالث والأمبراطور فريديريك بربروس (Barberousse) في تنظيم قمع مشترك، دون تحديد «العقوبة المستوجَبة». وفي ١١٩٧، ماثل الملك الأرغوني البدعة بجريمة الاعتداء على الجلالة الملكية، وهي تستوجب عقوبة الموت حرقاً. وفي ١١٩٩، وصف البابا اينوقنطيوس الثالث البدعة بأنها اعتداء على الجلالة الإلهية.

الحملة الصليبية على الألبيجيين

وحين قُتل موفد البابا اينوقنطيوس الثالث، المكلَّف بمحاربة البدعة في جنوب فرنسا الغربي، دعا إلى حملة صليبية على الألبيجيين (١٢٠٨). وكانت ألْبي مركز منطقة يعيش فيها كثير من الهراطقة. وكانوا يدلّون بكلمة ألبيجيين على الكتار خاصة، وأحياناً على الفالديين. وقد تحوّلت الحملة الصليبية إلى حرب بين والي الشمال وموالي الجنوب. فقد وجد أولئك في ذلك فرصة استعادوا فيها بعض الإقطاعات. وأشهر حدث في تلك الحملة الصليبية هي مجزرة سكّان بيزييه (Béziers)، وكانوا قد التجأوا إلى االكاتدرائية (١٢٠٩).

٣. محكمة التفتيش

نشأت محكمة التفتيش، بالمعنى الدقيق، في السنين ١٢٢٠-١٢٣٠، حين تعاونت السلطة المدنية والسلطة الدينية في البحث المنظَّم (التفتيش) عن الهراطقة وفي معاقبتهم، وحين عمّت تلك الحملة المنظّمة مجمل الكنيسة. وفي ذلك الوقت، كانت عبارة «العقوبة المطلوبة» تعني الموت حرقًا. فقد تغلّب الوجه العقابي على الوجه العلاجي، مع أن الموت لم يكن أكثر العقوبات وروداً. فهناك عقوبات أخرى، كالسجن والغرامة والحج إلى الأراضي المقدّسة.

التفتيش والمفتّشون

هناك، بحسب مصدر القرار، تفتيش علماني مدني وتفتيش أسقفي وتفتيش بابوي.

ليس من السهل ان يفسَّر كيف ان كنيسة تتذرّع بالإنجيل استطاعت أن تُحرق أحياءً مَن رفضوا تعاليمها. كان العالم المسيحي الغربي، من بعض النواحي، نظاماً شبيهاً بالنظام الشمولي القاسي الدكتاتوري، فاستخدم، لتأمين بقائه، وسائل العدل، كما كان اعتقادهم، التي كانت مستخدمة في ذلك الزمان وهي التعذيب والموت.

الفصل العاشر

خريف العالَم المسيحي

(القرنان ١٤ و١٥)

جرت العادة ان يوصف القرنان الرابع عشر والخامس عشر بانحطاط العالَم المسيحي. ولكن لا بدّ من الاتّفاق على مدى كلمة «انحطاط». فالمقصود أولاً هو انحطاط نظام الحكم في العالَم المسيحي. سبق ان رأينا ان هذا العالَم المسيحي كان مبنياً على سيادة المقام البابوي الذي توصّل إلى القيام بدور الحَكَم الشامل في أوروبا على عهد اينوقنطيوس الثالث. لكن هذا التوازن كان غير ثابت، حتى في القرن الثالث عشر. فاختلّ شيئاً فشيئاً في القرون التالية، عَبرَ عدّة أزمات كان بعضها خطيراً. فالملوك كانوا لا يريدون تدخّل البابا في المجال السياسي. وفي داخل الكنيسة نفسها، أدّت الانقسامات إلى انشقاق وإلى زعزعة أسس السلطة البابوية الزمنية. هذا وان نوائب الأزمنة وحيرة الضمائر جرَّت إلى انفجار الفكر الديني ودلّت على نهاية نظام. وهذا الانحطاط الذي سرى في جنبات العالم المسيحي لم يُصب خلاصة الحياة المسيحية في الكنيسة أو في العالم المسيحي، بل أدّى ذلك إلى تحوّلات عميقة آذنت بقرب مخاض جديد، تعقبه ولادة حقيقية لحياة مسيحية أكثر عمقاً وأسمى تجديداً.

أوّلاً – نشأة روح العلمنة[١]

١. صعود المَلَكيّات القومية

سبق أن رأينا أن صراع الباباوات مع الأباطرة الألمان أدّى إلى ضعف الأمبراطور. وفي الفترة بين مُلكَين (١٢٥٤–١٢٧٣)، لم يعد هناك أمبراطور. لكن الفائدة التي جنتها البابوية كانت ظاهرية هشة فقط. فقد أساء الباباوات استعمال الأسلحة الروحية كالحِرم لغايات زمنية. ومن جهة أخرى استفادت المَلَكيّات الغربية من انحطاط الأمبراطورية، فثبّتت المَلَكيّات موقفها باستخدام الحق الاقطاعي

١. المقصود بالعَلمنة (L'esprit laïque) فصل الدين عن الدولة.

لصالحها. فوسّع ملوك فرنسا أراضيهم شيئًا فشيئًا، شأن مملكة انكلترا. أمّا ممالك إسبانيا، فقد أعادت الحكم المسيحي إلى ديارها بعد أن طردت العرب الفاتحين. واكتمل التحرير، بالاستيلاء على غرناطة في ١٤٩٢، ومن ثمّ توحّدت اسبانيا. فأصبحت تلك الممالك الغربية كلها، شيئًا فشيئًا، دولاً بمعنى الكلمة العصري، بتنظيم نواة إدارية مركزية، من مالية وعدل... ولمّا ازدادت قدرتها، تصادمت فيما بينها في النزاعات القومية الأولى، كحرب المئة سنة (١٣٣٧-١٤٥٣) بين فرنسا وانكلترّا. وفي الوقت نفسه، أرادت تلك المَلَكيّات ان تثبّت وتوسّع سلطتها، فاصطدمت في الطريق بسلطة البابا، فكان ذلك مصدرًا جديدًا للنزاعات.

٢. نزاع بين فيليب الجميل (Philippe le Bel) وبونيفاقيوس الثامن

أخذ الأمراء يرفضون شيئًا فشيئًا تدخّلات البابا في كنيسة مملكتهم، ويثبّتون في الوقت نفسه سلطتهم الخاصة في القضايا الكنسية في دائرة مقاطعاتهم. ففي ١٢٩٦ وفي ١٣٠١-١٣٠٣، تجابه ملك فرنسا فيليب الجميل[1] (١٢٨٥-١٣١٤) والبابا بونيفاقيوس الثامن (١٢٩٤-١٣٠٣) وكان الاصطدام عنيفًا. كان الملك حفيد القديس لويس متديّنًا ينادي بالمبادئ الأخلاقية، لكنه كان عديم الذمّة في طرق الحصول على المال. ومن جهة أخرى، كان مستشاروه، العلماء في القوانين، مغرمين بالشرع الروماني، وكانوا يُشيدون بقدرة الملك. وكان البابا أيضًا رجل قانون محدود الأفق وعنيدًا، ومتمسّكًا بالامتيازات البابوية وكان يشدّد عليها من دون تمييز. فكان موضوع النزاع الأول إعفاء الكنيسة من الضرائب: فقد رفض بونيفاقيوس الثامن أمرًا للملك بأن يجبي الضرائب على أموال الكنيسة. لكن إعلان قداسة لويس التاسع في ١٢٩٧ خفّف من حدّة الخلاف. أمّا النزاع الثاني، فكان موضوعه حصانة رجال الاكليرس القضائية. ذلك بأن فيليب قدّم إلى المحكمة أسقف باميه (Pamiers)، وهو من أنصار بونيفاقيوس. فأطلق العنان للعنف قولاً وفعلاً. وبينما كان البابا يهدّد بخلع الملك بالاستناد إلى السوابق، انتقل العلماء في القوانين المحيطون بالملك إلى الهجوم على البابا. فأثاروا الشعور القومي والشعور الديني ضده فسبّب ذلك صدمة قاسية للبابا وكان متقدّمًا في السنّ فتوفّي بعد تلك الأزمة بشهر واحد.

كان ذلك النزاع سببًا في إقامة البابا في فرنسا، فضلاً عن أنه كان سبب قيام جدل خطّي. ذلك بأن بونيفاقيوس الثامن أصدر براءة (Unam sanctam)(١٣٠٢) يكرّر فيها جميع أقوال سلفه في الحكم الإلٰهي، وتفوّق السلطة الروحية التي تخضع لها السلطة الزمنية. وقام

١. عُرف في التاريخ بهذا اللقب (Philippe le Bel).

الملك، من جهته، يؤكّد انه السيد الأوحد في مملكته، وأنه ليس عليه أيّ رئيس في السلطان الزمني. وإلى جانب ذلك، ظهرت الفكرة بأن البابا المقصّر يمكن أن يحاكمه مجمع عام.

براءة «واحدة مقدّسة» (Unam sanctam)
(١٣٠٢)

«. . . الكنيسة واحدة ووحيدة، وليس لها إلاّ جسد واحد ورأس واحد، لا رأسان كما يكون للمِسْخ: انه المسيح وبطرس نائب المسيح، وخليفة بطرس. . .

يجب ان تخضع السلطة الزمنية للسلطة الروحية. . . وان انحرفت القوة الأرضية، حاكمتها القوّة الروحية، ولكن، ان انحرفت القوة الروحية السفلى، حاكمتها القوة الروحية العليا. وان انحرفت القوّة الروحية العليا، فلا يحاكمها إلاّ الله، لا الانسان. . . وتلك السلطة، مع انّها مولاة لإنسان ويمارسها انسان، ليست من الانسان، بل من الله. أوليت لبطرس من فم الله. . .».

٣. روح العَلْمَنة

وهناك نزاع آخر قام بين البابا يوحنا الثاني والعشرين ولويس الباڤييري، وكان البابا لا يريد أن يعترف به أمبراطوراً (١٣٢٤). وأدّى هذا النزاع أيضاً إلى تعيين بابا معارض وإلى تعدّد المؤلّفات في حقوق كلّ من البابا والملك. وتلك المؤلّفات، بجانب الحروب الكلامية تقترح الدخول في تفكير حول طبيعة كل من الدولة والكنيسة. وهذا ما يسمّى «نشأة روح العلمنة». ولا يدلّ لفظ «علمنة» على معارضة الدين. وقد يكون في بعض الأحيان مرادفًا لعبارة «معارض للاكليرس».

ويمتاز روح العلمنة بهذَين المبدأين: استقلال الدولة في المجال الزمني، والتشديد على تحديد الكنيسة بأنها جماعة المؤمنين وعلى عدم حصرها في المؤسّسة الكهنوتية. وتختلف النتائج باختلاف المؤلّفين: فبعضهم يكتفي بتأكيد وجود حكم ذاتي محدد للدولة وللكنيسة، لأن كلاهما يشكّل مجتمعاً ذا سيادة خاصة، وهذا ما نسلّم به اليوم عن طيب خاطر. لكن **مرسيل البدواني** (Marsile) يذهب إلى أبعد من ذلك، فيقول ان الدولة وحدها تتمتّع بالسيادة، لأن الكنيسة ليست مجتمعاً، بل هي في الدولة، والدولة هي التي تمنح السلطة لرجال الاكليرس وتدعو إلى انعقاد المجامع. إن هذا حكم إلهي مقلوب. ونواة للنظام الشمولي.

وفي براءة أور (Or) (١٣٥٦) دليل رمزي على روح العلمنة، فإنها تستبعد كل تدخّل بابوي في تعيين أمبراطور ألمانيا.

نشأة روح العلمنة

«كانت الغاية من تجمّع الناس أن يعيشوا عيشاً مُرضياً. وهذا ما يمكّنهم من البحث عن مختلف الحاجات الضرورية ومن تبادلها. وهذه الجماعة التي تمّ تأليفها والتي كانت غايتها إرضاء نفسها بقواها الذاتية هي التي سُمّيت بالمدينة.

فنقول بأن الأمير، بعمله وفقاً للشريعة وللسلطة التي وُلّيها، هو قاعدة ومقياس كل عمل مدني. إن من بين جميع التحديدات التي أُطلقت على كلمة كنيسة، أصدقها وأصحّها جميعاً، بحسب أول استعمال لهذا الاسم ووفقاً لنية أوّل مَن تبنّوه، وان لم يكن المعنى الشائع في الاستعمال العصري، هو التحديد الذي يجعل منها جماعة الذين يؤمنون بالمسيح ويدعون اسمه، علماً بأن مختلف أجزاء ذلك الكلّ نعود فنجدها في كل من الجماعات... فالأساقفة والكهنة والشمامسة ليسوا وحدهم الكنيسة.

قال السيد المسيح: «فأخبِر الكنيسة بأمره»، ولم يقل: «الرسول أو الأسقف أو الكاهن أو أحد زملائهم». فلقد أراد ان تكون الكنيسة، بصفتها جماعة المؤمنين، قاضياً يقام لهذه الغاية ويخضع لسلطته... فالبتّ بصفة قاضٍ لتحديد المذنب، والتكليف بالحضور، والتحقيق، والحكم، وتبرئة المتّهم أو الحكم عليه...، كل ذلك هو من اختصاص كافة المؤمنين الذين يؤلّفون الجماعة التي يجب عليها إصدار مثل هذا الحكم، أو من اختصاص المجمع العام.

ويعود إلى سلطة المشترع البشري الوحيد – الذي لا رئيس عليه –، أو إلى من عهد إليه بهذه السلطة، ان يدعو إلى انعقاد المجمع العام، وان يعيّن الأشخاص الذين يجب ان يشاركوا فيه...

وان كان من اختصاص المشترع، سعياً وراء فائدة زمنية، ان يعيّن الأشخاص الذين يجب ترقيتهم إلى مختلف مناصب المدينة...، يبدو بالأحرى من اختصاص المشترع البشري نفسه، أي كافة المؤمنين، ان يتّخذ قرار الترقية في شأن العمل الكهنوتي وتعيين الكهنة في وظائفهم».

(مرسيل (Marsile) البدواني)

ثانياً – الشدائد التي مرّت على البابوية

١. الباباوات في أڤينيون (Avignon)

في يونيو (حزيران) ١٣٠٥، وبعد ان بقي الكرسي الرسولي شاغراً نحو سنة، بسبب انقسامات الكرادلة، انتخبوا رئيس أساقفة بوردو، برتراند دي غوت (Bertrand de Got)، لأنه أظهر كثيراً من روح المصالحة في الخلاف الذي قام بين ملك فرنسا والبابا. ولمّا تُوّج في مدينة ليون باسم اقليمنضس الخامس في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٣٠٥، كان فيليب الجميل حاضراً، فطلب مساعدة البابا لتسوية الخلاف بين



القديسة كاترينا السيانيّة

فرنسا وانكلترا حول الغسكونيا (Gascogne). ومن جهة أخرى، كانت الدول البابوية عرضة للاضطرابات. ولذلك فإن جميع هذه القضايا وما أُضيف إليها بعدئذ من قضايا أخرى دفعت اقليمنضس الخامس إلى البقاء في فرنسا أو بالقرب منها، وإلى عدم الذهاب إلى رومة. فحتى ١٣٧٧، فضّل البابوات ان يقيموا في مقاطعة ڤوكلوز (Vaucluse) الفرنسية، حيث كان لهم بعض الأملاك، وفي أڤينيون التي اشتروها. لم تكن هذه أوّل مرّة غادروا فيها رومة، ولكنهم لم يبتعدوا عن ايطاليا قبل ذلك طول هذه المدّة. ومع ذلك، لم تكن الاقامة في اڤينيون خالية من الحسنات لإدارة شؤون الكنيسة. فإن المدينة كانت هادئة وحسنة الموقع، وكان الاتّصال فيها بمختلف أنحاء العالم المسيحي أمرًا سهلاً، فضلاً عن ان البابوات فيها حافظوا على الاهتمام الجادّ بالكنيسة الجامعة. وقد اهتمّوا أيضًا إلى حدٍ بعيد بالارساليات النائية وبمشاريع الحملة الصليبية.

كاترينا السيانيّة تسأل البابا غريغوريوس الحادي عشر أن يعود إلى رومة

كاترينا (١٣٤٧-١٣٨٠) هي المولود الثالث والعشرون من عائلة رزقت خمسة وعشرين ولداً. اختبرت، منذ حداثة سنّها، بعض الحالات التصوّفية الخارقة. ومع انها اختارت الحياة الرهبانية، فقد شاركت مشاركة فعّالة في صراعات زمنها، في سيانّة مسقط رأسها، بل وفي توسكانا أيضاً وأڤينيون ورومة حيث تُوفيت. ثلاثة اهتمامات أرشدت حياتها: اهتداء الخاطئين، وإنعاش الحملة الصليبية، وعودة البابا إلى رومة.

«كن خليفة حقيقياً للقديس غريغوريوس، وأَحبَّ الله، ولا تتعلّق بوالديك ولا بأصدقائك ولا بالضروريات الزمنية.

الزمنية. ولا تخف أبداً العاصفة الحالية، ولا الأعضاء الفاسدين الذين تمرّدوا على سلطتك. ان عون الله قريب: تمسّك بالرعاة الصالحين فقط، لأن الرعاة الأشرار هم الذين أثاروا الفتنة. استعمل دواء لتلك الشرور وليكن سلوكك في المسيح يسوع. إلى الأمام! أنجز ما بدأتَ به، ولا تبطئ، لأن الإبطاء سبّب العديد من المصائب، ولأن الشيطان يتفنّن في إثارة العقبات في طريقك. إرفع راية الصليب الحقيقي، لأنك بها تحصل على السلام، وتعزّي فقراء يسوع الذين ينتظرونك بلهفة. تعالَ فترى الذئاب تصبح حملاناً. إحمل راية السلام، لكي تقف الحرب! لا تعد إلى مقاومة مشيئة الله، فإن الحملان تنتظر، جائعة، ان تعود إلى كرسي القديس بطرس. وبما أنك نائب المسيح، فعليك ان تستعيد كرسيَّك الخاصّ. فتعالَ ولا تخف، لأن الله سيكون معك. ولا تنتظر الوقت، لأن الوقت لا ينتظر. لَبِّ دعوة الروح القدس، وتعال كالحمَل الإلهي الذي، بيده المجرّدة من السلاح، صرع أعداءه باستخدامه سلاح المحبة. كن شجاعاً، وخلّص الكنيسة من الانقسامات والآثام. ان الثعالب ستأتي إلى حضنك وتسترحمك... تعالَ ببسالة وبدون خوف، واحذر خاصة، حبّاً للحياة، من المجيء في مواكبة عسكرية، بل تعالَ، والصليب في يدك، كالحمل الوديع».

أضرار الإقامة بأڤينيون

ومع ذلك فإن التمركز في مملكة فرنسا أنزل الأضرار في العديد من المجالات. وذلك بأن الكرادلة كادوا ان يكونوا كلهم فرنسيين، وكان بالتالي جميع الباباوات من الجنسية الفرنسية، فبدا للناس أنهم في خدمة ملك فرنسا. وذلك ما أضرّ بمركز باباوات أڤينيون.

المركزية تُحرز تقدُّماً ملموساً

وجد الجالس على الكرسي البابوي نفسه داخل حلقة مفرغة. وكان الباباوات يزدادون اهتماماً بإدارة الكنيسة مباشرة. فكانت تدخّلاتهم في تعيين الأساقفة تزداد باضطراد. لا شك ان الانتخابات كثيراً ما كانت موضوع نزاع، فكانوا يلجأون إلى البابا للبت فيها. لكن ما كان نادراً في أول الأمر أصبح اعتيادياً. فزالت الانتخابات شيئاً فشيئاً وترسّخت القاعدة بأن يعيِّن البابا الأساقفة لجميع الأبرشيات، وما زالت هذه القاعدة في أيّامنا.

٢. الانشقاق الكبير (١٣٧٨-١٤١٧)

باباوان

ضغط الرأي العام المسيحي على الكرسي البابوي ليعود إلى رومة. لكن أُربانس الخامس، بعد ان قضى ثلاث سنوات في رومة (١٣٦٧-١٣٧٠)، عاد إلى أڤينيون. وفي ١٣٧٧، صمّم البابا غريغوريوس الحادي عشر على إقامة الكرسي البابوي النهائية في رومة.

لكن هذه العودة جرت في ظروف سيّئة. ثم ان الكرادلة الفرنسيين، وقد اعتادوا الاقامة في أڤينيون، لم يأتوا إلي رومة عن طيب خاطر. وأمّا غريغوريوس الحادي عشر، فما كاد يتمركز في رومة حتى تُوفّي في ١٣٧٨. ولم يُرد الرومانيون ان يغادر الكرسي البابوي رومة مرّة أخرى، فشدّدوا على انتخاب بابا إيطالي. وأسرع الكرادلة إلى انتخاب رئيس أساقفة باري، فاتّخذ اسم أُربانس السادس (نيسان (ابريل) ١٣٧٨). لكن البابا الجديد ضايق الكرادلة الفرنسيين، فغادروا رومة. وتذرّعوا بأن انتخاب أربانس السادس تمّ تحت ضغط شعبي، فأجروا انتخاباً جديداً، مختارين روبرت الجنيڤي، واتّخذ اسم اقليمنضس السابع. وقرّر ملك فرنسا، كارلس الخامس، الاعتراف بإقليمنضس السابع، فأسهم في قيام انشقاق دامَ نحو أربعين سنة. ولم يوفَّق اقليمنضس السابع في الذهاب إلى رومة، فأقام في أڤينيون في حزيران (يونيو) ١٣٧٩، وانقسم العالم المسيحي إلى قسمين وفق التقسيم الجغرافي أو السياسي. وكان لكل معسكر شخصيّاته المؤيّدة. ولمّا تُوفّي كلا البابَاوَين، تمّ انتخاب بديل لكل منهما: بونيفاقيوس التاسع في رومة (١٣٨٩) وبندكتس الثالث عشر في أڤينيون (١٣٩٤). فتألّم الشعب المسيحي من جرّاء ذلك كله. وفي ذلك الوقت، وُضع القدّاس من أجل وحدة المسيحيين. ومن نتائج تلك الفوضى أن الملوك تمكّنوا بسهولة من التدخّل في حياة كنائس بلادهم.

ثلاثة باباوات

وظنّ كرادلة الطرفَين ان الخروج من المأزق قد يتمّ بالدعوة إلى مجمع في بيز (Pise) (١٤٠٩). فانتخب بابا جديد هو الاسكندر الخامس. فصار للعالم المسيحي الغربي ثلاثة باباوات. ولمّا توفّي الاسكندر الخامس خلفه يوحنا الثالث والعشرون، ففرض عليه الأمبراطور سيجسموند (Sigismond) الدعوة إلى مجمع في كونستانس دام أربع سنوات (١٤١٤–١٤١٨). وخاف يوحنا الثالث والعشرون ان يُحكَم عليه، فترك المجمع. فأكّد المجتمعون، بالمرسوم (Sacrosancta) الصادر في ٦ أبريل (نيسان) ١٤١٥، سيادة المجمع على الكنيسة كلها، بما فيها البابا. وكان هذا القرار أفضل حلّ للخروج من الأزمة. فأدّى إلى تخلّي يوحنا الثالث والعشرين وغريغوريوس الثاني عشر، وخلع بندكتس الثالث عشر، وتمّ انتخاب مرتينس الخامس في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٤١٧. وهكذا انتهى الانشقاق. وكان المجمع يريد ان يقوم بإصلاح عام في الكنيسة. فقرّر عقد مجامع دورية.

٣. الأزمة المجمعية

مجمع بال (Bâle)

دعا مرتينس الخامس، بحسب الزمان المقرّر، إلى مجمع في باڤيا (Pavie) سنة

١٤٢٣، ثم في بال سنة ١٤٣١. لكن هذا المجمع لم يضمّ إلاّ القليل من الأساقفة، بل ضمّ كثيراً من رجال الإكليرس ومن الجامعيين، وبعضهم من العَلمانيين. وكان الاصلاح على جدول الأعمال، علماً بأنه كان يقوم، في نظر الكثيرين، على تخفيض الضرائب. وكانت أغلبية المجمع تعبّر عن معارضتها للبابا، ولا سيما في اختيار مكان لقاء مع ممثّلي الكنيسة اليونانية، للوصول إلى إعادة الوحدة. وفي سبتمبر (أيلول) ١٤٣٧، قرّر البابا أوجينيوس (Eugène) الرابع نقل مجمع بال إلى فرّاره (Ferrare)، ثم إلى فلورنسا.

مجمع فلورنسا (١٤٣٨-١٤٣٩)

التئم هذا المجمع أولاً في مدينة فرّاري سنة ١٤٣٨ ثم انتقل إلى فلورنسا سنة ١٤٣٩. وقد كانت الغاية من انعقاده الوصول إلى اتفاق بين الكنيستين الشرقية والغربية على نقاط اختلفتا عليها منذ زمن. وقد اعتُبر مسكونياً لوجود الشرقيين فيه. حضره من الشرق ما يزيد على المئة ممثّل على رأسهم الأمبراطور يوحنا الثامن وبطريرك القسطنطينية. هذا القبول من قِبَل الشرقيين كان مردّه طلب الأمبراطور مساعدة الغرب لردّ الأتراك الذين يهدّدون عاصمتهم، فطلب البابا أوجينيوس الرابع منهم الاعتراف بسائر النقاط المختلف عليها كانبثاق الروح القدس ووجود المطهر وأولويّة بابا رومة. وبعد أخذ وردّ ودراسات طويلة، قبل الشرقيّون بطلب البابا ووقّع الجميع معاهدة اتفاق تام، إلاّ واحداً منهم هو مرقس أسقف أفسس. وكان متحمّساً للوحدة بيساريون، أسقف نيقية، وايزيدورس، أسقف كياف، وكثيرون غيرهما. أمّا بخصوص خبز الإفخارستيا، فتقرّر أن تبقى كل كنيسة على موقفها، أي استعمال الخبز الفطير أو الخبز المخمّر.

لكنّ هذا الاتفاق لم يدم طويلاً. فمن جهة، رفضته الكنائس الشرقية الأخرى، أي انطاكية والاسكندرية وأورشليم. ومن جهة ثانية، لم يتمكّن الأمبراطور من فرضه على شعبه الذي أثاره ضدّ الاتفاق مرقس، أسقف أفسس، وبعض الأساقفة الذين سحبوا إمضاءاتهم وراحوا يتّهمون الأمبراطور والبطريرك بالخيانة وبأنهما باعا الإيمان الصحيح بمكاسب سياسية مريبة.

بالرغم من ذلك، فقد أُعلنت هذه الاتفاقية في كاتدرائية «آجيا صوفيا» في الثالث عشر من كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٤٥٢. لكن بعد خمسة أشهر، كانت القسطنطينية قد وقعت في أيدي الأتراك ومات اتحاد مجمع فلورنسا مع موت أمبراطورية بيزنطية.

وجاء الحكم التركي ليمنع كل اتصال بين الكنيستين، فعمقت هوّة الفوارق وراحت كل كنيسة تعيش منفصلة بالفعل عن الأخرى وأُسدل الستار على محاولات الوحدة، إلى ان كان العمل المسكوني واللقاءات بين الشرق والغرب منذ أوائل القرن العشرين.

فخاخ السياسة الإيطالية

انتهت الأزمة المجمعية بانتصار الكرسي البابوي. لكنّ المشاكل الكبرى التي هزّت الكنيسة لم تجد حلاً. فإن الاصلاح المطلوب بإلحاح لم يحرز أي تقدّم، مع أنه كان في إمكان الباباوات، بعد استعادة سلطتهم، أن يهتموا بذلك الاصلاح. لكنهم انجرفوا في دوّامة السياسة الايطالية والنهضة، فصرفوا أعظم اهتمامهم إلى الاحتفال بتزويج ذويهم وتزيين رومة بالمباني الرائعة.

مجمع فلورنسا (Florence)
الاتّحاد مع اليونانيين (٦ يوليو (تموز) ١٤٣٩)

«أوجينيوس، أسقف وخادم خدّام الله، لتُحفظ الذكرى للأبد.

بالاتفاق، في كل ما يلي، مع ابننا الحبيب يوحنا ياليولوغس، أمبراطور الروم الذائع الصيت، ومع ممثّلي اخوتنا الأجلاّء البطاركة، ومع سائر الأعضاء الذين يمثّلون الكنيسة الشرقية.

«لتفرح السماوات وتبتهج الأرض» (مز ٩٥/١١). فلقد هدم الحاجز الذي كان يفصل بين كنيسة الغرب وكنيسة الشرق، وقد عاد السلام والوفاق «بالمسيح، حجر الزاوية، الذي جعل من الجماعتين جماعة واحدة» (اف ٢/٢٠ و١٤)، إذ إن رباط السلام والمحبة الوثيق جمع بينهما وشدّ الواحدة إلى الأخرى بمعاهدة وحدة أبدية. وها إنه، بعد غيمة من الحزن، وانتشار ظلمات انفصال كالحة وممقوتة خيّمت مدّة طويلة، سطعت على جميعنا أخيراً أشعة اتّحاد طالما تُقنا إليه [. . .].

فإن آباء الغرب والشرق، بعد مدّة طويلة من الشقاق والخلاف، تعرّضوا لمخاطر البحر والبر وتغلّبوا على جميع العقبات، فجاءوا في الفرح والابتهاج إلى هذا المجمع المسكوني المقدّس، تدفعهم رغبة الاتحاد المقدّس والسعي إلى إعادة المحبة القديمة. ولم يحرموا ما أرادوا، إذ إنهم، بعد أبحاث طويلة شاقّة، توصّلوا أخيراً، برحمة الروح القدس، إلى هذا الاتحاد المقدّس والمطلوب [. . .].

ذلك بأن اللاتين واليونانيين اجتمعوا في هذا المجمع المسكوني المقدّس، وأبدوا غيرة صالحة كبيرة في معاملة بعضهم بعضاً، حتى ان البند الذي يتطرّق إلى انبثاق الروح القدس – بين مسائل أخرى– قد نوقش باهتمام عظيم وبفضل أبحاث مستفيضة. . . [تورد الوثيقة بعد ذلك تفصيل تطور المناقشات حول قضية الانبثاق].

فنحن نحدّد ان جسد المسيح هو مكرّس حقًا في خبز الحنطة، سواء أكان فطيراً أم خميراً، وان على الكهنة ان يكرّسوا جسد المسيح هذا، باستعمال كلا الخبزين، بحسب عادات كنيستهم، سواء أكانت غربية أم شرقية [. . .] [يتبع تحديد المواقف حول المصير بعد الموت].

ونحدّد أيضاً ان الكرسي الرسولي والحبر

الروماني يتمتّعان بالأولية في الأرض كلها، وان هذا الحبر الروماني هو خليفة القديس بطرس [. . .].

ونجدّد المحافظة على الترتيب بين سائر البطاركة الأجلاّء، كما سلَّمته إلينا القوانين، وهو ان بطريرك القسطنطينية هو الثاني بعد الحبر الروماني، وان بطريرك الاسكندرية هو الثالث، وان بطريرك انطاكية هو الرابع، وان بطريرك أورشليم هو الخامس، دون المساس بامتيازاتهم وحقوقهم».

ثالثًا – قلق الناس

١. مصائب الدهر

الحرب والطاعون والموت

جاء القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر بالنكبات، وكان أهولها الطاعون الأكبر أو الطاعون الأسود، وهو وباء جاء من آسية واجتاح أوروبا كلها ابتداءً من ١٣٤٧ وعادت هجماته عدّة مرات في نهاية القرن. فهلك ثلث سكّان أوروبا، لا بل أكثر من ذلك في بعض المناطق. وكانت الحرب أيضًا تعيث فساداً على وجه دائم: فلا يخفى على أحد حرب المائة سنة. ولم تكن ضحاياها أولئك الذين سقطوا في ساحات القتال فحسب – إذ كان عدد المحاربين قليلاً إلى حدٍ ما – بقدر ما كانت سكّانَ المدن، وقد نهبتهم أو جوّعتهم الجيوش المتحاربة المنتشرة في أنحاء البلاد. فإن محاضر الزيارات الرعائية تعدّد بلا نهاية الكنائس الخالية من السقوف وبيوت كهنة الرعايا المدمَّرة، واختفاء الأدوات الطقسية. وأمسى الموت هاجس الناس. وكانت النصوص والتمثيليات تشدّد على ما للموت من وجه رهيب: فهناك الجثث العارية المتعفّنة والأفواه الفاغرة، والأحشاء التي التهمها الدود. وكانت رقصات حشرجة الأموات تساوي بين جميع الناس. وكانوا يبكون الراحلين أقلّ ممّا يخشون موتهم، فيحاولون الاستئناس به. فتعدَّدت الكتب في «فن الموت». وفي باريس، كانوا يكدّسون الأموات في مقبرة فيها هيكل عظمي لأحد أطفال بيت لحم الأبرياء، وكان الناس يتردّدون إليها كثيراً.

الشيطان في وسط البشر

وكان الموت الموجود في كل مكان يدعو الناس إلى فحص الضمير. فلأن الله يعاقب الناس على خطاياهم، لا بدّ إذن من التكفير. وإلى هذا الفكر تعود تطوافات الذين كانوا يجوبون المدن وهم يضربون أجسادهم حتى الدم. لكن النكبات لم تكن تتوقّف. فكان من الواجب أن يُكشف عن المسؤولين. وقد يكونوا اليهود فيصبحون الضحايا التكفيرية. لكن ساد الاعتقاد بأن المسؤول الأكبر عن المصائب هو الشيطان، وكان أشدّ استحواذاً على العقول ممّا عُرف في القرون السابقة. فكنتَ ترى حمًّى شيطانية تجوب بلدان أوروبا، ولم تهدأ إلاّ في القرن

السابع عشر. وكان الشيطان يتدخّل بواسطة عمّاله، الساحرين والساحرات. وكانت الساحرات أكثر عدداً من الساحرين، وفي ذلك دليل على أوضاع ذلك الزمن. وكان التعذيب ينتهي بالاقرار، والقمع يغذّي محرقات الألوف من الضحايا. فهناك علم كاذب للاهوت وعلم نفس سيّئ يفسّران كل ظاهرة مرضيّة بأنها فائقة الطبيعة وشيطانية.

٢. أزمة العقل

ان اضطرابات الكنيسة، والنزاعات بين الباباوات والملوك، والانشقاق الكبير إضافة إلى مصائب الدهر زرعت الشك في الأذهان. وفقدت الفلسفة وعلم اللاهوت ما كان لهما من توازن وثبات اكتسباهما في القرن الثالث عشر.

أوكام (Occam)

كان غليوم أوكام (١٢٩٠-١٣٥٠) راهباً فرنسسكانياً انكليزياً عَبَر إلى القارّة الأوروبية ووقف إلى جانب لويس الباڤاري فقاوم البابا يوحنا الثاني والعشرين وهاجم تصوّر البابا للكنيسة، ورفع مرتبة العلمانيين. لا بل ميّز تمييزاً جذرياً بين مجال العقل، أي الفلسفة والعلم، ومجال اللاهوت. ففي نظره، لا يمكن إدراك الله بالعقل، لأن المفاهيم اللاهوتية ليست سوى تراكيب لفظية. فهو يحيل إذاً إلى قراءة الكتاب المقدّس وإلى مثال القديسين. أمّا قدرة هذا الإله الذي لا يدنى منه، فهي اعتباطية.

وِيكْليف (Wyclif)

كان يوحنا وِيكْليف (١٣٢٤-١٣٨٤) لاهوتياً في اكسفورد. وكان يولي الأفضلية للكتاب المقدّس بالنسبة إلى التقليد، ويرفض، باسم فلسفته، الاستحالة في القربان. ولقد دفعه الانشقاق الكبير إلى رفض علم اللاهوت التقليدي في الكنيسة، إذ لا يمكن المطابقة بين الكنيسة والأحبار الذين لا يعيشون بحسب شريعة الله والكتاب المقدّس. فالكنيسة هي مجموع المختارين الذين يرئسهم المسيح. توفّي وِيكْليف في سريره. وبعد وفاته بمدة طويلة، اكتفوا بطرح عظامه في النهر.

هوس (Huss)

لم يكن ذلك شأن يوحنا هوس (١٣٦٩-١٤١٥) الذي كان لاهوتياً في براغا (Prague) والذي تبنّى بعض أفكار وِيكْليف في الكنيسة. ففي البلبلة والمأساة اللذَين أثارهما الانشقاق الكبير لم يعتقد هوس بأن الكنيسة الحقيقية والمؤسَّسة الكنسية هما شيء واحد، فالكنيسة هي جماعة المختارين. وابتغى هوس ان يُصلح تلك الكنيسة الخاطئة، لتعود إلى فقر الانجيل. كانت مواعظه تزداد عنفاً، فصادف في طريقه رجال الاكليرس التشيكي الأغنياء والبابا يوحنا الثالث والعشرين. وأتى إلى قنسطنسيا (Constance) للدفاع عن أفكاره. فحُكم عليه بسبب مفهومه للكنيسة. فأثار إعدامه فتنة في بوهيميا دامت عشرات السنين.

٣. تطوُّر الحياة المسيحية

ان الشعور بالقلق أمام الموت، وعدم الاطمئنان إلى الخلاص وفقدان الثقة بالمؤسّسة الكنسية كانت من العوامل التي ساعدت على تطوير الوجود المسيحي. فالاختبار الشخصي أخذ يتقدَّم على الاستناد إلى السلطة الكنسية. وهذا ما يفسّر، إلى حدٍ ما، الحكم على جان دارْكْ (١٤٣١)، وذلك بأنها كانت أكثر ثقة بالأصوات التي تسمعها منها بالأساقفة والرهبان واللاهوتيين، وكانوا كلّهم ممالئين للإنكليز والبورغينيين. لكن تلك النزعة الفردية اتَّخذت معاني متنوّعة، منها ازدياد الخرافات وقلّة التعمُّق الصحيح في الحياة المسيحية.

تقوى كمّيّة

كان عدم الاطمئنان يدفع بعض الناس إلى البحث عن جميع وسائل الخلاص. فنتج عن ذلك اشتداد لبعض الملامح التي سبق ذكرها. وكثيراً ما كان تكريم القديسين والذخائر مبتذلاً وخالياً من التقوى الحقيقية، فأصبح في ذروة انتشاره. وأخذ ملك فرنسا لويس السادس عشر (علماً بأنه لم يكن متّزناً كما يجب) يوزّع على أقربائه أضلاع جدّه القديس لويس. وكان الأقارب يقطّعونها. وكثُر عدد الغفرانات، وأصبحت التقوى كمّيّة، فكانوا يجمعون القداديس، وأخذ بعض الكهنة «المذبحيّون (Altaristes)» يقضون أوقاتهم في إقامة القداديس كوسيلة للرزق... وكانت تقوى بعض الناس، ولا سيّما الأمراء، تقوى تشنّجية، إذ كانت نوبات التخشّع تخلف انفجارات المجون.

التعمُّق الديني والتصوُّفي

وكانت تلك التقوى محرّكة للعواطف أيضاً ومركَّزة على إنسانية يسوع ومريم. قال أحد الكتّاب إن العالم المسيحي نال عطية الدموع. فكان على كل مسيحي ان يتألّم مع المسيح ويشعر بآلامه. كانت نهاية القرون الوسطى فترة تعمّق ورجوع إلى الباطن على الأقل، عند أفضل الناس. ولقد شهدت أوائل القرن الرابع عشر ازدهار تصوّف مبنيّ على علم اللاهوت، فالدومينكانيّون إكّارت (Eckhart) (١٢٦٠-١٣٢٧) وطولر (Tauler) (١٣٠٠-١٣٦١) وسوزو (Suzo) (١٢٩٥-١٣٦٦)، ثم الكاهن الفلمندي رويسبروك (Ruysbrock) (١٢٩٣-١٣٨١) هم من أمثال التصوّف الريناني (Rhénan)، أي السعي إلى الاتحاد بالله عن طريق تجاوز كلّ تصوُّرٍ له، وهو ما يسمّى باللاهوت السلبي. وفي منعطف القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر، اجتذبت الرغبة في حياة روحية مكثَّفة بعضَ الرجال والنساء خارجَ الأديرة. فشكّلوا أحياناً مجموعات صغيرة أو رهبانيات ثالثة* كرهبانية كاترينا السيانية (١٣٤٧-١٣٨٠).

وكانت تلك الرهبانيات الثالثة أكثر اندماجاً في مجتمعها، وكانت تشدّد بقوة على النفسية الرهبانية وعلى طرق التقدّم في الحياة الروحية. وهي تقترح، في مؤلَّفات في متناول عدد أكبر من الناس، تمارين روحية. ففي شأنها يدور الكلام عن تيار «التعبُّد العصري». وأشهرها كتاب «الاقتداء بالمسيح»، الذي كثيراً ما نُسب إلى توما الكمبيسي («a Kempis»)

* يُقصد بالرهبانية الثالثة: جمعية من العلمانيين المرتبطين بروحانية وفرض الرهبانية الأصلية: الدومنيكانية، الفرنسيسكانية، الكرملية الخ. وتدعى ثالثة لأنها تأتي بعد فرعي الرجال والنساء.

(١٣٨٠-١٤٧١). وقد ابتعد العديد من الناس عن تصوّف بدا لهم نظرياً أكثر ممّا يجب، فوقفوا حياتهم على تربية الشعب المسيحي. كان يوحنا جرسون (Gerson) (١٣٦٣-١٤٢٩) مديراً للدروس في جامعة باريس ولاهوتياً في مجمع قُسطنسيا، فقضى كثيراً من وقته في الوعظ والارشاد الروحي وتربية الأولاد الدينية. ففي أجواء التعبّد العصري هذه سينشأ رجال النهضة والاصلاح، ومنهم، على سبيل المثال، ايراسمس (Erasme) ولوثر.

التعبُّد العصري: الاقتداء بالمسيح

«مَن شاء أن يتفهّم كلام المسيح ويتذوَّقه، عليه أن يسعى إلى الاقتداء بسيرته. أيّ نفع لك من جدال في الثالوث حاذق، إن فاتك التواضع، ولم يرضَ عنك الثالوث؟ ليس في سموّ الكلام قداسة أو برارة، إنّما يستحب الله السيرة الصالحة... لو استظهرت الكتاب المقدّس كله وجميع تعاليم الفلاسفة، فأي نفع لك منها، ونعمة الله ليست فيك ولا محبته؟ يا لبطلان الوجود! كل شيء باطل ما عدا حبنا الله وعبادتنا إيّاه وحده. إنّما الحكمة كل الحكمة ان يدفعك ازدراء الدنيا إلى ملكوت السماء (١/١)...

ان قروياً وضيعاً يعبد الله خير من عالم متعجرف يرقب دوران الفلك، وهو عن نفسه غافل... خفّف من ولعك بالعلم، فما ثمّ غير طيش مبين وغرور... ان لاح لك انك عالم بأمور كثيرة ومدركها إدراكاً، فاعلم ان ما فاتك هو فوق ما لديك... ان أسمى بحث وأنفعه، ان يصيب الانسان معرفة نفسه فيزدريها (٢/١)...

لا يحملنّك غرض من الاغراض، أو حب إنسان من الناس، على فعل الشر، لكنك إذا كان ثمّ نفع لمحتاج، يجمل بك ان تتوقّف عن عمل صالح أو ان تغيّره بما هو أصلح منه (١٥/١)...

ملكوت الله في باطنكم، يقول الرب. تب إلى الرب بكل قلبك، ودعِ عنك الدنيا وشرّها تجد راحة لنفسك. تعلّم ان تحتقر الأمور الخارجية، وان تتمرّس بالأمور الباطنية، ترَ ملكوت الله مقبلاً إليك (١/٢)...

بنيَّ، لن تستطيع ان تثبت على التشوّق

الحار إلى الفضيلة، وتستمرّ على تأمّل الرؤى السامية. ولا بدّ لك من ان تنحدر من حين إلى حين، من جرّاء فساد الجنس البشري، إلى أسفل دركات الأرض، وان تحمل عبء هذه الحياة، مرغماً سؤوماً». (٥١/٣).

رابعًا – أحوال كنائس الشرق

١. كنائس العالَم الصقلبي (السلافي)

كانت **الكنيسة البلغارية والكنيسة الصربية** تتأرجحان بين الارتباط بالقسطنطينية والارتباط برومة. ولكن، بما أنّهما وريثتا كيرلّس ومتوديوس، فهما تستوحيان من القسطنطينية أولاً في وضع ليترجيتهما وحياتهما الرهبانية وشرعهما الكنسي. وفي القرن الثالث عشر، حصلتا على استقلالهما. ولمّا سقطت الدولتان في أيدي الاتراك، دخلت كنيستهما في الظلّ.

كانت إمارة كييف (Kiev) قلب **الكنيسة الروسية الأولى** حتى ١٢٤٠، وهو تاريخ تدمير كييف عن يد المنغوليين. وكانت القسطنطينية تعيّن متروبوليت كييف وتقدّم للروس ليترجيتها وأساليبها الفنّية (كنيسة القديسة صوفيا في كييف). وكان أمراء كييف يقيمون علاقات حسنة مع الغرب اللاتيني: تبادل تجاري وزواجي. وبعد ١٢٤٠ حلّت إمارات الشمال الروسية وإمارة موسكو خاصة محلّ كييف وحاربت المحتلّين المنغوليين. ولم تتحسّن العلاقات قط بين روس الشمال واللاتين. وفي ١٢٤٢، صدَّ القديس الاسكندر نفسكي (Nevski)، أمير نوفغورود (Novgorod)، هجمات الفرسان التوتونيين (Teutoniques)، وهم رهبانية عسكرية ألمانية تغيّرت أهدافها بعد فقدان الأراضي المقدّسة. وفي ١٣٢٥، أقام متروبوليت جميع البلاد الروسية في موسكو.

وبعد رفض الاتّحاد الذي تمّ في فلورنسا، عُقد مجمع روسي أعلن استقلال الكنيسة الروسية، وانتخب متروبوليت موسكو (١٤٤٨) بطريركًا لها.

٢. نهاية الأمبراطورية البيزنطية

ان **الأمبراطورية البيزنطية**، التي أُعيد تكوينها في ١٢٦١، بعد زوال أمبراطورية القسطنطينية اللاتينية العابرة، ناضلت حتى اليأس مدّة قرنين في سبيل بقائها ولم يبقَ منها بعد قليل سوى «جزيرتين صغيرتين» حول القسطنطينية على البسفور وحول مِسْترا (Mistra) في البيلوبونيز (Péloponèse). وفي نيسان (أبريل) ١٤٥٣، حاصر الأتراك المدينة. وفي ٢٨ أيار (مايو)، جابت التطوافات المدينة، واحتفل برتبة أخيرة في كنيسة القديسة صوفيا. ومنح الأمبراطور قسطنطين الأسرار الأخيرة. وفي صباح ٢٩ أيار (مايو)، أخذ الأتراك المدينة عنوة. وسقط الأمبراطور مقاتلاً فوق الأسوار. ودخل السلطان محمد الثاني، راكبًا حصانه،

في كنيسة القديسة صوفيا، المفروشة بالجثث. وبذلك سقطت رومة الثانية، فتسلّمت موسكو التراث، معلنةً نفسها «رومة الثالثة» (١٤٦١)، وقد ظنّت ان سقوط القسطنطينية كان بسبب انحرافها عن «الأرثوذكسية».

٣. الروحانية الشرقية

هناك عدّة أمور مشتركة تقرّب بين تلك الكنائس البلغارية والصربية والروسية واليونانية، ومنها روحانيتها المستوحاة من الروح الرهبانية وتقاليدها الفنّية الملخّصة في الأيقونات.

لقد امتلأ جبل آثوس المقدّس بالأديرة التي تمثّل جميع جنسيات الكنيسة الأرثوذكسية. وبعد الاقامة في جبل آثوس، كثيراً ما كان الرهبان يعودون إلى بلادهم الأصلية، وكثيراً ما كانت الكنائس تنتخب من بينهم الأساقفة والبطاركة. ومنهم القديس غريغوريوس السينائي والقديس ثيودوسيوس الطرنوفي (de Tarnovo) (القرن الرابع عشر) في بلغاريا، والقديس سابا في صربيا، والقديس سرجيوس (١٣١٤-١٣٩٢)، مؤسس دير الثالوث الأقدس في وسط الغابات في شمال موسكو، وغريغوريوس بالاماس (١٢٩٦-١٣٥٩)، وهو راهب في جبل آثوس، ثم رئيس أساقفة سالونيق... وهو الذي وضع تلخيصاً لاهوتياً للتيّار الروحاني الكبير في الحياة الرهبانية الأرثوذكسية، أي «السكينة»، وهي، في وقت واحد، نظرية وممارسة «للمشاهدة» التي



غريغوريوس بالاماس

يمكن تحديدها بأنها السعي إلى الراحة في الله.

ولقد حفظ العديد من كنائس الأديرة فسيفساءات من تلك الحقبة التاريخية ورسوماً جدارية وايقونات. وكل الناس يعرفون أيقونة الثالوث الأقدس التي رسمها الراهب الروسي اندراوس روبليف في ١٤١١.

٤. الأدب المسيحي العربي في القرون الوسطى

من المسلّم به أن المسيحيين قاموا بدور في العالم العربي قبل الاسلام وبعده. والكتابات العربية الشمالية كُتبت في بيئة مسيحية حيث نجدها على أبواب الكنائس في جنوب شرقي



أيقونة الثالوث (أندره رُبليف)

حلب وحرّان وغيرهما، كما ظهر في الجاهلية شعراء مسيحيون كعدي بن زيد، وخطباء كقس بن ساعدة وأطباء كالحارث بن كلدة الشقفي . . .

لكن النصارى برزوا بنوع خاص في عهد الأمويين فالعباسيين. فنقلوا عن السريانية واليونانية كتب الطب والهندسة والكيمياء والفلسفة . . . واشتهر منهم أبو زكريا يوحنا بن ماسويه، مدير بيت الحكمة أيام المأمون، وكذلك حنين بن اسحاق، أيام المتوكّل. ثم بختيشوع وابن البطريق وقسطا بن لوقا الخ . . .

وجدير بالذكر ان منهم مَن كتب في الأمور الدينية كإيليا مطران دمشق وسويرس بن المقفّع، أسقف الأشمونين بمصر وأبناء العسّال المصري، وابن الطيّب الطبيب والفيلسوف البغدادي . . . ولدينا كتابات تدل على عمق تفكيرهم الفلسفي واللاهوتي. كما ان مكتباتنا تحتفظ بمقالات تختصر لقاءات وجدالات دينية بين المسيحيين والمسلمين في حضرة الخليفة. ممّا يدلّ على تسامح الخلفاء وحب الاطّلاع والانفتاح الحضاري. ولعلّ هذه الروح الرحبة تكون حافزاً اليوم لمواصلة الحوار بين المسلمين والمسيحيين في البلدان العربية. فالمسيحيون يرغبون في التلاقي وفي العمل مع إخوانهم المسلمين على تطوير الحضارة العربية المشرقية التي تجمعهم حول تراثهم المشترك.

صلاة يسوع

ان **نيقيفور** (Nicéphore) **المتوحّد** (في النصف الثاني من القرن الثالث عشر)، المولود في كالابريا (Calabre)، والمترهّب في القسطنطينية، ثم في جبل آثوس، ألّف مقالاً في «حراسة القلب»، عرض فيها طريقة في الصلاة تستخدم تقنيّات نفسية فيزيولوجية.

«قبل كل شيء، لتكن حياتك هادئةً خالية من كل همّ ومسالمةً جميع الناس. وعندئذٍ، أدخل غرفتك وأغلق على نفسك، واقعد في زاوية واعمل بما أقوله لك:

أنت تعلم بأن نَفَسنا، الهواء الذي نتنشّقه، لا نُخرجه إلاّ بسبب القلب . . .

فاجلِس وجمّع روحك وأدخله – أقول: روحك – في منخاريك. فهذا هو الطريق الذي يسلكه النفس للذهاب إلى القلب. إدفعه وأرغمه على النزول إلى قلبك، مع الهواء الذي تنشّقته. ومتى صار في قلبك، ترى الفرح الناتج عن ذلك، فلن تندم على أيّ شيء. وكما ان الرجل الذي يعود إلى بيته بعد غياب لا يستطيع ان يحبس سروره برؤية امرأته وأولاده، كذلك الروح، عندما يتّحد بالنفس، يفيض فرحًا ولذة لا توصف.

فعوِّد، يا أخي، روحك على عدم الاسراع في الخروج من نفسك.

وبينما روحك هناك، لا يجوز لك ان تصمت ولا أن تبقى بطّالاً. ولا يكن لك شغل ولا تأمّل غير هذا الصراخ: «أيها الرب يسوع المسيح، ابن الله، ارحمني». لا تقف مهما كلّف الأمر. وهذه الممارسة، وهي تحفظ روحك في مأمن من الشرود، تبعد عنه وساوس العدو، وتسمو به كل يوم في المحبة والشوق إلى الله».

في نهاية خمسة عشر قرنًا...

في أواسط القرن الخامس عشر، بدا المقام البابوي وكأنه استعاد بهاءه وهيبته. فأمّ رومة جمهورٌ غفير لمناسبة يوبيل السنة ١٤٥٠ المقدّسة. فاستطاع البابا ان يؤكّد مرّة أخرى أن «الأحبار الرومانيين هم معلّمو البشر وكل ما يمتّ إلى الانسان». فهل أوشك العالم المسيحي ان يعيش مرة أخرى أحداث القرن الثالث عشر؟

ولكن هل كان جائزًا عندئذ أن يُقال ان هنالك عالمًا مسيحيًا؟ لقد أصبحت أوروبا أوروبا الأمراء. وكشفت حرب المائة سنة، التي انتهت في ١٤٥٣، أن هناك صراعات قومية وأنها ستشتدّ في المستقبل. لم يؤخذ البابا بيوس الثاني (١٤٥٨–١٤٦٤) بالأوهام، بل أدلى بهذه الملاحظة: «لم يبقَ للعالم المسيحي رئيس يحترمه ويقبل ان يطيعه، ولم يعد لَقَبا الأمبراطور والحبر الأعظم يمثّلان في نظر العالم المسيحي سوى اسمَين لا حقيقة لهما، واللّذان يحملانهما لم يعودا في نظره سوى صورتَين فارغتَين». ولقد تصرّف باباوات نهاية القرن الخامس عشر أنفسهم كأمراء إيطاليين أكثر ممّا تصرّفوا كأحبار للكنيسة الجامعة.

قد جرى كل ذلك، مع انه كان لدى شعوب أوروبا أسباب وجيهة تدفعهم إلى الاتحاد تحت مثال أعلى مشترك. فلقد زالت الأمبراطورية الرومانية في القسطنطينية التي أصبحت اسطنبول، وكان الأتراك يزحفون بخطوات واسعة إلى قلب أوروبا. فكانت أفضل مناسبة للقيام بحملة متحدة لصدّ الهجوم والدفاع عن العالم المسيحي. فلم يحضر إلى ميعاد انقونا (Ancône) إلاّ بعض المغامرين، ومات البابا حسرةً ومرارةً (١٤٦٤).

ذلك لأن حقبة تاريخية قد انتهت، وظهرت بشائر أزمنة جديدة. فقد رافق العودةَ إلى الينابيع القديمة، التي انبثقت منها الآداب

والفنون، تجدّدٌ في الثقافة أخذ يتغلغل في الحياة اليومية. غابت سيطرة الكنيسة عليه، كما كانت قد سيطرت على الحياة العقلية في القرون الماضية. وأوشكت المطبعة الناشئة ان تقلب أوضاع التبادل بين البشر. فمن الذي سيتحكّم في ذلك؟

كان العالم المسيحي اللاتيني قد نجح، بالرغم من خلافاته وانقساماته، أن يستعيد وحدته في القرون الوسطى. لكن انفصال حركة الاصلاح، في مطلع القرن السادس عشر، سيكون نهائيًا.

ففي جنوب القارة الأوروبية، وطئت أقدام البرتغاليين أرض أفريقيا (١٤١٥) وستتبعها اسبانيا وهولندا. فكان ذلك بدايةً لاكتشاف العالم الجديد. وكان طريق الكنيسة إلى الشرق مسدوداً. فهل كان يخطر ببالها أن مستقبلها لم يعد في إحياء وحدة العالم المسيحي الأوروبي، بل في إعلان البشارة للعالم كله؟

الفصل الحادي عشر

عصر النهضة والإصلاح

(من نهاية القرن ١٥ إلى القرن ١٦)

المقدّمة

ابتداءً من القرن السادس عشر، يتّسم تاريخ الكنيسة بعدد من الميزات الجديدة. سبق للكنيسة اللاتينية والكنيسة الشرقية ان أخذتا تسلكان طرقاً مختلفة منذ عدّة قرون. أمّا في زمن الإصلاح، فالكنيسة اللاتينية هي التي انقسمت إلى كنائس متنافسة. وفي الوقت نفسه، وعلى أثر الاكتشافات الكبرى، أُعلنت البشارة في العالم بأسره. وفي حين كانت الدول تشتدّ شوكتها والحكم المطلق ينتصر، أصبح تاريخ الكنيسة غالباً، حتى في العالم الكاثوليكي، تاريخ كنائس وطنية. وليس من الأمور السهلة ان تعرَض تلك الوجوه كلها في مؤلَّف وجيز. لقد اجتهد الكاتب، قدر المستطاع، ان يُفسح المجال لجميع الكنائس المسيحية وللكنائس الجديدة في ما وراء البحار.

في نهاية القرن الخامس عشر، ظهرت الأمم العصرية، التي تطلّعت إلى الاستقلال عن الدولتين القديمتين، أي البابوية والأمبراطورية الالمانية، وحدث تجديد ثقافي عميق أُطلق عليه اسم النهضة، وساعد اختراع المطبعة على انتشار مؤلَّفات الحضارة القديمة، الدنيوية والدينية، في كل مكان. وأراد بعضهم العودة إلى الجذور، أي إلى نصوص الكتاب المقدّس وآباء الكنيسة، ليطهّروا الكنيسة من الشوائب التي ظهرت على مرّ القرون، إذ إنّ مؤسّسات كنسية كثيرة لم تعد تلبّي رغبات المسيحيين. فقام، في مطلع القرن السادس عشر، أناس صمّموا على الشروع في إصلاح الكنيسة. ولكن، على أثر سوء التفاهم وأعمال العنف المتبادلة من الطرفين، أدّى ذلك الاصلاح، مع الأسف، إلى تمزُّق الكنيسة الغربية. وفي أواخر القرن السادس عشر، ظهرت ملامح جديدة لجغرافية دينية ما زالت قائمة إلى أيّامنا.

أوّلاً – أوروبا النهضة

١ . نشأة الدول العصرية

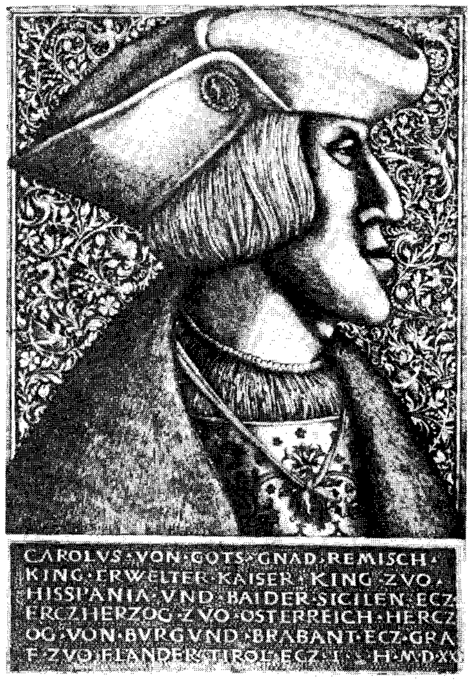
فرنسا وإنكلترا وإسبانيا

اتّخذت عدة بلدان أوروبية ملامح الدولة بالمعنى الشائع في أيامنا: فهناك العاهل القوي، والمالية، والجيش. وأدَّت حرب المائة سنة، التي انتهت في ١٤٥٣، إلى تحديد أراضي كلٍّ من فرنسا وانكلترا. وفي فرنسا، وطّد الملوك سلطتهم في جميع المجالات. ففي ١٥١٦، نال الملك فرنسوا الأول من البابا لاون العاشر، بمعاهدة بولونيا (Bologne)، حقّ تعيين جميع أساقفة المملكة ورؤساء أديرتها، فكان له بذلك سلطة واسعة جداً على كنيسة فرنسا. ولم تكن انكلترا إلاّ مملكة صغيرة، ومع ذلك قام أحد ملوكها، هنري الثامن (١٥٠٩–١٥٤٧)، بدور طليعي في أوروبا سياسياً ودينياً. وأدّى زواج ايزابيلا القشطيلية (Isabelle de Castille) وفرديناندس الأرغوني (Ferdinand d'Aragon) إلى ترسيخ الوحدة الاسبانية (١٤٦٩). وكان الاستيلاء على غرناطة (١٤٩٢)، المعقل العربي الأخير، توكيداً لاستعادة الأراضي الاسبانية وتوحيدها نهائياً. وكان «الملوك الكاثوليك» يولون عنايتهم لمصالح الكنيسة، معتبرين ايَّاها من مصالح الدولة. فأعادوا تنظيم محاكم التفتيش (١٤٧٨)، فأصبحت مؤسَّسة وطنية يستخدمونها لمصلحتهم. وكانت هذه المحاكم تلاحق بلا رحمة جميع الهراطقة واليهود الذين لم يكن اهتداؤهم تاماً.

أوروبا الشمالية والشرقية

كانت بولندا مملكة كبيرة ذات حدود غير مُحكمة، تمتدّ من ليتوانيا إلى أُكرانيا، ولها مؤسَّسات سياسية واهية، وكانت تشكّل حدود المسيحية اللاتينية أمام العالم المسيحي الأرثوذكسي. وكان ملكا موسكو الروسيان، ايڤان الثالث (١٤٦٢–١٥٠٤) وايڤان الرابع الرهيب (١٥٣٠–١٥٨٤)، يعتبران نفسيهما وارثَي القسطنطينية، وموسكو رومة الثالثة. وكانت علاقاتهم بأوروبا الغربية نادرة.

ومنذ أن استولى الأتراك على القسطنطينية (١٤٥٣)، استمروا يتقدّمون إلى قلب أوروبا الشرقية، مسيطرين على سُكّان البلقان المسيحيين الأرثوذكس ومعرِّضين بلدان الغرب المسيحي، المجر والنمسا. للخطر ... لا شك ان الكنيسة اليونانية حافظت، تحت الحكم التركي، على نظامها الإداري: حصانة بطريرك القسطنطينية والأساقفة، المتمتّعين بسلطة مدنية على جميع المسيحيين في الأمبراطورية العثمانية، ولكن تحت إمرة السلطان. ومع ذلك، كان المسيحيون يعيشون في عزلة، ولا يجوز لهم أن يبشّروا المسلمين، وكان الفساد يشوب انتخاب المسؤولين الدينيين، إذ كان السلطان يتحكّم في تعيين البطاركة، فكانوا يتعاقبون الواحد بعد الآخر. واعترف بطريرك



الامبراطور شارل الخامس

القسطنطينية، في آخر الأمر، باستقلال الكنيسة الروسية ورسم هو نفسه أوّل بطريرك على موسكو في سنة ١٥٨٩، ولكنه سعى، بالمقابل، إلى إخضاع سائر كنائس الأمبراطورية العثمانية لنفسه: صربيا وبلغاريا ورومانيا...

الأمبراطورية الرومانية الجرمانية المقدّسة

كان انتخاب الأمبراطور يتمّ عن يد الأمراء المنتخِبين السبعة، ولكن سلطته على العديد من الإمارات الألمانية كانت شبه معدومة. ومع ذلك، فمنذ ١٤٣٨، كان الامبراطور يُنتخَب دائماً من أُسرة هَبْسْبورغ (Habsbourg) (النمسا). وفي ١٥١٩، حين انتُخب شارل الخامس (Charles-Quint)، أصبح، في الوقت نفسه، وريث أراضي هَبْسْبورغ وبورغونيا (Bourgogne) ومملكة اسبانيا. وبإضافة الأراضي التي استولت عليها اسبانيا في العالم الجديد، لا عجب ان نرى شارل الخامس يحلم بالسيطرة على العالم بأسره. ولكنه اصطدم بجاره ملك فرنسا وبالبابوية.

العثمانيّون

اتّخذت إحدى قبائل الأناضول في القرن الرابع عشر اسم أميرها عثمان الأوّل. وقد عُرفت بشجاعتها وتمرّسها بالحروب. فهاجم العثمانيّون جيرانهم البيزنطيّين وإمارات شرق أوروبا فاحتلّوا اليونان والبلقان سنة ١٣٧١، ثمّ أرمينيا وقبرص سنة ١٥٧١، وكذلك ألبانيا ورودس والمجر، ووصلوا إلى بولندا وهدّدوا فيانّا. كما احتلّوا بغداد والحجاز فسورية ومصر وتونس والجزائر وأصبحوا أسياد البحر المتوسط دون منازع.

لكنّ مدينة القسطنطينية قاومت طويلاً إلى أن سقطت سنة ١٤٥٣، بعد أن تخلّى عنها الغرب، لخلافات بين الكنيستين الشرقيّة والغربيّة ولضعف الغرب بسبب أحداث وانقسامات داخليّة.

وأصبحت الأمبراطوريّة العثمانيّة السيّدة المطلقة في آسية الصغرى والبلدان العربيّة وأوروبا الشرقيّة وافريقيا الشمالية. لكنّ دلائل الضعف بدأت تظهر عليها مع نهاية القرن السابع عشر،

حتى إنّها دُعيت «الرجل المريض».

كان السلطان سليم الأول قد اتّخذ لنفسه لقب «خليفة المسلمين»، الذي كان قد زال مع سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢.

وكان عهد بني عثمان مليئاً بالمظالم والتعسّف واضطهاد المسيحيّين الذين خيّرهم السلطان سليم الأول بين الموت والدخول في الإسلام، كما أمر بتحويل كنائسهم إلى جوامع بدءًا بباسيليكا آجيا صوفيا، كنيسة أمبراطور القسطنطينية. وتمكّن أثرياء الروم من الحفاظ على بعض الكنائس عن طريق رشوة رجال الدولة.

لكنّ اتّباع هذه الأمبراطوريّة وتعدّد القوميّات فيها التي لم تنصهر تماماً ودسائس البلاط وثورات الانكشاريّة عجّلت في سقوطها. وقد تمّ ذلك مع نهاية الحرب الكونيّة الأولى سنة ١٩١٨.

البابوية

منذ الانشقاق الكبير والأزمة المجمعية (راجع المجلّد الأول، الفصل العاشر)، فقد المقام البابوي شيئاً من نفوذه. كان الباباوات أمراء ايطاليين، فتدخّلوا شيئاً فشيئاً في قضايا ايطاليا التي أصبحت ساحة معركة بين فرنسا وأسرة هبسبورغ. وكان الباباوات يعملون على إثراء عائلاتهم، وكانت أعياد البلاط الروماني باهظة النفقات، تحوّلت أحياناً إلى القصوف على عهد الاسكندر السادس بورجيا (١٤٩٢-١٥٠٣) الذي اشترى انتخابه وكان سبب عثرة لأهل زمانه. ومن المعروف أن البابا يوليوس الثاني (١٥٠٣-١٥١٣) كان رجل حرب وقتال. مع ذلك فإن هؤلاء الباباوات أسهموا في التجديد الفني والأدبي لعصر النهضة بفضل الدور الذي قاموا به في تشجيع الفنون والآداب وبفضل ما أوصوا به من مبانٍ ورسوم.

٢. التجديد في الآداب والفنون والعلوم

كان المثقّفون في منتصف القرن السادس عشر يشعرون بأن تجديداً عجيباً في الثقافة قد تمّ في بضع عشرات من السنين. وقال أحدهم: «في قرن واحد، شاهدنا عند العلماء تقدُّماً أكبر من التقدّم الذي عرفه أجدادنا على مدى القرون الأربعة عشر التي سبقت».

لم تكن النهضة انقطاعاً جذرياً عن القرون الوسطى، ولكنها عادت فاكتشفت الحضارة القديمة في جميع أشكالها: من آداب وفنون وعلوم. وفي ايطاليا التي هي أقرب البلاد إلى ماضيها اللاتيني، أولى الأدباء اهتماماً حارًّا بالأدب القديم الراقد في الأديرة. ولمّا هرب العلماء البيزنطيون من القسطنطينية، جاؤوا إلى الغرب بالكثير من المخطوطات اليونانية. والمطبعة، التي تمَّ إنجازها عن يد غوتَمْبرغ (Gutemberg) في منتصف القرن الخامس عشر، أحدثت ثورة في نقل الفكر. فالمؤلَّفات التي كانت منحصرة في بعض المخطوطين انتشرت انتشاراً واسعاً. فهناك طَبع كتب



غوتمبرغ أبو المطبعة

القدماء غير الدينية، وكتب آباء الكنيسة، والكتاب المقدَّس، والكتب الروحية. وأكثر الكتب التي طُبعت أولاً هي الكتب الدينية. فلقد ظهر التعطش إلى المعرفة والعمل في جميع المجالات: من معارف الأدباء المدرسيين الموسوعية، إلى مآثر القادة المأجورين والفاتحين التي لا حدّ لها.

درس الآداب القديمة والإيمان المسيحي

كان المتضلّع من الثقافة القديمة رجل النهضة المثالي، فكان يرتشف من ينابيعها الغزيرة إثراءً لحياته وهدايةً لأمثاله. وكان اتجاه بعض المتضلّعين من الثقافة القديمة اتجاهاً وثنياً، كما هي حال مَكْيافيلّي (١٤٦٩-١٥٢٧) في مؤلَّفه «الأمير»، لكن معظمهم بقي مسيحياً يرغب أن تُحسِّن أعماله أوضاع الكنيسة والمؤمنين. وبين الكثير من الآخرين، يُعدُّ توماس مور (Thomas More) (١٤٧٨-١٥٣٥) أخفّ الأدباء المسيحيين ظلاًّ. كان مسيحياً ورعاً وربَّ عائلة صالحاً ووزير مالية انكلترا، ومع ذلك كان مثالاً في الظَّرف. وفي كتابه «الأوتوبيّا» (Utopie) (١٥١٦) - وهي كلمة ابتدعها توماس مور وتعني «عدم وجود شيء في أيّ مكان» - ينتقد انتقاداً فكاهياً مجتمع زمانه السياسي والديني. وكان ثابتاً في إيمانه، حتى بلغ به التمسُّك بالكنيسة الرومانية إلى الاستشهاد.

إيرَسْمُس الروتردامي (Erasme de Rotterdam) (١٤٦٩-١٥٣٦)

عُدَّ إيرَسْمُس «أمير المتضلّعين من الثقافة القديمة». وكان شخصية متنوّعة الوجوه تعبِّر عن دقائق الأمور. وُلد من أب كاهن، وأصبح هو أيضاً راهباً وكاهناً. وكان شغوفاً بالآداب القديمة، فغادر ديره وطاف في أنحاء أوروبا سعياً وراء الاجتماع بالأدباء وبحثاً عن المخطوطات، فعاش في فرنسا وانكلترا وايطاليا وألمانيا، وتوفّي في بال (Bâle). وكانت له مراسلات واسعة مع جميع طبقات الناس. وفي كتابه «مديح الجنون» (١٥١١)، وهو أشهر مؤلّفاته، يجعل الكلام على لسان الجنون الذي يتحكّم في العالم. فيهجو ايرسمُس جميع فئات المجتمع هجاءً لاذعاً، وينتقد جميع الأوساط الاجتماعية نقداً لاذعاً. ونجد القريحة نفسها في



إيرسمس

«المناجاة» التي تتحدَّث فيها شخصيَّات كثيراً ما تثير الضحك. لكنَّ أهمّ أعمال ايرسمُس هي النشر، فلقد عرَّف، في عدّة مطابع أوروبية، بعدد كبير من المؤلِّفين المجهولين، ولا سيَّما من آباء الكنيسة. وأمَّا أشهر منشوراته النقدية، فهو العهد الجديد باليونانية (١٥١٦). ألَّف إيرسمُس أيضاً مقالات في شتَّى المواضيع، كالتربية المسيحية والزواج والحرب والسِّلم والأزمة اللوثرية.

وتوخَّى إيرسمُس، في جميع أعماله الأوروبية، أن «**يجدّد الانسان بتطهير الدين وبتنصير الثقافة**». أراد أولاً ان يجدّد علم اللاهوت بالعودة إلى الجذور، أي إلى نصوص الكتاب المقدّس الأصلية وإلى مؤلَّفات آباء الكنيسة، فهي تساعد على تفسير الكتاب المقدّس تفسيراً صحيحاً. أمَّا هدف علم اللاهوت فواحد، وهو اكتشاف المسيح، بعيداً عن المناقشات الجوفاء التي لا تفيد شيئاً في تحوّل الإنسان الباطني. ولا بدّ ان يكون الإنجيل في متناول جميع الناس وفي جميع اللغات: ففي العظة على الجبل، يستطيع الناس ان يكتشفوا حكمة بسلوكهم في الحياة. ولا بدّ من الرجوع إلى ديانة باطنية مطهَّرة من جميع شوائبها ومتقبِّلة كل ما هو صالح عند الكتَّاب القدماء. فليس «التديّن، في آخر المطاف، إلاَّ صداقةً حقيقية تامة».

أحبّ ايرسمس أن يبني سياسته على الانجيل، وأراد ان يتلقّى الأمراء المسيحيون تربية تنسجم مع هذه السياسة. وأظهر ايرسمس أنه نصير قوي للسلام، فرأى في تقاتل المسيحيين أمراً فاضحاً. وأضاف ان الناس ليسوا أقلّ قدرة على ايقاف الحرب منهم على شنّها، وأنه من شأن التضامن المسيحي ان يعزّز اللجوء إلى التحكيم، فكان لإيرسمس نفوذ كبير عند جميع الذين كانوا يصبون إلى قيام إصلاح سلميّ في الكنيسة. ولكن أنصار العنف ما لبثوا أن تغلَّبوا. كان إيرسمُس يعارض التبسيط المُخلّ فلم يستطع ان يكون زعيماً.

الدين في رأي إيرسمُس

وضع إيرسمُس كلّ رجائه في معرفة أفضل للكتاب المقدَّس، فلا يكفي ان نتوصَّل إلى معرفة النص الأصلي، سواء كان عبرياً أو يونانياً، بل لا بدّ من نقل الكتاب المقدّس إلى جميع اللغات. فإنه يحتوي على ما في الحياة من حكمة حقيقية، ومن فلسفة في متناول جميعِ الناس أتانا بها المسيح.

«من كان جمهور المسيح نفسه؟ ألم يكونوا خليطاً من العميان والشحَّاذين والعشَّارين وقادة المائة والحِرَفيّين والنساء والأولاد؟ فكيف يحرجه أن يقرأه أولئك الذين أراد ان يصغوا إليه؟ في الحقيقة، سيقرأ مؤلَّفاته الحارث والحِرَفي والسارق والبغيّ والقوَّاد وحتى الأتراك. فإن لم يصرفهم هو عن سماع كلامه، لن أصرفهم أنا عن قراءة كتبه. . .

يريد المسيح ان تنتشر فلسفته إلى أبعد ما يمكن. إنه مات من أجلنا، فيريد ان يكون معروفاً لدى جميعِ الناس. ولا شك ان هذا الهدف سوف يُدرِك، لو نقلت كتبه إلى جميع اللغات في جميع البلدان، أو لو تعلَّمت جميع الشعوب، بفضل الأمراء، اللغتين (العبرية واليونانية) اللتين كُتبت فيهما تلك الفلسفة الإلهية. . .

وأخيراً، ما الذي يمنع ان يقرأ كل واحد الإنجيل بلغته التي يفهمها، الفرنسي بالفرنسية، والانكليزي بالإنكليزية، والألماني بالألمانية، والهندي بالهندية؟ يبدو لي أقلّ لباقة، لا بل مُضحكاً، ان يقوم رجال ونساء لا ثقافة لهم كالببَّغاء، بترنيم المزامير وصلاة الأحد باللاتينية، بدون أن يفهموا ما يقولونه!».

(ايرسمُس، «تنبيه إلى القارئ»)

٣. كنيسة لا تلبّي رغبات المسيحيين

إن نظرة بعض الأدباء التفاؤلية لا يمكن أن تحجب ذلك القلق الشديد الذي كان يعمر قلوب الناس في نهاية القرن الخامس عشر. كانت التكهُّنات حول سفر الرؤيا تسير سيراً حثيثاً، فكانوا لا ينقطعون عن الإنباء بنهايةٍ قريبة للعالم. وكان عدم الاطمئنان في شأن الخلاص يؤلم المسيحيين الذين يتنازعهم الإيمان بإله قدير معروفٍ باختياراته الجبرية، وتهديد شيطان يرونه في كل مكان. ذلك أن عصر النهضة يتزامن مع المزيد من الانصراف إلى السحر وإلى ملاحقة الساحرات. ولقد أصدر البابا اينوقِنْطيوس (Innocent) براءة (١٤٨٤) وصف فيها حِيَل الشياطين الذين يجرّبون النساء والرجال ليلاً، ودعا إلى قمعهم، فكلَّف راهبَين دومينيكيين بهذه المهمّة، فحرَّرا مقالاً في الشياطين وفي طريقة التصرّف للحصول على إقرارات السحرة. استمرّت ملاحقة السحرة، والساحرات خاصة، حتى منتصف القرن السابع عشر. ويُقال إن عدد الذين هلكوا بالحرق على مدى قرنين بلغ المائة ألف.

ما العمل للردّ على هذا القلق؟ – إكرام العذراء مريم – ومن هنا جاء انتشار المسبحة الوردية – والحج إلى الأماكن المقدَّسة والغفرانات. وقد يكون الرد بالتعمّق الديني الشخصي وقراءة الكتاب المقدّس والاعتراف بالخطايا. لكن الثقة كانت مفقودة في المؤسَّسة الكنسية، فإن العديد من الكهنة كانوا دون ما ينتظره المؤمنون المتعطّشون، لا بسبب سوء سلوكهم، بل بسبب جهلهم. أمَّا الأساقفة، فكان الكثيرون منهم لا يهتمّون إلاَّ بدخل أبرشياتهم، ويجمعون بين عدة كراسٍ أسقفية لا يقيمون فيها.

انتقادات ومطالبة بالإصلاح

تأخذنا اليوم دهشة عظيمة أمام تهكُّمات ايرسمُس على تجاوزات رجال الاكليرس. فلا عجب أن نسمع، من وقت إلى وقت، أصواتًا ترتفع مطالبةً بعقد مجمع إصلاحي. وهكذا افتتح البابا يوليوس الثاني، سنة ١٥١٢، المجمع اللاتراني الخامس، الذي عبّر عن أسفه لارتكاب التجاوزات وأعدَّ برنامجًا إصلاحيًا، لكنه لم يجد سبيلاً إلى التنفيذ. واختُتمت أعمال المجمع في ١٥١٧/٣/١٦. وفي ١٠/٣١ من السنة نفسها، أصدر لوثر القضايا الخمس والتسعين المعارضة للغفرانات، وألصقها على باب كنيسة ڤيتنبرغ.

ثانيًا – رجال الإصلاح

لفظة «إصلاح» أصبحت في كنيسة الغرب مرادفًا للقطيعة. والانقسام هو دائمًا كارثة يبحث الناس عن أسبابها وعن المسؤولين عنها. كثيراً ما قيل إن التجاوزات كثر عددها في الكنيسة، حتى إن بعض المؤمنين يئسوا من تحسُّنها فغادروها. لكن أكثر المطَّلعين يعترفون اليوم بأن الأسباب التي أدَّت إلى الاصلاح **هي أسباب روحية**. ذلك بأن الاصلاح نجم عن التقوى التي شاهدتها نهاية القرون الوسطى، تلك التقوى التي كانت **بحثًا حارًّا عن المسيح في الانجيل**. ظلَّ التحدّث بموضوعية عن رجال الاصلاح، ولا سيّما عن لوثر، أمرًا عسيرًا لمدَّة طويلة. فصرَّح البروتستانت بأنه كان «طبيبًا قاسيًا» و«الملاك الذي أرسلته العناية الإلهية للقضاء على مسيح رومة الدجَّال». أمَّا الكاثوليك، فقالوا إنه رجل فظّ سكِّير كذَّاب شهواني، لم يترك الكنيسة إلاَّ ليكون حرًّا في إشباع غرائزه. . .

لكنَّ نوعًا من المعادلة قد تمّ منذ بضع عشرات السنين. وأخذ جميع المطَّلعين اليوم يعتبرون لوثر رجل إيمان لم يتحرَّك إلاَّ بدافع من تديُّنه. ولم يعد هناك أيّ كاثوليكي يشكّ في ما أبدته الكنيسة الرومانية من عدم تفهّم وتقصير في هذه المسألة. وفي الوقت نفسه، نرى البروتستانت يسلِّمون اليوم بما في شخصية لوثر من نقائص، كالعنف وعدم التساهل وشيء من المتعة في شرب البيرة. . .



مرتين لوثر

١ . مسيرة لوثر

من المسلَّم به ان لوثر بدأ الاصلاح في ٣١/١٠/١٥١٧ . بيد أن الحدث الذي جرى في هذا اليوم إنما هو نتيجة مسيرة انطلقت قبل ذلك بكثير . تحدّث لوثر عن هذه المسيرة في مؤلَّفات كتبها في نهاية حياته ، ولهذا جاءت متأثّرة بمواقفه وصراعاته التالية . وُلد سنة ١٤٨٣ في أيْسْلِبْن (Eisleben): ساكس الألمانية (Saxe) في عائلة وضيعة . عاش طفولة خشنة ، وأصغى مذعوراً إلى قصص حافلة بالشياطين والجنيّات . وفي سنة ١٥٠٥ ، على أثر صدمة نفسية سبَّبها خوفه من الموت والهلاك ، دخل دير نسَّاك القديس أوغسطينس في ايرفورت (Erfurt) . وعاش فيه عيشة الناسك الخشنة

وعقب إتمام الدراسات الفلسفية واللاهوتية رُسم كاهناً . ثم عُهد إليه في تدريس الكتاب المقدّس في جامعة ڤيتنبرغ (Wittenberg) . كان أميناً في حفظ القوانين ، لكنه مع ذلك لم يتمتّع بسلام النفس ، إذ إنه لم يستطع ان يتحرَّر من الشهوة ومن الميل إلى الخطيئة . وكان علم اللاهوت في ذلك الزمن يقول بأن الله يعمل ما يطيب له ، فيخلِّص بعض الناس ويُهلك بعضهم الآخر . وذات يوم ، وجد لوثر جواباً عن قلقه ، في رسالة القديس بولس إلى أهل رومة: «إن الانسان يبرَّر بالإيمان بمعزل عن أعمال الشريعة» (روم ٣/٢٨) . فالانسان لا ينال الخلاص بفضل ما يبذله من جهود ، بل الله هو الذي يجعله باراً بنعمته وحدها . يبقى الانسان خاطئاً ، لكن الله يأتي فيخلّصه من يأسه . وعند ذلك ، وجد لوثر ما كان يحتاج إليه من فرح وسكينة .

الغفرانات

وجد لوثر ، في قضية الغفرانات ، فرصة ينتهزها لإعلان ما اكتشفه . كان الرهبان الدومينيكان ينادون بالغفران وهو إعفاء من العقوبات الزمنية التي استوجبتها الخطيئة في أنحاء ألمانيا ، لتغطية نفقات رئيس أساقفة مايانس (Mayence) ، إذ كان عليه ان يدفع رسوماً لأنه يجمع بين ثلاث أبرشيات ، وللإسهام في بناء كنيسة القديس بطرس في رومة . فقال أحد الوعَّاظ: «كلما رنّت قطعة النقود في أسفل الصندوق صعدت نفس إلى السماء» فاستاء لوثر وألصق القضايا الـ ٩٥ على باب كنيسة قصر

ڤيتنبرغ. وكان عمله هذا احتجاجاً ودعوةً إلى النقاش مع أساتذة الجامعة. رفض لوثر ذلك الاطمئنان الكاذب الذي توفّره الغفرانات، لأن المسيحي لا يستطيع ان يشتري النعمة التي يعطيها الله مجّاناً. ظلّ لوثر حتى ذلك الوقت كثير الاعتدال في تهجّمه على المقام البابوي، ولم يفكّر في القطيعة مع رومة. لكنّ القضايا الـ ٩٥ أحرزت نجاحاً كبيراً في أنحاء ألمانيا وأوروبا وأبدى إيرَسْمُس كثيراً من الحماسة في الموافقة عليها.

نحو وقوع القطيعة

اتُّهم لوثر في البلاط البابوي. وعلى مدى ثلاث سنوات، حاول بعض أعضاء رهبانيته وبعض الموفدين من رومة أن يحملوه على الرجوع عن أقواله. لكنّ الجدال أيقظ روح القومية الألمانية، فبدا لوثر بطلَ شعب مستاء من الوسائل التي يستخدمها البلاط الروماني في جباية الضرائب، ومن تكدُّس الأموال التي تمتلكها الكنيسة في ألمانيا. ولقد أوضح لوثر فكره في المؤلّفات الاصلاحية الثلاثة الكبرى التي نشرها سنة ١٥٢٠: «نداء إلى الأشراف المسيحيين في الأمّة الألمانية» و«أسر الكنيسة في بابل» و«حرّية المسيحي». وفيها دعا إلى عقد مجمع، مع التأكيد ان المجمع غير معصوم عن الخطأ. هنا تصلّبت مواقف لوثر، فصرّح سنة ١٥١٩: «أكاد لا أشكّ في ان البابا هو المسيح الدجّال». وفي حزيران (يونيو) من سنة ١٥٢٠، صدرت البراءة البابوية (Exsurge) تشجب ٤١ قضية منسوبة إلى لوثر. وقد أُمهل شهرين ليعلن خضوعه. لكن لوثر أحرق البراءة على مرأى من الناس، وذلك في ١٠/١٢/١٥٢٠. وفي كانون الثاني (يناير) سنة ١٥٢١، حرمه البابا. ولمّا استُدعي إلى مجلس ڤورمس (Worms)، وهو مجلس يضمّ أمراء الأمبراطورية، ومثل أمام الأمبراطور شارل الخامس، أكّد لوثر أنه ملتزم بالكتاب المقدّس وبضميره، ولم يحد عن موقفه. فحكم بطرده من الأمبراطورية. فاختفى سنة ١٥٢١. وفي خلوته، نقل الكتاب المقدّس إلى اللغة الألمانية.

لوثر

اكتشاف الرحمة: روى لوثر، في نهاية حياته، ما كان في نظره اختباره الأساسي: الخلاص بالإيمان وحده. ويعتقد الكثيرون من المؤرّخين أن الحدث يرقى إلى نهاية ١٥١٤.

«كنتُ قد تحرّقت رغبة في إدراك معنى لفظ ورد في الفصل الأول من الرسالة إلى أهل رومة، حيث جاء: «فإن في البشارة يظهر عدل الله» (روم ١/١٧)، لأني كنت إلى ذلك الحين أفكّر في الأمر باضطراب. كنت أكره عبارة «عدل الله»، لأن الطرق المألوفة في استخدامها كانت قد علّمتني ان أفهمها بالمعنى الفلسفي. فكنت أفهم بها العدل الذي يسمّونه أصيلاً أو فعّالاً، العدل الذي بموجبه يكون الله عادلاً، مما يجعله يعاقب الخاطئين والمذنبين.

كانت حياتي كناسك لا عيب فيها، ومع ذلك كنت أشعر بأني خاطئ أمام الله. كان ضميري في أشدّ القلق ولم يكن عندي أيّ يقين أن تكفيري يُرضي الله. ولذلك، ما كنت أحبّ ذلك الإله العادل والمنتقم. فكنت أكرهه، ربما لم أكن أجدّف سراً، على اني كنت، ولا شك، ساخطاً وناقماً عليه بعنف فأردد قائلاً: «أوَلا يكفي أنه يحكم علينا بالموت الأبدي بسبب خطيئة أجدادنا وأنه يحمّلنا كل ما في شريعته من قساوة؟ وهل يجب ان يزيد عذابنا بالإنجيل وان يُعلن به عدله وغضبه؟». كنت خارجاً عن طوري، من شدة اضطراب ضميري. وكنت لا أنقطع عن التعمّق في الآية المذكورة، راغباً من صميم القلب ان أعرف قصد بولس بقوله ذلك.

وأخيراً أشفق الله عليَّ. ففيما أتأمّل ليلاً ونهاراً وأنظر في الترابط بين هذه الكلمات: «فإن في البشارة يظهر عدل الله... كما ورد في الكتاب: ان البارّ بالإيمان يحيا»، بدأت أفهم أن عدل الله يعني هنا البرّ الذي يمنحه الله والذي به يحيا البارّ، إن كان مؤمناً. فمعنى العبارة هو كما يلي: يظهر برّ الله في البشارة، ولكن المقصود هو البرّ الذي يبرّرنا به الله الرحيم عن طريق الإيمان، كما وردِ في الكتاب: ان البار بالإيمان يحيا. وشعرت من ساعتي بأني أولد ولادة جديدة، وبدا لي اني دخلت الفردوس من بابه الواسع. ومنذ ذلك اليوم، اتّخذ الكتاب المقدّس كله في عينيَّ شكلاً جديداً. فانتقلت من نص إلى نص، على هدى ذاكرتي، ودوّنت ألفاظاً أخرى يجب شرحها على نحو مماثل، كالعمل الإلهي، أي العمل الذي يقوم به فينا، والقدرة الإلهية التي يقوّينا بها، والحكمة التي يجعلنا بها حكماء، والخلاص والمجد الإلهي. فبقدر ما كرهتُ عبارة «عدل الله»، أخذت أحبّها الآن من صميم القلب...».

(لوثر، مقدّمة مؤلّفاته)

اضطرابات ومناظرات

وانقسمت ألمانيا بين الذين مع لوثر والذين عليه. لكن دوافع أنصاره كانت متنوّعة: فالأشراف وجدوا ضالتهم في الاستيلاء على أراضي الكنيسة، والفلاّحون انتهزوا الفرصة، باسم المساواة بين البشر أمام الله، للثورة على سادتهم الذين يستغلّونهم، فنشبت حرب طاحنة (١٥٢٤-١٥٢٥). استولى القلق على لوثر، لأن جميع هؤلاء الناس كانوا يدّعون العمل بحسب ما تقتضيه كلمة الله. ولم ينجح لوثر في تهدئة الفلاّحين، فدعا الأسياد إلى تقتيل المتمرّدين. وفي تلك الأيام أيضاً، انفصل لوثر عن ايرسمس، لأن ايرسمس رفض نظرته التشاؤمية إلى الانسان وإلى الحرية. وفي ١٥٢٥ أخيراً، تزوّج لوثر من راهبة سابقاً تُدعى كاترينا بورا (Bora) «استهزاءً بالشيطان وقشوره... وبجميع الذين ذهب بهم الجنون إلى حد نهي رجال الاكليرس عن الزواج».

الكنيسة اللوثرية وتعاليمها

لم يقصد لوثر إنشاء كنيسة جديدة، بل ظنَّ أن الكنيسة، ان عادت إلى الانجيل

أصلحت نفسها. لكنّ التباين في تفسير الكتاب المقدَّس وقيام الحركات المتطرِّفة حملاه على توضيح بعض النقاط التعليمية وعلى اتّخاذ بعض الخطوات التنظيمية. ففي سنة ١٥٢٩، نشر «كتاب تعليم مسيحي صغير» و«كتاب تعليم مسيحيٍ كبير»، وهما النموذجان الأوّلان لفنّ أدبي كُتب له نجاح عظيم.

في نظر لوثر، ينطلق كل شيء من اختباره الأساسي، يشعر الانسان بأنه خاطئ في أصله، فيكتشف في الكتاب المقدَّس أن الخلاص يأتيه من الله عن طريق الإيمان وحده، فالله يعمل كل شيء، والانسان لا يعمل أيَّ شيء. والأعمال الصالحة لا تجعل الانسان صالحاً، بل الانسان الذي يبرّره الله هو الذي يعمل الأعمال الصالحة. وبناءً على ذلك، يرفض لوثر كل ما يعارض، في التقليد، أوَّلية الكتاب المقدَّس والإيمان، وينبذ كل ما يبدو وسيلة يزعم الانسان أنه يستحقّ بها خلاصه، كإكرام القديسين والغفرانات والنذور الرهبانية، والأسرار غير المذكورة في العهد الجديد. فلا قيمة لأي شيء لم يرد ذكره صراحةً في الكتاب المقدّس. ولا أهمّية إلاَّ لكهنوت المؤمنين الشامل. وأمَّا الكنيسة، وهي جماعة المؤمنين وحقيقة غير منظورة، فليس من شأنها ان تنظِّم نفسها تنظيماً ظاهراً وان يكون لها ممتلكات.

في الواقع، حافظ لوثر على سرَّين من أسرار الكنيسة، وهما المعمودية والافخارستيا، مع قبول إمكانية الاعتراف. يجب الاحتفال بالعشاء السرّي باللغة الالمانية. في شأن العشاء، رفض لوثر ان يُشار إلى وجود ذبيحة، لكنه تمسَّك بحضور المسيح الحقيقي في سرّ القربان. وأولى أهمّية كبرى للترنيم الجوقي. واعترف بأن إعلان كلمة الله والاحتفال بالأسرار يتطلّبان حدًّا أدنى من التنظيم، يقوم به الأمراء، فهم قابضون على زمام سلطة تأتي من الله. نرى هنا أن لوثر، مع كونه رفض الاعتراف بوجود سلطة كنسية، يعزّز إلى حد بعيد سلطة الأمراء على الكنيسة. فأصبحت الكنائس اللوثرية كنائس قومية يختلف نظامها من دولة إلى دولة.

٢. جمهور من المصلحين

التفَّ حول لوثر بعض التلاميذ، كميلانْغْتُن (Mélanchton) (١٤٩٧ - ١٥٦٠). ولكن عدداً كبيراً من رجال الاصلاح ظهر، في عهد لوثر، في ألمانيا وسويسرا، معظمهم من الكهنة والرهبان. وافقوا لوثر بوجه عام في شأن الإيمان والكتاب المقدّس، ولكنهم اختلفوا عنه في أمور هامّة تختصّ بسرّ الافخارستيا. وقد قاطع لوثر بعضهم في هذا الشأن.

زْفِنغلي (Zwingli) (١٤٨٤-١٥٣١) الرجل الثالث في الإصلاح

يُلقَّب بالرجل الثالث، نسبةً إلى لوثر وكَلْفين(Calvin). كان متضلِّعاً من الآداب القديمة وتلميذاً لإيرَسْمُس وكاهنَ رعية في سويسرا. ورافق رعاياه المتطوّعين في خدمة البابا في الحروب التي خاضتها ايطاليا. ولمَّا أصبح

كاهن رعية زوريخ (Zurich)، وجّه المدينة إلى صفوف الاصلاح: فعلمن الأديرة وأدخل الألمانية إلى الليترجية وحطّم التماثيل. لم يتأثّر كلوثر باختبار شخصي، فكان أشدَّ ميلاً منه إلى تنظيم كنيسة بحسب روح الإنجيل وتحرير شعبه من التبعية لسلطة غريبة. ولم يتردَّد في اللجوء إلى الإكراه لإرغام المعارضين. واختلف عن لوثر في شأن الافخارستيا، ولم يَرَ فيها سوى حضور رمزي للمسيح. وقال إن الأسرار هي مجرَّد تذكارات ووعود، وأضاف ان المعمودية ليس لها فعَّالية في حد ذاتها، بل تعني ان الله اختار فحسب. لكن بعض الكنتونات السويسرية عارضت انتشار الاصلاح، فكانت الحرب الأهلية. ومات زْفِنْغلي في ساحة القتال وهو في صحبة جيش زوريخ. أمَّا الاصلاح الزْفِنْغلي، فقد امتدَّ تأثيره إلى بِرنا (Berne) وإلى كافة أنحاء سويسرا.

٣ . كَلْڤين (Calvin) والإصلاح في فرنسا

في عهد جان كلڤين (١٥٠٩-١٥٦٤)، ندخل في الجيل الثاني للإصلاح، الجيل الذي لم يصنع الاصلاح، بل وطّده. لم يكن كلڤين من رجال الاكليرس، شأن معظم رجال الاصلاح الأوّلين، بل كان علمانياً. ومن جهة أخرى، كان فرنسياً، في حين أنّهم كانوا من الألمان.

في فرنسا، اقتصر الإصلاح على بعض المجموعات الصغيرة، إلى ان أُحرق أحد اللوثريين في باريس سنة ١٥٢٣. أبدى الملك



يوحنا كلڤين

فرنسوا الأول، في أول أمره، بعض التسامح، لكن «قضية الملصقات» (التي كانت توجِّه الشتائم إلى ذبيحة القدَّاس وأُلصقت على باب غرفة الملك) (١٥٣٤) أثارت غضبه وأدَّت إلى ملاحقة جميع المنشقّين، فأُحرق بعضهم. وبذلك اكتسب المجدِّدون شهداءهم، وما لبثوا ان وجدوا في كلڤين معلّمهم اللاهوتي.

جان كلڤين (١٥٠٩-١٥٦٤)

وُلد كلڤين في نويون (Noyon) ودرس الأدب والحقوق. وحين أخذ يهتمّ بحياته المسيحية، أي عند اهتدائه كما يقول، كان تفكيره إصلاحياً. وقُبَيل وقوع «قضيَّة

الاعلانات»، غادر باريس وطاف في أنحاء فرنسا وأصبح لاهوتياً في خدمة المنشقّين الفرنسيين. ثم أقام في بال ونشر في ١٥٣٦ باللاتينية «إنشاء الدين المسيحي» ليوفّر للفرنسيين تعليماً قويماً ودفاعاً عن ذكرى الشهداء. وفي ١٥٤١ تُرجم الكتاب إلى الفرنسية وطُبع عدّة مرّات، بعد إضافات من المؤلّف في كل مرّة. ثم أقام كلڤين في جنيف مدّة قصيرة (١٥٣٦-١٥٣٨) وقضى ثلاث سنوات في إستراسبورغ (Strasbourg) اهتمّ خلالها باللاجئين الفرنسيين. وقبل بتحفّظ ان يعود إلى جنيف، نزولاً عند طلب سكّانها، وكان ذلك في ١٥٤١. لكنه بقي فيها إلى يوم وفاته في ١٥٦٤. وكان تنظيمه لكنيسة جنيف نموذجاً انتشر فيما بعد انتشاراً واسعاً في أوروبا وفي العالم كله.

كَلْڤين
«إنشاء الدين المسيحي»

نشر كلڤين باللاتينية، لخدمة الإنجيليين الفرنسيين، كتيّباً لخّص فيه الخطوط العريضة التي يتميّز بها فكره اللاهوتي، وعنونه: «إنشاء الدين المسيحي». وتُرجم إلى الفرنسية، بعد إضافات من المؤلّف. وتعاقبت الطبعات، بعد ان زيد عليها في كل مرّة، حتى شكّلت، في ١٥٥٩، أربعة مجلّدات، جعلت من الكتاب خلاصة علم اللاهوت البروتستانتي.

يجب ان نعتبر دعوتنا في جميع أعمال حياتنا:

«علينا أيضاً ان نلاحظ باجتهاد ان الله يأمر كلاً منّا ان يتأمّل دعوته في جميع أعمال حياته. لأنه يعرف حق المعرفة كيف ان عقل الانسان يتحرّق قلقاً، وبأيّة خفّة يميل إلى هنا وهناك، وأي طموح وأي جشع يستميله إلى مزاولة عدّة أمور مختلفة في آن واحد.

ولئلاّ نلقي الفوضى في جميع الأشياء بسبب جنوننا وتهوّرنا، فإن الله، الذي يميّز تلك الحالات والطرق في الحياة، فرض على كل واحد ما يجب عليه ان يعمله. ولئلاّ يتخطّى أحد حدوده، سمّى الله تلك الطرق في الحياة «دَعَوات». فعلى كل واحد ان يعتقد بأن حالته عبارة عن محطّة عيّنها الله، كي لا يلفّ ويدور من هنا إلى هناك طولَ حياته...».

التمييز بين الكنيسة غير المنظورة والكنيسة المنظورة

«... يتحدّث الكتاب المقدّس عن الكنيسة بمعنيَين. فأحياناً يعني بها الكنيسة كما هي في الحقيقة، لا تضمّ إلاّ الذين هم أبناء الله بنعمة التبنّي والذين هم أعضاء يسوع المسيح الحقيقيون بتقديس روحه. وعند ذلك لا يتكلّم عن القديسين الذين على هذه الأرض فحسب، بل يشمل جميع المختارين الذين عاشوا منذ إنشاء العالم.

ومن جهة أخرى، كثيراً ما يعني الكتاب المقدّس بـ «الكنيسة» جماعة البشر بأسرها، المنتشرة في جميع أنحاء العالم، تلك الجماعة

الجماعة التي تُكرم الله ويسوع المسيح، وتعترف بأن المعمودية تشهد على إيمانها، وتؤكّد، بمشاركتها في العشاء السرّي، أنها واحدة في تعليمها ومحبتها، وتوافق على كلمة الله، متمسّكةً بالتبشير بها، وفقاً لما أوصى به يسوع المسيح. وفي هذه الكنيسة يختلط المراؤون بالصالحين. . .

وكما أنه يتحتّم علينا ان نؤمن بالكنيسة التي لا نراها والتي لا يعرفها إلاَّ الله، كذلك يُفرض علينا ان نُكرم هذه الكنيسة غير المنظورة وان نبقى متّحدين بها. . .».

علامات الكنيسة المنظورة

«إليك سمات الكنيسة المنظورة: حيثما نرى كلمة الله يُبشَّر بها صافيةً ويُصغى إليها، وأينما مُنحت الأسرار كما أنشأها المسيح، هناك الكنيسة قائمة ولا شك (اف ٢/٢٠)، لا سيّما وان الوعد الذي وعدنا به لا يمكن ان ينقصنا: «حيثما اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمي، كنتُ هناك بينهم (متى ١٨/٢٠). . .

ان الكنيسة الجامعة هي سائر البشر المتّفقين على حقّ الله وعلى تعليم كلمته، مهما اختلفت الأمم وابتعدت المناطق التي هي فيها، لا سيّما وانها متّحدة برباط الدين.

تضمّ هذه الكنيسة الجامعة الكنائس المنتشرة في كل مدينة وقرية، بحيث تتمتّع كل واحدة منها بصفة الكنيسة وسلطتها».

جنيف مدينة كنيسة

يشبه تعليم كلفين تعليم لوثر في فكره الأساسي، لكنه أكثر منهجية منه بكثير ويشدّد على بعض الأمور الخاصة. يبدو كلفين مأخوذاً بسيادة الله (« لله وحده المجد») ويشدّد بقوّة على انحطاط الانسان بعد ارتكاب الخطيئة الأصلية. نحن كلّنا هالكون، لكن الله السيّد المطلق يخلّص الذين اختارهم: هذا هو الاختيار السابق الذي كثيراً ما يُعتبر ميزة التعليم الكلفيني. ويقترح كلفين نظاماً أخلاقياً عملياً هو بمثابة تأييد التبنّي الذي به يقبلنا الله كأبناء له. وهذا النظام الأخلاقي نظام اجتماعي، لأن الانسان هو «خليقة مرافقة».

ويحتاج الانسان، لترسيخ إيمانه، **إلى عون خارجي هو الكنيسة**. فيشدّد كلفين، مع الإشارة إلى الكنيسة غير المنظورة، على الكنيسة المنظورة التي هي الجماعة المحلّية. و«حيثما تُعلَن كلمة الله صافيةً وتُمنح الأسرار»، كانت هناك كنيسة حقيقية. وأمَّا **الأسرار فهي الدليل الخارجي** على نعمة الله علينا وتثبيت إيماننا. والمعمودية هي الدليل على مغفرة الخطايا. وكلفين يدافع بقوة عن معمودية الأطفال. لكن تعليمه في الافخارستيا، في العشاء السرّي، يختلف عن تعليم لوثر وزفنغلي: فالمسيح يهبنا نفسه في الوقت الذي نتناول فيه الخبز والخمر.

ولا بدّ ان تنظَّم الكنيسة تنظيماً دقيقاً، فإن عدم النظام تجديف على المسيح، رئيس الجسد الذي هو الكنيسة. وكتاب «الترتيبات الكنسية» الذي صدر سنة ١٥٤١ وضع أسس كنيسة جنيف. وهذا التنظيم ينبثق من الكتاب المقدّس، لا بل من شخصية كلفين أيضاً، وقد تأثّرت بدراسة الحقوق وبالاطّلاع على مؤلّفات

أفلاطون. فهناك أربع خدمات: الرعاة والملافنة والشيوخ والشمامسة. وحياة الكنيسة يراقبها «المجمع» الذي يضمّ الرعاة واثني عشر شيخاً تنتخبهم السلطات. يسهر المجمع على كل شيء في الكنيسة وتكلّف السلطة المدنية بتطبيق قراراته. ويميّز، مبدئيا، تمييزاً دقيقاً بين السلطة المدنية والسلطة الكنسية. لكنهما يرتبطان ارتباطاً وثيقاً، لأن الدولة تتدخّل في تعيين خدّام الكنيسة، ولأن المجمع ينبثق من السلطة المدنية، أراد كلڤين ان يجعل من جنيف مدينة مسيحية، فجعل رجال الكنيسة يشرفون على نشاط الدولة. ما أقربنا إذن من المجتمع المسيحي في القرون الوسطى!

كانت التعليمات والتوجيهات تشمل حياة أهل جنيف برمتها، وكان الحكم بالاعدام غير نادر، وكذلك الخلافات بين الأفراد. الخلافات المذهبية كانت أخطر وربما اتّخذت طابعاً مأسوياً، يوم أُحرق ميشال سرڤه (Servet) سنة ١٥٥٣ لأنه أنكر سرّ الثالوث الأقدس.

إشعاع الإصلاح الكلڤيني

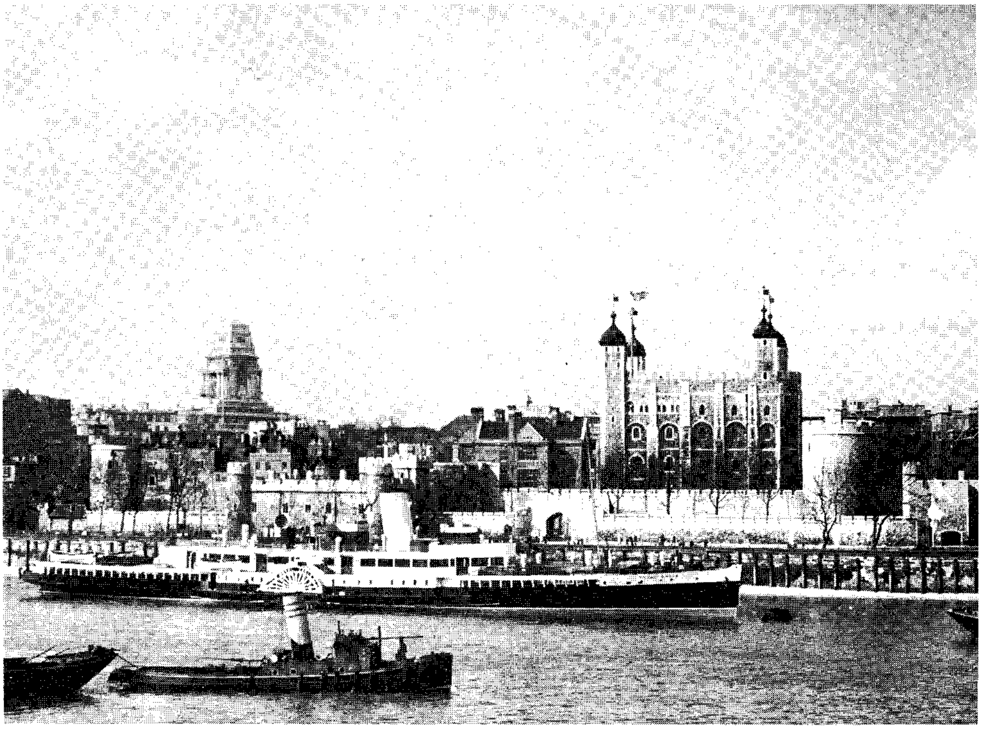
ولقد أسهم في انتشار الإصلاح الكلڤيني إنشاء مدرسة جنيف سنة ١٥٥٩ عن يد ثيودورس دي بيز (Théodore de Bèze)، لتُدرَّس فيها جميع الموادّ من الابتدائي إلى التعليم العالي. فقصدها كثير من الأجانب لدرس العلوم اللاهوتية وأصبحوا المسؤولين عن الكنائس البروتستانتية ذات النهج الكلڤيني. وبذلك يكون كلڤين قد قدّم للحركة الاصلاحية الشمولية والسلطة. كنائس كثيرة اقتبست بعض عناصرها من كنيسة جنيف، ونخصّ بالذكر النظام المشيخي (حكم الشيوخ) والجماعة المحلّية بخدماتها الرعوية الأربع. ومن جهة أخرى، يجوز القول بأن كلڤين أنشأ نهجاً جديداً للإنسان وللحضارة، بتقديمه نمطاً جديداً لتطبيق الإنجيل في الحياة اليومية، وبإعادة الاعتبار، على الصعيد اللاهوتي، إلى الحياة المادية. فهو يقطع صلته بنظريات القرون الوسطى، باعتباره الإقراض بالفائدة أمراً مشروعاً. ولذلك يرى فيه بعض المؤرّخين أحد الدعاة إلى النظام الرأسمالي.

ثالثًا – أوروبا والمذاهب الدينية

في القرن السادس عشر، انقسم العالم المسيحي إلى عدّة كنائس، وأخذت جغرافية دينية جديدة ترتسم على الأرض، لكن خطوطها لن تستقرّ نهائياً إلاَّ في القرن السابع عشر، عند نهاية حرب الثلاثين سنة (١٦٤٨).

١. ألمانيا وأوروبا الشمالية

تريّث الأمبراطور شارل الخامس طويلاً، قبل أن يفقد الأمل بإعادة الوحدة الدينية إلى الأمبراطورية. لقد فكّر، على التوالي وأحياناً في الوقت ذاته، في عقد مجمع عام (راجع الفصل ١٢) وفي النقاش الودّي وفي القتال المسلّح. وانتظم الأمراء الكاثوليك وأولئك



برج لندن

المناصرون للإصلاح في تحالفات متنافسة مستعدّة لشنّ حرب أهلية. وكان مجلس إسْبيرا (Spire)، الذي انعقد سنة ١٥٢٨، قد أتاح للأمراء حرّيّة الاصلاح في أراضيهم. ولكن مجلساً آخر، انعقد في إسْبيرا أيضاً سنة ١٥٢٩، سحب هذا الامتياز. وعندئذٍ، قدّم الأمراء الذين اختاروا الاصلاح احتجاجاً رسمياً، ومن هنا جاء لقب «البروتستانت» (أي «المحتجّون»)، الذي استُعمل منذ ذلك اليوم للدلالة على جميع الذين انفصلوا عن رومة على أثر قيام الحركة الاصلاحية. وسنة ١٥٣٠، أراد شارل الخامس ان يبتّ في المسألة الدينية بالاقناع، في مجلس أوغسبورغ (Augsbourg)، طالباً ان يتقدّم كل طرف بتعاليمه. فقام ميلانْغتن، باسم أنصار لوثر، وحرّر مذكِّرة سمَّاها **شهادة إيمان أوغسبورغ**، وهي ما زالت حتى اليوم مرجع جميع أنصار لوثر. أبدى ميلانْغتن كثيراً من الاعتدال، محاولاً تفادي أهم المسائل المتنازَع عليها.

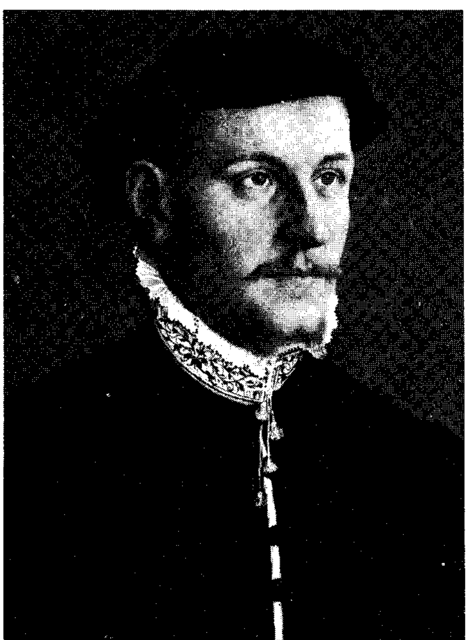
وواصل المذهب اللوثري انتشاره. وكان عليه ان يقاوم الانحرافات، كبدعة الأنابابتيست (Anabaptistes) في مونستر (١٥٣٥)، الذين شرعوا في تأسيس ملكوت للمسيح قائم على سفر الرؤيا مع ممارسات شيوعية وتعدّد

الزوجات. ولم تنجح الحرب الأهلية ولا الحوار ولا انعقاد المجمع التريدنتيني في إعادة السلام والوحدة الدينية. ولذلك، ففي ١٥٥٥، اعترف «سلام أوغسبورغ الديني» بتقسيم ألمانيا على أساس مذهبي. وتركت للأمراء وحدهم حرّيّة اختيار مذهبهم (القوم على دين ملِكهم). فعلي الرعايا ان ينصاعوا لاختيار أميرهم وإلاّ فإلى المنفى.

واختار الملكان الإسكندينافيان (السويد سنة ١٥٢٧، والدانمارك - النروج سنة ١٥٣٧) المذهب اللوثري. وكان الشعب غير معني بالأمر لأنه لم يكد يشعر بأي تغيير لأن معظم العادات القديمة بقيت كما هي.

٢. الجزر البريطانية

كان سبب النزاع الذي قام بين مملكة انكلترا والكرسي البابوي مسألة زواج. ذلك بأن الملك هنري الثامن لم يحصل من البابا على حكم بفسخ زواجه من كاترينا الأرغونية (d'Aragon) (الإسبانية الأصل) التي لم تُنجب له إلاّ بنتاً، فطالب الاكليرس الانكليزي بمنحه إياه وأعلن نفسه رئيس كنيسة انكلترا سنة ١٥٣٤. وأُعدم الذين ظلّوا أمناء لرومة، كتوماس مور (More) والأسقف فيشر (Fisher) وكثيرون آخرون. إلاّ ان هنري الثامن حافظ على جوهر الايمان الكاثوليكي (البنود الستة في ١٥٣٩). ولّما كان وريثه ادوارد السادس ما زال قاصراً (١٥٤٧-١٥٥٣)، تغلغلت الأفكار الكلفينية إلى «كتاب الصلوات» (١٥٤٩) وإلى البنود الاثنين والأربعين (١٥٥٢). وحين أصبحت ماري تودور (Tudor)، ابنة هنري الثامن من كاترينا الأرغونية، ملكة، أعادت الإيمان الكاثوليكي وأعدمت أكثر من مئتي شخص، فلُقِّبت بماري السفّاحة. لكن اليزابيت الأولى (١٥٥٨-١٦٠٣) أنشأت المذهب الانكليكاني في صيغته النهائية. واتّخذت لقب «حاكمة المملكة المطلقة في الأمور الروحية والزمنية»، وأعادت «كتاب الصلوات» الذي وافق عليه ادوارد السادس وأصدرت البنود التسعة والثلاثين التي يقوم عليها الإيمان الانكليكاني. يبدو المذهب الانكليكاني عبارة عن حلّ وسط: فكر



القديس توماس مور

لاهوتي قريب جداً من المذهب الكلفيني، إلى جانب المحافظة على صيغ تقليدية، من أسقفية وثياب طقسية الخ. وتمّت ملاحقة الكاثوليك والمنشقّين البروتستانت بلا رحمة.

اعتنقت اسكتلندا المذهب الكلفيني. وحصلت الكنيسة الانجيلية الاسكتلندية (المشيخية) على نظامها الأساسي الرسمي سنة ١٥٦٠. وأعظم منظّميها هو جون نوكس (John Knox) (١٥١٤-١٥٧٢)، الذي أقام عدّة مرّات في جنيف لدى كلفين. أمّا ايرلندا فرفضت رفضاً باتاً الاصلاح الذي حاولت انكلترا ان تفرضه عليها.

إعدام توماس مور

رفض توماس مور الاعتراف بهنري الثامن رئيساً أعلى على كنيسة انكلترا، بالرغم من ضغوط أصدقائه وأفراد عائلته. فأُعدم وزير المالية السابق هذا في ١٥٣٥/٧/٦. وقد حافظ على ظرفه المألوف إلى آخر رمق من حياته.

«ارتدى السيد توماس مور أفخر ملابسه، وكأنه مدعوّ إلى حضور حفلة رسمية. ولمّا رأى ذلك السيد القهرمان، أشار عليه بخلعه، مضيفاً أن الذي ستكون هذه الحلّة من نصيبه ليس إلاّ فلاّحاً. فأجاب مور: «ماذا، يا سيّدي القهرمان، أأُعدّ فلاّحاً مَن سيؤدّي لي مثل هذه الخدمة العظيمة؟ لو كانت هذه الحلّة من ذهب، لاعتبرته مستحقاً لها، كما ان القديس قبريانس أعطى جلاّده ثلاثين من الذهب».

ولكنه بعد إلحاح نزل أخيراً عند رغبة القهرمان وبدّل ثيابه، على مثال القديس الشهيد قبريانس. ومع ذلك، فمن القليل الذي بقي له أرسل إلى جلاّده ملاكاً صغيراً من الذهب.

وذهب به القهرمان إلى خارج البرج، ثم إلى مكان الإعدام. ولمّا صعد إلى المنصّة، وجدها تتزعزع، فخاف ان تنهار وقال مَرِحاً للقهرمان: «سيّدي القهرمان، ساعدني على الصعود. أمّا في النزول، فلا حاجة لي إلى من يساعدني».

عندئذ، طلب إلى الجمع المحيط به ان يصلّي من أجله وان يشهد على أنه سيتحمّل الموت على إيمان الكنيسة الكاثوليكية المقدّسة وفي سبيلها. ثم جثا، وبعد ان تلا صلواته، التفت فرِحاً إلى الجلاّد وقال له: «استجمع شجاعتك، أيها البطل، ولا تخف ان تقوم بواجبك. لكني قصير الرقبة، فاحذر ألاّ تصيبها، لأن الأمر أمر شرف بالنسبة إليك».

وهكذا انتقل السيد توماس مور من هذا العالم إلى الله، في اليوم الذي رغب ان يتمّ فيه ذلك».

(من سيرة السيد توماس مور، بقلم وِليام روپر)

٣. فرنسا

كانت سياسة الملوك متأرجحة، وكانت مكاسبهم من معاهدة بولونيا تحثّهم على الاخلاص لروما. وبعد «قضية الملصقات»، ازداد قمع الهراطقة عنفاً. فكان ان الڤلدونيين (Vaudois) المقيمين في پروڤنسيا (Provence)

انضمّوا إلى الاصلاح فقُتل منهم سنة ١٥٤٥ ثلاثة آلاف. وأُنشئت كنائس بروتستانتية كثيرة في عدّة مدن فرنسية. فعُقد سينودس باريس سنة ١٥٥٩ وحضره ممثّلون من نحو خمسين كنيسة مصلَحة، فحرَّروا وثائق «النظام» و«شهادة الايمان». وفي سنة ١٥٧١، أعاد سينودس «لا روشيل» (La Rochelle) النظر في هذه النصوص التأسيسية وثبّتها.

لكن البروتستانت الملقّبين بـ «هوغنو» (Huguenots) (أي المتحالفين) ألّفوا حزباً سياسياً قصد الدفاع عن حرّيّاته بالسلاح. وفي محاولة توفيقية، قامت الوصيّة على العرش كاترينا دي ميديسيس (de Medicis) والمستشار ميشال دي لوپيتال (de l'Hôpital) بمنح الهوغنو بعض الحرّيّات (١٥٦١ و١٥٦٢). لكن مجزرة البروتستانت في ڤاسي (Wassy) (١٥٦٢) كانت بداية الحروب الدينية التي استمرَّت حتى ١٥٩٨. وأدمى حلقة في هذه الحروب هي مجزرة سان برتلمي (Saint-Barthélemy) (١٥٧٢/٨/٢٤). ادَّعت كاترينا دي ميديسيس أنها تريد إحباط مؤامرة بروتستانتية، فأفنت جماعة هوغنو باريس، وساروا على مثالها في عدّة مدن فرنسية، مما أدى إلى عدّة عشرات الألوف من الضحايا. وبعد ان ارتدّ هنري الرابع عن البروتستانتية، أعاد السلام بتوقيعه «مرسوم نانْت» (Nantes) (١٥٩٨). كان حلاًّ وسطًا عدّه الكثيرون مؤقّتًا، فتمَّ الاعتراف بحرّيّة الضمير، وأقرّت حرّيّة العبادة ببعض الشروط. وحصل البروتستانت على بعض الضمانات القانونية.

٤. جغرافية دينية جديدة

لو أضفنا ما جرى في هولندا، حيث أصبح المذهب الكلڤيني دين الدولة، لرأينا ان العالم المسيحي القديم في أوروبا انقسم إلى عدّة كنائس معارضة لرومة: فهناك اللوثرية أو الانجيلية، والكنائس الكلڤينية. لقد بُترت الكنيسة الرومانية إلى حد بعيد، لكنها ستقوم بنهضة وتحاول ان تُصلح نفسها، لا بل سيندفع بعض الأمراء الكاثوليك إلى استعادة السيطرة بالسلاح. وهذا ما يسمَّى أحيانًا «بالاصلاح المضاد».

التجديد الكاثوليكي
(القرنان ١٦ و١٧)

تزامنت الحركة البروتستانتية مع ظهور الرغبة في الاصلاح في الكنيسة الرومانية. وتمَّت المبادرات الأولى عن يد بعض الرهبان والعلمانيين الأتقياء، وأحياناً عن يد بعض الأساقفة. وفي آخر الأمر، توصّل الكرسي الرسولي بمشقة كبيرة إلى عقد مجمع عام في ترانتو (Trente) سنة ١٥٤٥. ولم ينته إلاَّ بعد ثماني عشرة سنة، تخلَّلتها توقُّفات طويلة، ولم يُعمَل بقراراته إلاَّ شيئاً فشيئاً. وفي فرنسا، لم تدخل حيِّز العمل إلاَّ في القرن السابع عشر. عندئذ تنظَّمت الكنيسة الرومانية التقليدية، وحافظت على ملامحها حتى الأيام التي سبقت المجمع الڤاتيكاني الثاني. ومع ذلك، لم تخلُ هذه الكنيسة (الكاثوليكية) التقليدية من معاناة الأزمات والصعوبات.

أوّلاً – الإصلاح الكاثوليكي في القرن السادس عشر

١. إصلاح الأعضاء بأنفسهم

لا غرو ان التحمُّس والقلق الديني خلَّفا بعض رجال الإصلاح الذين انفصلوا عن رومة، لكن في الوقت نفسه أَدَّيا إلى القيام بعدّة محاولات إصلاحية في داخل الكنيسة الرومانية. وكثيراً ما انطلقت هذه الجهود من القاعدة. فالأمانة للدعوة الفرنسسكانية ولَّدت سنة ١٥٢٦ فرعاً رهبانياً جديداً، هم الكبوشيون، كما ان أخويّةً كانت تضمّ أشخاصاً من العلمانيين والكهنة، هي «ندوة المحبّة الإلهية»، أخذت تنتشر في عدّة مدن إيطالية، منذ مطلع القرن السادس عشر. وكان أعضاؤها يصلّون معاً ويهتمّون بالفقراء والمرضى. وانضمّ إليهم بعض الأساقفة.

رجال الإكليرس القانوني

أنشأ أحد أعضاء «ندوة المحبة الإلهية»، سنة ١٥٢٤، جمعية كهنة تُدعى «الثياتيين» (Théatins)، يجمعون بين الخدمة الرسولية اليومية وانتظام الحياة الرهبانية. فكانت هذه الجمعية منطلقاً لقيام حركة رجال «الاكليرس القانوني»، وهي صورة جديدة للحياة الكهنوتية والرهبانية، ومن أشهرَ ممثّليها اليسوعيون الذين أسّسهم الاسباني اغناطيوس دي لويولا (de Loyola) (١٤٩١-١٥٥٦). اهتدى إلى الممارسة الدينية على أثر جرح أصابه في أثناء معركة، فدوَّن اختباره الشخصي في كتاب «الرياضات الروحية»، وأخذ يعرضها على مَن يصادفهم في تنقّلاته، ولا سيّما على الرفاق الذين جمعهم في باريس سنة ١٥٣٤ (نذور مونتمارتر) (Montmartre). وسنة ١٥٤٠، أصبح الفريقُ «الرهبانية اليسوعية». وبالاضافة إلى النذور الرهبانية الثلاثة، يؤدّي اليسوعيون نذراً رابعاً هو نذر طاعة للبابا، ويدلّون به على رغبتهم في تلبية جميع حاجات الكنيسة في زمنهم. فأخذوا يعملون في حقل التعليم بتأسيس العديد من المدارس، وفي حقل الإرشاد الروحي والارساليات إلى البلاد النائية. ولمّا تُوفّي اغناطيوس، كان عددهم نحو الألف.

اليسوعيّون

لا شك ان الانطلاقة الرائعة التي عرفتها الرهبانية اليسوعية تعود إلى شخصية مؤسّسها، اغناطيوس دي لويولا، فقد خلّف لأبنائه «أداة» مزدوجة ذات فعّالية كبيرة: «الرياضات الروحية» و«القوانين التأسيسية». ولم يقتصر إسهام «الرياضات» على تكوين اليسوعيين أنفسهم، بل شمل عدداً كبيراً من العلمانيين. أمّا «القوانين التأسيسية»، فإنها تنظّم شؤون الرهبانية اليسوعية في حكم رئاسي مركَّز على شخص الرئيس العام والبابا، لأن اليسوعيين يريدون ان يكونوا خُداماً مثاليين للكنيسة.

الرياضات الروحية

(رقم ١): الفائدة الأولى: «المراد بالرياضات الروحية كل طريقة متبعة في فحص الضمير والتأمّل والمشاهدة والصلاة اللفظية والعقلية وسائر الأفعال الروحية التالي ذكرها. فإنه، كما يُعتبر التنزّه والمشي والركض رياضة بدنية، كذلك كل طريقة تُعدّ النفس وتؤهّبها لقمع ما فيها من الأهواء المنحرفة وللبحث بعد ذلك عن إرادة الله والاهتداء إليه بتنظيم حياتنا لخلاص نفوسنا تسمّى **رياضة روحية**...».

(رقم ٣٦٥): «القاعدة الثالثة عشرة للحصول على الشعور الصحيح الذي لا بدّ ان يكون شعورنا في الكنيسة المجاهدة: «إذا أردنا ان نكون على صواب في كل شيء، وجب علينا ان نكون دائماً مستعدّين، أمام أمر نراه نحن أبيض، ان نعتقد أنه أسود، ان كان ذلك قرار السلطة الكنسية، لأننا نؤمن بأن للمسيح ربنا، وهو العريس، وللكنيسة وهي عروسه، روحاً واحداً، يديرنا هو نفسه ويهدينا لخلاص نفوسنا...».

قاعدة اليسوعيين الأساسية (١٥٤٠)

«مَن أراد ان يناضل في سبيل الله، تحت راية الصليب، في رهبانيتنا – التي نريد ان نسميها باسم يسوع – وان يعمل للرب الواحد وللكنيسة عروسه تحت إمرة الحبر الروماني نائب المسيح على الأرض، وجب عليه، بعد النذر الاحتفالي بنذور العفة والفقر والطاعة الدائمة، ان يقتنع بأنه من عداد رهبانية أُنشئت لتسعى إلى هدف رئيسي هو الدفاع عن الايمان ونشره وتقدُّم النفوس في الحياة والعقيدة المسيحية، وذلك بإلقاء المواعظ على الجمهور وخدمة كلمة الله وبالرياضات الروحية وبالأعمال الخيرية، لا سيما التعليم المسيحي للأولاد وللذين يجهلون دينهم المسيحي وبتعزية المؤمنين بالاعترافات...

أمَّا الحقّ في إصدار الأوامر، فيعود كلّه إلى الرئيس العام... ورغم علمنا من الانجيل والايمان القويم وتيقّننا من ان جميع المؤمنين بالمسيح يخضعون للحبر الأعظم خضوعهم للرأس ولنائب يسوع المسيح، إلاَّ اننا رأينا – إمعاناً من جمعيتنا في التواضع – ان هناك فائدة جليلة في ان يرتبط كل واحد منّا بنذر خاص، بالإضافة إلى هذه الرابطة التي يتقيّد بها جميع المؤمنين، حتى انه مهما أمرنا به البابا الحالي وسائر خلفائه، فيما يتعلّق بخيرالنفوس وانتشار الايمان، التزمنا بتنفيذه فوراً بدون تردّد ولا اعتذار، أيّاً كان البلد الذي يريدون ان يرسلونا إليه، سواء أُمرنا بالذهاب إلى الأتراك أو إلى سواهم من غير المؤمنين بلا استثناء بلاد الهند، أو إلى الهراطقة والمنشقّين أو إلى سائر المؤمنين».



القديس إغناطيوس دي لويولا

٢. المجمع التريدنتيني

لدى مثول لوثر في ڤورمس (Worms) أمام شارل الخامس (١٥٢١)، هتف السفير البابوي: «جميع الناس يصيحون: المجمع! المجمع!...». تريّث الباباوات مدة طويلة قبل انعقاد المجمع. فإن استمرار الحرب بين الأمبراطور وملك فرنسا حال دونه. كان البابا هَدْرِيان (Hadrien) السادس (١٥٢٢–١٥٢٣) هولندي الجنسية، وهو آخر بابا غير إيطالي قبل انتخاب يوحنا بولس الثاني. اعترف بأخطاء الكنيسة الرومانية، لكن حُكمه لم يدم طويلاً. خلفه اقليمنضس (Clément) السابع، الذي تحالف مع فرنسوا الأول، فقامت جيوش الأمبراطور، وكان بعضها مكوّناً من اللوثريين، ودمَّرت رومة (أيار

(مايو ١٥٢٧): فكانت سبعة أيام من النهب والاغتصاب وتدنيس المقدّسات. أمّا البابا بولس الثالث (١٥٣٤-١٥٤٩) فصمّم على عقد المجمع، فشكّل لجنة إصلاحية تضمّ كرادلة ممتازين. وفي ١٥٤٢، أعاد البابا تنظيم محكمة التفتيش الرومانية، فاتّخذت اسم «مجمع الإيمان»، وفي آخر الأمر، توصّل المجمع إلى الانعقاد في ترانتو في ١٥٤٥/١٢/١٣.

أعمال المجمع

فرض شارل الخامس الاجتماع في ترانتو، أملاً منه ان يستطيع الألمان ان يأتوا إلى تلك المدينة الأمبراطورية ذات الثقافة الايطالية. ولم يحضر، عند افتتاح المجمع، سوى ٣٤ عضواً من أصل ٥٠٠ أسقف كاثوليكي في العالم. لكن العدد ارتفع في أثناء المجمع، حتى بلغ ٢٣٧ في الاجتماعات الأخيرة. كان آباء المجمع في معظمهم من حوض البحر الأبيض المتوسّط، والايطاليون وحدهم شكّلوا غالباً ثلاثة أرباع المجلس. ولم يرتفع عدد الفرنسيين إلاّ في النهاية. كان هذا المجمع يمثّل مسعًى أخيراً يحاول به أهل الجنوب ملاقاة أهل الشمال، تفادياً لشرّ أتى من الشمال، لكن أهل الشمال لم يأتوا. ولا يجوز لنا ان نتصوّر المجمع التريدنتيني بحسب ما عرفناه عن المجمع الڤاتيكاني الأول أو الثاني. فهناك تدخّل السفراء وبعض الأمراء، والاحتفال بالأعياد، والدخول في نزاع حول مسائل تختصّ بحق التصدّر، والذعر الناتج عن إشاعة الأخبار عن الأوبئة والحروب...

ترأّس المجمعَ مندوبو البابا، ولم يكن بوسعهم ان يتّخذوا أيّ قرار بدون الرجوع إليه، مما اضطرّ المجمع إلى التوقف، ثلاث مرّات ثم يستأنف أعماله. في عهد البابا بولس الثالث، عُقدت الاجتماعات ما بين ١٥٤٥ و١٥٤٧ في ترانتو، ثم انتقل الجميع إلى بولونيا (Bologne). لكن لم يتمّ فيها أي شيء، فدعا البابا يوليوس الثالث إلى الاجتماع مرّة ثانية في ترانتو واستمرّ العمل في ١٥٥١ و١٥٥٢. عندئذ حضر بعض المندوبين البروتستانت، وكان البابا بولس الرابع (١٥٥٥-١٥٥٩) متقدّماً في السن، فقرّر ان يُصلح الكنيسة بمعزل عن المجمع وبطرقه الخاصة. لكن البابا بيوس الرابع قرّر استئناف المجمع (١٥٦٢-١٥٦٣)، فقام الآباء الحاضرون بالموافقة على جميع القرارات التي اتُخذت منذ ١٥٤٥، وكان ذلك في ٣ و٤ كانون الأول (ديسمبر) ١٥٦٣. ثم تمّ الافتراق بالعناق والبكاء فرحاً.

قرارات المجمع

لم يقم أي مجمع بالأعمال العظيمة التي أنجزها المجمع التريدنتيني. فقد وضّح عدداً كبيراً من الأمور العقائدية التي لم تُحدَّد صراحةً في الماضي، وفرض قيام إصلاحات في جميع مجالات العمل الرعوي. فوُضعت نصوص كانت ثمرة تفكير طويل، كالتي تبحث في التبرير والتعاون بين الله والانسان في الخلاص.

كما وُضعت نصوص أخرى كانت أشدّ تأثّراً بمقاومة المذهب البروتستانتي، فشُجبت بعض التصرُّفات، لا لشيء إلاّ لأن البروتستانت كانوا يمارسونها، منها، على سبيل المثال، استخدام اللغات القومية في الليترجية. وعلى الصعيد الرعوي، اتُخذت قرارات حول إنشاء الاكليريكيات كانت لها انعكاسات هامّة لمستقبل الكنيسة.

تحديدات وقرارات في المجمع التريدنتيني

كان من عادة المجمع ان يقدّم نصّاً يليه غالباً. في التحديدات العقائدية، شجب الرأي المخالف المتمثّل، في أغلب الأحيان، في أحد التعاليم البروتستانتية.

في الكتاب المقدّس والتقليد

«ان المجمع المقدّس يقتدي بالآباء المستقيمي الإيمان فيتلقّى ويُكرم، بنفس التقوى والاحترام، جميع أسفار العهدين القديم والجديد، إذ ان الله هو صاحب هذا وذاك، وكذلك التقاليد المتعلّقة بالإيمان والأخلاق، كأنها صادرة عن لسان المسيح أو مملاة من قِبَل الروح القدس، ومحفوظة في الكنيسة الكاثوليكية بتعاقب متواصل» (الجلسة الرابعة، ١٥٤٦/٤/٨).

في التبرير

«ان قال أحد بأنّ الانسان بوسعه ان يبرَّر أمام الله بأعماله، التي يُنجزها، إمّا بقوى الطبيعة، وإمّا بتعليم الشريعة، بمعزل عن النعمة الالهية الممنوحة عن يد يسوع المسيح، فليكن مُبسلاً.

ان قال أحد بأنّ الانسان، بما لديه من حرية الاختيار (الحرية) ولدى تلقّيه الرفعة والحركة من الله تعالى، لا يتعاون قط معه منصاعاً إلى الله الذي يدفعه ويدعوه إلى التأهب لنيل نعمة التبرير، وانه ليس بوسعه، ان شاء ان يرفض، موافقته، بل هو عاجز كل العجز كالكائنات الجامدة عن إنجاز أي عمل، ويلبث في حالة السلبية المطلقة، فليكن مُبسلاً» (الجلسة السادسة، ١٥٤٧/١/١٣).

في الأسرار

«ان قال أحد بأنّ يسوع المسيح لم يُنشئ جميع أسرار الشريعة الجديدة، وأن هناك أكثر أو أقل من سبعة، وأن أحد السبعة ليس سراً بالمعنى الحصري، فليكن مُبسلاً» (الجلسة السابعة، ١٥٤٧/٣/٣).

في الافخارستيا

«ان أنكر أحد أنَّ سر الافخارستيا يحتوي، حقيقةً وفعلاً وجوهرياً، جسد يسوع المسيح ودمه مع نفسه ولاهوته، بل قال إنه ليس فيه إلاّ بالاشارة والصورة فقط أو بالقوة، فليكن مُبسلاً» (الجلسة الثالثة عشرة، ١٥٥١/١٠/١١).

في الكهنوت

«ان قال أحد بأنّه ليس في العهد الجديد كهنوت منظور وخارجي أو أنه لا وجود لسلطان التقديس أو لتقريب جسد الرب ودمه الحقيقيَين، أو لحلّ الخطايا أو ربطها، بل هناك مجرّد وظيفة للكرازة بالانجيل وخدمة لإعلان البشارة، أو أن الذين ينقطعون عن الوعظ لم يعودوا كهنة، فليكن مُبسلاً» (الجلسة الثالثة والعشرون، ١٥/٧/١٥٦٣).

في إنشاء الإكليريكيات

«ان الشبّان، ان لم يُربّوا تربية حسنة، ينقادون بسهولة إلى ملذّات العالم. ولذلك، فإن لم يُدرَّبوا على التقوى والدين، منذ نعومة أظفارهم، حيث العادات الرديئة لم تستولِ على الانسان تماماً، يستحيل عليهم، بدون حماية كبيرة وخاصة من لدن الله القادر على كل شيء، ان يثبتوا ثباتاً تاماً على النظام الكنسي. لذلك فان المجمع المقدّس يقرّر أنه يجب على جميع الكنائس، كل واحدة بحسب طاقتها واتساع أبرشيتها، ان تربّي في التقوى وتدرِّب على النظام الكنسي عدداً من أولاد المدينة أو الأبرشية، أو الإقليم إن كان العدد قليلاً، في مدرسة يختارها الاسقف لهذا الغرض وتكون قريبة من الكنائس أو في مكان آخر مناسب» (الجلسة الثالثة والعشرون، ١٥/٧/١٥٦٣).

في الزواج

«ان الذين يُقدمون على عقد زواج بدون حضور خوري الرعية أو أيّ كاهن آخر فوّضه الخوري أو المطران، وأمام شاهدين أو ثلاثة، يصرّح المجمع بأنهم غير أهل على الاطلاق لعقد زواج وبأن مثل تلك العقود باطلة وغير صحيحة» (الجلسة الرابعة والعشرون، ١١/١١/١٥٦٣).

تطبيق قرارات المجمع عن يد الباباوات

كان المجمع قد عهد إلى البابا في تطبيق قراراته. فأصدر البابا بيوس الرابع القرارات وشكّل لجنة مكلّفة بالتطبيق. أمّا بيوس الخامس (١٥٦٦-١٥٧٢)، وهو عضو سابق في محكمة التفتيش أُعلنت قداسته فيما بعد، فقد جعل في مقدمة اهتماماته محاربة الهراطقة والأتراك (في موقعة ليبانتي (Lépante) ١٥٧١). ونشر على التوالي «كتاب التعليم المسيحي الروماني» (الذي سمّي أحياناً كتاب التعليم المسيحي التريدنتيني)، و«كتاب الفرض الروماني» و«كتاب القدّاس الروماني». وأراد البابا ان يكافح الفوضى الطقسية، ففرض نصّاً موحّداً للقدّاس وطلب إلغاء الليترجيات التي لم يمض على وجودها أكثر من مئتي سنة. وقام غريغوريوس الثالث عشر (١٥٧٢-١٥٩٣) بإصلاح التقويم، فحذف سنة ١٥٨٢ عشرة أيام من ٤ إلى ١٥ تشرين الأول (أكتوبر) لكي تستعيد الفصول تواريخها المألوفة. وأنشأ عدداً من المدارس والإكليريكيات، ومنها الجامعة الغريغورية، وأقام سفراء ثابتين لدى الملوك، وجعل سِكْسُتس الخامس (Sixte-Quint) (١٥٨٥-١٥٩٠) للكنيسة حُكماً مركزياً يديره ١٥ مجمعاً رومانياً، وهي عبارة عن وزارات

تساعد البابا في إدارة شؤون الكنيسة والدولة البابوية. ووُزّع الكرادلة على تلك المجامع فبلغ عددهم السبعين. وأخيراً، أصدر البابا بولس الخامس (١٦٠٥-١٦٢١) سنة ١٦١٤ «كتاب الرُتَب الطقسية الروماني»، يضمّ النصوص والقواعد التي يجب العمل بها في الاحتفال بالأسرار.

وعلى صعيد آخر، ازداد جمال رومة وظهرت بمظهر عاصمة العالم الكاثوليكي: تمّ بناء قبّة كنيسة القديس بطرس سنة ١٥٩٠. وأحرز الاحتفال بالسنتين «المقدّستين» في ١٥٧٥ و١٦٠٠ نجاحاً كبيراً.

وكان تطبيق قرارات المجمع في البلدان الكاثوليكية يعود، إلى حدٍّ ما، إلى إرادة الملوك. فقبل فيلبّس الثاني في اسبانيا قرارات المجمع «مشروطةً بحقوق الملكية». وفي البلدان الأخرى، كانت التحفّظات كثيرة. ففي ألمانيا، كان الأباطرة يودّون لو سُمح بزواج الكهنة. وفي فرنسا، رأى الملوك أن المجمع ينال من سلطتهم، فرفضوا تطبيق قراراته.

٣. الإصلاح الكاثوليكي والإصلاح المضادّ

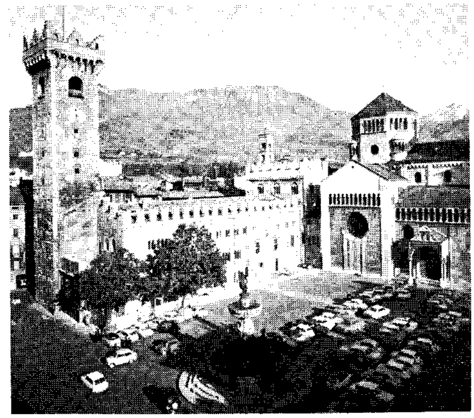
دخل المجمع في حياة الكنيسة بفضل عدد من الشخصيات التي بذلت قصارى جهودها في سبيل ذلك. فكان المطلوب القضاء على التجاوزات وتثقيف المسيحيين وتكوين كهنة الغد. ولكنهم كانوا، إلى جانب ذلك، يرغبون في مواجهة الاصلاح البروتستانتي واستعادة ما فُقد، ولو باستخدام السلاح إذا اقتضى الأمر. من هنا ورد الحديث أحياناً عن الاصلاح الكاثوليكي والاصلاح المضادّ، بصرف النظر عن اختلاف الأهداف والاتجاهات.

بطرس كانيزيوس (Canisius) وشارل بوروميه (Borromée)

كان اليسوعي الهولندي بطرس كانيزيوس (١٥٢١-١٥٩٧) يجول في أنحاء أوروبا ولا سيّما في البلدان الجرمانية ليضع أسس الاصلاح الكاثوليكي فيها. وكان من مستشاري الأمراء والأساقفة، فأولى التربية الدينية مكان الصدارة وأنشأ عدداً من المدارس ونشر عدة كتب تعليم مسيحي أحرزت نجاحاً باهراً (٥٥٠ طبعة حتى عهد قريب). وفي ميلانو، جسّد شارل



القديس شارل بوروميه



ساحة الكاتدرائية في ترنتو

بوروميه (١٥٣٨-١٥٨٤) مثال الأسقف في نظر المجمع التريدنتيني. عاش حياة تقشّف شديد وعقد المجامع الاقليمية والسينودسات الأبرشية وأسّس المدارس والإكليريكيات، وصارت خدمته لضحايا وباء الطاعون سنة ١٥٧٦ مضرب الأمثال. نُشرت قراراته في مجلّد «أعمال كنيسة ميلانو» وانتشر كتابه «إرشاد إلى معلّمي الاعتراف» في سائر أقطار أوروبا الكاثوليكية وهو ما زال على قيد الحياة.

ازدهار الروحانية وانطلاقة الرهبانيات:

وفي اسبانيا، كانت محكمة التفتيش تسهر على عدم تسلّل الأفكار الهرطوقية، فكانت تلاحق «المستنيرين» وتتّهم في الوقت نفسه عدداً من الروحانيين. لكنّ غياب الحروب الدينية ساعد على ازدهار الروحانية وانتشار الرهبانيات. فالقديسة تيريزيا الآڤيلية (d'Avila) (١٥١٥-١٥٨٢)، بعد ان ارتقت شيئاً فشيئاً درجات التصوّفية، أسّست في ١٥٦٢ أوّل دير تمّ إصلاحه للكرمليات في آڤيلا (Avila)، ثم تجوّلت في اسبانيا، حتى وفاتها، لتجدّد الكرمليات والكرمليين بالتعاون مع يوحنا الصليب (de la Croix) (١٥٤٢-١٥٩١)، الذي عبّر عن خبرته الروحية، وسط الاضطهادات، بقصائد تُعدّ من روائع الأدب الاسباني.

تيريزيا الآبيلية (١٥١٥-١٥٨٢)

جمال المسيح

«طبع فيّ المسيح، حين رأيته، جماله الرائع، وهو ما زال فيّ حتى اليوم. ولم أحتجْ لذلك إلى أكثر من مرةّ، لا سيّما وان الرب غالباً ما يمنحني هذه النعمة. ولقد أحرزت تقدُّماً كبيراً، وهو هذا: كنتُ أعاني من إحدى النقائص الكبرى، وقد سبّبت لي ضرراً جسيماً. فما إن كنت أشعر بأن أحد الناس يعطف عليَّ، حتى أُعجب بنفسي، وإذا ما نال إعجابي علقت به، إلى حد تسخير جميع أفكاري وخواطري له، بدون ان أفكّر في إهانة الله، كنت أُسرّ برؤيته وبالتفكير فيه وفي الأمور الحسنة التي أراها فيه. وكان ذلك وخيم العاقبة، حتى ان نفسي كانت تائهة بسببه. وبعد ان رأيت جمال الرب الرائع، لم يعد أي أحد يبدو لي حسناً وأهلاً لأن أهتمّ به،

بل حسبي ان أرفع عينَي تأمّلي إلى الصورة التي فيَّ. وأصبحت حرّة بعد اليوم إلى حد النفور من كل ما أراه، ان قارنته بما وجدت في الرب من الميزات والنعم. وما من علم أو شكل من أشكال التمتُّع إلاَّ وأعدّه لا شيئًا بالنسبة إلى كلمة واحدة من ذلك الفم الإلهي الذي كثيراً ما يكلّمني. فإن لم يسمح الرب بأن تُمحى من خاطري عقاباً على خطاياي، فإني أعدّ مستحيلاً ان يشغل أيّ شيء خاطري: حسبي أن أتذكَّر قليلاً ذلك الرب لكي أستعيد حريتي».

(السيرة الذاتية)

يوحنا الصليب (١٥٤٢-١٥٩١)

عين الماء

نظم يوحنا هذه القصيدة في طليطلة (Tolède)، في ظلام زنزانته، التي حبَسه فيها معارضو إصلاح الكرمل. كثيراً ما يرد موضوع الليل في مؤلَّفات يوحنا. وهو يرمز إلى الإيمان، إلى طريق لقاء الله.

«أعرف أنا تلك العين التي تنبع وتسيل
بالرغم من ظلام الليل
تلك العين الأزلية الخفية
أعلم أنا أين مخبؤها
بالرغم من ظلام الليل.
مصدرها أجهله، فلا مصدر لها
ولكني أعلم أن كل مصدر يأتي منها
بالرغم من ظلام الليل.
أعلم أنه ما من شيء بجمالها
وان السماء والأرض ترتويان منها
بالرغم من ظلام الليل.
أعلم ان لا أحد بوسعه أن يطأها



القديسة تيريزيا الآبيلية



القديس يوحنا الصليب

ان يضع قدمه فيها
وليس بوسعه ان يعبرها
بالرغم من ظلام الليل .
ضياؤها لا يضمحل أبداً
وأعلم أنْ منها انبثق كل نور
بالرغم من ظلام الليل .
أعلم أن مجاريها غزيرة
حتى إنها تروي الجحيم والسماء والشعوب
بالرغم من ظلام الليل .
والمجرى الذي ينطلق من تلك العين
أعلم بأنه بحجمها وبأنه قدير
بالرغم من ظلام الليل .
والمجرى المنبثق من الاثنين
أعلم أنه لا يتقدّمه أيّ منهما
بالرغم من ظلام الليل .
هذه العين الأزلية مخفيّة
في هذا الخبز الحيّ ليهب لنا الحياة
بالرغم من ظلام الليل .
فيه تدعو جميع المخلوقات
وترتوي من هذا الماء، ولكن في الظلمة
لأن الليل مخيَّم .
وهذه العين الحيّة التي أصبو إليها
أراها في هذا الخبز الحيّ
بالرغم من ظلام الليل» .

وفي رومة، ظهر رجل نقيض حيّ لإغناطيوس دي لويولا، بظرفه وعدم اهتمامه بالأصول، وهو **فيليب نيري** (Néri) (١٥١٥-١٥٨٥). جمع، بما يشبه الفوضى، علمانيين وكهنة يصلّون ويرنّمون ويفسّرون الكتاب المقدّس ويدرسون تاريخ الكنيسة ويتفانون في خدمة المرضى الغرباء. إنه «الأوراتوريو» (Oratoire) الذي يرتبط أعضاؤه بالرباط الناشئ عن «العطف المتبادل والمعاشرة اليومية».

كانت الرهبانيات تنتشر في كل مكان انتشاراً عجيباً. لقد تجاوز عدد اليسوعيين، بقيادة رؤساء عامّين ممتازين، عشرة آلاف سنة ١٦٠٠، وخمسة عشر ألفاً سنة ١٦٥٠. وفي مطلع القرن السابع عشر، أصبح الكبوشيون عشرين ألفاً. قد نرى في ذلك دليل حرارة روحية. وفي عدد من مدن أوروبا، أدّى تكاثر الأديرة إلى اتّساع أملاك الكنيسة.

لقد بُذل مجهود لإعادة النظام القديم إلى الرهبانيات النسائية، لكن جميع المحاولات التجديدية كانت تصطدم بمعارضة رومة والأساقفة. إن المرأة تحتاج «إما إلى دير وإما إلى زوج». ولذلك، اضطُرَّت الراهبات الأرسولينيات (Ursulines) اللواتي أسَّستهنّ أنجيل دي ميريشي (Angèle de Merici) وراهبات الزيارة اللواتي أسَّسهن فرانسوا دي سال (de Sales) وجان دي شانتال (Jeanne de Chantal) إلى الاعتكاف في أديرة محصَّنة.

نشأة الكثلكة المعاصرة

أضفى المجمع التريدنتيني على الكنيسة ذلك الطابع الذي حافظت عليه حتى عهد قريب. فأصبحت كلمة «كاثوليك» تدل على مجموعة معيَّنة من المسيحيين، إلى جانب البروتستانت

والأرثوذكس. وخرجت الكنيسة الكاثوليكية من المجمع مستقرّة ومنظّمة ومركَّزة حول رأسها البابا. لقد دمج المجمع ماضي الكنيسة في حاضرها، لكنه ظلّ صامتاً أمام عدد من المشاكل الجديدة، كالتطوّر الاقتصادي والاجتماعي.

ثانيًا – الازدهار الدينيّ في القرن السابع عشر

١. الدين والسياسة

في عصر الشمولية هذا، كان الملوك، سواء من الكاثوليك أو من البروتستانت، يحرصون على ان يكونوا في بلادهم سادة جميع المؤسَّسات، بما فيها الكنائس، إذ كان من واجبات الدين ان يخدم مصالحهم السياسية. فوقعوا في تناقضات صارخة. وكانت فرنسا لا تنقطع عن التحالف مع الأمراء البروتستانت، ان لم يكن مع الأتراك، لمحاربة الأمبراطور وملك اسبانيا، بطلَي الكثلكة. أمَّا في داخل المملكة الفرنسية، فكان البروتستانت عرضة للمزيد من سوء المعاملة يوماً بعد يوم.

حرب الثلاثين سنة

لم يفقد الأمبراطور أمله في إحياء الكثلكة في بلاده. وكان عدم قبوله بتقديم بعض التنازلات للبروتستانت في بوهيما السبب الذي أشعل الأعمال العدوانية التي أدَّت إلى حرب الثلاثين سنة. ولَمَّا انتصر فرديناند (Ferdinand) الثاني في أول أمره، أصدر مرسوماً أرغم فيه البروتستانت على ردّ الممتلكات الكنسية التي صادروها من الكاثوليك سنة ١٥٥٢. لكن البروتستانت تحالفوا مع السوَيد وفرنسا. فامتدّ الخلاف إلى أوروبا كلها، ولم ينتهِ إلاَّ بتوقيع معاهدات ويستفاليا (Westphalie) (١٦٤٨). بذلك عاد البروتستانت إلى ما كانوا عليه سنة ١٦١٨، وتمَّ الاعتراف بالمذهب الكلفيني في الأمبراطورية. فاحتجّ البابا اينوقنطيوس (Innocent) العاشر على ما في المعاهدات من بنود دينية، لكن الكرسي البابوي لم يعد له بعد اليوم من دور في القرارات السياسية الدولية.

في الجزر البريطانية

وفي انكلترا، كانت الحكومة تلاحق الكاثوليك والبروتستانت المنشقّين الذين يرفضون الرتب التقليدية المتبقّية في المذهب الانكليكاني. وابتداءً من سنة ١٦٢٠، أخذ بعض أولئك المنشقّين يهاجرون إلى أميركا ليعيشوا فيها وفقًا لمعتقداتهم. لكنّ أوليڤييه كْرومْويل (Olivier Cromwell)، الذي تزعّم حركة المنشقّين، انقلب على الملك كارلس الأول وأعدمه سنة ١٦٤٩. وباسم الكتاب المقدّس، قام كروموِيل بتقتيل الإيرلنديين، لأنهم رفضوا العدول عن إيمانهم الكاثوليكي. ولَمَّا أُعيد الحكم المَلَكي، لم يتغيّر أي شيء بالنسبة إلى الكاثوليك. ففي سنة

١٦٨١، شُنق رئيس الأساقفة الإيرلندي أَرْماغ (Armagh).

بصيص تسامح وبداية روح مسكونية

وظهر، طول هذا القرن، أناس مسالمون، وان كان عددهم قليلاً، عملوا على التقارب بين مسيحيي مختلف المذاهب. نخصّ بالذكر



جاك بوسوييه

المراسلات التي كان محورها الفيلسوف لايبنيتز (Leibniz) (١٦٤٦-١٧١٦). ففي مرحلة أولى، قام سْبينولا (Spinola)، وهو أسقف فرنسيسكاني وصديق للأمبراطور ليوبولد (Léopold) الأول، فاتّصل بكاهن لوثري في هانوڤر (Hanovre)، يدعى مولانُس (Molanus)، وبلايبنيتز، ووضعوا سنة ١٦٨٣ نصاً سياسياً بعنوان «قواعد لتوحيد عام للمسيحيين». وفي مرحلة تالية، أُقيمت مراسلة مكثّفة بين بوسوييه (Bossuet) ولايبنيتز (١٦٩١-١٦٩٤). وأراد لايبنيتز ان يعلّق المجمع التريدنتيني، ريثما يُعقد مجمع عام جديد. لكن لم يتمّ الاتّفاق، إذ ان بوسوييه كان يرى ان على لايبنيتز ان يصبح كاثوليكيًا، في حين كان يرغب لايبنيتز ان يسلّم بوسوييه بوجود عدّة وجهات نظر مسيحية.

الكنائس الأرثوذكسية والمحن السياسية الدينية

كانت الكنائس الأرثوذكسية موزّعة على ثلاثة قطاعات سياسية: مملكة بولندا (أكرانيا) والأمبراطورية الروسية والأمبراطورية العثمانية. كانت الكنائس المختلفة ترغب في المحافظة على الاتّحاد في الإيمان والليترجية، لكنها لم تنجح دائماً. وكان البولنديون يسعون لربط صقالبة (Slaves) مملكتهم البيزنطيين برومة. وعلى أثر قيام اتحاد بْريست ليتوفسك (Brest-Litovesk) (١٥٩٦)، نشأت كنيسة اتّحادية مقرّ كرسيّها كييف (Kiev). والكنائس الاتّحادية هي الكنائس الشرقية الملتحقة برومة، مع المحافظة

على عاداتها وتقاليدها، من لغة وليترجية وزواج الكهنة.

وعلى أثر زوال المراكز الثقافية في الأمبراطورية العثمانية وعدم توفّرها في الأمبراطورية الروسية، تخرَّج في الغرب عدّة مسؤولين دينيين أرثوذكسيين وتأثّروا إلى حدٍّ قريب أو بعيد بتعاليم الاصلاح أو الكثلكة التريدنتينية. فنشأ عن ذلك خلافات عقائدية شديدة. ففي سنة ١٦٢٩، عرض بطريرك القسطنطينية، كيرلّس لوكاريس (Lukaris)، شهادة إيمان كلڤيني أدَّت إلى الكثير من الاحتجاجات والشجب. وبعكس ذلك، استوحى متروبوليت كييف، بطرس موغيلا (Moghila)، تعاليم المجمع التريدنتيني في شهادته الإيمانية (١٦٤٠) وكتابه «التعليم المسيحي» (١٦٤٥)، لكنه رفض رئاسة البابا وإضافة «والابن» إلى قانون الايمان. ونجد النهج نفسه في شهادة إيمان دوزيتاوس (Dosithée) الأورشليمي (١٦٧٢). ولا بدّ من الإشارة هنا إلى ان تدخّل السفراء الغربيين في القسطنطينية، من كاثوليك وبروتستانت، في قضايا الكنائس الأرثوذكسية، ترتّبت عليه في أغلب الاحيان عواقب وخيمة. نخصّ بالذكر سفير فرنسا، كان يؤيّد عمل المرسلين الكاثوليك الذين حاولوا أن يضمّوا إلى الكثلكة المؤمنين الأرثوذكس، إذ كانوا يعدّونهم منشقّين.

وفي الأمبراطورية الروسية، أقدم بطريرك موسكو، نيكون (Nikon) (١٦٥٢-١٦٥٨)، على إصلاح بعض عادات الكنيسة الروسية، لتجاري سائر العالم اليوناني، فسبّب بذلك انشقاق عدّة ملايين من «المؤمنين القدماء»، وما زال هذا الانشقاق قائماً حتى هذا اليوم.

التعرّض للخطر التركي

ان انتصار الأساطيل الكاثوليكية على الاتراك في ليپانْتْ (Lépante) (١٥٧١)، لم يؤدِّ إلى النتائج المرجوَّة. فإن الاتراك واصلوا زحفهم في الجزر اليونانية - وانتزعوا جزيرة كريت من أيدي البنادقة سنة ١٦٦٩ - وعرّضوا للخطر جنوب بولندا والدول النمسوية. بذل البابا اينوقنطيوس الحادي عشر (١٦٧٦-١٦٨٩) نشاطًا دبلوماسياً واسعاً لإقامة تحالف لصدّ الاتراك، وبتاريخ ١٢ أيلول (سبتمبر) سنة ١٦٨٣، زحف الملك جان سوبياسكي (Sobieski) على رأس الجيوش البولندية والأمبراطورية وأرغم الاتراك على فكّ الحصار عن ڤيينّا (Vienne). فنتج عن ذلك هجوم شامل، واستُعيدت بودابست (Budapest) وبلغراد، وشعر السكّان المسيحيون بارتياح عظيم ظهر في انتشار الفنّ الباروكي في هذا الجزء كلّه من أوروبا.

٢. أساقفة جُدد وكهنة جُدد

سنة ١٦١٥، عزم الأساقفة الفرنسيون، تجاه ما وجدوه من سوء النية عند الملك، على تطبيق قرارات المجمع التريدنتيني. فأقدم عدد منهم على القيام بإصلاح رعوي يتناول جميع

مجالات الحياة المسيحية. ومن أشهرهم الكردينال لا روشفوكو (La Rochefoucauld). وأسهم بعض المعلّمين الروحانيين في تكوين مثال جديد للكهنة الذين سيقومون بإصلاح الشعب المسيحي، كما أسهم أيضاً في هذا التجديد عدد كبير من النساء.



القديس فرنسوا دي سال

فرنسوا دي سال (١٥٦٧-١٦٢٢)

استوحى فرنسوا دي سال، أسقف جنيف - أنسي (Annecy)، المثال الذي وضعه شارل بوروميه. فكان له تأثير عميق في روحانية العلمانيين والكهنة والرهبان على حد سواء، بفضل كتابَيه: «مدخل إلى العبادة» (١٦٠٨) و«مقال في محبّة الله» (١٦١٦). تمتاز روحانيته بنزعة إنسانية تفاؤلية وبوعظ إنجيلي بسيط.

جميع المسيحيين، حيثما عاشوا، مدعوّون إلى القداسة

فرنسوا دي سال هو من الأوائل الذين اقترحوا روحانية تصلح للعلمانيين انطلاقاً من نمط حياتهم. وقد تصلح مقارنتها بما قاله كلفين عن الدعوة.

«أنوي ان أعلّم الذين يعيشون في المدن أو في حالة الزواج، أو في البلاط، والذين يتوجّب عليهم، بسبب أوضاعهم، ان يعيشوا في الظاهر حياة عادية، والذين، بحجة عدم تمكّنهم المزعوم، غالباً ما يأبون ان يفكّروا في مبادرة حياة العبادة...

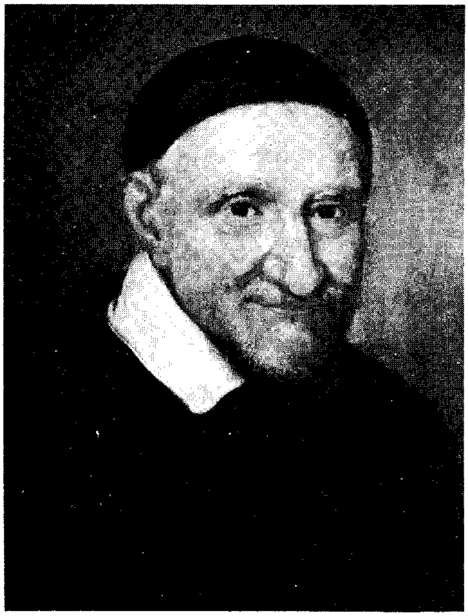
ان العبادة الصحيحة والحيّة تفترض محبّة الله، وليست سوى محبّة صحيحة لله... وهي، إذ تقوّينا على العمل الصالح، تسمّى المحبة. لكن، عندما نبلغ درجة الكمال فلا نكتفي فيها بالعمل الصالح، بل ننجزه بدقة وبكثرة وفوراً، عندئذ تسمّى العبادة...

ان ممارسة العبادة لا بد ان تكون مختلفة عند الأعيان أو الحرفيين أو الخادم أو الأمير أو الأرملة أو الفتاة أو المتزوّجة. لا هذا فحسب، بل يجب تكييف ممارسة العبادة مع قوى كل واحد وأعماله وواجباته... ومن الخطأ ان تبعَد حياة العبادة عن زمرة الجنود ودكّان الحرَفيين وقصر الأمراء وعائلة المزوّجين... حيثما كنّا، بوسعنا ويجب علينا ان نسعى إلى حياة الكمال»

(فرنسوا دي سال، مدخل إلى العبادة)

«المدرسة الفرنسية» في الروحانية

قام بطرس دي بيرول (Bérulle) (١٥٧٥-١٦٢٩)، بمساعدة السيّدة أكاري (Acarie)، بإدخال نظام الكرمل بعد إصلاحه إلى فرنسا. وكان يشعر بعظمة الكهنوت، فأسّس جمعية كهنة، سُمِّيت «الأوراتوار» (Oratoire) (١٦١١) لإكرام كهنوت يسوع وتحسين أوضاع الكهنوت. ووضع أعضاء هذه الجمعية أنفسهم، بصفتهم كهنة علمانيين، تحت تصرُّف الاساقفة. ثم نشر خلفاء بيرول روحانيته، واهتمّوا بتبشير الشعب وتكوين الكهنة. وأسّس جان أود (Eudes) (١٦٠١ – ١٦٨٠) جمعية رهبانية ونشر عبادة قلب يسوع. واتّخذت هذه العبادة طابعاً نسائيًا في شخص مرغريتا–ماريا ألاكوك (Alacoque) (١٦٧٣). وأسّس جان جاك أولييه (Olier) (١٦٠٨ – ١٦٥٧) جمعية كهنة سان سُلْپيس (Saint-Sulpice) لتكوين الكهنة. وكان منصور دي پول (Vincent de Paul) (١٥٨١-١٦٦٠)



القديس منصور دي پول

«قديساً عظيماً في عصر عظيم». جاء من لاند إلى باريس طمعاً بالنجاح في الكنيسة. لكنه شعر شيئًا فشيئًا بحاجات الشعب المسيحي. فأسّس جمعية الرسالة (اللعازريين) لتبشير الأرياف، «وبنات المحبة» لخدمة الفقراء (١٦٣٣).

الحبّ الحقيقي يُترجَم بالأعمال

«لنحبّ الله، يا إخوتي، لنحبَّ الله، ولكن ليتمَّ ذلك على حساب أذرعنا، وبعرق جباهنا. فغالبًا ما نقوم بأعمالٍ حبًّا لله أو مجاملةً للآخرين وعطفاً عليهم أو لغير ذلك من الاعتبارات، ونقوم بأعمال باطنية بقلوب رقيقة. فهذه الأعمال، وان كانت صالحة ومرغوبة، فإنها مشكوك بأمرها إلى حدٍّ بعيد ان خلت من ممارسة الحبّ الفعلي. لقد قال ربّنا يسوع المسيح: يمجَّد أبي بأن تأتوا بثمر كثير . . .

يباهي بعض الناس بحرارة مخيّلتهم ويكتفون بحديثهم العذب إلى الله في التأمُّل، ويخبرون به كالملائكة. ولكن، بعد خروجهم منه إذا طُلب إليهم ان يعملوا في سبيل الله، أو أن يتألّموا ويتقشّفوا ويعلّموا الفقراء ويبحثوا عن

الخروف الضالّ ويُسرّوا بما ينقصهم ويرحّبوا بالأمراض وبغيرها من المصائب، عندئذ يتوارون ويفقدون همّتهم. لا، لا، لا نخدع أنفسنا، فإن «كل إنجازاتنا إنما هي في العمل».

(منصور دي پول)

إنشاء الإكليريكيات

هؤلاء الناس جميعاً اهتمّوا بتكوين الكهنة، لكنهم لم يضعوا أيّ شرط واضح للوصول إلى الكهنوت. كان منصور دي پول يعرض، في أحد عشر يوماً فقط، جوهر اللاهوت والخدمة الرسولية، ويقترح بعد ذلك نوعاً من تكوين دائم للكهنة في محاضرات يوم الثلاثاء. ثم أخذ يجمع طلاّب الكهنوت في مدرسة لمدّة أطول... ثم أخذت الاكليريكيات تنشأ شيئاً فشيئاً في منتصف القرن. ولم تُعمَّم على جميع الأبرشيات إلاّ في نهاية القرن السابع عشر ومطلع القرن الثامن عشر. وكان الأساقفة يعهدون بإدارة اكليريكياتهم إلي الأوراتوريين (Oratoriens) والسلبيسيين (Sulpiciens) واللعازريين والأوديين (Eudistes)... وكانت مدّة التكوين تختلف. فتحوّلت من بضعة أشهر إلى نحو سنة في نهاية القرن السابع عشر، وإلى سنتين في القرن الثامن عشر. كان التكوين في أوّل أمره أخلاقياً ودينياً، ثمّ أخذ يهتمّ بالدروس. وقد أسهمت الاكليريكيات في تكوين صورة للكاهن المثاليّ ما زالت قائمة حتى أيّامنا، أي رجل منفصل عن العالم بملابسه ونمط حياته، يقيم القداس كل يوم ويتلو صلاة الفرض ويشعر بمسؤولياته الرعوية.

تكوين رجال الإكليرس: متطلّبات متنامية

كان منصور دي پول يفرض على كهنة الغد تكويناً يستغرق أحد عشر يوماً. لكن المتطلّبات ازدادت شيئاً فشيئاً، حتى تمّ إنشاء الاكليريكيات. إليك بعض التدابير التي اتّخذها رؤساء أساقفة ليون:

١٦٥٧: «نطلب من الذين يرغبون في الارتقاء إلى الدرجات المقدّسة أن يذهبوا إلى هذه المدينة (ليون) في الوقت المناسب ليُثقَّفوا في إكليريكية سيدنا [المطران] ويقيموا فيها كما يلي: ١٢ يوماً لدرجة الشماس الرسائلي، و١٠ أيام لدرجة الشماس الانجيلي، و١٥ يوماً للكهنوت».

١٦٦٣: تأسيس اكليريكية القديس ايريناوس (Irénée) في ليون: «أنشأنا اكليريكية لنثقّف اكليريكيي أبرشيتنا وندرّب جميع الذين يتطلّعون إلى هذه المهمة، ندرّبهم على التقوى والأهلية، اللتين يقتضيهما مقام هذه الوظيفة المقدّسة، ونحسّن أوضاع الذين سبق لهم ان التزموا بها، وذلك بالرياضات والأحاديث الروحية والمحاضرات والارشادات...»

فنكون أخيراً مدرسة مقدّسة يتعلّمون فيها الفضيلة وممارسة الأسرار والرتب الكنسية، وكل ما هو مطلوب من أشخاص يريدون ان يتكرّسوا لتقديس الشعوب. . . ».

١٦٩٤: «لا يُقبل أحد إلى الرسامة شماساً وسائلياً، ان لم يمكث ستة أشهر في احدى اكليريكيات ليون، وثلاثة أشهر قبل قبول درجة الشمّاس الانجيلي وثلاثة أشهر قبل قبول درجة الكهنوت. . . ».

٣. تحوُّل المسيحيين

كان الاصلاح البروتستانتي والمجمع التريدنتيني نقطة انطلاق لتبشير جميع المسيحيين في العمق. فهناك رجال اكليرس حصلوا على تكوين أفضل وعلمانيون مثقّفون منضمّون في جمعيات، كجمعية القربان الأقدس، يريدون ان يجعلوا عامة الشعب يحذو في تديّنه حذو النخبة المختارة، ممّا يقتضي العدول عن بعض العادات الدينية الشعبية المتوارثة عن عصور مظلمة، حين كانت المسيحية ترتدي رداء ما سبقها من ديانات، وكثيراً ما كان المسيحيون على مثال الوثنيين ينظرون إلى الأسرار نظرة سحرية.

لقد تحالف في نهاية القرن الأساقفة والكهنة والعلمانيون الأتقياء، بمساندة السلطات المدنية، لتعميق العقيدة المسيحية، والحثّ على ممارسة الأخلاق المسيحية، وإبراز الفرق بين الديني والدنيوي، وإقامة الليترجية بشكل لائق والدعوة إلى تديّن منتظم وصادق.

الوسائل المستخدمة

قامت السلطات الدينية والعامّة باتّخاذ بعض التدابير لمحاربة الأعياد الفولكلورية. لكن بعض الطبقات كانوا يقاومون تلك التدابير ويستمرّون في الاحتفال بالاعياد سراً بدون مشاركة رجال الاكليرس. وفي مطلع القرن السابع عشر، عوّضت الحملات التبشيرية الرعايا عن نقص الاكليرس العلماني. وكانت تلك الحملات عملاً جماعياً يستغرق عدّة أسابيع، يُحييه بعض الرهبان أو بعض أعضاء الجمعيات الكهنوتية. وكان المطلوب إليهم أن يشفوا الناس من الجهل الديني، ويلقّنوا الصلوات الأساسية والحد الأدنى من الممارسات التقوية ويحثّوا على الاعتراف والتناول في الزمن الفصحي. وفي نهاية القرن، وقد تحسّن تكوين الاكليرس، أصبحت الحملة التبشيرية تقليداً دورياً يهدف إلى التعمّق في الحياة المسيحية. وكان غرينيون دي مونفور (Grignon de Montfort) (١٦٧٣-١٧١٦) من هذا الجيل الثاني من المبشّرين.

وكان الكهنة في رعاياهم يجتهدون في التوصّل إلى الانتظام في القيام بالواجبات المسيحية الأساسية: قبول سرّ المعمودية في الأيام الثلاثة التابعة للولادة، وقبول سرّ التثبيت عند قدوم الاسقف، والتناول الفصحي الذي كاد ان يكون شاملاً في بعض الارياف. وأخذ

التناول الاحتفالي ينتشر شيئًا فشيئًا، وأصبح الاشتراك في قُدَّاس الأحد أشدّ الزامًا، لكن اللغة المستعملة في أثنائه، ما عدا العظة بعد الانجيل، كانت اللاتينية التي لا يفهمها الشعب. وكان التعبّد للقربان الأقدس لا يقوم غالبًا على التناول بقدر ما يقوم على الاكثار من زياح القربان وعلى تطوافات عيد الجسد.

كتب التعليم المسيحي والمدارس الصغيرة

لا بدّ من تعليم المسيحيين منذ نعومة أظفارهم. فكان من واجبات خوري الرعية ان يعلّم الأولاد، بل البالغين غير المثقّفين أيضًا، كل يوم أحد. وسرعان ما فرض كل أسقف على أبرشيته كتاب تعليم مسيحي. لكن التعليم المسيحي يوم الأحد بدا غير كافٍ. ولكي يستطيع الفقراء الحصول على تعليم عام وديني، أخذ بعض المسيحيين الأسخياء يؤسِّسون المدارس الصغيرة المجانية في إطار الرعية. فأنشأ يوحنا المعمدان دي لا سال (de la Salle) (١٦٥١-١٧١٩) «إخوة المدارس المسيحية» ليوفِّر للصبيان الفقراء معلِّمين يربّونهم بلغة التخاطب اليومية. ولا بدّ هنا من استكمال هذه الصورة للتقوى المسيحية بالإشارة إلى قيام عدد كبير من جمعيات التقوى والمحبة، كالتي أسَّسها منصور دي پول. ومع ذلك، نكاد لا نرى كبار الوعَّاظ يتناولون، أمام الشخصيّات البارزة، أمر مسؤولياتهم الاجتماعية، بل كانوا يكتفون بدعوتهم إلى الاحسان وتقديم الصدقات.

ثالثًا - نزاعات وأزمات داخليّة

لم يأتِ المجمع التريدنتيني بحلول لجميع المشاكل اللاهوتية التي أثارها الاصلاح، فإن المناقشات ظلّت قائمة. والدراسات الكتابية التقليدية أخذت تواجه الدراسات والاكتشافات العلمية الأولى. فشكَّل اللاهوتيون، الذين قاموا بدور هام في المجمع، سلطة جديدة في الكنيسة. وانتشر أسلوب لاهوتي جديد، هو المناظرة، عند الكاثوليك والبروتستانت على حد سواء. فكان من أشهر المناظرين الكردينال روبير بلاَّرمينو (Bellarmino) اليسوعي (١٥٤٢-١٦٢١) الذي رئس كلية المناظرة في



القديس روبير بلّرميني

رومة «لتسليح جنود الكنيسة في سبيل محاربة قوات الظلام». ومن جهة أخرى، كانت النزاعات الدينية لا تخلو من البُعد السياسي.

١. المجابهة الأولى
بين العلم والتقليد الكتابي

الثورة الكوپرنيكية (Copernicienne)

تدخّل بلاّرمينو في قضيّتين تعبّران عن ذلك الخوف من الهرطقة الذي كان يشغل الاذهان في زمن الاصلاح المضادّ، وهما الحكم على جيوردانو برونو (Giordano Bruno) وغليليو (Galilée). وكان الراهب البولندي كوبرنيك (Copernic) قد قلب تصوُّر العالم التقليدي رأساً على عقب، في كتاب أهداه إلى البابا، بعنوان «دَوَران الأفلاك الأرضية» (١٥٤٣): الشمس لا تدور حول الأرض، بل الأرض تدور على نفسها وحول الشمس. وبعد ذلك بخمسين سنة، حدثت بلبلة كبيرة في رومة، حين استأنف جيوردانو برونو ثم غليليو نظرية كوبرنيك في دوران الأرض حول الشمس. ذلك بأن هذه النظرية كانت تعارض، في نظر اللاهوتيين الكاثوليك والبروتستانت، ما ورد في الكتاب المقدّس (جا ١/٤ ويش ١٠/١٢-١٣): أولم يوقف يشوع الشمس؟ لا شك ان برونو شطّ في استخلاص نتائج بعيدة جداً عن المسيحية، واستحقّ اللوم على تركه النذور الرهبانية. وبعد محاكمة استغرقت سبع سنوات، أُحرق في رومة سنة ١٦٠٠. وبعد ذلك ببضع سنوات، عبثاً أكّد غليليو أن «الروح القدس في الكتاب المقدّس لم يُرد ان يبيِّن لنا كيف تسير السموات، بل كيف يذهب الانسان إلى السماء». ومع ذلك، شُجبت نظرية مركزية الشمس سنة ١٦١٦، وأُدرج كتاب كوبرنيك في قائمة الكتب المحرَّمة، «إلى ان يصحِّح نظريته»! وكان الحكم الثاني على غليليو سنة ١٦٣٣ أشدّ صرامة، إذ إنه قضى بقية حياته تحت الاقامة الجبرية. ونقطة الانطلاق هذه في سوء الفهم بين الكنيسة والعلم تفاقمت وازدادت يوماً بعد يوم.

نشأة التفسير النقدي

كثر عدد شروح الكتاب المقدّس وترجماته. وفي وسط القراءات الدفاعية والروحية، ظهرت القراءات «العلمية» الأولى في مؤلّفات الفيلسوف اليهودي الهولندي سپينوزا (Spinoza) والأوراتوري الفرنسي ريشار سيمون (Richard Simon). يُعدّ سيمون أحد آباء النقد الكتابي، فهو الذي أثار للمرّة الأولى مشكلة طبيعة الالهام، إذ أقام مقارنة بين ترجمات الكتاب المقدّس في مختلف اللغات القديمة، وأثبت أنه غير ممكن ان يكون موسى مؤلِّف التوراة الوحيد. لكنه بقي منعزلاً في العالم الكاثوليكي. وكان نصيب «التاريخ النقدي» لبوسوييه (Bossuet) الادانة والاتلاف كما فُصل ريشار سيمون من جمعية الأوراتُوار.

مصادر علم اللاهوت

ردَّ بعض العلماء الكاثوليك على كُتب البروتستانت التاريخية المتَّسمة أحياناً بسوء النية، فقاموا بعمل مثمر إلى حد بعيد في العرض التاريخي العلمي لمصادر علمِ اللاهوت. وخلّد اليسوعي البلجيكي جان بولَنْد (Bolland) اسمه بمشروع نشر منتظم لسِيَر القديسين.

٢. الجَنْسينيَّة (Jansénisme)

الحرّية والنعمة

نشأت الجنسينية عن النقاش اللاهوتي الذي أثاره الاصلاح: ما هو المكان الذي تحتلّه كل من النعمة والحرية في خلاص الانسان؟ فهناك تقليد أوغسطيني قوي يشدّد على النعمة وعلى الاختيار السابق على حساب حرّية الانسان. ومن المعروف أن قضايا بايس (Baïus) (وهو لاهوتي بلجيكي)، التي تسير في هذا الاتّجاه، شُجبت سنة ١٥٦٧. وبالمقابل، كان اليسوعيون، كالاسباني مولينا (Molina)، يجتهدون في الحفاظ على الحرّية، فيقولون بوجود نعمة كافية تصبح فعّالية بحكم حرية الانسان (١٥٨٨).

جنْسينيوس (Jansénius)

عرض جنسينيوس قضاياه في النعمة في كتاب صدر بعد وفاته، عنوانه «أوغسطينس» (L'Augustinus) (١٦٤٠)، يبدي فيه، استناداً إلي القديس أوغسطينس، تشاؤماً شديداً من الطبيعة البشرية التي أسقطتها الخطيئة الأصلية.

الأزمة الأولى

قام خصوم الجنسينيين برفع النزاع إلى رومة، فشُجبت خمس قضايا اقتبست من كتاب جنْسينيوس (١٦٥٣). لكن الخلاف استمرّ بين المدافعين عن النظرتَين إلى الحياة المسيحية، أي الجنسينيين واليسوعيين. وكان الجنسينيون يؤكِّدون ان القضايا الخمس لا وجود لها عند جنسينيوس. فقام بليز باسكال (Blaise Pascal) (١٦٢٣-١٦٦٢) وساند الجَنْسينيين في مقالاته «الاقليميات» (١٦٥٦-١٦٥٧)، متهجِّماً، أمام الجمهور، على أخلاق اليسوعيين «المتراخية». وبعد ان رفض الجنسينيون، لمدّة طويلة، توقيع صيغة معيَّنة، قبلوا أخيراً حلاًّ



بليز بسكال

وسطاً سنة ١٦٦٨. وفي سنة ١٦٧٠، صدرت «الخواطر» (Pensées) لباسكال، وهي مذكِّرات كان قد أعدَّها دفاعاً عن المسيحية وردّاً على غير المؤمنين في زمنه.

الأزمة الثانية

تجدَّد النزاع في نهاية القرن لدى صدور «الخواطر الأخلاقية» (١٦٩٥) التي وضعها الاوراتوري كينيل (Quesnel). وكان الجنسينيون يظهرون بمظهر المعارضين السياسيين، وكان زعماؤهم يلتجئون إلى هولندا المعادية. فألقى لويس الرابع عشر كثيراً من الجنسينيين في السجون وحصل من البابا على شجب مئة قضية وقضية وردت في كتاب كينيل. ومع ذلك، استمرَّت المعارضة الجنسينية طوال القرن الثامن عشر.

بقيت الحركة الجنسينية كمرادفٍ لنزعة مسيحية صارمة متشدّدة. فاقترح بعض الجنسينيين ان تكون الليترجية أقرب إلى الشعب باستعمال اللغات القومية، وان يكون للكهنة والعلمانيين مكانة أفضل تجاه الأساقفة. على ان هناك مَن يرى ان تزمّتهم أدّى إلى النفور من الدين.

٣. النزعة السكينية (Quiétisme) أو أزمة التصوُّف

كان للتصوُّف على مرّ الزمان مكانة مرموقة في التقليد المسيحي، ومع ذلك كثيراً ما تعرّض لسوء الظنّ والاتّهام. فلقد اتُّهم بالحطّ من قيمة التجسّد وناسوت المسيح، وبالميل إلى الحلولية وإلى تبرير التراخي الأخلاقي حتى في ما يتعلّق بالجنس... ولا شك ان شجب «المتصاوفين» في اسبانيا كان يستهدف مثل تلك الانحرافات، أحقيقية كانت أم خيالية.

التسليم أو المحبة الخالصة

أحرز الكاهن الإسباني ميخائيل دي مولينس (Miguel de Molinus) (١٦٢٨ — ١٦٩٦) نجاحاً عظيماً في رومة، يوم أصدر «الدليل الروحي» (١٦٧٥) يعرض فيه تصوُّف الاستسلام والمشاهدة المكتسبة. كان يحطّ بعض الشيء من دور الأعمال والتقشف. وفي سنة ١٦٨٧، حُكم عليه بالسجن المؤبد بسبب بدعته وفساد أخلاقه. ويقال ان ضلاله هو النزعة السكينية (نسبةً إلى السكينة).

وكان فينلون (Fénelon) من أنصار تلك النزعة، وأراد ان يبرّر نظرته الروحية، فوضع كتاباً بعنوان «شرح حِكَم القديسين في الحياة الباطنية» (١٦٩٧)، مستنداً إلى الكُتَّاب التقليديين. وممَّا قاله: «جميع الطرق الباطنية تنزع إلى المحبة الخالصة والمنزَّهة. وهذه المحبة الخالصة هي أعلى درجة في الكمال المسيحي. وهي الغاية التي تسعى إليها جميع الطرق التي عرفها القدّيسون». لكن الضغوط التي مارسها بوسوييه (Bossuet) ولويس الرابع عشر أدَّت إلى حمل رومة على شجب ثلاث وعشرين قضية وردت في كتاب فينلون (١٦٩٩). يبدو ان الرقابة

وجدت فيه نزعة إلى اللامبالاة أمام الثواب أو العقاب الإلهيين، لكنّ فينلون خضع وانصرف إلى مهمته كرئيس أساقفة كمبري (Cambrai).

لقد نجح الاصلاح الكاثوليكي أكثر ممّا يجب. ولم يبقَ، في مجتمع مشغوفٍ بالنظام، مكان لما يخرج عما هو معقول ومحدّد الملامح، حتى شمل الشكّ في التصوُّف، كما سبق وشمل التديّن الشعبي.

الفصل الثالث عشر

إعلان البشارة لسائر أنحاء العالم

(من القرن ١٥ إلى القرن ١٨)

ان الاكتشافات الكبرى التي تمَّت في القرنين الخامس عشر والسادس عشر كانت نقطة الانطلاق في تبشير العالم، فأصبحت الكنيسة «جامعة» بالفعل. على ان التبشير اختلط بالتجارة والاستعمار وتقلّبات السياسة والنزاعات العالمية، فعانى من تدخّلاتها وكثيراً ما فقد صفاءه. ومع ذلك، فإننا أمام جهود جبَّارة بذلها جمّ غفير من الناس اللامعين طول ثلاثة قرون. وفي القرن الثامن عشر، انعكست الأزمات الكنسية الداخلية على الارساليات النائية، وأوقفت الثورة الفرنسية إلى حين ما نشأ من علاقات بين الكنيسة وبلاد ما وراء البحار.

أوّلاً – انطلاقة الحركة الإرساليّة الكبرى في الزمن المعاصر

١. الأوضاع والدوافع

الأوضاع

ارتبط تبشير العالم بالاكتشافات الكبرى، فتوقَّف إلى حدٍّ بعيد على الأوضاع الماديّة والتجارية والسياسية التي تمَّت فيها الرحلات إلى البلدان النائية. لقد عاد المتضلّعون من الآداب القديمة إلى اكتشاف كُرويّة الأرض التي عرفها القدماء. كما مكَّنت دفَّة السفينة والبوصلة وازدياد عدد الصواري والأشرعة من اختراع سفينة الاكتشاف، وهي الكاراڤيل التي ستجابه المحيطات. ومع ذلك بقيت الملاحة بطيئة ومحفوفة بالأخطار، وانعكست هذه الأحوال على الارساليات. فكانت الرحلة من لشبونة إلى غوا (Goa) (الهند) ذهاباً وإياباً تستغرق من ثمانية

عشر شهراً إلى سنتين. وكانت الرحلة من أشبيلية (Séville) إلى مانيلا ذهاباً وإياباً تستغرق خمس سنوات في أغلب الأحيان. وكان نصف الملاّحين يهلكون في الطريق. فلا عجب من الخسارات الفادحة في عدد المُرسَلين ومن شغور الكراسي الأسقفية لمدّة طويلة، علماً بأن التعيينات كانت تتمّ في أوروبا. ولا غرابة في النزاعات التي لا نهاية لها، كالخلاف الذي نشأ في أمر الطقوس.

الذهب والفلفل والنفوس

علينا أن نأخذ بعين الاعتبار ما كان يحرّك المكتشفين من جملة دوافع يختلط فيها كل شيء بشكل معقد.

ففي نهاية القرن الخامس عشر، دفعت الظروف الاقتصادية سُكّان بلاد البحر الأبيض المتوسِّط إلى الذهاب إلى مصادر الذهب الذي كانوا في حاجة إليه للتجارة مع الشرق، وإلى المرور بالغرب لشراء التوابل بأسعار منخفضة، وإلى البحث عن أراضٍ زراعية ويد عاملة، أي العبيد.

ومن جهة أخرى، كانت فكرة التبشير لا تزال حيَّة. وكان البعض يتساءلون: هل حانت الأزمنة الأخيرة التي يحلّ فيها ملكوت الله على الأرض، مع حلول عالم جديد؟

كان الكثيرون يفكّرون أيضاً في مساعدة الملايين من النفوس على تجنّب الهلاك الأبدي. وفي نهاية القرن السادس عشر، ظهرت عند الكاثوليك فكرة التعويض عن الخسائر التي سبّبها الانشقاق البروتستانتي للكنيسة الرومانية، فإن مستقبل الكنيسة هو في ما وراء البحار! وفي القرن السابع عشر، ربط عدد من المسؤولين بين الارساليات في الداخل والارساليات النائية.

كانت جميع الدوافع إذن مختلطة بشكل معقّد، فهناك «الذهب والفلفل والنفوس». كان المكتشفون والفاتحون يتصرّفون تصرُّفاً يبدو لنا اليومَ متناقضاً وفاضحاً، إذ انهم كانوا ينصبون الصلبان ويقتّلون الهنود الحمر.

٢. تنظيم الإرساليات

الوصاية (Patronat)

في خلال القرن الخامس عشر، منح الكرسي الرسولي ملك البرتغال، في سلسلة من البراءات، الولاية الزمنية والروحية على الأراضي المكتشفة والتي ستُكتشَف. فأدّى اكتشاف البلدان الهندية الغربية (أميركا)، عن يد كريستوف كولمبو سنة ١٤٩٢، إلى حالة من التوتُّر بين البرتغال واسبانيا. وفي سنة ١٤٩٣، حُكِّم البابا ألكسَنْدرس السادس بين الطرفين، فحدَّد حقل الاكتشافات: الغرب للاسبانيين، والشرق للبرتغاليين. وتخلّى البابا، لصالح الملكَين، كلّ في أراضيه، عن مسؤولية تنظيم الكنيسة: من تحديد الأبرشيات وتعيين الأساقفة الخ. فأصبح الملكان، إلى حدٍّ ما، رئيسَي الكنائس الجديدة. واكتفى البابا بالتصديق على التعيينات، من دون ان يتدخّل مباشرة. جميع هذه التنازلات تشكّل حق الوصاية. ولا شك ان

هذه الوصاية لم تكن تخلو من الجوانب السيئة. فإن التبشير كان يخضع لتقلّبات الاستعمار والسياسة. ولقد أظهر البَلَدان حرصاً وغيرة على حقوقهما، حتى يومَ كانا عاجزين عن القيام بواجباتهما. كان عدد سكّان البرتغال مليوناً ونصف المليون فقط، فلم يكن بوسعه ان يلبّي حاجات الكنيسة في نصف العالم. ومع ذلك كان إلزامياً على جميع المرسَلين الأجانب ان يمرّوا بلشبونة. أمّا ملوك اسبانيا، فكانوا أشدّ وسوسة. لكن عدداً كبيراً من الأمم الأخرى، كفرنسا، اندفعت إلى فتح العالم، فكان فرنسوا الأول يقول متهكّماً: «أودّ الاطلاع في وصيّة آدم على البند الذي يستبعدني عن تقاسم العالم».

مجمع انتشار الإيمان

هذه المتاعب جعلت الكرسي الرسولي يتولّى زمام التبشير، فأنشأ سنة ١٦٢٢، مجمع انتشار الايمان، وكلّفه أيضاً بهداية المسيحيين المنفصلين في أوروبا وفي الشرق الأوسط. ومع ذلك، كان عدول الدول عن حقوق الوصاية أمراً عسيراً. فازداد عدد الخلافات في ما يتعلّق بالولاية الكنسية.

كان مجمع انتشار الايمان عبارة عن وزارة تهتمّ بالارساليات. وبمبادرة من أمين سرّه الأول، أطلق عملية تحقيق واسعةً عن النشاط الارسالي في العالم، وقدّم للإرساليات بعض الامكانيات: مطبعة متعدّدة اللغات واكليريكيات وجامعات. كما أنشأ نظام «النوّابَ الرسوليين»، وهم أساقفة مرسلون مرتبطون مباشرةً بالبابا.

العاملون في الإرساليات

حدث أحياناً ان بعض الكهنة العلمانيين كانوا بصحبة الفاتحين وكانوا غالباً ممن يعيشون في وضع حرج في أوروبا، ويرغبون في جمع المال، فكان دورهم في التبشير محدوداً. وأوّل من بشّر العالم الجديد هم أعضاء الرهبانيات القديمة: الأوغسطينيون والكرمليون، ولا سيّما الفرنسيسكان والدومينكان. وفي أيّام فرنسيس كسفاريوس (François-Xavier) (١٥٤٠)، أخذ اليسوعيون يعملون في الارساليات، فأصبحوا روّاد مرسَلي الأزمنة المعاصرة المتمسّكين بروحانية وطريقة رسولية. كما كانت الجمعيات الكهنوتية في القرن السابع عشر، كاللعازريين والسُلبيسيين (Sulpiciens)... تُرسل بعض أعضائها إلى ما وراء البحار.

٣. الضمير المسيحي والاستعمار

كان المرسلون متضامنين مع الفاتحين والتجّار، إذ يستقلون سفنهم، فلا يلبثون أن يجابهوا مشاكل الفتح والاستعمار الخطيرة.

تجاوزات الاستغلال الاستعماري

كان الفاتحون يغادرون أوروبا لجمع المال في بلاد ما وراء البحار، وبحثاً عن الذهب

والتوابل، وفي وقت لاحق عن السكّر والقهوة. فأدّى فتح بلاد الهند الغربية (أميركا) إلى موت عدد كبير من الهنود في المعارك، لا بل نتج عن الامراض المنتقلة من أوروبا (الحصبة والجُدري...)، وعن أعمال المناجم الشاقّة التي فُرضت على الهنود، نقصٌ للسكّان الأصليين. وكان الاسبان قد وزّعوا على أنفسهم الأراضي والسكّان، مما أدّى إلى استعباد الهنود الحمر بطريقة مقنّعة. فمنذ السنة ١٥١١، احتجَّ الدومنيكاني مُنْتيسينس (Montesinos)، في إحدى مواعظه، على استغلال الهنود، ممَّا أثار غضب المستعمرين. ولمّا رفعوا القضية إلى ملك اسبانيا، جاءت قوانين بُرغُس (Burgos) (١٥١٢) تطلب أن يعامل الهنود معاملة الاحرار وان يهتمَّ أسيادهم بحياتهم المسيحية.

لم تتغيّر الأمور، لكن النضال في سبيل العدل لصالح الهنود الحمر استؤنف عن يد كاهن يُدعى برتلماوس دي لاس كازاس (de Las Casas) (١٤٧٤-١٥٥٦). كان هو أيضاً قد استغلّ الهنود، ثم اهتدى سنة ١٥١٤. وبعد أن قام بمحاولات استعمار مسالم، انضمّ إلى رهبانية الدومنيكان وكرّس كل حياته للتبشير. وقد أكّد البابا بولس الثالث، نزولاً عند طلبه، في براءة (١٥٣٧)، ان الهنود هم أشخاص أحرار ويجب تبشيرهم بالمحبة.

النضال في سبيل العدل
في المستعمرات الإسبانية

دافع برتلماوس دي لاس كازاس عن الهنود الحمر في البلاد الهندية الغربية (اميركا) من سنة ١٥١٤ حتى وفاته (١٥٦٦). وهو يروي ان راهباً دومنيكانياً، أنطون مُنتيسينس، كان أول مَن خاض المعركة في سبيل العدالة، في عظة وجّهها إلى مستعمري هِسبانيولا (Hispaniola) (سان دومانغ) (Saint-Domingue) في ١٥١١.

عظة مُنتيسينس

«... انكم جميعاً في حال الخطيئة المميتة، انكم تعيشون وستموتون في هذه الحال، بسبب القساوة والطغيان اللذين تعاملون بهما هذه الشعوب البريئة. قولوا لي، بأي حقّ وبأي عدل تجعلون هؤلاء الهنود في عبودية قاسية ورهيبة؟ ومَن بوسعه ان يأذن لكم في شنّ هذه الحروب الممقوتة على أناس كانوا يعيشون بهدوء وسلام في بلادهم، وفي إبادتهم بأعداد لا تُحصى في تقتيل ومجازر بشعة؟ وكيف تستطيعون ان تظلموهم وتُرهقوهم، بدون ان تعطوهم ما يأكلون، وبدون معالجة الأمراض التي تعرّضهم للموت، تلك الاشغال المفرطة التي تطلبونها منهم، لا بل من الأصح ان يُقال إنكم تقتلونهم لكي تستخرجوا وتكدّسوا ذهبكم اليومي؟ وأيّ اهتمام تولون لتأمين

اهتدائهم؟... أوَليس هؤلاء الناس أشخاصاً؟ أوَليس لهم نفوس وعقول؟ أولا يجب عليكم ان تحبّوهم كأنفسكم؟».

لا يمكن القضاء على الأصنام في يوم واحد

«ان نصب الصلبان ودعوة الهنود الحمر إلى احترامها هما شيء حسن، بشرط أن نساعدهم على إدراك معنى هذا العمل. ولكن، ان اعوزنا الوقت اللازم، أو إن جهلنا لغتهم، كان عملنا غير نافع وغير ضروري، لأن الهنود قد يتصوَّرون أننا نعرض عليهم صنماً جديداً يمثّل إله المسيحيين، وبذلك نحثّهم على عبادة قطعة خشب كأنها إله، وهذه هي عبادة الأصنام، فان السلوك الأفضل، والقاعدة الوحيدة التي يحسن بالمسيحيين ان يتبعوها، حين يقيمون في أراض وثنية، هما القدوة الصالحة وممارسة أعمال الفضيلة. لقد قال فادينا: «حتى، إذا رأوا أعمالكم الصالحة، مجّدوا أباكم»، ورأوا أن الإله الذي له مثل هؤلاء الانصار لا يمكن ان يكون إلاّ رؤوفاً وحقيقياً».

(برتلماوس دي لاس كازاس)

ان المعارك التي خاضها برتلماوس دي لاس كازاس وأصدقاؤه تشرِّف الضمير المسيحي. فهي مرحلة هامة في وعي البشر لحقوق الانسان. ولكن، بالرغم من تحقيق بعض التقدّم، واصل الاستغلال سيره لأن الناس كانوا يعيشون في تناقض صارخ. كان الملك يصدر القوانين الانسانية، لكنه يريد في الوقت نفسه ان تُنتج المستعمرات. أمّا المستعمرون فلم يخوضوا البحار ليعيشوا عيشة اسبانيا التافهة، فكان على الهنود ان يوفّروا لهم الذهب، بالعمل في المناجم الذي كان يُبيدهم.

العبودية

ان محاولة التعويض عن الهنود، الذين تناقصوا شيئاً فشيئاً، أعاد إلى الوجود عادة العبودية التي كانت قد زالت في الغرب المسيحي منذ زمن بعيد. لا شك ان المسيحيين الذين كان المسلمون يأسرونهم في القرون الوسطى كانوا يعيشون عيشة العبيد، كما ان الأسرى المسلمين كانوا يُباعون، ومن هنا نشأت الفكرة بأنه يحلّ استعباد أسرى الحروب المقدّسة، وهكذا لم تَخلُ اسبانيا والبرتغال من عدد صغير من أولئك العبيد. لكنّ اكتشاف أميركا أدَّى إلى حاجة كبيرة في اليد العاملة، فنتجت عنها تجارة الرقيق الذي كان متوفِّراً على شواطئ أفريقيا. واستمرَّت هذه التجارة حتى مطلع القرن التاسع عشر. فنُقل ما بين ١٤ إلى ٢٠ مليوناً من السود. ولم يظهر أمثال دي لاس كازاس ليدافع عن السود، بل ظهرت نفوس محبَّة كاليسوعي بطرس كلاڤير (Claver) الذي حاول ان يخفّف من عذاباتهم في كولمبيا في القرن السابع عشر.

تلاقي الحضارات

واجه الفاتحون والمرسلون حضارات أو ثقافات لم تخطر ببالهم. وبعد الشعور بالارتياح

في اللقاءات الأولى، اصطدموا ببعض التصرُّفات، كالذبائح البشرية التي وجدوها عند بعض القبائل. ومن جهة أخرى، كان المرسلون يدعون إلى مسيحية هي ثمرة خمسة عشر قرناً من النضج في الثقافة الأوروبية. وكانوا لا يميّزون كما يجب بين الرسالة وإطارها الثقافي. فنتج عن ذلك موقف مزدوج، وهو ان منهج القضاء التام على الماضي أدّى إلى تدمير الديانات التقليدية، لاعتبارها من الظواهر الشيطانية. لكن تدمير الديانات القديمة هو تدمير للثقافات والمجتمعات. ومن جهة أخرى، كان على المهتدين ان يعتنقوا، إلى حدٍّ قريب أو بعيد، الثقافة الأوروبية المرتبطة بالمسيحية: من ملابس وشعور بالملكية الخاصة...

ومع ذلك، ظهرت في بعض الاحيان رغبة صادقة في التعاطف مع الثقافات الغريبة. فطلب دي لاس كازاس ان تحترم الثقافات الهندية. وفي الهند والصين، اعترف اليسوعيون بعظمة الحضارات العريقة في القدم وتساءلوا أليس من الواجب توفيق المسيحية الأوروبية معها؟ ان هذه المشاكل التي لم تجد قط حلاً نهائياً كانت عنصراً من عناصر أزمة الارساليات في القرن الثامن عشر.

ثانياً – عبر القارَّات

١. أفريقيا

جاء الانتشار البرتغالي على طول شواطئ افريقيا استمراراً للفتوحات الغربية، فامتدَّ من قوطا (Ceuta) (١٤١٥) إلى رأس الرجاء الصالح (١٤٨٦) وإلى موزمبيق (١٤٩٨)، فكان مصدر التبشير الأول لأفريقيا. وكانت مملكة الكونْغو، لمدَّة من الزمن، محطّ أكبر الآمال. فإن المرسلين البرتغاليين عمَّدوا الملك سنة ١٤٩١ وازدهرت الكنيسة الكونغولية في عهد أُفُنْسو (Afonso) الأول (١٥٠٦ – ١٥٤٥)، فنظَّم الملك مملكته على غرار البرتغال، وكان ابنه أولَ أسقف أسود (١٥٢١). وفي سنة ١٥٩٦، أصبحت العاصمة سلڤادور كرسيًّا أسقفيًا. وأراد ملوك الكونْغو ان يحافظوا على استقلالهم السياسي والاقتصادي، فأُرسل سفير كونغولي إلى رومة (١٦١٢). لكن البرتغاليين دخلوا في نزاع مع الملك أنطونيو الأول وقطعوا رأسه (١٦٦٥)، ثم تركوا الكونْغو. لكن التبشير استمرّ بصورة متقطّعة، وأرسل مجمع انتشار الايمان بعض الكبّوشيين خلّف عدد منهم «تقارير» عن نشاطهم. على ان ارتباط النشاط الاستعماري في أقبح وجوهه، وتجارة العبيد لخدمة الارسالية شوَّهت وجه التبشير إلى أقصى حد.

وفي القرن السابع عشر، انطلق المرسلون الفرنسيون بدورهم. لكن لم ينجح اللعازريون في الاقامة طويلاً في مَدَغشقر (١٦٤٨ – ١٦٧٤). وباشر آباء الروح القدس تبشير السنغال (١٧٧٦). واهتمَّ بعض الكهنة، في جزر رئينيون (Réunion) وموريس بالمغتربين، من مستعمرين وعبيد.

٢ . الأميركتان

أميركا اللاتينية

قامت الحكومة الاسبانية جادَّةً بتنظيم شؤون الكنيسة. فأنشأت ٣٤ أبرشية ما بين سنتي ١٥١١ و١٦٢٠. والأساقفة الذين اختارتهم من بين الرهبان الاسبان أظهروا كثيراً من الكفاءة، بعقدهم عدداً من المجامع الاقليمية والسينودسات الأبرشية لتنظيم كنائسهم. لكن السلطات المدنية رفضت في بعض الأحيان ان تعترف بها.

العمل الرعوي في الإرساليات

كثيراً ما كان التبشير في أول عهده استعراضاً للإيمان والقوّة، إذ كانوا ينصبون الصلبان ويحتفلون بالرتب الطقسية المَهيبة ويدمِّرون الأصنام، كما كانوا يسعون إلى القضاء على التقاليد المحلية، منطلقين من الصفر. على ان المرسلين بذلوا قصارى جهدهم في تعلّم اللغات المحلية، فوضعوا فيها كتب تعليم مسيحي ومواعظ وتمثيليات، ودرسوا تاريخ الحضارات القديمة.

كان المرسَلون يسرعون إلى منح المعمودية، لكنهم يتريّثون في ما يخصّ القربان الأقدس. وكانوا على وجه عام يرفضون منح درجة الكهنوت للهنود. أمّا كتب التعليم المسيحي فكانت صورة طبق الأصل لكتب التعليم الاسبانية، مقرونة بوسائل سمعية بصرية طريفة، من رسوم وموسيقى وحركات رمزية. . . وهناك مواعظ باللغة المحلّية تدلّ على تفهّم بعيد لعقلية سكّان البلاد، لكنها كانت تدعو الهنود إلى الاستسلام وتحرِّك الاحساس بالخوف.

جمهورية الغُوارانيين (Guarani) الاشتراكية المسيحية

وفي منطقة الأنهر الثلاثة (باناما وباراغُواي وأوروغواي)، أقدم اليسوعيون على تبشير بعض السكَّان الرُحَّل وعلى إحلال السلامِ فيما بينهم. فأسكنوهم في قرى مسيحية، تُدعى «حواضر» (Réductions)، في مأمن من الاستغلال الاستعماري. وبلغ عددها الثلاثين، وضمَّت مئة وخمسين ألف ساكن.

نُظّمت في هذه الحواضر حياة جماعية مبنيّة كلها على مبادئ مسيحية، على رأس كل حاضرة يسوعيان أو ثلاثة، وكان الأب رئيس الباراغواي ينسّق بين جميع الحواضر. لم يكن هناك ملكية فردية ووراثة، بل كل شيء مشترك.

وعلى أثر إبرام «معاهدة الحدود» (١٧٥٠)، انتقلت الحواضر من الاملاك الاسبانية إلى الاملاك البرتغالية. فصمد الغوارانيون مدَّة من الزمن، لكن حلّ الرهبانية اليسوعية في أوروبا قضى على الحواضر (١٧٦٨)، ولم يبقَ منها إلاَّ القليل، لأن اليسوعيين لم يدرّبوا السكَّان على تسلّم المسؤولية.

أميركا الفرنسية

بدأ تبشير كندا بتأسيس كيبك (Québec) (١٦٠٨) عن يد شمبْلان (Champlain) الذي أتى ببعض الرهبان الفرنسيسكان. وفي سنة ١٦٣٢، سلّمت الارسالية الكندية إلى اليسوعيين، فرافقوا الرحّل في تنقلاتهم وحاولوا أن يمدّنوهم. وأحرزوا بعض النجاح لدى الهورون (Hurons)، لكنهم اصطدموا بمقاومة الإيروكوا (Iroquois) الذين كان الانكليز يؤيّدونهم. وفي سنة ١٦٣٩، استقرّت في كيبيك أول رهبانية مرسلات، وهنّ الأُرسولينيّات (Ursulines). من أشهرهن الراهبة «مريم التجسُّد» (١٥٩٩-١٦٧٢)، كانت، إلى جانب ذلك، كاتبة صوفية نابغة. وقدم السُلبيسيُّون (Sulpiciens) إلى مونتريال (Montréal) سنة ١٦٤٢، واستشهد عدة مرسلين، منهم اسحق جوغ (Jogues) وجان دي بريبوف (de Brébeuf) وشارل غارنييه (Garnier). كان اليسوعيون ينشرون كل سنة في فرنسا «تقريراً» مفصَّلاً عن أعمالهم، فكان له وقع شديد في النفوس. ولكن، بالرغم من وجود أشخاص لامعين بين المرسلين، لم تُعطِ الارساليات لدى الهنود الحمر إلاَّ نتائج ضئيلة: ألفَي هندي مسيحي في نهاية القرن الثامن عشر.

دعوة مريم التجسُّد إلى إعلان الانجيل في الإرساليات

في ١٦١٧، تزوَّجت ماري غويارت (Guyart)، وترمَّلت سنة ١٦١٩. وبعد ذلك بعشر سنوات، دخلت دير الأُرسولينيَّات في طور (Tours). وفي سنة ١٦٣٤، رأت كندا في الحلم فسافرت إليها سنة ١٦٣٩ وبقيت هناك حتى وفاتها.

«... كان جسدي في الدير، في حين كانت روحي المرتبطة بروح يسوع ترفض الحبس. وكان الروح القدس يحملني بالروح إلى الهند واليابان وأميركا والشرق والغرب وإلى أنحاء كندا وعند الهورون وإلى المسكونة كلها، حيث أرى جميع النفوس تنضمّ إلى يسوع المسيح... وعلى أثر تلك الرؤى، كنت أشتعل غيرةً، فأقبِّل تلك النفوس المسكينة وأقدّمها إلى الآب الأزلي...

كنت أتجوَّل بالروح في تلك المناطق الواسعة وأرافق فيها عملة الانجيل، الذين أشعر بأني مرتبطة بهم ارتباطاً وثيقاً، لأنهم كانوا يبذلون أنفسهم في سبيل الله ومع اني كنت في الجسد أمارس قوانيني، كانت روحي لا تكفّ عن الجولان، ولا قلبي يكفّ عن الالحاح لدى الآب الأزلي ان يخلّص الملايين من النفوس التي كنت أقدّمها له...».

(مريم التجسّد)



القديس فرنسيس كسفاريوس

٣. فرنسيس كسفاريوس، والهند واليابان

طريقتا فرنسيس كسفاريوس

وُلد فرنسيس كسفاريوس في ناڤارا (Navarre) سنة ١٥٠٦. والتقى اغناطيوس دي لويولا (de Loyola) في باريس، وكان من الرفاق السبعة الذين نذروا في مونتمارت سنة ١٥٣٤. اختاره اغناطيوس للتبشير في الهند، فوصل إلى غويا، وهي مركز الهند البرتغالية، سنة ١٥٤٢. لم يتوفَّر له الوقت اللازم لدرس اللغات والاطّلاع على الحضارات، فعمَّد بضعة آلاف من الناس في جنوب الهند، بعد ان لقَّنهم أبسط تعاليم الايمان المسيحي.

وصل إلى اليابان، مع بعض الرفاق، سنة ١٥٤٩. فبدا له الواقع الياباني معقَّداً، مما اضطرَّه إلى إعادة النظر في أسلوبه التبشيري. أيقن أن لا بدّ له من إتقان اللغة والالمام بالفلسفة اليابانية، والتقيّد بعادات البلاد، بارتدائه، على سبيل المثال، ثوباً من حرير. كان عليه ان ينتظر

طويلاً قبل الحصول على اهتداء أحد الناس. فكانت هذه طريقة كسفاريوس الثانية في التبشير. وعندئذٍ قرَّر الذهاب إلى الصين، وهي مصدر الحكمة اليابانية. لكنه توفّي بتاريخ ١٥٥٢/١٢/٣ في إحدى الجزر مقابل كانتون (Canton).

ان الرسائل الملتهبة التي أرسلها إلى أوروبا، وسرعان ما نُشرت، جعلت من كسفاريوس مثال المرسَل في الزمن المعاصر.

القرن المسيحي في اليابان

ان مَيل اليابانيين إلى مستجدَّات الحضارة الأوروبية ووجود الإقطاع في بلادهم ساعدا على حصول الكثير من الاهتداءات. فقد أراد الاسياد ان يعبّروا عن استقلالهم باختيار الدين المسيحي. فبلغ عدد المسيحيين ثلاثمائة ألف، تمركزوا بوجه خاص في الجنوب. من أعظم منظّمي تلك الكنيسة الأولى هو اليسوعي ڤالينيانو (Valignano)، الذي عُيِّن زائراً للارسالية من سنة ١٥٧٩ إلى ١٦٠٦. ولقد اختار طريقة التكيُّف مع أوضاع البلاد.

لكن التنافس بين الأوروبيين، ورغبة بعض رؤساء الوزراء في إعادة الوحدة إلى اليابان على حساب الاسياد المحلّيين، والتعارض بين البوذيين والشنتوئيين (Shintoïstes)، كل ذلك أدَّى إلى اضطهاد المسيحيين. ففي سنة ١٥٩٧، أُعدم في ناغازاكي ستة وعشرون شخصاً من مرسَلين ومؤمنين. وفي سنة ١٦١٤، حُظِر التديُّن بالمسيحية في جميع أنحاء اليابان. وازداد عدد الذين حُكم عليهم بالاعدام بأبشع أنواع التعذيب. وعلى أثر فتنة شيمابارا (Shimabara) (١٦٣٥)، قُتل خمسة وثلاثون ألف مسيحي. وأُغلقت أبواب اليابان في وجه المرسلين حتى القرن التاسع عشر.

لم يكن عدد المرسلين كبيراً، إذ إنه لم يبلغ المائة. لكنهم بذلوا جهوداً كبيرة لتفهّم اللغة والحضارة اليابانية، وقاموا بطبع الكتب ونشرها، وأدخلوا بعض العناصر التي تمتاز بها الثقافة الأوروبية. وبشيء من التحفّظ رسموا بعض الكهنة (١٤ في ١٦١٤)، وأقام أسقف في ناغازاكي ما بين ١٥٩٨ و١٦١٤. هذا وإنّ تنظيم الجماعات بإشراف رهبان ليسوا بكهنة، وملقّني التعليم المسيحي ورؤساء قرى وأخويات، مكَّنهم من الاستمرار في غياب الكاهن. كانت معيشة الارساليات متوقّفةً على تبرّعات قادمة من أوروبا، ولا سيّما على الاسهام في التجارة بين أوروبا واليابان، الأمر الذي أساء أحياناً إلى التبشير.

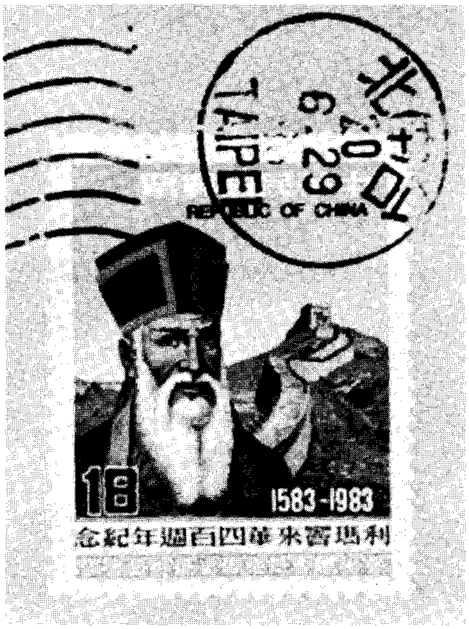
الهند

إذا كان تبشير الهند عن يد توما الرسول أمرًا محتملاً، فلا شك ان وجود المسيحيين في الجنوب قد يرقى عهده إلى القرن الخامس. وهؤلاء المسيحيون يستخدمون اللغة السريانية وينتمون إلى الكنيسة النسطورية في بلاد ما بين النهرين. لما قدم البرتغاليون إلى غويا، أرادوا ان يُخضعوا أولئك المسيحيين للكنيسة اللاتينية، مما أدَّى إلى الخلافات والشقاق. وانطلاقاً من

غويا، التي أصبحت مطرانية (١٥٣٣) ثم مركزاً للمقدَّم في رؤساء الأساقفة في الشرق كلّه، من رأس الرجاء الصالح إلى الصين، حاول البرتغاليون ان يقوموا بتبشير بسيط مبني على مبدأ الانطلاق من الصفر. لقد شارك فرنسيس كسفاريوس مدةً في هذا المبدأ، فعمَّد الكثيرون، بدون ان تُنشأ أيّة كنيسة.

وفي سنة ١٦٠٥، جاء إلى الهند روبيرت دي نوبيلي (de Nobili) (١٥٧٧–١٦٥٧)، وهو يسوعي إيطالي، وبقي مدّة نصف قرن في المادوريه (Maduré) (الجنوب). تعلّم لغة التامول (Tamoul) والسانسكريتية (sanscrit)، ورفض ان يُعدَّ من المستعمرين، بل أراد ان يُعتبَر «سَنْياسيًّا» (sannyasi)، أي مسيحياً على غرار التائبين الهنود. اتّخذ نمط حياة البراهمانيين (brahmanes)، الذين يشكّلون الطبقة الراقية. ووجد ان هناك فرقًا بين التصرّفات الاجتماعية والممارسات الوثنية، فسلَّم بأن يحافظ المهتدون على عادات طبقتهم، من خصلة شعر وحبل... وبأن يُهمل، في رتبة المعمودية، ما ينفر منه الهنود، كالنفخ. فأثارت أساليب دي نوبيلي معارضة بعض المرسلين، فرفعوا القضية إلى رومة. لكن البابا قبل بعض التكييفات التي أدخلها دي نوبيلي (١٦٢٣). واتّخذ بعض المرسَلين نمط حياة التائبين من الطبقات الدنيا ليضعوا أنفسهم في خدمة أفقر الناس.

ثم قدم بعض اللوثريين إلى ترانكيبار (Tranquebar) سنة ١٧٠٦، وهذه الارسالية هي من أوائل الارساليات البروتستانتية منذ ان



متّى ريتشي

نشأت حركة الاصلاح. وفي سنة ١٧٣٣، رُسم أول قس هندي.

٤. الصين والهند الصينية وكوريا

من ماكاو (Macao) إلى بيكين

قدم البرتغاليون إلى ماكاو سنة ١٥٥٧. وفي سنة ١٥٦٥، أُنشئ فيها دير للآباء اليسوعيين، وعيِّن عليها مطران بعد ذلك بقليل. كان على الصينيين المهتدين ان يقصّوا شعر رؤوسهم ويتّخذوا نمط حياة أوروبا. وفي سنة ١٥٧٨، أرسل الزائر اليسوعي ڤالينيانو راهبين إلى مناطق الصين الداخلية وهما روجييري (Ruggieri) ومتّى ريتشي (Ricci). مرّ ريتشي بخمس مراحل، من سنة ١٥٨٢ حتى سنة

١٦٠١، قبل ان يصل إلى پيكين حيث بقي حتى وفاته سنة ١٦١٠.

ابتدأ ريتشي بالاقتداء بالبونز (bonze) البوذي. ودرس طويلاً حتى أصبح طويل الباع في اللغة والحضارة الصينية، فأدرك مكانة المثقّفين، وهم تلاميذ كنفوشيوس. وبدت له الكنفوشية أقرب إلى المسيحية من سائر التيّارات الصينية، كالطاوية (taïoisme) والبوذية. ومن ذلك اليوم، اتّخذ ريتشي ثياب المثقّفين ونمط حياتهم. وانصرف إلى الخدمة الرسولية الفكرية، بنشر العلوم الغربية، كعلم الفلك والرياضيات. وعرض التعليم الكاثوليكي في كتاب وضعه باللغة الصينية، وسمّاه «العرض الصحيح لتعليم السماء». فنشأت مشاكل عسيرة بالنسبة إلى تبشير الصين. فهل يجوز للمسيحيين إكرام الوالدين المتوفّين وكنفوشيوس؟ وما هي الالفاظ الصينية التي يجب استخدامها للدلالة على حقائق الايمان المسيحي، بدون ان يقع اختلاط بينها وبين الديانة الصينية؟ وأخيراً، كيف الوصول إلى إنشاء إكليرس صيني؟ وأين يكوّن الكهنة؟ وهل اللاتينية لغة لا غنى عنها؟

أمل وأزمة

في ١٦١٥، أذن البابا بولس الخامس ان يُترجَم الكتاب المقدّس والنصوص الطقسية إلى الصينية. لكن الليترجية بالصينية لم تدخل حيّز التنفيذ. كان البلاط الامبراطوري يقدِّر خدمات اليسوعيين العلماء، من روزنامة وصنع المدافع الخ. وفي سنة ١٦٨٨، وصل إلى پيكين اليسوعيون الاختصاصيون في الرياضيات ممن كانوا في خدمة لويس الرابع عشر.

وفي القرن السابع عشر، كان المسيحيون الصينيون يؤمّلون خيراً عظيماً: فهناك مائتا ألف أو ثلاثمائة ألف مسيحي ومائة وعشرون مرسَل. لكن الخلاف حول الشعائر (راجع أدناه) والنزاع الذي نشب بين الوصاية البرتغالية ومجمع انتشار الايمان أثارا استياء الأباطرة فشنّوا عدّة اضطهادات. لم يُسمَح بالإقامة إلاّ لليسوعيين العلماء في بلاط پيكين. ثم ان حلّ الرهبانية اليسوعية (ابتداءً من ١٧٦٢) زاد الأوضاع سوءًا كما زادت الثورة الفرنسية الطينة بلّة.

الصين الهندية

ولمّا اضطُهد اليسوعيون اليابانيون في بلادهم، أتوا فأقاموا في كوشنشين (Cochinchine) وكَمْبودج وسِيام. وأخذ اليسوعيون يهتمّون بهذه المناطق ابتداءً من سنة ١٦١٥. فكتبوا اللغة الڤييتنامية بالأحرف اللاتينية. وعلى مدى عشرين سنة (١٦٢٥–١٦٤٥)، كانت ڤييتنام في مقدّمة اهتمامات اليسوعي الكسندر دي رود (de Rhodes)، مع انه لم يستطع ان يقيم فيها باستمرار. وكان دي رود يرى أن أُسس التبشير هي إتقان اللغة، وتدريب ملقّني التعليم المسيحي، الذين يؤمّنون الاستمرار المسيحي،

واستخدام الثقافة الفييتنامية، وحسن تفهّم العادات. وتمنّى إنشاء اكليرس محلّي.

النوّاب الرسوليون

أدَّت مساعي دي رود في أوروبا إلى تعيين نوّاب رسوليين (بابويين) للشرق الأقصى (١٦٥٨). انهم أساقفة بلا أبرشية، مرتبطون بالبابا (بمجمع انتشار الايمان) بطريقة مباشرة لخدمة الإرساليات. وقد وصل اثنان منهم إلى سيام سنة ١٦٦٤، فرسما الكهنة الفييتناميين الأوّلين، وأسَّسا اكليريكية في سيام لخدمة الشرق الأقصى بأسره، وابتعدا عن أسباب اليسوعيين.

إرشاد مجمع انتشار الإيمان إلى النواب الرسولين (١٦٥٩)

حين أنشأ مجمع انتشار الايمان النوّاب الرسوليين (البابويين)، الأساقفة المرتبطين مباشرة بروما، كان يهدف إلى تحرير العمل الارسالي من الاعتبارات السياسية. فزوّدهم بنصائح حكيمة لم تكن ترجمتها إلى الواقع أمراً سهلاً. ولقد ظهر ذلك في الخلاف حول الشعائر.

«لا تُبدوا أية غيرة ولا تأتوا بأي دليل لتُقنعوا تلك الشعوب بتغيير شعائرهم وعاداتهم، ما لم تكن مخالفة للدين والاخلاق. فما من شيء أسخف من نقل فرنسا واسبانيا وايطاليا أو أي بلد آخر من بلدان أوروبا إلى الصينيين. فلا تُدخلوا عندهم بلادنا، بل الايمان، ذلك الايمان الذي لا ينبذ ولا يجرح الشعائر ولا عادات أيّ شعب، ما لم تكن ممقوتة، بل يطلب ان يحافَظ عليها ويدافَع عنها. طُبع في قلوب جميع البشر ان يقدّروا ويحبّوا ويفضّلوا على كل ما في العالم تقاليد بلادهم والبلاد نفسها. فما من وسيلة أقوى لخلق النفور والبغض من تعديل العادات الخاصة ببلد ما، لا سيّما تلك العادات التي ترقى ممارستها إلى زمن الأجداد».

كنيسة علمانية في كوريا

وفي القرنين السابع عشر والثامن عشر، اكتشف بعض المثقّفين الكوريين الدين المسيحي انطلاقاً من كتب أتت من الصين. وفي سنة ١٧٨٤، كان أحدهم ماراً ببيكين، فقبل سر المعمودية. وعند عودته إلى كوريا، أعدّ مع مثقَّف آخر علم لاهوت مسيحي، انطلاقاً من التقليد الكنفوشي، ونظَّم هو نفسه جماعة مسيحية، بما فيها المعمودية والاعتراف والقدَّاس. لكن الشك استولى عليه، فطلب كاهناً من بيكين. على ان الاضطهاد كان لهذه الجماعة الأولى بالمرصاد.

آسية الروسية

بفضل الانتشار نحو الشرق والفتح التدريجي لسيبيريا، تمكّنت الكنيسة الروسية ان

تبشّر البلدان النائية. ففي القرن السادس عشر، هدى رؤساء أساقفة كازان القبائل التترية التي كانت تحيط بالمدينة. ثم أرسل متروبوليت توبولسك (Tobolsk)، فيلاريتس (Philarète)، بعض المرسَلين إلى كمتشاتكا (Kamtchatka) (١٧٠٥) وإلى ياكوتسك (Yakoutsk) (١٧٢٤). لا بل أوفد بعثة إلي الصين (١٧١٤). شكّل الأسرى الروس في بيكين، منذ سنة ١٦٨٩، جماعة أرثوذكسية. وفي نهاية القرن الثامن عشر، أقام بعض رهبان بحيرة لادوغا (Ladoga) في ألاسكا وأنشأوا جماعة فيها.

المرسَلون اللاتين في الشرق الأوسط

بعد جلاء الصليبيّين عن الشرق، بقي الآباء الفرنسسكان كحرّاس للأراضي المقدّسة سنة ١٢٣٠. ومنذ سنة ١٥٢٥ أقام الملك فرنسوا الأول علاقات دبلوماسيّة مع الباب العالي ممّا كان له الأثر الكبير على مسيحيّي الشرق الأوسط. فوصل اليسوعيون إلى القسطنطينيّة، ثم إلى أورشليم وقبرس سنة ١٥٥٣. وتبعهم الكبوشيون إلى حلب سنة ١٦٢٥ حيث وصل أيضاً الكرمليون سنة ١٦٢٦. ولحق بهم الفرنسسكان.

إنما النهضة التي عرفتها الارساليّات اللاتينيّة ظهرت في القرن السابع عشر على يد مجمع نشر الإيمان الذي تأسّس سنة ١٦٢٢ وعلى يد ريشيليو(Richelieu)، إذ كانت فرنسا على علاقات طيّبة مع الباب العالي.

انتشر الكبّوشيون من اليونان إلى إيران فساعدهم ريشيليو من جهة والسفارات الغربية من جهة أخرى حيث أعطاهم السلطان والشاه حرية التنقّل بين البلدان الخاضعة لهما، شرط ألاّ يبشّروا المسلمين. فاهتمّوا بالكنائس الأرثوذكسيّة والأرمن ولم يحالفهم الحظ دائماً.

منذ سنة ١٦٠٠ أقيمت قنصليّات لفرنسا في هذه البلدان فكان لها تأثير خاص في بطريركية انطاكية. ولم يكن هناك قوانين واضحة بالنسبة إلى عمل المرسلين قبل القرن التاسع عشر، فكان المسؤولون المحليّون يتصرّفون بحسب أهميّة الرشاوى.

جميع هؤلاء المرسلين عملوا لأجل اتحاد الكنائس. سنة ١٦٤٤ فتح اليسوعيون مدرسة في دمشق حيث قامت نواة لكنيسة ملكية كاثوليكيّة. كنيسة انطاكيا الملكيّة عادت إلى الاتصال برومة، بعد ان كان الحكم العثماني قد قطع كلّ صلة بين الكنيستين. أمّا الموارنة فبقوا على علاقة بالكرسي الرسولي بالرغم من الصعوبات والحواجز التي أقامتها الدولة العثمانية.

وقد كانت لهم اليد الطولى في استقبال إخوانهم الشرقيّين الذين اتحدوا برومة من سريان وروم كاثوليك وأرمن.

عمل المرسلين لم يكن دائماً مثمراً. كما أنهم أضفوا السمة اللاتينيّة على الكنائس الشرقيّة، فيما يتعلّق بالليترجية والقوانين والأنظمة. لكن ذلك لا ينقص من أهميّة

رسالتهم التربوية والتعليميّة التي لا نزال نقطف ثمارها إلى اليوم.

ثالثًا – الإرساليات من وجهة نظر أوروبا وأزمة القرن الثامن عشر

١. الإرساليات والرأي الأوروبي

أدب إرسالي

من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر، لقي الأدب الإرسالي نجاحاً كبيراً وسط آداب الرحلات. فمن سنة ١٥٤٩ حتى ١٦١٩، صدر ٩٨ مؤلَّفاً بالفرنسية عن اليابان. أمّا عدد ما نُشر عن الصين فلا يُحصى. وهناك سلسلتان من المنشورات الدورية اليسوعية أثارتا اهتمام عامّة القرّاء: «أخبار فرنسا الجديدة» (مجلّد كل سنة، من سنة ١٦٣٢ إلى ١٦٧٣) و«رسائل تحمل على التقوى وتثير الفضول» (٣٤ مجلّداً، من سنة ١٧٠٢ إلى ١٧٧٦، أُعيد طبعها عدّة مرات). وكان لتلك المؤلَّفات، ولا سيّما لمؤلَّفات اليسوعيين في الصين، قيمة علمية كبيرة، ساعدت على توسيع معلومات الأوروبيين الجغرافية، إذ انها كشفت النقاب عن وجود حضارات عريقة في القدم، بعضها ينمّ عن ذوق مرهَف، تختلف كل الاختلاف عن حضارات أوروبا. لقد تحمَّس الفيلسوف لايبنيتز (Leibniz)، إذ رأى أوروبا والصين تمدّان، الواحدة إلى الأخرى، يد التعاون لتحسين كلّ ما هو قائم بينهما.

صورة جديدة لغير المسيحيين

بالاطّلاع على أوضاع الارساليات أخذ مسيحيو أوروبا ينظرون بشيء من التريّث نظرة جديدة إلى الوثنيين. لقد رأى بعض اليسوعيين ان الصينيين حافظوا على بعض عناصر الوحي القديم. أفلا يجوز ان تُعتَبر بعض الديانات الوثنية تمهيداً وصورة للمسيحية؟ لكن هذه النظرة أثارت قلق بعض اللاهوتيين بوسوييه (Bossuet) والجَنْسينيين (Jansénistes).

لا بل أصبح الأدب الإرسالي سلاحًا استعمله بعض «الفلاسفة» لمحاربة المسيحية من أمثال بيل (Bayle) وڤولتير وديدرو و«الموسوعة». فقورن تسامح الصينيين بعدم تسامح لويس الرابع عشر. وقيل إن حُسن أخلاق الصينيين يُثبت أن لا حاجة إلى الوحي. والتواريخ الصينية يرقى عهدها إلى ما قبل الكتاب المقدّس. ومن جهة أخرى، أدرك بعضهم، في القرن الثامن عشر، ما في العبودية من عدم إنسانية، فأخذوا يتهكّمون على المبرِّرات الكاذبة المقدّمة من بعض المسيحيين لتأييد العبودية.

الصين من منظور أوروبي

ان ما أخبر به المرسلون عن الصين أثار اهتمام عدد من المفكّرين الأوروبيين، وكثيراً ما جاءت أقوالهم متباينة.

فالفيلسوف لايبنيتز أظهر تحمُّساً شديداً لذلك اللقاء بين الصين وأوروبا، راجياً ان يؤدّي ذلك إلى التقارب بين مختلف المذاهب المسيحية.

«أعتقد أن التفاتة خاصّة من القَدَر قد جمعت الجزء الأكثر تمدُّناً وتحضُّراً من الجنس البشري في طرفَي قارّتنا، أوروبا والصين . . . وعسى ان تمدّ هاتان الأمّتان الأكثر تثقُّفاً، الواحدة إلى الأخرى، يد التعاون، فتحسِّن شيئاً فشيئاً ما هو قائم بينهما . . . وأخشى ان نمسي بعد حين، على جميع الأصعدة، دون الصينيين. فقد نحتاج إلى استقبال مرسلين من عندهم لنتعلّم منهم الإفادة من اللاهوت الطبيعي وممارسته، كما نُرسل نحن إليهم مرسلين لنعلِّمهم لاهوت الوحي . . . ان مبادرة حمل نور يسوع المسيح إلى البلدان النائية هي رائعة إلى حدٍّ لا أرى معها ما الذي يميِّزنا... وأرى ان هذه الرسالة هي أعظم قضية في عصرنا هذا، لمجد الله ولخير البشر أجمعين».

٢. أزمة الإرساليات الكبرى

ازدادت الخلافات حول حقوق الولاية، في الشرق الاقصى، بين الأساقفة الذين عيّنتهم لِشبونة (الوصاية) والنوّاب الرسوليين (البابويين) الذين عيَّنهم مجمع انتشار الايمان.

الخلاف حول الشعائر

لكن الخلاف حول الشعائر كان أخطر، لأنه ألقى الشكّ في الأساليب الارسالية وفي موقف المسيحية من الثقافات. ففي الهند والصين، انقسم المرسلون – على صعيد اللغة: كيف يُسمَّى الله في اللغات المحلّية؟ – وعلى الصعيد الليترجي: هل يجب تكييف الطقوس المسيحية؟ – وفيما يتعلّق بالعادات التقليديّة: هل يجوز للمسيحيين ان يكرّموا موتاهم ويحافظوا على نظام الطبقات . . . ؟ في الصين والهند، قبِل اليسوعيون التكييفات إلى حدٍّ بعيد. أمّا مرسَلو سائر الرهبانيات (الدومنيكان والفرنسسكان وإرساليات باريس الأجنبية)، فقد رأوا في ذلك تنازلات لصالح عبادة الاصنام. وكان هذا التعارض يمثّل غالباً التعارض القائم بين نظام الوصاية ومجمع انتشار الايمان. وفضلاً عن ذلك، كان الخلاف، بانتقاله إلى أوروبا، يرجع إلى عدد من الخلافات اللاهوتية التي عرِفتها الكنيسة القديمة، بين اليسوعيين والجِنسينيين، وبين التيار المتساهل والتيار المتشدّد . . .

إدانة الشعائر الصينية والملالابارية

ان الخلاف، الذي نشب في منتصف القرن السابع عشر، اتَّخذ لهجة حادَّة سنة

١٦٩٣ ، إذ قام المطران ميغرو (Maigrot) ، النائب الرسولي (البابوي) في الصين ، بنهي المسيحيين عن استخدام المفردات التي وضعها اليسوعيون للدلالة على الله في اللغة الصينية ، وعن ممارسة الشعائر الدينية التقليدية الصينية (إكرام الاجداد وكنفوشيوس). لكن اليسوعيين حصلوا من الامبراطور كَنْغْ - هي (Kang-Hi) على تفسير مختلف (الشعائر المشار إليها هي أعمال مدنية). ومع ذلك ، ففي سنة ١٧٠٤ تبنّى مجمع الايمان أهمَّ ما ورد في مواقف ميغرو ، وأرسل البابا مندوباً للبتّ في المشكلة في مكانها. فنهى المندوب عن التكييفات التي جرت في الهند (الشعائر المالابارية) والصين. ثم توفّي تحت الاقامة الجبرية في ماكاو (Macao) (١٧١٠). وفي سنة ١٧١٥ ، شجب البابا شجباً رسمياً الشعائر الصينية والمالابارية. لكن ، أمام الضجّة التي قامت في الارساليات ، عُيِّن مندوب جديد منح بعض الترخيصات التي لم تحلّ المشكلة وأخيراً ، سنة ١٧٤٢ و١٧٤٤ ، شُجبت الشعائر الصينية والمالابارية مرّة أخرى. وبقيت الأمور على ما هي حتى سنة ١٩٣٩ .

البابا أقليمنضس (Clément) الحادي عشر
يشجب الشعائر الصينية (١٧٠٤)

٣ . «لا يجوز بأي وجه من الوجوه ، ولا لأي سبب من الاسباب ، ان يسمح للمسيحيين بأن يترأسوا ، أو يخدموا ، أو يحضروا الذبائح الرسمية أو القرابين التي تُقام عادةً في أزمنة اعتدال الليل والنهار ، إكراماً لكنفوشيوس وللأجداد المتوفين ، فإنها احتفالات مفعمة بالخرافات . . .

٧ . لا يجوز للمسيحيين على الاطلاق ان يحفظوا في بيوتهم الخاصة ، بحسب عادة الصينيين وإكراماً للأجداد ، لوحات أو إطارات كُتب فيها: العرش ، وكرسي الروح ، أو نفس فلان ، ويُراد بها أن نفس هذا المتوفّى أو روحه تأتي أحياناً وتستقرّ عليها أو ترتاح فيها» .

الإرساليات ضحايا السياسة الدُولية

إن اضمحلال الدول الكاثوليكية في الانتشار الاستعماري قد أدّى في الوقت نفسه إلى الحدّ من النشاط الارسالي . فبمعاهدة أوتريخت (Utrecht) (١٧١٣)، انتُزعت من اسبانيا وفرنسا السيطرة على البحار ، وبمعاهدة باريس (١٧٦٣)، برز التفوّق الانكليزي في أميركا والهند.

ثم ان إلغاء الرهبانية اليسوعية في جميع الدول الكاثوليكية ، وقيام البابا بحلّها (١٧٧٣) ، وضعا حدًّا لنشاط ثلاثة آلاف مرسل

في العالم. وكان عدد العاملين من سائر الرهبانيات أو من الاكليرس العلماني أقلّ بكثير. فوجد الكثير من المسيحيين أنفسهم متروكين وشأنهم.

وجاءت الثورة الفرنسية وزادت من نضوب الموارد والنقص في العاملين. وأصبح سَفَر المرسلين الكاثوليك خطراً بسبب سيطرة الانكليز على البحار. فنشأت في بريطانيا الكبرى جمعيات إرسالية بروتستانتية وجدت الميدان خالياً.

وجاءت حصيلة مجمع انتشار الإيمان الأخيرة في القرن الثامن عشر مخيّبة للأمل، وتُشعر بشيء من العجز: «اضطُرّ الغرب إلى العدول عن ادّعائه هداية الشرق كما هو بذاته». ومع ذلك، علينا ألاّ ننسى ان الكنيسة أصبحت جامعة حقاً. ومشكلة اللقاء بين المسيحية والحضارات الأخرى، وإن بقيت بدون حلّ وافٍ، إلاّ انها كثيراً ما طُرحت على وجه أعقل ممَّا جرى في القرن التاسع عشر.

الفصل الرابع عشر

الكنيسة في عصر الأنوار والثورة
(القرن ١٨)

منذ نهاية القرن السابع عشر، ظهرت مواقف جديدة من الدين. وفي الوقت نفسه، استمرَّت بعض سلوكيات القرن السابع عشر الديني تفرض نفسها في القرن الثامن عشر. ومع ذلك أخذت علامات تراجع عن الدين تظهر في أوروبا، ابتداءً من منتصف هذا القرن، يمكن تفسيرها بفلسفة الأنوار، التي استمات بعض أنصارها في التهجّم على المسيحية. لكنّ علامات الحيوية لم تغب عن الكثلكة، ولا عن البروتستانتية اللتان عرفتا عدّة أشكال من النهضة. وبدت الثورة الفرنسية بمثابة نصر للأنوار ولخصوم الكنيسة. لكن استمرار إيمان طهَّرته المحنة أرغم السلطة السياسية على ان تُعيد إلى الكنيسة مكانتها في المجتمع.

أوّلاً – التحوُّلات التي طرأت في القرن الثامن عشر

١. سرعة الاندفاع في الكنيسة التقليدية

ثمار القرن السابق

لم تأتِ جهود التجديد، التي بُذلت في القرن السابع عشر، بجميع ثمارها إلاَّ في مطلع القرن الثامن عشر: كتكوين رجال الاكليرس، وتجديد شعائر العبادة، وتطوير الكرازة الداخلية، وانتظام الممارسة الدينية الخ. بقي عموم الأوروبيّين مسيحيين مع بعض الفوارق بحسب المناطق المختلفة.

لقد عَرف القرن الثامن عشر أيضاً صيغاً مختلفة للقداسة. فكان ألفونسو دي ليغوري (de Liguori) (١٦٩٦-١٧٨٧) من ملافنة الكنيسة، إذ حرّرها، في اللاهوت الأدبي، من النفوذ الجنسيني (janséniste)، وأعطى دفعة

جديدة لحملات الكرازة الشعبية بفضل تأسيسه رهبانية الريدَمبتوريسْت (Rédemptoristes)، في حين انّ بنْوا لابْر (Benoît Labre) (١٧٤٨ – ١٧٨٣) أتى بشكل من القداسة الصوفية مبني على التنقّل بين الأماكن المقدّسة في التسوُّل والتقشّف.

علامات تقهقر

ابتداءً من سنة ١٧٥٠، ظهرت مناطق فتور في البلاد الفرنسية. فقد أخذت الممارسة الدينية تنخفض بوجه ملحوظ في بعض المدن، بل في بعض الأرياف أيضاً. ولكن، بدل أن نقول إنها ارتداد عن الدين المسيحي، نقول إنها بالأحرى زوال نمط معيَّن للتديّن المسيحي لصالح نمط آخر! يرى البعض ان هناك خطين يتقاطعان: انخفاض كمّي وارتفاع نوعي.

كوادر اكليرس ضعيف المستوى

لم يَخلُ هذا القرن من الكهنة والأساقفة اللامعين. لكن، كلَّما تقدَّم القرن، وجدنا الأسقفية محصورة في الاعيان، في فرنسا وألمانيا. أما الأديرة فأخذت في التناقص. ففي سنة ١٧٨٣، أغلق الأمبراطور جوزيف الثاني جميع أديرة المتوحّدين في النمسا وهولندا.

٢. فلسفة الأنوار تتهجّم على المسيحية

سيطرة العقل

منذ نهاية القرن السابع عشر، ظهرت «أزمة ضمير أوروبية»، وكان پيار بيل (Bayle) صاحب «خواطر في المذنَّب» ١٦٨٢ و«المعجم التاريخي النقدي»، (١٦٩٥– ١٦٩٧) من أوائل الشهود على ذلك. وفي القرن الثامن عشر، تسلّم الدفة جمهور من الكتَّاب من أمثال: ڤولتير (Voltaire)، وديدرو (Diderot) ودالْمبير(d'Alembert) ... تلقَّى هؤلاء «الفلاسفة» تربية مسيحية، غالباً عند اليسوعيين، فأرادوا ان يحكموا في كل شيء «بأنوار» العقل التي تختلف عن غموض الوحي. اشتهرت فلسفة الأنوار هذه بأنها آلة حرب ضد المسيحية، لكن علينا ان نضيف أن هذه العقلانية المثالية تدأب أيضاً على التمييز بين المجالات المختلفة، فالعلم أخذ يكتسب لغته الخاصة ويبتعد عن الميتافيزيقا. وهناك مسيحيون صادقون شاركوا في هذا الولع بالعقل. والماسونية، التي أُنشئ أول محافلها في لندن سنة ١٧١٧، ونشرت ايديولوجية الأنوار هذه، لم تعدّ نفسها ضمن نطاق المسيحية. والمؤلَّف الذي يُعدّ مرجع الأنوار، وهو «الموسوعة» أو «المعجم الاستدلالي للعلوم والفنون والحِرَف» (١٧٥١–١٧٧٢)، عَدَّ بين المشتركين فيه مَن أصبح في وقت لاحق البابا بيوس السابع، وشارك في تحريره، ولو في البدء، بعض اللاهوتيين.

العقل يقوم ضدّ الوحي

الالحاد الصريح شيء نادر، والتعبير عنه لا يخلو من التعرّض للخطر. كان معظم

«الفلاسفة» يعتقدون بأن الدين حاجة من حاجات الشعب الأولية: فالله يضمن النظام. فكان أكثرهم يميلون إلى التأليه (déisme)، أي إلى دين طبيعي يطابق العقل وينفي كل وحي. راجع فكرة «الساعاتي الأكبر» عند ڤولتير. فالعقائد في نظرهم تعارض العقل والطبيعة، والكنيسة متهمة بعدم تسامحها وتأييدها للاستبداد بأنواعه. لذلك قام ڤولتير بحملة لإعادة الاعتبار إلى بعض ضحايا عدم التسامح الديني. واعتبر المسيحية، برفضها مجاراة الطبيعة، تشكّل عقبة في سبيل سعادة الانسان. فلا بدّ من الكفاح لإزالة الكنيسة والمسيحية.

ومع ذلك كله، فإن غلبة العقل لم تمنع الناس في نهاية القرن الثامن عشر من العودة إلى تذوّق المذاهب الحدسية واللامعقول. وكان جان جاك روسّو (Rousseau) (١٧١٢-١٧٧٨) غير راضٍ عن عقلانية ڤولتير الجافّة، فأراد أن يُعيد إلى العاطفة مكانتها في دين طبيعي. فقاد الناس إلى تخطّي رهبة الوحي ومهّد الطريق للرومنطيقية.

تديُّن جان جاك روسّو

تجاه العقلانية التي اتّسمت بها فلسفة الأنوار، قام جان جاك روسّو بإعادة الاعتبار إلى العاطفة الدينية، في خطّ ليس خط الدين الكاثوليكي، بل هو تمهيد للدين الرومنطيقي.

شهادة إيمان الكاهن المعاون:

«... وأعترف لكم أيضاً بأن عظمة الكتب المقدّسة تدهشني وأن قداسة الانجيل لها وقع في قلبي. انظروا إلى كتب الفلاسفة بكل ما فيها من أُبّهة: ما أصغرها أمام الانجيل! أيمكن إذن ان يكون كتاب في هذا السموّ وهذه البساطة من وضع الناس؟ أيمكن ان يكون مَن يورد لنا سيرته إنساناً كغيره من الناس؟

ان موت سقراط، وهو يعالج بهدوء مع أصدقائه مسائل فلسفية، هو أحلى ميتة يتمنّاها إنسان. أمّا موت يسوع وسط التعذيب والشتم والسخرية واللعن من قِبَل شعب بكامله، فهو أرهب موت قد يتوقّعه إنسان. تناول سقراط الكأس المسمومة وهو يبارك مَن أعدّها ويبكي، وصلّى يسوع، في عذاب مريع، من أجل جلاّديه. أجل، إذا كانت حياة وموت سقراط هما حياة وموت رجل حكيم، فإن حياة وموت يسوع هما حياة وموت إله...

ومع ذلك كله، نرى ان هذا الانجيل نفسه حافل بالأمور التي تصدَّق، وبالأمور التي ينفر منها العقل، والتي لا يستطيع العاقل ان يتصوَّرها أو يسلّم بها. فما العمل في وسط كل هذه التناقضات؟ أن نكون دائماً، يا بنيَّ، معتدلين ومتأنّين، وان نحترم صامتين ما لا نستطيع أن نرفضه أو أن نفهمه، وأن نتواضع أمام الكائن الأكبر الذي هو يعرف الحقيقة».

(جان جاك روسّو).

٣. تأثُّر الكنيسة بفلسفة الأنوار

ردود فعل كاثوليكية

حاولت الكنيسة ان تدافع عن نفسها من التهجُّمات بالطرق التقليدية: مراقبة الكتب السيئة، والمطالبة بتدخّل السلطات المدنية، وتأليف الكتب الدفاعية. على ان الكنائس لم تكتفِ بالنظر إلى هذه المثالية العقلانية نظرة سلبية، فانتقلت الكنيسة الكاثوليكية إلى التحقيق والاصلاح: ففي فرنسا مثلاً، صدرت بعض الكتب التي تأخذ بعين الاعتبار روح العصر. وفي ألمانيا، تُرجم ردّ الفعل الكاثوليكي بالعودة إلى الجذور، وتجديد علم اللاهوت، والميل إلى المزيد من التسامح والتقارب من البروتستانت. وقام بعضهم بإعداد كتب تعليم مسيحي يمكن أن يستخدمها البروتستانت والكاثوليك. من أشهر ممثّلي هذه الحركة ج.م. سايلر (J.M. Sailer) (١٧٥١-١٨٣٢)، وهو كاهن من باڤاريا، علَّم اللاهوت الرعوي، وقام بعدَّة مبادرات في حقل الروحانيات ومارس أعمالاً مسكونية قبل قيام الحركة المسكونية (نوادٍ كتابية بين عدَّة مذاهب).

تيّارات معارضة لرومة واستبدادية مستنيرة

واتّفق ان تلك التيارات التجديدية تحالفت مع التيارات المعارضة لرومة، في حرصها على الرفع من شأن الكنائس المحلّية ورجال اكليرسها تجاه الكرسي الرسولي. ومن بين تلك التيارات ما يسمَّى بالجوزفية (joséphisme)، نسبةً إلى الامبراطور جوزيف الثاني، الذي كان يتدخَّل في شؤون الكنيسة، حتى في الأمور الطفيفة. لقد منع الرهبان من الارتباط برئيس أجنبي، وأقفل أديرة المتوحّدين واستخدم أموالها في إنشاء رعايا جديدة. وأعاد تنظيم الاكليريكيات، وتدخَّل في الشؤون الطقسية ودفن الموتى وقرع الأجراس...

المحن التي ألـمَّت باليسوعيين

وتجاه بابوية مسالمة، أراد «المستبدُّون المستنيرون» أن يتحكَّموا في الكنائس. وجمعوا بين بعض المطالب القديمة ومبادئ الأنوار وردود الفعل الكاثوليكية. فجاء حلّ الرهبانية اليسوعية عن يد مختلف الدول الكاثوليكية، ثم عن يد البابا إقليمنضس (Clément) الرابع عشر (١٧٧٣)، نتيجةً للجهود المتضافرة التي بذلها الفلاسفة والجنسينيون وسائر الرهبانيات. فتحمّل اليسوعيون نتيجة ضعف المَلَكيات الأوروبية والادارة البابوية التي كانت فيما مضى أقوى سند لهم، ونتيجة حميّتهم في الصراعات اللاهوتية. لقد تمّت إعادة المرسلين منهم إلى بلادهم في ظروف يُرثى لها، وفي البرتغال، أعدم المركيز دي پومبال (de Pombal) أكثر من ثمانين يسوعياً.

ثانيًا – نهضة البروتستانت والكنائس الشرقية

في كنائس الاصلاح، كثيراً ما وجَّه روح

الأنوار علم اللاهوت نحو العقلانية وعلمنة الثقافة. وفي الوقت نفسه، حاولت حركات نهضوية غير مرة ان تنتزع هذه الكنائس من سُباتها كمؤسَّسات قومية.

١ . النزعة التَّقَوية (piétisme) عند الألمان

النزعة التقوية هي ردّ فعل على النزعات الدنيوية التي اتَّسمت بها البروتستانتية في نهاية القرن السابع عشر ومطلع القرن الثامن عشر، إذ كانت الكنائس البروتستانتية مؤسَّسات حكومية ذات طابع وظيفي. وكان الاختبار الشخصي الذي دعا إليه لوثر قد أخلى المجال للتعليم العقائدي القويم. فتمنَّى عدد من البروتستانت إعادة الصدارة للعنصر الشخصي في الايمان. لقد دأبت البروتستانتية على التوجس من التصوُّف، الذي اعتبرته الوجه المشوّه للتدين تجاه الايمان الخالص. ومع ذلك، كان ما زال هناك مَن يحنّ إلى التصوُّف ويواصل قراءة «الاقتداء بالمسيح» ومؤلّفات القرون الوسطى.

فجاءت النزعة التقوية تلبّي تلك الطموحات المنطلقة من داخل البروتستانتية. وكان أبو تلك النزعة فيلب سپينر (Spener) (١٦٣٥–١٧٠٥)، قسّيساً لوثرياً من اقليم الألزاس (Alsace) في فرنسا. طاف أنحاء أوروبا وجمع عنده مجموعات صغيرة لقراءة الكتاب المقدّس وللصلاة. وكانوا يُسمّون تلك المجموعات مجموعات تَقوى، ومن هنا عبارة «النزعة التقوية»، كانت في أول أمرها عبارة تهكّمية. ووضع سپينر أساساً لعمله في كتاب سمّاه «الرغبات التقوية» (١٦٧٥)، أهمّ مبادئه هي: تشكيل مجموعات صغيرة لمعرفة الكتاب المقدّس، الرفع من شأن الكهنوت الشامل، أسبقية الاختبار الشخصي على علم اللاهوت، المحبة في المناظرات اللاهوتية، ودمج روحانيات القرون الوسطى، وإصلاح الوعظ في ضوء التعليم المسيحي. ان خبرة الاهتداء تحظى بأهمية كبرى، لأنها تُكتَسَب عَبرَ أزمة عميقة. فإن ابن الله يمرُّ أولاً بمرحلة يأس، ثم يعاني صراعاً باطنياً ثم يخرج من مأزقه ويجد السلام. وفي أثناء هذه الخبرة، يشعر بسعادة لا توصف. وعليه ان يكون قادراً على سرد ما جرى له علناً. فالنزعة التقوية ترفع من شأن التقوى العاطفية وتُعيد للأعمال كل ما لها من اعتبار.

كانت جامعة هال (Halle) (في ساكْس) (Saxe)، مركز الاشعاع الرئيسي لحركة التقوية، فساعدت على نشأة العديد من المؤسَّسات الخيرية (مدارس ومياتم) وعلى ظهور دعوات إرسالية إلى البلدان النائية، وألهمت بعض الموسيقيين مثال هِندِل (Haendel) (+١٧٥٩). وبالرغم من بعض المعارضة اللوثرية لـ«جمعيات القديسين» المتهوِّسة، بوسعنا أن نقول ان جزءًا كبيراً من المانيا في القرن الثامن عشر تأثَّر بالنزعة التقوية. وسيضيف الكونت زِنْزَنْدورف (Zinzendorf) إلى النزعة التقوية بُعداً دَوْلياً.

النزعة التقوية

كان فيلب سپينر (١٦٣٥-١٧٠٥) قساً لوثرياً من الألزاس. أراد إعادة العاطفية إلى الدين، بدون الخروج عن البروتستانتية.

«لا يقوم الدين المسيحي على العلم والفزلكة في مسائل تافهة، كما جرت العادة إلى حدّ الافراط في أيّامنا هذه، بل يقوم على معرفة مخلّصنا يسوع المسيح، الإله الحقيقي، كما يجب ان يُعرَف، بواسطة كلمته، وعلى مخافته في صميم قلوبنا، وعلى محبته ومناجاته بإيمان حقيقي، وعلى طاعته على الصليب وفي حياته، وعلى حبّ الآخرين من صميم قلوبنا ومساعدتهم بروح الرحمة. وأمّا نحن في حياتنا، أمام الخطر والموت، فعلينا ان نستسلم بثقة لا تتزعزع للنعمة التي يمنحنا إيّاها المسيح منتظرين الحياة الأبدية مع الله».

(فيلب سپينر)

٢. زِنْذِنْدورف (Zinzendorf) (١٧٠٠ – ١٧٦٠) المستبدّ المستنير

وُلد نقولا لويس، كونْتُ زِنْذِنْدورف، في دْرِسْد (Dresde)، وكان ابن سپينر بالمعمودية. رُبّي في أجواء تقوى انثويّة إلى حدٍّ بعيد، ولم يكن له رفاق من الذكور. فعدّ يسوع أخًا له. منذ نعومة أظفاره، أدرك ان الدين هو مسألة قلبية، لا عقلية. وفي الحال، شعر بهزّة نفسية عميقة عند مشاركته الأولى في العشاء السرّي، لكنه رفض الاهتداء المنظَّم الذي ينادي به أنصار الحركة التقوية. ولمّا التقى، في أنحاء أوروبا، مسيحيين من جميع المذاهب، رأى فيهم مجرد جزئيات للحقيقة. استقبل في أراضيه بعض الناجين من الاخوة الموراڤيين (Moraves)، ورثة الهسّيين (Hussites). فنظّمهم في نوع من الحكم الديني المتميّز بتسلُّطه. رسم زِنْذِنْدورف قسًا، ثم أسقفًا لموراڤيا. وبقي في الكنيسة اللوثرية، لكنه قبل شركة جميع الطوائف البروتستانتية وطبع مجموعته بطابع النزعة التقوية.

الانتشار في العالم

نُفي زِنذِنْدورف من ساكْس بسبب ابتداعاته (١٧٣٨)، فتحوّل إلى مرسَل. أرسل إلى أميركا إخوةً موراڤيين وأقام فيها هو نفسه بضع سنوات. كان للإخوة مجموعات معاضدة في أوروبا كلها. وبعد عودته إلى ساكْس، أوضح تعاليمه. فإلى الإلهام اللوثري والتقوي – غلبة العاطفة ومكانة الآلام في الحياة المسيحية وفرح الانسان الذي نال الخلاص – أضاف لمسة صبيانية على صلته بيسوع، وأنمى ما في العبادة من مراسيم احتفالية. بعد وفاة زِنْذِنْدورف، أصبح الموراڤيون طائفةً مسيحيةً جديدة: كنيسة وحدة الاخوة. وكان للموراڤيين إذ ذاك ٢٢٦ مرسَلاً في العالم.

ان الرفع من شأن العاطفة أدّى أحيانًا إلى

معارضة للعقائد تجاري عقلانية الأنوار. لكن النزعة النقدية وفّرت للبروتستانتية إشعاعاً جديداً. وكان الإخوة المورافيون هم الذين أوحوا إلى جون وَسْلي (Wesley) النزعة الميثودية.

٣. جون وَسْلي (Wesley) ونشأة الحركة الميثودية

كانت الكنيسة الانكليكانية مرتبطة إلى حدٍّ بعيد بالسلطات وبأصحاب الأراضي، ففقدت كل اتّصال بجماهير المدن التي فيها المناجم والصناعة الناشئة. فتوالى ظهور المنشقين، لكنهم كثيراً ما كانوا يقابَلون بالاضطهاد. منهم جورج فوكْس (Fox) (١٦٢٤-١٦٩١)، وكان إسكافاً. فبشَّر بتعليم يقول بأن النور الباطني يجعل من العقائد والنظم الكنسية أمراً ثانوياً. ودعا مستمعيه إلى الارتعاد أمام الله، مما أدّى إلى تلقيبهم بـ«المرتعدين».

قلب جون وَسْلي (١٧٠٣-١٧٩١) أوضاع الانكليكانية رأساً على عقب. وُلد في بيئة انكليكانية تعارض «الاختيار السابق» وتتغذّى بكتب القرون الوسطى الكاثوليكية. فجمع، بالتعاون مع شقيقه شارل، طُلاَّباً من أوكسفورد (Oxford) في نواد تهدف إلى القداسة يُقرأ فيها الكتاب المقدَّس مع صلوات وممارسة الأعمال الخيرية. والصرامة التي اتسموا بها أكسبتهم لقب الميثوديين (Méthodistes). وفي سنة ١٧٣٥، رُسم الشقيقان كاهنَين انكليكانيَين.

وذهبا إلى أميركا حيث تأثّرا بلقاء الإخوة المورافيين تأثّراً شديداً. ولدى عودتهما إلى لندن، شعر جون وَسْلي، في أثناء احتفال مورافي (١٧٣٨)، بتغيير باطنيّ مفاجئ، أي بما يشبه معمودية الروح القدس، سمّاه «اهتداءً». ومرّ أحد أقربائه، جورج وايتفيلْد (Whitefield)، وكان كلفيني النزعة، باختبار مماثل. وأراد الرجلان أن يبشّرا بما اكتشفاه، لكن المسؤولين رفضوا أن يضعوا الكنائس تحت تصرّفهما. فأخذا يعظان في الهواء الطلق وفي مستودعات المناجم وساحات السجون. فوقعت حوادث غريبة، من صراخ وسجود وهستيريا وشفاء وابتهاج... وعلى مدى أكثر من خمسين سنة، طاف جون وَسْلي أنحاء انكلترا ينادي بالاهتداء.

التنظيم الميثودي

بدون ان يهجر وَسْلي الكنيسة الانكليكانية، نظَّم الورع في العبادة تنظيماً لافتاً للنظر: ابتداءً من «الصف» المكوَّن من نحو ١٢ من «المولودين الجدد» بقيادة «زعيم»، ثم «الشركة» المحلية، فالـ«مركز» «فالاقليم». على رأسهم جميعاً «مجلس» مكوّن من نحو مئة عضو. وهناك تجمّعات أقل تقيّداً بالنظم، وفقاً لرقيّهم الروحي، أي «الزمرة» حيث تُمارس الشفافية الروحية. كان على الميتوديين ان يطلبوا الاسرار من الكنيسة الانكليكانية. على ان وَسْلي رسم بعض القسوس للعالم الجديد، إذ كان يقول: «أعتبر العالم رعيتي». وفي الأعياد

الخاصّة بالميثوديين، كان للترانيم التي ألَّفها شارل وَسْلي مكانة مرموقة.
وبعد وفاة وَسْلي، شكَّلت الميثودية مذهباً مستقلاً، وأصبحت من أُولى الطوائف المسيحية في الولايات المتحدة. كانت حركة نهضوية، فشدَّدت على الاهتداء وعلى السعي الدائب نحو القداسة. فأعادت إلى الاعمال والعاطفة والانفعال والشعور اعتبارها مع دمج بعض العناصر الكاثوليكية في البروتستانتية.

٤. الكنائس الشرقية *

بطرس الكبير

أبدى القيصر بطرس الكبير (١٦٩٤–١٧٢٥) رغبة في تجديد روسيا على نمط «الأنوار» بقوة السلطة. فبعد ان منع، لمدة عشرين سنة، انتخاب بطريرك على موسكو، ألغى البطريركية سنة ١٧٢١ وفرض على الكنيسة الروسية «نظاماً روحياً»: وهو ان يُشرف على الكنيسة بعد اليوم هيئة هي السينودس المقدّس المؤلَّف من بعض الاساقفة والكهنة. ويترأَّس هذا السينودس وكيل علماني يعيِّنه القيصر. فأصبح الوكيل الرئيس الإداري الحقيقي للكنيسة، ولم يعد لها أيّ استقلال عن السلطة. ونهجت كاترينا الثانية (١٧٦٢–١٧٩٦) نفس هذا المنهج في علمنة الكنيسة.

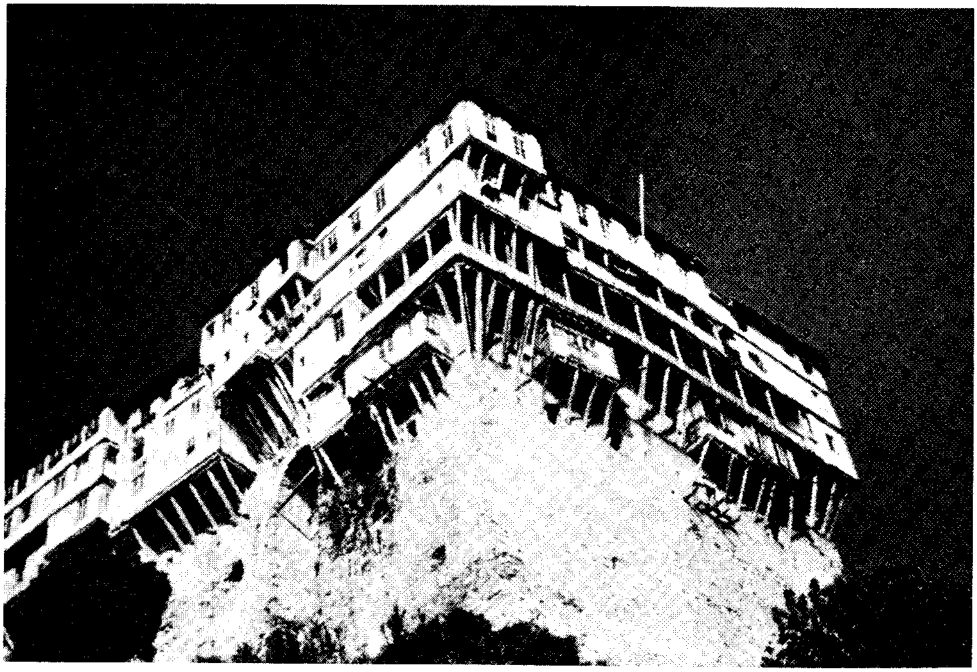
* سنخصّص مجلّداً للحديث عن الكنائس الشرقيّة.



كاترينا الثانية امبراطورة روسيًا

تقليد روحيّ حيّ

بصرف النظر عن التقلّبات السياسية، ظلّ التقليد الروحي الارثوذكسي حيًا في العالم اليوناني، كما في العالم الروسي. وبقي جبل آثوس (Athos) مركز الارثوذكسية الديني الاكبر. وفي سنة ١٧٨٢، قام نيقوديمس الهاجيوري (Hagiorite)، وهو من رهبان جبل آثوس، ومكاريوس، أسقف قورنتس، بنشر «الفيلوكاليا» (philocalie) (حبّ الجمال) في البندقية، جمعا فيها سائر نصوص الآباء المتعلّقة بالصلاة، وخاصةً ما يسمَّى «صلاة يسوع». وبعد ان تُرجمت الفيلوكاليا إلى الروسية سنة ١٧٩٣، أحرزت نجاحاً باهراً في البلدان الصقلبية. كما ازدهر التقليد الروحي الرهباني



دير ديونيسيوس في جبل آثوس

بفضل عدد من الشخصيات الاخرى كالقديس تيخون (Tykhon).

الكنيسة المارونية

من بين كنائس الشرق الأوسط، كانت الكنيسة المارونية اللبنانية مرتبطة ارتباطاً عضوياً بالكنيسة الرومانية، أي انها لم تتمتّع بالحظوة لدى الكرسي الرسولي فحسب، بل لدى السفراء والمرسلين الفرنسيين أيضاً. ومما يؤسَف له ان هذه الحظوة انقلبت إلى رغبة في ليتنة هذه الكنيسة. يشهد على ذلك سينودس جبل لبنان، المنعقد سنة ١٧٣٦، برئاسة مندوب من رومة.

ثالثاً – صدمة الثورة

كان قيام الثورة الفرنسية عبارة عن ترجمة جزء من روح الأنوار إلى الواقع: أي نصرة العقل في مجال السياسة ومحاربة المسيحية. نقلت الجيوش الفاتحة الأفكار الثوروية إلى أنحاء أوروبا بأسرها. وكان الفرنسيون يميِّزون بوضوح بين الثورة والعهد النابوليوني، أما الاوروبيون فاعتبروا الأمرين شيئاً واحداً وقد اكتسحت العقائدية الثوروية سهوب روسيا...

١ . تنظيم جديد للكنيسة

الاكليرس وبداية الثورة

أرادت الحكومة المَلَكية في فرنسا ان تجد حلاً للأزمة المالية والسياسية، فدعت ممثّلي الاكليرس والأشراف والشعب. كانت قوائم الشكاوى تقترح اصلاح الكنيسة وقطاعات الحياة القومية الاخرى. لا نستشف في هذه القوائم أيّ عداء للدين. لقد شارك جميع النوّاب، وروبسپيير (Robespierre) نفسه، في التطواف الذي افتتحت به الجمعية (٥ أيّار (مايو) ١٧٨٩) حاملين الشموع بأيديهم. وكان معظم ممثّلي الاكليرس من خوارنة الرعايا الذين قبلوا الانضمام إلى نوّاب الشعب لتشكيل الجمعية القومية التأسيسية.

وأمام المطالب والاضطرابات التي ظهرت في الأرياف، تخلّى الاكليرس والاشراف، ليلة ٤ آب (أغسطس)، عن جميع امتيازاتهم. وفي ٢٦ آب (أغسطس)، صوّتت الجمعية على «إعلان حقوق الانسان والمواطن»، وهي المبادئ الاساسية التي قام عليها النظام الجديد. كان هذا الاعلان مستوحى من تعاليم فلاسفة الأنوار ومن الاعلان الاميركي لحقوق الانسان الصادر بمناسبة استقلال الولايات المتّحدة سنة ١٧٧٦: الحرّيّة والمساواة والمِلكيّة حقوق مقدّسة. وفي الثاني من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٧٨٩، وفقاً لاقتراح تاليران (Talleyrand)، أسقف أوتون (Autun)، وُضعت جميع أملاك الاكليرس تحت تصرّف الأمة، فأصبحت أملاكاً قومية، وتعهّدت الدولة بمعيشة رجال الاكليرس والخدمات التي يقومون بها (من رعاية وتعليم...). ولمّا كانت الكنيسة تملك سُدْس الاراضي الوطنية، شكّل بيع هذه الاملاك نقل ملكية لا مثيل له. بيعت هذه الاملاك الوطنية للطبقة البرجوازية ولأغنياء المزارعين، مما أدّى إلى انضمام هاتين الطبقتين إلى الثورة. على ان ذلك أدّى أيضاً مع شديد الأسف إلى نهب عدد كبير من الثروات الفنيّة: فدُمِّرت بعض الكنائس والأديرة أو حُوّلت لاستخدامات أخرى. وفي ١٣ شباط (فبراير) ١٧٩٠، منعت الجمعية التأسيسية النذور الرهبانية، وعلى الراغبين في مواصلة الحياة الرهبانية ان يعيشوا في بيوت يتجمّعون فيها. ففي أديرة الرجال، أدّى ذلك إلى نزيف، أما في أديرة النساء فكانت الأمانة للنذور أعلى وأوفر.

دستور مَدَني للإكليرس

أعادت الجمعية التأسيسية تنظيم الشؤون السياسية والادارية في فرنسا بشكل جذري، فأرادت ان يكون التنظيم الكنسي أيضاً منسجماً مع تلك الخطوة. والذين ألهموا «دستور الاكليرس المدني» لم يكونوا أعداءً للدين، بل متأثّرين بشكل واضح بروح الأنوار والمبادئ التي تشجّع «الجوزفية». فتغيّرت الجغرافية الكنسية تغيُّراً تاماً: انخفض عدد الابرشيات من ١٣٥ إلى ٨٥، فأصبح لكل محافظة أبرشية، ولكل ستة آلاف من السكان رعية. الاساقفة وخوارنة الرعايا ينتخبهم نفس المنتخبين – بما في ذلك غير

الكاثوليك – الذين يختارون المسؤولين في المحافظات والمناطق الادارية. كان المشرّعون يظنُّون أنهم يعودون بذلك إلى بداية الكنيسة. وعلى الاسقف ان يطلب التعيين من رئيس الاساقفة ولا يراسل البابا إلاّ لتبليغه التعيين والتعبير عن الشركة معه. أُقِرَّ هذا الدستور في ١٢ تموز (يوليو) سنة ١٧٩٠ وأصدره الملك مُرغماً في ٢٤ آب (أغسطس).

القَسَم الدستوري

لكن الاعتراضات التي قُدّمت عند النقاش تبنَّاها ثلاثون من الاساقفة الاثنين والثلاثين المندوبين في الجمعية التأسيسية، بوثيقة خطيَّة احتجُّوا فيها على عدم طلب الموافقة من البابا في تعديل نظام الكنيسة (تشرين الأول (أكتوبر) ١٧٩٠). أما البابا فلم يردّ على الفور. وفي ٢٧ من تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٧٩٠، فرضت الجمعية على جميع أعضاء الاكليرس الذين في الخدمة أداء يمين الولاء للأمة وللملك، والتعهُّد بالمحافظة على الدستور، بما في ذلك تنظيم الكنيسة الجديد. لم يؤدّ اليمين إلاَّ سبعةُ أساقفة من أصل مئة وستين. أمّا الكهنة، فاختلفت نسبتهم باختلاف المناطق، أي نحو النصف لمجمل فرنسا، علماً بأن بعضهم أضافوا بعض التحفُّظات، لعدم اطّلاعهم على موقف البابا. والذين لم يؤدّوا اليمين كان عليهم ان يتخلَّوا عن القيام بخدمتهم. وهؤلاء لم يتمّ استبدالهم إلاَّ في نهاية سنة ١٧٩٠، إذ انتُخب أساقفة دستوريون ورُسم كهنة.

ردّ البابا

في آذار – نيسان (مارس – أبريل) ١٧٩١، شجب البابا بيوس السادس دستور الاكليرس المدني والمبادئ التي سار عليها المشرّعون في باريس، معلناً ان مبادئ الثورة الفرنسية مخالفة للوحي، لانها تُنكر حقوق الله والحقيقة، بإعلان حرية مطلقة... وطلب البابا ان يرجع جميع الذين أقسموا اليمين عن قسمهم، وحرَّم جميع الوظائف على الاساقفة الذين تمَّ انتخابهم، فحدث انشقاق: من جهة، كنيسة دستورية لا تعترف الدولة إلاّ بها وتستعيد أماكن العبادة، ومن جهة أخرى، كنيسة عاصية متضامنة مع رومة. وهنا لا بدّ من الحذر في تبسيط الامور، فما كل كاهن أقسم اليمين كان بالضرورة كاهناً سيّئاً ولا كل مَن رفض هو بالضرورة بَطَل. ان الدوافع كانت متنوّعة. وبعض الكهنة أقسموا اليمين ليتمكّنوا من البقاء مع رعاياهم، كما ان عدة أساقفة دستوريين كانوا رعاة يستحقّون كل الثناء. مع ذلك، فإن الاسراع في انتخاب أساقفة جدد، ثم في رسامة كهنة أدَّى إلى انتخابات مشبوهة.

٢. درب صليب كنيسة فرنسا

على مدى عشر سنين، سادت البلبلة أجواء الحياة الدينية في فرنسا، لكن ممارسة العنف لم تكن متواصلة. لقد غُضَّ النظر عن الكنيسة العاصية حتى ربيع ١٧٩٢. وبعد ان أُقصي الكهنة الذين لم يقسموا اليمين عن أماكن

العبادة، أخذوا يقيمون الشعائر الدينية في أماكن أخرى. ولما أعلنت الجمعية التشريعية الحرب على النمسا (نيسان (أبريل) ١٧٩٢)، وتراكمت الهزائم على فرنسا، رأى بعضهم في الكهنة العاصين أعداء في الداخل وجرى التفكير في نفيهم. كان الاساقفة قد هاجروا، ثم جاء دور الكهنة: من ثلاثين إلى أربعين ألف رحلوا إلى جميع بلدان أوروبا، والآخرون كانوا معرّضين للاعتقال.

محاربة الدين

أدَّت الصعوبات في الداخل والخارج إلى التشديد في التدابير المتّخذة ضد العاصين، سرعان ما شملت جميع المظاهر الدينية. فسُجن نحو ثلاثمائة من رجال الكنيسة بسبب عصيانهم وماتوا في المجازر التي جرت في أيلول (سبتمبر) سنة ١٧٩٢، في عداد نحو ألف قتيل. وفي الشهر نفسه، نزعت الأحوال الشخصية (سجلات الميلاد والزيجات والوفيات) من يد الاكليرس وعُهد بها إلى البلديّات، وأبيح الطلاق، ففقدت الكنيسة الدستورية البقية المتبقية لها من الهيبة، إذ لم يعد هناك حاجة إلى اللجوء إليها على وجه رسمي. ولم يكن لإعدام الملك لويس السادس عشر معنًى سياسي فقط، فإن بسط اليد على مسيحِ الرب كان، في نظر المسيحي، خطيئة لا تغفر. هذا هو، بالاضافة إلى رفض التجنيد، سبب الانتفاضة في غرب فرنسا، والحروب الضارية التي ذهب ضحيتها مئات الألوف من الناس.

أيام الرُعب

ان بغض المسيحية والعزم على تدميرها بلغا ذروتهما في أيام «الرعب» الذي استمرَّ من أيلول (سبتمبر) سنة ١٧٩٣ إلى تموز (يوليو) سنة ١٧٩٤: التقويم الجمهوري، وتدمير المباني الدينية، والحفلات التنكرية في الكنائس، وتأليه العقل، وحملة من أجل تخلّي الكهنة وزواجهم، وإعدام العديد من الكهنة والراهبات والعلمانيين، كخونة ومتعصّبين. يمكن القول بأن كثيراً منهم ماتوا شهداء حقيقيين، وإن كانت المحاكم الثورية تتذرَّع غالباً بذرائع سياسية. وبسقوط روبسبيير (٢٧ تموز (يوليو) ١٧٩٤) انتهت أيام الرعب وبدأت فترة من الراحة للدين.

محاولات لإعادة التنظيم

في أيلول (سبتمبر) ١٧٩٤، ألغت الجمعية العليا ميزانية العبادة، وفي ٢١ شباط (فبراير) سنة ١٧٩٥، تمّ الاعتراف بحرية العبادة داخل الكنائس. بذلك اعتمدت فرنسا نظام الفصل بين الكنيسة والدولة، واستمرَّ هذا النظام حتى سنة ١٨٠١. فشهد الصوم الكبير سنة ١٧٩٥ كنائس حافلة بالمؤمنين. لكن وجود كنيستين ظلَّ قائماً، وحاولت كل منهما إعادة النظر في تنظيمها.

تصدير الثورة

أدَّت انتصارات جيوش الثورة إلى انضمام بعض المناطق إلى الجمهورية... لكنَّ القرارات

المتعلّقة بالدين طُبِّقت فيها بطرق مختلفة. ففي بلجيكا، أُقفلت الأديرة وبيعت أملاكها، كما نُفي بعض الكهنة والأساقفة لأنهم رفضوا ان يؤدّوا يمين «البغض الأبدي للمَلَكية». وفي شهر تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٧٩٧، اغلقت أبواب جامعة لوڤان (Louvain)، ونُفي ستمائة كاهن بلجيكي. وبالمقابل، أدّى الوجود الفرنسي في بعض المناطق الاصلاحية إلى تحرير الكاثوليك ومنحهم حرية العبادة وجميع الحقوق المدنية.

٣. عصر نابوليون

المعاهدة

اجتمع الكرادلة في البندقية وانتخبوا بابا جديداً بتاريخ ١٨٠٠/٣/١٤، اتّخذ اسم بيوس السابع. حين كان أسقف إيمولا (Imola)، صرّح بأن صيغة الحكم الديمقراطية لا تتعارض مع الانجيل. ولمّا أصبح بونابارت (Bonaparte) الحاكم الأول، رأى انه لن يستطيع ان يحكم بدون ان يتصالح الفرنسيون على الصعيد الديني. لكن رؤيته الدينية هذه كانت رؤية سياسية. فباشر، مع الكرسي الرسولي، مفاوضات شاقة إلى أقصى حد، أدّت إلى إبرام معاهدة بتاريخ ١٨٠١/٧/١٥. حصل البابا على استقالة جميع أساقفة النظام السابق، فمارس بذلك سلطة لا مثيل لها منذ نشأة الكنيسة. قبلت الحكومة الفرنسية ان تأخذ على عاتقها مرتبات رجال الاكليرس. ولم تتطرّق المعاهدة إلى مسألة الرهبان. وأخيراً تبنّت المعاهدة عدداً من التدابير التي اتّخذها دستور الاكليرس المدني ومعاهدة سنة ١٥١٦: الحاكم الأول هو الذي يعيِّن الأساقفة، على غرار الملك، والبابا يمنحهم الصفة القانونية. كان المهمّ ان تعيد المعاهدة السلام الديني بإعادة العلاقات مع رومة.

لما عرض بونابارت المعاهدة لتصويت الجمعيات، أضاف إليها ٧٧ بنداً «نظامياً»، فاعترض عليها البابا. وتمّ أيضاً تنظيم أحوال البروتستانت. وبتاريخ ١٨٠٢/٤/١٨، يوم عيد الفصح، احتُفل في كاتدرائية باريس بإعادة الشعائر الكاثوليكية في فرنسا. فعمّ الابتهاج جميع أنحاء البلاد. وفي الشهر نفسه، أصدر شاتوبريان (Chateaubriand) كتابه «عبقرية المسيحية»، عبارة عن إعادة اعتبار فكرية وعاطفية للتدين التقليدي.

معاهدة ١٨٠١

«اتّفاق بين قداسة البابا بيوس السابع والحكومة الفرنسية.

تعترف حكومة الجمهورية بأن الدين الكاثوليكي الرسولي الروماني هو دين معظم المواطنين.

يعترف قداسته بأن هذا الدين جنى

وسيجني أعظم الفوائد والرونق من إقامة الشعائر الكاثوليكية في فرنسا ومن ممارستها من قِبَل حكّام الجمهورية الفرنسية.

وبناءً على ذلك، وفقاً لهذا الاعتراف المتبادل، ولخير الدين وللمحافظة على الهدوء في الداخل، تمّ الاتفاق على ما يلي:

١. يمارس الدين الكاثوليكي الرسولي الروماني في فرنسا بحرية، وتكون شعائره علنية، مع الامتثال لأوامر الشرطة التي تراها الحكومة ضرورية للهدوء العام.

٢. يقوم الكرسي الرسولي، بالاتفاق مع الحكومة، بوضع حدود جديدة للأبرشيات الفرنسية.

٣. يعلن قداسته لأصحاب الكراسي الاسقفية الفرنسيين أنه ينتظر منهم، بكامل الثقة، في سبيل السلام والوحدة، كل أنواع التضحية، حتى التضحية بكراسيهم...».

شهر عسل قصير

في فرنسا، دام شهر العسل بضع سنوات. نهضت الكنيسة ببطء وفيها عدد محدود من العاملين بالنسبة إلى ما كانوا في النظام القديم، بسبب الذين تركوا أو توفّوا، وبسبب قلة الكهنة الذين رُسموا مدّة السنين العشر الأخيرة. وكان لا بدّ من إعادة فتح الاكليريكيات وتجديد أماكن العبادة... بلغ بونابارت ذروة شعبيته عند الكاثوليك، حين حصل من البابا على ان يأتي ويتوجّه أمبراطوراً في كنيسة «السيدة» في باريس، بتاريخ ١٨٠٤/١٢/٢. ولمّا اجتاز بيوس السابع أرض فرنسا، لقي استقبالاً فخماً. أمّا المسؤولون عن كنيسة فرنسا، فأخذوا يكيلون لنابوليون الثناء جزافاً، ناعتين إياه بمسيح الرب، وداود الجديد، وقورش، وقسطنطين، وشارلمان...

الصراع الجديد بين الكهنوت والأمبراطورية

منذ ١٨٠٦، توتّرت العلاقات بين البابا والامبراطور. واستمرّت هذه الاحوال حتى سقوط نابوليون. أراد بونابرت، في صراعه مع انكلترا، ان يلتزم البابا بواجبات المقاطعة: أي منع التجارة مع انكلترا وحلفائها. فرفض البابا واشتدّ التوتر، وفي شباط (فبراير) ١٨٠٨، قامت الجيوش الفرنسية باحتلال رومة، وفي أيار (مايو) ١٨٠٩، ضُمَّت الدولة البابوية إلى الامبراطورية الفرنسية. فحرم البابا المغتصبين... وفي ٦ تموز (يوليو)، وُضع البابا في الاقامة الجبرية ومكث فيها حتى آذار (مارس) سنة ١٨١٢. وذاعت براءة الحِرم في فرنسا، بالرغم من ملاحقة الشرطة، ثم رفض البابا بيوس السابع منح الولاية القانونية للأساقفة الذين عيّنهم نابوليون. فبقيت سبع عشرة أبرشية بدون أسقف. وأراد نابوليون ان يتزوّج من ماري تيريزا النمسوية، وحصل من سلطات باريس الدينية على فسخ زواجه مع جوزفين. لكن الكرادلة الرومانيين الذين كانوا في باريس رفضوا حضور حفل الاكليل (١٨١٢).

وأراد نابوليون ان يخرج من مأزق الأبرشيات الخالية من أسقف، فدعا إلى انعقاد

مجمع قومي في باريس (١٨١١). أكَّد الاساقفة تعلّقهم بالبابا، لكنهم لم يريدوا إسخاط الامبراطور، فقصدوا البابا بيوس السابع ليقنعوه، لكنه رفض الخنوع. ثم ان الخسائر العسكرية اضطرت الامبراطور إلى إعادة البابا إلى رومة، فدخلها ظافراً في ١٨١٤/٥/٢٤.

٤. تُراث الثورة

تغييرات بلا رجعة

خرجت الكثلكة الفرنسية والأوروبية، من خِضَمّ الثورة وامبراطورية نابوليون، بتحوّلات عميقة. إذ انتقلت معظم أملاك الكنيسة إلى أيدٍ علمانية، والبابا وحده، حافظ على سلطته الزمنية. أُدرجت حرية العبادة في التشريع، وأصبح ممكنًا للفرنسيين ان يعلنوا أنهم ليسوا كاثوليك أو ليسوا مسيحيين. وبإنشاء الاحوال الشخصية المدنية، أفلتت مراحل حياة الفرد من متابعة الكنيسة، كما ان الكنيسة فقدت السيطرة على التعليم أيضاً.

أجل، لم يكن الوقت قد تهيّأ للعمل بالقرارات الحاسمة التي اتَّخذتها الثورة، لكنها ستعود لا محالة في مستقبل قريب أو بعيد، أعني الفصل بين الكنيسة والدولة، والطلاق. كما ان معاداة رجال الدين وإلحاد الدولة سيتذرَّعان، في وقت لاحق، بمبادئ الثورة.

كنيسة مطهَّرة

خرج إيمان المسيحيين من المحنة مطهَّراً. فعلى الكنيسة ان تعود إلى رسالتها الأساسية. منحتها المعاهدة، لمدة مئة سنة، ملامح ثابتة: فهناك اكليرس كفء، تابع لتسلسل رئاسي دقيق وخاضع للرئاسة، وهناك أساقفة أحرار من كل تدخّل مدني في أبرشياتهم، ينقلون الكهنة كما يشاؤون. أما الكاهن فيتطلّع إلى ان يُصبح خادماً بسيطاً جاداً ومجتهداً، خرج من الاوساط الشعبية فأتاح لها نوعاً من التقدير الاجتماعي.

ان المضايقات التي حلّت بالباباوات هزَّت مشاعر الشعب المسيحي البسيط، الذي رأى في اللجوء إلى الكرسي الرسولي الطريقة الوحيدة للدفاع عن الكنيسة ضد تدخّل السلطات المدنية.

وجودان فرنسيان

ان تراث الثورة قسم الفرنسيين حتى عهد قريب. ففيما «الليبراليون» (Libéraux) يتذرَّعون بالمبادئ الثورية من حرية ومساواة، يرى معظم الكاثوليك في الثورة عمل الشيطان. ولذلك، كان الكاثوليك، في القرن التاسع عشر، يتطلّعون إلى تجديد اجتماعي وديني على نمط «النظام القديم» ويعارضون الليبراليين الذين يتمسَّكون بالدفاع عن مكاسب الثورة. ثم انتقل هذا النزاع الفكري إلى داخل الكنيسة، حين أخذ بعض الكاثوليك يرون ان مبادئ سنة ١٧٨٩ لا تنافي الانجيل وأن السعي إلى إحياء ماضٍ بائد أمر باطل.

الفصل الخامس عشر

إعادة النظام القديم والليبراليّة (١٨١٥-١٨٧٠)

بغياب ناپوليون عن المسرح السياسي، بدأ الربع الأول للقرن التاسع عشر، في نظر الكثيرين، مرحلةً يجب حَذفها. فلا بدّ من العودة بأوروبا والكنيسة إلى ما قبل سنة ١٧٨٩. وفي الواقع، شهد القرن التاسع عشر تجديداً دينياً لا يُنكَر، ترك آثاراً حتى أيّامنا هذه. ومع ذلك، فإن عدد الذين يرفضون التشكّك في مبادئ ١٧٨٩ كان في ازدياد مطّرد. ان تسلّط الأمراء وارثوذكسية الكنيسة لا يمكن ان يكونا عقبة في سبيل الحرية. والكنيسة الكاثوليكية كثيراً ما وجدت نفسها مضطرة إلى الدفاع عن هويتها بمحاربة هذه الليبرالية المتسلّلة إلى صفوف الكاثوليك أنفسهم. أراد البابا بيوس التاسع ان يجد حلولاً لهذه المشاكل، فدعا إلى عقد المجمع الڤاتيكاني سنة ١٨٦٩.

أوّلاً – إعادة النظام القديم

١. المبادئ

بعد انهيار الثورة والامبراطورية، باشر مؤتمر ڤيينّا (Vienne) (١٨١٤-١٨١٥) إعادة تنظيم أوروبا وفقًا لمبدأ الشرعية. فالبابا استعاد دولته، والقيصر الاسكندر الأول، الذي كان يعبر مرحلة من التصوّف، وقَّع، مع أمبراطور النمسا وملك بروسيا، معاهدة التحالف المقدّس (١٨١٥/٩/٢٨). والملوك، الذين يمثّلون ثلاثة مذاهب مسيحية، تعهَّدوا، «باسم الثالوث القدوس الذي لا ينقسم»، باتّخاذ المبادئ المسيحية قاعدةً لهم وبالتعاون المتبادل.

القيم الأبدية

ونشأ أدب عقائدي ينبذ المبادئ الثورية ويُشيد بقيم الماضي الأبدية، من دين وأخلاق

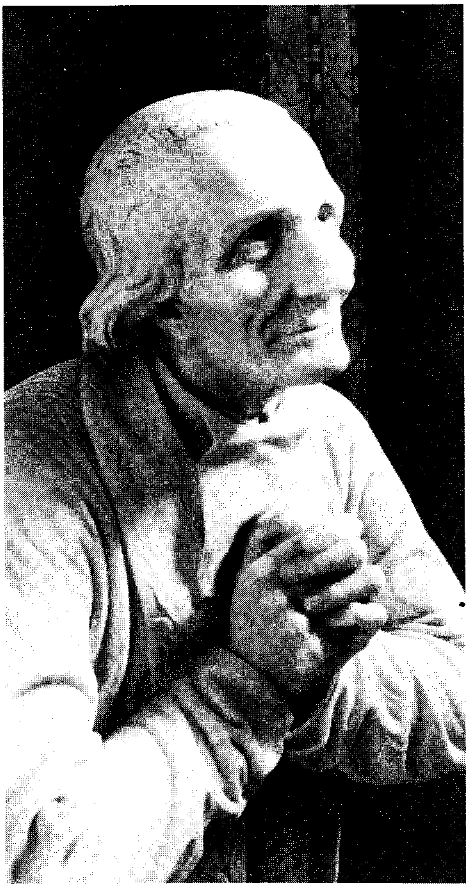
وسلطة كنسية. . . ليس للانسان حقوق، بل عليه واجبات. رأى جوزيف دي ميستر (de Maistre) في الثورة عقاباً إلهياً: فلا بدّ من العودة إلى الملكية ذات الحقّ الإلهي ومن الاعتراف بالبابا ككفيلٍ للنظام الشامل.

ولكن لم يكن ممكناً شطب خمس وعشرين سنة من التاريخ بجرّة قلم. وكان المستفيدون من الثورة يحرصون على الاحتفاظ بمكاسبها. وكانت تكمن في الربط بين الإحياء الديني والعودة إلى الماضي السياسي أخطار جسيمة، لأن التهجُّمات على الانظمة السياسية كانت موجّهة في الوقت نفسه إلى الكنيسة لاعتبارها متضامنة معها.

٢. العودة إلى الماضي السياسي وإعادة البناء الديني في فرنسا

العرش والمذبح

تساند العرش والمذبح. فأخذ أعضاء الحكومة والاشراف الذين عادوا من المنفى يحضرون القداس ويشاركون في التطوافات. وعادت الكثلكة لدين الدولة. ثم تمّ انتخاب الاساقفة كلهم تقريباً من بين الأشراف، وارتفعت ميزانية العبادة. وبقيت معاهدة ١٨٠١. لكن سنة ١٨٢٢ أُنشئت نحو عشرين أبرشية إضافية. وحُفظت حرية العبادة، ولكن الطلاق أُلغي. ولم يعَد النظر في استعادة أموال الكنيسة. الرأي العام لم يقبل دائماً التدابير



القديس جان ماري ڤياني خوري آرس

المتّخذة لصالح الدين. . . ووراء هذه الواجهة المتّسمة أحياناً بالرياء، تمَّ عمل تجديد ديني.

إعادة بناء ديني

قصدت الكنيسة إعادة الطبقات الشعبية إلى أحضان المسيحية، بعد ان تزعزعت ممارستها الدينية في عهد الثورة. وأُعير اهتمام خاص في اختيار كهنة الغد، بإعادة تنظيم الاكليريكيات الكبرى وبتكثير عدد الاكليريكيات الصغرى

التي تفلت من مراقبة الدولة. وبعد ان انخفض عدد الرسامات الكهنوتية إلى ٥٠٠ في عهد الامبراطورية، بلغ سنة ١٨٢٩ ٢٣٥٧، وهو رقم قياسي. فأصبح ممكنًا زيادة عدد الرعايا، لا سيَّما في الارياف. في نصف قرن، اُضيفت ٥٠٠٠ رعية جديدة إلى الـ٢٧٠٠٠ القائمة سنة ١٨٢٥. وأسهم جان ماري ڤيانيه (Vianney) (١٧٨٦-١٨٥٩) في رفع شأن خادم الرعية الريفي وأكسبها بهاء لم تبلغه قط من قبل.

مئات الجمعيات الرهبانية

قدَّمت الرهبانيات للكنيسة ألمع الشخصيات فعادت الحياة شيئًا فشيئًا إلى الرهبانيات القديمة. ومنذ سنة ١٨١٤، أعاد البابا بيوس السابع تنظيم اليسوعيين، لكنهم لم يُقبَلوا في فرنسا إلاَّ بتحفُّظ. وفي الفترة ما بين سنة ١٨١٥ و١٨٧٠، نشأ عدد كبير من الرهبانيات الجديدة، الرجالية والنسائية، في فرنسا وفي بلاد أخرى. وكثير من التجمّعات الدينية الصغرى التي تكوّنت تلقائيًا في عهد الثورة، تحوَّلت في عهد إعادة الاصلاح إلى جمعيات رهبانية. وكانت جميع هذه الجمعيات تتوخى غالبًا تلبية الاحتياجات المحلّية: من تعليم، وخدمة المرضى والفقراء. أما الارساليات النائية فأصبحت بُعدًا جديدًا بالنسبة إلى البعض منها. وكانت الروحانية تستند إلى التيّارات التقليدية: الإغناطي والدومنيكاني والفرنسِسكاني، وإلى التعبّد للقلب الأقدس وإكرام العذراء (٧٠٠ جمعية رهبانية تحمل اسمًا مريميًا)، وإلى مواضيع ذلك العصر، كموضوع التكفير.

في الوقت نفسه كثرت المؤسَّسات التقوية والخيرية والأخويات المتنوِّعة: انتشار الايمان (١٨٢٢) والمسبحة الوردية الحية (١٨٢٦) وجمعيات القديس منصور (١٨٣٣).

الحملات الرسولية في الداخل والتعليم

وعادت الكنيسة إلى الحملات الرسولية في الداخل لتُعيد الجماهير إلى الممارسة الدينية. استعاد المبشّرون وسائل الماضي في إطار مثير. وأكثروا من الرتب التكفيرية عن جرائم الثورة.

وكانت الكنيسة عاجزة عن العودة إلى تسلّم كل مراحل التعليم، فسعت إلى تشجيع أبنائها في تنظيم تعليم الدولة. وأصبح بعض الكهنة مديري معاهد أو أساتذة فلسفة. وقدَّمت الجمعيات الرهبانية الجديدة مدرّسين ومدرّسات للتعليم الابتدائي الرسمي ثم أسَّست مدارسها الخاصة عند سنوح الفرصة سنة ١٨٣٣.

النتائج

اختلفت نسبة الممارسة الدينية باختلاف المناطق والجنس في هذا النصف الأول من القرن: من ١٠٪ إلى ٩٠٪، ويبدو انها ارتفعت في منتصف القرن: أكثرية الشعب كانت تلتمس المعمودية والتناول الأول والزواج والدفن في الكنيسة.


القديسة برنديت سوبيرو

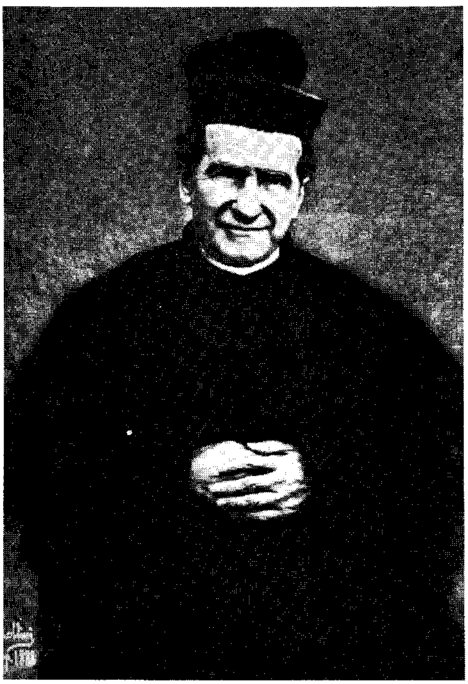
قلّة الايمان ومعاداة الاكليرس تميّزت بهما البرجوازية المتأثّرة بالافكار الثورية دون الطبقات الشعبية.

وكانت التقوى، في مطلع القرن، متأثّرة برومنطيقية ما بعد الثورة. فهناك إله رهيب يطالب بضحايا تكفيرية. وكانوا يعبّرون عن العاطفية الدينية بأسلوب مزخرف: «سيول من الدموع» و«نشوات لا توصف» و«مناجيات رقيقة» و«انخطافات سامية»... وفي خلال القرن، ظهرت تيّارات جديدة. فإن الله الرهيب أصبح الله الرؤوف، وتركّزت التقوى على المسيح بفضل انتشار عبادة قلب يسوع والافخارستيا. وممّا أسهم في إكرام العذراء، إنشاء أخويات مريمية وظهورات مريم: كالظهور في «صاليت» (Salette) (١٨٤٦) وفي «لورد» (Lourdes) (١٨٥٨)...

٣. عبر أوروبا

إيطاليا

انتشرت معاداة رجال الدين، وساعدت على ذلك الجمعيات السرية كـ«كربوناري» (Carbonari). حافظ جنوب إيطاليا على نظامه القديم، في حين بدا الشمال أكثر نشاطاً بفضل إنشاء رهبانيات جديدة ومؤسسات خيرية (كوتولنغو (Cotolengo) ودون بوسكو (don Bosco) والنشاط الفكري لبعض الكهنة الفلاسفة كروزيني (١٨٥٥) وجيوبرتي (١٨٥٢).


القديس يوحنا بوسكو

ألمانيا والنمسا

في ألمانيا، أدَّت التعديلات في حدود المحافظات إلى رفض المبدأ القديم القائل بأن «الناس على دين ملوكهم». فهناك كاثوليك أصبحوا الآن تحت سلطة أمراء بروتستانت. وكان لا بد من العثور على حلول مقبولة، أدّت إلى مفاوضات طويلة وغالباً إلى توتّرات.

في مونيخ أنهى جون آدم موهْلر (Möhler) تعليمه كمؤرِّخ ولاهوتي للكنيسة. وفي كتابه «الوحدة في الكنيسة»، حاول التخلص من النظرة القانونية والسلطوية إلى الكنيسة، لإدراك طبيعتها ورسالتها انطلاقاً من مبدأها الباطني، أي الروح القدس، المعبّر عنه في حياة الشركة.

جان آدم موهْلر
(١٧٩٦-١٨٣٨)

لم يستطع ج.آ. موهْلر ان يُظهر كل قدراته، في حياته القصيرة، كلاهوتي في توبنغِن (Tübingen) ثم في مونيخ (Munich). أراد، بتفكيره اللاهوتي الكنسي، ثمرة أبحاث عمره، ان يبرز أهمية التاريخ والاختبار الروحي.

«لا تنحصر المسيحية في عبارات وصيغ، بل هي حياة روحية وحياة باطنية وقوّة مقدّسة. لا قيمة لمناهج التعليم والعقائد بأسرها إلاّ بقدر ما تعبِّر عن هذه الحياة الباطنية التي يُفترَض أنها قائمة في مكان ما. لا بل يمكن القول بأنها، بصفتها عبارة لا محالة محدودة، لا تستوعب الحياة غير قابلة للوصف؛ انها ما زالت دون الحقيقة. على ان الحياة أيضاً غير قابلة للمشاركة (أي غير قابلة للتعبير عنها) ولا يمكن تثبيتها، إذ إن هذه المشاركة وهذا التعبير لا يمكن ان يتمّا إلاّ بالألفاظ وبمفاهيم ومصطلحات... وليست الألفاظ ما لا يُعبأ به، بل لها، بالعكس، أهمية كبرى...

وبما ان المسيحية تُعتبَر حياة إلهية جديدة وُهبت للبشر، لا مجرّد مفهوم نظري لا حياة فيه، ينتج عن ذلك انها، على مثال الحياة، قادرة على التطوّر والنموّ... هذا وان مبدأ الوحدة الجوهرية لمفهوم الكنيسة المسيحي، في حِقَب تاريخها المختلفة، لا يقتضي على الاطلاق حالة جامدة».

(ج.آ. موهلر، الوحدة في الكنيسة)

إنكلترا وأيرلندا

في بريطانيا الكبرى، كان عدد الكاثوليك لا يبلغ الـ١٠٠,٠٠٠، بلا حيوية خاصة. ولكن في ايرلندا كانوا يشكّلون أكثرية السكان البالغ عددهم ستة ملايين. اضطُهد الايرلنديون الكاثوليك مدّة طويلة بسبب إيمانهم، وكان الملاّك البروتستانت يستغلّونهم. وكانوا شبه محرومين من أي حق سياسي. لكن الجهود التي بذلها أوكونيل (O'Connell) أدَّت، سنة ١٨٢٩، إلى تحرير جميع كاثوليك المملكة



جون نيومان

المتّحدة، وأصبح الكاثوليك مؤهّلين لشغل جميع الوظائف.

وفي انكلترا، أدّت هجرة الايرلنديين إليها إلى تعزيز عدد الكاثوليك، فبلغ ٧٠٠,٠٠٠ في منتصف القرن، وأسهم عدّة أشخاص بارزين في رفع شأن تلك الجماعة الآيلة إلى الانقراض. أوّلهم نيقولا وايزمان (Wiseman) (١٨٠٢–١٨٦٥) مؤلّف «فابيولا» (Fabiola) الشهير. كان طالباً في الكلية الانكليزية في رومة، ثم أصبح مديراً لها. وأظهر كثيراً من الانفتاح على تيّارات زمنه الفكرية. فشجّع الكاثوليك الانكليز وعرّفهم بحيوية الكثلكة في أوروبا. اختاره بيوس التاسع كأول رئيس أساقفة على وستمنستر (Westminster)، حين أعاد الرئاسة الكاثوليكية في انكلترا (١٨٥٠).

ومهّد وايزمان الطريق لاهتداء جون هنري نيومان (Newman) (١٨٠١–١٨٩٠). كان نيومان كاهناً انكليكانياً، وأحد آباء حركة أوكسفورد التي توخّت تجديد الكنيسة الانكليكانية الغافية في خضوعها للسلطة المدنية (١٨٣٣). لكن البحث في مؤلّفات آباء الكنيسة حمله على التساؤل عن أُسس الانكليكانية وعن تطوّر العقائد. وبعد بحثه هذا صار كاثوليكياً (١٨٤٥).

النور المفيد

وضع نيومان (Newman) هذه الصلاة سنة ١٨٣٣، على أثر مرضه، في رحلة إلى إيطاليا.

«أيها النور المفيد وسط هذه الظلال، أرشدني إلى الأمام! الليل حالك، وأنا بعيد عن منزلي، أرشدني إلى الامام! اسهر على طريقي. لا يهمّني ان أرى الأفق البعيد. خطوة واحدة تكفيني. لم أُصلِّ إليك دائماً كما أصلّي اليوم، لكي تهديني. كنت أحبّ ان اختار طريقي وأعرفه. أرشدني الآن! كنتُ أحبّ بهاء النهار. وكانت الكبرياء، رغم مخاوفي، تمتلكني! هيَّا انسَ الماضي! طالما تنازلَت قدرتك وباركتني، كي لا تعود إلى إرشادي وسط البيداء والمستنقعات والصخور والسيول، ما دام الليل مخيِّماً. عند الصباح سيبتسم لي أولئك الملائكة الذين لم أزل أحبّهم وكنت ذات يوم قد فقدتهم».

(من «مسيرة نيومان الروحية»)

العالم البروتستانتي

في بروسيا، فرض الملك فريديريك غليوم (Guillaume) ثالث اندماج الكنيستين اللوثرية والكلڤينية في كنيسة إنجيلية موحَّدة (١٨١٧)، فاقتدت به عدة دول المانية.

وبتكاثر المجموعات البروتستانتية، برز تيّاران، هما اليقظة والليبرالية. أمّا حركات اليقظة، وهي وريثة النزعتين التقوية والميثودية، فإنها شدَّدت على التقوى والعاطفة والأدلّة الخارجية. نظر بعضهم إلى الحياة المسيحية وكأنها تعاقب يقظات دورية.

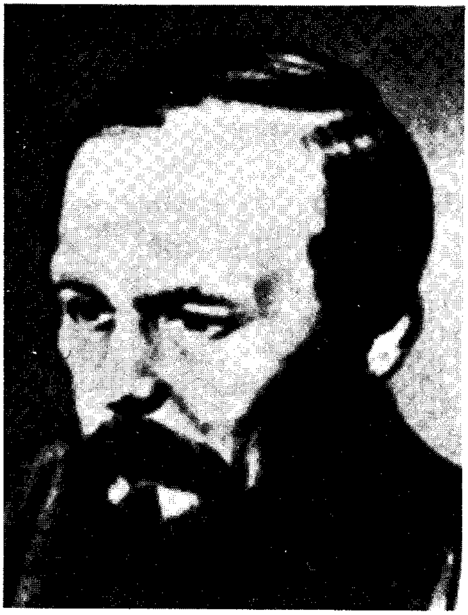
وأرادت الليبرالية البروتستانتية ان تجعل المسيحية مقبولة في عالم علمي يختلف كل الاختلاف عن عالم رجال الاصلاح. فتغلغلت العقلانية في اللاهوت. ويُعتبر فريديريك شلايرماخر (Schleimacher) (١٧٦٨-١٨٣٤) أبًا لليبرالية، وقد تأثَّر إلى حدٍّ بعيد بالموراڤيين. انطلق شْلايرماخر، في كتابه «خُطب في الدين» (١٧٩٩)، انطلق من الضمير قائلاً: «ليس الدين فكرًا ولا عملاً، بل هو مشاهدة فطرية وشعور». الدين هو الشعور بالانتماء إلى المطلق. وانطلاقًا من هذا المبدأ، تصبح العقائد شيئًا نسبيًا، والشعور الذاتي هو القاعدة.

أسّس كثيرون كنائس حرّة كرد فعل ضد التبعية للسلطة. والجدير بالذكر ان الفيلسوف س. كيركغارد (Kierkegaard) (١٨١٣ - ١٨٥٥) يدعو إلى مسيحية منقطعة عن العالم، فمهَّد السبيل لأنواع الوجودية التي عرفها القرن التالي.

العالم الأرثوذكسي

على مدى القرن التاسع عشر، كافحت القوميات الخاضعة للأمبراطورية العثمانية الآخذة في الانحطاط، كافحت للحصول على استقلالها. وعلى أثر انتفاضة اليونان (١٨٢١)، شنق الاتراك، على باب البطريركية، غريغوريوس بطريرك القسطنطينية، في عيد الفصح، بعد احتفاله بالليترجية. على أن اليونان حصلت أخيراً على استقلالها سنة ١٨٣٢. ورفضت الكنيسة اليونانية أن تخضع لبطريرك يعيش تحت نير الاتراك، فأعلنت استقلالها سنة ١٨٣٣.

وفي روسيا، تابع «الراسكولنيكي» (Raskolniki) معارضتهم للكنيسة الرسمية وانقسموا إلى عدّة شِيَع. لكن خضوع الكنيسة



فيدور ميخائيلوڤيش دوستويفسكي

للسلطة لم يمنعها من المحافظة على التقليد الروحي الذي اشتهرت به القرون الماضية. برز سارافيم دي ساروف (de Sarov) (١٧٥٩-١٨٣٣) رائد طبقة «الاسْتاريت» (Starets) أي الرهبان الشيوخ في القرن التاسع عشر. وقام مفكّرون حاولوا أن يشعروا الشعب الروس بأهمية مصادر الارثوذكسية. أما أنصار الغرب فكانوا يتطلّعون إلى الديمقراطية أو الاشتراكية، والروائي دوستويفسكي (Dostoievski) (١٨٢١-١٨٨١) أخذ يستكشف أعماق الجنون والخطيئة والالحاد.

الاسْتاريت (Starets)

في الحياة النسكية الروسية التقليدية، الاستاريت هو المعلّم الروحي الذي يُطلع المبتدئ الشاب على الحياة الروحية. وفي القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، كان السْتاريت غالبًا شيوخًا أجلاَّء أصبحوا مرشدي النخبة الروحية الروسية. يرسم دوستويفسكي صورة أحدهم في روايته «الاخوة كارامازوف» (Karamazov). ويبدو ان الكاتب اقتبس ملامح الاسْتاريت من أكثر من واحد منهم.

«من هو الاسْتاريت؟ هو الذي يستوعب نفسك وإرادتك في نفسه وإرادته. باختيارك اسْتاريتًا، تتخلّى عن إرادتك وتسلّمه إيَّاها، في طاعة كاملة، وتسليم تام...

كان عامة الشعب والاشخاص البارزون يأتون جَمًّا غفيرًا ويسجدون أمام استاريت ديرنا ويعترفون لهم بشكوكهم وخطاياهم ومعاناتهم، ملتمسين النصح والارشاد... أما بالنسبة إلى الاسْتاريت زوزيم، فيروي الكثيرون انه لكثرة ما كان يستقبل منذ سنين طويلة القادمين إليه لبثّه مكنونات قلوبهم، مشغفين بنصائحه وتعزياته، اكتسب، في آخر الأمر، بصيرة ثاقبة. فمنذ النظرة الأولى إلى إنسان مجهول، كان يحزر لماذا أتى وإلى ماذا يحتاج وكذلك ما الذي يعذّب ضميره. فكان التائب تأخذه الدهشة والخجل، بل الرعب أيضًا لدى شعوره بأنه مكشوف، قبل ان يفوه ولو بكلمة... وكان الكثيرون من الذين يقصدونه للمرة الأولى للتحدُّث إليه يدخلون بيته بخوف وقلق، ويخرج معظمهم من عنده مبتهجين، وأكلح الوجوه تعلوه إشراقة الفرح.

ثانيًا - الله والحرية

١. ثورات ١٨٣٠

ان استئناف الكَثلكة للنظام القديم أدَّى إلى معارضة شديدة من قِبَل البرجوازية الليبرالية، لا سيما في فرنسا. فتعدَّدت طبعات مؤلَّفات ڤولتير. وإلغاء حرّيّة الصحافة من قِبَل شارل العاشر أثار شعب باريس (٢٧-٢٩/٧/١٨٣٠). واتَّخذ الاستياء من النظام مجرًى عنيفًا معاديًا لرجال الدين: فنُهِبَت مطرانية باريس وتمَّ التعدّي على الكهنة المرتدين الثوب الكهنوتي. ودُمِّرت

الصلبان... ثم عادت المياه إلى مجاريها شيئاً فشيئاً.

في أنحاء أوروبا

كانت الثورة مُعدية. استاء البلجيكيون من دمجهم في مملكة هولندا، فثاروا. ولم يتردَّد الكاثوليك في التحالف مع الليبراليين على الملك الهولندي. ونظَّم البلجيكيون مملكة بلجيكا المستقلّة (تشرين الأول (اكتوبر) ١٨٣٠) على أسس ليبرالية: أي شبه الفصل بين الكنيسة والدولة، وحرية العبادة والتعليم والصحافة. سخّر الكاثوليك الأفكار الليبرالية لخدمتهم. فوقع الكرسي الرسولي في حيرة من أمره وأخيراً وافق.

كانت بولندا خاضعة لقيصر روسيا، فثارت في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٣٠ وأعلنت استقلالها. لكن الروس سحقوا البولنديين واستعادوا وارسو بتاريخ ١٨٣٢/٩/٨. جاءت عملية القمع رهيبة، فغادر الكثير من البولنديين بلادهم ووجدوا في الغرب عطف الأوساط الليبرالية والكاثوليكية. التمس البولنديون تدخّل البابا، كما التمسه غاغارين (Gagarine)، ممثّل القيصر. هل في وسع البابا ان يؤيّد الثورة في بولندا؟ وفي رسالة بتاريخ ١٨٣٢/٦/٩، دعا البابا البولنديين إلى الخضوع. فعمّ السخط والدهشة في بولندا وأوروبا. أفلا يجب على الكنيسة أن تأخذ بعين الاعتبار تطلّعات الشعوب إلي الحريّة؟ أوَلَم تحن ساعة المصالحة بين الله والحرية؟ هذا ما اعتقده لامنيه (Lamennais) وأصدقاؤه.

٢. لامنيه وجريدة «المستقبل»

من الإفراط في الولاء للملكية إلى الليبرالية

وُلد لامنيه (١٧٨٢-١٨٥٤) في سان مالو (Saint-Malo) في فرنسا وترعرع على عهد الثورة ونشأ عصامياً بمطالعاته المتواصلة. وفي سنة ١٨١٦، رُسم كاهناً وكرَّس حياته لرسالة القلم والصحافة. وفي سنة ١٨١٧، جعلت منه الـ«نبذة في عدم الاكتراث بالدين»، واحداً من أشهر كتّاب المملكة. أراد ان يمنع مواطنيه من الانزلاق بهدوء نحو الالحاد، معلناً أنه بغير الدين كل شيء ينهار. أظهر شيئاً من المغالاة في انتقاده للتعليم الرسمي. وكان متمسّكاً بالكرسي البابوي، يرى ان البابا المعصوم عن الخطأ هو على قمّة البناء السياسي الديني.

أسّس لامنيه (Lammenais) رهبانيتَين صغيرتَين للاهتمام بالتعليم الابتدائي. وأراد أن يساهم في تكوين اكليرس مطَّلع على تقليد الآباء ومنفتح على عقلية عصره. استعان بأصدقائه لاكوردير (Lacordaire) ومونتلانبير (Montalembert) وغيرهما، فأنشأ جريدة «المستقبل»، تتصدَّرها هذه العبارة: «الله والحرّيّة». اهتمَّت الجريدة بالشعوب التي تناضل في سبيل استقلالها، كبولندا وايرلندا... اقترح لامنيه تجديد الكنيسة والمجتمع تجديداً مبنياً على الحرية، حرّيّة الضمير والعبادة، والفصل بين الكنيسة والدولة، وحرية الصحافة والتجمُّع... أثارت الجريدة اهتمام قرّائها بالقضية الاجتماعية. لكن الاساقفة، الذين

اعتبروا فكرةَ الفصل بين الكنيسة والدولة غير معقولة، أبدوا عدم موافقتهم. فتوقّفت بتاريخ ١٨٣١/١١/١٥. وقرّر لامنيه ان يرفع القضية إلى البابا الذي ما زال يؤيِّده. لكن لامنيه وأصدقاءه المحرِّرين في الجريدة وصلوا إلى رومة في وقت غير مناسب، أي وقت صدور رسالة البابا التي دعا فيها البولنديين إلى الخضوع للروس. فاستاء لامنيه ورفقاؤه من هذا الموقف وقفلوا راجعين. وبتاريخ ١٨٣٢/٨/١٥، أصدر البابا رسالة عامة يشجب فيها، بدون تسمية لامنيه، أفكاره وأفكار جريدة المستقبل. وفي نيسان (أبريل) ١٨٣٤ أصدر لامنيه كتابه «أقوال مؤمن» عَبَّر فيه عمّا يجيش في قلبه من بغض لكل أنواع الطغيان وعن ثقته بالشعب. لكن البابا ما لبث ان شجب الكتاب وصاحبه في رسالة عامّة ثانية.

كل ما تمنّاه لامنيه نراه اليوم محقّقًا: الفصل بين الكنيسة والدولة، وحرية التعليم والصحافة...

جريدة المستقبل

صدرت الجريدة التي أنشأها لامنيه وأصدقاؤه، من ١٨٣٠/١٠/١٥ إلى ١٨٣١/١١/١٥. لكن برنامجها، الذي تتبنّاه اليوم جميع الدول الديمقراطية، صدم الاساقفة والأعيان الكاثوليك في ذلك الزمن.

دعوة إلى الكهنة لكي يتخلّوا عن أجورهم (١٨٣٠/١٠/١٨)

« يا خدّام الذي وُلد في مذود ومات على صليب، عودوا إلى أصلكم، جدِّدوا نشاطكم طوعاً في الفقر والمعاناة، فيستعيد كلام الله المتألِّم والفقير على شفاهكم فعاليته الأولى. لا تستندوا إلى أي شيء إلاّ إلى هذا الكلام. وانزلوا، كالصيّادين الاثني عشر، إلى وسط الشعوب، واستولوا مرة أخرى على العالم. فإن عصراً جديداً من النصر والمجد ينتظر المسيحية. انظروا في الأفق إلى بشائر طلوع الكوكب، وأنشدوا أنتم رسل الرجاء، على أطلال الممالك وعلى حطام كل ما يزول، نشيد الحياة.

برنامج تشريعي (١٨٣٠/١٢/٧)

«نطالب أوّلاً بحرية الضمير تامّةً وشاملةً، لا تمييز فيها ولا امتياز، وبالتالي، في ما يخصنا نحن الكاثوليك، بالفصل الكامل بين الكنيسة والدولة... وهذا الفصل الضروري، الذي بدونه لا وجود للحرية الدينية، يفترض من جهة إلغاء الميزانية المخصّصة من الدولة للكنيسة...، ومن جهة أخرى استقلال الاكليرس المطلق على الصعيد الروحي، مع بقاء الكاهن خاضعاً لقوانين البلاد، كسائر المواطنين وبالقدر نفسه.

نطالب ثانياً بحرية التعليم، لأنها حق طبيعي، ولأنها – ان صحّ هذا القول – أوّل حريات الأُسرة، ولأنه بدونها، لا حرية دينية ولا حرية في الرأي.

ونطالب ثالثاً بحرية الصحافة...

ونطالب رابعاً بحرية التجمُّع...

ونطالب خامساً بتطوير مبدأ الانتخاب وتوسيعه، إلى حدّ تغلغله في الاوساط الجماهيرية.

ونطالب سادساً بإلغاء نظام المركزية المشؤوم، هذه البقية المخزنة المخجلة المتبقّية من الاستبداد الامبراطوري. فكل مصلحة محدّدة لها الحق، بحسب مبادئنا، في إدارة نفسها بنفسها».

٣. ١٨٤٨، هوجة قصيرة العمر

تحوّلات اقتصادية واجتماعية

كان التصنيع قد خطا خطوات كبيرة في انكلترا، في حين كانت نسبة القرويين في فرنسا في منتصف القرن التاسع عشر ٧٥٪. لكن المناجم وصناعة النسيج خلَّفت تكتّلات سكنية في المدن ساد فيها بؤس رهيب. كانت الليبرالية الاقتصادية لا تعترف بأية قاعدة في ما يتعلّق بالأجرة والصحة. وكان بعض الكاثوليك المحافظين في السياسة يأسفون لزوال الفرَق المهنية في النظام القديم، إذ انها كانت تفرض عدداً من القواعد، فأخذوا يُنشئون المؤسَّسات الخيرية للتخفيف من أحوال البؤس. وندَّد لامنيه، في جريدة المستقبل، باستغلال العمَّال، وعرض تنظيماً اقتصادياً واجتماعياً جديداً، يستند إلى الديمقراطية السياسية. وعمل فريديريك أوزانام (Ozanam) على المصالحة بين الطبقات الاجتماعية. وهؤلاء الكاثوليك الاجتماعيون عاصروا الاشتراكيين الأوَّلين الذين استوحوا أفكارهم من المبادئ المسيحية، رافضين الصدقة ومطالبين بالحصول على العدالة بتغيير الاقتصاد والمجتمع.

تحويل الإنسان إلى آلة

عبَّر الكردينال بونالْد (Bonald)، رئيس أساقفة ليون، عن سُخطه على استغلال العامل كالآلة. لكنه اقتصر على الناحية الاخلاقية، ولم يستخلص نتائج عملية على صعيد البنى الاقتصادية:

«. . . ما هو الانسان في نظر الجشعين؟ لا شيء سوى آلة تعمل، أو عجلة سريعة الحركة، أو عتلة للرفع، أو مطرقة لتحطيم الحجارة، أو سندان لتكييف الحديد. وما هو الغلام؟ انهم لا يرون فيه سوى دائرة من الدوائر لم تبلغ طاقتها الكاملة. هذه هي، في نظرهم، كل ما للطبيعة البشرية من كرامة. ولو سألتموهم أين خلاص المجتمع، لأشاروا إلى لعبة الآلات المتواصلة، والعامل المنتج بلا انقطاع، والبخار الذي يُلغي المسافات. . .».

الشعب لا يطلب الصدقة، بل العدالة

ظهرت جريدة «الورشة» سنة ١٨٤٠ إلى ١٨٥٠، وكان محرّروها من العمَّال، يستندون في آن واحد إلى الانجيل وإلى الاشتراكية. وكانوا يحتجّون على الصدقة والأعمال التي ترى الكنيسة فيها حلاً للمشاكل الاجتماعية.

«ما يطالب به الشعب ليس الصدقة ولا الوصاية الانسانية أو الدينية، كما لا يطالب بالخبز، إذا تقيّد منح هذا الخبز بشروط استعبادية. ان ما يطالب به الشعب هو مكانه في بيت العائلة الكبرى، هو الاعتراف بحقّه الصريح في المشاركة في الشؤون العامة، هو حريّة حصاد ما زرعه بعمله، هو إلغاء جميع امتيازات المال، هو أخيراً كفّ بعض الناس عن التبذير... ما من أحد أحرص منّا على تدخّل الكاهن في مسائل التحرير التي تحرّك اليوم الجماهير الشعبية، ولكن لا بدّ ان يكون هذا التدخّل مطابقاً للروح المسيحية الحقيقية».

ربيع الشعوب

أدّى تحالف الناقمين من جمهوريين وكاثوليك متمسّكين بالعهد الملكي البائد وعمّال بطّالين – إلى ثورة شباط (فبراير) ١٨٤٨. ورحّب الجميع بالجمهورية لدى إعلانها في الـ ٢٥ من فبراير. طلبت الحكومة الموقّتة إقامة الصلوات. وبارك الكهنة أشجار الحرية، وبدا وكأن المصالحة شملت جميع الفئات. ثم اكتسحت هذه الثورة اوروبا بأسرها: النمسة وألمانيا وايطاليا.

جريدة «العصر الجديد»

أنشأ لاكوردير (Lacordaire) وأوزانام وماريه (Maret) جريدة «العصر الجديد» تهدف إلى العمل على التقارب بين الديمقراطية والكاثوليك. وفي الأشهر الأولى التي تلت إعلان الجمهورية، جميع الآمال كانت متاحة.

«وسط المصائب الأدبية والنكبات المادّية التي تضيّق علينا، نرحّب بحماسة بقيام الديمقراطية المعاصرة وتحقيق أهدافها. هذه الديمقراطية هي من عمل الله والزمن وعبقرية الانسان. وفي دين يصفنا بأصغر الناس وأوضعهم وبإخوة للانسان الإله وأعضائه، لا يجد المسيحي في إلغاء جميع الامتيازات طبقية، والمساواة المطلقة في الحقوق المدنية والسياسية... أي شيء مثير للدهشة. فليسلك الاكليرس غير متردّد الطريق الجديدة التي يبدو ان اصبع الله ترسمها، وليبذل كل جهد لانتصار هذه المبادئ الكبرى، مبادئ المساواة والحرية والأخوّة وتحقيقها في المجتمع... بئس المصير، لو أخفق هذا العمل للتقارب بين الكنيسة والمجتمع المعاصر، كما أخفقت محاولات أخرى جرت حتى اليوم، فتراجعَ الخيرُ عدّة قرون».

انتفاضة حزيران (يونيو) ١٨٤٨

في فرنسا، جرت الانتخابات في أجواء حماسية، يوم عيد الفصح. كان في عداد المنتخَبين نحو خمسة عشر من رجال الاكليرس، منهم لاكوردير. وكانت أكثرية الناخبين من القرويين السذّج، فخضعوا لتعليمات الوجهاء (من أعيان وكهنة) وانتخبوا مجلساً من المحافظين ممن يجهلون مشاكل العاصمة الاجتماعية. فتدفّق البطّالون إلى باريس ليعملوا في الورش القومية. لكن هذه الورش بدت كثيرة التكلفة فأُقفلت. فنصب العمال في باريس الحواجز ونشبت الحرب الأهلية. بلغ

عدد القتلى الألوف. وأخيراً في كانون الأول(ديسمبر) ١٨٤٨، تمّ انتخاب الأمير لويس فيليب رئيساً للجمهورية. وتمخّض عن هذه المحنة مجلس نوّاب يضمّ أكثرية من الكاثوليك المحافظين وأنصار الملكية.

الثورة في رومة

حاول بيوس التاسع ان يقوم بالاصلاحات المدنية في دولته، لكن وزيره روسّي (Rossi) لقي مصرعه. فخاف البابا وغادر رومة، وأعلن الايطاليون قيام الجمهورية (شباط (فبراير) ١٨٤٩). تأثّر المجلس الفرنسي لهذا الخبر، فأرسلت الحكومة جيشاً تمكّن من دخول رومة فأتاح عودة البابا إليها.

قانون فالّو (Falloux) والتعليم في فرنسا

قام فالو، وزير التربية، بالتعاون مع لجنة مكوّنة معظمها من الكاثوليك، بإعادة تنظيم التعليم، مما أدّى إلى منح حرية التعليم في المرحلتين الثانوية والابتدائية. وحظيت الكنيسة بنفوذ واسع على التعليم الرسمي، لأن كاهن الرعية له الاشراف، في البلديات، على المدارس الصغيرة، لا سيّما فيما يتعلّق بالتعليم الديني، كما أن بوسع رؤساء البلديات ان يختاروا المعلّمين من بين الرهبان والراهبات. كذلك انضمّ أعضاء من الاكليرس إلى مجالس التربية الوطنية.

أيّد الكاثوليك انقلاب الرئيس لويس نابوليون وإعادة الامبراطورية (٢ كانون الأول (ديسمبر) ١٨٥٢).

ثالثًا - المجمع الڤاتيكانيّ الأوّل

١. الإطار السياسي الديني

المسألة الرومانية

ان المساعدة العسكرية التي حصل عليها الملك ڤكتور عمانوئيل الايطالي من نابوليون الثالث، مراعاةً للرأي العام الكاثوليكي في فرنسا، أبقى بعض القوات في رومة للدفاع عن سيادة البابا على رومة وضواحيها. ان «المسألة الرومانية»، وهي مسألة أراضٍ، بقيت معلّقة بين الڤاتيكان وايطاليا حتى سنة ١٩٢٩.

انقسام الكاثوليك في ما يختصّ بالليبرالية:

أجمع الكاثوليك على واجب الدفاع عن سلطة البابا الزمنية وتشكيل جبهة مشتركة لمقاومة التعاليم الشيوعية. لكنهم انقسموا في الموقف الواجب اتّخاذه من مجتمع زمنهم المتأثّر بالليبرالية. الكاثوليك المتشدّدون كان في ودهم ان تستعيد الكنيسة نفوذها وامتيازاتها السابقة. فكان لا بدّ لهم من تنظيم جهودهم ضد كل ما يهدّد الكنيسة، كحرية نشر أيّ شيء كان. أمّا الكاثوليك الليبراليون، فكانوا أكثر واقعية. لقد أدركوا ما هناك من تطوّر اجتماعي وتراجع

ديني. فلم يطلبوا من الدولة إلاّ اتّخاذ موقف عدم انحياز وديّ، ومن الكاثوليك الرضى بالحرية المتاحة للجميع، لاعتقادهم بان مبادئ ثورة ١٧٨٩ ليست كلّها سيّئة، وقد يكون للحرية معناها المسيحي. [على ان هؤلاء الكاثوليك ما زالوا حتى ذلك الوقت محافظين وربما رجعيين على الصعيد الاجتماعي].

العقل والإيمان

لقد وجّه فلاسفة القرن التاسع عشر وعلماؤه ادّعاءاتهم ضد المسيحية والكاثوليكية بوجه خاص. فأكّد الفيلسوف كانْتْ (Kant) أن الله لا يُدرَك بالعقل، كما أنكر الوضعي أوغسطس كونْتْ (Comte) كل ما هو فائق الطبيعة. جعل رينان (Renan)، في كتابه «سيرة يسوع» جعل من يسوع مجرَّد انسان. فما هي العلاقات التي يجب إقامتها بين العقل والايمان؟

مكانة البابا في الكنيسة

لم يقبل الكاثوليك ان يروا البابا مجرَّداً من دولته، ظنًّا منهم ان السلطة الزمنية ضمان لاستقلال البابا الروحي. فكان الكثير من الكاثوليك يودّون لو تُحدَّد عصمة البابا عن الخطأ. ويوم أعلن البابا، سنة ١٨٥٤، عقيدة الحبل بلا دنس، أكّد بوجه غير مباشر عصمته عن الخطأ. على ان إكرام البابا كاد يبلغ السخرية بتلقيبه «نائب الله لدى البشرية». فكان لا بدّ من التوضيح.

أجوبة جزئية

تحت ضغط من عدة أساقفة، اتَّخذ البابا بيوس التاسع موقفاً من أضاليل عصره في وثيقتين بتاريخ ١٨٦٤/١٢/٨. ففي الرسالة العامة «quanta cura»، شجب تجاوزات العقلانية والاشتراكية والليبرالية... على غرار ما فعل غريغوريوس السادس عشر. وأضاف إلى الرسالة العامة قائمة («syllabus») تضمّ أربعاً وعشرين قضية مشجوبة. بدت القضية الأخيرة وكأنها تتضمّن رفضاً للمجتمع الليبرالي المعاصر بأسره. فابتهج الكاثوليك المتشدّدون. أمّا المعادون لرجال الدين، فسخروا، واستولى الدهش على الكاثوليك الليبراليين. للخروج من المأزق حاول المطران دوبنلو (Dupan loup)، في وثيقة أكّد فيها تمسّكه بسلطة البابا الزمنية، حاول ان يُضفي على النصوص البابوية معنى مقبولاً. فقبل البابا تأويله وهدأ الناس بعض الشيء.

في هذه الأجواء المتوتّرة من العلاقات بين الكنيسة والعالم المعاصر، ومن الخلافات الفكرية القائمة في داخل الكنيسة، قرَّر بيوس التاسع ان يدعو إلى انعقاد المجمع الڤاتيكاني الأول.

٢. انعقاد المجمع

انعقد المجمع بتاريخ ١٨٦٩/١٢/٨، وكانت الأهداف المقترحة غامضة وعامة، لكن الجميع كانوا يعتقدون بأن الموضوع الأساسي هو تحديد عصمة البابا عن الخطأ. من أصل ألف

أسقف يشغلون مناصبهم، شارك في المجمع أكثر من ٧٠٠ أسقف. كان العالم كله ممثَّلاً، لكن بأساقفة أوروبيين فقط. وكانت اللجان قد أعدَّت عددًا كبيرًا من الملفَّات في جمّ من المواضيع. لكن الظروف السياسية والعسكرية قصَّرت أعمال المجمع على مجالين.

أعمال المجمع

تمّ التصويت على الدستور «ابن الله» «Dei Filius» بتاريخ ١٨٧٠/٤/٢٤، وكان كنتيجة المناقشات حول العلاقات بين العقل والإيمان. فتجاه أضاليل العقلانية والحلولية والنزعة التقوية... حدَّد المجمع وجود إله شخصي يستطيع العقل ان يُدركه، مؤكّدًا في الوقت نفسه ضرورة الوحي. ولا مجال للنزاع بين العقل والايمان.

المجمع الفاتيكاني الأول
(١٨٦٩-١٨٧٠)

العلاقات بين العقل والإيمان

بعض قرارات الدستور «Dei Filius» الذي تمّ التصويت عليه بتاريخ ١٨٧٠/٤/٢٤:

« – ان قال أحد بأن جوهر الله وماهيته يطابقان جوهر وماهية سائر الأشياء، فليكن مُبَسَلاً.

– ان قال أحد بأن الله الواحد الحق، خالقنا وسيدنا، لا يمكن ان يُعرف معرفة اليقين عن طريق أعماله، بنور العقل البشري، فليكن مبسلاً.

– ان قال أحد بأن العقائد التي تعلنها الكنيسة، يمكن ان يكون لها أحيانًا، بحسب تقدّم العلم، معنًى يختلف عما عنته وما زالت تعنيه الكنيسة فليكن مُبسلاً».

ان عصمة البابا عن الخطأ لم ترد رسميًا في المشروع المتعلّق بالكنيسة. لكن أكثرية الأساقفة طلبوا ان تُدرَج في النقاش، في حين ان الأقلية عارضت ذلك، معتبرةً الأمر غير ملائم. كان بين المعارضين عدة أساقفة ألمان وفرنسيون، منهم المطران دوبنْلو، غادروا قاعة المجمع لئلاَّ يشكّكوا الكاثوليك. فصوَّت الآباء على الدستور «Pastor aeternus» بتاريخ ١٨٧٠/٧/١٨ وسط هتاف وجلبة. الوثيقة في جوهرها تأكيدٌ لرئاسة البابا وعصمته عن الخطأ في العقائد التي يعلنها بسلطان رسولي.

تأجيل المجمع

في ١٨٧٠/٧/١٩، أُعلنت الحرب بين فرنسا وألمانيا. فسحب نابوليون من رومة الجيوش التي كانت تحمي البابا. وفي ٢٠ أيلول (سبتمبر) احتلَّت الجيوش الايطالية رومة، فأصبحت عاصمة مملكة إيطاليا. فأُجّل المجمع إلى أجل غير مسمّى.

رئاسة البابا وعصمته عن الخطإ

بعض المقتطفات من الدستور « Pastor aeternus »
بتاريخ ١٨/٧/١٨٧٠

«. . . نُعلّم ونُعلن ان الكنيسة الرومانية تتمتّع، بالنسبة إلى سائر الكنائس، وبتدبير من الرب، بسلطة عادية، وأن سلطة الولاية هذه الخاصة بالحبر الروماني هي سلطة أسقفية حقاً ومباشرة. فجميع الرعاة من أي درجة أو طقس كانوا والمؤمنون، كل على حدة ومجتمعين، ملزمون بواجب الخضوع للرؤساء [بدرجاتهم] وبالطاعة الحقيقية، لا في المسائل المختصة بالايمان والاخلاق فقط، بل في المسائل المتعلّقة بنظام وإدارة الكنيسة المنتشرة في العالم بأسره. . .

«سلطة الحبر الأعظم هذه لا تحول قط دون سلطة ولاية الأساقفة المألوفة والمباشرة، التي بها يقوم الأساقفة كرعاة حقيقيين. وقد جعلهم الروح القدس (رسل ٢٠/٢٨) خلفاء للرسل – بالرعاية والسياسة، كل على القطيع المعهود إليه».

نعلّم ونعلن، كعقيدة أوحى بها الله:

ان الحبر الروماني، حين يتكلّم من أعلى منبره، أي حين يقوم بوظيفته كراعٍ ومعلّم لجميع المسيحيين، محدّداً، بحكم سلطته الرسولية العليا، ان تعليماً ما، في شأن الايمان أو الاخلاق، يجب ان تسلِّم به الكنيسة بأسرها، يتمتَّع، بفضل العون الإلهي الموعود به في شخص القديس بطرس، بتلك العصمة التي أراد فادينا ان توفَّر لكنيسته، حين تحدّد تعليماً في الايمان أو الاخلاق».

٣. نتائج المجمع

كان الترحيب بقرارات المجمع عاماً. ولم يرفضها إلاّ بعض الجامعيين الألمان.

ترك المجمع الفاتيكاني الأول انطباعاً من عدم التوازن. فبسبب ضيق الوقت، تحدّث المجمع عن البابا، ولم يتحدّث عن الأساقفة، ولعلّ ضيق الوقت هذا جاء في وقته تدبيراً من العناية الإلهية. فالنتائج المترتّبة على إعلان العصمة كانت في نهاية الأمر أقل من النتائج المترتّبة على رئاسة البابا. بالمعنى المقصود، لم يستخدم البابا عصمته إلاّ حين أعلن «عقيدة انتقال العذراء» سنة ١٩٥٠. وبالمقابل، بتأكيد رئاسة البابا، اعترف المجمع له «بولاية عادية مباشرة أسقفية على الكنيسة بأسرها». فالرئاسة عزّزت المركزية الرومانية ورفعت من شأن المقام البابوي وقدرته في الوقت نفسه الذي فقد سلطته الزمنية. فكان لا بدّ من التوفيق بين هذه الرئاسة وسلطة الأساقفة. إن تأكيد الجماعيّة تمّ في المجمع الفاتيكاني الثاني.

الفصل السادس عشر

المجتمع السياسي والكنيسة

(١٨٧٠ - ١٩٣٩)

بدت الحياة اليومية تتخلص رويداً رويداً من سيطرة الفكر الديني، ومن ثم اتسعت ظاهرة السعي نحو العلمنة من نسيج المجتمع الأوروبي.

وكان من البديهي ان يسعى الحكام في هذا المناخ الى الهيمنة على مؤسسات الدولة، كالأحوال المدنية والتعليم والصحة. وكانت كلها مؤسّسات يسيطر عليها رجال الدين، فشعرت الكنيسة بروح عدائي بدا واضحاً في كل أنحاء اوروبا. وسرى الشعور أيضاً بأن حقوقها في طريق الضياع، وبأنها لن تلبث أن تُمنع من ممارسة رسالتها.

لجأ الكاثوليك الى موقف الدفاع، في محاولة صد التيار السياسي المعادي لهم، كما نشطوا لإعادة بناء مؤسسات تواجه تلك التي سيطرت عليها الدولة، وكأنها حركة لإقامة مجتمع متمسك بالأمور الدينية في مواجهة مجتمع علماني مناهض لكل نفوذ ديني. وكان لا بد ان يمضي زمن طويل حتى تستقر الأمور، وحتى يتلاقى التياران عند نقطة الاعتراف بحق كل منهما في ان يكون له نفوذ، ومن ثم أخذ الكاثوليك في الاندماج في حياة المجتمع بنهج جديد لا يشوبه القلق.

أوَّلاً - أوروبا حتى سنة ١٩١٤

١. البابوات وإيطاليا

توفي البابا بيوس التاسع سنة ١٨٧٨، وقد ظلّ بابا الكنيسة الكاثوليكية زمناً يقرب من اثنتين وثلاثين سنة لعلها اطول فترة بابوية مرت على تاريخ الكنيسة. ويمكن ان نوجز الملامح الرئيسية لحال الكنيسة وعلاقتها بالمجتمع خلال تلك الفترة بالقول بأنها اتسمت بطابعين، أولهما طابع نهضة تشق الطريق الى تجديد عميق في بنيان الكنيسة وثانيهما طابع عدم التماشي مع التطور الاجتماعي والفكري وعدم التجاوب

مع نزعات الشعوب الى الحرية والديمقراطية وحقوق العمال.

وجاء بعد البابا بيوس التاسع البابا لأون الثالث عشر. دامت رئاسته خمسة وعشرين عامًا، وكان أبرز اتجاهاته الاهتمام بقضايا عصره فقام بجهود كبيرة لتلبية متطلبات الأوضاع الجديدة، وحثَّ الكاثوليك على عدم التمسّك بالأنظمة السياسية البائدة. ونشر رسالته العامة الشهيرة «الاوضاع الجديدة» سنة ١٨٩١ لمساندة حقوق العمّال. وقد دعا إلى التعمّق في العلوم الكنسية . كما أظهر تفهماً لأوضاع الشرقيين فاستدعى البطاركة الى رومة واستمع الى مطالبهم، وأصدر رسالته «مقام الشرقيين» سنة ١٨٩٤ التي تقضي باحترام الطقوس الشرقية وتحدد واجبات المرسلين الكاثوليك في الشرق. ثم خلفه البابا بيوس العاشر، وكأن انتخابه جاء تلبية لحاجة ملحة الى الاهتمام برسالة الكنيسة الرعوية. كان البابا من عائلة فقيرة، ارتقى درجات الكهنوت من بدايتها كمساعد للراعي ثم راعيًا، الى ان اصبح الكردينال سرتو، وبانتخابه وضع حداً نهائيًا لممارسة الحكومات الاوروبية ضغوطها على الكنيسة، وتدخلها في سير انتخابات الباباوات.

لقي انتخاب بيوس العاشر صدى ارتياح في أنحاء البلدان الغربية، فقد صبَّ اهتمامه لينهض بجانب الكنيسة الرعوي، وهدف بذلك إلى إعادة الكنيسة من جوانبها الاجتماعية والروحية. كما كان ينفر من الأمور السياسية، إلاَّ أن السياسة فُرضت عليه حين أعلنت فرنسا فصل الدين عن الدولة. لكنه استطاع ان يتخذ موقفًا رائعًا في الدفاع عن حقوق الكنيسة دون معادات روح العلمنة التي سادت الدولة وعبر بالكنيسة إلى بر الأمان، ببسالة حياته وجاذبية شخصيته. ورأى فيه الجميع رجل الايمان، وتمّ إعلان قداسته سنة ١٩٥٤.

أما في ايطاليا فلم تمضِ الأمور بيسر، اذ رفض البابا محاولات التوفيق بين الحكومة والكنيسة، فقد رأى فيها إخلالاً بالقيم والمبادئ الانجيلية. وأعلن سجنه الاختياري في الڤاتيكان بعد ان كشفت الحكومة عن عدائها السافر لكل ما هو ديني، وأوقفت كثيراً من الأنشطة المسيحية، وحرمت الحجاج من زيارة الأراضي المقدّسة، ومنعت كل المظاهر والمواكب الدينيّة وصادرت الأديرة.

لم ييأس الكاثوليك أمام هذه المضايق، بل انطلقت رهبانيات جديدة في حماسة تجدد العمل الرسولي، مثل رهبانية القدّيس يوحنا بوسكو (السالزيان). وشعر الكاثوليك العلمانيون بضرورة النهوض بالمؤسّسات الاجتماعية والخيرية، وأسهمت بنوع خاص الجمعية الخيرية للمؤتمرات (١٨٧٥) بجهد رائع في نشر الفكر الديني وتعميقه وتكوين الأجيال المسيحية على الايمان القوي. غير أنه لا يمكن ان ننكر ان تمزّقًا حاداً قد حدث بين صفوف المؤمنين، وان تذمراً بدا في الافق، والبابا بيوس العاشر يقضي أيامه الأخيرة. وسرت من خلال

هذا التذمر دعوة الى انفصال المسيحيين عن قيادة الكنيسة وبخاصة في كل أمورهم السياسية والزمنية.

٢. ألمانيا

أكّد إعلان قيام الأمبراطوريّة الألمانية التفاف الشعب الألماني حول بروسيا وحول عاهلها وليم الأول، وبدأ القلق يساور الكاثوليك، اذ كيف ستسير الأمور وهم أقلية في خضمّ أغلبية بروتستانتية يقودها سياسي داهية هو بسمارك.

نظّم الكاثوليك صفوفهم وأسّسوا حزباً سياسياً أطلقوا عليه اسم «حزب الوسط» كرد فعل على إنشاء الحزب الوطني الحر، وأعلنوا برنامجاً اجتماعياً تقدمياً.

غضب بسمارك من جراء تحفظ الكاثوليك ازاء الوحدة الألمانية وتعاطفهم مع حكومة النمسا. أضف الى ذلك ما أثاره إعلان عصمة البابا من استياء الغالبية البروتستانتية. وأدى ذلك كله إلى مناهضة الأنشطة الكاثوليكية، فطُرد بعض الرهبان وأُجبر طلبة المعاهد الاكليريكية على مواصلة الدروس داخل المانيا كما طورد الذين انتقدوا الحكومة وسُجن بعضهم وحُكم على بعضهم الآخر بغرامات مالية ثقيلة.

كان من الأمر الطبيعي في هذا المناخ ان يتناقص عدد رجال الدين في الكنيسة الكاثوليكية. وقد أطلق المفكر الألماني فلك (Falk) على هذه المرحلة من التاريخ اسم الصراع الثقافي (Kultur Kampf).

انتُخب البابا لأون الثالث عشر وبدأ الوضع في ألمانيا في التحول، إذ رأى بسمارك في التيار الاشتراكي الوافد من روسيا خطراً يفوق خطر الكثلكة، ومن ثم بدأ يخفف من قبضته على حرية الكنيسة الكاثوليكية. إلاّ أنه تمسك بحرمان اليسوعيين من نشاطهم وبسيادة القانون المدني في عقود الزواج.

٣. دول أخرى في أوروبا

سرى تيار العلمنة في سائر أنحاء اوروبا وامتد الصراع الثقافي الى النمسا وسويسرا فأقرّت الدولتان علمنة المدارس وتثبيت القانون المدني في عقود الزواج وإلغاء الأديرة ومصادرة حقوقها. وتمركز الصراع في بلجيكا وهولندا حول المدارس، ونجح الكاثوليك في بلجيكا في الحصول على تشريعات مرضية. أما هولندا فقد أكدت روح العلمنة في المدارس ومنعت أي نفوذ ديني على المدارس وشؤون التربية. إمتد الصراع الى شبه جزيرة ايبريا (اسبانيا والبرتغال) وظلّ محتدماً لا يستقرٍ على حال. نجحت الكنيسة الكاثوليكية حيناً في السيطرة على الأمور الخاصة بالمدارس والتعليم، وفشلت حيناً آخر. وقام بعض الثوار الذين يحاربون الكنيسة بتدمير الأديرة وقتل الرهبان والكهنة حتى تمّ فصل الكنيسة عن الدولة. أما في انكلترا فقد



كاتدرائية وستمنستر أبّي

اختلفت الأوضاع، اذ شهد منتصف القرن التاسع عشر نهضة حقيقية في حياة الكنيسة الكاثوليكية. وأشاد البابا لأون الثالث عشر بفكر نيومن ومنحه رتبة الكردينالية (١٨٧٩). أمّا في ايرلندا فقد ظلت كنيستها تعاني الفقر وهجرة أبنائها إلى البلدان الغربيّة المجاورة. ولكنها حملت روح الجهاد متضامنة مع شعبها في السعي للحصول على الحريّة والاستقلال.

ثانياً – الكاثوليك الفرنسيون والجمهورية الثالثة

إنهارت الأمبراطورية الفرنسية في أيلول (سبتمبر) سنة ١٨٧٠، ومزقت الحرب الأهلية فرنسا، وانقسم الشعب الى فئتين، فئة تسعى الى عودة النظام الملكي استطاعت ان تسيطر على الجمعية الوطنية (البرلمان) واغلب أعضائها من المحافظين والمزارعين، وفئة أخرى أثارت اضطهاداً على كل ما هو ديني أو كنسي وبخاصة على الكنيسة الكاثوليكية، وراح كثيرون ضحية الصراع بين الفئتين.

تعاطفت الحكومة مع الكنيسة، وسرى تيار يجدد النشاط الديني، فشيدت كنيسة ضخمة على رابية «مونمرتر» على أطراف باريس رمزاً لتضامن الشعب الفرنسي مع الكنيسة الكاثوليكية. ونظّمت الرحلات الدينية الى مناطق لها سمات دينية خارقة مثل لورد وباري لومونيال (Paray-le-Monial). وكأن الحرب الأهلية نزلت عقاباً على الاضطهاد الظالم وموجات الضلال، هكذا بدت الظاهرة للكثيرين. فسار منظّمو النهضات الروحية والمواكب الدينية في الشوارع، يحملون الشموع هاتفين: «ايتها العذراء مريم انقذي فرنسا وروما». وحقق الكاثوليك تقدماً كبيراً في علاقتهم بالحكومة وحصلوا على مزيد من الحرية في شؤون التعليم وإقامة الجامعات والمدارس.

غير ان المعارضين للأنشطة الكنسية لم يقفوا مكتوفي الأيدي وهم الذين يتمسكون بشعارات ثورة ١٧٨٩، مثل الماسونيين والڤولتيريين، ودعاة المذهب الطبيعي، ولبثوا يتحينون الفرصة الملائمة لتحقيق أهدافهم، حتى

نجحوا في الاستيلاء على الحكم ومؤسّساته في فرنسا بعد سنة ١٨٧٥ بقليل، ثم قاموا بإنشاء مؤسّسات تنافس مؤسّسات الكنيسة. وبدا لفظ جمهوري يعني من يرفض الملكية وسيطرة رجال الدين. وجاءت قوانين ١٨٨١- ١٨٨٢ تحولاً تاماً في نظام التعليم بمراحله كلها، وطُرد الرهبان اليسوعيون والدومينيكان والفرنسيسكان. وسدت روحُ مناهجَ التعليم العلمانية وكأنها خطوة لهيمنة العلمانية على كل شؤون الدولة، ثم بدأت مرحلة أخرى حين أُعلنت حرية الطلاق، وفُرضت الخدمة العسكرية على جميع الطلبة المعدّين للكهنوت أو للرهبنة.

كما مُنعت الصلاة التي اعتاد البرلمان الفرنسي أداءها عند بداية الجلسات، ونُفّذت هذه القوانين بعنف وشراسة فاقتُحمت الأديرة ولم تراعِ حرمتها ونزعت الصلبان، فكانت صدمة عنيفة للكاثوليك.

الكاثوليك - موقف دفاع

اضطُر الكاثوليك الى اتخاذ الوسائل الممكنة لتنشئة أولادهم على الإيمان. فقامت سنة ١٨٨٢ مجموعات من المتطوعين لتدريس الدين، وناشد الأساقفة الكهنة والعائلات تحمّل تبعات تربية الأجيال على إيمانهم المسيحي. وحسم الكاثوليك الأمر حين تصدّوا لكل الكتب المدرسية التي لا تحترم القيم المسيحية، وأسّسوا المدارس الكاثوليكية الحرة، وتعمدوا ان يقيموا مؤسّسات توازي ما تقيمه الحكومة من منشآت غير دينية، فظهرت واضحاً ازدواجية الحياة في فرنسا.

غير أن البابا لأون الثالث عشر ناشد الكاثوليك - حفاظاً على وحدة الوطن وحرصاً على مصالح الكنيسة الروحية - أن يقيموا جسور تضامن وتعاون مع الدولة، وان يتقبلوا بروح نبيلة ومعارضة شريفة كل تشريع يصدر مخالفاً للايمان المسيحي. ولكن الكاثوليك ظلّوا على موقفهم المتحفظ إزاء التعاون مع الجمهوريين. وقد حث البابا لأون الثالث عشر الكاثوليك على اتّباع الأساليب العلمية في البحث والتنقيب، كما حثَّ الناس على احترام قوانين الزواج وعلى حياة التقوى.

ثم صدرت رسالة البابا الاجتماعية «الأوضاع الجديدة» سنة ١٨٩١، ترسم خطوط العمل الكاثوليكي في مجال الرسالة المسيحية خلال هذه الحقبة. وكأن عنصرة جديدة ملأت الآفاق بروح الحماسة الرسولية فانبرى الكثيرون يضحون لاصدار الصحف المسيحية، وتأسيس الأنشطة الاجتماعية التي تدعو الى «ديمقراطية مسيحية». وتبارى الكثيرون في الدعوة الى قيام حزب ديمقراطي مسيحي، ومنهم كهنة ومعلمون وصحفيون وبعض النواب البرلمانيين. لكن هذا الاندفاع أثار قلق بعض الأساقفة الذين تخوّفوا من ان يسري تيار العلمنة بين صفوف رجال الاكليرس.

ونقتطف نصاً من وثيقة أصدرها البابا لأون الثالث عشر يوم ١٦ شباط (فبراير) سنة ١٨٩٢ عنوانها: «وسط الاهتمامات».

> «بخصوص المجتمعات البشرية، فإن الزمن، ذلك المحوّل الأكبر لكل ما هو على الأرض، وبرغم ان اموراً كثيراً يستعيدها التاريخ مئات المرات، يُحدث تغييرات عميقة لمختلف المؤسّسات السياسية، تفرض وتبرّر خلق أشكال جديدة للحكم، وقد يقتصر التجديد على المنهج السياسي للحكم المدني وقد يمتد الى طرق انتقاله، ولكن تبقى حقيقة هي ان السلطة المدنية الشرعية انما مصدرها الله ودوماً من الله (روم ١٣/١)...».
>
> إن قامت حكومة جديدة شرعية تحمل مسؤولية السلطة، فان التعاون معها ليس فقط مسموحاً به، بل هو واجب وفرض يقتضيه الخير العام للمجتمع، هذا المجتمع الذي جاء بهذه الحكومة وعليه ان يساندها... وذلك لا يعني ان احترام السلطة الشرعية يفرض حتماً الخضوع لأيّ إجراء تشريعي، بصورة مطلقة، يصدر عن هذه الحكومة...»

الفصل بين الكنيسة والدولة

في سنة ١٩٠٢ أصبح إميل كومب (Emile Combes)، وهو طالب إكليريكي سابق، رئيساً للحكومة الفرنسية الجديدة، وقد شنّ حرباً شعواء على كل ما هو ديني. أغلق ثلاثمائة مؤسسة تربوية دينية كان ينقص تأسيسها سند قانوني، وحرم إنشاء الجمعيات الدينية، كما منع الجمعيات السابقة من ممارسة نشاطها في مجال التربية، فتشرّد الرهبان والراهبات، وطُرد المتوحدون والنساك من خلواتهم. وأُجبروا على مغادرة المدارس والأديرة دون مورد رزق ودون عائل، وبخاصة طُرد المسنّون والمرضى، وتصاعدت الاضطهادات ضد الكاثوليك المتمسكين بأهداب الايمان، واضحوا محاصَرين ومراقَبين، ومُنعوا من الوظائف في الدوائر الحكومية الرسمية وخدمة الجيش، وأُوقفت تماماً المواكب الدينية والمظاهر المسيحية ورُفعت اللافتات التي تحمل أسماء القديسين او الشهداء ووُضعت على رؤوس الشوارع والميادين أسماء أبطال الجمهورية.

اتخذ التيار العلماني خطوة أشد خطراً حين قطع العلاقة الدبلوماسية بين فرنسا والفاتيكان (١٩٠٤) تمهيداً لإعلان فصل الدولة عن الكنيسة فصلاً تاماً.

وبرغم تمسك بعضهم بنصوص معاهدة سنة ١٨٠١، التي نظّمت العلاقة بين الدولة والكنيسة، الاّ أن ازدياد الرغبة في القضاء على المسيحية في فرنسا كان واضحاً وفي اطراد.

وفي كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٩٠٥، صدر القانون بفصل الدولة عن الكنيسة فصلاً نهائياً. أجل، لقد اعترف القانون بحرية الضمير، لكنه ألغى ميزانية

الشعائر الدينية، وسُلّمت ممتلكات الكنيسة الى مختلف المذاهب والطوائف، وأُعلن إلغاء المعاهدة الدينية التي اشرنا اليها والتي وُقّعت سنة ١٨٠١. وتم الإلغاء دون الرجوع إلى أحد الأطراف الموقّعين عليها وهو البابا بيوس العاشر، وكان من الطبيعي ان يتصدى البابا لهذا التيارالجارف، فأصدر وثيقة بعنوان: «بحدّة» (Vehementer) سنة ١٩٠٦، رفض فيها فكرة إقامة مؤسسات دينية خارج إطار السلطة الكنسية الشرعية، وازداد الأمر تعقيداً اذ وقعت أحداث عنف، واستولت الهيئات الحكومية على مساكن الكهنة وعلى الأديرة.

كانت الطعنة عميقة في كيان الكنيسة الكاثوليكية ولكن اليأس لم يتطرق الى كاثوليك فرنسا، بل بدأوا مرّة أخرى تنظيم الأنشطة الرسولية معتمدين على تمويل ذاتي مصدره عطاء المسيحيين و سخاؤهم.

وبرغم كل النتائج السلبية للقانون الذي فصل بين الدولة والكنيسة، الاّ أنه أمدّ الكنيسة برؤية جديدة وفجّر في كيانها طاقة العمل وحرية الحركة، دون التقيد بقيود تفرضها الدولة، وبدأت في الاعتماد على الامكانيات الذاتية، بل وكأن الفصل بين الدولة والكنيسة أدى إلى تقوية الروابط الرسولية والروحية بين رأس الكنيسة البابا في رومة والأساقفة في فرنسا.

ثالثًا - الحرب العالمية وموقف المسيحيين

صهرت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨) آلام الكاثوليك وأحلامهم بآلام الوطن وأحلامه في مختلف بلدان اوروبا.

واضحى التنافس في خدمة البلاد السمة البارزة إبّان تلك المرحلة، وبذل المواطن كل تضحية وفداء من أجل المجتمع. دعا الأساقفة الى الصلاة لتحقيق الانتصار، وشارك الرهبان في حمل السلاح دفاعاً عن أوطانهم. وكأن هذا الشعور الوطني الجارف قد أذاب ازدواجية الانسان الفرنسي وتحولت فرنسا الى جبهة واحدة تقاوم عدو الحرية والاستقلال.

بدا موقف البابا في رومة في حرج، فالمتحاربون جميعهم مسيحيون، ولذا اتجه البابا الى العمل على صعيد إنساني عادل، فسعى إلى مبادلة الجرحى والأسرى بين القوى المتصارعة ورفع البابا بندكتس الخامس عشر الصلوات من أجل شعوب العالم، كما حاول منع ايطاليا من الدخول الى ساحة القتال، وعرض وساطته بين المتحاربين، ولكن عرضه قوبل بالرفض من جانب بعض الدول، وبالاستنكار من جانب آخر، ولم يرض به أحد.

وجاءت الحرب بشبه خريطة جغرافية جديدة لدول اوروبا ، فقد تمزق شمل دولة النمسا الكبرى، واستعادت بولندا حريتها وكذلك دول البلطيق، كما حققت ايرلندا الكاثوليكية حريتها.

وشغلت الحرب الدول فلم يعد الصراع بينها وبين بابا رومة او الكنيسة الكاثوليكية. وأظهر البابا بندكتس الخامس عشر، وبَعده البابا



البابا بندكتس الخامس عشر

بيوس الحادي عشر، ميلاً إلى المصالحة وإقامة جسورٍ من التفاهم مع جميع الدول. كما جرت محاولة للتقرب من روسيا السوفياتية، فأرسل البابا معونات لضحايا الحرب. لكن تلك المحاولة لم توقف تيار اضطهاد الكنيسة ورجالها في روسيا فقُتل بعض من الأساقفة والكهنة، ولم تعد العلاقات الدبلوماسية بين الفاتيكان وفرنسا إلاّ سنة ١٩٢١، وتم تطويب جان دارك قدّيسة في الكنيسة واشترك في الحفل الديني بروما مندوب فرنسي «فوق العادة» وتمّ تثبيت الوضع القانوني لنشاط الكنيسة في فرنسا سنة ١٩٢٤.

تُوّجت مساعي التقارب والمصالحة بين الدول الأوروبية والكنيسة الكاثوليكية بمعاهدة اللاتيران سنة ١٩٢٩، التي وقّعها موسوليني واعترف فيها البابا او الكرسي الرسولي بدولة ايطاليا، وبروما عاصمة لها، كما أقَرت حكومة ايطاليا بسيادة البابا على مدينة الفاتيكان، وهي أصغر دولة، اذ لا تتجاوز مساحتها ٤٤ هكتاراً.

وستكتمل بنود معاهدة اللاتيران سنة ١٩٤٥، كما أُعيدت صياغة المعاهدة الدينية بين مختلف دول اوروبا والكنيسة خلال سنة ١٩٨٤.

وبرغم موجة الردة الى اضطهاد الكنيسة التي أدّت بالحكومة الفرنسية سنة ١٩٢٤، خلال رئاسة ادوار هيريو، الى اغلاق سفارة الفاتيكان وضم مقاطعة الالزاس لورين إلى النظام الفرنسي وتشديد الرقابة على اي نشاط ديني، اتخذ الكاثوليك موقفاً حاسماً، اذ بدأوا في عقد سلسلة من الاجتماعات في أنحاء متفرقة من فرنسا. وتحت ضغط الازمة الاقتصادية، استقالت حكومة ادوار هيريو، واغلب الظن ان الشعب الفرنسي لم يعد يتجاوب مع الشعور العدائي للكنيسة.

في فرنسا ظهرت حركة متطرفة عُرفت باسم «العمل الفرنسي»، وذلك سنة ١٨٩٨، أسسها زعيمها موراس (Maurras)، ولم يكن يمت بصلة إلى الايمان المسيحي، ولكنه كان منبهراً بالنظام الكنسي، فسعى الى ضم الكثيرين من رجال الكنيسة إلى حركته بدعوى العمل على تقويض النظام الجمهوري والعودة الى النظام الملكي. كسب عطف الكثيرين الذين وجدوا في الحركة حلفاً قوياً ضد نظام اضطهدهم، واتّسع نشاط الحركة، وضمت

كرادلة وأساقفة وطلبة اكليريكيين. وهنا تخوّف البابا بيوس الحادي عشر من وجود سمات وثنية في تلك النزعة التي أخضعت كل الأمور لمنهاج سياسي، كما ان الحركة وقفت حائلاً دون مصالحة الدولة والكنيسة، التي بذل الكرسي الرسولي جهده من أجل تحقيقها. ومن ثم أدان البابا حركة «العمل» في شيء من الحزم وحرّم على الكاثوليك الانضمام اليها، مما أثار ألم أبناء الكنيسة، اذ رأوا في ذلك نوعاً من القسوة والظلم الفادح. وسرعانَ ما هدأت الأمور وعاود النشاط الكاثوليكي حماسته.



پول كلوديل

ظهور «حركة العمل الكاثوليكي»

يمكن ان نوجز تحديد «حركة العمل الكاثوليكي» بأنه محاولة لإعادة الروح والملامح المسيحية إلى مختلف الأنشطة السياسية والاجتماعية والفردية. لقد انبثقت هذه الحركة عن رغبة حارة لدى مسيحيين علمانيين لأداء رسالتهم كمبشرين قد التزموا بحياة المسيح ونور الانجيل منذ حصولهم على نعمة سر العماد.

اتجه بعض المسيحيين الملتزمين بقيم إيمانهم إلى المشاركة في نشر تعاليم الانجيل، وقاموا بتأسيس جماعات اتخذت أسماء مختلفة، لكنها تسير كلها في تيار التجديد للحياة المسيحية وحاولت أن تضم اليها كل فئات المجتمع المسيحي.

أسّس البير دي مان (Albert de Mun) حركة A.C.J.F. لتضم شباب الطبقة المتوسطة (١٨٨٦) وأسّس الأب كرداين حركة J.O.C. سنة ١٩٢٥ لخدمة ورعاية الطبقة العمالية التي أُهملت زماناً طويلاً من قِبَل الأنشطة الكنسية. وقامت حركة الشباب المزارعين J.A.C. سنة ١٩٢٩ ثم حركة الطلاب J.E.C. سنة ١٩٣٠، وكان من الطبيعي ان تضم هذه الحركات الشباب من الجنسين، وامتدت الى مختلف بلدان اوروبا. وقد وضع البابا بيوس الحادي عشر اطاراً لاهوتياً لهذه الأنشطة، لتكون طاقة مجدّدة للحياة المسيحية، وعوناً لرجال الأكليرس في اداء رسالتهم.

هدأت عاصفة فصل الدولة عن الكنيسة وسارت الأمور على نسقٍ هادئ متوازن دون صراع او عنف حتى اعتبرت سنوات الثلاثينات فترة ذهبية لنشاط الكنيسة الكاثوليكية في فرنسا. وبرزت شخصيات كاثوليكية في كل مجالات الفكر والأدب والفن والسياسة، أمثال كلوديل ومورياك وبرنانوس ومونيه، وجاك ماريتان وجان لاكروا.

المسيحيون في مواجهة النظم الشمولية

الفاشية الإيطالية – النازية الألمانية – الشيوعية الملحدة

«الفاشية» كلمة ايطالية (Fascio)، بمعنى عصبة. بدأت هذه الحركة بتجمّع جماعة المحاربين القدامى الذين كوّنوا رابطة فيما بينهم، دفعهتم حماسة وطنية غامرة لإنقاذ ايطاليا، بعد أن أخفقت في حروبها ولم تحقق مآربها وتراكمت عليها الصعاب الاقتصادية.

وجماعة المحاربين القدامى (الفاشيون) هم في غالبيتهم من الطبقة الشعبية التي نصبت العداء للكنيسة ولرجالها، إلاّ ان الخوف من المد الشيوعي الملحد قارب بين جماعتهم وبين عدد من الكاثوليك المحافظين، وكان على رأس جماعة المحاربين القدماء موسوليني الذي نجح في كسب الكاثوليك إلى جانبه وفي عقد معاهدة اللاتيران.

لم تلبث «الفاشية» وزعيمها موسوليني إلاّ قليلاً حتى بدأت تكشف عن أهدافها الحقيقية، وقد عبّر عن ذلك زعيمها بقوله: «إني آخذ الإنسان من مولده ولا أتركه للكنيسة إلاّ لحظة وفاته وهي لحظة على البابا ان يهتم بها...»

أرادت الفاشية ان تضم إلى حزبها كل انسان من مولده إلى وفاته ولم تقبل ان يعيقها عائق في سبيل تحقيق هذا الهدف. وأخذت في التعدي على كل المؤسّسات الدينية حتى حسم البابا بيوس الحادي عشر الموقف في وثيقة أصدرها بعنوان «لا نحتاج» (Non abbiamo bisogno) سنة ١٩٣١. أعلن رفضه للنظام الشمولي وللحكم الدكتاتوري وطالب بحرية الكنيسة وحقّها في حمل رسالتها التربوية، ولم تخلُ وثيقة البابا من نبرة الرغبة في إقامة جسور من التفاهم بين الكنيسة والسلطة، اذ ناشد أعضاء حركة العمل الكاثوليكي الابتعاد عن أي نشاط نقابي او سياسي.

وخلال الحرب الايطالية الحبشية (١٩٣٥ – ١٩٣٩). لم يستطع البابا ايقاف الموجة الوطنية الجارفة التي جرفت معها كثيرين من الكاثوليك إلاّ ان جريدة الڤاتيكان الرسمية «الأوسرڤاتوري رومانو» أعلنت انه لا يوجد مبرر لشن حرب هيمنة على الشعوب.

يمكن القول بأن هزيمة ألمانيا خلال الحرب العالمية الأولى ادت الى ظهور «النازية». فقد تبلور هذا الفكر في كتاب هتلر «كفاحي» (Mein kampf) والذي تبنى تحقيق ما جاء به الحزب الوطني الاشتراكي.

لقد التفَّ جميع الساخطين على نتائج الحرب حول هتلر واتهموا اليهود والبلاشفة والاشتراكيين بالخيانة، وبالعمل على هزيمة الوطن، وكتاب «كفاحي» يضع ايديولوجية ترتكز على تفرقة عنصرية صارخة، وعلى عداء حاسم للسامية وعلى هدف لا شك فيه هو تدمير المسيحية. وبالتالي أعلن الأساقفة بأنه لا يمكن المسيحي أن يكون نازياً.

في سنة ١٩٣٣، ابّان أزمة اقتصادية طاحنة ألّمت بالوطن، قفز هتلر الى السلطة برغم انه لم يحظ بأغلبية مطلقة، فقد أيده الكاثوليك الخائفون من الخطر الشيوعي الزاحف وبخاصة كاثوليك حزب الوسط. ولم يلبث هتلر طويلاً حتى حل جميع الاحزاب وكشف عن عدائه للدين. فشهر الأساقفة الكاثوليك في وجه حزبه النازي سيف الحرمان الكنسي.

نجح هتلر في ان يوقّع معاهدة دينية بين المانيا والڤاتيكان سنة ١٩٣٣، وقّعها الكردينال باشيلي (البابا بيوس الثاني عشر في ما بعد) وظن الكاثوليك ان الفرصة قد سنحت لهم بقدرٍ من الحرية ولم يدركوا إلاّ بعد فوات الأوان ان المعاهدة قد سحقت كل حقوق الكنيسة، وان هتلر لم يضع في اعتباره اي احترام لبنودها. وفشلت جهود الكاثوليك والبروتستانت في وقف اعصار النازية المدمّر الذي بدأ في ابادة من يقف أمامه وتحطيم كل العوائق لامتداده.

في شبه خطوات منسّقة تقدّمت الشيوعية لتسيطر على روسيا. ومنذ سنة ١٩١٧ حتى ١٩٢٠، نجحت في الوصول الى سدة الحكم وأضحى لها وطن، ومن ثم بدأ القلق يساور البلدان الأوروبية، والخوف من المد الشيوعي. وازداد القلق عقب إعلان الجمهورية في اسبانيا سنة ١٩٣١. وصحب ذلك الاعلان اتجاه عنيف لاضطهاد الكنيسة ورجالها، فخُرِّبت الأديرة ونُهبت مؤسّسات الكنيسة، حتى برز الجنرال فرانكو كبطل وطني مسيحي، وكرمز للمقاومة. واشتعلت الحرب الأهلية في اسبانيا راح ضحيتها أكثر من مليون انسان، وأحرقت ألفا من الكنائس واغتيل سبعة آلاف كاهن. وحمل فرانكو لواء الدفاع عن الدين، إذ إن صورة البطل الصليبي تراءت للإسبان الذين ارتاعوا من الجمهوريين الشيوعيين. واعلن جميع الأساقفة الولاء لفرانكو سنة ١٩٣٧، ولم يمنع ذلك تمسُّك كاثوليك اقليم الباسك بالمبادئ الجمهورية كما تمسَّك بها بعض الكاثوليك في اسبانيا. وجدير بالذكر ان القوى العالمية انقسمت في مواقفها ازاء الحرب الأهلية الاسبانية سعياً وراء مصالحها، فقد ساعدت القوى النازية الألمانية والفاشية الايطالية فرانكو، وقدمت له العون، كما تلقى الجمهوريون العون من باقي القوى العالمية الأخرى.

أكّد ليون بلوم (Léon Blum) رئيس الحكومة الفرنسية سنة ١٩٣٦ بأن التعاون يمكن ان يقوم بين الكاثوليك والجبهة الشعبية، وبدأت فكرة التعددية السياسية تحوز القبول عند الكاثوليك.

البابا والنظم الشمولية

أشرنا فيما سبق الى موقف البابا بيوس الحادي عشر من الحركة النازية. وكيف اعلن رفضه الصريح والحاسم للتفرقة العنصرية التي نادت بها، وللعداء الذي شنته على السامية. كما وقف ضد تأليه الدولة، والموجة العارمة التي تعتدي على حرمة الأديرة والكنائس. لم يكن خطر النازية قد تكشف للكثيرين في اوروبا وقد شغلهم المد الشيوعي. وتوفي البابا بيوس الحادي عشر قبل ان ينشر خطابه الذي شبّه فيه اضطهاد النازية باضطهاد نيرون.

أما موقف الجنرال فرانكو فقد بدت الهالة التي أحاطت به كقائد حملة صليبية ضد الالحاد، تسقط في نظر كثيرين من المفكرين والكتّاب الكاثوليك بسبب العنف الدموي الذي صاحب الحركة. فكتب جورج برنانوس يقول: «ان حرب اسبانيا هي مقبرة عام، عظام المبادئ الحقيقية والباطلة، ومقبرة الاهداف النبيلة والاهداف الرديئة...»

الفصل السابع عشر

مسيحية ذات أبعاد عالمية

(١٨٠٠ – ١٩٤٠)

على مشارف القرن التاسع عشر، شهدت اوروبا نهضة على مختلف الأصعدة، السياسية والاقتصادية والاجتماعية. ولم تتقاعس الكنيسة عن القيام بدورها في هذه النهضة، بل سعت لتسهم في يقظة الشعوب الغربية، وبدت تتطلع إلى مختلف المجالات الانسانية العالمية، لتحمل رسالتها إلى أركان المعمورة.

لقد حاولت الثورة الفرنسية ان تطفئ شعلة الحماسة الدينية وتركت محاولتها آثاراً سلبية في العلاقات بين الدول والكنيسة. غير أن توهجاً رسولياً سرى في كيان الكنيسة دفعها الى انطلاقة رائعة على مدى القرن التاسع عشر. فقامت أنشطة لمساعدة المرسلين والمرسلات، وحملت جمعيات رهبانية على عاتقها نشر الرسالة المسيحية إلى البلدان النائية دون أية مساعدة أو تدخل من حكوماتهم.

لم يغرب القرن التاسع عشر حتى كان الغرب قد اقتسم مناطق النفوذ في أنحاء العالم، ولا يمكن ان ننكر ان ثمة تبادلاً في المصالح تحقق بين دول الغرب المستعمرة وجماعات نشر الايمان، ودون المبالغة في هذا القول فإن ظلال الشك حول رسالة الكنيسة والقلق من ان تتسم بسمات المستعمر دفع البابوات إلى بذل الجهود للابتعاد برسالة الانجيل عن مطامع الدول، وعن الدخول في دائرة الشك والقلق من قِبَل الشعوب المستعمرة. ومن ثم حث البابوات على غرس كنائس محلية، مستقلة، لها طابعها الوطني ولها طقوسها واكليرسها ولها تراثها وثقافتها، لا ترتبط بالغرب، بل تتحد بالكنيسة الكاثوليكية وبشخص البابا رئيسها.

أوّلاً – الوضع السياسي والديني الجديد

حددت المعاهدة الخاصة بالملاحة الدولية (١٨١٤–١٨١٥) حرية وحركة الملاحة وبرزت انكلترا وفرنسا كقطبين يتحكمان في الطرق الملاحية الدولية، وقد ورثت هاتان الدولتان، الأمبراطورية الاسبانية والبرتغالية، بعد ان تقلّص نفوذهما وحصلت بلدان المستعمرات على الاستقلال، وظهرت انكلترا

حامية للكنيسة البروتستنتانتية وإرسالياتها، وفرنسا حامية للكنيسة الكاثوليكية.

تمّ افتتاح الممر البحري، قناة السويس، سنة ١٨٦٩. وكانت له نتائج خطيرة على كل وسائل الملاحة الدولية، وعلى العلاقات الاقتصادية والسياسية بين الدول. ولعل من أهم هذه النتائج بعث روح المغامرة عند الشعوب الاوروبية لاكتشاف العالم من حولهم، فكثر المغامرون واندفع سيل من المهاجرين الذين يبحثون عن أرض جديدة وعن الثروات.

اتخذ العمل الانجيلي والتبشيري ابعاداً جديدة، اذ صدرت مؤلفات تشجع على التضحية في سبيل هدف نبيل وهو تبشير الشعوب بنور الانجيل، كما رغب الكثيرون في بناء الكنائس في المناطق البعيدة، وكأنها محاولة لإقامة مسيحية متحررة من قيود مسيحية الغرب وتقاليدها.

لقد اهتز ضمير المسيحيين في البلدان الأوروبية إبّان القرن التاسع عشر، وشعر بواجب نشر الإيمان والحضارة في بقاع الأرض، ولعل سمة التضحية حتى الاستشهاد والعطاء في سخاء من السمات التي تلفت نظر الباحثين في مسيرة التاريخ خلال هذه الفترة. لم يكن مفهوم الكرازة واضحاً وفق منهج محدد، إلاّ ان الوجدان المسيحي امتلأ حماسة ورغبة في البذل لخدمة البلدان الفقيرة.

ولا ينكر جهد الجماعات البروتستانتية وبخاصة الجماعة المعمدانية التي برزت سنة ١٧٩٢، ثم تبعتها جماعات أخرى سعت إلى نشر الإيمان والحضارة. وكانت ترجمة الكتاب المقدّس الى اللغات المحلية نقطة انطلاق الكرازة المسيحية. لم يكن الأمر سهلاً ميسراً، كما قد يُظن، بل قامت الخلافات والمشادات بين مختلف الكنائس والجماعات. لكن الأمر الذي لا شك فيه ان التنافس بين الكنيسة الكاثوليكية والكنيسة البروتستانتية جاء لصالح الشعوب إذ تبارت الكنيستان في الخدمة والتضحية.

وتبلورت الإرساليات في الكنيسة الكاثوليكية حتى تأسّست جمعية نشر الإيمان (١٨٨٢) كمؤسّسة تضم كافة الاهتمامات وترعى الدراسات الخاصة بنشر الإيمان.

بدأ المرسلون نشاطهم في أغلب الأحيان، بطريقة فردية أو بمبادرة شخصية، كان منهم كهنة ورهبان، يرحلون إلى البلدان البعيدة تحت رعاية اسقف، وتلا هذه الخطوة مبادرة الجماعات الرهبانية الكبرى وأرسلت من قبلها جماعات منظمة (رهبانية اللعازريين وجمعية الروح القدس واليسوعيون والفرنسيسكان والدومينيكان) من مختلف جنسيات الدول الأوروبية.

أما البعثات الارسالية البروتستانتية فكانت تتبع عدة جمعيات، تأسّست خلال قرن من الزمن، تضم مبشرين من مختلف الدول الأوروبية والأميركية. وما لبث ان دخل سلك هذه الارساليات مرسلون ومرسلات من مواطني الشعوب التي بُشّرت بالانجيل، ومنهم افارقة وأسيويون.

اهتم البابا اهتماماً خاصاً بالإرساليات، إذ أعلن البابا غريغوريوس السادس عشر سنة ١٨٣٩ رفضه القاطع لكل ألوان الاستعباد وأصدر وثيقة بعنوان: «لا أحد بكل تأكيد» (Neminem profecto) سنة ١٨٤٥، طالب فيها بإقامة كنائس محلية مستقلة ترتكز حياتها على أبنائها طنيين من أهل البلاد ليتحمّلوا مسؤولية الرسالة في وطنهم. ويمكن ان نقتطف نصاً من هذه الوثيقة ورد في النص: «... على رؤساء الإرساليات ان يبذلوا وسع جهدهم ليصل المسيحيون من أبناء الوطن إلى خدمة الكهنوت. انه أمر في غاية الأهمية، وينبغي ان تفتح المعاهد الاكليريكية أبوابها ليجد فيها الشباب المدعو الى الخدمة الكهنوتية مجالاً للتكوين ودرس العلوم الدينية، حتى يمكن ترقيتهم إلى الاسقفية. اننا نرفض ما جرت عليه العادة، الأمر الذي يتخذ من الاكليرس المحلي مجرد معاونيه. إنّه أمر ينبغي ان يُلغى لأن خَدَمة الانجيل متساوون كلهم، سواء كانوا من الأوروبيين أم من أهل البلاد...»

الإرساليات المسيحية والحركة الاستعمارية

من الحقائق ان حركة الكرازة في افريقيا كانت قد سبقت حركة الاستعمار الغربي، ولمّا وُقّعت معاهدة برلين سنة ١٨٨٥، قسم الأوروبيون قارة افريقيا الى مناطق نفوذ، ونصت المعاهدة على حرية الكرازة تحت ظلال الحماية الاستعمارية، بل واشترك الاستعمار مع الإرساليات في إقامة الأنشطة وبخاصة إنشاء المدارس والمستشفيات، كما لوحظ ان جل المرسلين والمرسلات تتفق جنسيتهم مع جنسية الدولة المستعمرة، اذ كان من الأمر البديهي ان يفضل المستعمر المرسلين من بني أمته. لكن ذلك لم يمنع نشوب خلافات بين المستعمر والمرسلين المسيحيين، وبخاصة عندما تتعارض مصالح الدولة المستعمرة مع القيم المسيحية والمبادئ الانسانية.

ثانيًا – الهجرة الأوروبية وتأثيرها المسيحي

كندا

أنشأ المهاجرون الكاثوليك القادمون من فرنسا ومن إيرلندا جماعة لها كيانها في كندا، وأقاموا عدة اسقفيات وجامعات كاثوليكية، واحتفظت الكنيسة بحرية بناء المدارس، كما سعت إلى تبشير الهنود الحمر وقبائل الاسكيمو.

الولايات المتحدة

كفل الدستور الأميركي حرية واسعة لجميع الطوائف، وبدت الولايات المتحدة

وكأنها تحمل شعلة الصحوة الدينية المسيحية، وشهد الغرب الأميركي هجرة اوروبية وافدة تصحبها مظاهر مسيحية ومواكب دينية. وسبق الايرلنديون سائر الكاثوليك الغربيين في إرساء أسس كنيسة كاثوليكية، تضم بنوع خاص الطبقات الفقيرة من العُمّال والمهنيّين، وقد استقروا على أطراف المدن. وتأسّست أول أسقفية كاثوليكية في بلتيمور سنة ١٧٨٩، ثم اندمج الكاثوليك الفرنسيون والإيطاليون والألمان والبولنديون في المجتمع الجديد. ولكي تحتفظ الكنيسة الكاثوليكية بطابع إيمانها ونظمها، أنشأت مؤسّسات تربوية. ولا سيّما بعد أن توافدت جماعات كثيرة من الرهبانيات الى العالم الجديد، ولم يفكر الكاثوليك في امريكا في السعي الى الكرازة خارج البلاد إلاّ بعد ان استتب لهم الأمر. وكان ذلك سنة ١٩١١، حين قامت الجمعية الإرسالية الأميركية التي تُعرف بالمارينول (Marynoll).

أمريكا اللاتينية

حصلت امريكا اللاتينية على الاستقلال (سنة ١٨١٧-١٨٢٣) بعد غروب شمس امبراطورية المستعمرات الاسبانية والبرتغالية. لقد هزم نابوليون اسبانيا والبرتغال، وخيّم على المجتمع وعلى الكنيسة مناخ من الفوضى والقلق، ذلك لوقوف الكنيسة ورجالها في صفوف المحافظين، ممّا أثار حفيظة المجاهدين المتحررين الذين نصبوا العداء لرجال الدين. كما ان وضع الهنود الحمر ظلّ وصمة عار وهم أهل البلاد الأصلاء. لقد ظلّ مجتمعهم بائساً منبوذاً. وكانت نتيجة هذا الوضع ان خبا التوهج المسيحي، وانتشرت مبادئ تدعو الى نزعة طبيعية وضعية فجّرها الفيلسوف اوغست كونت (Auguste Comte) ولاقت قبولاً عند قادة الفكر وأصحاب السلطة.

حاول الأساقفة الكاثوليك في أميركا اللاتينية، خلال مجمعهم العام الذي عُقد في رومة سنة ١٨٩٩، إعلان الدعوة إلى تجديد الكنيسة الشامل. إلاّ أن اندلاع ثورة المكسيك سنة ١٩١٠ أعاق تحقيق هذا النداء، وبخاصة ان هذه الثورة جنحت إلى الحد من نفوذ الكنيسة ورجالها، ومنعتهم من الهيمنة على المدارس، وقلّصت من عدد الكهنة. فثار بعض الكاثوليك واشتعلت الحرب الأهلية سنة ١٩٢٦ وظلّت ثلاث سنوات حتى هدأت سنة ١٩٢٩، دون ان يتوقف اضطهاد رجال الدين حتى نهاية سنة ١٩٣٧.

أستراليا

أُعتبرت استراليا، بعد ان اكتشفتها انكلترا منفى للمجرمين وللمحكوم عليهم في مختلف القضايا. ومنذ أوائل القرن التاسع عشر، تحولت إلى منطقة جذب للمهاجرين وللمغامرين. وكان الايرلنديون أول جماعة كاثوليكية في استراليا، فوضعوا لها تنظيماً رئاسياً خاصاً بهم. وأقام رئيس الأساقفة في مدينة سدني، كما أقام اسقفان آخران في المدن

الأخرى وازدهرت الكثلكة بوجه عام خلال رئاسة الكردينال موران (Moran) الذي رأس الكنيسة الكاثوليكية في السنين ١٨٨٤-١٩١١. وأُنشئت المعاهد الاكليركية الوطنية وعُقدت المؤتمرات الدينية، واندمج الكاثوليك في المجتمع الجديد وأسهموا في مختلف الأنشطة الاجتماعية والسياسية كالنقابات، وكأعضاء في حزب العمل.

جزر المحيط

شهدت هذه الجزر سباقاً في الكرازة وبسط النفوذ ونشر الحضارة بين الكنيسة الكاثوليكية والكنيسة البروتستانتية. وصل المبشر البروتستانتي جون وليامز (John Williams) الى تاهيتي سنة ١٨١٧ بعد ان سبق مرسلون من جمعية المرسلين البروتستانت بلندن سنة ١٧٩٧. طاف وليامز بين الجزر على مركب سمّاه «حامل السلام».

ولم يصل الكاثوليك الى جزر المحيط قبل سنة ١٨٢٧، ممثّلين برهبانيتين هما رهبانية القلب المقدس وجمعية الآباء الماريست . اتجهت الأولى إلى الجزء الشرقي، في حين اتجهت الثانية إلى الجزء الغربي من الجزر. وعرفت تاهيتي الدين المسيحي خلال القرن التاسع عشر واحتُفل بأول قداس كاثوليكي سنة ١٨٤٣.

أما في غينيا الجديدة فقد دخلتها المسيحية ببطء، ممثلة بجمعية الماريست التي أسست فيها رهبانية للنساء.

ولعل أهم ما يلاحظ في تبشير هذه الجزر اختلاط الفكر المسيحي بتراث شعوبها، وما حمله هذا التراث من أساطير قديمة. وظل المسيحيون الجدد من أهل الجزر متمسكين بكثير من عاداتهم وتقاليدهم، بل حاولوا مزجها بتعاليم الكتاب المقدّس.

آسية: الهند والصين

إن تنافس الكنيستين، الكاثوليكية والبروتستانتية، ونظام الإقطاع الذي كان سائداً في الهند، ساعدا على قيام طوائف انعزالية، تسودها روح قبلية، كما كان عاملاً من عوامل البطء الشديد في إعداد اكليرس محلي لخدمة بلاده. إلاّ ان اليسوعيين نجحوا سنة ١٨٤٧ في إنشاء دير لإعداد الرهبان بغض النظر عن تعصب المناطق وعزلة الطوائف فيها، وقبل الدير شباباً من مختلف أنحاء الهند.

أما في الصين فقد بقي الخوف التقليدي من الوافد الغربي عائقاً لانتشار الرسالة المسيحية. لقد رفضت الصين قبول المرسلين، واضطهدت المسيحيين، ومنعت دخول التجار من أهل الغرب الاوروبي.

وبدأ الوضع في التغيّر بعد ان وقّعت الصين معاهدة بينها وبين بعض بلدان اوروبا سنة ١٨٤٢. أتاحت هذه المعاهدة لفرنسا بوجه خاص فرصة إقامة علاقات مع الصين، وأمدّت الحماية الفرنسية المرسلين ببعض الحرية للعمل في الصين، وبخاصة انهم كانوا يلجأون إلى حمل

جواز سفر فرنسي، وتصدّت فرنسا لمحاولات البابا لأون الثالث عشر إيفاد مبعوث خاص يفتح باباً إلى الصين، فلم تنجح مساعيه.

لقد ظلّت الصين تنظر إلى الوافدين من بلدان اوروبا نظرة ريب، سواء أكانوا مرسلين للكرازة أم قادمين للتجارة. ولا يمكن أن يهمل التاريخ مرحلة حاول فيها التجار الغربيون تدمير الاقتصاد الصيني بقصد اخضاع الصين لسيطرة اوروبا.

وقد سجلت سنة ١٩٠٠ حادثاً جللاً دُعي حادث بكين، حين ثار بعض الصينيين على الأوروبيين الوافدين فقتلوا عشرات من المرسلين رهباناً وراهبات، كما قتلوا العشرات من الاوروبيين. إلاّ ان المرسل اللعازري الاب ليب (Lebbe) وهو بلجيكي الجنسية، ذكر ان صدمته كانت قوية من جراء نزعة التعصب الأوروبي والتعالي على أهل الصين.

ومع ان لليسوعيّين جامعة في شنغهاي، وان عدد المسيحيّين من كاثوليك وبروتستانت قد وصل إلى خمسة ملايين، إلاّ ان الرقم متواضع جداً بالنسبة الى عدد سكان الصين (١٪). وجدير بالذكر ان المدارس المسيحية ومؤسّسات الإرساليات ظلّت اوروبية السمات، لاتينية المنهج والطابع، بعيدة عن الجذور الصينية وتراث الصين.

اليابان وكوريا

ظلّت ابواب اليابان موصدة أمام المد المسيحي والغربي حتى بداية القرن السابع عشر، وبعد محاولات مستمرة لإقامة علاقات مع اليابان، نجحت الولايات المتحدة سنة ١٨٥٣، وتلتها اوروبا، في الوصول إلى موانئ اليابان وفي الحصول على حرية إقامة بعض الكنائس لجالياتهم. وقد اكتشف أحد المرسلين بقايا تراث مسيحي في مدينة نغازاكي. ويعود هذا التراث إلى القرن السابع عشر. وان دلّ هذا الكشف على أمر، فإنما على ان المسيحيين اليابانيين ظلّوا متمسكين بإيمانهم بالرغم من عدم وجود من يهتم بهم من رجال الاكليرس.

ومنذ سنة ١٨٧٣، فتحت اليابان أبوابها لحضارة الغرب ومنحت الحرية لمختلف العبادات. ومن ثم بادر كثيرون من الرهبان بالسفر إلى هناك وأنشأوا المدارس التي تلبي رغبة الياباني في العلم والمعرفة.

وفي سنة ١٨٩١، أقام البابا لأون الثالث عشر نظاماً كنسياً لإدارة شؤون الكنيسة في اليابان. ومع ان اليابانيين لم يخلطوا في فكرهم بين الإيمان المسيحي و الحضارة الأوروبية، إلا ان نزعتهم الوطنية التي عمّقها انتصارهم على الصين وعلى روسيا وكوريا سنة ١٩٠٥ ألقت بظلال الشك حول ديانة يتبعها الأوروبي.

وفي سنة ١٨٨٥ سقطت فيتنام تحت حكم الاستعمار الغربي وعُرفت المنطقة التي تضمها مع كمبوديا ولاوس باسم الهند الصينية الفرنسية. وبالرغم من نشاط جماعة «بيت الله» المسيحية في فيتنام، إلاّ ان تعلق الشعب

الفيتنامي بعبارة الاسلاف وقف حائلاً دون انتشار الكلمة المسيحية.

أفريقيا

ظلّ عار تجارة الرقيق يلطّخ العلاقات بين اوروبا وامريكا من جهة، وبين المستعمرات الافريقية من جهة أخرى. وقد قام التجار العرب بدور في تيسير مهمة هذه التجارة البشعة التي حرمّتها دول كثيرة، إلاّ أنها لم تختف تماما.

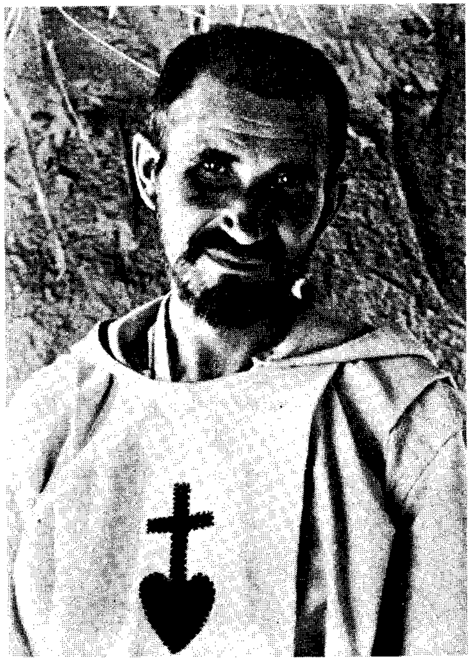
عُرفت افريقيا بأنها مقبرة المرسلين، اذ راح كثيرون ضحية الأمراض المستوطنة وبخاصة الحمى الصفراء. لكن ذلك لم يمنع تدفق المبشرين منذ تطلع اليها المرسلون سنة ١٨١٩. واستمرت البعثات الكاثوليكية إلى السنغال وقامت جمعيات رهبانية بنشر الكلمة فيها كجمعية القديس يوسف، ومؤسّستها الأخت آن جافوي سنة ١٨٢٩، وجمعية قلب مريم، ومؤسسها ليبرمان، وجمعية مريم، ومؤسسها مازينود سنة ١٨٥٠، وجمعية الإرساليات الأفريقية، ومؤسّسها موريون بريزيلاك في مدينة ليون سنة ١٨٥٦، كما اقيم مركزان للرسالة في الغينيتين سنة ١٨٤٢ (كنيابة رسولية) ولم يستطع المبشرون التوغل كثيراً في أعماق غابات افريقيا.

الكردينال لاڤيجيري (Lavigerie)

يظل اسم الكردينال لافيجيري خالداً في تاريخ تبشير افريقيا، مقترناً بالجهاد في سبيل إلغاء تجارة الرقيق. اعتقد الكردينال ان الجزائر هي نقطة الانطلاق إلى افريقيا. والجزائر موطن القدّيس اوغسطينس. ومنذ سنة ١٨٦٧، حيث عُيّن رئيساً لأساقفة الجزائر، بدأ النشاط في همة لا تكلّ، وأسّس جمعية الآباء البيض سنة ١٨٦٨ وجمعية الإخوة والأخوات المزارعين سنة ١٨٦٩، وجماعة الإخوة لمرافقة وحماية المرسلين سنة ١٨٧٩.

وقفت الحكومة الفرنسية، التي تخضع لها الجزائر كمستعمرة فرنسية، سداً مانعاً أمام طموح الكردينال، وبخاصة بعد ان أصبح رئيساً لأساقفة قرطاجة سنة ١٨٨٤ ونال سلطات كنسية واسعة، فكرّس جهداً لصياغة منهج للكرازة في المناطق الصحراوية. ولعلّ من أهم ما تسعى إليه تكيُّف المرسل بالبيئة التي يعمل فيها وتجاوبه مع ملابسات مجتمعه وتقاليد الجماعات البشرية وتراثها.

لقد ضحى كثيرون بحياتهم من أجل الرسالة، فلم تكن طرق الكرازة معبَّدة، ولا نشر الإيمان والحضارة سهلاً. وقُتل جمع من الشباب في اوغندا سنة ١٨٨٦، وراح الكردينال يتجول في بلدان الغرب يدعو لوقف عار الشعوب، أي تجارة الرقيق، ولم ينجح إلاّ سنة ١٩٠٢، حين أعلنت الحكومات الأوروبية المستعمرة منع هذه التجارة، وإن ظلّ الأفريقي للعمل الشاق وله الأجر القليل. جاء المرسل شارل دي فوكو بحياة ذات طابع روحي



شارل دي فوكو

جديد، وبمفهوم مغاير لمعنى الكرازة أسسه على خبرة عملية نادرة، وسلوك مسيحي رائع. فبعد ان عاش حياة الجندي المحارب، جذبته الصحراء بهدوئها العميق وصمتها الرهيب، صحراء الجزائر الممتدة جنوباً بلا نهاية. قضى هناك، في منطقة بني عباس وتمنراست، حياة النسك والتأمل. رفض الكرازة بالكلمات، بل صمت في صلاة ممتدة أمام سرّ القربان المقدّس، يعلن إيمانه ويعلن بشارة الانجيل بممارسة الحياة النقية وسلوك العطاء الذي لا يجف، ومشاطرة الفقير فقره والغريب غربته والضيف آلامه.

امتدت رسالة دي فوكو، وكأنها في امتدادها تطوي صفحات من تاريخ الكرازة الذي مضى عليه قرن من الزمان. وتبدأ برؤية جديدة لحركة الكرازة، تشرق بالحب والتأمل والبذل، حتى قدَّم حياته ذبيحة رسالته واستشهد بيد من كان قد كرّس نفسه لخدمتهم سنة ١٩١٦.

بزوغ تراث ديني مسيحي في أفريقيا

اختلطت الثقافة المسيحية الوافدة بالديانات القديمة وهزّتها بعنف، وزعزعت أسس التقاليد والعادات الوثنية، ولكن ذلك لا يعني ان تراثاً عقائدياً قبلياً، متوغلاً في وجدان الشعوب منذ آلاف السنين، يمكن القضاء عليه. ان الأمر الطبيعي هو ان تشع المسيحية بتوهجها الالهي في صميم هذا الوجدان وان تمتزج بما يحمل من قيم انسانية، تطهره من كل ملامح وثنية. غير ان المسيحية التي حملها الرجل الأبيض إلى افريقيا بعثت شيئاً من الخوف من الوافد الغريب الذي يأتي بديانة جديدة. وقد سعى بعضهم إلى اجتهاد لصياغة مسيحية أفريقية، تحمل الإيمان والجوهر وتمتزج بالطقوس الأفريقية. وسعى بعضهم الآخر إلى إقامة كنيسة مسيحية مستقلة ذات طابع خاص، كما حدث في الحبشة سنة ١٨٩٢. لكن بعض العادات الأفريقية المتأصلة ستبقى متغلغلة في الوجدان الشعبي حتى يبرز كيان مسيحي افريقي واضح، كعادة التعبّد للموتى وشفاء المرضى برقيات سحرية وبحركات الشعوذة التي ستظل زماناً طويلاً ضمن العادات الممارسة عند الشعوب.

ولا ينبغي ان ننسى النتائج السلبية التي أدى اليها الصراع بين المرسلين الكاثوليك من جهة والمرسلين البروتستانت من جهة أخرى وبخاصة في جزيرة مدغشقر.

لقد وصل اليها المرسلون البروتستانت سنة ١٨٢٠، وبعدهم وصل اليسوعيون، واضطهدت الملكة رناقلونا العجوز، التي عُرفت بالملكة الشيطانية، المرسلين البروتستانت اضطهاداً شنيعاً وذاقوا ألواناً من العذاب، وكأن صمودهم الأمين قد أتى بثمار طيّبة، فقد دخلت خليفتها فيما بعد الى البروتستانتية سنة ١٨٦٩ واسمها ايضاً رناقلونا. ولعل دماء الشهداء هي أشعة النور الروحي التي تهدي جميع المرسلين في معنى الرسالة.

ثالثًا – بعد الحرب العالمية الأولى

أدت هذه الحرب (١٩١٤–١٩١٨) إلى خمود جذوة الحماسة التبشيرية، فلقد جنّد الشباب ومنهم المرسلون ونضبت موارد العون وتقاسم الانكليز والفرنسيون المستعمرات الألمانية في جزر المحيط، الكميرون والغابون، وطُرد المرسلون الألمان ووُضع من بقي منهم تحت رقابة مشدّدة.

يمكن القول بأن الحرب قد شوّهت صورة الكرازة المسيحية. ورأى المسيحيون الجدد في افريقيا شراسة الحرب بين البلدان التي يفد منها المبشرون.

كذلك أشعلت الحرب في وجدان الشعوب نزعة العودة إلى القومية الوطنية بعد أن اهتزت صورة الحضارة المسيحية الغربية، وقد عبّر البابا بندكتس الخامس عشر عن هذه المعاني في رسالة نقد ذاتي لبنيان الكنيسة الجديدة في مناطق الإرساليات، صدرت سنة ١٩١٩، عبّر فيها البابا عن حزنه العميق إزاء الخلط بين رسالة الانجيل ومصالح الدول المستعمرة. وكان بعض المرسلين قد مزج بين قضية الله ومصالح بلده. وتعجب البابا كيف يمكن ان نفهم وضع الكنائس الجديدة وقد مضى عليها قرون من الزمان وليس لها اكليرسها المحلي من أبنائها.

وجاء البابا بيوس الحادي عشر ليحقق رغبة سلفه بندكتس سنة ١٩٢٦ ويضع إطاراً رسولياً لتعليم الكنيسة في مجال الكرازة، وذلك في وثيقة تحت عنوان «شؤون الكنيسة» (Rerum Ecclesiae). لقد فصل البابا بين رسالة الكنيسة والعمل السياسي والمصالح السياسية، وارسل مندوبين إلى مختلف البلدان كرجال دين، لا كرجال سياسة. وتم نقل المؤسّسة الخيرية لنشر الإيمان سنة ١٩٢٦ من ليون إلى رومة. وبدأ منذ هذا العام تقليد كنسي بتكريس يوم الاحد الثالث من شهر تشرين الأول (اكتوبر) كيوم خاص بالرسالة والمرسلين.

وفي سنة ١٩٢٧، أُعلنت القدّيسة تريزيا الطفل يسوع شفيعة للارساليات، ثم أنشئت وكالة الأنباء الخاصة بالإرساليات تحت اسم «فيدس» (Fides)، أي «الإيمان».



البابا بيوس الحادي عشر

وفي سنة ١٩٢٣، عيّن قداسة البابا بيوس الحادي عشر ستة أساقفة صينيين، كأنه قد حقق بذلك امل سابقة بندكتس الخامس عشر الذي نادى برسامة أساقفة وكهنة من أبناء بلاد الارساليات. كما عيّن اسقفاً يابانياً لمدينة نغازاكي سنة ١٩٢٧، واسقفاً فيتنامياً سنة ١٩٣٣. وتمت رسامة أول اسقف أسود سنة ١٩٣٩، وتسلّم الأساقفة الوطنيون ما يقرب من ثمانٍ واربعين منطقة خاصة بالارساليات. واقيمت المعاهد الاكليركية في مناطق كثيرة لتخريج الاكليرس الوطني، كما فتحت كلية انتشار الايمان برومة أبوابها أمام الشباب من جميع أنحاء العالم.

وجدير بالذكر أنَّ من رواد العمل الرسولي الذين بذلوا جهداً خارقاً للتوفيق بين الفكر المسيحي وتراث الثقافات المحلية، الأب ليب (Lebbe) (١٨٧٧-١٩٤٠) وقد سبقت الاشارة اليه. كرّس حياته للدفاع عن حقوق الانسان الصيني وأسّس جماعة رهبانية صينية من الجنسين وحصل على الجنسية الصينية سنة ١٩٣٣ وعمل في خدمة الجرحى خلال الحرب بين اليابان والصين. وكان يركّز دوماً في عمله لكي تظل الكنيسة في منأى عن صراع المصالح الغربية.

وأمّا زميله الراهب البندكتي «هنري ده سو» فقام بتأسيس دير أشرم في الهند، في محاولة للتوفيق بين التصوف المسيحي وحياة التوحد على الطريقة الهندية

نختم هذه اللمحات التاريخية بنص من الرسالة التي ورد ذكرها والتي أصدرها البابا بندكتس الخامس عشر سنة ١٩١٩ حول إنشاء هيئة اكليرس محلي. ورد في النص: «لقد عصفت حرب ١٩١٤-١٩١٨ بالارساليات المسيحية، واضطر المرسلون الأوروبيون إلى ترك رسالتهم ولم يكن قد تم إعداد وتدريب اكليرس محلي ليحمل تبعاتها، وقد تكون نزعة وطنية غربية قد ظهرت فأعاقت رسالة الانجيل. ان هناك عدة مناطق عرفت الكنيسة الكاثوليكية منذ قرون طويلة مضت وليس فيها اكليرس محلي، وهناك بلدان أشرق عليها نور الانجيل، وتمكنت من النهوض إلى عالم الحضارة، وتخلّصت من أمور بربرية كثيرة، بين أبنائها قادة في مختلف مجالات الفنون والعلوم

والآداب، ولكنها لم تتمكن من الحصول على اسقف واحد من بين أبنائها، كما لم يكن لديها كهنة محليون ذوو مكانة مرموقة. هذا الأمر يشير إلى خلل في منهج الكرازة وفي اتجاه التكوين لأنشطة الارساليات.

ألمنا لشديد ونحن نشهد ملكوت الله يتوارى خلف صراع المصالح الخاصة. إن المرسل الكاثوليكي ليس هو بالمرسل من قبل وطنه، بل هو مرسل من قبل المسيح، وعليه ان يسلك أمام شعوب الأرض سلوكًا يؤكد ان المسيحيّة ليست ديانة غرباء، بل هي ديانة الأمم قاطبة، تضم في نور إيمانها جميع الأجناس الذين يعبدون الله بالروح والحق، ليس فيها يوناني أو يهودي ولا ختان أو قلف، ولا أعجمي ولا إسكوتي، ولا عبد ولا حرّ، بل المسيح الذي هو كل شيء وفي كل شيء» (قول ٣/١١).

عبء العصرنة
المسيحيّون والمجتمع الاقتصادي، والفكر المعاصر، والانقسامات الطائفية

(١٨٤٨ - ١٩٤٨)

كانت الكنيسة في فرنسا، قبل سنة ١٧٨٩، تعتبر نفسها مسؤولة عن سائر قطاعات الحياة البشريّة. بعد تصدّعات الثورة الفرنسيّة، قام عالَم جديد خارج أسوار الكنيسة: إنّه مجتمع الصناعة والمدينة، عالم التيّارات الفلسفيّة الحديثة، عالم العلوم الطبيعيّة والتاريخيّة. راح هذا العالم الغريب عن الكنيسة يحارب تقاليد تنقلها الكنيسة منذ عصور. وكان على الكنيسة الكاثوليكيّة أن تتعايش وسائر الطوائف المسيحيّة التي لم تكن قد اعترفت بها سابقًا. وظلّ المسؤولون الدينيّون، مدّة طويلة، يرفعون الحواجز في وجه تهديدات هذا العالم الخارجي. وكان لا بدّ أن يأتي زمن يرى فيه المسيحيّون ضرورة الأخذ بالحسبان متغيّرات هذا المجتمع الذي يعيشون فيه، وإلاّ عُدوّا غرباء وتعطّلت كل إمكانيّة للتبشير بالإنجيل.

أوّلاً - المسيحيّون في المجتمع الاقتصاديّ

١. أسئلة تُطرح على الكنيسة

الخوف الذي أثارته أحداث حزيران (يونيو) ١٨٤٨ دفع بالأساقفة وبالقيادات الكاثوليكيّة للانضمام إلى فئة المحافظين المؤيّدين لسياسة نابوليون الثالث المستبدّة. فأظهروا معارضة شديدة لكلّ حركة اشتراكيّة. وغالبًا ما رُدّدت عبارة منسوبة إلى البابا بيوس الحادي عشر: «لقد خسرت الكنيسة الطبقة العاملة في القرن التاسع عشر». وأصبح القول بأنّ الكنيسة تساند الطبقات المالكة مبتذلاً. لكنّ العديد من الأبحاث التاريخيّة تقتضي الدقّة في هذه الأقاويل.

فالوضع يختلف باختلاف البلدان. في ألمانيا مثلاً، بقيت الكثلكة ضاربة جذورها في

المحيط العمّالي. في الولايات المتّحدة واستراليا وجدت قوى الكثلكة النشطة مجالها بين عمّال المدن. في فرنسا، قامت الطبقة العاملة خارج الكنيسة. لكنّ الأساقفة، وجلّهم من وجهاء الريف، لم يتعاموا جميعهم عن البؤس الصارخ في ضواحي المدن العمّالية. لكنّهم لم يتمكنّوا من تحليل أسباب هذا البؤس ومن إيجاد دواء له. فسكّان الأرياف المتكدّسون في الضواحي الصناعيّة اقتُلعوا من جذورهم ولم تستقبلهم أيّة بنية مناسبة. ورعايا المدن القديمة تضخّمت تضخّماً شديداً ولم يعد هناك لقاء شخصي بالكاهن. فأحد كهنة باريس يشكو من هذا الوضع منذ سنة ١٨٤٩. والتعليم المسيحي بقي على مستوى الأخلاقيّات الفرديّة الضيّقة، فالكهنة يطلبون إلى المموّلين أن يكونوا أسخياء وإلى العمّال أن يتمسكّوا بالفضيلة وألاّ ينزلقوا إلى تعاطي المُسكر والدعارة وأن يحترموا وصايا الله كراحة الأحد وسواها.

تطوّر التيّارات الاشتراكيّة

ترتكز التيّارات الاشتراكيّة الأولى على المسيحيّة في مناهج نهضتها الاقتصاديّة. لكن بعد سنة ١٨٤٨، بدأت تبتعد شيئاً فشيئاً عن مصدر وحيها المسيحي، آخذةً منحىً لادينياً، ومناهضةً الكنيسة العداء، معتبرة إياها متضامنة مع السلطة السياسيّة والاقتصاديّة المستثمِرة: فبرودون (Proudhon) (١٨٠٩–١٨٦٥) «يعتبر الملكيّة سرقة والله شراً. فيجب إحلال فكرة العدالة محلّ فكرة الدين». وعندما أصدر كارل ماركس «البيان الشيوعي» سنة ١٨٤٨، ثمّ «رأس المال» سنة ١٨٦٧، وضع أُسس الاشتراكيّة العلميّة حيث يرى أن صراع الطبقات هو محرّك التاريخ وأنّ الدين هو «أفيون الشعب». وبدا التجمّع الدولي للعمّال (١٨٦٤) ككنيسة تناوئ الكنيسة القائمة. فما كان من رجال الدين إلاّ أن قاوموا هذه الاشتراكيّة الملحدة العاملة على قلب المؤسّسة الإجتماعيّة رأساً على عقب، تلك المؤسّسة التي ظنّ رجال الدين أنّ الله أرادها هكذا، فأكثروا من الدعوة إلى الطاعة المسيحيّة ومن التشجيع على تأسيس الجمعيّات الخيريّة.

٢. النزعة الأبويّة والنزعة الإصلاحية

ظهر تيّار تمثّله صحيفة «المستقبل» لصاحبيها لامنيه ودي كو (Lamennais et de Coux)، وصحيفة «العصر الجديد» لأوزانام، يجمع بين الديمقراطيّة والحريّة والإصلاحات الاجتماعيّة، لكنّه زال بعد سنة ١٨٤٨. ولم يكن الكاثوليك المهتمّون بالقضايا الاجتماعيّة من المتحرّرين، بل من المحافظين. هؤلاء يعتبرون، وهم على شيء من الحق، تيّار الحريّة الاقتصاديّة مسؤولاً عن البؤس لأنّه ألغى بنى النظام القديم: النظام العائلي والحِرفي. فيجب إذن العودة إلى الماضي بثورة معاكسة، وإعادة بنيان مجتمع رئاسي

(hiérarchique) يعي فيه الأشراف واجباتهم، ويحيطون بعنايتهم ذوي الدخل المتواضع، في نظام حِرفي (corporatif). ولّدت هذه الرؤيا مؤسّسات تعاضد خيرية عديدة، تبنّت بعضها معامل خاصّة برأسماليّين مسيحيّين. أصابت هذه المؤسّسات خُمس المتدرِّبين الباريسيّين سنة ١٨٧٠: «يؤلّف أعضاء هذه المؤسّسات عائلة كبرى ويكنّون لوالديهم ولمعلّميهم وللمحسنين إليهم كل احترام وغيرة». كما أنّهم يجتمعون للتفكير معًا كما في «جمعيّة الاقتصاد الخيري» التي أسّسها سنة ١٨٤٧ أرمان دي ملان (Armand de Melun)، أحد أعضاء الكاثوليك الاجتماعيّين الأكثر فعاليّة... لم تؤدِ هذه النزعة الأبويّة (paternalisme) إلاّ إلى غيظ العمّال الذين اجتذبتهم الاشتراكيّة. وسنة ١٨٧١، أقرّ دي ملان بفشله: «لا يعود نجاح الآراء الاشتراكيّة إلى أنّه يدغدغ الغرائز فحسب، بل يبدو كحلّ، كنظام متكامل، يجيب على صعوبات المعضلة الاجتماعيّة. أمّا نحن فلم نقدّم شيئًا يوازيه...»

لماذا نتركَكم

رسالة من العامل وعضو مجلس الشورى كوربون، إلى عضو مجلس الشورى المطران دو پنلو (Dupanloup) (١٨٧٧):

كلود انطيم كوربون (١٨٠٨- ١٨٩١) حفّار على الخشب ومحرّر في جريدة «الأتيليه» (l'Atelier) المسيحيّة التوجه. مرّات عديدة شارك في الحياة السياسيّة الفرنسيّة. في رسالته إلى المطران دو پنلو، يشرح سبب ابتعاد العمّال الفرنسيّين شيئًا فشيئًا عن الكنيسة:

«صاحب السيادة، تتساءلون: من يقول لي لماذا تركنا هذا الشعب! نترككم اليوم لأنّكم تركتمونا منذ قرون. عندما أقول: تركتمونا، لا أعني أنّكم رفضتم تقديم عون الديانة لنا. كلاّ فمصلحتكم الكهنوتيّة تأمركم بألاّ ترفضوا تقديمه، بل أعني أنّكم منذ قرون أهملتم قضيتنا الزمنيّة، في حين استعملتم تأثيركم، لا لخلاصنا الاجتماعي، بل لابعاده. هذا هو السبب الأوّل لترك الشعب لكم...

اجتذبتم إليكم بفنّ بارع وسائل التأثير المادية، ما سُمّي عصب الحرب: أي المال. مزجتم بين قضيّتكم وقضيّة حزب سياسي معيّن، في حين كنتم قديمًا تخلطون بين قضيّتكم وقضيّتنا. هذا ما نقرّ به وهذا ما جرى في القسم الأوّل من القرون الوسطى...

(منذ عصر النهضة) تبدّل التعليم، لا سيّما تعليم الفئات الوضيعة. فصار يبعدهم عن التفكير بأيّ خلاص زمنيّ، ولا يطلب إليهم سوى الخضوع المطلق للسلطة القائمة، هذا إذا كانت هذه السلطة خاضعة للكنيسة! هو يعظهم بأنّ الصبر والتسليم المطلق لمصيرهم البائس أمران يسرّان الله، ويحاول أن يقنعهم بأنّه بقدر ما يتحمّلون ويُعانون ويتضايقون ويحطّمون في هذا العالم، يعوَّض عليهم في العالم الآتي...»

ظهرت التنمية الصناعيّة في ألمانيا متأخرة. لكنّ الكاثوليك هناك فهموا الرهان على وجه أفضل. فلم تقتصر القضيّة الاجتماعيّة على تنظيم مساعدات، بل تطلّبت تنظيماً للاقتصاد جديداً وتدخّلاً من قِبَل الدولة. كان الممثّل الأوّل للكثلكة الاجتماعيّة في ألمانيا كتلر (Ketteler) (١٨١١-١٨٧٧)، أسقف ماينز. فقد كان تحرّريًا بعض الشيء كما كان يحنّ إلى نظام القرون الوسطى الحِرَفي. لكنّه كان يتطلّع إلى نهضة في البنيان في كتابه «القضية العمّالية والمسيحيّة» (١٨٦٤) حيث يقول: «يسرق الغنيّ ما أعدّه الله لكلّ الناس». فهو يعارض الرأسماليّة المتحرّرة والاشتراكيّة على حدّ سواء ويتمنّى تنظيماً حِرَفيًا للمجتمع ويطلب من الدولة التدخّل للحدّ من ساعات العمل ولفرض راحة الأحد ولإشراك العمّال في الربح ومساعدة أمّهات العائلات.

وهناك كاهن ألماني آخر، **كولبنغ** (Kolping) (١٨١٤-١٨٦٥)، وكان قبلاً إسكافًا، عمل على إعادة تنظيم رابطة العمّال. فأسّس في سائر أنحاء ألمانيا دوراً للعمّال الشباب، متمنياً أن يتنظّم العمّال فيما بينهم بعيداً عن عيون أصحاب الرأسمال. لم يستطع كولبنغ مع ذلك إقناع الكاثوليك الفرنسيّين أصحاب النزعة الأبوية.

أحداث «بلديّة ١٨٧١» في باريس ولّدت الكره، وسبّبت ردّة فعل لدى البرجوازيين. لكنّها في الوقت عينه حملت على التفكير بعض الكاثوليك الأسخياء مثل ألبير دي مان ورينه دي لاتور دي بان (Albert de Mun et René de La Tour du Pin). كيف صارت الأمور إلى ما هي عليه؟ أسّس هذان الرجلان حركة النوادي الكاثوليكيّة للعمّال سنة ١٨٧١. وأعلنا موقفهما ضدّ الثورة المضادة وإعلان الملكيّة. وعملا لأجل اللقاء بين مختلف الطبقات الاجتماعيّة، محمِّلين الطبقة المسيطِرة مسؤوليّة الطبقة الدنيا. كانت هذه النوادي عبارة عن «حانات فاضلة» يقصدها قلّة من العمّال. لكنّها أسهمت في توعية الطبقة البرجوازيّة المسيحيّة للمشاكل الاجتماعيّة. كما عرّفت هذه النوادي بإنجازات رجل الأعمال المسيحي، لأون هرمل (١٨٢٩-١٩١٥). ففي مصنعه، في فال دي بوا، قرب مدينة ريمس، وضع ليون هرمل المبادئ المسيحيّة موضع التنفيذ. كان هذا نوعاً من أنواع النزعة الأبويّة مطعَّماً بالديمقراطيّة. أراد أن يُشرك العامل بإدارة المصنع وبكلّ إنجازاته: «خير العامل بواسطة العامل ومع العامل ولا بدونه، وبخاصّة لا ضدّه». في ڤال دي بوا، تحقّقت شبكة من الإنجازات مُحكمة الربط، ترافق حياة العامل من المهد إلى اللحد وتغيّرها تغييراً تاماً. ونظّم هرمل زيارات يقوم بها العمّال إلى رومة. كما قام بينه وبين البابا

لأون الثالث عشر تبادل آراء حول القضيّة الاجتماعيّة.

في مدينة فينّا، في النمسا، أسّس أحد تلامذة كتلر، البارون فوجلسنغ Vogelsang، مجلّة أصبحت لسان حال الكاثوليك الاجتماعيّين النمساويّين. انتقد فوجلسنغ الرأسماليّة المتحرّرة حتى إنّه اتُّهم بأنّه «اشتراكي مسيحي»، كما أنّه طالب بتدخّل الدولة. وفي **سويسرا** منذ سنة ١٨٨٤، نظّم الأسقف مرميلود Mermillod، في مدينة فريبورغ، اجتماعات سنويّة للكاثوليك الاجتماعيّين المنتمين إلى عدّة بلدان، بهدف تأسيس «الاتّحاد الكاثوليكي للدراسات الاجتماعيّة».

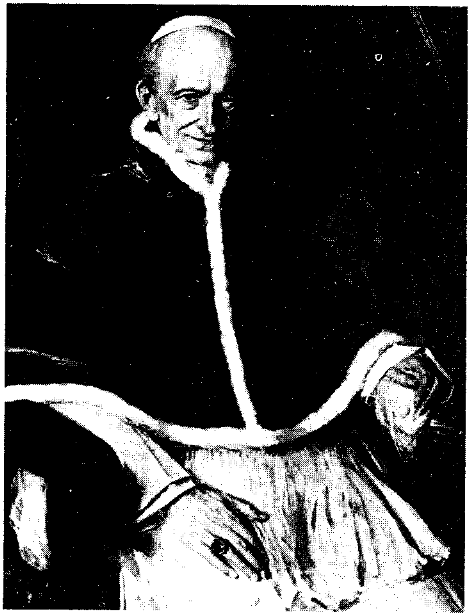
وفي **ايطاليا**، داخل «حركة المؤتمرات»، تطوّرت الحركات الاجتماعيّة على يد الاستاذ طونيولو. يجب هنا ذكر الكردينال جيبّونس المدافع عن «فرسان العمل» في الولايات المتحدّة (١٨٨٧)، والكردينال مانينغ الذي أقيم حَكماً في قضيّة إضراب عمّال البحريّة في لندن (١٨٨٩) والكردينال موران في سيدني، وقد دعا الكاثوليك إلى الدخول في «الاتحاد التجاري». كلّ هذه الاتّجاهات الفكريّة والإنجازات أدّت إلى صدور الرسالة البابويّة «الشؤون الحديثة» سنة ١٨٩١

الكاثوليك الاجتماعيّون
النزعة الأبويّة والنوايا الحسنة

للكونت ألبير دي مان (١٨٤١- ١٩١٤) مقام هامّ في الحياة الدينيّة والسياسيّة في نهاية القرن التاسع عشر، إذ جعل منه سخاؤه أحد أوائل ممثّلي الكاثوليك الاجتماعيّين في فرنسا. إنه يقبل توجيهات البابا فيترك حزب الملكيّين وينضّم إلى الجمهوريّة سنة ١٨٩٢. له مبادرات عديدة كتأسيس نوادي العمّال الكاثوليكيّة سنة ١٨٧١ والجمعيّة الكاثوليكيّة للشبيبة الفرنسيّة سنة ١٨٨٦.

الأسس العقائدية لحركة النوادي

«علّمني التفكير السليم وملاحظة الأحداث أن هناك طبقات أرفع من طبقات أخرى، وأنّ عدم المساواة هذا هو أحد شروط النظام الاجتماعي. لكنّ الدين يعلّمني أنّ سموّ بعض الناس يخلق واجبات نحو الآخرين، بحيث أنّ من هم فوق مسؤولون عمّن هم تحت: مسؤولون عن نفوسهم وعقولهم وأجسادهم. فهم لم يُعطَوا هذا السموّ إلاّ لهذه الغاية. فإذا ما أضاعوه بدون استغلاله، أو إذا أساءوا استعماله فأفسدوا من أُوكل إليهم أمرهم، فهم قد خانوا رسالتهم وخانوا العناية الإلهيّة. وإنيّ أرى المخطّط الإلهي يشعّ بهاء: الله في الذروة كمصدر وغاية كل شيء، في حين ان الخلائق تقدّم له السجود الدائم من كلّ حدبٍ وصوب. فالكبار يستعملون سلطتهم كوسيلة لتمجيده ولمجيء ملكوته، والصغار يرضون بضعفهم كوسيلة للحصول على رحمته ويجدون فيه تعويضاً عن آلامهم».



البابا لأون الثالث عشر

٣. ولادة عقيدة الكنيسة الاجتماعيّة

«الشؤون الحديثة»
١٥ أيار (مايو) ١٨٩١

أخذ القلق يتصاعد في قلب البابا لأون الثالث عشرمنذ بدء حبريّته في شأن تصاعد الاشتراكيّة والفوضى. إذ ففي سنة ١٨٩٠ وما بعدها، قامت إضرابات دامية ومحاولات اغتيالات فوضويّة. وأصبح العالم العمّالي في خطر التحوّل التامّ إلى الاشتراكيّة، ومحاولات الكاثوليك الاجتماعيّين تلقى معارضة الكاثوليك المتمسّكين بالحريّة الاقتصاديّة والمناوئين لكلّ تنظيم عمّالي. ولم يكن الكاثوليك الاجتماعيّون أنفسهم على اتفاق فيما بينهم. فكان بعضهم يتمنّى تدخّل قداسة البابا ومساندته لهم وتقديم تفكير وعمل مشتركين. فجاءت الرسالة «الشؤون الحديثة» في الوقت ذاته ثمرة كلّ هذه الأبحاث الاجتماعيّة ونتيجة ظروف سنة ١٨٩٠. فالرسالة ترى، وإن متأخّرة، أنّ المجتمع قد تغيّر وأنّ تكديس الثروات يؤدّي إلى بؤس لا يستحقه العمّال، وأنّ الاشتراكيّة دواء مزيّف لأنّه يفرض إلغاء الملكيّة الفرديّة التي أرادها الله.

أمّا الدواء الصحيح فهو في اتّباع المبادئ المسيحيّة التي تعلّمها الكنيسة: فعدم المساواة هي إحدى شرائع الطبيعة واتّحاد الجميع ضروري، وصراع الطبقات غير مقبول: «لا رأسمال من دون عمل، ولا عمل من دون رأسمال»، وتدخّل الدولة واجب لأجل توزيع لائق للخيرات ولساعات العمل ولفرض الراحة الأسبوعيّة والأجر العائلي... الحريّة الاقتصاديّة المطلقة مرفوضة. وأخيراً فإن الجمعيات المهنيّة ضروريّة ومفيدة. ويفضّل قداسته الاتحادات الحِرفيّة (أصحاب العمل والعمّال)، لكنّه لايستبعد النقابات (العمّال وحدهم). لم تكن الرسالة لتلاقي الترحيب الحارّ في عالم العمّال والاشتراكيّين. ولم تُعرف أهميّتها إلاّ داخل الكنيسة. لم يتطلّع البابا إلى الماضي وطلب إلى الكاثوليك أن ينظروا إلى العالم حيث يعيشون، وأن يعيشوا في إطار المؤسّسات الراهنة، أي الأنظمة السياسيّة والنقابات.

لأون الثالث عشر: الشؤون الحديثة
حول وضع العمّال ١٥ أيار (مايو) ١٨٩١

لغة البابا اليوم أمست قديمة. لكنّ الرسالة أثّرت كثيراً في الكاثوليك، يوم ظهورها.

«نحن مقتنعون بوجوب مساعدة ذوي الطبقة الفقيرة، بوسائل سريعة وفعّالة. ذلك لأنّ معظمهم يعيش في حالة الفقر والبؤس غير المستحَقّ.

فالقرن الأخير هدم نظام الاتّحادات الحِرفيّة الذي كان يحميهم، من دون أن يقيم له بديلاً. وقد فقدت المؤسّسات كلّ مبدأ وكلّ شعور ديني. ووجد العمّال ذواتهم، شيئاً فشيئاً، منعزلين وليس من يدافع عنهم، وتحت رحمة أسياد لاإنسانيّين وتنافس جشع لا حدّ له.

زد على ذلك استنزافاً مهلكاً أدانته الكنيسة مرّات عديدة، لكنّه لا يزال قائماً تحت شكل آخر ينتحله أناس همّهم الكسب ولا حدّ لجشعهم. أضف إلى ذلك الاحتكار، بين أيدي بعضهم، للصناعة والتجارة اللتين أصبحتا نصيب عدد قليل من الأثرياء، يفرضون نير العبوديّة على عدد لا يُحصى من العمّال...».

نتائج الرسالة

حرّرت الرسالة الكاثوليك الاجتماعيّين وأعطتهم حماسة جديدة. فشعروا بأنّ البابا يؤيّدهم. وفي فرنسا ارتبطت نتائج الرسالة بالرسالة حول جمع الشمل: «وسط الاهتمامات» (١٨٩٢). فكانت الرسالتان سبب انطلاقة لمحاولات اجتماعيّة عديدة. لكنّ النزعة الأبويّة ظلّت قائمة. قاوم التجمّع الكاثوليكي لأصحاب العمل في شمالي فرنسا قيام نقابات عمّاليّة مسيحيّة ورفض مبدأ تدخّل الدولة. وواصل التجمّع تأسيس أخويّات للعذراء في المصانع صارت هدفاً لهجمات الاشتراكيّين. منذ سنة ١٨٨٧، قامت نقابات مسيحيّة منفردة تجمع الموظّفين بوجه خاص. وتقدّمها أفسح المجال سنة ١٩١٩ أمام تأسيس الاتّحاد الفرنسي للنقابات المسيحيّة. وجمعيّة «الأخدود» (le Sillon) لمارك سانيه سنة ١٨٩٤ هي من وحي هذا الإطار الديمقراطي الاجتماعي الذي خلّفته الرسالة البابويّة. و«الوقائع الاجتماعيّة» لمدينة ليون التي تأسست سنة ١٨٩٢ هي إحدى هذه النتائج. أسّسها ماريوس غونان (Gonin)، وهو موظّف صغير، بعد أن شارك في الحركة الديمقراطية المسيحيّة. وهي تبتعد عن السياسة لينصب اهتمامها على المشاكل الاجتماعيّة، كالنقابات والتعاونيات. وقد كان «الأسبوع الإجتماعي»، الذي نُظّم سنة ١٩٠٤، الأوّل في سلسلة طويلة. وفي كلّ سنة، وفي أماكن مختلفة،

كانت هذه «الجامعة المتنقلة» تدرس إحدى المشاكل الاجتماعيّة على ضوء الإنجيل وتعاليم الكرسي الرسولي. ولم يطل الزمن حتّى قامت الخلافات بين الكاثوليك الاجتماعيّين والسلطة الكنسيّة. هل يستطيع العلمانيّون أن يستقلّوا عن الإكليرس في الأمور الاجتماعيّة التي تمسّ السياسة؟ فخاف البابا بيوس العاشر والأساقفة من التعاون مع غير الكاثوليك (تقابات مشتركة في ألمانيا) وأرادوا مراقبة توجيه الحركات الديمقراطيّة والاجتماعيّة، إذ ما زال يراودهم الحلم بمسيحيّة كبرى. فانصاع بعضهم أمثال ماريوس غونان ومارك سانيه، في حين انشقّ روميو مورّي في ايطاليا عن الكنيسة سنة ١٩٠٩.

تعليم الكنيسة الاجتماعي

أدّت كلّ هذه الجهود إلى ما نسميّه «تعليم الكنيسة الاجتماعي».

فتوسّع البابوات في فكرة لأون الثالث عشر وأغنوها. وفي سنة ١٩٢٩، دافع البابا عن مشروعيّة النقابات المسيحيّة، كما دافع عنها الكردينال ليانار، اسقف ليل، وكافة الاكليرس ضدّ أصحاب العمل في الشمال. وفي سنة ١٩٣١، ظهرت رسالة البابا بيوس الحادي عشر «السنة الأربعون» التي وسّعت أُطُر «الشؤون الحديثة». ذلك في الآونة التي قوي فيها التهديد الشيوعي وظهرت الأزمة الاقتصاديّة العالميّة. وواصل البابا إدانة الاشتراكيّة، لكنه تخطّى إطار المشاريع الفرديّة وواجه الاقتصاد على الصعيد الوطني: فهو يُطالب بتجديد النظام الاجتماعي والاقتصادي بالعموم. والرسالتان حول النازيّة والشيوعيّة (١٩٣٧) تستندان إلى تعليم اجتماعي مسيحي يقوم في وجه وثنيّة الحكم الشمولي. كلّ ذلك جاء في تأكيدات نظريّة أكثر منه في حلولٍ عمليّة اختُبرت نتائجها من قبل.

ثانيًا – المواجهة الصعبة بين التقليد الكاثوليكيّ والعلوم الحديثة

١. تمحيص التقليد الكاثوليكي

هجوم الفلسفة والعلوم

منذ القرن السابع عشر والثامن عشر، وضع تقدّم العلوم على بساط البحث بعض معطيات الوحي (راجع الفصلين ١٢ و١٤). تقول فلسفة القرن الثامن عشر (كانْت): «لا يستطيع العقل أن يعرف الله». ثمّ إنّ «فكرة الله لم تعد ضرورية وهي استعباد للإنسان». يقول أوغست كونت انّ عصر الدين والميتافيزيقا، أي الماورائيّات (لبّ فلسفة القرون الوسطى) قد انتهى، ووصلت البشريّة إلى عصر العلم والوضعيّة. وفلسفة اليوم تؤمن بتقدم علمي غير

محدود وبتراجع نهائي للأديان في عصر خطت فيه علوم الطبيعة والتاريخ خطوات عملاقة.

كما ان علم ما قبل التاريخ (بوشيه دوبرت (Boucher de Perthes) +١٨٦٨) أعاد أصل الإنسان إلى مئات ألوف السنين. ودلّت المخلّفات الحجريّة البشريّة على تطوّر الإنسان الذي جعل منه داروين مذهباً في كتابه «أصل الأجناس» (١٨٥٩). وكان تساؤله هل الإنسان يتحدّر من القرد ويتطوّر، فما معنى فعل الخلق الإلهي والخطيئة الأصليّة والتأريخ في الكتاب المقدّس؟ في القرن التاسع عشر، نُشرت كتابات عديدة عن مراجع تاريخيّة للحقبات القديمة وللقرون الوسطى. فوُلد علم الأديان وحُلّت رموز خطوط الشرق الأوسط والهيروغليفيّة المصريّة والمسماريّة البابليّة. ودُرست نصوص الكتاب المقدّس وقوبلت بغيرها، تماماً كنصوص أيّة ديانة، في حين كان المسيحيّون يظنّون أن النصوص الموحاة مستثناة من هذا النوع من الأبحاث. في كتابه، حياة يسوع (١٨٣٥)، رأى دافيد فردريك شتراوس في شخص يسوع أثراً لمخيّلة الجماعات المسيحيّة الأولى. أمّا في نظر رينان، فليس يسوع سوى إنسان عظيم (١٨٦٣). ونظريّات فلهاوزن حول التوراة جعلت من كتاب موسى مزيجاً من ينابيع كتابيّة متعدّدة.

ردود فعل الكنيسة

كانت ردة الفعل الأولى الدفاع: فالعلوم التي تهاجم الوحي هي من وحي الشيطان. لذا يجب منع قراءة الكتب الخبيثة التي تقع تحت الحرم. حرمت الرسالة البابوية (السلاّبوس ١٨٤٦) بوجه خاص وبطريقة رسميّة عدداً من هذه النظريّات. وحاول المجمع الڤاتيكاني الأوّل نوعاً من التوضيح العقائدي بخصوص علاقة العقل بالوحي (الفصل ١٥). وحاولت السلطات الدينيّة كسب تأييد السلطة المدنيّة. فأوقفت محاضرات رينان في «الكوليج دي فرانس» بعد نشر «حياة يسوع». وكتب بعض المدافعين عن الإيمان دفاعاً عن الحقائق الدينيّة بطريقة لم تكن دائماً عمليّة.

نهضة العلوم الدينيّة لدى الكاثوليك

في المانيا، عادت الجامعات إلى التدريس بعد الأزمة الثوريّة وقد شجّع على ذلك المواجهة بين الكاثوليك والبروتستانت. تكلّمنا على جوزف اغناطيوس دولنغر (١٧٩٩–١٨٩٠) «أمير العلماء الكاثوليك في المانيا» وعلى مؤلّفاته التاريخيّة. أمّا جون هنري نيومن، فقد كان أكثر عزلة في انكلترا، وفي كتابه «محاولة في التطوّر» ألقى ضوءًا تاريخياً على صياغة العقائد بطريقة تدريجيّة.

في فرنسا، أُعطيت الأولويّة لاختيار الدعوات الإكليركيّة والاهتمامات الرعويّة والخلافات السياسيّة، في حين تُرك البحث الفكري جانباً لدى رجال الإكليرس. لكنّ

الأب مينه (Migne) (١٨٠٠-١٨٧٥) أظهر جهداً جباراً في نشر مكتبة شاملة للإكليرس، حوالى ألف كتاب أهمّها الآباء اليونان واللاتين». كما نذكر عمل مدرسة الكرمليّين التي أسّسها مونسنيور أفْر سنة ١٨٤٥. أمّا نقطة انطلاق التجديد اللاهوتي في فرنسا فكان حريّة التعليم العالي (١٨٧٥). في نهاية القرن التاسع عشر، كان رئيس الجامعة الكاثوليكيّة في باريس، المونسنيور دولست، رجلاً منفتحاً. والأب لويس دوستان (١٨٤٣-١٩٢٢) أجرى دراسات في الأصول المسيحيّة بكلّ دقّة عمليّة. والأب لاغرانج الدومنيكاني أسّس المعهد الكتابي في أورشليم سنة ١٨٩٠. وفي باريس أيضاً، تابع الأب ألفرد لوازي، الاختصاصي باللغات الشرقيّة، الأبحاث الكتابيّة الألمانيّة وتأثر بها في تعاليمه. أمّا موريس بلونديل، وهو فيلسوف في جامعة الدولة، ففي أطروحته «العمل» (١٨٩٣) فكّر في أنّه، للوصول إلى معاصريه، يجب الانطلاق من تحديد للانسان يقبل به الجميع. وانطلاقاً من العمل، يمكن اكتشاف الحقيقة الآتية: إنّ الانسان يتوق إلى حقيقة تتخطّاه. هذه هي الطريقة الحضوريّة التي تقول بأنّ الإنسان يشعر بحضور الله وجدانياً، لكنّه يعجز عن جعل هذا الحضور موضوع علم واضح. فكان على هولاء المفكّرين والباحثين أن يدافعوا عن مواقفهم ضدّ قسم من الكاثوليك المحافظين، وفي الوقت نفسه ضدّ الملحدين.

٢. أزمة الحداثة

«الحداثة» كلمة جدليّة يتغيّر فحواها بتغيّر مستعمليها. يجد المؤرّخ في أزمة الحداثة «كل الجهود السعيدة أو التعيسة الهادفة إلى التوفيق بين مكاسب المعرفة الحديثة ومتطلّبات الإيمان الدائمة» (بولا). تجاه مجابهة الكنيسة هذه في الداخل، سوف يأخذ الكاثوليك مواقف متناقضة. فالمحافظون المتصلّبون يرفضون كلّ استعمال للعلوم الحديثة في التعبير عن الإيمان. و«التقدميّون» يضعون الموادّ العلميّة في خدمة الدين مع المحافظة على متطلّبات الإيمان الدائمة. والذين يستحقون لقب «محدثين» يظنّون أنّ العلم الحديث يفرض إعادة نظر عميقة في الأفكار المتداولة. فالعلم هو الأوّل وعلى المسيحيّة أن تتكيّف معه، فهذا هو حظّها الأخير لكي تحيا. فيجب تغيير الكنيسة من الداخل. هؤلاء أصبحوا عقلانيّين.

لم تتخطَّ أزمة الحداثة محيطاً محدوداً، هو محيط عدد قليل من الكهنة يهتمّون بقضايا الفكر وبعض العلمانيّين، فالجوّ جوّ اتّهامات غالباً ما تكون دون سند، فيكتبون تحت أسماء مستعارة ويستعمل بعضهم لغتين في الوقت نفسه. جابهت الكنيسة الحداثة على كلّ صعيد. لذا فالكلام على حداثة سياسيّة واجتماعيّة بالنسبة إلى الكاثوليك الملتزمين في الحركة الديمقراطيّة: مارك سانييه في فرنسا (الاخدود Sillon) ورومولو مورّي في إيطاليا. والكلام على الحداثة أيضاً يخصّ الذين حاولوا

خلق تقارب مسكوني مثل فرنان بورتال، الراهب اللعازري، الذي اهتمّ باتّحاد الكاثوليك والأنكليكان، على مفترق القرن التاسع عشر والقرن العشرين.

لكنّ الأزمة أصابت، بوجهٍ خاص، صعيد الدراسات الكتابيّة ومعنى العقائد. وهناك صلة بين هذين الصعيدين.

معنى العقائد

هناك لاهوتيّون، كالأب لابرتونيار الأوراتوري، يستعملون، في مجلّة «حوليّات الفلسفة المسيحيّة»، لغة عصريّة لم تعد لغة القدّيس توما. فاتُهموا بأنّهم غير موضوعيّين. وفي سنة ١٩٠٥، كتب العالم الرياضي، إدوار لوروا، مقالاً أحدث ضجّة كبرى: ما هي العقيدة؟ يقول: لم يعد للبراهين التقليديّة تأثير على العقول المعتادة التفكير العلمي والفلسفة المعاصرة. فيجب التمييز بين صياغة العقائد وحقيقتها التي تتخطّى كلّ صياغة، اذ إنّها، قبل أن تكون العقيدة تعبيراً عقلياً، تحمل معنى أدبياً ومعنى حياتياً.

في انكلترا اهتدى إلى الكثلكة جورج تيرال (Tyrell) († ١٩٠٠) ودخل الرهبانية اليسوعيّة وأحرز شعبيّة كبرى لدى الطلاّب. كان هدفه خلق فلسفة ماورائيّة وإيمانيّة تتّفق وفلسفة العصر. كان يظنّ أنّه يستلهم نيومن فيقول إنّ الكنيسة مُساقة حتماً إلى التعبير عن عقائدها بتعابير جديدة. والوحي هو عمل إلهي به يصل المؤمن إلى الله بعلاقة صوفيّة. لا يوجد قبل ذلك أي تشخيص أو أيّة معطيات للحقيقة، لكن هذه العلاقة يجب التعبير عنها. إنّها معرفة نبويّة بتعابير مأخوذة من الثقافة المعاصرة، يفسّرها علم اللاهوت بالنسبة إلى ثقافة كلّ عصر. فالعقائد تعبير عن الاختبار الديني. لها قيمة أدبيّة وهي مفيدة للتقدّم البشري. فالوحي ليس شيئاً خارجياً. ويجب أن يتطوّر التعليم المسيحي بالتمييز بين الإيمان الحي واللاهوت الميت. هذه المفاهيم سبّبت طرد تيرال من الرهبانية وحرمه سنة ١٩٠٧.

المعركة الكبرى

أحدثت كلّ هذه القضايا معركة فكريّة كبيرة في أوروبا بين اللاهوتيّين والفلاسفة: كتب ومقالات في المجلاّت ومراسلات. في فرنسا، كان هنري بريمون († ١٩٣٣) قد ترك الرهبانية اليسوعيّة سنة ١٩٠٤ واقترب من تيرال وراسل أهمّ المحدثين في فرنسا والخارج. قال عنه، فيما بعد، جوزف ترمل، كاهن مدينة ران (Rennes) ومؤرّخ العقيدة، إنّه أراد هدم أسس العقائد الإيمانيّة. في إيطاليا، ارنستو بونايوتي († ١٩٤٦)، كاهن فيلسوف ومؤرِّخ، أراد أن يكيّف المسيحيّة مع العصر، وأن يُدخل القيم المسيحيّة في حضارة جديدة مسكونيّة. فردريك فون هيكل (١٨٥٢–١٩٢٥)، النمساوي الأصل والقاطن في انكلترا، كان عامل ارتباط بين مفكّري العصر المذكورين أعلاه. فقد كان عميق التديّن ولم

يفقد معنى الإيمان والكنيسة. وكان يأمل دائماً الوصول إلى التوفيق بين الكنيسة والعلم، في حين راح الكثيرون يدافعون عن الحقيقة ويندّدون بالمحدثين الخطرين، في وقته وفي غير وقته.

٣. الإدانات البابويّة

كتب عديدة حُرّمت قراءتها، مجلاّت أُوقفت عن الصدور. كهنة أُبعدوا عن التعليم، ولم يكونوا كلّهم محدثين، بل تقدّميّين، أمثال الآباء لاغرانج ولابرتونيار وبورتال. فبدت الكنيسة كقلعة محاصرة من كلّ الجهات. لكن لا ننسَ أنّ أزمة الحداثة ظهرت عند اشتداد الحرب على الإكليرس، وعند وقوع الفصل بين الكنيسة والدولة.

الإدانات العامّة

أدان البابا بيوس العاشر الحداثة في وثيقتين ظهرتا سنة ١٩٠٧: مرسوم (Lamentabili) الذي يضمّ خمساً وستين قضيّة مدانة، ثمانون بالمئة منها مأخوذة من كتب لوازي، من دون أن يسمّيه: أخطاء حول العلوم الدينيّة وتفسير الكتاب المقدّس وسرّ الإيمان. ثمّ البراءة الرسوليّة (Pascendi) التي تعرض صورة نموذجيّة عن الحداثة. فتجمع حول شخص واحد سمات أشخاص عديدين مختلفين لا علاقة بينهم في غالب الأحيان. تستنتج البراءة أنّ الحداثة هي ملتقى كلّ الهرطقات. ويضيف البابا أسباب هذا الوضع: الجهل والكبرياء والفلسفة المعاصرة. ثمّ يتكلّم على طرق محاربة هذه الهرطقة المتعدّدة الوجوه. أمّا إدانة (Sillon) (١٩١٠) فتُعتبر إدانة الحداثة الاجتماعيّة. فالمسؤولون الروحيّون كانوا يجدون فيها تهديداً للتنظيم الرئاسي في الكنيسة، نظراً إلى تعظيمها للديمقراطية.

طرق الدفاع

الإكليرس مدعوّ للعودة إلى فلسفة القدّيس توما. على الأبرشيّات أن تكون لجانَ تيقّظٍ تسهر على منشورات الكهنة وتعاليمهم وترفع التقارير إلى رومة. أمّا الكهنة المشبوهون، فلا يُسند إليهم سوى أعمال غير ذات أهميّة. ولا يستطيع الإكليريكيّون الذهاب إلى جامعات الدولة، بدون إذن صريح، إذ إن أكثر المحاضرات خطراً هي محاضرات الفلسفة والتاريخ. في سنة ١٩٠٩، تأسّس معهد كتابي في رومة. وفي سنة ١٩١٠، أُجبر طالبو الدرجات الكهنوتيّة الكبرى وطالبو الشهادات اللاهوتيّة العليا والذين يُولّون بعض الوظائف على أن يؤدّوا قَسماً ضدّ نزعة الحداثة.

نتائج الإدانات

الكهنة الذين رفضوا تأدية القَسم قليلون (حوالى الأربعين كاهناً). حُرم لوازي سنة

١٩٠٨ ، لكنّه تابع عمله في الكوليج دي فرانس كشارح للكتاب المقدّس وكمؤرّخ.

بدا الوضع وكأن البابا أعاد توطيد النظام اللاهوتي. وكان الموضوع يهمّ الكهنة بوجه خاص، في حين لم يبدُ أنّه طال الشعب المسيحي. لكنّ موضوع إلتقاء الإيمان والحداثة ظلّ مطروحاً. وهو لا يزال مطروحاً اليوم بأشكال جديدة. أمّا آنذاك فقد خلقت الإدانات جوّاً محموماً. من جهة، جاءت النتائج سيّئة، إذ إنّ كثيراً من الرجال المنفتحين والأمناء للكنيسة مُنعوا من التعبير عن آرائهم وعاشوا معزولين. وقوّت الإدانات التيّار المتصلّب وولّدت ما أسموه التطرّف. وكثيرون في روما أتقنوا فنّ الوشاية. لكنّ البابا بندكتس الخامس لم يرضَ عن هذه الأعمال.

بيوس العاشر يدين الحداثة (١٩٠٧)

في المرسوم (Lamentabili) (٣ تموز (يوليو) ١٩٠٧)، يدين البابا القضايا التالية وأكثرها مأخوذ من كتابات لوازي:

١. «القانون الكنسي الذي يأمر برقابة الكتب التي تبحث في الكتاب المقدّس لا يجري على الكتّاب المتكرّسين للنقد أو للتفسير العلمي لكتب العهد القديم والعهد الجديد.

٢٠. ما الوحي سوى وعي الإنسان للعلاقات القائمة بينه وبين الله.

٤٠. وُلدت الأسرار من تعليق على فكرة أو على نيّة من نوايا السيّد المسيح، توصّل إليها الرسل وخلفاؤهم تحت تأثير الظروف والأحداث.

٥٢. لم يكن في نيّة السيّد المسيح تأسيس كنيسة كمجتمع يدوم على الأرض.

٦٥. لا يمكن للكثلكة اليوم أن تتصالح مع العلم الحقيقي إلاّ إذا تحوّلت إلى مسيحيّة من دون عقائد، أي إلى بروتستانتية واسعة ومتحرّرة...».

٤. نحو المصالحة بين الكنيسة والفكر

كان تقدير الحداثة للعلم والتقدّم مبالغاً فيه جداً. لكن، مع بدء القرن العشرين، ولا سيّما مع الحرب العالميّة الأولى، انحسرت بعض الشيء قدرة العلم العجائبيّة. فالعلم لم يُجب على كلّ تساؤلات الإنسان، كما لا يمكن بناء أخلاق على العلم. وظهرت مع نهاية القرن التاسع عشر عودة إلى الروحانيّة وغالبًا إلى المسيحيّة. يشهد على ذلك كتّاب عديدون: هويزمانز، كلوديل، بيغي، ليون بلوا، جاك ورايسا ماريتان، بسيكاري حفيد رينان... وفي ما بين الحربين تصدّر كُتّاب كاثوليك الحياة الأدبيّة: رينه بازان، كلوديل، مورياك، برنانوس، جبريال مرسيل... وعلماء أمثال إدوار برانلي وبيار ترميه يشهدون على أنّ العلم لا يناقض الإيمان.

إدانات الحداثة عقّمت إلى حين أبحاث مفسّري الكتاب المقدّس الكاثوليك. والفطنة جعلت الكثيرين يتوقفون عند البحث العلمي وعلم الآثار. فانتظروا سنة ١٩٤٣ والبراءة البابويّة «نفحة الروح القدس» للبابا بيّوس الثاني عشر التي أراحت العقول وشجعّت أبحاث المفسّرين. فالجوّ قد هدأ بالنسبة إلى علم التاريخ واللاهوت العقائدي. وقدّم لاهوتيّون، كالأب شانو (Chenu) والأب دو لوباك والأب كونغار، علم لاهوت متأصّل في الآباء وفي تاريخ الكنيسة، وعلم الكنيسة والعلاقات بين الكنيسة والحداثة لم تعد تخضع فقط لتعابير قانونيّة أو كأنّها في صراع مع المجتمع المدني. وكتابا «لاهوت الجسد السرّي» للأب مارش و«الكثلكة» للأب دو لوباك (١٩٣٨) شاهدان على ذلك. وفي كتابه «الإنسانيّة الكاملة» (١٩٣٦)، يؤكّد جاك ماريتان التمييز بين الزمني والروحي. فيجب ألاّ يتخلّى المسيحيّون عن بناء العالم وهم يستلهمون القِيم الإنجيليّة، لكن من دون أن يكون للكنيسة وصاية على الأمور الزمنيّة.

ثالثًا – الحركة المسكونيّة تبدأ خجولة

١. الطوائف المسيحيّة في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين

دفع نزوح الشعوب والهجرة وحريّة العبادة الطوائف المختلفة الى اللقاء والعيش في محيط واحد. فتساءل بعضهم: لماذا هذا التمزّق في المسيحيّة في عالم أصبح فيه المسيحيّون أقلّيات؟

الكنائس الشرقيّة

تحرّرت أوروبا الشرقيّة والبلقان من النير التركي. فاليونان ثمّ بلغاريا فرومانيا... حصلت على الاستقلال. وفي كلّ بلد أسّس المسيحيّون الأرثوذكس كنيسة مستقلّة لكلّ منها بطريركها. فأصبح للأرثوذكس خمس عشرة كنيسة. وما زال الإطار القومي يسبّب بعض الصعوبات لحريّة الكنائس الشرقيّة الأخرى التي انفصلت عن الأرثوذكسية بعد مجمع خلقيدونية (٤٥١) والنساطرة الموزّعين في العالم العثماني والعربي: كنائس أرمنيّة وسريانيّة وقبطيّة وكلدانيّة ومارونيّة...

كانت كنيسة روسيا تعيش آخر أيّامها تحت حكم القياصرة الذي يمنع كلّ تطوّر في المؤسّسات دون أن يتوصّل إلى الحدّ من حريّة المفكّرين. الفيلسوف فلادمير سولوفييف (١٨٥٣–١٩٠٠) يعمل على التقرّب من الكنيسة الكاثوليكيّة. ليون تولستوي (١٨٢٨–١٩١٠) يعرض مسيحيّة إنجيليّة لا عنف فيها، ممّا حمل السينودس المقدّس على حرمه. يوحنا كرونشاد (١٨٢٩–١٩٠٨)، المتصوّف العظيم وكاهن الرعيّة، يجمع إلى حياة روحيّة عميقة (في خطّ الفيلوكاليا) عمل المحبّة حتّى الفقر المدقع. وقد ترك مؤسّسات

تذكّرنا بمؤسّسات دون بوسكو. سمحت ثورة ١٩١٧ لكنيسة روسيا بإعادة البطريركيّة بانتخاب طيخون. لكنّ البطريرك الجديد ترأّس كنيسة سوف تحتمل اضطهادات من قِبَل النظام البلشفي.

ونظراً إلى هجرة أواخر القرن التاسع عشر وبدء القرن العشرين، نزح مسيحيّون شرقيّون إلى سائر أقطار الدنيا، إلى أوروبا الغربيّة والولايات المتّحدة وكندا واستراليا... تسبّبت مذبحة الأرمن في تركيا (١٩١٥) في تشتيت الأرمن في العالم، كما أنّ الثورة الروسيّة سبّبت هجرة كبيرة.

العالم البروتستانتي

تميّزت البروتستانتيّة دائماً بتعدّد الأسماء وبالوعي المرحلي. فأسّس وليم بوث في لندن (١٨٧٥) جيش الخلاص الذي يبحث عن طرق العودة إلى حدس وايزلي: يتحسّس بؤس العمّال ويبشّر تحت الخيام وفي أماكن الرقص والمسارح، ويوزّع المآكل ويصارع البؤس والرذيلة والخطيئة. في الولايات المتّحدة، سنة ١٨٧٦، قامت، انطلاقاً من الميتودية، حركة قداسة ينتظر أتباعها بركة الروح لينالوا القدرة على الشهادة في عالم هو فريسة العقلانيّة. في الخطّ ذاته، ظهر سنة ١٩٠١ العَنصريّون في ولاية كنساس وانتشروا بسرعة في كلّ مكان: العماد بالروح الذي يقبله المؤمنون يجدّد في التجمّعات أعاجيب العنصرة كالنبوءة والانخطاف وموهبة الألسن والشفاء. العنصريّة ديانة الفقراء، إذ باستطاعة كلّ أحد أن يجد مكاناً ويعبّر عن أفكاره.

في أوروبا، ظنّ بعضهم أنّ اللاهوت البروتستانتي سيذوب في التيّارات الفلسفيّة والعلميّة المعاصرة. في القسم الأوّل من القرن العشرين، جدّد عدد من اللاهوتيّين الفكر البروتستانتي بعمق: كارل بارت (١٨٨٦ – ١٩٦٨)، وهو قسّ سويسري، خرج على التيّار المتحرّر فاكتشف وأكّد فوقيّة الله، الآخر المطلق، بالنسبة إلى الثقافة والأخلاق والتاريخ والعاطفة. فالله يكشف عن ذاته في كلمة حيّة هي يسوع المسيح. وعلم اللاهوت هو الضمان



كارل بارت

للإيمان بكلمة الله. في شرحه للرسالة إلى الرومانيّين (١٩١٩)، عاد إلى حدس المجدّدين الأوائل وأدان اللاهوت البروتستانتي المعاصر الذي ينطلق من الإنسان، إذ يجب سماع الله وطاعته. في الوقت عينه، التزم سياسياً ضدّ النازيّة منذ ١٩٣٣. وقد أعاد الاعتبار إلى كلمة الله وإلى العقيدة (عشرون جزءًا من كتاب العقائديّة ١٩٣٠-١٩٦٧) كما أعاد إلى البروتستانتيّة الجديّة في عيون الكاثوليك.

رودولف بولتمان (١٨٨٤-١٩٧٦) أسّس طريقة تاريخ النصوص في دراسة الأناجيل وصياغتها، وأزال عن العهد الجديد ما يقربه من الأساطير. بول تيليخ (١٨٨٦ - ١٩٦٥) أُجبر على هجر المانيا النازيّة فنزح إلى الولايات المتّحدة. أراد أن يربط بين اللاهوت والحضارة. فهو ينطلق من الإنسان المعاصر ومن مشاكله ليصل إلى الله. جوهر كلّ حضارة هو الدين. فالحضارة ضروريّة كتعبير عن الدين.

٢. ولادة حركة مسكونيّة خارج الكنيسة الكاثوليكيّة

لم ينتظر المسيحيّون القرن العشرين لكي يعرفوا أن انقساماتهم حالة مَرضيّة. كلمة «مسكونيّة» تعني إرادة التقارب بين مختلف الجماعات المسيحيّة. في البدء أراد مسيحيّو الطائفة الواحدة أن يحافظوا على الوحدة وسط التشتّت العالمي. فقام اتحاد انجيلي عالمي، سنة ١٨٤٦، يجمع البروتستانت بصرف النظر عن طوائفهم المختلفة. مؤتمر لَمْبث الأوّل (١٨٦٧) جمع ممثّلين من كلّ الكنائس الأنكليكانيّة (الاسقفيّة) في العالم. هذا المؤتمر يُعقد كلّ عشر سنوات. ثمّ المؤتمر العالمي للكنائس المتجدّدة، فالمؤتمر المعمداني العالمي، فالرابطة اللوثريّة العالميّة، فالاتحادات المسيحيّة للشبّان والشابّات.

عثار الانقسام

سنة ١٩١٠، جمع مؤتمر إدنبرغ ممثّلين عن كافة الإرساليّات البروتستانتية. بين الألف والمئتي ممثّل كان هناك بعض الأسيويّين والافريقيّين الذين عبّروا عن العثار الذي يشعرون به تجاه انقسام المرسلين المسيحيّين الذين يعملون كلّ لحساب طائفته أو جمعيّته. وشدّد التقرير النهائي على «ضرورة تأسيس كنيسة غير منقسمة...، في كلّ بلد غير مسيحي، وسيأتي يوم تحلّ فيه الكنائس المحليّة مشكلة الوحدة بنفسها بمعزل عن رغبات المرسلين الغربيّين». وإن لم يتمكّنوا من إقامة احتفال موحّد طوال المؤتمر، إنّما وُلدت آنذاك فكرة المسكونيّة، وتقرّر عقد اجتماعات منتظمة، وأصبحت اللجنة «المجلس العالمي للإرساليّات».

المؤتمر العالمي للإرساليّات البروتستانتيّة
في إدنبورغ (١٩١٠)

يُعتبر هذا المؤتمر نقطة انطلاق للمسكونيّة انتهت إلى مجلس الكنائس المسكوني. هاكم كلاماً لممثّل إحدى كنائس الشرق الأقصى:

«بعثتم إلينا بمرسلين عرّفونا بيسوع المسيح. فنشكركم على ذلك. لكنّكم حملتم إلينا أيضاً اختلافاتكم: فالبعض يبشّرون بالميتودية، والبعض باللوثريّة، والبعض بالمسيحيّة... نسألكم أن تبشّروا بالإنجيل وأن تدعوا يسوع المسيح يقيم بيننا، بقوّة الروح القدس، كنيسة تطابق متطلّباته وتطابق أيضاً عبقريّات شعوبنا، كنيسة تكون كنيسة المسيح في الصين، كنيسة المسيح في الهند...».

وحدة العمل ووحدة العقيدة

إبّان الحرب العالميّة الأولى، أطلق الأسقف ناتان سودربلوم، اسقف أوبسالا اللوثري، نداءات إلى المسيحيّين من أجل سلام عالمي. وبعد الحرب أسّس حركة «حياة وعمل» أو المسيحيّة العمليّة. فاجتمع في ستوكهولم سنة ١٩٢٥ ستّ مئة مندوب من سبع وعشرين دولة، منهم الألمان وأعداؤهم القدامى وممثّلون عن الطوائف البروتستانتيّة وأرثوذكس أيضاً. فتدارسوا العلاقات القائمة بين الكنائس والمجتمع، وقضايا العدالة الاجتماعيّة وكيفيّة تطبيق المبادئ المسيحيّة في الحياة اليوميّة. ثمّ جرى اجتماع ثانٍ في أكسفورد سنة ١٩٣٧ حضره ممثلون من مئة وأربع وعشرين كنيسة وأربع وأربعين دولة، قرّروا حقّ الحريّة الدينيّة، في زمن سيطرة النظم الشموليّة في أوروبا.

وفي خطّ مؤتمر ادنبُرغ، وُلدت حركة «إيمان ونظام» حيث لعب الأنكليكان الدور الأكبر. جرى أوّل لقاء هامّ لها في لوزان سنة ١٩٢٧، حضره أربع مئة ممثّل من مئة وثماني كنائس حيث كثر عدد الأرثوذكس وحيث صار البحث في عدد كبير من العقائد كلاهوت الكنيسة ولاهوت الخدمة. وبالرغم من تسرّع البعض لبلوغ الوحدة، قرّر المجتمعون أنّ عامل الوقت مهمّ في البحث عن الحقيقة وأنّه لا يحسن الوصول إلى الوحدة بأيّ ثمن. عُقد مؤتمر ثان في ادنبرغ سنة ١٩٣٧ ازداد فيه عدد المجتمعين عن ذي قبل وطالبوا بتفهّم متبادل بين المؤمنين لعقائد كل طرف، وأعلنوا أنّ الوحدة قد أُعطيت: لا نستطيع البحث عن الوحدة فيما بيننا لو لم نكن قد حصلنا عليها. والذين لا يوجد أيّ رابط مشترك بينهم لا يتألّمون من الانفصال» (وليم تمبل). كان كثيرون قد شاركوا في الحركتين. من هنا جاءت فكرة إيجاد جهاز مشترك هو مجلس الكنائس المسكوني، ليضمّ «حياة وعمل» و«إيمان ونظام». أُخذ هذا القرار في أوترخت سنة ١٩٣٨ ولم يُنفّذ إلاّ بعد الحرب سنة ١٩٤٨.



لورد هاليفاكس

٣. صعوبات المسكونيّة في الكنيسة الكاثوليكيّة

بورتال والأنكليكانيّة

التقى فرنان بورتال اللعازري صدفة في مادار (Madère)، سنة ١٨٩٠، باللورد هاليفاكس الأنكليكاني فتصادقا. لم يكن بورتال يعرف شيئًا عن الأنكليكانية، ففكّر أوّلاً في ارتدادات فرديّة لبعض الأنكليكان إلى الكثلكة. وظنّ أنّ الكنيستين، الكاثوليكيّة والأنكليكانيّة، ستتوحّدان قريبًا، أي بعد اتفاق الرؤساء الروحيّين، ظنًّا منه أنّ الأنكليكان قد حافظوا على أهمّ ما في التقليد الكاثوليكي، لا سيّما التعاقب الرسولي للأساقفة. ولكن، في سنة ١٨٩٦، أعلنت رومة أن الرسامات الأنكليكانيّة باطلة. فأُحبط حلم هذه الوحدة. فظنّ عندئذٍ بورتال أنّ الوحدة لن تأتي إلاّ من القاعدة، أي من تغيير داخلي لدى المسيحيّين. لذا يجب العمل ببطء على تقريب الذهنيّات والبحث الفكري. فأسّس مجلّة تهدف إلى هذا العمل «المجلّة الكاثوليكيّة للكنائس». ثمّ وسّع آفاقه نحو الأرثوذكس والبروتستانت. وبالرغم من إبعاده سنة ١٩٠٨، ظلّ بورتال يعمل في الخفاء. بين سنتي ١٩٢١ و١٩٢٥، استؤنفت المحادثات مع الأنكليكان في مالين بقيادة



الكردينال مرسييه

الكردينال مرسييه. لكن موت بورتال ومرسييه وضع حدًّا لهذه المبادرة.

المقاومة البابابوية

بما أنّ الكنيسة الكاثوليكيّة تمتلك وحدها الحقيقة، فلم يكن من رأي الباباوات مشاركة سائر المسيحيّين تبادل الآراء على قدم المساواة. بندكتس الخامس عشر رفض بطريقة مهذّبة أن يشترك في حركة توحيد التربية، كما دعا جميع المسيحيّين إلى الانضمام إلى الكنيسة الحقيقيّة. وفي براءته «نفوس الاموات» سنة ١٩٢٨، منع البابا بيوس الحادي عشر الكاثوليك من المشاركة في أيّة حركة مسكونيّة. فالحقيقة، في نظره، تسبق المحبّة. والحقّ يقال، لم يكن الكاثوليك يرون آنذاك في البروتستانتية سوى الآراء المتحرّرة التي لا تهمّها الدقّة العقائديّة.

المسكونيّة الروحيّة

خرج الكاثوليك من هذا المأزق بنظرة جديدة إلى العمل المسكوني، وذلك عن طريق الصلاة. ففي سنة ١٩٢٥، أسّس دون لمبر بودوان، في بلجيكا، ديراً خصّصه للتقرّب من المسيحيّين الشرقيّين، حيث يحتفل بالليترجية في الطقسين اللاتيني والبيزنطي، ثمّ أسّس رهبانه مجلّة «ايرنيكون». وفي سنة ١٩٠٨ بدأ قسّان



الأب بولس كوتورييه

انكليكانيّان تكريس أسبوع صلاة لأجل الوحدة من ١٨ إلى ٢٥ كانون الثاني (يناير).

وفي مدينة ليون، أعطى الأب كوتورييه هذا الأسبوع انطلاقة جديدة، إذ عمّق معناه الروحي. ففي مقال ظهر سنة ١٩٣٥، يؤكّد الأب كوتورييه أنّ الوحدة لن تأتي نتيجة حملة تبشيريّة تقوم بها كنيسة لكسب الآخرين. لن تأتي الوحدة إلاّ من الله ويجب أن تتحقّق عن طريق صلاة جميع المسيحيّين. يجب أن يطلبوا الوحدة التي يريدها المسيح وبالوسائل التي يريدها. فعلى كل واحد، في طائفته، أن يقرّ بأخطائه الى الوحدة، على مدى العصور. فإذا بقيت كلّ كنيسة أمينة لتقاليدها وللصلاة، فلا يستطيع الله أن يرفض الوحدة التي صلّى المسيح من أجلها. راق هذا الكلام غير الكاثوليك.

وهكذا أصبح أسبوع الصلاة مسكونيًا حقًا. ودعا الأب كوتوريه أيضاً إلى التعارف المتبادل فأسّس جماعة «دومب» سنة ١٩٣٧: من قسوس وكهنة يجتمعون كلّ سنة في دير دومب في رياضة مسكونيّة يتغذّون فيها روحيًا معًا. فيما بعد، بدأت هذه الجماعة تدرس اللاهوت المقارن لدى جميع الطوائف المسيحية.

أسبوع الصلاة من أجل الوحدة أو المسكونيّة
الروحيّة كما أرادها الأب كوتوريه

«لا يغربنّ عن بالكم أنّ أسبوع الصلاة هذا (١٨-٢٥ كانون الثاني (يناير)) هو عمل روحي يرفعه كلّ واحد في قرارة نفسه وبصدق، الأرثوذكسي وهو باق أرثوذكسيًا، والأنكليكاني وهو باق انكليكانيًا، والكاثوليكي وهو باق كاثوليكيًا».

الاب كوتوريه ١٩٣٥

لبّ القضيّة هو الوصول إلى نشر صلاة مسكونيّة في كلّ الجماعات المسيحيّة، صلاة تكون صدى لألمنا العميق الناتج عن خطيئة الانفصال. لقد أخطأنا جميعنا فيجب أن نتّضع جميعنا ونصلّي من دون ملل طالبين دومًا أعجوبة الاتحاد الكلّي. طبعًا نحن لن نراها، لكنّ واجبنا هو أن نُمهّد لها، مهما كانت بعيدة. مسيحنا كلّنا ينتظر صلاة مشتركة تأتي من كلّ الجماعات المسيحيّة لكي يوحّدهم حين يريد وكيفما يريد... لا الصلاة الكاثوليكيّة ولا الصلاة الأرثوذكسيّة ولا الصلاة الأنكليكانيّة ولا الصلاة البروتستانتيّة تكفي. نحن بحاجة إليها كلّها وإليها متّحدة».

(الأب كوتوريه ١٩٣٦)

نداء حارّ وأخوي من رسالة وجّهها
بطاركة الشرق الكاثوليك إلى مؤمنيهم سنة ١٩٩٢

«إنّ الظروف التي يعيشها المسيحيّون في الشرق، بما فيها من تحدّيات وصعوبات، ليست بالسهلة في وقتنا الحاضر، ومن المؤكّد أننا لا نستطيع أن نواجهها وحدنا، ولذلك فإننا نتجاوب مع كلّ المبادرات والخطوات التي تأتي من سائر الكنائس المسيحيّة في شرقنا، خاصّة من قِبل الكنائس الأرثوذكسيّة الشقيقة التي نكنّ لها كل المحبّة والتقدير والاحترام. إنّ صعوبات الماضي، مع ما خلّفته من مرارة في القلوب، لا يمكن أن تشكّل حاجزاً أمام التبادل الأخوي لما فيه خير المسيحيّين والمواطنين عامّة في بلداننا. إنّنا نوجّه نداءً حاراً وأخوياً إلى كلّ الكنائس المسيحيّة للتلاقي، فلا نوفّر أيّ جهد صادق يرمي إلى التعاون الحقيقي في كلّ الميادين التي تمسّ حياة المؤمنين، فنعزّز وحدة المحبّة انتظاراً لذلك اليوم العظيم الذي فيه يهبنا الربّ نعمة وحدة الإيمان التي أرادها السيّد المسيح لكنيسته».

الفصل التاسع عشر

من الحرب العالميّة الثانية إلى المجمع الڤاتيكاني الثاني

(١٩٣٩-١٩٥٨)

تركت الحرب العالميّة الثانية بصماتها على المسيحيّين وعلى الكنيسة في البلدان المعنيّة بالحرب. في بعض البلدان، أصيب المسيحيّون في أعماقهم، وفي كلّ مكان طُرحت أسئلة على الضمير المسيحي فيما يتعلّق باختياراته. فالحرب هي أيضاً زمن نضج وتفكير. تجسّدت آمال كثيرة في السنوات اللاحقة فنشأ زمن تجديد لاهوتي واختبارات جديدة، ولكن أيضاً زمن صعوبات وأزمات في السنوات الأخيرة لعهد البابا بيوس الثاني عشر.

أوّلاً – المسيحيّون في الحرب العالميّة الثانية

١. مآسي الحرب

واجه المسيحيّون، كسائر مواطنيهم، نتائج الحرب: دمار ومجازر في أوروبا الواقعة بنسبة ٧٥٪ تحت الحكم الألماني النازي. وجد الضمير المسيحي ذاته تجاه خيارات صعبة. ما موقفنا من المحتل؟ هل يجب الرضوخ للسلطات القائمة؟ هل يمكننا السكوت تجاه إبادة اليهود؟ هل العنف مشروع لأجل تحرير الأوطان؟ ... اختلفت المواقف باختلاف البلدان وحتّى داخل كلّ بلد.

في الشرق

أراد الألمان أن يضفوا الطابع الجرماني على غربي بولونيا، في وارتاغو التي ضُمّت بكاملها إلى المانيا، فقاموا باضطهاد كنيسة بولونيا التي لم يعد لها وجود شرعي في نظرهم: فتمّ إقفال الكنائس والأديرة، ومنع كلّ تحرّك، بل وسجن الكهنة. بولنديون كثيرون طُردوا إلى حيث الحكومة المركزيّة (وارسو) وهناك لم يكن نصيبهم أفضل. اليهود تكدّسوا في سجون وارسو. كاثوليك بولونيا يسألون البابا رأيه

فيخاف إذا ما تكلّم أن يزداد مصيرهم سوءًا. فقدت بولونيا ستّة ملايين من أبنائها، وأحد ضحاياها في مخيّم أوشويتز هو الأب مكسيميليان كولبه (١٨٩٤-١٩٤١) الذي أُعلنت قداسته فيما بعد. أمّا في روسيا، فقد سهّل تقدّم الجيوش الالمانيّة إعادة الحياة الدينيّة وتأسيس كنائس منفصلة عن موسكو، وتنظّم كاثوليك أوكرانيا، في حين استفادت الحكومة السوفياتيّة من العاطفة الدينيّة الروسيّة لتشجّع الروح الوطنيّة ضدّ الزحف الألماني. فعاد البطريرك إلى موسكو (١٩٤٣): سرجيوس أوّلاً ثم ألكسي. لكن، مع انتهاء الحرب، انقلب الموقف فعادت الاضطهادات إلى حالها.

سلوفاكيا وكرواتيا

في ربيع ١٩٣٩، بعد أن ضمّ هتلر منطقة بوهيميا، أعطى سلوفاكيا، أي القسم الشرقي من تشيكوسلوفاكيا، نظاماً شبه استقلالي. وجعل على رأس الحكومة السلوفاكيّة المونسنيور تيسو (Tiso) الذي أُلزم بموقف السياسة الألمانيّة فحاول أن يوفّق بين التعاليم المسيحيّة والشموليّة.

أمّا الاستقلال الكاذب لجمهوريّة كرواتيا، بقيادة أنتي باقليتش، فقد اعتبره كثيرون من الكاثوليك بمثابة أخذ ثأر من صربيا الأرثوذكسيّة، إذ أصبح ذريعة للعنف ضدّ الأرثوذكس ولحرب أهليّة ضارية. ورأى المونسنيور ستابيناك، أسقف زغرب، نفسه ممزّقاً بين عاطفته الوطنيّة الكراوتيّة وإرادة مقاومة انتهاك حقوق الإنسان.

النرويج وهولندا وبلجيكا

الأسقف اللوثري، برغراف، اختار أوّلاً اللاعنف والمسالمة، لكنّه أخيراً وقف مع المقاومة ضد النازيّة التي ارادت أن تُخضع الكنيسة الوطنيّة. فاعترضت الإدارة المؤقتّة للكنيسة على اضطهاد اليهود ومصادرة اليد العاملة وتجنيد الشباب. **في هولندا**، سنة ١٩٤١، منع الأساقفة كلّ الكاثوليك من الاشتراك في الحركة النازيّة الهولنديّة. واتّفق الكاثوليك والبروتستانت على رفض نفي اليهود سنة ١٩٤٢-١٩٤٣. فثأر الألمان منهم وأوقفوا المسيحيّين المتحدّرين من أصل يهودي: وكان من بين الضحايا: إديت شتاين الراهبة الكرمليّة الفيلسوفة. وطلب الأساقفة إلى الموظّفين الهولنديّين ألاّ يساهموا في عمليّة نفي اليهود والعمّال. **في بلجيكا**، أراد الكردينال فان روي أن يكون عمليًا فخلّص ما يمكن تخليصه من دون مقاومة رسميّة تُذكر. فوقف ضدّ النازيّين البلجيكيّين وضدّ المقاومة العنيفة في الوقت ذاته، وقام بجهود ضدّ نفي اليهود.

فرنسا

كثيرون رأوا في هزيمة ١٩٤٠ قصاصاً إلهيًا سببه العلمنة. وبدا المارشال بيتان وكأنّه

جان دارك جديدة. فأصبح النظام مواليًا للكنيسة: بوسع الرهبان والراهبات أن يعودوا للباس زيّهم، وسجين بيت القربان خرج في مواكب في الطرقات يوم خميس الجسد، وتكاثرت رحلات الحج: إلى سيّدة بوي، وسيّدة بولوني... كما نعمت المدارس الحرّة بالمساعدات الماليّة. وبالإجمال، كان أساقفة فرنسا، وجلّهم من محاربي الحرب العالميّة الأولى، موالين لحكومة فيشي، معترفين بشرعيّتها، ناظرين إرادة الله في قيامها. أُخذت سريعًا إجراءات عرقيّة، حتى في الجزء غير المحتّل من فرنسا. لم يكن هناك أيّة ردّة فعل رسميّة من قبل المسؤولين المسيحيّين حتّى تموز (يوليو) ١٩٤٢، أثناء حملة اعتقالات فال ديف والنفي المنظّم لليهود من فرنسا إلى ألمانيا. وقد عبّر المطران سالياج أسقف تولوز والمطران تياس اسقف مونتوبان عن اعتراض الضمير المسيحي الساخط: فجميع الناس، آريّون وغير آريّين، هم إخوة لأنّهم خليقة الله. جميع الناس، مهما كان عرقهم أو دينهم، يستحقّون احترام الأفراد والدولة. هناك أساقفة آخرون، كالكردينال جرليه، أسقف ليون، عبّروا عن سخطهم، ولكنهم ظلّوا متحرّجين بسبب أمانتهم للسلطة القائمة، سلطة فيشي، وبسبب التمييز بين ما هو أخلاقي وما هو سياسي. وانقسم الأساقفة والجمعيّات بالنسبة إلى الموقف من عمل الشباب الإجباري في المانيا. على وجه العموم، لم يكن الأساقفة يحبّذون المقاومة المسلّحة لأنّهم ينتقدون العنف والتمرّد على السلطة القائمة. فالمسيحيّون تجنّدوا في المقاومة على مسؤوليّتهم الخاصّة وعبّروا عن ذلك في عدّة نشرات سريّة. والبروتستانت وضّحوا موقفهم في البنود الثمانية في بوميرول (مصبّ الرون – ايلول (سبتمبر) ١٩٤١). ومنذ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤١، ظهرت «دفاتر الشهادة المسيحيّة» تساند المقاومة المسيحيّة. وهكذا أكّد المسيحيّون استقلالهم في خيارهم السياسي والتقوا في عملهم مناضلين من كلّ الأحزاب. ومنهم من ضحّوا بحياتهم، من أعضاء العمل الكاثوليكي (جلبر درو، فرنسيس شيرا) ومن الإكليرس (الأب دي مونشاي)

ألمانيا

في ألمانيا، لم تلقَ مقاومة هتلر سوى أهميّة محدودة جداً. لأنّ معارضة النظام كانت تعني العمل على هزيمة ألمانيا. الكنيسة البروتستانتيّة أخذت موقفاً مبكّرًا ضد السياسة العرقيّة وكثيرون من أعضائها أُدخلوا معتقلات الموت حيث تُوفّي كثيرون (بنهوفر ١٩٤٥). كان الموقف الأكثر شيوعاً هو الامتناع عن أخذ موقف وذلك تحت عامل الخوف. الأساقفة الكاثوليك المجتمعون في مؤتمر فولدا لم يتفقوا على رأي لكي يعارضوا علناً الأضرار التي تلحق بالأخلاق وبحقوق الإنسان. فاكتفوا بكلام عامّ رافضين أن يدينوا الدولة مباشرة ايلول (سبتمبر) ١٩٤٣: رسالة جماعيّة حول الوصايا



البابا بيوس الثاني عشر

العشر). وحده أسقف مونستر، فون كالن، أدان بصراحة قتل المعاقين عقلياً والضعفاء (آب (اغسطس) ١٩٤١). وبعض الكهنة (برنهارت ليختبزغ) والمناضلين المسيحيّين (جماعة الوردة البيضاء) ماتوا بسبب اختيارهم الجريء.

٢. صمت بيوس الثاني عشر

على عكس بنوا الخامس عشر الذي كثيراً ما انتُقد لدعواته إلى السلام إبّان الحرب العالميّة الأولى، فإنّ بيّوس الثاني عشر استحقّ الثناء شبه التام، في حياته، على مواقفه طوال الحرب العالميّة الثانية. ففي سنة ١٩٦٣، في تمثيليّة لاقت نجاحاً باهراً، «كاهن الرعيّة» اتّهم الكاتب الألماني الشاب، رولف هوكشيت، بيّوس الثاني عشر لأنّه لم يدن صراحةً إبادة اليهود على يد النازيّين. هل كان جباناً؟ هل كان محبّذاً للنازيّين؟ هل كان على جهل بما يحدث؟ من حسنات إثارة هذه القضيّة نشر عدّة وثائق من الأرشيف تحمل بعض الأضواء. عمل بيوس الثاني عشر في السلك الدبلوماسي ثم سكرتير دولة الڤاتيكان، قبل أن يصبح بابا. فكان على علم تامّ بقضايا ألمانيا ووقّع على الاتفاقيّة بين هتلر والڤاتيكان سنة ١٩٣٣، كما شارك في كتابة رسالة باباويّة حول ألمانيا. فهو لم يكن متعاطفاً مع النازيّة مطلقاً، لكنّه كان يفضّل المداخلات الدبلوماسيّة الرصينة على الإعلانات الرسميّة.

الحضّ على السلام

بعد أن حاول البابا منع إعلان الحرب، (سنة ١٩٣٩-١٩٤٠)، دعا موسوليني للبقاء خارج المعركة، كما دعا القوى (الاطراف) الأوروبيّة إلى حلّ مشاكلهم بالتفاوض. وطوال زمن الحرب، في خطابات عديدة وفي رسائل الميلاد، كان يعود دائماً إلى ذكر قساوة الحرب وإلى حسنات التفاوض وإلى السلام المبني على توازن عادل. كما أسّس، برئاسة المونسنيور مونتيني، مكتب معلومات يتابع أخبار الأسرى والمفقودين. وقد لجأ عدد من اليهود المتّهمين إلى المؤسّسات الباباويّة والأديرة. سنة ١٩٤٣-١٩٤٤، عند وصول الحرب إلى إيطاليا، حاول أن يحمي رومة

وحضّ الملك على إبعاد موسوليني. كما أدان قصف المدينة. أراد أن يكون، مثل بنوا الخامس عشر، محايداً وفوق المعركة. ألم تكن البلشوفيّة تمثّل الخطر ذاته الذي تمثّله النازيّة، إن لم يكن أكثر؟

إبادة اليهود

وصلت المعلومات حول نفي اليهود وإبادتهم إلى الڤاتيكان في وقت مبكّر، ولكنها لم تكن واضحة، وحكاياتها الجنونيّة بدت مستحيلة التصديق. في ربيع ١٩٤٣، عرف بيّوس الثاني عشر كلّ شيء وشعر بعدم قدرته على العمل. فلمّح في نصّين علنيّين إلى الإبادة العرقيّة، في رسالة الميلاد ١٩٤٢ وفي خطاب إلى الكرادلة في ٢ حزيران (يونيو) ١٩٤٣. لكنّ التلميحات ظلّت عامّة. فلم يذكر لا اليهود ولا الألمان خوفاً من أن يعود تدخّله بالويل على من يريد أن يدافع عنهم. وترك للأساقفة مسؤوليّة أعمالهم. فلم تخلُ النتيجة من التباس. وبعض الاعترافات جرّت مزيداً من القمع من الجانب الألماني... في حين كان للمداخلات الدبلوماسيّة بعض المفعول في سلوفاكيا وكرواتيا والمجر، حيث توقّف نفي اليهود إلى حين. وفي إيطاليا بقي البابا صامتاً يوم توقيف اليهود في ١٦ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٤٣، وتدخّله الصامت منع من أعمال نفي جديدة.

فقليلاً إذن ما تدخّل البابا وذلك بحكم سياسة مدروسة مبنيّة على الدبلوماسيّة. بعد زمن تمنّى بعضهم لو كان هناك موقف نبويّ. هذا ولم يكن البابا يملك منبراً سياسياً. قال الكردينال ديغنر في ميونيخ سنة ١٩٦٤: «حكم التاريخ المتأخّر يحملنا على القول بأن بيّوس الثاني عشر كان عليه أن يعترض بشدّة أكثر. على كلّ حال لا يحقّ لنا أن نشكّ في صدق دوافعه المطلق ولا في صدق أسبابه العميقة».

٣. زمن النضج

أوقفت الحرب بعض الاحتفالات والممارسات الكنسية. فهناك كهنة كثيرون في السجون، والانتقالات عسيرة، والوقت ليس للاتّهامات فقط، بل للتفكير والتوجّهات الجديدة.

تمازج ولقاءات

في المعتقلات والمنفى والمقاومة التقى كهنة ومجاهدون علمانيّون مباشرة رجالاً ونساء لم يكونوا قد التقوهم من قبل في رعاياهم. وكان ذلك اكتشافاً لكثيرين. ورأى بعضهم هنا طرقاً أخرى للحضور المسيحي. وقدامى «الشبيبة العاملة المسيحيّة» أسّسوا «حركة العائلات الشعبيّة» التي أرادت أن تكون دائماً حركة عمل كاثوليكي، ولكن كحركة شعبيّة لا كحركة نخبة فقط. أرادوا أن يعيشوا المسيحيّة قبل أن

يتلوا قانون الإيمان. في هذه الظروف العصيبة اهتمّوا بالخدمة الاجتماعيّة. وفي ميادين عديدة شعر العلمانيّون بضرورة تدبير أمورهم بأنفسهم، وأخذ المسؤوليّات بدون الرجوع حتماً إلى الأساقفة.

وسائل جديدة للرسالة

في تموز (يوليو) ١٩٤١، قرّر مجمع الكرادلة والأساقفة الفرنسيّين، نزولاً عند رغبة الكردينال سوهار، رئيس أساقفة باريس، خلق إكليريكيّة «رسالة فرنسا» بإدارة لويس أوغروس. غاية المؤسّسة تربية كهنة للمناطق الفرنسيّة التي فقدت الإيمان أو الروح المسيحيّة. يعيش أفرادها في تجمّعات رسوليّة يبحثون فيها عن حضور ولغة جديدين. سنة ١٩٤٣ ظهر للأبوين غودان ودانيال كتاب «فرنسا بلد الرسالات»؟ فأحدث صدمة قويّة. يرى المؤلّفان أن العودة إلى الوثنيّة لم تمسّ الهامشيّين فقط، بل قسماً كبيراً من سكّان المدن أيضاً. فالرعيّة التقليديّة والحركات الكاثوليكيّة لم تعد كافية. فنحن بحاجة إلى مؤمنين ملتزمين في قلب العالم وإلى كهنة يرون في الرسالة امتزاجاً نهائياً بعالم غريب يجب تغييره. كان هذا الشعور في أساس انطلاقة «رسالة باريس» التي تهدف إلى زرع الكنيسة حيث يعيش الناس، أي في جماعات الأحياء السكنيّة وجماعات العمل وأوقات الفراغ، لا إلى حملهم إلى الكنائس.

مع نهاية ١٩٤٤، أراد «الكهنة العمّال» أن يجيبوا على الحاجة إلى الوجود الكهنوتي الحقيقي في عالم العمل. وكان الأب لوف، في مرسيليا، قد بدأ يعمل على المرفأ بتفريغ السفن وتحميلها. فخلقت هذه الاختبارات الجديدة إزعاجاً لدى كهنة الرعايا.

مبادرات عدّة

كثير من المبادرات ظهرت في سنوات الحرب. أسّس الأب لوبري مجلّة «اقتصاد وإنسانيّة» سنة ١٩٤١ لخلق مبادرات علميّة قادرة على ابداع فكر يجعل الاقتصاد في خدمة الإنسان. وأسّس الأب مونتوكلار مركزاً للأبحاث ومجلّة «شباب الكنيسة» (١٩٤٢) لكي يجد دواء لعزلة الكنيسة وسط عالم ابتعد عنها. أمّا «الينابيع المسيحيّة»، التي تنشر كتابات آباء الكنيسة، فقد أسّسها يسوعيّو مدينة ليون سنة ١٩٤٢، وهي تضع كتابات الآباء في متناول المسيحيّين المهتّمين بالعودة إلى ينابيع الإيمان. وفي سنة ١٩٤٣، أسّس الآباء الدومينيكان في باريس مركز الأبحاث الليترجي الذي أصبح نقطة انطلاق لمجلّة «أعياد وفصول» ولكتب ومؤتمرات (ڤانڤ ١٩٤٤) أعادت إلى الليترجية مكانها في الحياة الروحيّة.

إعادة النظر في الأساليب الرعويّة

«مثل كلّ رسالة، فإن كسب الطبقة العاملة لهو عمل مضنٍ وقد يبقى طويلاً عديم الفائدة. لذل يتطلّب من كلّ القائمين به التكريس الكلّي له... فهؤلاء الرسل، الذين عليهم أن يصيروا من الشعب، عليهم أيضاً أن يستعدّوا لتحمّل التهم حتّى من رفاقهم. عمل كهذا يتطلّب كهنة قرّروا قراراً مطلقًا يكرّسهم له... إنّه عمل يفضّله السيّد المسيح... وعليهم ألاّ يفكّروا بالعودة عنه. هناك انطلاقات إلى الرسالة لا تسمح بالتفكير بالعودة... وقد يكون هذا الانطلاق واحداً منها... «نحن أعضاء العمل الكاثوليكي العمّالي، مستعدّون لأن ندخل في الطبقة العاملة. فهل أنتم مستعدّون، يا حضرات الأساقفة، لاستقبال من نأتيكم بهم في الجماعة المسيحيّة وللاحتفاظ بهم؟ كلّ هذه الدراسات تجيب: كلاّ فكنيسة فرنسا لم تكن مستعدّة للغد: لم يكن لديها المؤسّسات ولا الروح الضروريّة لذلك...».

(غودان ودانيال، «فرنسا بلد الرسالات؟»)

ثانيًا – النتائج الدينيّة للأحداث السياسيّة في ما بعد الحرب

١. وضع المسيحيّين الجديد

نقل الحدود

تسبّبت الحرب في خسائر فادحة في بلدان أوروبا الشرقيّة والوسطى: روسيا، بولندا، يوغوسلافيا... ففقدت بولندا ثلث سكّانها، بينهم عدد كبير من نخبة رجالها (ضبّاط، جامعيّون، كهنة) أعدمهم الروس والألمان. إتفاقيّة يالطا (١٩٤٥) حدّدت مناطق نفوذ للحلفاء. فتقدّم الاتّحاد السوفياتي نحو الغرب ضامًّا بلدان البلطيق (ليتوانيا، لتونيا، استونيا) وقسماً من بولندا ورومانيا. كما تقدّمت بولندا نحو الغرب مستعيدة قسماً من أراضي ألمانيا. كما قُسمت هذه إلى قسمين: شرقيّة وغربيّة. تسبّبت الحدود الجديدة في تنقلاّت شعوب عديدة وبخاصّة الألمان والبولنديّين. فكانت النتائج الدينيّة هامّة: كثير من المسيحيّين أصبحوا عرضة للاضطهاد، مباشرة أو بوجه غير مباشر، من قِبَلَ الاتحاد السوفياتي. في ألمانيا أصبح المسيحيّون في حالة شتات: كاثوليكيّون يعيشون في مناطق بروتستانتيّة والعكس صحيح.

المسيحيّون والسياسة في أوروبا الغربيّة

في أوروبا الغربيّة، حمل المسيحيّون مسؤوليّة كبرى في السياسة. ففي حروب المقاومة، وُلدت رغبة في خلق مجتمع أكثر عدالة. وكوّن المسيحيّون، في بلدان عديدة،

قوّة ثالثة في وجه الشيوعيّين والاشتراكيّين. إنّها الحقبة الرائعة، حقبة الديمقراطيّات المسيحيّة وما يعادلها، في إيطاليا وألمانيا وبلجيكا... أمّا في فرنسا فاختاروا تسمية غير دينيّة (الحركة الجمهورية الشعبيّة). خرج الكاثوليك من تقوقعهم حيث حشرتهم العلمنة منذ بداية القرن. أكثر من ستّة أشخاص من أعضاء العمل الكاثوليكي اصبحوا مسؤولين في الحكومة المؤقتة (١٩٤٤-١٩٤٥). وبقيت الحركة الجمهورية الشعبيّة الحزب الأوّل في فرنسا، لعدّة شهور. نجاح الديمقراطيّة المسيحيّة هذا يعني أيضاً تفتّت اليمين التقليدي المحافظ المتّهم بالتعامل مع المحتّل الألماني. ساعدت كلّ هذه الأحزاب الديمقراطيّة المسيحيّة الكاثوليك على قبول الديمقراطيّة والنظام البرلماني، في حين كانوا قبلاً يرفضونه. في الوقت عينه أدخلوا في التشريع عدداً من الاهتمامات الاجتماعيّة والأوروبيّة. هناك من تكلّم على أوروبا ڤاتيكانيّة يديرها البابا والأساقفة. وهذا ليس صحيحاً. فقد تأسّست هذه الأحزاب زمن المقاومة للنازيّة والفاشية بعيداً عن وصاية الأساقفة. ولكن، رويداً رويداً، دفع الخوف من الشيوعيّة البابا والأساقفة إلى النصح بانتخاب أعضاء الديمقراطيّة المسيحيّة. في فرنسا دفعت القضيّة الاجتماعيّة الكاثوليك نحو حزب الحركة الجمهورية الشعبيّة، لكنه بدأ يتراجع بسرعة أمام اليمين الذي استعاد قواه، في حين قام تيّار من المسيحيّين اليساريّين - وهم قلّة- وانتقد توجّه الأحزاب الديني كلّه.

٢. نتائج الحرب الباردة

بعد انتصار ١٩٤٥ بسنتين، دخل حلفاء الأمس في خصام. أظهر الاتّحاد السوفياتي إدارة السيطرة في مناطق نفوذه. ففي بضع سنوات، في أوروبا الشرقيّة، تمكّنت أحزاب الأقليّة الشيوعيّة، بواسطة المذابح وبدعم الاتحاد السوڤياتي، من شغل كلّ المراكز الإداريّة. وفي البلدان الغربيّة، حاولت أيضاً الأحزاب الشيوعيّة القويّة، خاصّة في فرنسا وإيطاليا، أن تفرض ذاتها عن طريق الإضرابات العامّة. وفي سنة ١٩٤٩، وقعت الصين بكاملها في أيدي شيوعيّي ماوتسي تونغ. أضف إلى ذلك، في السنين التالية، تسلّم الشيوعيّين الحكم في ڤيتنام (١٩٥٤ ثمّ ١٩٧٥) وفي كوبا (١٩٥٩). فأصبح هناك كتلة شيوعيّة مؤلّفة من ١٣٠٠ مليون إنسان تهدّد سائر البلدان بإرادة التوسّع.

وراء الستار الحديدي الذي يفصل بين شطري أوروبا، قامت الاضطهادات ضدّ المسيحيّين، آخذة أشكالاً وشدّة تختلف بحسب البلدان. ففي الاتّحاد السوفياتي، اتخذت محاربة الدين أعنف أشكالها في بلدان البلطيق. في ليتوانيا، ساند الكهنة المقاومة الوطنيّة ضدّ حركة البلشفة السوڤياتية حتى سنة ١٩٥٢، ممّا أدّى إلى إزالة عدد كبير من رجال الإكليرس. وكاثوليك أوكرانيا الشرقيّون، بقيادة الكردينال سليبي السجين، ذاقوا الاضطهاد المرير. كما شملت الاضطهادات الأرثوذكس أيضاً بالرغم من خضوع رؤساء

الكنيسة الروسية ظاهراً. وفي كلّ بلدان الشرق، نظّمت الدولة محاكمات صاخبة ضدّ المسؤولين الكاثوليك، تتّهمهم فيها بالمتاجرة بالعملات الصعبة وبالتعامل مع العدوّ... من بينهم الكردينال مندزنتي في المجر (١٩٤٩) والمطران بيران في تشيكوسلوفاكيا والمطران ستابيناك في يوغوسلافيا والكردينال ويزنسكي في بولندا. منذ سنة ١٩٥٦ بدأت حركة التنكّر للستالينيّة فتحسّنت أحوال المسيحيّين في بعض البلدان كبولندا (الإفراج عن الكردينال ويزنسكي) وساءت في بلدان أخرى كالمجر حيث بقي الكردينال مندزنتي محتجزاً، مدّة خمس عشرة سنة، في السفارة الأمريكيّة في بودابست. فتجمّعت البلدان الغربيّة في كتلة ثانية حول الولايات المتحدة، في الحلف الأطلسي (معاهدة حلف شمالي الأطلسي ١٩٤٩). تُعتبر الأحزاب الشيوعيّة في هذه البلدان متواطئة مع ما يجري وراء الستار الحديدي. من هنا وجب الحذر تجاههم. لذلك ففي سنة ١٩٤٩، صدر مرسوم من مجمع الإيمان يمنع كلّ تعاون بين الكاثوليك والشيوعيّين. لكنّ الأحزاب الشيوعيّة كانت تجمع جميع المحرومين الذين يحلمون بمجتمع أكثر عدالة. من هنا تولّدت مآسي الضمير لدى الكاثوليك العائشين وسط مشاكل زمانهم الاجتماعيّة.

عمانوئيل مونييه (Emmanuel Mounier)

أسّس عمانوئيل مونييه (١٩٠٥-١٩٥٠) مجلّة «الروح» سنة ١٩٣٢ لتعميق القِيَم الروحيّة وللبحث معاً عن ثورات زمنيّة تتطلّبها هذه القِيَم. في كلّ كتاباته، يظهر اهتمامه بتحرير المسيحيّة من الثقل الاجتماعي والسياسي الماضيين. إنّه مُلهِم الحركة الشخصانيّة ويبدو متنبهاً لكلّ مشاكل الملحدين ولا سيّما الطبقة الفقيرة:

«واجب التجسّد، لو كنّا أمينين ولم نسئ استعمال الكلمة، يُجبر دوماً على أخذ مواقف تبدو مناقضة للذوق السليم: أن نموت عن العالم وأن نلتزم به في الوقت ذاته، أن نتنكّر للأمر اليومي وأن نخلّصه، أن نتألّم من الخطيئة وأن نفرح بالإنسان الجديد، أن لا نحسب قيمة إلاّ القِيَم الروحيّة الباطنيّة، ولكن أن ننتشر أيضاً في الطبيعة لنكسب البعد الشامل إلى جانب البعد الباطني، أن نقرّ بعدمنا وبحرّيّة أبناء الملوك في الوقت ذاته...»

٣. نهاية الاستعمار والكنائس الفتيّة

في العشرين سنة التي تلت الحرب، تفسّخت كلّ الأمبراطوريّات الاستعماريّة التي أسّستها الدول الأوروبيّة في أربعة أو خمسة عصور وبخاصّة في القرن التاسع عشر ونالت

الشعوب المستعمرة استقلالها وظهرت المسيحيّة كديانة المستعمِرين المستوردة من الغرب. وراحت الحركات القوميّة تعيد للثقافات القديمة مكانتها وتحيي ماضياً، غالباً ما تضفي عليه طابع المثاليّة، بعد أن كان الاستعمار قد شوّهه. ألم تأتِ فكرة حقّ الشعوب بتقرير مصيرها من المستعمِرين؟ ثمّ إنّ الحركات القوميّة لاقت نصيراً لها في الاتّحاد السوڤياتي، فاستلهم بعضهم الماركسيّة. وتحوّل صراع الطبقات إلى صراع الشعوب المستعبَدة الخاضعة للسيطرة الأجنبيّة السياسية والاقتصاديّة والدينيّة. هذا يفسّر مقاومة البلدان التي تحارب في سبيل استقلالها للمسيحيّة.

منذ ١٩٤٩، طلبت الصين الشيوعيّة إلى المسيحيّين فيها التحرّر من التأثير الأجنبي بالحصول على الاستقلاليّة في الشؤون الثلاثة: الحكم (لا علاقة بالڤاتيكان) والإدارة والماليّة (لا أموال من اوروبا) والكرازة (لا مبشّرون أجانب). تلا ذلك طرد كلّ المرسلين الأجانب وأسر أو إعدام كلّ المسؤولين الدينيّين الأمناء لرومة. فتأسّست كنيسة وطنيّة لا علاقة لها برومة. بلغت الحرب الدينيّة ذروتها مع الثورة الثقافيّة سنة ١٩٦٦–١٩٦٨، ثمّ همدت قليلاً بعد ذلك. وبحصول البلدان المستعمَرة على الاستقلال، بدأت تؤلّف العالم الثالث الذي راح يعي رويداً رويداً قوّته ويحمّل الدول الغربيّة بما فيها المسيحيّون مسؤوليّة فقره.

نموّ الكنائس الفتيّة

اهتمّ المسؤولون الكنسيّون، على وجه العموم، بالتمييز بين التبشير والاستعمار. ففي رسالة الميلاد ١٩٤٥، يؤكّد بيّوس الثاني عشر أنّ الكنيسة فوق القوميّات وأنّها ليست أمبراطوريّة مرتبطة بأوروبا. ويعبّر البابا عن خوفه من الشيوعيّة التي تتّهم الكنيسة ظلماً بأنّها استعماريّة. وكثيراً ما كان يؤكّد أساقفة البلدان المستعمَرة شرعيّة المطالبة بالاستقلال، كما فعل أساقفة الكاميرون سنة ١٩٥٥ والكونغو البلجيكي ورواندا–بوروندي سنة ١٩٥٦، فاتّهمهم المستعمِرون الأوروبيّون بأنّهم انتهازيّون يحافظون على مصالح الكنيسة ويعملون ضدّ بلدانهم الأصليّة.

وأخذ الأساقفة الأوروبيّون يتركون مراكزهم شيئاً فشيئاً لأساقفة محليّين. وأراضي الرسالات، التي كانت مرتبطة مباشرة برومة تحت إشراف نوّاب رسوليّين، أصبحت أبرشيّات بكلّ معنى الكلمة تماماً ككلّ أبرشيّات أوروبا القديمة. خلّفت إزالة الاستعمار كنائس فتيّة مستقلّة حقًا. يجب التذكير هنا بأنّ هذه الاستقلاليّة ظهرت منذ زمن بعيد في الكنائس البروتستانتيّة، في ما وراء البحار، حيث لم تكن المركزيّة التي تربطهم بأوروبا قوية كما هي الحال في الكنيسة الكاثوليكيّة.

في رسالته «هبة الإيمان» «Fidei donum» ١٩٧٥، يذكّر بيّوس الثاني عشر بأن الكرازة في بلاد الرسالة ليست حكراً على أشخاص

اختصاصيين، بل أنّ كلّ الأساقفة مسؤولون عنها وبإمكانهم التعبير عن هذه المسؤوليّة بإرسال بعض كهنتهم الأبرشيّين ليساعدوا مؤقتاً الكنائس الفتيّة.

إن الكاثوليك يشاركون تماماً في تشكيل عقليّة محيطهم. لذلك يبدو أنّ أخذ المواقف من قبل بعض المسؤولين عن الكنائس والمنظّمات المسيحيّة، «كالعمل المناضل»، قد ساهم ليجعل الرأي العام المسيحي والقومي يقبل باستقلال المستعمرات القديمة.

الكنيسة في الصين الشيوعيّة

«دخلت الجيوش الشيوعيّة مدينة شنغهاي في ٢٤ ايار (مايو) ١٩٤٩. لم يَخَفْ الأب باد تانغ، رئيس مدرسة القدّيس اغناطيوس في زيكاواي، من التعرّض للخطر بسبب الدفاع عن الشبّان الموكولين إليه... في ربيع ١٩٥١، شارك في مؤتمر للمدارس الخاصّة شرقي الصين برعاية مكتب التربية. وفي نهاية الدورة، طُلب إلى المؤتمرين إقرار إعلان مشترك يلتزمون فيه بتشجيع حركة الاستقلال المثلث (عن الفاتيكان). فقام الأب تانغ وتبعه أربعة مندوبين، وأعلن رفضه. ثمّ شرح بوضوح بعض نقاط أساسيّة من العقيدة الكاثوليكيّة وعرض المفهوم الصحيح لاستقلاليّة الكنيسة في كلّ بلد وطلب إلى الحكومة أن تتفهّم ذلك. وأنهى حديثه بإظهار الأساس الذي يجده حب الوطن في الإيمان المسيحي... فصفّق له المندوبون ثمّ توقفوا منزعجين. فشُجب القرار، لكنّ الأب تانغ كان قد لفظ حكماً على ذاته... ففي نهار التاسع من آب (اغسطس) ١٩٥١، حوالى الساعة الواحدة بعد الظهر، أتوا في طلبه: تريد الشرطة أن تكلّمه... في سجنه، عرضوا عليه ترأس كنيسة شنغهاي المستقلّة. وعند رفضه حاولوا تحطيم إرادته ليستغلّوه بالرغم منه. فكانت ليالي الاستجواب الطويلة حيث الحرمان من النوم والتوتّر الداخلي اتّحدا لاستنفاد آخر إمكانيّات المقاومة لديه. وكان الأسرى يسمعون الأب تانغ المنهوك يردّد: «يا يسوع ومريم ومار يوسف، خلّصوني». وتمادى الحرّاس في تعذيبه حتى راح في غيبوبة. لكنّهم حاولوا إمساك فريستهم قبل أن يفلت من أيديهم فنقلوه إلى مستشفى السجن في ٣٠ تشرين الأول (اكتوبر). وفي ١١ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥١، عند الساعة الثامنة صباحاً، انطلق الأب تانغ إلى الوطن النهائي».

(جان مونترليه، شهداء الصين يتكلّمون)



الأب جوزف كرداين

ثالثًا – الدينامية الراعوية واللاهوتية

طرق جديدة للعمل الراعوي

١. العمل الكاثوليكي في أوجه

ليس لعبارة «العمل الكاثوليكي» المعنى ذاته في كلّ البلدان، وإن كانت تعني كلّ أشكال رسالة العلمانيّين. ففي إيطاليا، هي منظّمة أحاديّة مركزيّة تابعة للسلطات الكنسيّة. وفي بلد آخر، يحسبون، في عداد العمل الكاثوليكي، الجيش المريمي وهو منظمة روحيّة رسولية وُلدت في إيرلندا عام ١٩٢١ وانتشرت في العالم كلّه ابتداءً من عام ١٩٤٥. يتوخّى الجيش المريمي رسالة مباشرة، دينيّة محضة، بصرف النظر عن الأطر الاجتماعيّة والاقتصاديّة.

في بلدان عديدة، ومنها فرنسا، يشدّد العمل الكاثوليكي المتخصّص على تبشير المحيط وتغيير الأوضاع الاجتماعيّة. بلغت هذه الحركات المتخصّصة في فرنسا ذروتها في السنوات ١٩٥٠–١٩٦٠. إنّها حركة الشبيبة المؤسّسة قبل الحرب: الشبيبة العاملة المسيحيّة، الشبيبة المزارعة المسيحيّة، الشبيبة الطالبة المسيحيّة، الشبيبة المستقلّة المسيحيّة إلخ... وهناك حركات البالغين التي وجدت هيكليّتها في الخمسينات . العمل الكاثوليكي هو مشاركة في رسالة الكنيسة الرسوليّة، إذن في رسالة الأساقفة. هذا يفرض فكرة التفويض الذي تعطيه السلطة الكنسيّة للحركات وللمناضلين، كما يفرض استقلال هذه الحركات عن الأحزاب السياسيّة والنقابات. لا شكّ في أنّ الالتزام المؤقّت مطلوب من المناضلين، لكنّه شخصيّ. فالأساقفة يولون الرسالة الأولويّة في اهتماماتهم. ثمّ وُلدت الشبيبة المستقلّة المسيحيّة. وفي الوقت عينه انضوت التجمّعات القديمة للدفاع عن الدين تحت لواء حركات العمل الكاثوليكي العامّ للرجال والنساء.

رعاية الأشدّ فقراً والكهنة العمّال

تأسيس «رسالة فرنسا» و«رسالة باريس»، وكتاب الأبوين دانيال وغودان «فرنسا بلد الرسالات؟»، والرسالة الراعويّة للكردينال سوهار «انطلاقة الكنيسة أو انحطاطها» سنة ١٩٤٧، كلّ هذه المبادرات والكتابات شدّدت على العمل الراعوي تجاه كلّ محيط فقد الروح المسيحيّة وبخاصّة تجاه عالم العمّال. استحالة دخول الكهنة في علاقة مع العمّال في محيطهم العائلي قد حَدَت ببعض الكهنة إلى الشغل في المصانع سنة ١٩٤٤. إنّهم أعضاء «رسالة باريس» و«رسالة فرنسا»: رهبان من سائر الرهبانيات وكهنة ابرشيّون، بالرغم من ضآلة عددهم (١٠٠ في سنة ١٩٥٤). هذا الاختبار عرّف عنه جلبرت سيبرون أمام الرأي العام، في كتابه «القدّيسون يذهبون إلى الجحيم» سنة ١٩٥٢، فكان له أثر كبير. فهو يعني تغييراً في نمط معيشة الكاهن التي كان يُظنّ أنّها تحدّدت نهائياً في المجمع التريدنتيني وفي المدرسة الروحيّة الفرنسيّة. لم يعد هؤلاء الكهنة يلبسون الثوب الأسود، بل أصبحوا يعيشون جماعات في بيت عاديّ ويشتركون في العمل مع غير المسيحيّين ومع الشيوعيّين... فتسبّب هذا في الكثير من الجدل، لا من جانب المسيحيّين التقليديّين فقط، من قِبَل المناضلين في العمل الكاثوليكي أيضاً، حيث البعض منهم لم يفهم رسالة الكاهن المباشرة هذه التي تبدو وكأنّها أصبحت في غنى عن العلمانيّين.

الرعيّة والليترجية والكرازة

إن اختبارات، كاختبار الأب ميشونو اللعازري في الضاحية الباريسيّة كولومب، أظهرت إمكانيّة تحويل الرعيّة إلى جماعة رسوليّة («الرعيّة جماعة إرساليّة» ١٩٤٦). وانطلق الأب راميليو من الليترجية ليجعل من الرعيّة جماعة. مبادراته، التي وصفها بعضهم بالغريبة (وجه الكاهن إلى الشعب في القدّاس، إعداد للزواج والعماد...)، تبنّتها كلّ الرعايا فيما بعد في حياتها اليوميّة (الجماعة الرعويّة والليترجية ١٩٤٧).

جاءت مرحلة ما بعد الحرب إنعاشاً لحركة كرازة بدأت في الثلاثينات مع ماري فارج وفرنسوا دركان. وكان جوزف كولمب، مدير التعليم الديني في ليون، المنعش لهذه الحركة. في كتبه العديدة، منذ ١٩٤٦ (الشفقة الكبرى في التعليم الديني المسيحي، ينابيع الكرازة، لأجل تعليم مسيحي فاعل، جرح مفتوح في جنب الكنيسة) يشدّد على نقص التعليم المسيحي. ويطلب العودة إلى الينابيع الكتابيّة والليترجيّة وخلق رابط بين عرض الإيمان واختبار الأطفال الإنساني. فيجب أن يكون التعليم المسيحي تدريجياً فلا يُعطى الولد إلاّ ما أمكنه فهمه في كلّ مرحلة من مراحل الحياة وبلغة هي في متناوله. من هنا انطلقت عدّة مؤسّسات فربّت آلاف معلّمي التعليم المسيحي المحترفين أو المتطوّعين.

٢ . اللاهوت والحركة المسكونيّة

عودة الكاثوليك إلى الكتاب المقدّس

مع ظهور البراءة البابويّة «نفحة الروح القدس» ١٩٤٣ ، أصبح الكاثوليك أكثر حريّة بالنسبة إلى الدروس الكتابيّة. فظهرت ترجمات عديدة وأهمّها «ترجمة أورشليم للكتاب المقدس». تشهد على اكتشاف حقيقي للكتاب المقدّس في الأوساط الكاثوليكيّة. فالكتاب يُدرس لذاته بكونه كلمة الله، ولم يعد كمستودع استشهادات فقط لإسناد آراء لاهوتيّة. وصدرت مجموعة «القراءة الإلهيّة» تضمّ كتابات اهل الاختصاص في الكتاب المقدّس الكاثوليك. وهناك دراسات تاريخيّة عديدة في مجموعات مختلفة («واحدة مقدسة» و«لاهوت») تدلّ على أنّ اللاهوت لا يتخطّى الزمن. كذلك العديد من النصوص - الينابيع الطقسيّة والآبائيّة (الينابيع المسيحيّة) تنتشر وتترجَم بطرق عمليّة.

المسيحانية وعلم الكنيسة

تجدّد علم اللاهوت وأصبح مسيحانياً وكنسيًّا. بيار تيار دي شاردان (١٨٨١-١٩٥٥) اليسوعي لم يُعترف به رسمياً في حياته فلم يستطع أن ينشر شيئًا. لكنّ كتابه «الظاهرة الإنسانيّة» انتشر بسريّة تامّة ولقي نجاحاً باهراً يوم نُشر بعد موته. قالوا فيه انه يعيد كلّ شيء إلى



الأب تيّار دي شردان

المسيح (panchristisme) أو أنّه يردّ كلّ شيء إلى التصوّف الكونيّ (Cosmomystique) أو إلى المسيح الكونيّ (Cosmochristocentrisme). يقول إنّ المادّة تحتوي على قوّة روحيّة نكتشف المسيح من خلالها، وإنّ الكون يتوجّه نحو نقطة الـ «أوميغا» (Omega)، أي عودة المسيح. جان مورو، في كتابه «المعنى المسيحي للإنسان» (١٩٤٥) ولويس ريشار في كتابه «الفداء» يشهدان على أنّ الحياة المسيحيّة تتمحور حول المسيح. تطوّر علم الكنيسة فيما بين الحربين ولا يزال يتطوّر. فحاول دي مونشاي وكونغار ودي لوباك وسواهم إيجاد جذور الكنيسة في التاريخ وصوّروا الكنيسة، لا كمجتمع كامل تنبّأ المسيح عن كلّ تفاصيل تنظيمه، بل كسرّ النعمة ومركز لقاء المسيح.

هذه العودة إلى الينابيع وأخذ التاريخ بعين الاعتبار ساعدا على التقارب بين المسيحيّين المنتمين إلى طوائف مختلفة.

الأساقفة السماح بقيام اجتماعات بين سائر

المسيح الكلّي (Panchristisme) عند تيّار دي شاردان

انتشرت كتابات بيار تيّار دي شاردان (١٨٨١–١٩٥٥) سراًّ مدّة طويلة ولم تُنشر إلاّ بعد موته.

«يمكن القول، على وجه العموم، بأنّه، إذا كان همّ علم اللاهوت الأوّل في القرون الأولى للكنيسة تحديد وضع المسيح، عقليًا وسريًّا، بالنسبة إلى الثالوث، فأهميّته اليوم هي التالية: تحليل وتوضيح العلاقات الوجوديّة والتأثير الذي يربط المسيح بالكون...

كلّ أعمالنا، نظراً إلى تأثيرها القريب أو البعيد والمباشر في العالم الروحي، تساهم في تحقيق المسيح بكماله الروحي... بالعمل، أتّحد بقدرة الله الخالقة، أُصبح، لا أداتها فقط، بل امتداداً لها حيًا. وبما أن لا شيء باطني في الإنسان أكثر من إرادته، فقلبي يمتزج إلى حدّ ما بقلب الله...

كلّ نموّ أحقّقه في ذاتي أو في الأشياء يضاف إلى إمكانيّة الحبّ الذي فيّ وإلى تطوّر تسلّط المسيح المقدّس على الكون».

(بيار تيار دي شاردان اليسوعي
«المحيط الإلهي»)

تقدّم الحركة المسكونيّة

سهّلت الحرب أسباب اللقاءات في المحن المشتركة: جمعيّات مسيحيّة عديدة وحّدت المسيحيّين في خدمة اللاجئين غير المسيحيّين. سنة ١٩٤٨، تأسّس في أمستردام مجلس الكنائس المسكوني، الذي أخذ يضمّ تدريجيًا مختلف الحركات المسكونيّة: إيمان ونظام، حياة وعمل، والمجلس العالمي للرسالات التي حافظت على اجتماعاتها الخاصة. وصار باستطاعة كلّ كنيسة الدخول في المجلس المسكوني على أساس الاعتراف بأنّ «يسوع إله ومخلّص». ليس المجلس المسكوني كنيسة فوق الكنائس، بل ملتقى ومركز إنصات، جماعة انتظار، ينظّم دورياً اجتماعات عامّة حول موضوع معيّن: إفانستون (١٩٥٤)، نيودلهي (١٩٦١)... ظلّت التحفّظات الكاثوليكيّة تجاه الحركة المسكونيّة قائمة. فهناك تجاذب بين القائلين بعودة الإخوة المنشقّين إلى الكنيسة الحقيقيّة، أي كنيسة رومة وبين القائلين بالمسكونيّة، أي بحوار بين شركاء متساوين. في شهر آذار (مارس) ١٩٥٠، اعترف «مجمع الإيمان» بأنّ الحركة المسكونيّة «عمل رائع» وثمرة من ثمار الروح القدس، كما خوّل

الطوائف. فالكاثوليك يستطيعون أن يصلّوا «الأبانا» مع غير الكاثوليك. توسّع الأب كوتورييه في أواخر حياته († ١٩٥٣)، بدراسة هذه المسكونيّة الروحيّة التي أسماها «الدير غير المنظور».

٣. توتّرات وأزمات

تعرّضت سنوات بيّوس الثاني عشر الأخيرة إلى سلسلة من التوتّرات والأزمات المتداخلة. إنّها نتائج عدم تفاهم ومخاوف عدّة، وأيضاً دليل على أنّ هناك، في عدّة ميادين، حدوداً ومصاعب لا بدّ منها.

علم اللاهوت

في شهر آب (اغسطس) ١٩٥٠، نشر بيّوس الثاني عشر الرسالة البابويّة «الجنس البشري» حول بعض آراء خاطئة تهدّد أُسس العقيدة الكاثوليكيّة. ينتقد البابا ما أسموه «اللاهوت الجديد» أي التفكير اللاهوتي المنسجم مع الفكر المعاصر والذي يعير التاريخ أهميّة كبرى. يدعو البابا إلى العودة الى صحّة التعليم التومائي في ميداني الفلسفة واللاهوت. وبصدد العلاقات بين المسيحيّين، يحذّر البابا من التضحية بالعقيدة في سبيل الوحدة. لم يذكر اسم أحد، كما لم يذكر قائمة بالأخطاء. إنّما نكتشف بين السطور اللاهوت واللاهوتيّين المحكوم عليهم. فنظريّة تعدّد الأصول (عدّة أشخاص في أساس البشريّة) تتناقض وعقيدة الخلق والخطيئة الأصليّة. وهذا الكلام هو ضدّ تيّار دي شاردان. والجدل حول الطبيعة وما فوق الطبيعة وحول التاريخ والعقيدة يعني بعض اللاهوتيّين اليسوعيّين: الآباء دو لوباك وبويار اللذين أُجبرا على ترك التعليم وعلى عدم النشر. وفي سنة ١٩٥٤، كان بعض الآباء الدومينيكان على صلة بالكهنة العمّال فمُنعوا أيضاً من التعليم: الأبوان كونغار وشني. لكنّ تحديد عقيدة الانتقال سنة ١٩٥٠ تشرين الثاني (نوفمبر) سرّ قلوب الغالبيّة الكاثوليكيّة، في حين خلق نوعاً من النفور في الأوساط المسكونيّة الأرثوذكسية والبروتستانتيّة.

قضيّة الكهنة العمّال

في فرنسا، لم يكن ممكناً أن يتجاهل المهتمّون بالكرازة انتماء قسم كبير من الطبقة الفقيرة والعمّال إلى المدّ الشيوعي حزباً ونقابات. فظنّ بعض الكاثوليك أن باستطاعاتهم الالتزام إلى جانب الشيوعيّين والتضامن معهم وتأليف اتحاد للمسيحيّين التقدّميين. في كتاب ظهر سنة ١٩٥١ «الأحداث والإيمان»، يعتبر الأب مونتوكلارا أنّ تغييراً في المجتمع يجب أن يسبق التبشير. فمنع مجمع الإيمان التعاون مع الشيوعيّة. ثم أصبحت رومة قلقة من نمط حياة والتزام الكهنة العمّال. واعتبر البابا أنّ الكهنة العمّال لم يعودوا رجال الروح، وأنّهم يشكّكون في دعوة

العلمانيّين الخاصّة، وقد أصبح الكهنة العمّال علمانيّين. ويريد بيّوس الثاني عشر أن يحافظ على كمال الكهنوت، فهو يتمنّى وجود إكليرس رسولي ولكن من دون خلق نوع جديد من الكهنة. وبالرغم من جهود الكرادلة الفرنسيّين، في أوّل آذار (مارس) ١٩٥٤، أُجبر الكهنة العمّال على التخلّي عن العمل كلّ الوقت في المصانع. من المئة كاهن عامل، خمسون فقط أبدوا الخضوع، في حين ظلّ الآخرون يتابعون العمل، شاعرين بأنّهم مرتبطون بالطبقة العمّالية التي يبدو أنّ الكنيسة قد أهملتها. فكان لهذه القضيّة تأثير عميق. بيد أنّ إعادة تنظيم إكليريكيّة «رسالة فرنسا» وخلق «رسالة العمّال» (كهنة وعمل كاثوليكي) يعنيان أنّ كنيسة فرنسا لم تتخلّ عن تطلّعاتها الأولى.

أزمات أخرى

ظهرت في فرنسا توتّرات بين مختلف حركات العمل الكاثوليكي للشبيبة (التجمّع الكاثوليكي للشباب الفرنسي). فالمزارعون والطلاّب أعاروا اهتماماً كبيراً للجهود التربويّة والإنسانيّة ظانّين أنّ حركاتهم قادرة على أن تسمها بطابعها الخاصّ، في حين تشدّد الشبيبة العاملة على التبشير وتعتبر أنّه يجب أن نقبل بموسّسات الحركة العمّاليّة التي رأت النور خارج الاهتمامات المسيحيّة. لذلك انحلّ التجمّع الكاثوليكي للشباب الفرنسي سنة ١٩٥٦.

وفي ايلول (سبتمبر) ١٩٥٧، ظهرت لأوّل مرّة قضيّة التعليم المسيحي. فطلبت رومة فصل ثلاثة مسؤولين من المركز الوطني للتعليم الديني في باريس، من بينهم جوزف كولومب. كان بعض الأصوليّين شكوا إلى رومة التعليم المسيحي التدرّجي الذي دعاه بعضهم «التقدّمي». اتّهموا طريقة كولومب بأنّها لا تعلّم الأولاد كلّ العقائد المسيحيّة منذ الصغر: الخطيئة الأصليّة، الثالوث... اتّهموه أيضاً بأنّه يجعل من الحقائق فائقة الطبيعة أموراً طبيعيّة، إذ إنه يدعو إلى الاختبار الإنساني والديني لدى الأولاد.

في نهاية حبريّة البابا بيّوس الثاني عشر الغنيّة بالمبادرات، ظهر بعض المعوّقات. بيد أن الحبريّة الجديدة والدعوة إلى المجمع ستسمح لهذه الجهود التي ظهرت بعض الحرب أن تؤتي كلّ ثمارها.

كنيسة المجمع الڤاتيكاني الثاني

(١٩٥٨-١٩٨٠)

إن معالجة التاريخ القريب خطيرة دائماً، إذ ينقصنا البعد الزمني لكي نقدّر الأحداث حقّ قدرها، التي لم تعط بعد كلّ ثمارها. ولا بدّ أن يبرز النزاع في التفاسير لشرح بعض التطوّرات. فالمطلوب هنا هو فقط إبراز بعض أحداث ذات مغزى ظهرت في العقود الأخيرة. فالمجمع الڤاتيكاني الثاني يبدو نتيجة عشرين سنة من الأبحاث الرعويّة واللاهوتيّة ونقطة تحوّل في فكر الكنيسة اللاهوتي الذي كان يستوحي المجمع التريدنتيني. فإنَّ المجمع الڤاتيكاني قد حقَّق تجديد الكنيسة في عالم يتطوّر بسرعة، وأيقظ آمالاً كبيرة. من جهة أخرى يبدو أنّ سوء التفاهم القائم بين الكنيسة والعالم قد انقشع. بيد أن صعوبات أخرى برزت للوجود. فالمجمع حرّر الكلمة وكان لا بدّ للأزمة الثقافيّة العامّة من أن تترك نتائج في قلب الكنيسة.

أوّلاً - المجمع الڤاتيكاني الثاني

١. مقدّمات

البابا يوحنا الثالث والعشرون

في ٢٨ تشرين الأوّل (اكتوبر) ١٩٥٨، خلف بيّوس الثاني عشر الكردينال رونكالّي آخذاً اسم يوحنّا الثالث والعشرين. وكان للبابا الجديد من العمر سبع وسبعون سنة وقد حسبوه بابا انتقالياً. وهو من أصل ريفي مرّ بالسلك الدبلوماسي في مراكز مختلفة. وفي سنة ١٩٥٣، أصبح بطريرك البندقيّة وطارت شهرته كرجل طيّب القلب. وخلال تنقّلاته في بلدان عدّة، ومنها فرنسا، رأى كيف أنّ العالم تطوّر كثيراً وأنّ الكنيسة غائبة في كثير من القطاعات. فأراد يوحنا الثالث والعشرون، طبقاً لروح الإنجيل، أن «يبسّط الأمور



البابا يوحنا الثالث والعشرون

المعقّدة». فتبنّى نمطًا جديداً. فهو أوّل بابا خرج من الفاتيكان منذ ١٨٧٠ فزار سجن رومة وحجّ إلى لوريتو وأسيزي. لكنّه بقي تقليدياً في بعض النواحي، إذ لم يكن ممكناً تغيير كل شيء دفعة واحدة.

إعلان المجمع

كثيرون كانوا بانتظار ما سيفعل البابا لمّا جاءت الدعوة إلى المجمع. فكانت المفاجأة العامّة. ففي ٢٥ كانون الثاني (يناير) ١٩٥٩، أعلن يوحنّا الثالث والعشرون نيّته المثلّثة في أن يدعو إلى سينودس أبرشيّة رومة وإلى تجديد الحقّ القانوني وإلى دعوة مجمع للكنيسة الجامعة. فتمسّك الناس بالنقطة الأخيرة. كان بيّوس الحادي عشر وبيّوس الثاني عشر قد فكّرا في الأمر، وإن بطريقة غامضة. ولكن كان يُظنّ أنّ عهد المجامع قد ولّى، نظراً لإعلان عصمة البابا ولسهولة الاتّصال برومة. لم يكن لدى يوحنّا الثالث والعشرين أفكار واضحة حول محتوى المجمع، فعيّن له هدفين كبيرين: تجديد الكنيسة والرسالة في عالم يتبدّل بسرعة، والعودة إلى وحدة المسيحيّين التي كان ينتظرها وشيكة، كما كان المسيحيّون الأوائل ينتظرون عودة الربّ. فهمّ الكنيسة ليس محاربة الخصوم بقدر ما هو إيجاد لغة تُكلِّم بها العالم الذي تعيش فيه والذي يجهلها. «يجب نفض الغبار الأمبراطوري» الذي يغطّي وجه الكنيسة.

إعداد المجمع

أُعدّت استشارات عامّة وأُرسلت إلى جميع الأساقفة والجامعات. وتألّفت اثنتا عشرة لجنة للإعداد، تسع منها على عدد المجامع الرومانيّة. وظنّ بعضهم أنّ المجامع الرومانيّة ستنظّم وتدير المجمع، لكن كان هناك أوجه جديدة: لجنة لرسالة العلمانيّين وأمانة سر لاتّحاد المسيحيّين يرأسها الكردينال بيا (Bea)، ومساهمة لاهوتيّين وأساقفة من بلدان عدّة لتهيئة سبعين موضوعاً كأساس للعمل. وأعدّ النظام ثلاثة أنواع من الحلقات: اللجان (الأساقفة واللاهوتيّون الخبراء) هيّأت نصوصاً وقدّمتها للجمعيّة العموميّة (جميع الأساقفة) حيث كان بإمكان كلّ اسقف أن يتكلّم (عشر

دقائق باللاتينيّة). ثمّ الجمعيّات العامّة، برئاسة البابا، التي تتبنّى النصّ نهائيًّا.

٢. سياق المجمع

الدورة الأولى (خريف ١٩٦٢): مجمع يوحنا الثالث والعشرين: من أصل ٢٨٠٠ مدعوّ من أساقفة ورؤساء عامّين، حضر ٢٤٠٠. إنّه حقًّا أوّل تجمّع كاثوليكي عالمي. كلّ القارّات والأعراق ممثّلون. بيد أن أساقفة عديدين من البلدان الشيوعيّة لم يتمكّنوا من الحضور. التجديد البارز للعيان، بالنسبة إلى المجامع السابقة، هو، وفقاً لإرادة يوحنا الثالث والعشرين، وجود مراقبين مسيحيّين أرثوذكس وأنكليكان وكاثوليك قدامى وبروتستانت... وقد ازداد عددهم من ٣١ في بدء المجمع إلي ٩٣ عند نهايته... وفي الدورات التالية كان هناك ٣٦ علمانياً من بينهم سبع نساء. يوم الافتتاح الرسمي (١١ تشرين الأوّل (أكتوبر) ١٩٦٢) نبّه يوحنّا الثالث والعشرون المجتمعين من تجربة التشاؤم والأصوليّة. في ١٣ تشرين الأوّل (اكتوبر)، طالب الكردينال تيسّران، الذي كان يرأس الاجتماع العام، بانتخاب لجان جديدة للمجمع، ممّا يعني الاستغناء عن اللجان التي هيّأت المجمع ويحمل على الظنّ أنّ المجمع ستديره آليًّا الإدارة الرومانيّة. فأخذ الكردينال ليانار الكلام، وطالب بتأجيل الاقتراع لكي يتمكّن الأساقفة من التشاور والاختيار بحريّة تامّة ومعرفة. فيستطيع مطارنة كلّ بلد عرض أسماء مرشّحين يمثّلون اتّجاهات المجمع العميقة. فظهر اتّجاهان: غالبيّة، في خط يوحنّا الثالث والعشرين، يهمّها تكيّف الكنيسة مع العالم والحوار المسكوني والعودة إلى ينابيع الكتاب المقدّس... وأقلّية، غالبيّتها من المجامع الرومانيّة وأساقفة بلدان ذات طابع مسيحي قديم (ايطاليا، اسبانيا)، همّها الحفاظ على وديعة الإيمان. طوال انعقاد المجمع، كان من المهمّ التوفيق بين الاتّجاهين، ممّا أدّى أحياناً إلى صيغة أفضل، لكنّه قاد إلى إضعاف بعض النصوص. لم تؤدِّ الدورة الأولى إلى أيّ نصّ نهائي. ففهم المجتمعون أنّهم لن ينهوا السبعين موضوعاً وقرّروا حصرها في عشرين. على كلّ حال، بدا المجمع مؤتمر أناس أحرار، لا غرفة لاعتماد نصوص معدّة سلفاً.

موت يوحنا الثالث والعشرين ومجيء بولس السادس

في نيسان (أبريل) ١٩٦٣، عرفت الرسالة البابويّة التي أصدرها يوحنّا الثالث والعشرون «السلام على الأرض» تأثيراً كبيراً، خاصّة وإنّ البابا يكلّم «كلّ الناس ذوي الإرادة الحسنة»، لا المسيحيّين وحدهم. بعد ذلك بقليل، كان العالم بأسره يتتبّع بتأثّر نزاع البابا الطويل. وقد تُوفّي في ٣ حزيران (يونيو) ١٩٦٣. وفي ٢١ حزيران (يونيو) انتُخب بابا الكردينال مونتيني، فأخذ اسم بولس السادس.

كان البابا الجديد رئيس أساقفة ميلانو وعمل قبلاً في الأمانة العامّة لدولة الفاتيكان. وكان خجولاً بعض الشيء، غير إنه متوقّد الذكاء ونشيط ومتصوّف. وبخلاف يوحنّا الثالث والعشرين، كان يبدو ضعيف البنية؛ فقرّر سريعاً متابعة أعمال المجمع.

من الرسالة «السلام على الأرض»
١١ نيسان (أبريل) ١٩٦٣

«إن تطوّر العلوم واختراعات التقنيّة يقنعاننا بأنّ هناك نظاماً رائعاً يكمن في الكائنات الحيّة وفي قوى الطبيعة. وعظمة الإنسان هي في تمكّنه من اكتشاف هذا النظام ومن صنع أدوات تستخدم هذه القوى الطبيعيّة...

لكلّ كائن بشري الحقّ في الحياة وفي الكمال الحيوي وفي الوسائل الضروريّة والكافية لحياة محترمة، وبخاصّة في حقل الغذاء والكساء والسكن والراحة والعناية الطبيّة والخدمات الاجتماعيّة...

لكلّ إنسان الحقّ في عبادة الله بحسب ما يملي عليه ضميره. وفي إشهار دينه في الحياة الخاصّة والعامّة...

لكلّ إنسان الحقّ في حريّة اختيار حالته...

لكلّ إنسان الحقّ في العمل والمبادرة في الحقل الاقتصادي...

إنّنا نعتبر إعلان حقوق الإنسان العالمي خطوة نحو خلق منظّمة شرعيّة سياسيّة للمجتمع العالمي...

لذا نتمنّى أن تستطيع منظّمة الأمم المتّحدة يوماً بعد يوم أن تكيّف بنياتها ووسائل عملها وفقاً لاتساع رسالتها وسموّها...».

مجمع بولس السادس

تطرّقت الدورة الثانية إلى عدّة مواضيع (خريف ١٩٦٣): عمل الأساقفة الجماعي والمسكونيّة والحريّة الدينيّة، وأصدرت مرسوماً في الليترجية وقراراً في الاتّصالات الاجتماعيّة.

في كانون الثاني (يناير) ١٩٦٤، زار بولس السادس الأراضي المقدّسة. منذ زمن بعيد لم يكن قد خرج بابا من إيطاليا. إنّها حجّة إلى الينابيع وبادرة مسكونيّة، إذ التقى البابا بطريرك القسطنطينيّة أثيناغوراس. وفي شهر أيّار (مايو) تأسّست أمانة سرّ لغير المسيحيّين، واقتصر عدد المواضيع على ١٧.

في الدورة الثالثة (خريف ١٩٦٤)، دار الجدل بين الآباء على الحريّة الدينيّة. واقترعوا على عدّة نصوص وأعلنوها: الكنيسة والمسكونيّة والكنائس الشرقيّة. عرض المجمع تكوين مجمع أساقفة يستشيره البابا دورياً. وفي كانون الأوّل (ديسمبر) ١٩٦٤، في رحلة إلى بومباي بالهند، تعرّف البابا إلى العالم الثالث. الدورة الرابعة والأخيرة (ايلول–كانون الأوّل/ سبتمبر–ديسمبر) ١٩٦٥ انتهت بالاقتراع وإعلان كلّ النصوص المدروسة سابقاً. في الرابع من تشرين الأوّل (اكتوبر)،

سافر بولس السادس إلى نيويورك، إلى منبر الأمم المتّحدة حيث تركت صرخته «لا حرب بعد اليوم» انطباعاً قوياً. ونهار ٤ كانون الأوّل (ديسمبر)، في احتفال مشترك، الأوّل من نوعه في تاريخ الباباوات، ودّع المجمع المراقبين غير الكاثوليك. وفي السابع من كانون الأوّل (ديسمبر) في كنيسة القدّيس بطرس في رومة، رفع بولس السادس والبطريرك أثيناغوراس الحُرم المتبادل بينهما سنة ١٠٥٤. تعدّ هذه البادرة مرحلة هامّة على طريق الوحدة. نهار ٨ كانون الأوّل (ديسمبر) ١٩٦٥، اختُتم المجمع احتفالياً وانتهى كلّ شيء في جوّ من الأمل.

٣. انفتاحات المجمع الكبرى

أراد المجمع، على وجه العموم، أن يكون مجمعاً رعوياً يتوجّه بالكلام إلى إنسان اليوم. وبالرغم من عمق التفكير العقائدي، فلم يأتِ المجمع بأي تحديدات أو إدانات، كما أنّه لم يُصدر أيّ حرم كما كانت الحال في المجامع السابقة.

علم اللاهوت يعود إلى الينابيع

يشدّد القرار حول الوحي الإلهي على وحدة الوحي، هذا التقليد الحيّ حيث لا يجوز التمييز بين الكتاب المقدّس والتقليد الشفوي. فالوحي ليس مجمّداً في نص، بل إنّه محفوظ في الشعب المؤمن الذي يكتشف دوماً غناه الجديد. والعودة إلى كلمة الله تحمل على إعادة الاعتبار، في الكنيسة الكاثوليكيّة، إلى وجهات نظر تقليديّة كادت أن تُنسى بسبب الجدل ضدّ البروتستانت أو الأرثوذكس: كهنوت المؤمنين العامّ، الكنيسة شعب الله أكثر منها مؤسسة قانونيّة، عمل الأساقفة الجماعي. هذه العبارة الأخيرة تعني أنّ الأساقفة يحملون، مع أسقف رومة، مسؤوليّة الشعب المسيحي المشتركة.

انفتاح على سائر المسيحيّين وسائر الديانات

كان إعداد القرار في «الحرية الدينيّة» من أصعب النصوص، إذ كانت وطأة قرون من الجدل ثقيلة. وكما كان في عهد غريغوريوس السادس عشر، كانت الأقليّة المجمعيّة تريد الانطلاق من الدفاع عن الحقيقة وعن الكنيسة الكاثوليكيّة كديانة حقيقيّة وحيدة. فرفضت الأكثريّة هذا الطريق المسدود وطلبت الانطلاق من الشخص البشري ومن حقوقه التي لا تُمسّ، ومن بينها حقّ الوصول بحريّة إلى الحقيقة التي يقرّها الضمير. فالحريّة قسيمة شاملة لا يمكن أن يطالب بها الكاثوليك وحدهم عندما يكونون أقليّة مضطهدة. فهي أيضاً من حقّ الأقليّات غير الكاثوليك العائشين في محيط كاثوليكي.

القرار حول «المسكونيّة» يطلب إلى الطوائف المسيحيّة المختلفة أن ينظروا أوّلاً إلى الأمور المشتركة: المسيح والإنجيل. فلا يجوز اتّهام المسيحيّين غير الكاثوليك بخطيئة الانفصال. فليعترف الكاثوليك أيضاً بنقائصهم وبمسؤوليّتهم التاريخيّة إزاء الانفصالات: هذا ما يطلبه القرار الصادر في ٧ كانون الأوّل (ديسمبر) ١٩٦٥، عن بولس السادس وأثيناغوراس. القرار بخصوص «الديانات غير المسيحيّة» هو من أجدّ جديد المجمع. حاول المجمع هنا اكتشاف ما تحتفظ به سائر الديانات من معرفة الله، بدءًا بالديانات المسمّاة بدائيّة حتّى التي تشترك في تراث الوحي التوحيدي كاليهوديّة والإسلام. «تأسف الكنيسة للبغض والاضطهادات ولكلّ مظاهر محاربة الساميّة التي، مهما كانت حقباتها وفاعلوها، وُجّهت إلى اليهود». هذا المقطع مرّ بصعوبة في إطار الشرق الأوسط الشائك.

كنيسة تحاور عالم اليوم

في قرار «نور الأمم»، يُظهر المجمع الكنيسة في سرّها: شعب الله مدعوّ إلى القداسة حيث الأساقفة والكهنة والعلمانيّون والرهبان يجدون مكانهم المميّز، وتظهر مريم في علاقتها بسرّ الكنيسة. وفي القرار «فرح ورجاء»، الكنيسة في عالم اليوم، وهو أطول نصّ في المجمع، يضع المجمع الكنيسة في حالة حوار مع العالم. عليها أن تأخذ بعين الاعتبار تغيّرات هذا العالم التي كانت أساس عدّة نزاعات وأخطاء في الماضي. كما يجب اعتبار الإلحاد كما هو والبحث عن أسبابه. بعض مشاكل العصر بُحثت بطريقة مميّزة: الزواج والعائلة، الثقافة، الاقتصاد، المجتمع السياسي، وبناء السلام.

إن تأسيس أمانة سر لغير المؤمنين (نيسان–ابريل ١٩٦٥) يعطي جواباً لهذا الاهتمام.

من القرار المجمعي «فرح ورجاء»

«إنّ مسرّات الناس وآمالهم وأحزانهم وقلقهم في هذا الزمن، ولا سيّما الفقراء منهم والمتألمين، هي ذات مسرّات وأفراح تلاميذ المسيح وآمالهم ومعاناتهم ومتاعبهم، فما من شيء إنساني حقًا إلاّ وقد وجد له صدى في قلوبهم...

إنّ كلّ ما هو حقيقي وطيّب وعادل في المؤسّسات المختلفة جدًّا التي ينشئها الجنس البشري ينظر إليها المجمع إذن بكلّ احترام.

وهو يعلن أيضاً أنّ الكنيسة تودّ معاونة ودعم هذه المنشآت في حدود وإطار ما يتّفق مع مهمّتها ورسالتها... يهيب المجمع بالمسيحيّين كمواطنين في المدينة الأرضيّة والسماويّة أن يقوموا بواجباتهم الزمنيّة بأمانة ونشاط مهتدين بروح الإنجيل. إنّ أولئك الذين يتذرّعون بأنّه ليس لنا على الأرض هويّة دائمة وأنّنا نسير نحو عالم آتٍ وبذلك يسمحون لأنفسهم بتجاهل واجباتهم البشريّة ليسوا على الصواب. فقد

فاتهم أنّ الإيمان ذاته يفرض عليهم هذه الواجبات بشكلٍ ملحّ وكلّ بحسب دعوته الخاصّة. وكذلك ليس بأقلّ خطأ أولئك الذين يسمحون لأنفسهم بنقيض ذلك... إنّ هذا الفصل الذي يقيمونه بين الإيمان الذي يدّعون الانتماء إليه والسلوك اليومي... يعدّ من أخطر أخطاء عصرنا».

عصر جديد

تقاسم كثيرون الانطباع بأنّ عصراً جديداً قد بدأ في الكنيسة: الڤاتيكاني الثاني أنهى عصر المجمع التريدنتيني. وهم يتكلّمون عن «ما قبل المجمع» و«ما بعد المجمع». ويظنّ بعضهم أنّ الكنيسة، التي عاشت أربعة قرون بحسب المجمع التريدنتيني، سوف تعيش سنين عديدة بحسب الڤاتيكاني الثاني. يكفي لهذا أن تُطبَّق النصوص! بيد أن الأمور لم تجرِ – في الواقع – هكذا تماماً. فإن إعادة النظر في تطبيق قرارات المجمع، بالإضافة إلى الأزمة الحضاريّة، أظهرت حاجة الكنيسة إلى الثبات حيث تجد اختلافات الرأي فيها تعابير أكثر حريّة.

قاموس المجمع الڤاتيكاني الثاني

أولاً: سياق المجمع

– الدورات: المراحل التي التأم فيها المجمع:
الأولى: ١٠/١٢ إلى ١٢/٨، ١٩٦٢
الثانية: ٩/٢٩ إلى ١٢/٤، ١٩٦٣
الثالثة: ٩/١٥ إلى ١١/٢١، ١٩٦٤
الرابعة: ٩/١٤ إلى ١٢/٧، ١٩٦٥

– الجمعيّات العامّة: حلقات يوميّة ١٦٨ (الآباء والمراقبون والمستمعون).

– الجمعيّات العلنيّة: حلقات رسميّة مفتوحة للجميع (الافتتاح والإعلان)

ثانياً: الأعضاء

– الآباء: جميع الأساقفة والرؤساء العامّون للرهبانيّات الرجاليّة.

– المراقبون: مندوبون عن الكنائس والطوائف غير الكاثوليكيّة.

– المستمعون: بدءًا من الدورة الثانية، ممثّلون عن العلمانيّين والراهبات

– الخبراء: لاهوتيّون دُعوا ليساعدوا اللجان أو اختارهم أساقفتهم.

ثالثًا: المسيرة

– مجلس الرئاسة: عشرة كرادلة عيّنهم البابا ليديروا الندوات في الدورة الأولى.

– المنشّطون: أربعة كرادلة يديرون الجلسات منذ الدورة الثانية.

– الأمانة العامّة: امين سرّ وخمسة مساعدين مسؤولون عن التنظيم.

رابعًا: الاقتراع: يتمّ بنعم أو لا أو بطلب تعديل: تفحص اللجان المسؤولة عن المسوّدات المطروحة لبحث طلبات التعديل. عندما يقبل المجمع المسوّدة بوجه عامّ، لا يثبت إلاّ طلبات التعديل التي قَبلت بالنصّ.

خامساً: اللجان: في بدء المجمع انتُخب عشر لجان. ينتخب الآباء ستة عشر عضواً ويعيّن البابا تسعة أعضاء وكردينالاً ليرأسها. في نهاية الدورة الثانية، وصل عدد الأعضاء إلى ثلاثين. أمانة سرّ الوحدة اعتبرت لجنة. كلّ لجنة تعيّن مقرّراً أو أكثر لعرض المسوّدة. واللجان المختلطة تضمّ مندوبين عن لجنتين أو أكثر يهتمّون بوضع المسوّدة. وبالإمكان قسم اللجنة إلى لجان فرعيّة بهدف القيام بعمل خاص.

سادساً: النصوص

– المسوّدة: كلّ نصّ يظل موضوع جدل قبل أن يُقبل نهائياً.

– الدستور: تعبير استُعمل لأربع وثائق: الليترجية، والوحي، والكنيسة، والكنيسة في العالم المعاصر.

– القرار: نصوص تبدو تطبيقاً لمبادئ أقرّها الدستور: المسكونيّة، الكنائس الشرقيّة الكاثوليكيّة، وسائل الاتّصال الاجتماعيّة، مهمّة الأساقفة، تربية الكهنة، حياة الكهنة وخدمتهم، الحياة الرهبانيّة، رسالة العلمانيّين، نشاط الكنيسة الرسولي.

– البيان أو التصريح: مبادئ وقواعد سلوك تُظهر فكر الكنيسة: علاقة الكنيسة بالديانات غير المسيحيّة، الحرّية الدينيّة، التربية المسيحيّة.

ثانياً – نتائج المجمع المرتقبة وغير المرتقبة

١. الغد الباسم

بدأت المؤسّسات التي نادت بها نصوص المجمع تظهر للوجود بسرعة في السنين اللاحقة. والمجالس الأسقفيّة، وهي إحدى علامات العمل الجماعي، تأسّست في كلّ البلدان. وقد اقتصرت أحياناً على تنظيم تجمّعات كانت موجودة. فالمجلس الأسقفي الفرنسي أخذ يجتمع سنوياً في لورد منذ ١٩٦٦، ويتوزّع الأساقفة على عدّة لجان تجتمع مرّات في السنة. مظهر آخر من مظاهر العمل الجماعي: سينودس الأساقفة الذي يلتقي حول البابا يعاونه في إدارة الكنيسة الجامعة. وقد اجتمع للمرّة الأولى في تشرين الأوّل (اكتوبر) ١٩٦٧. وهو يضمّ ١٩٧ عضواً ثلثاهم منتخبون من قِبل المجالس الأسقفيّة. إنّه نوع من الدورات الدراسيّة برنامجه غير محدّد، يشمل الأخطار التي تهدّد الإيمان، الإلحاد، الزواجات المختلطة، تجديد المدارس الإكليريكيّة، الحقّ القانوني... كذلك القول عن المجالس الرعويّة التي تتأسّس بشيء من الصعوبة في الأبرشيّات. والرهبان والراهبات يحدّدون قوانينهم وفق ما تتطلّبه حياة العصر وانطلاقاً من القرار حول تجديد وتكييف الحياة الرهبانيّة.

جاء القرار حول الليترجية نقطة انطلاق لنهضة ليترجيّة: استعمال لغة البلاد، إمكانيّة المناولة تحت الشكلين، إظهار أهميّة ليترجيّة الكلمة، القدّاس المشترك... هكذا في سنة

١٩٦٧، احتُفل بالطقوس باللغات الحيّة. قوبلت هذه التغييرات برضى عامّ، بيد أن الذين يحنّون إلى اللاتينيّة أطلقوا أولى تهجّماتهم، فكان على البابا أن يدافع عن الكردينال لركارو المسؤول عن هذه النهضة.

٢. كنيسة تخاطب العالم

يبدو أنّ الكنيسة أخذت بُعداً عالميًا، إذ أصبحت شريكة في أهمّ قضايا العالم. ورحلات البابا ولقاءاته وأعماله اكتسبت حب المسيحيّين وغير المسيحيّين. فقد ذهب إلى مقر الأمم المتحدة في نيويورك سنة ١٩٦٥ وإلى البُرتغال والى اسطنبول حيث التقى البطريرك اثيناغوارس مرةً ثانيّة سنة ١٩٦٧، ثمّ إلى جنيف وأوغندا ١٩٦٩ وإلى الشرق الأقصى سنة ١٩٧٠. وفي سنة ١٩٦٦ التقى رئيس أساقفة كانتوربري. كما جعل إدارة الكنيسة المركزيّة إدارة عالميّة تتألف من مختلف الجنسيات فأصبح الأساقفة الطليان مذّاك أقلّية.

يؤكّد البابا، في رسالته «ترقّي الشعوب» لسنة ١٩٦٧، أنّ القضيّة الاجتماعيّة أصبحت شاغلاً عالميًّا. كما يجب أن يشمل التطوّر كلّ القطاعات: الاقتصاديّة والثقافيّة والروحيّة. ويجب توجيه العلاقات الاقتصاديّة للدفاع عن البلدان الضعيفة ضدّ المنافسة الظالمة. فكان للرسالة تأثير هامّ في المجالس الأسقفيّة وفي سينودس سنة ١٩٧١. كما أنّ بعض مسيحيي البلدان الشماليّة أخذوا ينتقدون المجتمع الاستهلاكي وتبديد الموارد العالميّة.

٣. توتّرات سنة ١٩٦٨

على البعد، تبدو سنة ١٩٦٨ سنة فاصلة، لا في المجتمع الفرنسي فقط، بل في كنيسة ما بعد المجمع أيضاً.

أيّار (مايو) ١٩٦٨ في فرنسا وسواها:

ولدت اضطرابات أيّار (مايو) ١٩٦٨، في فرنسا، في الجامعة، وامتدّت إلى المصانع حتّى انتهت إلى المجتمع كلّه بما فيه الكنيسة. فانتُقدت المؤسّسات الكنسيّة وشرع المسيحيّون يتناوبون الكلام في الكنيسة. «ها إن الشارع دخل الكنيسة»، «الروح القدس اعتلى الحواجز». وها أسقف باريس، الكردينال مارتي، يُعلن: «إن الله ليس محافظاً». والكهنة يجتمعون للتحاور. كأن إحدى وظائف الإيمان هي الاعتراض على المجتمع. وفي الوقت ذاته، يتّهمون الكنيسة بأنّها ضامنة للنظام القائم. في نظر البعض، لا يسير تطبيق المجمع بالسرعة المطلوبة، فيجب حثّ الخطى. في نهار العنصرة ١٩٦٨، احتفل عدد كبير من المسيحيّين والكهنة بأفخارستيّا مشتركة للإسراع في وحدة الكنائس، في حين ترك كهنة عديدون الكهنوت بحجّة العودة به إلى خضمّ الحياة البشريّة في الزواج والعمل والالتزام السياسي.

رسالة «الحياة البشريّة»

لم يبحث الآباء في المجمع موضوع تنظيم النسل. إذ أراد البابا أن يحتفظ بالموضوع لنفسه. وقد أسند الدراسة إلى لجنة تميل إلى الحدّ من الموقف التقليدي في الكنيسة بخصوص منع الحمل. لكنّ البابا لم يتبع كا نصائح اللجنة وفي رسالته «الحياة البشريّة» (تموز(يوليو) ١٩٦٨)، رفض كلّ الطرق غير الطبيعيّة لمنع الحمل. فلقيت الرسالة تذمراً، لا من قِبَل غير الكاثوليك فقط، بل من قِبَل العديد من الكاثوليك في البلدان المتطوّرة. أمّا العالم الثالث فاستقبلها بطريقة أفضل.

وأخذ الاعتراض أوجهاً عديدة: رأى الكثيرون في الرسالة أنّ السلطة في الكنيسة لم تُطبَّق جماعيًّا. كلّ المواضيع الدقيقة (تحديد النسل، رعاية المطلَّقين، تبتّل الكهنة...) لم تخضع لدراسات المجمع والتطبيق الجماعي. وقد عبّر بعض الأساقفة، ومنهم الكردينال سوانِنس، عن تحفّظهم.

أُخذ على الرسالة أنّها لم تنطلق من الشخص البشري، بل من وجهة نظر بيولوجيّة. وفكرة «الطبيعة» التي يرتكز عليها الموقف الروماني لا تخلو من اللبس. هل توقّف الإنسان يوماً عن تحسين الطبيعة وهو غالباً ما يجاهد ضدّها (كوارث طبيعيّة، أمراض، موت)؟ من هنا فإنّ كثيرين من الكاثوليك لم يقرّوا بأنّ الرسالة موجّهة إليهم. وهذه إشارة إلى تراجع في السلطة البابويّة. فالمسيحيّون، وبأولى حجّة غير المسيحيّين، يستصعبون يوماً بعد يوم قبول سلوك محدّد من علُ عن طريق

تنمية وتحرير

من رسالة «ترقّي الشعوب» لبولس السادس

١٩٦٧

«إنّ الحدث الكبير لعصرنا الحاضر هو أنّ المشكلة الاجتماعيّة قد أصبحت عالميّة... هناك حالات من الظلم تصرخ إلى السماء... هناك شعوب بكاملها محرومة من كلّ إمكانيّات المبادرة الشخصيّة ومن كلّ مسؤوليّة...

إنّ التقدّم الذي نحن بصدده لا يقتصر على مجرّد النمو الاقتصادي، بل يجب، لكي يكون أصيلاً، أن يكون شاملاً، أي أن يرتقي بكلّ إنسان وبالإنسانيّة كلّها... يجب بناء عالم يعيش فيه الإنسان، كلّ إنسان، بصرف النظر عن عرقه أو دينه أو قوميّته، حياة إنسانيّة حقّة متحرّرة من كل العبوديّات المتأتّية عن الناس أو عن طبيعة لم تخضع بعد للإنسان... وإذا كانت التنمية هي الاسم الجديد للسلام، فمن يرفض أن يعمل لها بكلّ قواه؟».

سلطة خارجيّة. والبعض يرفضون اسناد حقّ الكلام إلى «شيوخ عازبين» يتكلّمون في أمور لا تهمّهم.

مدلاّن (Medellin) وولادة «لاهوت التحرير»

في شهر آب (اغسطس) ١٩٦٨، زار بولس السادس كولومبيا (بوغوتا ومدلان) بمناسبة انعقاد مجلس أساقفة أميركا اللاتينيّة. وهناك أعلن: «للسلام اسم هو الإنماء»، كما أنّه أدان بعنف حركات التحرير. بيد أنّ فلسفة الإنماء، في نظر الكثيرين، تقود إلى الفشل، لأنّها تدعم رأسماليّة الشركات العالميّة المتمركزة في اميركا الشماليّة والتي تدعمها أنظمة اميركا اللاتينيّة العسكريّة. فالكنيسة متّهمة دائماً بأنّها محافظة وبأنّها متضامنة مع هؤلاء. في سنة ١٩٦٦، مات الأب كاميليو تورز الكولومبي في حرب العصابات في معارك التحرير. ويقول لاهوتيّو التحرير إنّ على المسيحيّين أن يشاركوا في هذه الحروب بغية الحصول على العدالة في سبيل الفقراء. ولا يقتصر هذا الجهاد على الحروب المسلّحة. وإن كان هناك من ظلم، فلأنّ البنى السياسيّة والاقتصاديّة هي التي تفرضه. لذا يجب مقاومة هذه البنيات.

كان لهذه الآراء المعارضة ردود فعل لدى المحافظين والأصوليّين الذين يحمّلون المجمع مسؤوليّة هذا الغليان. شعر بولس السادس بالألم أمام هذا كلّه وعبّر عنه مرّات عديدة في السنين التالية: «تجديد، نعم؛ تبديل، لا». «كان ظنّنا أنّ ما بعد المجمع سيكون أياماً مشمسة، فإذا بالغيوم والعواصف والظلام» سنة ١٩٧٢.

ثالثاً – خيبة ورجاء

١. ضعف الديانة وعودة الروح الدينيّة

كان الظنّ أنّ المجمع قد جعل الكنيسة أشدّ جاذبيّة. لكنّنا نرى في السنين اللاحقة تأخراً واضحاً في الممارسة الدينيّة وفي التمسّك بالسلوك المسيحي، أقلّه في الغرب. مثل فرنسا واضح تماماً وإن لم يكن وحيداً. في الخمسينات كان ٣٠٪ من الفرنسيّين يشاركون في قدّاس الأحد. سنة ١٩٦٦، ٢٣٪. سنة ١٩٧٢، ١٧٪. وفي الثمانينات، ١٢٪. طبعاً تختلف هذه الممارسة من منطقة إلى أخرى وليست الحسابات سهلة. الهبوط في عدد الأطفال المعمّدين ظاهر أيضاً وإن كان أقلّ أهميّة. وهبوط سماع التعليم المسيحي أكثر بروزاً. أمّا قلّة عدد الكهنة فجليّ: من ٤٠,٠٠٠ كاهن أبرشي سنة ١٩٦٥ إلى ٣٦,٠٠٠ سنة ١٩٧٥ و ٢٨,٠٠٠ سنة ١٩٨٥. تكريس الراهبات بلغ الألف سنة ١٩٥٠ ونزل إلى ٥٠٠ سنة ١٩٦٨ وإلى ١٠٠ مؤخّراً. ويسترعي الانتباه عدد الكهنة الذين يتركون خدمتهم الكهنوتيّة ليتزوّجوا أو ليلتزموا سياسيّاً واجتماعيّاً (خمسة او ستّة آلاف). الزيجات الدينيّة أصبحت قليلة أيضاً: ونسبة الطلاق قفزت من ١٠٪ سنة ١٩٦٣ إلى ٢٠٪

سنة ١٩٧٩ وإلى ٣٣٪ سنة ١٩٨٥. مساكنة الشبّان والشابّات تعني أيضاً انعدام الأخلاق المسيحيّة التقليديّة.

تضارب التفاسير

هذه هي الأرقام، أمّا التفاسير فتتضارب. يرى علم الاجتماع الديني، الذي بدأ أعماله قبل المجمع بزمن على يد لوبرا وبولار (Lebret et Boulard)، أنّ تقهقر السلوك الديني في أوروبا نابع من انتشار ظاهرة «روح العالم» المتصاعدة منذ القرن التاسع عشر. فالكنيسة لم تفهم المجتمع الجديد الذي اتخذ بناه خارجاً عنها. فقد سقط الحائط الأخير. ولكن يمكن البنيان على أسسه. ويرى بعضهم الآخر، على عكس ذلك، أنّ الانحطاط بدأ بسرعة في الستّينات، فكأن الأزمة آنذاك ثمرة مبادرة تعيسة، أي ثمرة المجمع. فقد عكّر صفو الكنيسة قلّة من الناس يدّعون أنّهم تقدّميون: لاهوتيّون، وعلماء طقوس، علمانيّون من حركات العمل الكاثوليكي. ففقدت الجماهير ثقتها بالكنيسة التي تطلب إعداداً طويلاً للوصول إلى الأسرار، وبُدِّلت ليترجية آبائنا القويمة بخزعبلات عقلانيّة. ومرّة ثانيّة أدانت الأقليات المستنيرة ردّات الفعل الشعبيّة هذه. والنتيجة أنّ الجمهور لم يفقد إيمانه المسيحي، بل ابتعد عن الكنيسة أو أُبعد عنها.

لا شكّ أنّ هناك مجموعة كبيرة من المواقف: فالأصوليّون، على طريقة المطران لوفافر (Lefebvre)، ترفض المجمع رفضاً باتاً ولا ترى في الأزمة الكنسيّة سوى قضيّة داخليّة في الكنيسة، أي هدماً ذاتياً من دون أن يكون هناك أيّة علاقة بقضايا المجتمع المعاصر العامّة. وغيرهم، وقد كانوا لاهوتيّين فاعلين في المجمع، يتكلّمون على تفسير خاطئ للمجمع ويطالبون بتقبّل صحيح له. مع ذلك فهم يُقرّون بأنّ الكنيسة تواجه ردّ فعل لأزمة عامة في الحضارة الغربيّة. لا شكّ أنّ الكنيسة فقدت شيئاً من هيمنتها على المجتمع، وأنّ المجمع الفاتيكاني الثاني، الذي حرّر الكلمة، سمح بقيام أنشطة في الكنيسة آتية من الخارج: «ما كانت المؤسّسات السابقة للمجمع تتمسّك به بداعي الخوف والضغط المعنوي، لم يتمكّن زمن ما بعد المجمع الإبقاء عليه بقوّة الإقناع الداخلي». هل بدأت المؤسّسات المجمعيّة تعمل بسرعة وبطريقة سلطويّة في نظر مسيحيّين لم يُعدّوا كفاية للأمر؟ انعدام البعد الزمني لا يسمح لنا بحكم نهائي. فهذه الأزمة لم تُدرس بعد.

عودة الروح الدينيّة

في مقابل تقلّص الممارسات الدينيّة، ظهر منذ السبعينات عودة إلى القدسيّات والتديّن: كانت سنة ١٩٦٨ في فرنسا بدء غسل كامل للأفكار. فالعلوم والفلسفة ولا سيّما الماركسيّة، والسياسة والأنشطة الرسميّة، لا تعطي أجوبة مرضية لتساؤلات الناس وقلقهم. فعادت الروح الدينيّة ولكن مع التباسات

كثيرة. فغالبًا ما تدفع إلى اللامنطقي وإلى قدسيّات بعيدة كلّ البعد عن الدين المسيحي. فتبنّي الأفكار الشبه دينيّة يبقى كبيراً: عرافة، تنجيم، باطنيّة، ممارسة العلوم الخفيّة، تعدّد البدع، هو من هذا القبيل. يريد بعضهم أن يرى في عودة الروح الدينيّة حظًا للمسيحيّة. كما قامت حركة حول شخص يسوع لا علاقة لها بالكنائس: أوبرا–روك حول يسوع، يسوع المسيح نجم مثالي، «غودسبل» (سنة ١٩٧٢) الذي أثّر في الكردينال دانييلو. ثم هناك الملصقات والكتابات: «يسوع يخلّص»، «يسوع يحبك»...

وفي الكنائس بالذات، دخل تطوّر الحركات العَنصَريّة البروتستانتيّة الكنيسة الكاثوليكيّة آخذة اسم «المواهبيّة»: في سنة ١٩٦٧ في الولايات المتّحدة، وسنة ١٩٧١ في أوروبا، حلّت العاطفة والانفعاليّة محل العقلانيّة والسياسة: الظواهر الغريبة، التكلّم بلغات، عجائب الشفاء، حضور الشيطان... كل هذا عاد بقوّة. وبشكل آخر، أخذت حركة تيزيه تجمع جمهوراً من الشباب من كلّ البلدان ممّن لهم علاقة بمجمع الشباب (١٩٧٤). وشرعت الأديرة التأمّلية تجذب الكثيرين. أظهر استقصاء أوروبي أنّ التديّن يبقى في كلّ البلدان واقعًا اجتماعياً ويعطي علامة على ذلك أهميّة الشخصيّات الدينيّة في وسائل الإعلام: مارتن لوثر كنغ، الأم تريزا، يوحنا بولس الثاني. وأصبحت الديانات الشعبيّة تعطي علماء الإجتماع مادّة جديدة. وصارت



مارتن لوثر كينغ، زعيم الزنوج

مواسم الحجّ، التي تشبه أحيانًا نوعًا من السياحة التقويّة، تجتذب الجماهير. هل هذه العودة إلى التديّن تعويض عن التقلّص الذي ذكرناه سابقًا؟ من السابق لأوانه الجزم بذلك.

٢. السير على طرقات خطّها المجمع

انفتاح على العالم

كان البابا بولس السادس قد قال في نيويورك إنّه «خبير في الأمور الإنسانيّة»: «ديننا هو دين الإنسان»... أظهر البابا اهتمامه بالقضايا العالميّة في رحلاته وفي دفاعه عن حقوق الإنسان والعدالة، فولدت الفروع الوطنيّة للجنة «عدالة وسلام» سنة ١٩٦٧، وهي تكرّس عملها لهذه القضايا. كما ان إرادة المسيحيّين

وحضورهم وعملهم في كلّ ميادين الحياة صاروا يجسّدونها بالتزامهم السياسي الاجتماعي، وغالبًا ما ينتج عن التعدّدية في الالتزام توتّرات بين المسيحيّين. فالانقسامات السياسيّة والاجتماعيّة تمرّ في قلب الكنيسة. والتمييز بين الروحي والزمني لا يبدو دائمًا ممكنًا أو سهلاً. فبعض حركات العمل الكاثوليكي تتمنّى التأكيد على اختيار سياسي دقيق. فيتسبّب كلّ هذا في جدالات جديدة. وقد أثّر يوحنا الثالث والعشرون تأثيراً بالغًا عندما استقبل صهر خروتشوف، ففتح بذلك بابًا على الشرق تبعه فيه بولس السادس، الذي أسند المضيّ قدماً بهذه المهمّة إلى المطران كازارولي. كما عادت العلاقات الدبلوماسية مع يوغوسلافيا (١٩٧٠). ولاقت قضيّة الكاردينال مندزنتي رئيس أساقفة المجر حلاً سنة ١٩٧١. وقد استقبل بولس السادس مراراً مسؤولين سوڤياتيّين. وعندما توقّف في هونغ كونغ سنة ١٩٧٠، حيّا الصين «فالمسيح هو لها أيضاً الفادي الحنون».

لهذا الانفتاح تأثير على مصير كاثوليك البلدان الشرقيّة حيث يستطيع البابا مرة أخرى تعيين أساقفتها. لكنّ المساومات المضنية تتوقّف عادة عند حريّة العبادة.

المسكونيّة

فتح المجمع أمام الكاثوليك طريق المسكونيّة واسعة. كان بولس السادس قد التقى عدداً



لقاء البابا بولس السادس
والبطريرك أثيناغوراس الأول، في أورشليم

كبيراً من مسؤولي الكنائس المسيحيّة: بطريرك القسطنطينيّة، بابا الأقباط، رئيس أساقفة كانتوربري، وغيرهم. فتلطّفت القوانين الكاثوليكيّة بخصوص الزواجات المختلطة؛ فلم يعد الزوج غير الكاثوليكي يشعر بنوع من الإذلال كما في الماضي. ومن دون أن تكون الكنيسة الكاثوليكيّة عضواً في مجلس الكنائس المسكوني، فإنّها ترسل مراقبين إلى اجتماعات المجلس الكبرى وتتابع أعماله بانتباه، فإنَّ مشاكل هذا المجلس قريبة من مشاكل الكاثوليك: إنّه يدعم الشعوب المجاهدة في سبيل التحرير (افريقيا الجنوبيّة...). لذا اتُّهم بالتسيّس وتركه بعض أعضائه. كما أنّ المجلس لاقى اعتراضات من الشباب في اوبسالا سنة ١٩٦٨:

نادت «قليل من الأوراق والخطب وكثير من الأعمال»!

على مستويات مختلفة وفي بلدان عدّة، أُعدّت وثائق مشتركة بين الكنائس. ففي سنة ١٩٧٣، نشر المجلس الدائم لأساقفة فرنسا ومجلس اتّحاد البروتستانت مذكّرة مشتركة بموقفهما من تجارة السلاح. وفي سنة ١٩٧٢ لاقت الترجمة المسكونيّة للكتاب المقدس نجاحاً باهراً. ونشرت مجموعة دومب عدّة وثائق تعرض اتّفاقاً لاهوتياً بين البروتستانت والكاثوليك حول أكثر من موضوع: نحو إيمان إفخارستيا واحد (١٩٧١-١٩٧٢)، وحول اتفاق الخَدمات (١٩٧٣)، الخدمة الأسقفيّة (١٩٧٦)، الروح القدس ثمّ الكنيسة والأسرار (١٩٧٩)، خدمة المناولة في الكنيسة الجامعة (١٩٨٦).

ومع ذلك فهناك شعور باستنفاد الطاقة على صعيد المسكونيّة الفكريّة. وتتمنّى الأجيال الشابّة أن تكون هناك أعمال مشتركة عديدة تسبق الوحدة العقائديّة.

الكرازة بالإنجيل

كان موضوع اجتماع سينودس ١٩٧٤ «الكرازة بالانجيل للعالم المعاصر». هناك طرق عديدة لمواجهة الموضوع. فأساقفة البلدان المتقدّمة يفكّرون خاصّة بقضايا التعلمن والابتعاد عن المسيحيّة والإلحاد، في حين أن أساقفة افريقيا وآسيا مهتمّون بتبشير غير المسيحيّين بلغة تحترم ثقافاتهم. وأساقفة أميركا اللاتينيّة يحاولون خلق رابطة بين الكرازة والتحرير الاقتصادي والسياسي. لذلك يصطدم واجب الكرازة بصعوبة انتشار المسيحيّة الواسع في بلدان عديدة.

لم يجد السينودس حينئذٍ عرضاً موحّداً لهذه الآراء فأسند إلى البابا أمر وضعه. فنشر بولس السادس في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٧٥ الإرشاد الرسولي «واجب الكرازة بالإنجيل» أي «تبشير إنسان اليوم». يعود البابا إلى الوثائق المجمعيّة التي كانوا يعيّدون ذكراها العاشرة، ويستند الى دراسات الأساقفة، فهو يبحث، بطريقة لبقة، كلّ عناصر الكرازة في العالم المعاصر: ضرورة الكرازة بالرغم من الإحباط وبدون التناقض، مع احترام الحريّة الدينيّة؛ كرازة تأخذ بعين الاعتبار الثقافات القائمة (تأقلم المسيحيّة)، العلاقة بين التبشير

على الإنجيل أن ينثقف

«تبدو لي ملّحة عودة المسيحيّين إلى ذواتهم، الى محيطهم، إلى ثقافاتهم، إلى إخوتهم، وحملهم على إيجاد شخصيّتهم المميّزة. لم يعد ضروريًّا أن يكون الاهتداء إلى المسيحيّة مناسبة لهجر الديانة الأصليّة. نردّد دوماً عندما يهتدي يهوديّ إلى المسيحيّة أنّ المسيحيّين ازدادوا واحداً ولا نقول إنّ اليهود نقصوا واحداً. هذا ما يجب أن يقال

بخصوص الجميع. إن أراد هندوسي أو مسلم أن يصبح مسيحيًّا، فلا بأس بذلك شرط أن يكون ذلك لدواعي صافية وانطلاقاً من وعي لما يحدث. لكن يجب ألاّ يحملهم ذلك على قطع علاقتهم بالهندوسيّة أو بالإسلام. بل على العكس، فليكن لهم ذلك طريقة خصبة لاحترام تقاليدهم والتقيّد بالقيم التي يحملونها... فلندع الروح يغيّر قلب الهندوسي والمسلم والمسيحي الذي كان لنا في الأمس والذي نحن عليه اليوم، وليستخدمنا كما يريد لكي نساعد الغير على التغيير:

ما أروع هذه الدعوة وهذا البرنامج!»

(سرج دي بوركاي)

والتحرير، دور الجماعات الأساسيّة ... «يجب أن تصبح كنيسة القرن العشرين أكثر كفاءة بتبشير إنسان القرن العشرين... وإنّه لفرح أن نكرز ولو زرعنا بالدموع».

٣. الكنيسة الجامعة

الكنائس المحلّيّة – كنيسة رومة

لن ننتهي من إحصاء أزمات وآمال كنيسة اليوم. إنّما هناك مفتاح يسمح بفهم هذه الأمور، وهو هذا التوتّر القائم بين شموليّة الكنيسة والرسالة الإنجيليّة من جهة، وبين الكنائس المحلّيّة من جهة أخرى. وقد أظهر سينودس سنة ١٩٧٤ هذا الواقع. إن سرعة الاتّصال وتعدّد وسائل الاعلام تبدو وكأنّها تسهّل خلق لغة عالميّة في الكنيسة وفي العالم. لكن الواقع هو غير ذلك. فالخصوصيّات، أو بمعنى أصحّ، الميزات المحلّيّة تزداد تشدّداً، لاسيّما عندما نتّهم اللغة العالميّة بأنّها لغة الغرب المهيمن.

تغيير جغرافية الكنيسة

تفقد كنيسة الغرب شيئًا فشيئًا هذه الهيمنة شبه المطلقة التي مارستها منذ البدء. ففي نهاية القرن العشرين، ينتقل مركز الكنيسة نحو الجنوب أو الشرق أو الغرب. فالتزايد السكّاني في افريقيا يعطي هذه القارة مكانًا في الكنيسة لا يزال يكبر. ولكن أكثر من نصف الكاثوليك موجودون في أميركا اللاتينيّة. فالبرازيل اليوم هي أكبر بلد كاثوليكي في العالم. وفي الشرق، نرى أنّ بولندا، بجمهورها التقي الممارس، وبالبابا الذي هو ابنها، تعرض نمطًا كنسياً مدعوّاً للعب دور يزداد أهميّة في العالم الكاثوليكي.

مراكز اهتمام مختلفة

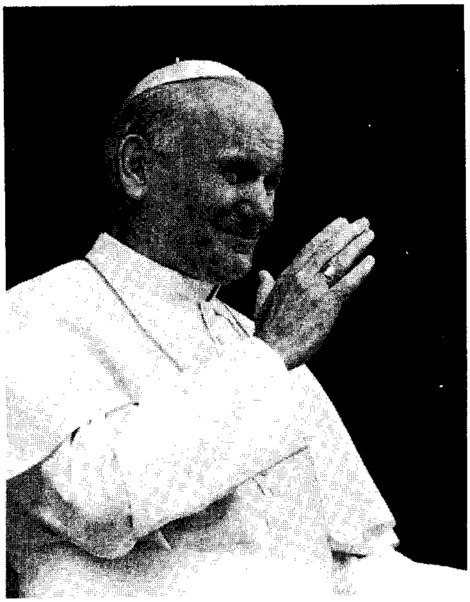
لكلّ قطاع كبير في الكنيسة مراكز اهتمام وأولويّات خاصّة به. فكنيسة الغرب مهتمّة بقضايا التعلمن والبحث عن سلّم قيم، وذلك بفضل نهضة أخلاقيّة. وكنيسة أميركا اللاتينيّة

مدعوّة الى مواجهة البؤس والاستغلال الاقتصادي والثورة الاجتماعيّة. فالنزاعات اللاهوتيّة النظريّة قلّما تهمّ مسيحيي أميركا اللاتينيّة، ولاهوت التحرير يرفض أن يقلّد أوروبا. في الغرب، أصبح التعلمن مقبولاً على نطاق واسع كما بدأوا يتخوّفون من المقدّسات.

أمّا في بولندا، فالنزعة الاكليريكية والاكثار من المقدّسات هما في أساس النظام الكنسي وشرط من شروط استمرارها. فلو عاشت كنيسة بولندا مثل كنيسة فرنسا، لاختفت من الوجود في سنوات قليلة. ولو كانت كنيسة فرنسا على مثال كنيسة بولندا لخلقت مرّة أخرى حركة معادية للإكليرس كالتي كانت في بدء القرن العشرين. كما أنّ هناك عدّة تناقضات. فالعلاقات بين طوائف دينيّة مختلفة في الغرب تبقى بوجه العموم مهذّبة، لكنها في الشرق الأوسط مرادفة لعدم التسامح والحرب الأهليّة. أمّا في الغرب فهناك مجالات أخرى لعدم التسامح. وإذا ما أضفنا التوتّرات داخل الكنائس المحليّة لأسباب لاهوتيّة أو سياسيّة، فهمنا صعوبة إيجاد كلام واحد للكنيسة الجامعة. وإن استعمل المسؤولون الروحيّون لغة روحيّة أو عقائديّة أو تقويّة تبدو مناسبة للجميع، فهذه اللغة تبقى غير قادرة على الجواب في الظروف الراهنة.

تجديد الحكم المركزي في الكنيسة

تجديدات الإدارة الكنسيّة الرومانيّة حاولت أن تجيب، ولو جزئيًّا، على هذه المشاكل. في سنة ١٩٦٨، حدّدت القوانين الأساسيّة للكنيسة مبادئ حكم مركزي. ذكرنا أنّ الكرادلة ينتمون الآن إلى كلّ البلدان. وأهمّ من ذلك أنّ الحكم ذاته أصبح عالميًّا، إذ لم يعد أعضاؤه إيطاليّين يختار بعضهم بعضاً فحسب. فاستلم كرادلة من كل البلدان أعلى المسؤوليّات: الكردينال الفرنسي ڤيوّ أصبح امين سرّ الدولة؛ والمفردات ذاتها تحسّنت. فالمجمع المقدّس أو محكمة التفتيش أصبح مجمع عقيدة الإيمان. تحدّد سنّ الإحالة إلى التقاعد وفُرض على الموظّفين، وقد شدّدوا على طريقة



البابا يوحنا بولس الثاني

الخدمة، كما إن ممارسة العمل جماعيًّا في المجالس الأسقفيّة، وسينودس الأساقفة الذي اجتمع سبع مرّات وضع حداً للمركزيّة الرومانيّة وخلق نوعاً من التوازن. ومع ذلك فبعضهم يتكلّمون على خيبة الأمل، إذ بوسع النظام الروماني وضع يده على الموسّسات المجمعيّة، كما أنّ الموظّفين غير الإيطاليّين في رومة لا يلبثون ان يصبحوا رومانيّين.

طبعت كلّ خصائص حياة الكنيسة هذه نهاية حبريّة بولس السادس الذي عبّر غالبًا في سنواته الأخيرة عن قلقه وأحيانًا عن حزنه. هذا الوضع يفسّر انتخاب يوحنا بولس الأوّل ثمّ يوحنّا بولس الثاني سنة ١٩٧٨. اختار الكرادلة في شخص يوحنّا بولس الأوّل رجل المصالحة، راعيًا يهتم بالفقراء وفي الوقت عينه إنسانًا لا ينتمي إلى الديوان الروماني، ولكنّه إيطالي مستقلّ بالنسبة إلى الفريقين. أمّا انتخاب الكردينال ڤويتيلا فجاء نتيجة للتوزيع العالمي للكرادلة. وهو يعني استقلال الكنيسة عن السياسة الإيطاليّة وعن الكنائس الغربيّة. ولمعرفة تاريخ حبريّة يوحنّا بولس الثاني، فليراجع القارئ الصحافة اليوميّة

طريق يمتدّ إلى عشرين قرنًا

لا يوجد خاتمة أو نهاية لتاريخ الكنيسة كما هي الحال بالنسبة إلى الأُسَر في مصر القديمة أو الملكية في فرنسا. فما بدأ يوم العنصرة سنة الثلاثين لا يزال مستمراً. لقد مشينا الطريق مع مسيحيّين عديدين وتأثّرنا بشجاعة بعضهم وبتردّدات بعضهم الآخر، كما شعرنا بمأساة بعض الأوضاع. إن الأمانة لإنجيل يسوع هي ثمرة روح العنصرة، وهي تسمح للمسيحيّين اليوم أن يتمسّكوا بالتقليد الحيّ وأن ينقلوا الوديعة التي تسلّموها تحت أشكال متجدّدة في عالم يتغيّر. لاقى مسيحيّو الأمس صعوبات الأمس. فعلى مسيحيّي اليوم أن يفعلوا ما فعل اولئك.

جداول تاريخية

السنة	الأحداث السياسية والدينية
٣٠	موت يسوع وقيامته – العنصرة .
٣٦	استشهاد اسطفانس .
٣٧	اهتداء شاول الطرسوسي .
٤٥	رحلة بولس الأولى .
٤٩	«مجمع» اورشليم
٥٠	طرد اليهود من رومة – رحلة بولس الثانية .
٥١	بولس في قورنتس .
٥٣	رحلة بولس الثالثة .
٥٨	اعتقال بولس في اورشليم وسجنه في قيصرية
٦٠	نقله الى رومة – تحت الحراسة
٦٤	اضطهاد نيرون ، واستشهاد بطرس (؟)
٦٧	استشهاد بولس في رومة (؟)
٧٠	تدمير اورشليم والهيكل عن يد القائد طيطس .
٧٩	ثورة بركان فيزوف ، تدمير بومبي .
٩٥	نفي يوحنا في جزيرة بطمس ، اقليمنضس اسقفًا لرومة .
١٠٠	موت يوحنا (؟)
١١١	اضطهاد في بيثينية : رسالة بلينس الى طرايانس .
١٣٢	ثورة اليهود الجديدة .
١٦١	استشهاد بوليقربس في ازمير (أو ١٦٩) .
١٦٣	استشهاد يسطينس في رومة .
١٧٠	بداية البدعة المونطانية .
١٧٧	شهداء ليون ، ايريناوس يصبح اسقف ليون .
١٧٩	اهتداء أبجر ملك اورفا (نصيبين) (؟)
١٩٠	الجدال حول عيد الفصح في زمن بقطر اسقف رومة
١٩٧	حرب أهلية : سبتيمُس ساويرس ينهب ليون
٢٠٢	اضطهاد سبتيمس : تحريم التبشير اليهودي والمسيحي
٢١٢	مساواة كل المواطنين الأحرار من الأمبراطورية في حقوق المواطنة
٢١٧	قاليسطس اسقفًا لرومة وانشقاق هيبوليطس .
٢٢٦	بداية حكم الأسرة الساسانية في بلاد فارس .
٢٣٥	اضطهاد ترحيل بنطيانس اسقف رومة وهيبولنطس .
٢٤١	شهبور ، شاه الفرس .
٢٤٢	بداية تعليم ماني .
٢٤٩	قبريانس اسقفًا لقرطاجة .
٢٥٠	اضطهاد عام ، استشهاد فابيانس اسقف رومة .

الكتّاب المسيحيون وغير المسيحيين

ما بين النهرين	سورية وفلسطين	مصر	اليونان وآسية الصغرى	افريقيا الشمالية	ايطاليا–غاليا اسبانيا
ماني	يوسيفس	«الرسالة الى ديوغنيطس»	افلوطرخس	طرطليانس	سينيكا
	«الذيذاخة»	«رسالة برنابا»	ابكتانس	قبريانس	اقليمنضس الروماني
	اغناطيوس الانطاكي	اقليمنضس الاسكندري	بوليقربس		هرماس
	يسطينس	اوريجانس	قلطيوس		تاقيطس
	لوقيانس	افلوطين	ميليتون		ايريناوس
					هيبوليطس

الأباطرة الرومان

- طيباريوس (١٤–٣٧)
- قاليفولا (٣٧–٤١)
- قلوديوس (٤١–٥٤)
- نيرون (٥٤–٦٨)
- ڤسبازيانس (٦٩–٧٩)
- طيطس (٧٩–٨١)
- دومطيانس (٨١–٩٦)
- طرايانس (٩٨–١١٧)
- هدريانس (١١٧–١٣٨)
- انطونينس (١٣٨–١٦٢)
- مرقس أوريليوس (١٦٢–١٨٠)
- قومّوديوس (١٨٠–١٩٢)
- سبتيمس ساويروس (١٩٣–٢١١)
- قرقلاّ (٢١١–٢١٧)
- ساويرس الكسندر (٢٢٢–٢٣٥)
- مكسيميانس (٢٣٥–٢٣٨)
- داقيوس (٢٤٩–٢٥١)

السنة	الأحداث السياسية والدينية	ما بين النهرين	سورية وفلسطين	مصر	اليونان وآسية الصغرى	افريقيا الشمالية	ايطاليا–غاليا اسبانيا	الأباطرة الرومان
٢٥١	قورنيليوس اسقفًا لرومة ، انشقاق نوفاطيانس .							فاليريانس (٢٥٣–٢٦٠)
٢٥٦	مجمع قرطاجة حول معمودية الهراطقة .					قبريانس		
٢٥٧	اضطهاد عام : اعتقال رؤساء الكنيسة .			افلوطين				
٢٥٨	استشهاد قبريانس ، واسقف رومة سكستس .							
٢٥٩	شهبور يأسر الامبراطور ڤاليريانس .							
٢٦٠	منشور التسامح مع المسيحيين .							غاليانس (٢٦٠–٢٦٨)
٢٦٨	الحكم على بولس الشميشاطي في مجمع انطاكية .							
٢٧٠	انطونيوس في البرية (؟)							أوريليانس (٢٧٠–٢٧٥)
٢٧٧	غزوات البرابرة في الشمال واستشهاد ماني .	ماني						
٢٨٠	اهتداء تيريدات ، ملك ارمينيا .							
٢٨٤	ديوقلطيانس امبراطوراً .							ديوقلطيانس (٢٨٤–٣٠٥)
٢٨٥	مكسيميانس يشارك في حكم الامبراطورية بصفة							
٢٩٣	«أوغسطس» .							مكسيميانس
	قسطنسيوس كلور وغاليريوس يشاركان في الحكم							
٢٩٧	بصفة «قياصرة»							حكم ثلاثي
٣٠٣	منشور اضطهاد المانويين .							
٣٠٤	منشورات اضطهاد المسيحيين .							
٣٠٥	مناشير جديدة .							
٣٠٦	استقالة ديوقلطيانس ، الحكم يصبح ثلاثيًا .	اوسابيوس القيصري						
٣١١	قسطنطين امبراطوراً في غاليا ، فوضى وحرب أهلية .	برفيريوس				لاكتنسيوس		
٣١٢	منشور غاليريوس بالتسامح .							
٣١٣	انتصار قسطنطين عند قنطرة ملفيوس .							
	السلام الشامل في الكنيسة .							قسطنطين – ليقينيوس

السنة	الأحداث السياسية والدينية	الكتّاب وآباء الكنيسة: سورية–فلسطين وما بين النهرين	مصر	اليونان وآسية الصغرى	افريقيا الشمالية	ايطاليا–غاليا–اسبانيا	الأباطرة الرومان: الشرق	الغرب	البابوات
٣١٤	مجمع آرل (القضية الدوناطية)	اوسابيوس					ليقينيوس (٣١٣–٣٢٤)	قسطنطين (٣٠٦–٣٣٧)	سيلفسترس (٣١٤–٣٣٥)
٣١٨	إدانة آريوس في الاسكندرية								
٣٢٥	مجمع نيقية	كيرلس الاورشليمي				هيلاريوس			
٣٢٨	اثناسيوس اسقفًا للاسكندرية	افرام السرياني					قسطنطين (٣٢٤–٣٣٧)		
٣٣٠	تأسيس القسطنطينية								
٣٣٥	إبعاد اثناسيوس . وموت آريوس						قسطنسيوس (٣٣٧–	قسطنطيوس (٣٣٧–٣٥٠)	يوليوس (٣٣٧–٣٥٢)
٣٤٠	ولفيلا اسقفًا (أريوسيًا) للغوط .	ابيفانيوس القبرصي		باسيليوس الكبير؛ غريغوريوس النزينزي؛ غريغوريوس النيصي					
٣٤٣	مجمع سرديك (صوفيا) .								
٣٤٦	موت القديس باخوميوس .					امبروسيوس			
٣٥٠	هيلاريوس اسقفًا لپواتييه						قسطنسيوس (٣٥٠–٣٦١)		ليباريوس (٣٥٢–٣٦٦)
٣٥٥	نفي الاساقفة النيقاويين : ليباريوس وهيلاريوس . . .								
٣٥٦	موت القديس انطونيوس الكبير .					هيرونيمس			
٣٥٩	مجامع محلية تقبل حلولاً وسط مع الاريوسية .								
٣٦١	العفو العام من جانب الامبراطور يوليانس .		تيوفيلس				يوليانس الجاحد (٣٦١–٣٦٣)		
٣٦٣	موت يوليانس الجاحد في الحرب الفارسية .				اوغسطينس				
٣٦٥	مجمع ارمينيا الأول .								دماسيوس (٣٦٦–٣٨٤)
٣٧٠	باسيليوس اسقفًا لقيصرية القبّدوق ، ومرتينس اسقفًا لتور (فرنسا)						ڤالنس (٣٦٤–٣٧٨)	ڤالنتينيانس ١ (٣٦٤–٣٧٥)	
٣٧٤	امبروسيوس اسقفًا لميلانو .			يوحنا الذهبي الفم					
٣٧٨	موت ڤالنس في نكسة اندرينوبوليس .								
٣٨٠	الكاثوليكية دين الدولة .		كيرلس الاسكندري				تيودوسيوس (٣٧٨–)	غراسيانس (٣٧٥–٣٨٣)	
٣٨١	مجمعا القسطنطينية وأكويلا .							ڤالنتينيانس ٢ (٣٨٣–٣٩٢)	سيريقيوس (٣٨٤–٣٩٩)
٣٨٢	هيرونيمس في رومة بقرب البابا دماسيوس								
٣٨٥	إعدام برسقليانس المبتدع .								
٣٨٦	اهتداء اوغسطينس .	تيودوريطس القورشي							
٣٨٩	هيرونيمس في بيت لحم .								تيودوسيوس (٣٩٢–٣٩٥)
٣٩٠	مذبحة تسالونيقي . اللغة اللاتينية لغة رسمية للطقوس								
٣٩١	تحريم عبادة الأوثان نهائيًا .								
٣٩٥	تقسيم الامبراطورية الرومانية النهائي								
٣٩٦	اوغسطينس اسقفًا لهيبونا							هونوريوس (٣٩٥–٤٢٣)	
٣٩٧	موت امبروسيوس ، ومرتينس اسقفًا لتور						اركاديوس (٣٩٥–٤٠٨)		
٣٩٨	يوحنا الذهبي الفم اسقفًا للقسطنطينية								
٤٠٠	«اعترافات» القديس اوغسطينس								
٤٠٧	موت يوحنا الذهبي الفم – غزوات الجرمانيين الكبرى								اينوقنطيوس (٤٠١–٤١٧)
٤١٠	ألاريك يستولي على رومة وينهبها			سقراط					
٤١١	إدانة بيلاجيوس						ثيودوسيوس ٢		

السنة	الأحداث السياسية والدينية	الكتّاب وآباء الكنيسة: سورية–فلسطين ما بين النهرين	مصر	اليونان وآسية الصغرى	افريقيا الشمالية	ايطاليا–غاليا اسبانيا	الأباطرة الرومان: الشرق	الغرب	الباباوات
٤٢٠	اضطهاد المسيحيين في بلاد فارس								
٤٢٧	انتهاء كتابة اوغسطينس لـ«مدينة الله»								قلستينس
٤٣٠	موت أوغسطينس في هيبونا المحاصرة .		كيرلس الاسكندري				(٤٥٠-٤٠٨)	فالنتنيانس٣	(٤١٧-٤٢٢)
٤٣١	مجمع افسس			أوغسطينس				(٤٥٥-٤٢٥)	
٤٣٢	بداية رسالة القديس بتريك في ايرلندا								
٤٤٩	اجتماع افسس الفاشل								
٤٥١	مجمع خلقيدونية – اتيلا في غاليا .								
٤٥٥	استيلاء جنسيريك على رومة .								
٤٧٦	نهاية الامبراطورية الرومانية في الغرب .	تيودوريطس القورشي							لاون الكبير
٤٧٨	اضطهاد الفندال للكاثوليك .						مرقيانس		(٤٦١-٥٤٠)
٤٨٢	قلوفيس ملك للافرنج						(٤٥٧-٩٥٠)		
٤٨٦	الكنيسة الاشورية تتبع النسطورية .				البابا لاون الكبير	منصور الليريني	لاون الاول	رومولس	
٤٩١	الكنيسة الأرمنية تختار المونوفيزية .						زينون	(٤٧٥-٤٧٦)	
٥٠٠	تعميد قلوفيس .						(٤٩١-٤٧٤)		
٥٠٣	سيزاريوس اسقف آرل .								
٥٢٩	القديس بندكتس في جبل كاسينو يؤسس نظامه الرهباني .								
٥٣٤	مجموعة قوانين يسطنيانس – استعادة يسطنيانس للمناطق المفقودة .						يسطينس (٥٢٧-٥١٨)		سيمّاخس (٥١٤-٤٩٨)
٥٣٧	تدشين كنيسة «الحكمة المقدسة» في القسطنطينية .						انسطاسيوس	تيودوريك	
٥٤٠	قوانين القديس بندكتس .			سيزاريوس اسقف آرل			(٥١٨-٤٩١)	(٥٢٦-٤٩٣)	
٥٤٤	إدانة اوريجانيس						يسطنيانس		
٥٥٣	مجمع القسطنطينية الثاني				البابا غريغوريوس	غريغوريوس التوري	(٥٦٥-٥٢٧)		فيجيليوس
٥٨٧	الغزو الصقلبي للشرق								(٥٥-٥٣٧)
٥٩٦	تبشير اوغسطينس للانكليز .								
									غريغوريوس (٦١٤-٥٩٠)

السنة	الأحداث السياسية والدينية	الدولة الاسلامية	الدولة البيزنطية	الباباوات	اللغة السريانية	القبطية	اليونانية	اللغة اللاتينية لغة كنسية	
					أشهر الكتاب ومؤسّسي الرهبانيات		أشهر حكام الغرب ألمانيا	فرنسا	انكلترا
٦٢٢	الهجرة ، بداية التقويم الاسلامي .		هرقليوس						
٦٣٨	اورشليم في أيدي العرب .		(٦١٥-٦٤١)						
٦٣٩	زحف عمرو بن العاصي على مصر .	الخلفاء الأمويون							
٦٨١	مجمع القسطنطينية الثالث (المسكوني السادس) .	في دمشق							
٧١١	استيلاء العرب على اسبانيا .	(٦٥٠-٧٥٠)	لأون ٣						
٧٣٢	شارل مارتل يوقف العرب عند بواتييه .	العباسيون	(٧١٧-٧٤١)						
٧٥٦	مولد الدولة البابوية .	في بغداد		اسطفانس ٢	بونيفاقيوس				
٧٦٧	مجمع نيقية الثاني (المسكوني السابع)	(٧٥٠-١٢٥٨)		(٧٥٢-٧٥٧)	(٦٨٠-٧٥٤)		شارلمان		
٨٠٠	شارلمان امبراطورًا للغرب .			لأون ٣			(٧٦٨-٨١٤)		
				(٧٩٥-٨١٦)					
٨٤٣	معاهدة فردان (فرنسا - ألمانيا) .			يوحنا ٨					
٨٦٤	كيرلس وميتوديوس مرسلان لدى الشعوب السلافية .			(٨٧٢-٨٨٢)		الحلاّج			
٩١٠	تأسيس دير كلوني .					(٨٥٨-٩٢٢)			
٩٦٢	اوتون امبراطورًا للامبراطورية الجرمانية الرومانية المقدسة .						اوتون الكبير (٩٣٦-٩٧٣)		
٩٦٣	تأسيس أديرة جبل أتوس .								
٩٦٧	عماد دوق بولندا ، مياسكو .								
٩٨٩	عماد ڤلاديمير أمير كييف .		باسيليوس ٢						
١٠٠١	اسطفانس ملكًا للمجر .		(٩٧٦-١٠٢٥)	سيلفسترس					
١٠٥٤	الانشقاق بين الكنيسة البيزنطية والكنيسة الرومانية .			(٩٩٩-١٠٠٣)	انسلمس				
١٠٥٩	قرار انتخاب البابا من قبل الكرادلة .				(١٠٣٣-١١٠٩)		هنري الرابع		
١٠٧١	الاتراك السلاجقة يهزمون البيزنطيين في منذكرت .			غريغوريوس ٧			(١٠٥٦-١١٠٦)		غليوم الفاتح
١٠٧٥	قرارات الاصلاح لغريغوريوس السابع .	الأتراك		(١٠٧٣-١٠٨٥)					(١٠٦٦-١٠٨٧)
١٠٧٧	خضوع هنري الرابع الجرماني في كنوسّا .	السلاجقة	الكسيس						
١٠٨٤	تأسيس دير الشارتر .		كومنين	أربانس ٢					
١٠٩٥	في كليرمونت : البابا اربانس الثاني يدعو الى الجهاد .		(١٠٨١-١١١٨)	(١٠٨٨-١٠٩٩)					
١٠٩٨	تأسيس رهبانية «السيتو (السسْترسيين) .								
١٠٩٩	استيلاء الصليبيين على القدس .								
١١٢٢	معاهدة ڤورمس (نهاية الجدال حول حق تعيين الاساقفة) .				أبيلارد (١٠٧٩-١١٤٢)				
١١٢٣	المجمع اللاتراني الأول .				برنارد دي				
١١٣٩	المجمع اللاتراني الثاني .				كليرفو				
١١٤٠	إدانة أبيلارد .				(١٠٩٠-١١٥٣)				
١١٤٦	برنارد دي كليرفو يدعو الى الحملة الصليبية الثانية .			الكسندرس ٣			فردريك		
١١٧٠	قتل توماس بيكيت في كنتربري .			(١١٥٩-١١٨١)			بربروس		
١١٧٣	ڤالدو ينادي بحياة الفقر في ليون .				ڤالدو		(١١٥٢-١١٩٠)		

السنة	الأحداث السياسية والدينية	الدولة الاسلامية	الدولة البيزنطية	الباباوات	اللغة السريانية / القبطية	اليونانية	اللغة اللاتينية لغة كنسية	
					أشهر الكتاب ومؤسسي الرهبانيات	أشهر حكام الغرب ألمانيا	فرنسا	انكلترا
١١٧٧	خضوع فردريك باربروس في البندقية .							
١١٧٩	المجمع اللاتراني الثالث .							
١١٨٧	جلاء الصليبيين عن اورشليم .	جنكيزخان						
١١٨٩	بداية الحملة الثالثة .	(١١٨٨-١٢٢٧)		اينوقنطيوس ٣	دومينيك (عبد الاحد)			ريتشارد
				(١١٩٨-١٢١٦)	(١١٧٠-١٢٢١)			قلب الاسد
١٢٠٤	الحملة الرابعة - الاستيلاء على القسطنطينية .				فرنسيس الاسيزي			(١١٨٩-١١٩٩)
١٢٠٨	الحملة الصليبية ضد الألبيجيين .				(١١٨١-١٢٢٦)			
١٢٠٩	بداية الفرنسسكان .							
١٢١٢	انتصار الاسبان .							
١٢١٥	المجمع اللاتراني الرابع .			هونوريوس ٣				
١٢١٦	اعتماد رهبانية «الاخوة الكارزين» .			(١٢١٦-١٢٢٣)		فريدريك	لويس التاسع	
١٢٣٢	بداية مجمع التفتيش .				بونافنتورا	الثاني	(١٢٢٦-١٢٧٠)	
					(١٢٢١-١٢٧٤)	(١٢١٦-١٢٥٠)		
١٢٣٧	المغول يغزون أوروبا .				توما الاكويني			
١٢٤٥	مجمع ليون الأول .			اينوقنطيوس ٤	(١٢٢٧-١٢٧٤)			
١٢٦١	عودة الامبراطورية البيزنطية .		ميخائيل	(١٢٤٣-١٢٥٤)				
١٢٧٠	موت القديس لويس في تونس .		باليولوغس		ماركو بولو (١٢٥٤-١٣٢٤)			
١٢٧٤	مجمع ليون الثاني .	حكم المغول	(١٢٦١-١٢٨٢)	غريغوريوس ١٠	اكهارات (١٢٦٠-١٣٢٧)		فيليب الجميل	
		في الصين		(١٢٧١-١٢٧٦)			(١٢٨٥-١٣١٤)	
١٢٩١	الجلاء عن الأراضي المقدسة-الكونفدرالية السويسرية .	(١٢٧٩-١٣٦٨)		بونيفاقيوس ٨				
١٣٠٢	البراءة البابوية «واحدة مقدسة Unam Sanctam .			(١٢٩٤-١٣٠٣)	اوكام († ١٣٥٠)-			
١٣١١	مجمع ڤيينا : إلغاء نظام الفرسان الهيكليين» .			باباوات افينيون	غريغوريوس بالاماس			
				(١٣٠٥-١٣٧٧)	(† ١٣٥٠)-			
١٣٣٧	بداية حرب المئة عام .				نيقولا كاباسيلاس († ١٣٧١)			ادوارد ٣
١٣٤٨	وباء الطاعون الأسود .				كاترينا السيانية		شارل الخامس	(١٣٢٧-١٣٧٧)
١٣٧٨	بداية الانشقاق الكبير .			الانشقاق الكبير	(١٣٤٧-١٤١٧)		(١٣٦٤-١٣٨٠)	
١٤١٠	البولنديون يهزمون الفرسان التوتونيين .			(١٣٨٧-١٤١٧)	سرجيوس († ١٣٩٢)	سيجسموند		
١٤١٤	بداية مجمع قسطنس .				حناهوس (١٣٦٩-١٤١٥)	(١٤١١-١٤٣٧)		
١٤١٥	الحكم بإحراق يوحنا هوس في قسطنس .							
١٤٣١	احراق جان دارك في روان / مجمع بال .			اوجانيوس ٤				
١٤٣٩	مجمع فلورنسا بين اللاتين واليونانيين .			(١٤٣١-١٤٤٧)				
١٤٤٨	استقلال الكنيسة الروسية عن البيزنطية .	الأتراك العثمانيون	قسطنطين ١٢					
١٤٥٣	سقوط القسطنطينية في يد الأتراك ونهاية حرب المئة عام بين فرنسا وانكلترا .	محمد الثاني الفاتح (١٤٥١-١٤٨١)	(١٤٤٩-١٤٥٣)					شارل السابع (١٤٢٢-١٤٦١)

سنة	أحداث تاريخيّة	مؤسّسو رهبانيات/كتّاب	باباوات	ملوك
١٤٥٥	طبع الكتاب المقدّس، على يد غوتنبرغ، في ماينز	ايراسمُس		**فرنسا :**
١٤٧٨	إقامة محاكم التفتيش الإسبانيّة	١٥٣٦-١٤٦٩	الكسندرس ٦ً	فرنسيسس الأول
١٤٩١	اعتماد ملك الكونغو، بهمّة البرتغاليين		١٥٠٣-١٤٩٢	١٥٤٧-١٥١٥
١٤٩٢	الاستيلاء على غرناطة من قبَل الملوك الكاثوليك ؛	ميكيل-أنجيلو		هنري ٢ً
	كريستوفورو كولومبو يكتشف أميركا	١٥٦٤-١٤٧٥		١٥٥٩-١٥٤٧
١٤٩٣	الكسندرس ٦ً يقسّم العالم على إسپانيا والبرتغال	توماس مور		
١٤٩٨	وصول البرتغاليين إلى الهند (ڤاسكو ده جاما)	١٥٣٥-١٤٧٨	يوليوس ٢ً	هنري ٣ً
١٥٠٠	اكتشاف البرازيل على يد البرتغاليين	رفّائيلو	١٥١٣-١٥٠٣	١٥٨٩-١٥٧٤
١٥٠٦	بداية تشييد كنيسة القدّيس بطرس في رومة	١٥٢٠-١٤٨٣	لاون ١٠ً	هنري ٤ً
١٥١١	كتاب «مدح الجنون» لإيراسمس		١٥٢١-١٥١٣	١٦١٠-١٥٨٩
١٥١٦	كتابا «العهد الجديد» لايراسمس و«الاوتوپيا» لتوماس مور ؛	لوثر		
	معاهدة بولونيا الدينية بين البابا وفرنسا	١٥٤٦-١٤٨٣		**انكلترا :**
١٥١٧	نهاية مجمع اللاتران الخامس ؛ «٩٥ قضيّة» للوثر	زڤنغلي		هنري ٨ً
١٥١٩	استيلاء كورتيس على المكسيك وماجيلان : حول العالم	١٥٣١-١٤٨٤	هدريانس ٦ً	١٥٤٧-١٥٠٩
١٥٢٠	كتابات لوثر الاصلاحية الكبرى		١٥٢٣-١٥٢٢	إليزابيث الأولى
١٥٢١	حرم لوثر واجتماع ڤورمْس	توماس منتسر	اقليمنضس ٧ً	١٦٠٣-١٥٥٨
١٥٢٤	حرب الفلاّحين في ألمانيا	١٥٢٥-١٤٨٩	١٥٣٤-١٥٢٣	
١٥٢٥	موت مينتسر وزواج لوثر	إغناطيوس دي لويولا		**إسپانيا :**
١٥٢٩	أنصار الاصلاح «يحتجون» في سپيرا	١٥٥٦-١٤٩١		فرديناند
١٥٣٠	«شهادة» إيمان اوغسبورغ		بولس ٣ً	وإيزابل
١٥٣٤	أنصار إعادة العماد في مينستر ؛ إغناطيوس دي لويولا :	ميلنغتس	١٥٤٩-١٥٣٤	١٥١٦-١٤٧٩
	نذر مونمرتر ؛ انكلترا : تصرّفات تدلّ على هيمنة سياسيّة	١٥٦٠-١٤٩٧		شارل (الخامس)
١٥٣٥	استشهاد توماس مور	فرنسيس كسفاريوس		١٥٥٦-١٥١٦
١٥٣٦	كتاب «التكوين المسيحي» لكلڤين	١٥٥٢-١٥٠٦		فيلپ ٢ً
١٥٤١	استقرار كلڤين نهائيًا في جنيڤ			١٥٩٨-١٥٥٦
١٥٤٢	مجمع التفتيش في رومة ؛ فرنسيس كسفاريوس في الهند	كلڤين		
١٥٤٥	بداية مجمع ترنتو	١٥٦٤-١٥٠٩	يوليوس ٣ً	**الإمبراطوريّة :**
١٥٤٩	فرنسيس كسفاريوس في اليابان	تيريزا الآبيلية	١٥٥٥-١٥٥٠	شارل الخامس
١٥٥١	الفترة الثانية لمجمع ترنتو	١٥٨٢-١٥١٥	بولس ٤ً	١٥٥٦-١٥١٩
١٥٥٥	سلام أوغسبورغ الديني		١٥٥٩-١٥٥٥	فيرديناند الأوّل
١٥٥٧	البُرتغاليون في مكاو	فيلبّس نيري	پيوس ٤ً	١٥٦٤-١٥٥٦
١٥٥٩	السينودس الاصلاحي (الكلڤيني) في باريس	١٥٩٥-١٥١٥	١٥٦٥-١٥٥٩	
١٥٦٢	بداية الحروب الدينية في فرنسا	بطرس كانيزيوس	پيوس ٥ً	رودولف ٢ً
١٥٦٣	نهاية مجمع ترنتو	١٥٩٧-١٥٢١	١٥٧٢-١٥٦٦	١٦١٢-١٥٧٦
١٥٦٦	كتاب «التعليم المسيحي» الروماني		غريغوريوس ١٣ً	
١٥٧٠	كتاب «القدّاس الرومانيّ»	خوان دي لا كروث	١٥٨٥-١٥٧٢	**روسيا**
١٥٧١	انتصار ليپانتو البحريّ على الأتراك	١٥٩١-١٥٤٢		إيڤان ٣ً
١٥٧٢	مذبحة سان برتولومي	روبرتس بلّرميني	سكْستُس ٥ً	١٥٠٥-١٤٦٢
١٥٨٢	اليسوعيّ متى ريتشي في الصين	١٦٢١-١٥٤٢	١٥٩٠-١٥٨٥	إيڤان ٤ً الرهيب

سنة	أحداث تاريخيّة	مؤسّسو رهبانيات/كتّاب	باباوات	ملوك
١٦٠٠	حرق جردانو برونو	فرنسيس دي سال	بولس ٥ً	بوريس جودونوف
١٦٠٦	اليسوعي نوبيلي في الهند	١٦٢٢-١٥٦٧	١٦٢١-١٦٠٥	١٦٠٥-١٥٨٨
١٦٠٨	«المدخل إلى الحياة التقويّة» لفرنسيس دي سال ؛ تأسيس كوبيك			فرنسا :
١٦١٠	التقسيم الأول للباراغواي	بيرول		لويس ١٤ً
١٦١٥	قبول قراءات مجمع ترنتو في فرنسا	١٦٢٩-١٥٧٥		١٧١٥-١٦٤٣
١٦١٦	محاكمة غاليليو الأولى	منصور دي پول	اربانس ٨ً	لويس ١٥ً
١٦١٨	بداية حرب الثلاثين عامًا	ماري دي لانكرناسيون	١٦٤٤-١٦٢٣	١٧٧٤-١٧١٥
١٦٢٢	تأسيس جمعية نشر الإيمان	١٦٦٠-١٥٨١	اينوقنطيوس ١٠ً	لويس ١٦ً
١٦٣٣	محاكمة غاليليو الثانية ، رهبانية بنات المحبّة	پسكال	١٦٥٥-١٦٤٤	١٧٩٢-١٧٧٤
١٦٤٠	كتاب «أوغسطينس» لجانسينيوس	١٦٦٢-١٦٢٣	الكسندرس ٧ً	الجمهوريّة الأولى
١٦٤٨	معاهدة ڤيستفاليا		١٦٦٧-١٦٥٥	١٧٩٩-١٧٩٢
١٦٥٣	إدانة «القضايا الخمسة»	بوسييه	اينوقنطيوس ١١	
١٦٥٩	إقامة النواب الرسوليين	١٧٠٤-١٦٢٧	١٦٨٩-١٦٧٦	قنصليّة ناپوليون
١٦٦٣	تأسيس ارساليات پاريس الخارجيّة	سپنْسر		١٨١٤-١٧٩٩
١٦٧٨	كتاب «التاريخ النقديّ للعهد القديم» : تأليف ر . سيمون	١٧٠٥-١٦٣٥		
١٦٨٢	«الفصول الأربعة الغلّيكانيّة»			انكلترا :
١٦٨٣	جان سوبسكي ينقذَ ڤيينّا من الأتراك	ريشارد سيمون	اقليمنضس ١١ً	شارلز الأوّل
١٦٨٥	سحب مرسوم نانْتْ	١٧١٢-١٦٣٨	١٧٢١-١٧٠٠	١٦٤٩-١٦٢٥
١٦٩٩	إدانة كتاب «أقوال القدّيسين» لفينيلون			
١٧٠٤	إدانة الطقسين الصيني والملباري	لايبنيز		كروموِيل
١٧١٣	البراءة «الابن الوحيد»	١٧١٦-١٦٤٦		١٦٥٨-١٦٤٩
١٧١٧	المحفل الماسونيّ الأوّل في لندن	جان غيّون	بندكتس ١٤ً	جورج ٣ً
١٧٢٣	الانفصال الجانسيني في اوترخْتْ	١٧١٧-١٦٤٨	١٧٥٨-١٧٤٠	١٨٢٠-١٧٦٠
١٧٢٧	إعادة تكوين الإخوة المورافيين على يد تسنْتْسنْدورف			إسپانيا :
١٧٣٨	«اهتداء» جون وسْلي	فينيلون		كارلس ٢ً
١٧٥٠	معاهدة الحدود في پاراغواي	١٧١٥-١٦٥١		١٧٠٠-١٦٦١
١٧٥١	بداية نشر «الموسوعة»	ڤولتر	اقليمنضس ١٤ً	
١٧٥٥	زلزال لشْبونة (البرتغال)	١٧٧٨-١٦٩٤	١٧٧٤-١٧٦٩	فيلپ ٥ً
١٧٥٩	طرد اليَسوعيين من البرتغال على يد پُمْبال			١٧٤٠-١٧٠٠
١٧٦٣	معاهدة پاريس : خروج فرنسا من كندا	الفونسو دي ليغوري	پيّوس ٦ً	امبراطوريّة النمسا :
١٧٦٦	لجنة النظاميين في فرنسا	١٧٨٧-١٦٩٦	١٧٩٩-١٧٧٥	ليوپولد الأوّل
١٧٧٣	البابا يحلّ الرهبانية اليسوعية			١٧٠٥-١٦٥٨
١٧٧٦	استقلال الولايات المتّحدة الاميركية	تْسنتْسنْدورف		ماري-تريز
١٧٨٦	سينودس پستْوا	١٧٦٠-١٧٠٠		١٧٨٠-١٧٤١
١٧٨٩	بداية الثورة الفرنسية			جوزيف ٢ً
١٧٩٠	الوضع المدنيّ للاكليرس	ويسلي		١٧٩٠-١٧٨٠
١٧٩٢	الحرب الفرنسيّة النمساويّة ؛ مذبحة ايلول (سبتمبر)	١٧٩١-١٧٠٣		
١٧٩٣	رعب القضاء على المسيحيّة			پروسيا :
١٧٩٥	الفصل بين الكنيسة والدولة في فرنسا	روسّو	پيّوس ٧ً	فريدريك
١٧٩٧	المجمع الوطني للكنيسة التشريعيّة	١٧٧٨-١٧١٢	١٨٢٣-١٨٠٠	١٧٨٦-١٧٤٠

سنة	أحداث تاريخيّة
١٧٩٩	موت بيّوس ٦ في ڤالَنْسيا
١٨٠١	معاهدة دينيّة بين فرنسا والكرسي الرسوليّ
١٨٠٤	تتويج نابوليون على يد بيّوس ٧ في باريس
١٨٠٨	احتلال رومة على يد الفرنسيين
١٨٠٩	القبض على بيّوس ٧
١٨١٣	معاهدة فونتنْبلو الدينيّة
١٨١٤	تنازل نابوليون عن العرش ؛ إعادة الرهبانيّة اليسوعيّة
١٨١٥	الأيّام المئة ؛ إعادة البناء
١٨١٧	كتاب «دراسة في اللامبالاة» للامنيه
١٨١٩	كتاب «في البابا» لجوزيف ده مسْتر
١٨٢٢	في ليون ، تأسيس جمعيّة نشر الإيمان
١٨٣٠	ثورة في فرنسا ؛ كتاب «المستقبل» للامنيه
١٨٣١	تمرّد في پولندا ؛ تمرّد عمّال صناعة الحرير في ليون
١٨٣٢	الرسالة العامة «انظروا» لغريغوريوس ١٦
١٨٣٣	جمعيّة القدّيس منصور دي پول ؛ حركة أكسفورد
١٨٣٤	تمرّد عمّال صناعة الحرير ؛ كتاب «كلمة المؤمن»
١٨٣٦	كتاب «حياة يسوع» ، تأليف د .-ف . شتراوس
١٨٤٢	بداية الاتّفاقات غير المتكافئة في الصين (نانكين)
١٨٤٥	مجاعة في ايرلندا ؛ نيومن يصبح كاثوليكيًا
١٨٤٨	ثورات في اوروبا ؛ «العصر الجديد» ؛ أيّام حزيران (يونيو) في باريس ؛ البابا يهرب من رومة
١٨٤٩	الجمهوريّة الرومانيّة
١٨٥٠	قانون فالّو حول التعليم في فرنسا
١٨٥١	انقلاب لويس نابوليون ٢ كانون الأوّل (ديسمبر)
١٨٥٢	مجمع بلتيمور العام ؛ نابوليون ٣ إمبراطورًا
١٨٥٤	حرب القرم ؛ عقيدة براءة مريم من الخطيئة الأصلية
١٨٥٨	ظهور العذراء في لورد
١٨٥٩	كتاب «في أصل الأنواع» لداروين
١٨٦٠	بتر الدويلات البابوية : توحيد إيطاليا
١٨٦١	حرب الانفصال ؛ مملكة إيطاليا
١٨٦٤	التمرّد البولندي ؛ حياة يسوع لرينان
١٨٦٣	المؤتمر العمّالي العالميّ الأوّل ؛ كتاب «سيلابّس» (قانون الإيمان)
١٨٦٦	حرب بين بروسيا والنمسا (سادووا)
١٨٦٧	كتاب «رأس المال» لكارل ماركس
١٨٦٨	عصر ميجي في اليابان
١٨٦٩	افتتاح المجمع الڤاتيكاني الأوّل
١٨٧٠	تحديد عقيدة عصمة البابا ؛ الحرب الفرنسيّة الألمانيّة ؛ نهاية الدولة البابوية
١٨٧١	الحكم المحلّي في پاريس ؛ الكاثوليك القدامى ؛ حركة النوادي
١٨٧٣	«بداية الصراع الثقافيّ»

مؤسّسو رهبانيات/كتّاب

ديديرو ١٧١٣-١٧٨٤
بنتوا لابر ١٧٤٨-١٧٨٣
ج . دي ميستر ١٧٥٣-١٨٢١
لامنيه ١٧٨٢-١٨٥٤
ميني ١٨٠٠-١٨٧٥
نيومن ١٨٠١-١٨٩٠
ليبرمان ١٨٠٢-١٨٥٢
لاكوردير ١٨٠٢-١٨٦١
ديبانلو ١٨٠٢-١٨٧٨
مينيغ ١٨٠٨-١٨٩٢
مونتَلَمبر ١٨١٠-١٨٧٠
كتّلر ١٨١١-١٨٧٧
اوزانام ١٨١٣-١٨٥٣
ڤويو ١٨١٣-١٨٨٣
كارل ماركس ١٨١٨-١٨٨٣

باباوات

لأون ١٢ ١٨٢٣-١٨٢٩
بيّوس ٨ ١٨٢٩-١٨٣٠
غريغوريوس ١٦ ١٨٣١-١٨٤٦
بيّوس ٩ ١٨٤٦-١٨٧٨

ملوك

روسيا :
بطرس الكبير ١٦٨٢-١٧٢٥
كاترينا ٢ ١٧٦٢-١٧٩٦

فرنسا :
لويس ١٨ ١٨١٤-١٨٢٤
شارل ١٠ ١٨٢٤-١٨٣٠
لويس فيلب ١٨٣٠-١٨٤٨
الجمهوريّة الثانية ١٨٤٨-١٨٥٢
نابوليون ٣ ١٨٥٢-١٨٧٠
الجمهوريّة الثالثة ١٨٧٠-١٩٤٠

انكلترا :
ڤكتوريا ١٨٣٧-١٩٠١

النمسا :
فرانسوا جوزيف ١٨٤٨-١٩١٦

سردينيا-إيطاليا :
كارلو-ألبرْتو ١٨٣١-١٨٤٩
ڤيتّوريو-إيمّانويل ١٨٤٩-١٨٧٨

پروسيا-ألمانيا :
فريدريك-غليوم ٤ ١٨٤٠-١٨٦١

سنة	أحداث تاريخيّة
١٨٧٥	تحرير التعليم العالي الكاثوليكيّ في فرنسا ؛ إقامة الجمهوريّة الثالثة
١٨٨٠	قوانين ضدّ الجمعيّات الدينيّة في فرنسا ؛ المؤتمر القربانيّ العالميّ الأوّل (ليل)
١٨٨١	قوانين مدرسيّة في فرنسا
١٨٨٢	إنشاء جريدة «لاكروا»
١٨٨٤	قوانين في فرنسا تجيز إقامة النقابات والطلاق؛ جماعة الدراسات الاجتماعيّة في فرايبرغ
١٨٨٥	التقسيم الاستعماري لأفريقيا (مؤتمر برلين)
١٨٨٦	تأسيس الشبيبة العاملة الفرنسيّة المسيحيّة
١٨٨٧	النقابات المسيحيّة الأولى
١٨٩٠	نخب الجزائر ؛ المدرسة الكتابيّة في اورشليم
١٨٩١	الرسالة البابوية العامة «الشؤون الجديدة»
١٨٩٢	الرسالة البابوية العامة : «وسط الاهتمامات» ؛ «هدنة»
١٨٩٣	كتاب «العمل» لموريس بلونديل
١٨٩٦	الإعلان أن الرسامات الأنكليكانيّة غير صحيحة
١٨٩٨	مسألة درايفُس ؛ تأسيس حركة العمل الفرنسيّ
١٩٠٠	تمرّد البوكسر في بيكين
١٩٠١	قانون خاص بالتجمّعات والجماعات الدينيّة في فرنسا
١٩٠٢	كتاب «الإنجيل والكنيسة» للوازي
١٩٠٥	الفصل بين الكنيسة والدولة في فرنسا
١٩٠٧	رسالتان بابويتان عامّتان «باحتجاج» ، «برعاية» ؛ إدانة العصرنة
١٩١٠	إدانة «الاخدود» ؛ القسم الخاص برفض العصرنة؛ مؤتمر الإرساليات البروتستانتيّة في ايدنبورغ
١٩١٤	بداية الحرب العالميّة الأولى (١٩١٤-١٩١٨)
١٩١٥	مذابح الأرمن في تركيا
١٩١٧	الثورة الروسيّة ؛ عروض سلام من بندكتس ١٥
١٩١٩	ظهور «الاتحاد الفرنسيّ للعمّال المسيحيين» ، رسالة «أعظم من هذا»
١٩٢١	عودة العلاقات الديپلوماسيّة بين الڤاتيكان وفرنسا
١٩٢٥	اجتماع في ستوكهولم لهيئة «الحياة والعمل»
١٩٢٦	الشبيبة المسيحيّة العاملة ؛ الأساقفة الصينيون؛ إدانة «العمل الفرنسي»
١٩٢٧	اجتماع هيئة «الإيمان والتنظيم» في لوزان
١٩٢٩	اتّفاق اللاتران ؛ أزمة اقتصاديّة في الولايات المتّحدة
١٩٣١	الرسالتان العامتان «السنة الأربعون» ؛ «لسنا في حاجة إلى هتلر في
١٩٣٣	السلطة» ؛ معاهدة دينيّة مع ألمانيا
١٩٣٦	الجبهة الشعبيّة في فرنسا ؛ الحرب الأهليّة في إسپانيا
١٩٣٧	الرسالتان العامتان «باهتمام بالغ» ؛ «المخلّص الإلهيّ»
١٩٣٩	بداية الحرب العالميّة الثانية
١٩٤٣	مذابح اليهود ؛ فرنسا ، بلد ارساليات؟
	هيروشيما ؛ نهاية الحرب

مؤسّسو رهبانيات/كتّاب

- رينان ١٨٢٣-١٨٩٢
- لاڤيجيري ١٨٢٥-١٨٩٢
- جبُّون ١٨٣٤-١٨٢١
- ايرلندا ١٨٣٨-١٩١٨
- أ . لوازي ١٨٥٧-١٩٤٠
- شارل دي فوكو ١٨٥٨-١٩١٦
- م . بلونديل ١٨٦١-١٩٤٩
- هـ . بريمون ١٨٦٥-١٩٣٣
- پ . كلوديل ١٨٦٨-١٩٥٥
- تيريزا الطفل يسوع ١٨٧٣-١٨٩٧
- أ . شڤايتسر ١٨٧٥-١٩٦٥
- ج . كرداين ١٨٨٢-١٩٦٧
- ج . مريتان ١٨٨٢-١٩٧٣
- ر . بولتمن ١٨٨٤-١٩٧٦
- ر . غوارديني ١٨٨٥-١٩٧٠
- ف . مورياك ١٨٨٥-١٩٧٠

باباوات

- لاون ١٣ ١٨٧٨-١٩٠٣
- پيّوس ١٠ ١٩٠٣-١٩١٤
- بندكتس ١٥ ١٩١٤-١٩٢٢
- پيّوس ١١ ١٩٢٢-١٩٣٩
- پيّوس ١٢ ١٩٣٩-١٩٥٨

ملوك

- غيلوم الأوّل ١٨٦١-١٨٨٨
- **روسيا :** نيقولاس الأوّل ١٨٢٥-١٨٥٥
- الكسندر ٢ ١٨٥٥-١٨٨١
- الكسندر ٣ ١٨٨١-١٨٩٤
- **ألمانيا :** غيلوم ٢ ١٨٨٨-١٩١٨
- جمهوريّة ڤايمار ١٩١٩-١٩٣٣
- هتلر ١٩٣٣-١٩٤٥
- **انكلترا :** جورج ٦ ١٩٣٦-١٩٥٢
- اليزابث ٢
- **الولايات المتّحدة :** روزڤلت ١٩٣٣-١٩٤٥
- كيندي ١٩٦١-١٩٦٣
- **فرنسا :** الدولة الفرنسيّة ١٩٤٠-١٩٤٤
- الجمهوريّة الرابعة ١٩٤٥-١٩٥٨
- **الاتّحاد السوڤياتي :** ستالين ١٩٢٤-١٩٥٣

سنة	أحداث تاريخيّة	مؤسّسو رهبانيات/كتّاب	باباوات	ملوك
١٩٤٨	المجلس المسكونيّ للكنائس ؛ الستار الحديديّ	كارل بارث		إسپانيا :
١٩٤٩	منع التعاون مع الشيوعيين	١٨٨٦-١٩٦٨		فرانكو
	الجمهوريّة الشعبيّة في الصين	پ. تيليش		١٩٣٨-١٩٧٥
١٩٥٠	رسالة عامة «الجنس البشريّ» ؛ عقيدة انتقال العذراء	١٨٨٦-١٩٦٥		
١٩٥٤	إلغاء حركة الكهنة العمّال			البرتغال :
١٩٥٦	القضاء على الستالينيّة ؛ الانتفاضة المجريّة	ايمانويل مونييه	يوحنّا ٢٣	سلازار
١٩٥٨	بداية الجمهوريّة الخامسة في فرنسا	١٩٠٥-١٩٥٠	١٩٥٨-١٩٦٣	١٩٣٢-١٩٧٠
١٩٦٠	استقلال المستعمرات الفرنسيّة			
١٩٦١	الرسالة العامة «أمّ ومعلّمة»	ديتريش بونيفر		الصين :
١٩٦٢	استقلال الجزائر ؛ بداية المجمع الڤاتيكانيّ الثاني	١٩٠٦-١٩٤٥	بولس ٦	ماو-تسي-تونغ
١٩٦٣	«الوكيل» ؛ الرسالة العامة «السلام في الأرض»	مارتن لوثر كينغ	١٩٦٣-١٩٧٨	١٩٤٩-١٩٧٦
١٩٦٥	نهاية المجمع الڤاتيكانيّ الثاني	١٩٢٩-١٩٦٨		
١٩٦٧	الرسالة العامة «تقدّم الشعوب» ؛ سينودس الأساقفة الأوّل		يوحنّا بولس الأول	
١٩٦٨	حركة ايار (مايو) ؛ رسالة «الحياة الانسانيّة» ؛ ميدلّين		١٩٧٨	
١٩٧٤	تيزيه : مجمع الشباب ؛ السينودس الرابع ؛ التبشير		يوحنا بولس الثاني	

منشورات :
دار المشرق ش م م
ص.ب: ٩٤٦ - بيروت ، لبنان

التوزيع :
المكتبة الشرقية - ساحة النجمة
ص.ب: ١٩٨٦ - بيروت . لبنان